COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0051710820

DATE DUE

FEB 18 2014

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الأول

تصفو الحياة لجاهل أو غافل   عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه   ويسومها طلب المحال فتطمع

«المتنبي»

١٣٦٧ هـ   مطبعة الترقي بدمشق   ١٩٤٨ م

956.9
K9653
v.1-2

26708F

روح المذكرات

ليس الموضوع الذي اعالجه (١) الآن ذا مكانة كبرى في ذاته ، إذا نُظر اليه أنه مذكرات شخصية ، كتبها رجل ما كان في مقام تشخص اليه أبصار العالم ، ولا هو من أمة كان له التقديم والتأخير في مجرى سياستها .

أنا أعرف أنه ما كان لبلادي إلى عهد قريب كيان تُعرف به في العرف الدولي ، ولا هي من إحكام الأمر بحيث يرهب بأسها ويسمع صوتها ، ولا هي من العلم والفن بحيث يُمَكَّنُ لها في مجالس العلماء ، ولا هي رابحة الصفقة في أسواق الحضارة ، فيتنافس العارفون في اقتناء بدائعها وأعلاقها . وأعلم أن من الأشياء ما يكبر بكبر مصدره ، ومن الرجال من يعظم في العيون بقدر ما لأمته من عظمة .

أصوِّر بهذا التقييد طائفة ممن عشت بينهم صورة صادقة ، وأدوِّن كل حق عرفته ، ليشاركني أبناء هذا الجيل والذي بعده في الانكار على من أضجروني بقصورهم ، وآلموني بغرورهم .

كتبت كتباً كان الجدّ سُداها ولحمتها ، وما جوَّزت لنفسي الحياد عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيين المتقدمين والمتأخرين ، وأريد هنا أن أنزع قيوداً أثقلتني وأنا أراعيها ، وأن أبعد عن ذاك الطراز المقيد ، وأخرج إلى هذا الاسلوب المطلق .

احاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرّها ،

---

(١) كنت أحرص في هذه المذكرات على ألا أتكلم عن نفسي ، وألا أقول قلت وفعلت ، فتعذر ذلك لأن أكثر ما فيها مما سمعته أذناي ، ورأته عيناي ، ووعته نفسي ، فمن الصعب ذكره مجرداً من سامعه ورائيه وواعيه ، وهوّن عليّ هذا الأسلوب أن رأيتني لم آت بدعاً ، وتابعت طريقة من سبقوني من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات .

وكرعت خلها وخمرها ، أن أهزل أحياناً ، وأسخر أحياناً ، وأضحك أحياناً ، وأبكي أحياناً ، لأن نفسي سئمت التزام الجد ، وتبرمت من الاضطراب فيه زمناً طويلاً ، وطبيعتي تعصي على العيش الرتيب .

ورجائي ألا يبادر القارئ في الحكم عليَّ ، فيتهمني أني أكتب صحيفة في التشاؤم ، والتشاؤم يكثر في الشيوخ ، فأنا وان قضيت شطراً كبيراً من العمر في سلطان التفاؤل ، لا أتفاءل ولا أتشاءم . وأفضل جهدي أن أزن الأشياء بمقاديرها ، وأن أعطي كل أمرئ حقه .

وامنية النفس يوم تنشر هذه المذكرات ألا يشمئز منها تاليها وسامعها كثيراً ، وأنا إلى هذا لا أطمع أن يجمع الملأ على استحسانها ، فتلك بغية ما تمت حتى الآن لتأليف ، ومن أين لصفحات محدودة أن تستوفي عامة شهوات النفوس .

ربما يتألم بعض من عرضت لذكرهم بما قد يسخطهم ، فأنا لا أحفل غضبهم ، ولا أسعى إلى رضاهم . ولعلي تعمدت أحياناً هتك سترهم لأنهم يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة لا يبالون .

وإذا كنت لم استخذِ أمام من كان في أيديهم النفع والضر ، فأنا لا أصانع من لا يرضيهم إلا سكوتي عن مساويهم . دأبت على قتال الأردياء ، والشبابُ غضٌّ ، والرغبة في اطالة حبل الأجل عظيمة ، حريٌّ بي ألا أكف عنهم ، وأنا أطوي آخر مراحل العمر ، وأنفض اليد من بهرج الحياة .

قصدت بما دونت التحذير من دَجل الدجالين ، والتنبيه على أحابيل المبطلين ، والعمل على مكافحة الظالمين ، ليُعرف أن كل جيل لا يخلو من دعاة يحلو لهم الجهر بالحق مهما جَشَّمهم ، ومن أفضل الطرق اليه ضرب السفهاء في وجوههم بعيوبهم .

جربت السكوت عمن لم يأتوا ببرهان واحد على حبهم الخير ، وما جنيت من الاغضاء الا البلاء .

الجهر بالحق ، ومقاومة الظلم ، من أول مراتب النهوض ، « والساكت عن الحق شيطان أخرس » .

لقب أسرتنا

تفضل رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالنيابة رصيفي الدكتور فارس نمر باشا يوم افتتاح مؤتمر الدورة الثالثة عشرة وسألني في الملإ بعد أن تكلمت في المضافات والمنسوبات أن أكشف الغطاء عن حقيقة اسم اسرتنا « كرد علي » ، وأذكر الأصل في هذه النسبة وهذه الاضافة فوعدته باجابة طلبه وان أحل هذا اللغز الغامض الذي طالما كان موضع أخذ ورد ، كنت فيها في مصيبة ، ومصائب الدنيا كثيرة ومن جملتها هذا الاسم .

جاء جدي من مدينة السليمانية من بلاد الاكراد (شمال العراق) وسكن دمشق قبل نحو ١٥٠ سنة وامي شركسية من ققفاسيا فأنا على رغم أنف من آمن وكفر من جنس آري لا يقبل النزاع ، وليس للغربي ولا للشرقي ما يقول في دمي . سماني أبي محمداً وكناني بفريد ، فلما دخلت المدرسة الثانوية سألني الناظر التركي من أي محلة أنا ، وكان من عادتهم أن ينسبوا التلميذ إلى حيه الذي يسكنه ، فحرت في الجواب لأن اسم محلتنا ما كان من الرشاقة بحيث أجوّز لنفسي أن يطلق عليّ اسمه « زقاق البرغل » فقلت له أنا من التعديل ، اسم محلة أخرى كان يسكنها أبي لما كان طفلا ، فكنت محمد تعديل ، ست سنين مدة الدراسة الثانوية ، ولما وظفت في الحكومة لم يرض رئيس الديوان أن يعيدني إلى اسم اسرتي فاكتفى بمحمد فريد وحذف اسم عائلتي على عادة الاتراك ، ولما بدأت أكتب في الصحف كان أقصى همي أن أعود إلى اسمي الأول وإلى لقب بيتنا القديم فأصبحت « محمد كرد علي » واغتبطت ان حافظت عليه طول عمري وبه اشتهرت .

واستبان لي بعد ذلك أن في الناس من يحيدون جاهلين أو متجاهلين

عن اطلاق الاسم الذي اخترته ، ومنهم من يحب المناكدة أو لا يحفظ اسماً ولو كررته على مسامعه ألف مرة ، فما لبث بعض من عرفوني حتى في أيام ظهوري في الرياسات والوزارات ان تداخلوا في صيغة اسمي يحاولون أن يبدلوه بما يتراءى لهم فعدت إلى البلاء الذي اصبت به في العقد الثاني من عمري ، وكنت أظن بعد أن ربحت معركة الاسماء أنني نجوت مما لم ينجُ منه المصريون في التسمية ، لقد أضاعوا انسابهم وأصيبوا ببلبلة عظيمة كادت تكون هزلا ، وهل من المعقول أن يكون اسم شقيق أحمد زكي باشا ، محمود بك رشاد ، واسم شقيق حسن صبري باشا محمود بك فؤاد ، واسم عم علي ماهر باشا عبد الرحمن بك فهمي ، واسم شقيق محمد بك الخضري عبد الله بك عفيفي ، وان يكون اسماعيل صدقي باشا شقيق عزت بك شكري .

ثم ظللت في كرب من هذا اللقب وهو وان لم استسغه كثيراً لأنه ليس ببليغ ولا فصيح ، لكنني رأيت في المحافظة عليه معنى من معاني الثبات ، وقد صقل على الأيام بعض الشيء . ومن الغريب أن أحد وزراء معارف سورية ما زال يناديني إلى اليوم « محمد علي بك » وأحد وزراء مصر للمعارف أيضاً ما برح يخاطبني « بكردي بك » ، وقد قلت للأول لما سمعته يكرر هذه التسمية : أنت وزير معارف ومفروض فيك الذكاء والمعرفة كيف لم تحفظ اسمي على حقيقته وقد ورد في الكتب والصحف وعلى الألسن مئات الألوف من المرات ، فان كنت لم تتعلم أبسط الأشياء فأي شيء تعلمت بالله عليك ؟ أما وزير معارف مصر فما خلصت من تحريف اسمي في خطابه لي إلا بعد أن هددته بأني سأعمل على تحريف اسمه وأعامله بمثل ما يعاملني ، وأنا على شك إلى الآن فيما إذا كان حفظ اسمي كما انزل ، وكذلك رأيي في وزير الشام . والأنكى من كل هذا وذاك ان هذا المجمع مجمع فؤاد الأول للغة العربية الذي كان لي شرف الانضمام اليه منذ تأسيسه ما برح مكتبه يجود عليَّ باسمي محرفاً ، ويتكرم ويزيد عليه نعتاً أو رتبة

مثل « الفاضل » أو « صاحب العزة » وما رقاني الى أرقى من هذين اللقبين مدة سبع عشرة سنة ، هذا والرئيس والاخوان يخاطبونني بسعادتك وصاحب السعادة وهذه ما أكثر ما أسمعها في مصر من مختلف الطبقات ويزيدون فيها « بك » فتكون سعادة البيك ومن لم ينسوا اني عملت وزيراً مدة طويلة لا يحرموني ، جبر الله كسرهم ، من لقب معاليك وصاحب المعالي . ألقاب بمجموعها ما أحببتها ولا حرصت عليها ، ولطالما عمدت إلى اتقائها بكل حيلة كما حرصت على عهد الترك ألا أتزين برتبهم ، وفعلت في عهد الفرنسيس حتى نجوت من وسام جوقة الشرف . ولطالما أعلنت لمن يؤذونني بالقابهم ان لفظ الاستاذ أحب الألقاب إلى قلبي ، وان ابتذلت حتى صارت تقال للمستجدي في الشوارع ، ولقد جرى على لسان زملائي أعضاء المجمع العلمي العربي أن ينادوني بالاستاذ الرئيس وهذا كان منسجماً مع الحقيقة لكنه سبق ان تكنى به ابن العميد في القدماء وكان لقب كثير من الرؤساء في فارس أزماناً طويلة .

ولقد خلت جمهوريتنا السعيدة من هذا الحرج وقضت الا يطلق بعد الآن على احد من أبنائها الا لفظ « السيد » مهما بلغ من مكانته ، وإذا عنّ لكم ان تعرفوا أصل معنى السيد في اللغة فارجعوا إلى المعاجم تسقطوا على ما تريدون ، والظاهر ان من مضى عليهم زمن طويل وهم يسرحون ويمرحون بألقاب الترك لا يروقهم التخلي عنها ، وإذا خاطبهم مخاطبهم بالسيد يعتبرون ذلك تحقيراً لهم ، ويهللون اذا أضفت إلى خطابك « سعادتك » « دولتك » « معاليك » « فخامتك » ولكن المولعين بهذه التحليات سوف يذهبون من الارض ويخلفهم جيل شعبي جديد يقنع بلفظ « سيد » ويعدها نعمة على العالمين .

وبعد فقد كاد هذا التبلبل في صيغة اسمي ايام الصبا ان يحرمني راتب التقاعد (المعاش) ذلك ان خبثاء في ديوان المالية قالوا ان محمد

فريد الذي كان موظفاً في قلم الامور الأجنبية كان تركياً مات من سنين رحمه الله وان دعواي انني أنا هو غير صحيحة ، وشهد معلمان كانا اخرجا من خدمة المعارف بسوء سيرتها ، فما وسعني الا أن اتيت بشهود عدول من كبار رجال الدولة عرفوني في ذاك الديوان منذ أول نشأتي ومنهم جيراني ولداتي في المدارس ، وما نلت حقي في الراتب بعد هذا الا بايعاز للديوان من مصدر عال لم يسع المالية إلا ان تعطيه على مضض ، وكان من المقاومين في اعطائي ذلك وزيران من وزراء المالية لا يعرفان من أمرها أكثر مما أعرف من علم الكيمياء مثلاً هذا الى ما عرفا به من الأذى لمن لا يشايعهم على أهوائهم .

هذا ما أورثنيه اسمي من الاضطراب وضياع الوقت والاثبات والاشهاد وهاكم الآن ما كتبته في مذكراتي بشأن هذه المعضلة الخطيرة عسى أن يكون فصل الخطاب في هذا الباب ولا احتاج بعدها الى سؤال ولا الى جواب وأخلص أنا من العذاب فلا يطلق عليّ « افندي » ولا « بك » ولا « باشا » ولا « خواجه » ولا « شيخ » ولا صاحب العزة ولا صاحب السعادة ولا صاحب المعالي وبكل هذه الالقاب المشرّفة لقبت وهي ألقاب لا يجوز لي ان انقلدها بعد ان حاربتها بالقلم واللسان .

حاول احد خلّص أصدقائي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ان يبدل كنيتي « كرد علي » ويستعيض عنها بعلي فقط وأخذ يقنعني بذلك زمناً ويكتب لي بها إذا راسلني وحجته ان هذا الاسم من الالقاب المرعبة فاذا أطلق عليّ يؤخذ منه ان صاحبه كردي فظ لا يعرف غير السلب والنهب الى ما شاكل ذلك . وكنت أحاجه في هذا المنى واريده أن يتفضل عليّ بكنية أسرتي يطلقها عليّ في الكتاب والخطاب وأقول له ان في كنى الافرنج والعرب اثقل من كنيتي وأخوف منها ، وان في أجدادنا الماضين من كانت كنيتهم أوحش وأسمج مثل ابن بصاقة وابن ابي كدية وابن كتاكت وابن كينا وابن زبر وابن بهابم وابن فار وكم في الرجال الأجلة من لزمتهم ألقاب قبيحة كمعاوية بن عبد الكريم الضال وانما ضلّ في طريق مكة

وعبد الله بن محمد الضعيف وانما كان ضعيفاً في صحته لا في حديثه

وقد كتب الاستاذ المؤيد إلى صديقي المحبوب الاستاذ رفيق بك العظم في القاهرة ما نصه : « ان الانكشارية كانوا يلقبون الطائشين منهم بألقاب مرعبة مثل قره محمد وكور أحمد ودلي يوسف وبكري مصطفى وبالطه‌جي مسعود وبهلوان أيوب وانجه بيرقدار ، وكرد علي الخ ... ثم انقرضت بانقراضهم واستبدلت الألقاب بمثل مدحت وعزت وبهجت ونشأت عند الاتراك ، ومثل حمدي ووجدي وشهدي عند المصريين ، وتوفيق ورفيق وامثالها عندنا فيقول الترك مثلاً خليل رفعت محمد مدحت أحمد عزت والمصريون محمد حمدي أحمد وجدي والعرب محمد توفيق أحمد رفيق محمد حسن محمد علي الخ ولم يعد يلقب بتلك الألقاب القديمة إلا النادر ممن يوهم لقبه من لا يعرفه انه شخص مرعب ولو كان أرق خلق الله والطفهم . فلو انفذت اليك بطاقة زيارة صحبة خادمك من زائر لا تعرفه وقد وقف بالباب ينتظر الجواب ولما قرأتها وجدت عليها لقباً من تلك الألقاب المفزعة قره‌محمد مثلاً أو بالطه‌جي مصطفى أفلا يأخذك العجب وكيف تتصور هذا الزائر . وبعد فقد جاء في ألفية ابن مالك :

ترخيما احذف آخر المنادى كيا سعا لمن دعا سعادا

أما حذف أول المنادى أو وسطه ففيه نظر وعندي (وان لم يكن لي عند) انه لا بأس به لنتمكن من ترخيم لقب أخينا المشار اليه ... »

هذا وقد وأردت ما تقدم على سبيل العلم أولاً والفكاهة ثانياً والحمد لله خير الأسماء .

ذكريات الطفولة

وما شغفي بالماء إلا تذكراً   لماءٍ به أهلُ الحبيب نزول
وما عشتُ من بعد الأحبة سلوةً   ولكنني للنائبات حمول

يقول العلماء إن من علت بهم السن يذكرون ما وقع لهم وهم أطفال، ذِكرَهم حوادثَ الشباب والكهولة والشيخوخة، ولا يذكرون من الحوادث ما قرب منهم عهده، وأول ما يصابون بنسيانه أسماء الاعلام. وأنا أتذكر حوادث وقعت لي بين السادسة والثامنة من عمري، وأذكر الأشخاص الذين كانوا معي كأني أراهم الآن، وأذكر الزاوية التي كانوا واقفين فيها أو قاعدين، والمقعد الذي جلسوا عليه ولونه وشكله، وأذكر أكثر ما قلت لهم وما قالوه لي، وما تأثرت به نفسي، وجال في خاطري.

استصحبتني والدتي وأنا في السادسة لتزور أسرة الاستاذ الشيخ محمد الطنطاوي (في زقاق النارنجة بمحلة القيمرية بدمشق) وأدخلوها القاعة البرانية التي يجلس فيها الشيخ (السلاملك او المندرة) فوقع نظري لأول مرة على رفوف في الحيطان، مصفوف عليها مجلدات، فشهقت متعجباً مما نظرت وسألت والدتي عن هذه الأشياء التي رأيتها على الجدران فقالت: هذه كتب يقرأ فيها العلماء. فأعجبني هذا المنظر الطريف، وقلت لامي: أنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة.

وكانت أمي تذكرني بما قلت كلما أرادت أن تبعث همتي على حفظ دروسي، للوفاء بما كنت رجوته من تعلم تلك الصنعة. وكان أبي ينشطني على الدرس، ولما أصبحت يافعاً وشاهد استغراقي في كتبي، حتى الهزيع الثاني من الليل، أخذ ينصح لي بالاعتدال في المطالعة، خشية على عيوني وصحتي، وكثيراً ما كان يطفئ المصباح ليضطرني إلى النوم.

أسلمني أهلي إلى مدرسة « كافل سيباي » الابتدائية ، وأنا في الخامسة من عمري ، يتولى ابن عمي ملاحظتي وهو دون العاشرة . وكان مرة في سدة الجامع مع بعض الأولاد يؤذّن بصوت رخيم ، وصوته كان جميلاً ، فدخل المعلم فارتمش الفتى وبال على ثيابه ، فقطرت على رؤوس بعض المصلين تحت السدة من الأولاد قطرات ، فكانت قصةً ضحك لها كل من في المدرسة .

رأيت في الصف مشهداً استغربته ، رأيت ذات يوم شيخاً ما كنت رأيته من قبل وشاهدته ، وقد ظهرت من بعض الأطفال حركة لم يستحسنها على ما يظهر ، يسرع فيضرب المذنب على رأسه بطرف جبته ، ويوبخه بلهجة مغربية ، فاستغربت صورة الضرب بالجبة ، فسألت من هو هذا الضارب ؟ فقيل لي هذا المفتش ، وهو أعلم من شيخنا ويقدر أن يعزله . فقلت في نفسي : ياليتني أكون مثله . وما كان هذا المفتش إلا استاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري الذي اتصلت به بعد سنين ، وقد بدأت أكتب في الصحف ، وأطلب العلم عند المشايخ .

وضعوني مرة عند شيخ قرب دارنا ، كان اتخذ له من دكان متسع مكتباً ، وحشر فيه عشرات من الأطفال ، والباب مقفل ، والطاقات مسدودة ، فكانت رائحة كريهة . وللشيخ عصا طويلة يضرب بها الولدان في صدورهم وظهورهم ورؤوسهم ، ولعله ضربني ضربة واحدة من أول يوم ، واستعفيت في الغد من الذهاب إلى هذا الكتاب ، وبكيت لوالدي فرق لي ، وقلت له : لا أحب التعلم إذا كان المعلم يضرب كل ولد في الكتّاب ، سواء أخطأ أم لم يخطيء ، فأعفوني من الدوام على المكتب وبقيت أسرح وأمرح طول الصيف ، واطوّف الماءَ عند عصر كل يوم في صحن الدار ، وأسبح وأغطس في الحوض حتى أتبرد ، ولما انتهت العطلة المدرسية رجعت إلى « كافل سيباي » .

أركبني والدي معه على فرسه ، وقصدنا قرية جسرين في الغوطة اول

مرة ، وكان ابتاع بها مزرعة منذ اشهر قليلة ، واخذ يعمّر في الدار هناك عُليّة إلى جانب عليّة كانت من قبل ، والنجارون ينجرون الأبواب والنوافذ ، وصعدت سلماً منصوباً على الطريق من خارج الدار ، واصحبوني برجل يلاحظني وأنا اصعد ، حتى لا تزلق رجلي فأقع ، وما زال بعض من رأيتهم من الفلاحين هناك ، كأنهم أمامي الآن أنظر اليهم واحادثهم ، وكنت بعد سنين أذكر لهم ما قلته وما قالوه فيهتزون طرباً لهذه الذكريات .

وكان أحد سادة القرية أبا سعيد درويش عند أبي يجلسان في دهليز بيتنا هناك ، فطلبت إلى والدي أن يزيد في نفقتي اليومية ، وما كانت تتجاوز المناليكين (نصف القرش) ورجوته زيادة متاليك آخر فأبى ، وقال إن متاليكين يكفيانك ، فغضبت وظهر الغضب في وجهي ، فلما رآني أبو سعيد أحب أن يبدد من ألمي ويداعبني فقال لي : إن أباك قال لي إن الدراهم التي كانت عنده مخبوءة في البدراويات (سلات الأرز) دفنها لك في التراب ، أي اشترى لك المزرعة ، فلم يعد عنده ما يعطيك ، أليس « الحانوت » أحسن لك من متاليك زائد على خرجك كل يوم ؟ فسكت وقلت في نفسي : المزرعة أكبر ، وفيها أشجار اعلق عليها أرجوحتي وألعب عليها ، وتقذفني بها اختي وأقذفها ، وفيها حقول واسعة أطير عليها طيارتي في الهواء ، وفيها نهر صغير أسبح فيه .

وما كنت أزعج إلا عندما يقال لي غداً السبت تهيأ للنزول إلى البلد ، وإذا تخلفت فرفاقك في الصف يسبقونك ، وفي ليل مفارقة القرية وألعابها ينقبض صدري ، وأغبط الضفادع على استمتاعها في مناقعها ، وأندب حظي على حرماني سماع نقيقها أياماً . وبين القرية والحاضرة ثمانية كيلومترات ، لا بد من ركوب ساعتين على ظهر الحمارة ، وصرف الاسبوع كله في الدار ، والخروج إلى القرية آخر الاسبوع . يتخيرون لركوبي الحمارة حتى إذا سقطت عن ظهرها يكون الخطر أقل ، وأصل إلى الأرض بدون ألم يذكر .

وما زلت أذكر أني أردت مرة اجتياز جدول صغير فكاد التيار يأخذني

لو لم تنقذني شقيقتي الكبيرة . وسقطت مرة من رأس غصن عال من شجرة جوز ، حاولت نصب أنشوطة الأرجوحة عليه ، وما أظن علوه يقل عن ثلاثة أمتار ، ووقعت على أرض لينة ، فتألمت كثيرا ، ولم أبك مخافة أن يشعر أهلي ، ويلوموني على تسلق الشجرة ، وكثيراً ما كنت أعثر في البيدر وأنا أطير طيارتي ، فتتخدش يداي ، ويتهيّج وجهي ، ثم أعود فأطيرها وأنا موجع ، أكتم وجعي مخافة أن يضحك مني أبناء الفلاحين ، وينسبوني إلى ضعف الهمة ، وقلة الرجولة . ولا أزال إلى اليوم أذكر بعض من كنت أقذف معهم طيارتي تحلق في الجو ، ويعجب لتحليقها صبيان الفلاحين ، ويعجب من مني بعملي ، ومن سرعتي في العَدْو ، وبعضهم مازال حياً ولله الحمد ، أذكرهم بألعابنا ويذكرونني ، وهم كانوا أترابي في القرية ، ومن أحب أهلها إلى قلبي ، وفي مقدمتهم السيد عبد المعطي درويش ابن ذاك الذي قال لي وأنا غاضب على أبي لامتناعه عن اعطائي متاليكا آخر زيادة على نفقتي : إن أباك دفن في التراب دراهمه التي كانت مخبوءة في السلال وما بقي عنده ما يعطيك .

كان والدي كل سنة يدعو بعد الحصاد زمرة من الحصّادين الذين حصدوا حبوبنا ورجدوها أي أتوا بها من الحقول إلى البيادر (الاجران) ويسمون هذه الدعوة (الجَوْرعة) ويدعو معهم أجراءنا ومرابعينا والمصيفين والنواطير والحارس والخطيب وبعض أصحابه من وجوه القرية ، ويأتي بهم إلى أجمل حمام يستحمون فيه « حمام القيشاني » وهناك كنت أفرك ظهور أجرائنا ، فيضحكون ويدعون أني أنزع الأوساخ عن أبدانهم بيدي الصغيرة . حتى اذا أتموا استحمامهم يأتون الى دارنا يتناولون ما هيء لهم من طعام شهيّ ، وأعد لهم من الحلوى المعروفة بالبقلاوة وكانت تحشى بالفستق إذا كان سعره معتدلاً ، وإذا غلا ثمنه تحشى باللوز أو الجوز . ويعطى كل واحد من العَمَلة الذين أحسنوا الخدمة مقداراً من البقلاوة يحملونها إلى عيالهم في القرية ، ويقبض كل من أجاد عمله قدراً من المال يُناسب مكانته

وغناءه . وقد بطلت هذه الجَوْرعة أي ضيافة العَمْلة في أيامي ، وأصبح العامل يفضل أن يأخذ ريالاً أو ريالين على أن يعطل يوماً كاملاً في الحاضرة للاستحمام ، وتناول الطعام .

كانت لي خالة امرأة أب محبوبة من إخوتي وأخواتي ، نحبها كما نحب أمنا ، وكنا نناديها بيا (أمي ستي) ، وكانت تتولى تربية كل ولد أتمت أمي إرضاعه . و (أمي ستي) من أصل الباني قوية الشكيمة وتقية بارة . كنت أدهش من مواظبتها على صلواتها ، وكانت تتهجد من الليل وتصلي مئة ركعة ، وتتوضأ من حوض الماء في صميم الشتاء ولا تخاف البرد ، ولا تشعل النار لتتدفأ ، وتهمهم عندما تقرأ وردها ، فكنت وأنا في الفراش أسمع تمتمتها وهمهمة القطة التي كانت أمي ستي تديمها في فراشها معنا ، وكانت لها سبحة أطول من ليالي شتاء ، يقولون لها الألفية لأنها تضم ألف حبة كبيرة ، وعندنا إلى اليوم بعض حباتها احتفظ بها أهلي للبركة .

شعرت أول ما وعيت على نفسي بعطف النساء ، وكنت أحب الاجتماع إليهن ، وأفضله على الاجتماع إلى أترابي ، وأحب سماع كلام من يختلف منهن إلى دارنا في القرية ودارنا في المدينة ، ومنهن من كنَّ أرضعنني فصرت ابنهن من الرضاع ، وغدا أولادهن أخواتي وإخوتي . وكان الكهلات والشابات والعجائز من أولئك النسوة ، الفلاحات منهن والبلديات يضممنني إلى صدورهن ويقبلنني وأضمهن وأقبلهن ، وأحسن ما كان يشوقني الجلوس في حجورهن ، والعبث بنهودهن وشعورهن وضفائرهن . وكنت أحب ذات الشعر الأثيث ، ومن وجدت لمعاناً في وجهها أعتقد أنها تدهنه بالزيت في الحمام ، وذلك لأن أمي حملتني معها إلى حمام القرية مرة ، فشاهدت الفلاحات يدهنَّ أجسامهن بالزيت والزيتون فقلت لا بد أن يكون كل النساء على تلك الشاكلة .

وكنت أشتاق جداً إلى سماع ما يقص عليّ النساء من حكاياتهن الشهية ولا سيما ما كان فيه نكتة وشيء من الغرابة وكنت أميز بين التي تحسن

الحديث وبين التي لا تحسنه ، وأرجح الاولى ، ولو كانت عجوزاً شمطاء بشعة الصورة ، على الصبية ولو كانت خلابة المنظر وكانت لي أخت من الرضاع جميلة الوجه بضة اسمها (بحرية) ، وكنت أستغرب هذا الاسم وأقول في نفسي : لعلها ولدت في البحر ببيروت فسموها بحرية . وكنت أقبل (بحرية) قبلات حارة وتقبلني كذلك ، وقالوا لي مرات : لينها تجوز لك حتى نزوجك منها متى كبرت ، وبالطبع ما كنت أعرف ما هو الزواج وأجيبهم زوجوني بها فاني أحبها ، وكنت يومئذ في السابعة من عمري وربما كانت هي في الخامسة عشرة . وبقيت بعد ذلك أوثر مجلس النساء مهما كان لونه ، على مجالس الرجال إلى أن شببت وشبت .

وممن كنت أعبث بهن امرأة مرابعنا سلطان في القرية (وسلطان اسمه وهو أفغاني الأصل) كنت أُكثر من زيارتها وهي عجوز شوهاء فقدت بنيها كلهم ، فكنت أسمعها تندبهم أكثر الأحايين فأشفق عليها ، وكنت أفلي شعر رأسها لأخرج لها الصئبان ، فأجمل بين ظفري حركة يسمع لها صوت كأني أقتل القمل فتسرّ وأضحكها . وأعظم ما كان يعجبني في دارها الواسعة بالنسبة لدور الفلاحين في القرية ذاك النبات المعرش واسمه « الساعة » ويحمل زهراً مدوراً ملوناً مستديراً فكانت تتحفني منه بما أُحب فأحمله إلى أُمي فتسرّ وتفرح بعشرة امرأة مرابعنا الحزينة ، وتدعو لي ولأولادها بطول العمر ودوام الصحة .

أخذتني أمي معها إلى عرس عظيم في دار آل البكري ، وأجلستني إلى جانب تخت المغنية ، وكانت صاحبة التخت أشهر مغنية في عصرها ، على ما قيل لي بعد ، اسمها أنيسة بنت جلالة ، وهي حنطية اللون ، دعجاء العينين ، تلاطف من يقترب منها ويكلمها من المدعوات ، وأظنها عند الصباح رقصت وهي تغني ، وكان بيدها سيف . استمعت إلى أنيسة وجوقتها ، ثم غلبني النوم فما صحوت ، والوقت كان صيفاً ، إلا على صوت المؤذن يتغنم بالصلوات في المأذنة القريبة بصوت جميل ، وبلبل تلك الليلة انيسة يرن

صوتها في فناء تلك الدار القوراء ، والنساء يصفقن تصفيقاً حاداً بين حين وآخر ، ويدعون للمغنية ، ويستحسن كل ما تغنيه ، فطربت كثيراً ، واظن كان ذلك اول عهدي بالطرب ، واخذت ادرك معنى الصوت الحسن واشتاق الى سماعه ، واتوقع ان اسمع ما ينمش ، وكثيراً ما كنت اقول لامي بعد تلك الليلة المطربة ، خذيني معك الى العرس كما اخذتني الى عرس بيت البكري ، واذا احتفل بعرس ولم تأخذني معها اغضب وتدمع عيني ، واغبطها لانها سمعت بنت جلالة ، لاعتقادي بأن أنيسة تكون مغنية كل عرس يحتفل به .

أذكر أن (امي ستي) كانت تخوفها عليّ من العين ، إذا عمل لي والدي مضربة ، أتقي بها برد الشتاء تبادر إلى ترقيع أكمامها بقطع ليست من لون قماشها ، ليقول من يشاهدونني ألبس مرقعة اني ابن فقراء ، فتتخطاني عيونهم ولا ينظرون اليّ نظر حسد ، وأذكر أن أبي ابتاع لي على العيد صرماية حلبية أي نعلاً حلبياً احمر ، ومعها جوارب غليظة من شغل الاكراد بطن قدماها بالسختيان ، وذلك لأخرج معه صباح اول يوم من العيد الى المقبرة لزيارة الأموات . وكنت لشدة فرحي بهذا النعل الأحمر اضمه بجانبي في الفراش ، وانتبه مرات قبل ان يؤذن الصبح ، ويحين وقت الخروج الى المقبرة ، ثم الذهاب الى المسجد الجامع لصلاة العيد ، والفرجة على (السلاملك) اي حفلة خروج الباشا والي البلد بالعساكر من الجامع الى السراي . وكنت افرح فرحاً كثيراً لقرب ايام العيد ، فاذا انقضت اكتئب ، وذلك لما يقام فيه من الألعاب في الشوارع ، فافرح بذلك اكثر من فرحي بما يصنع في بيتنا من الحلوى والمعمول ، ويجلب له من المربيات والملبس وغير ذلك مما يعمل بالسكر والقلوب من الجوز واللوز والفستق . فان هذه الأشياء كانت موفورة في بيوت اهل اليسار معظم أيام السنة . واكثر ما يطربني في الأعياد الألعاب المألوفة : ركوب (الدويخة) و (المرجوحة) و (القلّابة) و (المركبات) التي تجر باليد او بالحمار .

كنت أستاء كل الاستياء عندما يكرهني أهلي على الذهاب إلى الحمام

مع والدي — وما كانت الحمامات إلا في الأسواق ، والبيوت يومئذ لا تعرفها — أستثقل الحمام لما فيه من الحرارة الزائدة . ولكي يضطروني إلى الرضا بحكم والدي ووالدتي ، كانوا ينصبون لي خيالاً أشبه برجل فظيع له قرون تنطح ، يجعلونه وراء الخوابي في بيت المؤنة المظلمة ، ويمسكونني بيدي لأرى هذا الخيال ، ويقولون لي هذا البُعْبُع ، إذا لم تقبل أن تذهب إلى الحمام اليوم نقول له أن يأكلك ، فأذهب صاغراً متألماً من هذا التحكم خائفاً من سطوة البعبع . وأذكر أن والدتي أخذتني معها إلى حمام النساء فقالت لها إحداهن : لماذا لم تأت بأبيه معه ؟ فانقطعت أمي عن أخذي معها إلى الحمام من ذاك اليوم .

وحملني أبي على دابته عصر يوم من أيام القيظ الشديد ، وأركبني أمامه خوفاً عليّ من أن أهوي عن الدابة إذا ركبت وراءه ، وقصد إلى قرية دمر لزيارة الأمير عبد القادر الحسني الجزائري في قصره . والتقينا بالشاذروان أي في نحو منتصف الطريق بعربة يركبها مشايخ ، قال لي أبي إن فيها صديقه الشيخ سليم العطار من أكبر العلماء . فسأل الشيخ والدي عن مقصده من الركوب في ذلك الوقت فقال : لزيارة الأمير . فقال له : إن الأمير متمرض ولم ينزل من غرفته . فقال : اذاً أتابع سيري ليستريح الصبي في حديقة الأمير قليلاً ثم نعود . وسرنا حتى بلغنا قصر الأمير ، فلما أخبر بوصول والدي ، سأل هل معه ابنه ، فقيل له نعم ؛ نزل من غرفته ورأيته . وربما كنت رأيته مرات قبلها فأنسيته ، ولا أذكر صورته إلا هذه المرة . فكان يلبس قفطاناً أبيض مثل قفاطين المغاربة وعلى رأسه طاقية بيضاء ، ووضعني في حِجره ، وقرأ على رأسي المعوذتين وبعض الآيات والتوسلات .

والسبب الذي حدا بالأمير على أن ينزل من غرفته وهو منحرف المزاج ، ولم ينزل لأحد من زواره ذاك اليوم ، كونه يعتبرني ابنه الروحي

وذلك لأنه صنع لي « التابعة » فعشت بعدها . وكانت أمي مات لها ولدان قبلي فقال لها من يعتقدون بهذه الأمور إن الأمير يعمل التابعات ، فإذا عمل لك تابعة يعيش ولدك الذي في أحشائك . والتابعة كناية عن قصبة تلف عليها خيوط من الحرير ويقرأ عليها ويعزّم ، وتأخذها الحبلى وتدفنها في قبر مهجور ، وترجع خطوات إلى الوراء ، وأظنهم قالوا يجب دفنها قبل شروق شمس السبت . وبعد مدة سمعت أن الأمير توفي وحزن والدي ووالدتي عليه (١٣٠٠ هـ) .

أخذني والدي قبيل طلوع الشمس يوم السبت لزيارة سيدي أُبيّ خارج سور البلد ، قرب الباب الشرقي . وكانوا يعتقدون أن كل ولد زوّره أهله قبر هذا الصحابي ثلاثة أسابيع يفتح الله قلبه للعلم ، وتحسن ذاكرته فيحفظ دروسه . وصيغة الزيارة أن تتقدم من القبر بخشوع وتقرأ الفاتحة ، ويأتيك السادن بعصا يضربك بها على رجلك ، ويقول لك : إحفظ درسك ، فتتباكى وتقول له أحفظه ، ثم يناولك حبات من الزبيب تقضمها . وما كان الضرب بالعصا موجعاً بل كان صورياً . وبهذا هيأ لي أهلي سبيل الحفظ والتعلم أثابهم الله !

وحمدت الله يومئذ على نجاتي من تطبيق خرافة أخرى عليّ ، كانت تمثل بالقرب من الباب الشرقي أيضاً قرب مستشفى المجذّمين (الأعاطلة) وكان الاعتقاد السائد أن كل من يصاب بالبرداء (الملاريا) — والكينا على مايظهر كانت عزيزة — يأتي به أهله إلى النهر الأسود الذي تلقى فيه قاذورات قسم عظيم من مدينة دمشق ، ويغطسون المريض سبع غطسات — وأظنهم قالوا الأفضل ان يوم السبت — فيشفى باذن الله .

ولطالما ذكرتني خالتي وأمي بعد أن كبرت قليلاً كيف كنت أنادي كل ساعة (ياخدى) بدون أن أتعلم ذلك من أحـد ، بل كنت أنادي بفطرتي . ومعنى (خدا) بالفارسية (الله) وقالتا لي إني بينا كنت أنادي يوماً في فناء الدار ندائي المعتاد زار والدي أحد أصحابه المسيحيين ، وقالتا لي إنه كان يعرف الفراسة ، فلما سمع ندائي تأمل وجهي قليلاً وقال

لأبي في الحال : يافلان اعتن بهذا الصبي سيكون عالماً ، — والله أعلم .

ومن حسن توفيقي أن والدي كان ينوي أن يجعل علينا وصياً أحد رجلين من أصدقائه : الأول تاجر غني والآخر مزارع عظيم ، فما هي إلا أعوام قلائل حتى بلغت مبلغ الرجال فأقامني وصياً على اخوتي ولم يحتج إلى أحد في هذه المهمة . ولو كان قدّر لي أن أكون صغيراً أحتاج الى وصيّ ، ووصى والدي مضطراً أحد خليليه هذين لما خرّجاني إلا في صنعتها حتى أعرف كيف أغتني ، ولا يجوّزان أن ينفقا شيئاً من مالنا على تعليمي وتعليم اخوتي . ذلك أن الصديقين كانا لايقدران حاجات الزمن ، وكانا في عقلية أهل القرن الماضي من أن العلم اذا لم يضر لا ينفع . ولطالما حثت المزارع أحد الصديقين بعد ماكبرت أن يعلم ولداً من أولاده فن الزراعة الحديثة فكان يحاول ألا يجيبني وينقل الحديث إلى موضوع آخر . وسمعت والدي غير مرة يشير على صديقه ذاك التاجر العظيم أن يعلم أحد اولاده اللغة الفرنسية ليستعين به في تجارته الواسعة فيعد هذه النصيحة مستغربة واستمعت اليه مرة يقول لوالدي يافلان إن كاتباً براتب ثلاثمائة قرش في الشهر يغنينا عن تعلم ابني لغة اجنبية . فماذا كان حالي يازى مع احد الصديقين الصادقين لو كتب لهما ان يكفلاني حتى أشب ؟

وما برحت أذكر قصصاً مستغربة سمعتها من والدي وأنا صبي في أواخر العقد الاول من حياتي ، ومنها ماجرى له مع الامير سليمان الحرفوش المتغلب في تلك الأيام على أرجاء بعلبك (وهو الذي قتلته الدولة العثمانية في قلعة دمشق) قال : كنت في بدء حياتي التجارية تعرفت الى هذا الامير ، وكان يزورني في مخزني ، واحتاج الى المال فاصبح يقترض مني ما يلزمه حتى تجمع لي عنده خمسمائة ليرة ذهبية ، وعاد بعد حين إلى بلده واعداً أن يعيد اليّ باسرع مايمكن مااقترضه مني قرضاً حسناً وطال هذا الوعد أشهراً اضطررت بعقبها الى أن أقصد الأمير في بعلبك أتقاضاه ما استدان مني ، ونزلت عند امرأة عجوز أربعة أشهر حتى تيسر المال لمدينى

ودفعه اليّ ريالات فضية ، فأودعته عند حبيب مطران من خدام الأمير يومئذ — وهو الذي غدا بعد سنين من أعيان سورية ونال رتبة باشا — ليحفظه لي عنده ريثما أعود الى بلدي ، وسألني الأمير لماذا أمنت على مالي حبيب مطران ؟ وقلت له لأن المسيحيين يعرفون قدر الدراهم أكثر من المسلمين . ثم دنا الرحيل فأمر الأمير مناديه في القصبة ، أن يعلن أن عميل الأمير مسافر فأعد أهل البلد طعاماً اختار كل واحد منهم اللون الذي يحسنه ، وحملوه كعادتهم الى رأس العين . وحضر الأمير فتقدم والدي اليه وسارّه في أذنه قائلاً له : اني وحيد أمي وبلغني أن من عادتكم بعض الأحيان أن تدفعوا الى مدينكم ماله في ذمتكم فاذا بعد عنكم قليلاً أرسلتم من يقتله ويعيد اليكم ما أخذه منكم ، فان كانت عينك في المال الذي أعطيتنيه فانا مستعد من الآن لأن أعطيك سنداً بقبضي له وأذهب الى بلدي بحشاشة نفسي ، فطمنه الأمير وذكر له معروفه يوم ضائقته وأصحبه بعبدين أسودين ، اسم أحدهما دُعَيْبِس واسم اخيه قَضيب ، وأوعز اليهما أن يذهبا من طريق الجُرْد ويوصلاه الى قرية مَنين في جبل قلمون ويأخذا من شيخها وصلاً بوصوله . قال وبينا نحن سائرون أصيل ذاك النهار في محل اسمه « بير صرير » صادفنا سرباً من الغزلان فاصطاد أحد الرفيقين واحداً منها وتبسم لصديقه وتبسم له ، ثم تهامسا كأنهما يذكران أمراً وقع لهما . فسألتهما عما يشيران اليه فأبيا أن يبوحا به ، وبعد إلحاحي عليهما قالا انهما كانا يجتازان هذا النجد منذ مدة فشاهدا رجلاً وقع في نفسهما أن معه شيئاً يسلبانه اياه فامتنع منهما فقوي ظنهما أن معه مالاً فقتلاه ، وما أشدّ خيبة أملهما اذ لم يسقطا في جيبه على غير قرشين . فلما سمع أبي هذا الحديث اللطيف هلع قلبه وقال لهما : أسرعا اسرعا ، والشقيان القاتلان يعلمان أن في الخرج الذي تحت والدي عشرات الألوف من القروش . وسلم الله ووصل عميل الأمير الى منين بعد أن نفض عنه غبار الموت كما قال : وعاد الرفيقان المحترمان يحملان الايصال الى أميرهما بوصول من رافقاه الى مأمنه . ولو كان والدي يفكر ملياً ما خاطر بماله ثم بروحه مع أمير يجهل أمره ، والغالب أنه لم يكن يعرف يومئذ أن عشرة الكبراء تتعب الرأس والرجلين .

عوامل المثبطين

خرجت إلى ميدان العمل أعزل لا أحسن الحرب ولا الضرب ، ويدخل المرء في الحرب يوم يدخل العالم كما قال فولتير . وما إن مشيت خطوات قليلة حتى وقف المثبطون في طريقي ، يحاولون صرفي عما عقدت العزم على التمحض له . وكانت تأخذني الصدمات فأتقيها . وما أدري إن كان ما لقيت جلب لي نفعاً ، أو عاد عليّ بضرر فيما استقبلت من الأيام . ومع هذا ما ونيْت ولا تراجعت ، ولا قطعت خيط الرجاء من النجاح .

ما خرج ما نشرته لأول نشأتي عن مقالات ، لم تصل إلى أكثر من أقوال مبتدئ ، وكان جمهور الناقدين من المشايخ غالباً ، يتطالون لأن يكونوا المهيمنين على كل ما له اتصال بالدين والدنيا ، كانوا يغتابونني منفردين ، وقد ينافقون لي في الحضرة ، ومنهم من يستكتب الفيْنة بعد الفينة تقريراً باسمه ، يقدمه إلى صاحب السلطة ، ويحذره عاقبة أمري ، وبذلك كبَّروني في عيون الحكام أكثر من جرمي ، وألبسوني من خيالهم حلة تزيد على جسمي . ورأيت منهم من تراجعوا بعد حين ، وراعهم ما سموه من قوتي على حين لم أكن يومئذ أكثر من طائر لا زَغَب له أمام بواشق كاسرة وعلم من عرفوا من أنفسهم العجز بعد ، فكفوا ألسنتهم وكفَوْني شرهم . ومنهم من ظلّ يطعن في الأحايين حتى لا يقال إنه تراجع ، ومنهم من اعترف بقصوره ، وطلب أن يقدَّم في الدعوات ، ويدعى إلى الحفلات ، ويذكر اسمه في المناسبات !

توفر أحد المقدمين فيهم على الطعن عليّ في درسه في المسجد الجامع سنين ، لأني لم أمكنه من إلقاء محاضرة في ردهة المجمع العلمي ، وهو لا يحسن أن يحاضر ، وبضاعته من الادب والعلم مزجاة ، وادعى بأخرة

أنه قرأ ما كتبته في الاسلام فاستحسنه ، وأحب أن يجعلني ببركاته من أصحاب الجنة ، وكان من قبل يتوعدني بالنار ، ولما رآني أسير سير المؤمنين حدثته نفسه أن يعقد الصلات معي ، وعزم أن يزورني ويتودّد إليّ فما زدت على أن قلت للوسيط : ليحذف صاحبك هذا المدح الآن من قدحه فيّ أمس ، فاذا زاد القدح فأنا أسامحه ، وإذا زاد المدح فهو وشأنه ، ولا وقت لي لسماع مصانعات المصانعين ، ولا للدخول في مماحكات الماحكين .

وكان من أحدهم ، وهو مثل الشيخ السالف ، ضيق فكر وقلة بضاعة أن يزودني بآرائه في كل ما أكتب ، ويقدم فيّ تقاريره متبرعا بالتجسس عليّ أكثر من خمس وعشرين سنة ، وما تعب ولا كف ، كان يطالع كل ما أكتب ويستعين ببعض طلبة العلم ، يستخرجون له الضارّ من كتاباتي ، والضار في سياسة الدولة ، وفي الدنيا والاخرى ، قاتله الله ما أشد سلاطته وعبثه . وكان يكثر من إتهامي بالوهابية عند الأتراك ، ورأيته بعد سنين يثني في مجلس خاص على الملك عبد العزيز آل سعود ، وعلى الوهابية فقلت له : الحمد لله يا شيخ على أن أحياني حتى رأيتك تثني على من كنت تطعن عليهم وعليّ اعواماً طويلة . وما أظنك الآن تتوقع من هذا المدح إلا أن تحج وتأخذ من صدقات ابن سعود ، فرأيت من تمام الحيلة أن ينقل عنك أنك من أحبابه . وكان الأمر كما قلت له . ذهب إلى الحجاز في الموسم بعد أن قضى حياته في التجسس ، ومات بعد مدة غير مأسوف عليه ، وكنت كثيراً ما أنصح له أن يكف عن الوشاية ، ويقلع عن الغيبة والنميمة فيقول : إذا انقطعت عن هذه الخطة لا يسقيني اهل هذا البلد الماء البارد .

وتألفت جماعة باسم الدين وألفوا مجلة دينية ، وأنشأوا يتسقطون لي ولاخواني العثرات ، ويقوّلونني ما لم أقل ، وولجوا كل باب للظهور بالنيل مني ، فكان صراعاً ظاهراً بين القديم والحديث ، وبين المجددين والجامدين ، ورجعوا بعد ثلاث سنين بصفقة المغبون ، وقد نفدت ثرثرتهم ، وفرغت

جعبتهم ، فأراحوا قراءهم من حشوهم الذي ادعوا أنه حقائق ، متمزقين غيظاً لأنهم ما سمعوا كلمة واحدة في الرد عليهم . وكانوا ينتسبون الى العلم فما نجحوا في باب من أبوابه ، فودعتهم لما فقدتهم بمقالة «أعداء الاصلاح» تقرؤها في كتاب (القديم والحديث) وقال لي أحد أساتذتي إني لم أكتب أشد منها ، ومنهم من تجسس بعدُ للغريب على القريب ، مقابل عرض تافه من عروض الدنيا . وهو الى هذا يظهر الغيرة على الدين . أسخِفْ به وأسخِفْ بعقول من يعتقدون صلاحه .

جلب الاتحاديون رجلاً مصرياً محكوماً عليه في مصر بعدة أحكام لجرأته على شتم قومه كان يعزّ وجود مثله في السفهاء الهجائين ، يحفظ من معاجم الشتم كل قبيح مقذع . ولما أغدقوا عليه الذهب الوهاج واتته قريحته في اختراع أساليب التشفي والتشهير . وكانوا لا يطلبون منه الا أن يقف مني ومن أصحابي ، في جريدة لهم سموها (المشكاة) ، موقف الهجاء . وظنوا لقلة تجاربهم أنّ الشتم سلاح قوي فعال ، وما دروا أنه سلاح العاجز الحق . فأشرت على أصحابي بالاعراض عما يلفظ به سفيه المشكاة . وكان يبلغنا أنه يود لو أجبناه بكلمة في جريدتنا أو في جريدته ، ومضت الأيام وهرب المستأجر للتطاول على الاحرار ، هو وبعض من أنشأوا تلك الصحيفة السخيفة الى الاستانة ، فصادفني في أحد شوارعها ، فاقترب مني يخفض لي جناح الذل ، ويهش ويبش ، طالباً العفو عما بدر منه نحوي . فأكدت له أني لم أقرأ شيئاً مما كتب ، فزاد ألماً وسب نفسه على أن كانت حملاته كصرخة في واد .

وعهد الاتحاديون الى (ع . س) أن يمدهم بنوره في المشكاة ، فغذاها بزيته العكر ، كما كان (ز . م) المصري الذي أعطى نفسه لقب باشا ، وهو يستجدي الأكف في القاهرة ، وأخذ الخلف يسير على قدم السلف ، يطعن الطعن المبرح بمن يرسم له سادته الطعن عليه ، ويحمل على أبناء بلده ليتقرب من قلب الغريب . وتجسم لؤمه يوم برأتني المحكمة مما كان أقيم علينا من الدعاوي . وكنت اعتصمت بمصر ، وأخي مسجون في الاستانة

بدعوى نشرنا قصيدة في الاصلاح ، لأحـــد علماء المدينة الشيخ ابراهيم الأسكوبي ، كانت نشرتها بعض الصحف الشامية قبل نشرنا لها . فما سئل ناشرها الأول ، ونحن أغلقوا صحيفتنا دون غيرها ، ورأيت (ع . س) يوم تبرئتنا ، يخاطب المحكمة ويهددها ويقول لها إنها لم تعرف من برأت ، برأت أعظم عدو للدولة وعدّد سيئاتي .

ولما قرأت ما كتب قلت : هذا والله من أبشع ما رأيت من ضروب الوشاية واللؤم . صاحب الجريدة مشرد عن بلده ، واخوه مسجون في العاصمة ، وجريدتها معطلة ، والكاتب اللبق يحاول نكبتنا اكثر مما نكبنا ، ويطمع في ان يظهر لمن استخدموه انه يحب الدولة ونحن نبغضها . وقد نفاه الاتحاديون في الحرب العامة الى الأناضول . ووصمته حكومتهم بالخيانة فذل .

ودارت الايام واتيت بهذا الرجل إلى عمل يرفع منه واحسنت عشرته فقال لي احد رصفائي متعجباً ، كأنك نسيت ما كتبه فيك ؟ فقلت لعمري ما نسيت وما عاملته بما عاملته به إلا مكافأة له على عنايته بالادب العربي في العهد التركي ، وهناك سرّ لا يعرفه إلا الخلّص من الاصدقاء ، وهو اني كنت اكثر السواد بمثل هذا النوع ، على تخالف بيننا في العقل والروح حتى لا يكونوا عيوناً عليّ وعلى ديواني فاستميلهم واتقي شرهم ، وما زلت مع صاحبي هذا حتى فرق الموت بيننا ، وقد ابنته يوم مات ، وذكرت مزاياه الحسنة ، واغضيت عن غيرها ، وما خسرت شيئاً ، والله أعلم من الخاسر منا .

وأذكر أني ناقشته مرة واحدة ، وبالحري أني أجبت صاحب الجريدة على ما كان يحاول أن يجرّني اليه ، وكان يفيض على هذه الجريدة بآرائه ، فسولت له نفسه أن يثير الرأي العام ، أو أن يجعل للجريدة الخاملة التي يكتب فيها شهرة بين الصحف ، وأظنه كان يقصد الغايتين . كتب في تلك الجريدة يقول : إني ما قصدت بما كتبت الا إلقاء التفرقة بين النصارى والمسلمين . فكتبت في الجواب على خلاف العادة : إني ما زلت منذ وعيت على نفسي ، أسعى للتأليف بين الطوائف ، وأدعو الى القومية العربية ، على ما هو باد فيما

كتبت ونشرت . ورجوت صاحب الجريدة أن يتباعد عن الخوض في هذه الموضوعات المؤذية . وكان صاحب الجريدة حدّاداً في البقاع العزيزة وظهر في دمشق بعد مدة محامياً مؤلفاً صحافياً ، وهو أمي وما أ كثر حظ الغريب عندنا ، وما أوفر الأميين يومئذ في المحامين والمؤلفين والصحافيين ، بل في المدرسين المتعممين والمتطببين والقواد والولاة .

أوردت هذه الأمثلة من عمل الجماعات والأفراد في حرب الناشئة ، ومقاومة كل داع الى الاصلاح ، ورب سفيه كان يرزق من الطعن علي ، وبئست الطُّعْمة. قلت يوماً للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد بالقاهرة : بلغ عدد الجرائد الأسبوعية الساقطة التي تطعن فيك نحو عشر صحف أما من وسيلة للتخلص منها ؟ فقال ببرودة قلب : دعهم يعيشون ولو بالطعن فيَّ . وانا كنت شهد الله أحب أن يتعلم هؤلاء الطاعنون ولو بالطعن عليَّ أيضاً .

طريقة التماس الشهرة بالتحكك بأربابها شائعة كثيراً ، وقد نامت في مصر ، وعهدي بها على حصة موفورة فيها ، وأ كبر ظني أنه كان لتطبيق العقوبات على السفهاء دخل كبير في قمعهم ، وقلّ أن رأيت في مصر والشام من اصحاب الأقلام على كثرة من رأيت منهم ، رجلاً اتخذ سبّ الناس وشتمهم سلّماً إلى الكسب والشهرة فباءَ بغير الفقر ، ووُسم بغير الرقاعة وربح غير المقت .

كان في بيروت وكيل لبعض الصحف ، وكان من أتباع شيخنا الشيخ طاهر الجزائري ، وزين لشاب أديب الطعن في الشيخ قائلاً له إنه لايشتهر إلا إذا سلك طريق الحط من العلماء المشهورين . فكتب الشاب المغرور مقالتين في الطعن على الشيخ فأدى ذلك الى سقوطه وسقوط الجريدة التي نشرت له ؛ لأن فضل الأستاذ لايطفأ بمقالة ، وأدرك المدركون أن غرض الكاتب أن يشتهر على حساب الشيخ الجزائري ، حتى يقول العامة انها كالأمثال الأقران .

يحب الجمهور المطاعن وتلذ له ، ويشغف بالماحكات مها كان لونها . واتي

زمن والجريدة التي تخلو من هذه المهاترات لاتكاد تقرأ حتى ليضطر أربابها أن يخلقوا موضوعات يناقشون فيها غيرهم ، ويتحينون الفرص لفتح أبواب المطاعن لترويج جرائدهم الكاسدة . وكان القوم يتلقفون الصحف التي ترى رواجها بالقذف في الأعراض ، كما يتلقفون اعز شيء عليهم ، واذا نفدت أعدادها ، يدفعون في اقتناء النسخة الواحدة عشرة أضعاف ثمنها ، وأكثرهم يؤيدون فريقاً على فريق ، ويزينون لهذا ماينكرونه على ذاك ، والجمهور مجنون ، ونعوذ بالله من جنون الجماهير .

النقد شيء والطعن شيء آخر . وقلّ أن رأيت أحداً من المنورين السمح صدره لنقد الناقدين . ومن هنا جاء امساك النقاد عن النقد النافع لئلا ينزعج المنتقد عليه ، ويتخذ من ناقده عدواً له . ورأى النقاد في مصر على عهدها الأخير أن يدهن بعضهم لبعض ، ويسكتوا عن نقد ماينتقد ، وفي النقد حياة المجتمعات ، والمنتقد يزيد قدره إذا ماتلقى الانتقاد بالقبول ، ولقد بلغت القحة ببعض أصحاب النفوس الصغيرة أن توهمت أن كل أعمالها سديدة لاتستحق إلا الاعجاب والتقريظ .

قال أحد علماء المشرقيات وكان قضى سنين في القاهرة إن من سوء حظ النقد في مصر أن معظم النقاد ينزلون العاصمة فتضطرهم واجبات الجوار والمعرفة إلى أن يصانع بعضهم بعضاً ، ولو كانوا متفرقين في بلدان مختلفة لايرى الواحد صاحبه كل يوم لجسروا على نقد من يجب نقده منهم ولما أصيبوا في هذا الشأن بحياء لامحل له .

الصادّون عن العلم

لمـــا ضعف العلم الاسلامي حاول بعض الأسر القديمة التي استحلّ أبناؤها الاستئثار بالمدارس والأوقاف والوظائف الدينية بدون أن يكون لهم شيءٌ من العلم ، أن تبقى لهم هذه المغانم والمظاهر وقفاً أبدياً على الدهر. وفكروا في أسهل حيلةٍ تُديم عليهم نعمتهم ، فكان منها منع الشبان من التعلم ، ليكون القضاء والافتاء وأعمال التدريس والوعظ والخَطابة والامامة مُحتكَرَةً لهم ولأعقابهم من بعدهم . وممن دأبوا على هذه الدعاية شيخان من دمشق ، كان يعزّ عليهما أن يتعلم إنسان ، وما كان عيشهما يطيب إلا إذا صدّا الطلبة عن العلم .

وكان الشيخ طاهر الجزائري يكرههما كراهة عظيمة ، وسألته ذات يوم عن سبب كراهته لهما ، وعما حدث بينه وبينهما فأدى إلى هذا العداء العظيم ، فقال : إنهما مازالا يحولان بين الناشئة وبين التعلم ، وبعملهما انقطع أربعون شاباً عن طلب العلم . فقلت له : هذا حقٌ وقد حاول أحدهما أن ينصح لوالدي ، وأنا في أول نشأتي ، ليخرجني من حظيرة الدرس إلى التجارة . وقال له وأنا أسمع ، وهل تَرانا نحن العلماء في حالة حسنة ، وإن أحدنا ليَطلب العلم ثلاثين سنة ، وغايةُ مايحصل عليه راتبٌ ضئيل في إحدى المدارس ، أو إمامة في أحد الجوامع ، قــد لايتجاوز راتبها المئة والخمسين قرشاً ، فإن كنت تريد الخير لبنيك ، فاقطع ابنك عما شُغِلْنا به قبله أعوامـــاً ، وما عاد علينا بِغنىً ولا رَفاهيةً .

وكان شيخنا يقول : لولا أن شُغل كلا الأخوين أحدهما بالآخر للاختلاف بينهما في قضية ، وكان الواحد يتغيب سنة في الاستانة لملاحقة

دعواه ، ويعود في السنة التالية إلى بلده ، فيسافر أخوه فيتذرّع بمثل ماتذرّع به شقيقه ؛ وظلاّ على ذلك طول العمر ، وماتا ولم يُبِتّ في تلك الدعوى المباركة – لولا أن شُغلا بانفسها لنزل بالناس منها شرّ كثير.

وكبرتُ وصرتُ أكتب بالصحف ، وأصبح لي أصدقاء وأعداء ، وكان ذاك الشيخ الذي سوّلت له نفسه ان يمنعني من ورود حياض العلم ، يوم كنت طالباً صغيراً ، ينظر إليّ نظر من آمن لمن كفر ، وأنا وكثير من أهل البلد نعرف مبلغه من الدين والأخلاق . قال لي يوماً : بلغني ان عندك خزانة كتب . قلت صحيح مابلغك ، منها ما كان اشتراه والدي لي ومنها ماابتعته انا . فقال : أريد أن أزورها ، فقلت له : لاتزورها ولا تراها . قال : ولِمَ ذلك ؟ قلتُ : لأنك تسرق الكتبَ على ما أكد لي غير واحد ، ولذلك لن تراها . فبهت من قولي وتفارقنا ، فكان في شيخوخته يطعن عليّ وعلى الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري وغيرهما وأنا ماقلت له ماقلت إلا لأنه كان حقيقة يسرق صفحات وأحياناً كراريس من الكتب المُدبَّجة المُذهَّبة ، ومنها ما أخذ طرّته . واستحل لذلك مجموعات دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وخزائن الافراد في كل مكان دخله فشوّه الأصل ولم ينتفع كثيراً بالفرع .

وبعد ذلك يعتّب علينا ، لانا لانحترم هؤلاء الذين ينسبون زوراً إلى الخواصّ ، وعلم الله أن العوام أكثر منهم عملاً بالدين ، والوقوف عند مناهي الشرع .

أخلاق بعض القضاة

لم أر فيما رأيت من أنواع العداوات أشد من تعادي المشايخ ، ولا أكثر من غمط بعضهم حق بعض ، ولا أشدَّ من تهالكهم على أبواب الأمراء والحكام. ولقد رويت لي روايات عنهم ما كنت أصدقها ، لولا أن رُواتها لم يُعرفوا بكذب ، ولما أخذت ألعرف إلى الرجال رأيت ماهالني ، وأيقنت أن القليل منهم عرَفوا الكرامة وعزة النفس ، وهم الذين جعلوا صناعتهم بصنعهم علامة ضعة ، وكانت آية الشرف . ولقد أصيبت جمهرتهم بغرور ظنوا معه أن سلطانهم القديم على الملوك فمن دونهم يبقى لهم بهذا الجهل وهذا الفساد .

قلت يوماً لعالم درس تاريخ الاسلام درس تَدَبُّر وعرف استخراج عبره : أما كان في العصور الماضية قضاة جاهلون فاسقون سارقون ، فكتب الأدب تتعرض لذكر كثير مما كانوا يُتَّهمون به ، أليس مارُوي عنهم بصحيح أم صنعوه للنكتة ؟ فأجاب : أكثر ما رُوي في سيرة القضاة قديماً صحيح ، والجهل وسوءُ الخلق ما انقطع دابرهما من الارض ولكن إذا فرضنا أنه كان في المملكة الإسلامية ألف قاض في الدهر الغابر ، وألف مثلهم في هذه الأيام ، فان الألف السابقين كان فيهم عشرة فاسدون لا يصلحون ، أما الألف اللاحقون فالفاسدون منهم يُعدُّون بالعشرات .

وأظنُّ السلطان يلْدِرِم بايزيد العثماني هو الذي جمع قضاةَ مملكته وأمر بقتلهم لما ثبت له من قلة دينهم وتلاعبهم بالحكومة . فلما حقت عليهم كلمة العذاب لجأوا إلى أحد ندمائه ، ورشوه بمبلغ من المال ، فذهب إلى السلطان لابساً ألبسة السفر ، فسأله السلطان عن الداعي إلى اكتسائه هذه الكسوة فقال : إنه ذاهب إلى صاحب القسطنطينية — وكانت يومئذ بأيدي الروم —

لأني من عنده بقسيسين يتولون القضاء في مملكة السلطان ، فضحك هذا وعفا عن القضاة ، على ألا يعودوا إلى سالف سيرتهم القبيحة .

وما زالت حال القضاة في تدهور ، العصر بعد العصر ، حتى كانوا هم السبب الاعظم في إدخال قوانين الغرب على الدولة العثمانية . والحكومة المصرية والإمارة التونسية ، لكثرة ما أساءوا إلى الشرع ، وعبثوا بأصوله وفروعه ، وبقلة دينهم وقلة علمهم ، أمست أحكام المحاكم الشرعية سلسلةً من الخلل والعلل ، فأكرهت دول أوربا الدولة الاسلامية على قبول قوانينها ، ظناً منها أن الفسادآتِ من الشريعة ، وما العيب إلا من جهل المنفذين لأحكامها ، وفساد أخلاقهم .

وقد شاهدنا تحسناً ظاهراً في قضاة الشرع ، لما أنشأت الدولة مكتب النواب في الاستانة ، وكان المتخرجون على أساتذته إلى الاستقامة والعلم أكثر ممن سبقوهم ، وعلى مثل ذلك شاهدنا القضاة في مصر لما أنشأوا يختارون الصالحين وكان في الجيل الماضي يتولى الاغمار القضاء . أما أنا فقد بحثت سيرة من أهمني أمرهم من القضاة منذ خمسين سنة فرأيت من نعدّه مستقيماً قد لا يتعفف عن قبول الهدايا من أرباب المصالح .

قصة لطيفة وقعت لقاض من أهل دمشق كان في دُومة من الغوطة . وكان مضحاكاً خفيف الروح والظل ، يحفظ كثيراً من النوادر والفكاهات ، أتاه ذات يوم رجل اسمه محمد عبد النافع ، أحد ظرفاء دومة بكتاب يقول فيه : إن الله خلقه بغير إرادته ، وأتى به إلى هذا العالم ولم يستشره ، وزين له أن يتزوج ففعل ، ورزقه أولاداً ليقرَّ بهم عيون والديهم ، فكانوا علة افلاس والدهم ، وشقاء والدتهم ، وإن فقره يزيد كلما زاد عدد أولاده ، فهو لذلك يلتمس من القاضي أن يجاب إلى محكمته العادلة المُدَّعى عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى ليتقاضى وإياه . فرأى القاضي أن صاحب الدعوى من أصحاب النكتة ، فانتظر حتى أنجز أرباب الأشغال مراجعاتهم ، وأغلق باب المحكمة ، ولم يترك فيها غير الموظفين ، وطلب المدعي ، وهو والحاضرون يتكلفون الجدّ ، فسأله

عن دعواه على الحق تعالى ، فقال : إن دعواه مكتوبة في القصة التي قدمها . فقال القاضي للمدعي بعد أخذ ورد قليلين : هل تسقط دعواك ياشيخ ، إذا أعطيت من مال الله خمس ليرات وكيس طحين ؟ قال افعل . قال القاضي : أنا سائلك سؤالاً تجيبني عليه بصراحة ، فقال : الأمر لسيدي . فقال القاضي : جاء هذه البلدة قضاة كثيرون قبلي فلم لم تتقدم اليهم بهذه الشكوى ، لينصفوك ممن تدعي عليه سبحانه ؟ فقال له : لم يكن القضاة الذين يقدمون لتولي القضاء في بلدنا مثلك ، كانوا يخافون منه ! فصفق الحاضرون تصفيقاً شديداً ، استحساناً لهذا الجواب . وربما قال القاضي في سره : إنه والله لصادق . فأنا أعلم من نفسي أن معظم القضاة لعهدنا لايخافون الله ، وهم لصوص تحمل رؤوسهم عمائم بيضاء ، وأن طعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم من أموال اليتامى والأيامى .

وبلغني عن قاض ولي صفد فارتشى قبل أن يصل إليها بمبلغ عظيم . ونزل مدة في دار من تناول مالاً من خصومه ليسلبه ملكه ويعطيه لمن رشاه . وقد خلف ثروة طائلة انفقها أولاده بعده في سنتين . كنت أقول وأنا أرى هذه الرواميز من البشر المضر : إن المولى أخذ يجازي في العاجلة وينقد عند الحافرة ، وكان يجازي بالنسيئة فيرجىء العقوبة إلى الآجلة . ورأيت عشرات ممن جمعوا أموالهم من القضاء خصوصاً ، رأوا في حياتهم خروج ما كسبوا من ايديهم ، وهذا من الجزاء العاجل .

العلماء يحترفون

إلى عهد قريب كان العالم يحترف ويعيش من كسبه ، ويربأ بنفسه عن التماس احسان السلطان ، وأكل أموال الأوقاف والمدارس والجوامع . والناس يرون طلب العلم فريضة ، والأخذ منه بنصيب نافعاً في الدين . وقلّ أن يتطلب صاحبه مكافأة عليه في الدنيا ، وإذا نفعه في حياته جاءت الفائدة منه مُزْدوجةً ، وكل فرد يرى الأخذ عن المشايخ ، والقاء الرجال شرفاً عظيماً .

كان بنو العمادي مفاتي دمشق ، خرج منهم فقهاء وتسلسل الافتاء في بيتهم عدة بطون ، ولما ضعف الأحفاد عن اللحاق بالأجداد ، وأصبحوا وليس لهم من العلم إلا زيّه ، صارت تصدر عنهم فتاوى ضعيفة تدل على جهل بالشريعة ، وتتناقلها أيدي العارفين ، وتعرض على الشيخ اسماعيل الحائك في جملة من تعرض عليه من أهل الفقه . وكان الشيخ اسماعيل حائكاً بالفعل ، وهو فقيه حنفيٌ محقق مشهود له بين أقرانه ، ومعروف في بلده ، فيبين وجه الخطأ فيها ، ويدل على الصواب ، والقول الصحيح ، أخذاً من المراجع والامهات المعتبرة . ويبلغ المفتي اعتراض الشيخ اسماعيل على فتاويه فيغضب ويغضبُ جماعته ، ولا يجدون للنجاة من تحكمه بفتاواهم باباً .

وكان من عادة الشيخ اسماعيل أن ينقطع يوم الجمعة عن عمله في الحياكة ، ويذهب في الضحى إلى الحدائق راكباً حماره ، يجعل في خرجه ماياً كل ، وكتباً يطالعها . وكان في طريقه إلى نزهته يجتاز بدار الفتوى غالباً ، فاتفق في بعض الجمع أن صادف الشيخ وهو ذاهب إلى البستان ، على باب آل العمادي ، ابن المفتي وأخاه فسلم عليهما . فقال له أحدهما بتهكم وازدراء إلى أين ياشيخ اسماعيل ، هل أنت ذاهب لأخذ منصب الفتوى ؟ فأجابه الشيخ : أفعل إن شاء الله . ومضى الشيخ في طريقه ، وتحوّل من سكة أخرى إلى داره فأخذ شيئاً مما كان

ادّخر من الدراهم ، ودفع لزوجه جانباً ، وسافر على حماره يريد الاستانة ، فبلغها في أربعين يوماً . وجعل يجلس في حانوت على باب الخان الذي كان نازلاً فيه . وعرف صاحب الحانوت وجيرانه ، أن هذا الرجل الشامي من العلماء . فكانوا يحترمونه ويكرمونه . واتفق أن عُرضت على الدولة من بعض الدول الأجنبية ، فتوى تعذر على علماء الاستانة الاجابة عليها ، وقص بعضهم على الشيخ قصة الفتوى ، وعجز العلماء عن معالجتها ، وحمل الشيخ على الذهاب إلى أمانة الفتوى ، ليأخذ السؤال منها ويجيب ففعل . ولما عرض ما كتبه على شيخ الاسلام أعجبه ، فبعث يستدعيه ، وعرض جوابه على السلطان فسرّ كثيراً ، وصدرت إرادته بمنح الشيخ منحة عظيمة من الدنانير ، وقال لشيخ الاسلام : لا شك أن هذا العالم الكبير قدم العاصمة لغرض له يريد تحقيقه ، فاسأله ما شأنه وما يريد ، فقال الشيخ اسماعيل : افتاء دمشق وتدريس المدرسة الفلانية والوقف الفلاني ، فكتب له المراسيم بها . وعاد شيخنا الحائك على حماره حتى بلغ دمشق . وحدثته نفسه أن يجتاز بيت العمادي قبل أن يدفع كتاب السلطان إلى والي البلد بنصبه مفتياً ، فصادف على الباب أيضاً شقيق المفتي ، فسأله بتلهف أين كنت يا شيخ اسماعيل ؟ إنا لم نرك منذ زمن طويل . فأجابه ألست كنت قلت لي أن آخذ الفتوى ؟ فأنا عملت بقولك فوجهها عليّ السلطان ، فسقط في أيدي بني العمادي ، وذهب الحائك العالم بالافتاء ، وخصومه يظنون أن منصبهم يدوم لهم بالجهل آخر الدهر .

أدب

دعاني السيد توفيق البكري نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية إلى تناول طعامه في سرايه في الخرنفش بالقاهرة المعزية، فرأيته متكلماً منطيقاً، حلو الحديث، يمت الى الأدب بصلة قوية، وهو أقرب الى أن يكون شاعراً منه إلى أن يكون ناثراً، وأدنى إلى أن يكون أمير مجلس من أن يكون رجل سياسة. يجيد الفرنسية اجادة حسنة، ويجمع بين معرفة القديم والحديث.

وسألت عنه استاذه الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، وكنت أعلم أنه أخذ عنه كثيراً، وأن بينهما صحبة وثيقة فقال لي: ما رأيت رجلاً فتح الله عليه بغلط مثل توفيق البكري في كتابه أراجيز العرب، فهو من أوله إلى آخره مغلط. وهذا كلام غضبان ينطوي على كثير من المبالغة. ومما قال لي الشيخ الشنقيطي في ذاك اليوم: انه ليس في مصر من يفهم كلام العرب غير اثنين (الشيخ محمد عبده) و (أحمد تيمور بك) — وأظنه سمى شخصاً آخر نسيته — وهذا أيضاً من المبالغة بمكان.

بعث الي السيد توفيق البكري ذات يوم يستدعيني إلى داره لغرض مهم. فذهب الفكر حالاً إلى أنه يريد أن يستنصرني في مسألة له خاصة وقدم لي مبلغاً من الجنيهات لمعاونتي على اصدار مجلة المقتبس. فقلت له: يا صاحب السماحة — وكانت رتبته باية استانبول — إن المجلة رأس مال ودخلها يفي بخرجها، وشكرته، وظهر عليَّ الانقباض. ثم التفت وقلت له: ثق أن جريدة الظاهر — وكنت رئيس تحريرها — لا تدخل في مسألتكم وهذه مسائل لا تنفع القراء، وليس من مصلحة الجريدة أن تخوض فيها. فسر بذلك، وانصرفت ولم ألقه بعدها.

كان السيد البكري على جانب عظيم من الذكاء، وضع عدة كتب في الادب، ونشر في الصحف والمجلات نظماً ونثراً، وكان عظيم الهمة في الطبع والنشر. وأحب أن تقرأ أسفاره في الشام، فدفع الي عدة مجموعات منها أرسلتها إلى أصحابي.

والظاهر من حاله أنه كان يحب المغامرات السياسية ، أثر الجهد في مجموعته العصبية ، فاستلزمت صحته ان يصرف عدة سنين في مستشفى الأمراض العقلية في لبنان ، عاد في آخرها إلى مصر فمات فيها . ولو كان عقله على نسبة ذكائه ، لجاء منه رجل ينفع مصر كثيراً .

ليس من اشتهروا في القاهرة هم كل رجال مصر فهناك في الريف من اصقاع الفلاحين ، الوف من فضلاء القوم امتازوا بصفات طيبة ، وعلم جم ، وأدب غزير وهم لم يشتهروا ، ويذهبون من هذا العالم ولا يعرف بهم أحد ، وما زلت أهتدي إلى أناس من هذا القبيل كلما زرت بعض ضياع الوجه البحري والوجه القبلي وتحدثني نفسي أن بعض من اشتهروا كانوا مدينين بشهرتهم لنزولهم العاصمة ولاعتبارات اخرى تنشأ بالضرورة في البلدان الكبيرة .

دعاني صديقي عبد المعطي حسين عمدة الصوالح في الشرقية يومئذ (أي قبل أكثر من ثلاثين سنة) مع استاذي الشيخ طاهر الجزائري ، وصرفنا عنده ثلاثة ايام ، فكان يزورنا كل يوم شيخ من قرية قريبة من الصوالح أنسيت اسمه واسم قريته (عرفت بأخرة ان اسمه الشيخ حسين ابو مكي) وكان في نحو الستين من عمره ، يذاكر شيخنا في مسائل عويصة من العلم تدل على تبحره في الشرع وشدة حرصه على نشدان الحقيقة ، فسألته عن ترجمته ، وانا متعجب من حاله ، فعلمت انه يعيش من زراعته ، وانه درس في الازهر حباً بالعلم والتفقه بالدين فقط ، ولم يأت القاهرة منذ عهد الطلب ، وشهد الله اني ما عددت عليه خرافة واحدة على كثرة ما افاض فيه من الاحاديث خلال الايام الثلاثة التي لزمنا فيها وسلانا . ومن العجب الا يظهر مثل هذا العالم بالمظهر الذي يليق بعلمه ، ولا يعرف قدره حتى اهل قريته . وكم في المغمورين من هم افضل من النابهين .

وكم في العرس ابهى من عروس ولكن للعروس الدهر ساعد

أمي صاحب أخلاق

تولى ولاية سورية على العهد العثماني وال اسمه حسن باشا . وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، قيل انه كان مصارعاً عند السلطان عبد العزيز . وكان طيب القلب ، نقي السريرة ، لا يحب الحاق ضرر بأحد . هذا الوالي الأمي دفع عن سورية غائلة عظيمة ، لما جيء به من بغداد إلى دمشق ليحقق في قضية جمعية سرية كانت فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي . وكان دخل فيها نحو ثلاثمائة انسان فيما أذكر في دمشق فقط . وأدخلني رفيق بك العظم في جملة الداخلين على صغر سني يومئذ ، وأنا لا أعرف إلا من أدخلني ومن أدخلته بعدي .

كان المشير عبد الله باشا قائد الجيش الخامس يؤكد وجود الجمعية ، ويؤيد رأيه أحد كبار الاعيان ، واتفقا على أن الجمعية تبدي نشاطاً كبيراً في بث دعوتها، وأن برنامجها مضر بكيان الدولة . فلما جاء حسن باشا كذب المشير وصاحبه تكذيباً قطعياً ، وزيف تقاريرهما إلى المابين ، وأطفئت المسألة وخفت صوت الجمعية وصار للوالي حظوة عظيمة في ولايته ، ولولا سياسته لخربت عشرات من البيوت ولامتلأت السجون بالمجرمين السياسيين ، هذا ما تم على يد أمي بصير . وكان هذا الوالي سأل كبيراً من علماء بغداد أن يدعو له فقال له : بصَّرك الله بالعواقب ، فكان حقاً من البصراء بالعواقب .

كنت في تلك الاعوام كاتباً في قلم الامور الاجنبية فشهدت مجلسيّ ذاك الوجيه يكثران من زيارتي . وقال أحدهما يوماً هازئاً بمن يطعن على والده لطوعه في كشف سر الجمعية ان هـذه وظيفته . وهو يفاوض المابين مباشرة بالارقام ، ولاتسل عن حراجة مركزي يومئذ ، وعما كان يلقيه عليّ أحدهما من الاسئلة ، فكنت أتباله ، والتباله ينفع في مثل هذه الأحوال ، وأتحاشى معهما الخوض في شيء اسمه سياسة حتى مضت الأعوام الطويلة ، وما عرف صاحباي أني رب شبهة ولله الحمد . وأهم ما كان يعجبان به أني كنت متمكناً من الفرنسية . ومعرفة المسلم

الفرنسية في ذاك الدور كانت تعد منقبة عظيمة . وقد طلب مني والي الولاية حسن باشا أن أدرّس ابنه النجيب هذه اللغة ، فكنت أكرر له اللفظة أربعين مرة فينساها في المرة الحادية والاربعين ، فغضبت على اليوم الذي تعلمت فيه هذه اللغة ، وما جنيت منها إلا تشهي الولاة عليَّ كل حين تعليم أولادهم .

كان ذاك الوجيه شريك المشير في القول بتأصل حزب الاتحاد ذكياً منوراً غير محدود العقل . وكان بعض الاعيان يتنافسون في كسب رضا رجال الاستانة والتقرب من قلوب عمال الدولة في سورية ، وعلى ذلك كانت تتوقف مظاهرهم ، وبغير هذه الاساليب لاتحمى ثروتهم . وأذكر أن والدي ابتاع لي كتباً من احدى التركات ، وكانت تباع التركات في الجامع الاموي بعد صلاة الجمعة ، وغرّم فيها ألفاً وخمسمائة قرش فبلغ ذاك الوجيه الخبر ، وجاء إلى دارنا في المساء ، وكان يعرف والدي وله به صحبة فطلب إليه أن يعطيه الكتب أو بعضها على سبيل العارية فأبى والدي أن يدفعها إليه وقال له : إنني اشتريتها للصبي يتعلم بها ، ولا سبيل إلى أن أخرجها من خزانته حتى لا أكسر شوقه . وقال لي بعد انصرافه : يا ولدي لو دفعناها إليه ما عادت إلينا .

اجتماعات مفيدة

كنا جماعة نجتمع على قراءة كتاب بعض ليالي الأسبوع ، يكون موضوعه الدين أو التاريخ أو الأدب ، فاذا فرغنا من المذاكرات العلمية تجرنا الاحوال إلى البحث في الشؤون السياسية ، وكان اجتماعنا في بيوتنا ، وفي مدرسة عبد الله باشا في غرفة محمد علي افندي مسلم ، وكان على جانب عظيم من الأدب والتهذيب ، ومن أخصاء شيخينا سليم افندي البخاري والشيخ طاهر الجزائري روح تلك الجماعة . وكان يدعي صداقتنا كلنا أحد رجال الشرطة والظاهر من حاله أنه يحب الجماعة ويعشق الاجتماع بهم ، وان نفسيته ليست نفسية شرطي يعمل لحساب الشرطة التركية ، وينقل إليها أخبار جماعتنا ، وكثيراً ما كان بعضهم يفتح قلبه وينطلق حراً في كلامه . وأظن الكبار منا يومئذ بعلمهم وتجربتهم ما كان يخفى عليهم أمره ، وما استطاعوا دفعه عنهم خيفة أن ينبهوا الانظار اليهم ، وعندها لاتؤويهم دمشق ، ويُشتتون تحت كل كوكب ، وهذه القاعدة في تأليف قلوب أصحاب الاخبار كثيراً ما كان يعمد اليها أصحابنا وأنا أتابعهم عليها مكرهاً ، فكنت أبش في بعض وجوه بعضهم وقلبي يلعنهم .

كان هذا المجلس نافعاً من كل وجه ، كأنه مبعث دعاية إلى الحق والنور في عاصمة ماخلت في كل عصور الاسلام من علماء عاملين ، يرمون ببصرهم إلى بعيد ، ويرون من واجبهم أن يعملوا للأمة كل مفيد . وكان بعضهم ينظر إلى هذه الجمعية نظر الريبة ، وتذهب الظنون في الحكم عليها مذاهب ، وكلما كانت المطاعن توجه إلى القائمين بها يزيدون تآلفاً وتماسكاً . وعقل الشيخين الرئيسين يرد عنا ضربات أصحاب الاغراض ، ويقيها شر الدساسين والسائسين وكان معظم الطاعنين يعرفون مايجري فيها من الاحاديث النافعة ، وما يلقى فيها من النكات والبدائع ، فتشتاق نفوسهم إلى الانضمام إلى أربابها ، ولا يتيسر لهم ذلك .

عرف بعض الأعيان أن جماعة أكثرهم من العوام ، يجتمعون عند أحد التجار مرة أو مرتين في الأسبوع ، برياسة شيخنا السيد محمد المبارك وأن من جملة من يضم هـذا المجلس استاذ الشيخ المبارك الشيخ طاهر الجزائري . وكان ذاك الوجيه يكره الشيخ طاهراً كما يكرهني . فأرسل أحد خاصته ينبه على صاحب البيت الذي يختلف اليه الجماعة ، وكان تاجراً متمشيخاً متصولحاً ، فقال له في سرّ ، إن الوالي غاضب غضباً لا مزيد عليه على الشيخ طاهر وعلى تلميذه كرد علي ، فمن كلمهما يستهدف لغضب الوالي وغضب الوالي من غضب السلطان ، وغضب السلطان من غضب الله ، فكلم التاجر شيخ الجماعة وتعاهدوا في الحال على ألا يكلمونا — وانا لم أدخل مجلسهم قط ولا أعرفهم إلا من بعيد — ولم يلبث الدخول في هذه المؤامرة غير صديقين لنا السيد عبد الباقي الحسني ، ومحمد افندي الحكيم ، فأخذا يتعمدان الاكثار من زيارتنا أكثر من قبل . وما لبث شيخنا المبارك أن تبين له تعجله في تصديق الدساسين ، وأدرك كيف حيكت الدسيسة . وكان للشيخ طاهر يد طولى في كشف المؤامرة ، وما خلت من نكات أضحكت جماعتنا وتلهوا بها زمناً . ذكرت هذا نموذجاً من أخلاق الأعيان .

وزار الشيخ طاهر على أثر الفتنة الفاشلة مدينة القدس ، وعاد يثني على أهلها ، فعجب الحاضرون من المبالغة في مديحهم ، وكلهم يعرف أن المقادسة لا يمتازون بشيء عن غيرهم من سكان مدن الشام . فسأله الأمير شكيب ارسلان ، وكان حاضراً في الجلسة : يامولاي وما وجه تمييز اهل القدس عن غيرهم ، وانا ارى ان اهل دمشق احرى بهذا الثناء . فأجاب الشيخ : اهل القدس جهلاء ويعترفون بجهلهم ، ويحبون ان يخرجوا منه ، فيحاولون ان يتعلموا اما غيرهم من اهل المدن الأخرى فانهم لا يدرون ولا يدرون انهم لا يدرون . فجهل المقادسة إذاً جهل بسيط وجهل غيرهم جهل مركب . فرفع شكيب يديه إلى السماء ، وقال : اللهم ارزقنا هذا الجهل البسيط . والشيخ يقصد من ذلك شحذ الهمم ، والقاء المنافسة بين البلدان لتهب نحو العلا .

شعراؤنا

الشعراء الخمسة المجمع على تقدمهم البارودي فصبري فحافظ فشوقي فمطران . كان البارودي مجدد ديباجة الشعر الحديث وكان صبري مثال الرقة في الشعر وحافظ آية الجزالة والوطنية الملتهبة وشوقي أمير الشعراء حقاً خاض في موضوعات لم يخضها أحد قبله من شعرائنا ، ومطران أدخل في الشعر العربي روحاً جديداً وكان آية الابداع في كتابته وشعره وأحسن مابه أنه الشامي الوحيد الذي نزل مصر وتمصر وما عدت عليه غلطة فكان مخلصاً لوطنه الثاني اخلاصه لوطنه الاول . واذا قلت ان صديقي الابر خليل مطران هو أول من رفع رأس الشامي في مصر وكان مثال المروءة والفضل لا أعد مجازفاً .

أما شعراء الشام والعراق فكثير عددهم وممن قرأت من المتأخرين شعرهم واعجبت به خير الدين الزركلي بشارة الخوري فؤاد الخطيب شفيق جبري خليل مردم بك عمر أبو ريشة محمد سليمان الاحمد (بدوي الجبل) ومن العراقيين رضا الشبيبي معروف الرصافي جميل صدقي الزهاوي وكل قصائد هؤلاء النوابغ مما يرقص ويطرب ويعلم ويهذب .

شر أصبح خيراً

وقع في ملك الخديوي اسماعيل جزء عظيم من أراضي مصر رأى أنها تحتاج إلى ترعة ترويها وكان أكثرها ماعرف الريّ منذ عرف التاريخ وأهلها يموتون بقربها عطشاً والنيل على مقربة منهم فعمد الخديوي إلى الطرق التي ماعرف الناس غيرها إلى ذاك العهد وهي السخرة فسخر الفلاح وكانت السياط تنهال على أجسام الفلاحين وهم يفتحون لغيرهم ترعة لابنائهم منها أدنى خير وتقلبت

الاحوال وتنازل اسماعيل عن عرش مصر وكان الاحتلال فرأى اللورد كرومر مصلح مصر أن هناك أراضي واسعة ربما بلغت نحو نصف المزروع من أرض القطر المصري يومئذ وكان اسماعيل عجز عن ادارتها وما كانت لتغل له ما ينفق عليها فاستدان بالدائنين من الافرنج فما هي إلا أعوام حتى آلت إليهم ملكيتها وهم أيضاً ما عرفوا كيف يديرونها . فكان رأي كرومر هو الصواب قسمها وباعها من المصريين فعاد إليهم ملك كان خرج من آبائهم بطرق غريبة وانتفعت مصر كلها بترعة الابراهيمية وهي ترعة صناعية طولها ١٥٠ كيلو متراً تمشي على وجه الارض بعض الاحيان تمتد من ديروط إلى عمل اسيوط إلى الجيزة في حيطان القاهرة ، أصبح ذاك الشر بعد نصف قرن خيراً لمصر .

فقيد السياسة الغالي

احتفلت الجمهورية السورية بمرور سنة على وفاة الزعيم العظيم السيد سعد الله الجابري رحمه الله واشتركت البلاد العربية بهذه الذكرى ذكرى عظيم خدم استقلالها .

وقد تلي في الجامعة السورية مقر الاحتفال من ضروب المنظوم والمنثور كل جيد وأثبتت الأمة أنها تقدر رجالها أقدارهم .

خرج صديقي سعد الله من الدنيا ولم يخلف سوى ثيابه واسماً لا يبلى وكان شقيقه الاكبر الصدر المقدم السيد فاخر الجابري هو الذي يتولى الانفاق عليه لأن ماتؤديه اليه الامة ما كان يكفيه للصدقات أما أجور الفنادق وسائر نفقات الفقيد الباهظة فكان يسددها السيد فاخر وما زال بنو الجابري في حلب منذ أيام الترك يحملون مشعل الوطنية العربية وقد عانوا في سبيلها أشد الآلام وما التوى لهم عصب وظلوا على ما توجبه المروءة قدوة من أحب وطنه وعرف واجباته .

ما يغلب على مدن الشام

عنوان مستغرب وأغرب منـه الحكم الذي نحكم به الآن في موضوع يصعب الخروج منه واعني به الغالب على كل مدينة والظاهر من التجانس في كل بلد . فاهل دمشق لا كلمة فيه إلا للمسلمين وسائر الطوائف تتبع لهم في السراء والضراء وأهل حمص يشـترك مسلموهم ومسيحيوهم مشاركة قوية لان لكلتا الطائفتين غنى وله رجال وأهل حماة لاشأن فيه لغـير المسلمين وأهل حلب يتقاسم المسلمون والمسيحيون السلطان شق الأبلمة ولا أرى أجمل من تجانسهم واحترام بعضهم بعضاً وهذا قديم فيهم وبقي متسلسلاً في أصولهم وفروعهم إلى اليوم . لذلك وقى الله بلادهم شر الدسائس السياسية فلم تقم بها مذبحة ولم يكد يعتدي مواطن على مواطن كما حصل في دمشق وبيروت سنة الستين وبعدها وقبلها وأهـــل طرابلس نموذج المواطنين الخلص الوطنية الصحيحة وان كان أكثرهم مسلمين لايشعر كل ساكن فيها إلا أنه أخ لمواطنه حقيقة وأهل اللاذقية ديمقراطيون بكل مافي الديمقراطية من معنى شريف كأن صنيعهم هـذا تكفير لسيئات الارستقراطية المتأصلة في جبالها وأهل بيروت كسائر المدن التجارية في حوض البحر المتوسط مشاغيل بتجارتهم لاتهمهم السياسة إلا إذا مزجوها بالتجارة والتجانس يقل فيهم . ولما كان المسيحيون أكثر تعلماً كانوا بالطبيعة المسيطرين على المسلمين وإن كانت الاغلبية في لبنان للطوائف الاسلامية وفي يافا الكلمة الاولى للمسلمين وفي القدس وتل أبيب لليهود وكذلك يقال في حيفا . وعكا وصفد اسلاميتان والناصرة نصرانية ونابلس وغزة اسلاميتان وهكذا كل بلدة يغلب عليها السواد الاعظم سنة الله في خلقه .

انصاف آلهة

كثيراً ماانتقدت في باطني ما أراه من اعتزال بعض أعضاء الاسرة المالكة في مصر يشيحون بوجوههم عن الرعية كأن لسان حالهم أنهم من عنصر غير عنصر الامة التي هم بعض أفرادها وما ميزهم عنها إلا كون جدهم الاعلى كان له الفضل الاعظم على مصر واشتغل لمصر فقط لا لنفسه خلافاً لاكثر أخلافه . نعم اشتغل أكثرهم بانفسهم فما أغنوا أنفسهم ولا أمتهم على نقيض ما كان من الامير عمر طوسون رحمه الله فان هذا من الشذوذ فيهم بسيرته وهديه . ويسرني أن بعض أبناء هذه الاسرة الكريمة طلقوا العزلة فى العهد الاخير واختلطوا بسواد الشعب وعدوا أنفسهم خدمة للعملة وأرباب الصناعات والحرف والطبقات التي يسمونها النازلة وهي سواد الامة والحجر الاول في بنيانها ، والرجاء أن يجري سائر أفراد البيت الملكي على هذه الطريقة لينفعوا وينتفعوا . وأنا على حساب نفسي آليت ألا أسأل عن أحدهم وكان صديقاً لي ويظهر لي التودد العظيم إذا قصدته واجتمعنا . ولكن ماكان يسأل عني ولو غبت عنه سنين فهو من الضرب الذي يجوز أن نسميه انصاف الالهة كأنه نسي إن ماكان يمثل في الماضي لايتأتى الآن تمثيل مثله وأن القلوب لاتستمال إلا بالعطف . وان كل إنسان في غنية عن الآخر مادام البشر كثيراً عديدهم . وما جزاء الاحسان إلا الاحسان ،وإن من لايعمل الخير بدافع نفسي لايحمله في نظر الامة شيء .

التطويل في المقالات

زرت الاستاذ عبد القادر حمزة صاحب البلاغ في إدارته فجاء ابنه محمد فقلت له اريد أن ألفت نظرك إلى المقالات الأدبية التي تكتبها في البلاغ كل اسبوع فانها مطولة جداً وما اخال احداً يقرؤها واللغة العربية لغة الايجاز وأنت لا تكتب قصة ولا رواية تتوسع فيها لتأخذ من وقت القراء فهلا عودت نفسك الاختصار ما أمكن فلو كتبت ثلاثة أعمدة بدلاً من ستة لكان الأمثل بك ولماذا لا تقتدي بوالدك وايجازه في أدق الموضوعات السياسية وقد كان بطريقته هذه العامل الأول في اسقاط وزارة من أرسخ الوزارات واكفاءها فقال عبد القادر حمزة اسمع يا بني نصيحة الاستاذ الحكيمة واجعلها منهاجك في حياتك الصحافية تنجح بحول الله .

الرافعي مؤرخ العصر

طالعت كل ما خطته انامل الاستاذ الكبير عبد الرحمن بك الرافعي في تاريخ مصر الحديث فرأيت امانة المؤرخ وبحث العالم ونظر السياسي متجلية في كل صفحة من صفحات كتبه . ولقد حاول بعضهم ان يكتبوا في تاريخ مصر ومنهم حملة الشهادات العالية من جامعات الغرب واساتذة في جامعة مصر فما افلحوا وكانوا ان تمت لهم الادوات تخونهم التجربة فينقلبون نظريين لا عمليين ومنهم من عد التاريخ باباً من أبواب الرزق فكتب تاريخاً في سيرة بعض الولاة المتأخرين في مصر كان في كل صفحة ينادي على نفسه بالغلو والمراوغة ومنهم الافاقون أشبه بمراسلي الصحف اليومية لا يهمهم ان يكذبهم الواقع ولا تحمر وجوههم إذا انكشف كذبهم ولذلك حق لي أن أقول أن حبيبي السيد الرافعي هذا هو مؤرخ العصر الحديث في مصر بلا مراء بل مؤرخ الأقطار العربية لأننا لم نطلع على تواريخ لها تروي الغلة من كل وجه وإذا جود بعضهم في ناحية فالمخرقون أوفر عدداً على مارأيت .

تمثال تيمور

لقيت اسماعيل باشا تيمور في قصر عابدين وذكرته بما اقترحه يوم ذكرى والده في اوبرا مصر (فبراير ١٩٤٥) من اقامة تمثال له وحضضته على العناية بهذا الأمر المهم الذي يحفز الشباب إلى السير على أقدام الشيوخ فبكى وقال لي لم أجد أحداً وفى لوالدي مثل ما وفيت له أنت فأجبته لو كنتُ مت قبل أبيك لقام نحوي بأكثر مما قمت أنا نحوه . بدأت مصر باقامة تماثيل للسياسيين الوطنيين وهي بعيدة اليوم عن اقامة تماثيل للعلماء العاملين ولو كانوا من عيار أحمد تيمور باشا قضوا حياتهم كلها في عمل الخير ونشر العلم وما فكروا فيما سوى ذلك .

أما الاقتراح فقد كتبته إلى صديقي الشيخ خليل ثابت بك رئيس لجنة الاحتفال ورئيس تحرير المقطم الذي جعل من هذه الجريدة مدرسة سيارة تعلم قارئها سياسة الدول والامم ولا تطالعه بغير المعقول .

عزيزي الاستاذ خليل بك ثابت المحترم

تفضلت وطلبت اشتراكي في إحياء ذكرى صديقي العلامة « أحمد تيمور باشا » رحمه الله . وإذ قد سبق لي أن دونت كل ما عرفته من سيرته الخاصة والعامة لم أرَ الآن أن أشغل الناس بحديث معاد . وغاية ما أرجو أن ينجلي اجتماع يوم الذكرى عن تحقيق أمنية من عرفوا جهاد تيمور العظيم في خدمة الادب وذلك بطبع كل ما خطته يمينه من كتب ورسائل ومقالات وتعليقات . وإذا صحت النية على البر بعلم الاعلام فخير ما يكون منه تعليم المصريين أن يقام له تمثال ينصب أمام مجمع فؤاد الاول للغة العربية عنواناً على الاعتراف ببيض أيادي ابن مصر البار على هذه اللغة وعلى تاريخ الاسلام .

والسلام عليك أخي

محمد كرد علي

الشاميون في مصر

كتب إليّ أحد شبان الدمشقيين من نزلاء مصر ، وأنا في تحرير « المؤيد » ، يرجو أن أعاونه في الجريدة على تأليف جمعية سورية اسلامية تتولى من الشاميين في القطر المصري ما تتولاه جمعيات البر والاحسان التي يؤلف مثلها النزلاء الاجانب فنصحت له أن يعدل عن هذه الفكرة لأن الشاميين المسلمين في مصر ينزلون على اهلهم وعشيرتهم ، اما غير المسلمين من اهل الشام ، فان شعَر بعضهم بالغربة في مصر فذاك لأن منهم من جاؤا القطر واستخدموا في اعمال آلمت المصريين ، كوظائف الأمن العام وغيرها (ومنهم افراد كانت لهم علائق غير محمودة مع ارباب المقامات العالية خلفوا بها الوفاً من الفدادين وعقارات كثيرة ، وتمتعوا بأضخم الألقاب) فأبغضهم المصريون واستثقلوا ظلهم .

ولما نشر هذا الرأي حملت عليّ كل جريدة فيها يد للبناني ، وانحوا عليّ انحاء شديداً ، وزيفوا اقوالي ، وعتبوا عليّ أن وصمتهم بما وصمتهم ، فحمدت لهم تماسكهم ودفاعهم عن ابناء مذهبهم ، وتمنيت لو كان المسلمون في كل ارض على مثل هـذا القدر من التعاون . وما انقذني من ايدي المحررين الذين كتبوا في ما كتبوا إلا الشيخ طاهر الجزائري واحمد زكي باشا ومما قاله زكي باشا في معرض الدفاع عني ، لينقذني من مخالب المهاجين : إني لم ارزق حظاً من التعبير فيما كتبت فبدت مقاتلي .

وحقيقة اني ما زلت اكره التمييز بين سوري ومصري ومغربي ، لمضرة هذه التفرقة بين شعوب لافارق بينهم في الحقيقة . ولقد زرت مع بعض اصدقائي السوريين ناديهم في شارع وجه البركة بالقاهرة فأنكرت على جماعته تسمية ناديهم بالنادي السوري وعددت هذا هضماً لحقوق مصر في مصر . وزاد انكاري لما عرفت انهم ما ادخلوا معهم احداً من المصريين ، بدعوى ان السوريين المسيحيين يأتون مع نسائهم إلى النادي ، والمصريين يحضرون وحدهم ، فقلت لصاحبي : إنكم

بذلك تسيئون لانفسكم اكثر مما تسيئون للمصريين ، فان تباعدكم عنهم يضركم وقد لا يضرهم ، اما وقد هاجرتم من بلادكم هجرة قطعية ، ومنكم من هاجر من مئة وخمسين سنة ، مثل اجدادك انت (اي مخاطبي) فلا معنى للاحتفاظ بالثوب القديم بل حسبكم الجديد وعليكم العناية به ، حتى يطيب العيش مع اهل القطر بامتزاجكم بهم فتفيدون وتستفيدون . وإني اعرف رجالاً من الشاميين قضوا في مصر اربعين سنة واعتنوا فيها وتناسلوا ، وعظمت مظاهرهم ، وما عرفوا من المصريين إلا ظواهرهم ، فأي جفاء اعظم من هذا الجفاء ؟ .

ولطالما تألمت نفسي في مصر والشام ممن ينشيء نادياً او جمعية يسميه او يسميها بالكاثوليكية او المارونية او الارثوذكسية او القبطية او الاسلامية او العلوية او اليهودية ، . وكل ذلك تفرقات لا معنى لها في هذا العصر .

ظلّ المصريون اي سوادهم الاعظم إلى عهد قريب يعتقدون ان الشاميين ليسوا سوى اللبنانيين الذين جاءوا مصر ، وتاهوا وباهوا على عهد الاحتلال الانكليزي ، ذلك لأنه قلّ المهاجرون من مسلمي الشام من الطبقات الصالحة ، ولما هاجرت طبقة راقية من المسلمين ، أدرك المصريون أن الشام على غير ما كانوا يتخيلون ، وأن لبنان جبل من جبال الديار الشامية اقتضت سياسة أوربا ، وتنافس البرتستانتية مع الكثلكة أن يتعلم فتعلم قبل غيره . وأن في رجال الاسلام أناساً يفكرون تفكيراً صحيحاً ، وينشرون الجرائد والمجلات ، ويعرفون معنى المدنية ويتذوقونها ويدعون اليها .

قال أحد المفكرين إن مصر لم يجئها من الشمال إلا فاتح . ومن الغرب إلا صاحب طريق ، ومن الجنوب إلا خادم ، ومن الشرق إلا تاجر ، وهو كلام في جملته صحيح يثبته الواقع ، فالسوريون أتوا مصر تجاراً ولذلك يستثقل ظلهم بعض المصريين . وقد ادعى عميد الاحتلال لورد كرومر في بعض كتبه في مصر أن الجالية السورية فيها أرقى من جميع الجاليات بتهذيبها وترتيبها ، وأظنه تشيع لهم بعض التشيع ، وقصد بهذا الثناء مكافأتهم على حسن خدمتهم لدولته ، فحكم على المجموع بما لقيه من رقي أفراد .

لولا لائحة رياض باشا التي تحظر على غير المصريين الاستخدام في وظائف الحكومة المصرية إلا بشروط ، حتى لا يحرم المصريون التوظف ، لزاد عدد السوريين كثيراً في خدمة مصر . وعادت هذه اللائحة مع هذا على السوريين بفائدة عظيمة ، فتعلقت هممهم بالتجارة والزراعة ، وانصرفوا عن الاستخدام إلى الاعمال الحرة فاغتنوا ، وجاء زمن وقد بلغت ثروتهم في مصر خمسين مليون جنيه أو عشر ثروة القطر المصري ، وذلك قبل أزمة سنة ١٩٠٨ .

ومما كان يؤلم المصريين دعوى بعض الشاميين أنهم حملوا إلى المصريين النور والعلم ، وكانوا من قبل في عماية وجهل ، لا يقيمون وزناً للمدنية . وهي دعوى غير صحيحة كررها بعض اللبنانيين كثيراً ، وما زالوا يكررونها حتى اعتقد السذّج من بينهم بصحتها ، فان المصريين ، والتاريخ ناطق بذلك كانوا سائرين نحو المدنية قبل الشاميين بعشرات من السنين ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمذاهب التعلم والتربية منذ فجر القرن التاسع عشر ، وقد أنشئت مدرسة الطب واللغات عندهم منذ أكثر من مئة وعشر سنين .

والشام لم يعهد فيها شيء من علوم الحضارة الحديثة قبل أن وافاها المرسلون الأجانب بكثرة ، عقب مذابح سنة ١٨٦٠ ثم انشئت المدارس في لبنان ، ومن أهله من تعلموا في مدارس الاميركان البرتستانية ، ومنهم من تعلموا في مدارس الفرنسيين الكاثوليكية . وبالاحتلال الانكليزي ١٨٨٢ كثر تسلل اللبنانيين إلى مصر ، فمنهم من كان يستخدم في الحكومة ، ومنهم من يترجم في الصحف ، أو يستخدم في بعض المصارف والشركات كاتباً أو محاسباً أو وكيلاً أو سمساراً ، وكان المصريون في ذاك العهد يقبلون على التوظف في الحكومة ، ويفضلون الوظائف على غيرها من مذاهب المعاش ، ومنها الصحافة .

فلما امتلأت الشواغر في الدواوين ، انقلب المصريون نحو الصحافة فأنشأوا جرائد ومجلات لا تقل بمكانتها ومظهرها عن الجريدتين اللتين عاونتها فرنسا وانكلترا ، ولا عن المجلتين العظيمتين اللتين عاشتا بمعونة وزارة

المعارف . وما كان « المؤيد » و « اللواء » من حيث التحرير يقلان يومئـــذٍ مكانة عن « الأهرام » و « المقطم » ، ولا تقلّ مكانة مجلة « الثقافة » و « الرسالة » اليوم عن مكانة « المقتطف » و « الهلال » ، فليس من الانصاف والحالة هذه أن يقال : إن الشاميين علموا المصريين ، وقد سبق المصريون إلى إنشاء الصحف والمجلات ، وما حال دون اطراد صدور ما صدر منها إلا داء التوظف ، وما زالت عقـابيله متجليةً فيهم إلى الآن ، وهو من أمراض مصر وقاها الله منه .

الاشتغال بالصحافة

بدأتُ أقرأ الجرائد العربية في الثالثة عشرة من عُمري ، وأنا في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية . وبعد حين اشتركت بجريدتين (بيروت) الأسبوعية و (لسان الحال) نصف الأسبوعية . وما كان يصدر في دمشق إلا جريدة (سورية) الرسمية الأسبوعية ، وهي ذات وجهين ، وجهان منها بالتركية ، ووجهان بالعربية ، وعربيتها مترجمة عن التركية ، مثال الركاكة وضعف التركيب ، تُنشر فيها الأوامر الرسمية ، وما يسرّ الوالي من أنباء حكومته وإعلانات المحاكم .

وأولعت بمطالعة لسان الحال لأن فيه أخباراً طريفةً معربةً عن الانكليزية ، وفيه مناقشات ومساجلات وأدبيات ، واشتركت لما كنت في السنة الثانية من المدرسة الثانوية بجريدة افرنسية أسبوعية تصدر في باريز اسمها (صديق الريف L'ami de la Campagne) ، وكان أهم مباحثها الزراعة وما إليها ، تحببُ سكنى الأرياف لسكان المدن ، وفيها من كل فن خبر ، فشُغفتُ بدرسها ، وكنتُ أقرؤها قراءة تدبّرٍ لا قراءة تفكه ، وقد أتصفحها مرتين وأكثر ، حتى يجيء العدد الجديد . وأطالع بعض الصحف التركية الصادرة عن الاستانة ، ولا سيما المجلات الأدبية والتاريخية . وقد أقرأ بعض المقالات التي تروقني أكثر من مرة ، ولا سيما مقالات كبار الكتاب المفكرين في السياسة والاجتماع . وما بلغت السادسة عشرة حتى أخذت أكتب أخباراً ومقالات في الجرائد .

ما كنت أظن أن هذه البُداءة تنتهي بي إلى الغرام بالصحافة ، ويبلغ بي الحالُ أن أحرر أولَ جريدةٍ ظهرت في دمشق ، وأطرد صدورها مدة ؛ واسمها « الشام » ، كانت تصدر أسبوعية لصاحبها مصطفى أفندي واصف (الشقللي) ، مدير مطبعة الولاية ومدير إطفاء الحريق .

وفي مطبعة الولاية كان يطبع جريدته . ولم يكن يُحسنُ الكتابة بالعربية فاتكل على صهره أديب أفندي نظمي (الطَّناحيّ المصري) ، وكان هذا يُلفّق بين جمل يحفظها لبعض الكتاب المحدثين ، ومنها عبارات لأديب إسحاق ، ويصوغ من عنده بعض جُمل . واتكل أيضاً على إسماعيل أفندي النابلسي من أبناء الأعيان . وكلا الرجلين لم يدرس آداب اللغة العربية الدرس المطلوب ، ولا أرَب له من تحرير الجريدة إلا أن يتخذ منها سُلماً إلى الترقي ، ووسيلة إلى التقرب من قلوب بعض مَن يُهمه التقرُّب منهم . وكلا الرجلين كان في القضاء ، ويعرف القوانين والأنظمة المتعارفة ، ويتكلم بالتركية ويكتبها . وإسماعيل النابلسي من أحفاد الشيخ عبد الغني النابلسي عالم دمشق في المئة الثانية عشرة .

مَلَّ صاحب « الشام » على ما قال من إعنات هذين المحررَين له ، فعهدَ إلي بتحرير جريدته . ولما أخذتُ بالنقل عن التركية والفرنسية شعرتُ بخطورة العمل الذي وُسِد إلي . وأشدُّ ما كان يؤلمني كابوس المراقبة ، وما ألقاه من الغيظ حتى يُؤذَن للجريدة بالطبع . وما كان مراقب الجريدة غير صاحبها وهو من عُمّال الحكومة ، ومن اعرف الناس بما يُرضيها وما يُغضبها ، وغاية ما يتوخى ان يرضى الوالي عنه ابداً . والصعوبة في المراقبة انها لا قاعدة لها يُرجع إليها ، وليس لها قانون ثابت معروف ، وربما كتبتَ القطعة تظنُّ انها لا تروق المراقب فيقرُّها ويستحسنها ، وقد تكتبُ غيرها وانت لا ترى فيها ما يُقال ، فتحذف . فلا قاعدة في المراقبة غير ذوق المراقب وهواه ، ولا قانون إلا ما يستمدُّه من روح الحكومة الاستبدادية . واكثر ما يجب ان يتوقاه المحرر ذكر شيء يمسُّ السلطان من قريبٍ او بعيدٍ ، او يمسُّ عُماله ورجاله وجيشه وإدارته وسياسته ، وألا يشير إلى مسألة تاريخية فيها ذكر الخلافة والحرية والشورى والدستور وقتل الملوك وخلعهم .

ولطالما تألمت نفسي لحذف صاحب الجريدة المقاطع الكبيرة مما أكتب ،

وأحياناً المقالة برمتها . أما حذف الأخبار الصغيرة فأيسر ما يفعل . وقد يحذف ما يكون منقولاً من صحف الاستانة . فاذا سألته عن السبب في ذلك قال : إن هواء سورية غير هواء فروق عاصمة الملك . وكنت أسمع تعليلات وتمحكات ما أنزل الله بها من سلطان .

وددت منذ السنة الأولى أن أستعفي من تحرير هذه الصحيفة إلا أن استاذي كان يقول : إن تحريرك لها بمثابة المشق (يمشق) عليه الأولاد لتحسين خطهم . وعلى هذا بقيت ثلاث سنين في تحرير (الشام) فلقيت من الصحافة عرق القربة لأول أمري ، وبعد ذلك اتصلت بمجلة « المقتطف » المصرية وأخذت أوازر فيها . وكان صاحبها شكا إلى صديقي الأمير شكيب أرسلان أنه مضطر إلى أن يكتب المجلة كلها ، وحجمها يزيد على مئة صفحة في الشهر . وبكتابتي في هذه المجلة امتدت شهرتي . وكلما طال العهد بالصحافة زدت بها ولوعاً حتى بلوت منها الحلو والمر في مصر والشام .

ربَّ شرٍّ أنتج خيراً . فالمراقبة على ظاهرها شر محض ، وقد نشأ لي منه بعض الخير ، ذلك أني مرنت بها على البديهة والارتجال ، لأن تلك المقاطع والمقالات التي يحذفها قلم المراقب بحبره الأحمر ، يضطر المحرر أن يملأ مكانها بأشياء من نوعها ، تكون مقبولة في ذوق المراقب ، والجريدة لا يجوز أن تشطب منها سطور وأعمدة ، وتنشر الملأ كالعين المقلوعة . والوقت ضيق ، والبريد حافز ، والطابع يرجوك العجلة ، والقراء يتوقعون تناول جريدتهم في وقت صدورها ، وإلا جاءك بعضهم إلى المطبعة ، يسأل عن سبب التأخير .

ربما قال القائل وأنت لماذا تتصعب هذا التصعب ، وتتمصب هذا التمصب ، اكتب مايجوزه المراقب ، وتوقَّ ما تعرف أن مصيره الحذف ، وسر بما يمكن لستريح وترح . وهذا كلام يقوله من لم يعش في ذاك الجو المشبع بالكثافات ، ولا يفوتنا أن المراقبة من أشكل المشاكل ، وما هي إلا صراع

بين الحرية والاستبداد ، وناهيك به من صراع ، والقابضون يومئذ على زمام الامر يهزأون بالحرية وأنصارها .

ومما يضحك أن صاحب الجريدة طمع في طبع محرر جريدته الناشئ بطابعه ، فبشرني وهو فرح جذلان ذات يوم بأنه توسط لي مع الوالي فاستكتبه مقترحاً (إنهاء) لي برتبة ، وظن أن هذه البشارة من أعظم ما يزفه إلي من البشائر . وأكبر نعمة أحصل عليها في ذاك الدور ، فقلت له : وأين الكتاب الذي يطلب لي فيه هـذا التشريف ؟ قال أرسل مع البريد إلى الاستانة . فقلت له ، وأنا ممتعض امتعاضاً عظيماً : تعلم ولا شك أني لم أسع لضرر إنسان في حياتي ، وإن كنت أنت قد سعيت لضرري باستحصال رتبة لي ، فسأضربك في مقالتك وأنا أعرفها ، بحيث لا تقوم لك قائمة ، وعندها خاف صاحبي سورتي ، واستعاد الكتاب من البريد أو من الديوان بواسطة جماعة الوالي ، ونجوت من تقلد الرتبة ولُبس القصَب ، وكان المدير يستغرب مني هذه الحركة ، وربما عدها في باطنه رقاعة ، لأن تسعين بالمئة من عمال الحكومة وغيرهم إذ ذاك كانوا مخدرة أعصابهم بهذه الخيالات ، يبذلون ماء وجوههم ولا يخجلون في سبيل أخذ رتبة ووسام وقد يدفعون في ذلك الرّشاوى والهدايا العظيمة ، وكان بعضهم يرى أنه لا معنى للعيش بدون شرف السلطان !

كتبت أول مقالة في مجلة « المقتطف » شيخة المجلات العربية في القاهرة وكان موضوعها « أصل الوهابية » فاتهمني المتهمون بأني وهابي ، وأصبح الوهابيون يعدونني منهم ، واستبشروا بقبولي دعوتهم ، وتكثيري سوادهم ، وظل المشاغبون يصمونني وأصحابي بالوهابية سنين طويلة ، والوهابي نسبةٌ إلى محمد بن عبد الوهاب الذي دعا إلى مذهبه في نجد في العصر الماضي ، وعاونه على بث دعوته الأمير ابن سعود الأول . ومذهبـه مذهب أحمد ابن حنبل ، أحد الأئمة المشهورين عند أهل السنة . والوهابيون هم الذين قبلوا دعوته ، وكانوا قبلها في جاهلية جهلاء . فردهم إلى الكتاب والسنة ،

وانتشالهم من تيه الوثنية إلى حظيرة التوحيد . ويحب الوهابيون أن يطلق عليهم اسم السلفيين أو الحنابلة .

وما أدري وجهاً لاتهامي بالوهابية ، وكيف ينسب إلى جماعة من عرّف بهم بدون قذف ولا تحامل ، وكان الشعب في تلك الحقبة تبعاً لمشايخه وحكومته ، وهذه من مصلحتها أن يصم كل وهابي بالضلال . ومنشأ هذه الدعايات الكاذبة خوف العثمانيين على الولايات العربية من صاحب نجد . فلما دعا ابن عبد الوهاب إلى لباب الدين ، وألف شمل النجديين بعد تشتته ، لم تترك الدولة العثمانية باباً من أبواب الدس عليهم إلا ولجته . وأفعل التهم التهمة في الدين ، ومن تتهمه بهذه التهمة كأنك دعوت إلى قتله ، وربما هدرت الحكومة دمه فقتلته الغوغاء . وما قصر علماء الحجاز واليمن والعراق والشام في إثارة النفوس على ابن سعود الأول ، ومن نقلهم من قومه من الظلمات إلى النور ، مدعين أن ذلك منهم غيرة على الدين ، وأرجح أنهم فعلوا ذلك تقرباً من السلطان ، ولالتماس عطاياه ورواتبه ومراتبه .

كان الأتراك إلى آخر أيامهم يحسبون حساب أمراء نجد ، وآخر من استدعوه للتحقيق معه في المحكمة بدمشق ، صديقي الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فسألوه عن (البريد الطيار) (كذا) بينه وبين ابن الرشيد ، واتهموه بأنه يسعى لسلب الخلافة من بني عثمان وإعطائها لأمير نجد ، فضحك وكان من ظرفاء العلماء ، وقال : إذا كنت أستطيع أن أسلب الخلافة من بني عثمان وأعطيها لأمير نجد فلماذا — وقبض على لحيته البيضاء — لا آخذها لهذه اللحية ؟ وهل الخلافة تفاحة حتى أخرجها من جيبي وأدفعها لمن اريد ؟ هذا والله من أجمل ما سمعت ، فضحك المحقق وأطلق سراحه . وفي الواقع انهم أتهموه هذه التهمة لأنه وبعض علماء دمشق وبغداد صرحوا يومئذ أن القوم ما عرفوا حقيقة الوهابيين ، وأن مذهبهم مذهب التوحيد لا غير .

وكتبت مقالة في الزيدية أهل اليمن ، على غرار المقالة التي درست فيها مذهب الوهابية ، فلم أتهم بالقول بمذهبهم ، كما اتهمت باتباع مذهب ابن عبد الوهاب ، بمقالة كتبتها في حقيقتهم على أسلوب علمي . وكانت

تفيدني مقالة الوهابية من جهة لو عرفت الاتجار بالكتابات والمقالات . ولقد دعيت بسببها إلى نجد غير مرة ، في عهد آل الرشيد وعهد آل سعود ، فاستعفيت من الرحلة إلى أرض لا غرض لي من زيارتها ، خصوصاً ونفسي زاهدة في الضيافات والخلع والعطايا . وفتقت الحيلة لأحد أصحابي من أهل لبنان باب رزق فقصد إلى أمير نجـد ، وكتب له ما أرضاه ، فأثبت أنه من نجار الفينيقيين ، وأن التجارة متأصلة في خلفائهم اللبنانيين .

وأول مرة (سنة ١٩٠١) دخلت مصر قاصداً زيارة آثارها ومصانعها والتعرف إلى رجالها ثم أرحل عنها إلى باريس لقضاء بضعة اشهر الدرس والنظر . فعرض عليّ صاحب جريدة « الرائد المصري » نصف الاسبوعية نقولا افندي شحاده بواسطة صديقي الاستاذ السيد رشيد رضا صاحب المنار أن احرر له جريدته . ولما كنت انوي السفر اعتذرت ثم عرضت مسألة في دمشق اضطرتني إلى البقاء في القـاهرة فصرفت النظر عن الذهاب إلى فرنسا ، وقبلت بتحرير تلك الجريدة .

وليست جريدة الرائد المصري من الجرائد المقروءة ، وصاحبها رجل مهذب ، وهو من أهل زحلة في لبنان جعلها واسطة للطعن بأصحاب المقطم ، وكان بينه وبينهم خـلاف مالي قديم . وجريدة الرائد من جرائد المعبة تصطنع الطعن بالمحتلين وكأنها ابنة جريدة « المؤيد » أو ذيلها وكان صاحب المؤيد يعطف على صاحب الرائد المصري نـكاية بأصحاب المقطم فيما كنت أرى . وظل السيد نقولا شحادة على طول مقامه في القطر المصري يتكلم العربية باللهجـة الزحلاوية ، وكان يعرف دخائل السياسة المصرية إلا أنه كان كل ساعـة يدق عنق سيبويه فلا تستطيع أن تدخل له سطرين إلى المطبعة قبل أن تنظر فيها وتنقيها . وما أظنه ارتقى عن الدرجة التي بدأ بها لأنه تعلق بالكتابة وهو كبير السن . وبعد عشرة أشهر قضيتها في تحرير هذه الجريدة عدت إلى الشام فاراً من الوباء الذي انتشر في القطر المصري . وقد تخلصت من تحرير الرائد ؛ وما كنت احرص على تحريره قليلاً ولا كثيراً .

الصحافة أيضاً

هبطت مصر للمرة الثانية (١٩٠٥) عازماً أن أصدر بها مجلة شهرية باسم (المقتبس) تبحث في العلوم والآداب ، وعرضت على الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، وكان يعرفني بما كتبته في جريدته ، وبما تنشره لي مجلة « المقتطف » من الفصول أن أكتب في صحيفته مقالات يعيّن هو مقدارها ، ويطبع لي المجلة في مقابلها . فقال إنه عازم على انشاء عدد أسبوعي من المؤيد ، برسم الولايات العثمانيـة والاقطار الاسلامية سيعهد بتحريره الي وفي المطبعة أشغال كثيرة لاتستطيع انجازها قبل شهرين . فلم أرتح لهذا الجواب وقلت له : لايَسَعني الانتظارُ ، وصاحب الحاجة أرعنُ لايروم الا قضاءَها .

وبعد أيام دفعت أصول المقالات إلى المطبعة العمومية ، لنشر المجلة المزمع نشرها ، وصدر العدد الأول . وما هي إلا أيام حتى طلب إليّ صديقي سامي أفندي قصيري أحد محرري المقطم أن أذهب لمقابلة محمـد بك أبي شادي صاحب جريدة الظاهر اليومية وقال إنه محتاج إلى محرر . فقابلت رئيس تحرير هذه الجريدة محمود أفندي واصف فسألني إذا كنت أعرف الترجمة من الفرنسية فأجبته بالايجاب ، فدفع إليّ برقيات ذاك اليوم من شركتي (روتر وهافاس) فترجمتها في أقل من ربع ساعة فنظر فيهـا وقال : لابأس : وذهب إلى صاحب الجريدة وأطلعه على الترجمة فأعجبتهُ فعاد وقال لي : تجلس هنا على هذا المقعد إلى هذه المنضدة ، وتبـدأ بالتحرير غداً .

وكان في زاوية الغرفة شاب قصير القامة أبيض البشرة تبدو عليه علائم النشاط ، بادرني بعد انصراف محمود واصف إلى غرفة مدير

الجريدة ، فسلّم عليّ ورحّب بلهفة وأدب ، وقال لي . ألست فلاناً ؟ قلت : بلى . قال : ألست أنت الذي تكتب مقالات المقتطف ؟ قلت . نعم قال : كيف قبلت ان يفحصك محمود واصف ، فقلت . لايتسع المجال الآن لأقول لك شيئاً وسأذكر لك عذري . فتواعدنا على أن نجتمع خارج الادارة في المساء ، وهذا الشاب هو الاستاذ محمد لطفي جمعة المحامى الكاتب الخطيب المؤلف المشهور وكان يترجم للظاهر عن الصحف الانكليزية ، وتصاحبنا كأننا كنا يعرف أحدنا أخاه منذ سنين . وقال لي : إن الرجل الذي رضيت بأن يمتحنك عاجز عن الكتابة ، ويزيده خبالاً مايتعاطاه من المخدّرات ، وقد يحفزه رئيس المنضّدين بعض الأيام ليدفع اليه مواد للجريدة ، فلا يرى أمامه غير اعلانات الجريدة الرسمية يعطيها له للصف ، لتنشر في الصفحة الأولى من الجريدة على أنها مقالة افتتاحية ، وقصصتُ باختصار على صديقي الجديد ما دعاني إلى الرضا بامتحان محمود واصف ، وهو أني اصدر مجلة تضطرني إلى المقام في مصر ، فأنا في حاجة إلى عمل آخر مع المجلة حتى تكفيني في القاهرة واردات ملكي في الشام . ثم إن صاحب هذه الجريدة لايعرفني كما يعرفني صاحبا المؤيد والمقطم مثلاً .

وأخذت من الغد أترجم عن الصحف الفرنسية والتركية ، وأنقل البرقيات ، وأشغل الوقت بكتابة مقالة سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، فتغير مقامي في الادارة ، وأخذوا ينظرون إليّ غير نظرهم الاول : وبعد أيام جاءني سيد بقطر كاتب الاستاذ أبي شادي بك في مكتبه مكتب المحاماة وقال لي : هل تريد أن تكون رئيس تحرير الجريدة بدلاً من محمود واصف ؟ فقلت له : إذا رآني صاحب الظاهر أهلاً لذلك ، وعاد من الغد إلي وقال : إنك مقبول جداً هنا ، ونحن سنرفع هذا المحرر ، ونرجو أن تكون عند قولك . فأكدت له انني كذلك . وبعد أيام رجع عليّ وذكر أنهم سيصرفون رئيس التحرير ، وطلب مني ألا أقول غداً مايشعر بزهدي في هذه المهمة ، فقلت له : أنا عند قولي ، وثقة صاحب الجريدة في نظري شيءٌ يعتدّ به ،

وما كان اليوم الخامس عشر من دخولي جريدة الظاهر حتى كنت في منصة رئيس التحرير أرأس بضعة محررين ومخبرين ، وأتصرف في سياسة الجريدة ، وقد علا راتبي ومرتبتي .

ومضى شهران أو ثلاثة ، وانتشر المقتبس الشهري ، وقرظته الصحف والمجلات وكان تقريظ المؤيد من أحسن التقاريظ ، أفادني في انتشار المجلة لأن المؤيد كان مقروءاً في كل الطبقات ، وكان صوته يومئذ أعلى الأصوات ، وكان صوت الأهرام والمقطم خافتاً . وإذا بالشيخ علي يوسف يستدعيني ويقول لي : إن المطبعة انتهت من مطبوعاتها وإن الجريدة الاسبوعية التي كان عازماً على إصدارها كما كان قال ، يمكنني الآن أن أستلمها ، وأنه سيعهد إلي معها بفتح البريد ، قبل كل أحد في إدارته ، لأنظر في الصحف الأجنبية ، وأشير إلى المقالات التي يجب ترجمتها ، وأدفعها إلى محرريه محمد أفندي مسعود وحافظ أفندي عوض وأشرف على تحريرها وعلى الجريدة عامة . فأجبته إني توليت رياسة تحرير الظاهر ، وأن صاحبها صرف الرجل الذي كان قبلي ، واعتمد عليّ في إصدار جريدته ، فلا يسعني أن أتركه . وشكرت له وانصرفت .

وكان من أهم العوامل التي دعتني إلى الإباء كون مسعود وعوض من أصدقائي ، وأعرف أن على يديهما قام المؤيد ، وأن لهما الفضل في إنشائه . وهما على غاية الكفاءة علماً وأخلاقاً . وكيف يجوز أن أرأسهما وماضيهما في المؤيد ماضيها ، وهما مصريان ، وأعرف مني بما ينفع جريدة مصرية ، وربما كان دخولي المؤيد على هذه الصورة مقدمة لإخراجهما منه ، على ما وقع في نفسي واستنتجته من كلام صاحبها . وأنا ما ضاق علي العيش في مصر حتى أكون علة لقطع رزق صاحبين عزيزين ، ما شهدت منهما إلا اللطف ، وهما أولى مني بهذه الخدمة .

ترك مسعود وعوض جريدة المؤيد بعد حين وأتى صاحبه بجميل افندي مدوّر من أدباء السوريين يعاونه في القلم الإفرنسي ، وعرض عليه سليم أفندي سركيس من كتاب السوريين أيضاً مؤازرته في القلم الانكليزي

فقبل منه . وأخذ عملاء أعمدة المؤيد بالاعلان عن نفسه . ومات المدوّر بعد مدة قصيرة ، وكنت تركت الظاهر مع جميع محرريه ، لعجز الادارة عن تأدية الرواتب في اوقاتها ، وأخذت أترجم روايات لخليل بك صادق صاحب مجلة مسامرات الشعب ، وكان يلحّ عليّ أن أعطيه رواية ليطبعها فأعده ، فلما فرغت من التحرير انصرفت إلى الترجمة فنقلت روايتين كبيرتين في ثلاثة أشهر .

وفي خلال ذلك دعاني الشيخ علي يوسف إلى تولي التحرير في جريدته فقبلتُ ، وكان معي سيد كامل وكامل فيضي يمرّنان على النقل من اللغة الفرنسية ، وعُهد إلي النظر في المقالات الواردة من المؤازرين ، مما كان موضوعه الأدب والإسلام والتاريخ ، والاشراف على الجريدة ، وكتابة الافتتاحيات إذا اقتضت الحال . ووقع لي لما اصطاف الشيخ في سورية في آخر السنة الثانية لتولي تحرير جريدته ، وكان أوصاني بالانتباه لجميع شؤون الجريدة ، أن حدثت الأزمة المالية في مصر ، فاضطررتُ إلى كتابة فصول في معالجة الأزمة ، وفي الشؤون المالية والاقتصادية ، موضوعات ما سبق لي الاشتغال بها ، خضتها مضطراً بعد درس مستعجل ، لأن حالة الجريدة تستلزمها . والجريدة اليومية لا تتطلب التعمق كثيراً ، وتستلزم الخوض في الموضوعات التي تشغل بال قرائها ذاك اليوم .

عرفتُ في المؤيد سرباً من المصريين ، وكان تحريري فيه الدعامة الثانية في شهرتي بعد مجلة المقتطف ، وبه صار لي أصدقاء رأوا إخلاصي في خدمة مصر ، فصاروا يفتحون لي قلوبهم ، ويطلعونني على ما لا يطلع عليه إلا خاصة الخاصة منهم ، وكنتُ جدّ حريص على صداقتهم ، وهم كانوا كذلك

لهم منتهى حبي وصفوُ مودّتي وَمحضُ الهوى مني وللناس سائرُهْ

وقد حاربت مع المحاربين دنلوب مستشار المعارف ، وانتقدتُ عليه ما كان يرمي إليه من تأخير الدروس العربية ، فأدرك رجال ذاك الدور

وناشئته ما يحمل قلبي من حب مصر ، وكنتُ أوَقعُ مقالاتي ، فعرفوني وجازَوْني على خدمـــة بلادهم بصداقتهم وثقتهم ، فاغتبطت ونشِطْتُ ، وأصبحت في مصر كأني في بلدي ، تهمني من وراء الغاية سياستها وسعادتها .

كان الشيخ علي يوسف في عهده من أعظم الكتاب الذين قلّبوا المسألة المصرية على وُجوهها كلَّ مُقلَّب ، وكان ذا بديهة مؤاتية ، وعارضة قوية ، شهدته يرُدّ على لورد كرومر عميد إنكلترا في وادي النيل ردّه المشهور الذي جمل منه كتاباً بعد — وقد نقلت له عن الفرنسية النصوص اللازمة — يدفع رده للطبع ورقة بعد ورقة ، وأمامه ضيوفه في مكتبه يلغطون ويتحاورون . وكان العقلاء ينعون عليه تلونه في مشربه ، ويقولون إن أصحابه اليوم أعداؤه غداً وأعداءه اليوم أصحابه غداً ، ومن كان في مثل حاله يَخدُم العظماء لا يُستكثر عليه هذا ، ومن ثمّ له مظهرٌ عظيم بعد أن كان نكرةً قد يزدهيه العزّ . ومع ذلك كان الشيخ علي على صفات حسنة من سَعة الصدر ، وفرط الذكاء ، والاغضاء عمن يؤله ، والاحسان لعدوه . ويقول مَن ينتقد سيرته أيضاً إنه لو عُرِضَ على صاحب الخلاق أن يطعن فيمن نشلوه من سَقْطته ، ورفعوه بأقلامهم وأموالهم ، لآثر الخروج من الصحافة كلها على ارتكاب ما ارتكبه مع أخلص محبيه وحُماته .

ومما لا يُعذر عليه أيضاً تقليدُه رئيس الحزب الوطني مصطفى كامل باشا صاحب جريدة اللواء ، وكان هذا يطالب باستقلال مصر جهرةً ، وله قبول عند الناس أكثر من الشيخ علي ، والأموال تنصب على إدارته كما ينصب ماء المطر من فم الميزاب . وكانت تربيته عصرية ، ويُعدّ من الخطباء الأبيناء . وكلاهما يصدع بأمر الخديوي . فأحب صاحب المؤيد أن يظهر بمظهر صاحب اللواء على ضعف موارده فأضاق ، وزاد ضائقته اشتغاله بالمضاربة في الأراضي ، فخسر كل ما يملك حتى اضطر آخر عمره أن يتقلد مشيخة طريقة ويأتي أموراً لا تتفق مع ماضي رجل كانت جريدته لسان حال العالم الاسلامي .

لما اشتد الضغط على الافكار في الارض العثمانية أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني لجأت إلى مصر كما لجأ إليها بعض أحرار الشاميين وعاهدت النفس على نشر جريدة يومية باسم المقتبس في دمشق ، إذا نُفس خناق الحرية ، أخدم بها الديار الشامية خاصة والبلاد العربية عامة . فلما أعلن القانون الأساسي وسقطت دولة الاستبداد رجعت في سنة ١٩٠٨ إلى دمشق وأنشأت مطبعة وأصدرت المقتبس اليومي السياسي مع المقتبس الشهري العلمي، وكان المقتبس السياسي أول جريدة يومية صدرت في دمشق .

وباستقلالي بجريدة يومية ، وكنت أكتب في مثل هذه الصحف باسم غيري ، عرفت مقدار التبعات ، ولقيت خيراً قليلاً وشراً كثيراً . عاضدني بعض العلماء المنوَّرين والشبان المثقفين ، وقاومني بعض المشايخ الجامدين ، وسرّاق العمال المستبدين ، وعادى المقتبس كل مضرّ مهما كان حاله وشأنه ، غير خائف ولا مجمجم ، وما كان الأهالي والحكام يعهدون مثل هذا النقد وهذه الحرية في الكتابة ، ولا أنكر أن التيار كان يأخذني أحياناً ، ويشطّ بيَ القلم على غير إرادتي ، لكني لم ألجأ إلى الطعن الشخصي بأحد بل كانت جملة المطاعن موجهة للأعمال النابية عن حد القوانين والدساتير .

ولم يرَ الحكام وجهاً لتقليم أظافري وإخفات صوتي ، أفضل من الالتجاء إلى المحاكم ، يقيمون عليّ القضايا ، فكنت أصبر عليهم ، وأصحابي يُعْجَبون من صبري على ماألقى من العَنَت ، وكانت نزاهة القضاء تشجعني على المُضيّ في طريقي . وكان القضاة الاتراك والعرب على السواء ينصفونني كل الانصاف ، والعـــدل عدلٌ عند كل جنس وفى كل لغة . وتتلخص الدعوة التي دعوت اليها في المطالبة بالاصلاح ، وطرد لصوص الموظفين من خدمة الدولة وحفز العرب الى العمل النافع ، والتذرع بالمشاريع المنتجة ، وبعث القرائح واستخدام الكفاءآت ، ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة . ووَفَقْت في هذه الدعوى إلى حدّ ما كنت أتطال إلى

مثله ، وكان المصفقون لي أكثر من المصفرين ، وتجلى الانتفاع بما ينشر من المقالات والأفكار ، وكان معظم القوم لم يتعودوا تلاوة الجرائد ، فحببت المقتبس اليهم المطالعة ، وكلما رأيت فتوح الجريدة في ازدياد ، ازداد نشاطاً ومفاداةً . والواقع أن العامل الأكبر في انتشار الجريدة ، وثقة الامة بها ثقة عمياء ، اقتصارها على مواردها الشرعية من الاشتراكات والمبيعات والاعلانات فقط ، وتنزهها عن كل عَرَض مادي مهما كان مصدره . وحاول الاتحاديون القابضون على زمام الأمر أن يرشوني فلما يئسوا مني تحيلوا أن يغتالوني وخصوا الذي أعدوه للقتل بمبلغ من المال لايستهان به فنصحه صديق له اطلعه على مانوي وبيّن له عاقبة ماستجني يداه فأعاد الدراهم الى أصحابها . وتعرضت بسبب الجريدة للأخطار والمغامرات مرات وأشاع الوالي في رجال الأمن الفُرْسان ، أن من يقْبض عليّ حيّاً أو ميّتاً يرقيه ويكافئهم . وساعدني التوفيق ولم أحبس يوماً واحداً ولا خسرت قرشاً واحداً ونحّيت من الخدمة عشرات من الموظفين فيهم الوالي ومتصرفان وعدة قوام المقام ومديرين وقضاة وغيرهم من صغار العمال وكبارهم ، حاولت الحكومة شَغْلي بنفسي ، فهددتني وروّعتني بطرق مختلفة فيها وعد ووعيد ، وأغلقت الجريدة غير مرة لأسباب تافهة أشهراً ، غُرّمت بها مئات من الجنيهات ، ثم عوّضت عليّ الحكومة زمن الحرب العامة ، لما اشتدت حاجتها إلى الجريدة ، واعترفت بأنها ظلمتني بالاغلاق مرتين ، حتى أزمعت أن أترك الصحافة . ولولا أن هددتني ضمناً بفتح الحسابات الماضية ما كنت أعود إلى إصدار صحيفتي . أما مجلة المقتبس العلمية فانقطع صدورها في الحرب العامة ، بعد أن صدر منها ثمان مجلدات وعددان من المجلد التاسع ولم تعد بعدها إلى الصدور .

ولما وضعت الحرب أوزارها أخذت نفسي تكره الصحافة شيئاً فشيئاً ، وانصرفت إلى التأليف ، وكان السبب الاكبر لاغلاق المقتبس السياسي أن سلمت تحرير الجريدة بعد وفاة أخي أحمد ، وأنا في الوزارة ، إلى محرر أراد أن يخدم بعض الأحزاب على حسابي وبلسان جريدتي ، وأطال لسانه

في بعض زملائي الوزراء فأمرت باغلاقها (١) وكان ذلك ختام حياتي الصحافية ولم أكتب بعدها في غير المجلات العلمية ، واتسع لي الوقت لنشر ما كنت اعد من التآليف فطبعتها في مصر والشام ، والحمد لله على كل حال .

(١) كنت غير راض عن بعض ما ينشر في المقتبس في عهد الانتداب الأول وقد كتبت يوم ٢٩ كانون الأول ١٩٢٤ الى شقيقي أحمد أسأله عن مقالة للصفدي وعن أخرى لراصد وهددته بسحب امتياز المقتبس اذا هو ظل على نشر مثل هذه الآراء السخيفة يكتبها أطفال السياسة وهم من طبقة تستجد للفرنسيين بعشر ليرات وقدجعل الانتداب لفرنسابقرار دولي ومن سياستي أن أتفاهم مع المنتدبين ولو غضب الصفدي وأمثاله ، واتهمني بالمروق من الوطنية . وأوعزت اليه ألا ينشر في المقتبس شيئاً لهؤلاء الاحداث لأني لا أريد أن يكون المقتبس كالعمران قارورة أقذار وأوساخ . وبهذه المناسبة أن بعض ما نشر من المطاعن بالمقتبس في بعض رجال السياسة ومنهم صديقي حقي بك العظم لم يكن بايعاز مني ولا لي رأي في نشره ولا نشر غيره .

ناظم باشا والمقتبس

شق على والي سورية في عهد الحرية والدستور أن يسمع في الجريدة المطالبة باصلاح شؤون الولاية، ونقد ادارته أحياناً. وله الحق أن يتأفف وهو ممن ربوا في عهد الاستبداد الحميدي، ورجل هذا نشأته. يصعب عليه ان يسمع أصوات الأحرار، وهو الذي اعتاد أن يرى أعظم أعيان ولايته يقبلون ركبته ويلثمون أذياله. ووهم بأني أطاول على مقامه لاسقاطه، وأن الشعب قد مقته ومقت حكومته، لكثرة مارددت من أخبار الضعف في ادارته، فلم ير ليشغلني عنه أنجح وسيلة من أن يقيم عليَّ بعض العمال ممن انتقدت أعمالهم، دعاوي لدى المحاكم، يزين الوالي لهم اقامتها، ويعاونهم عليَّ، وهم في باطنهم لو تركوا واختيارهم لما أقدموا على اقامة قضايا قد تنكشف خلال النظر فيها سيئاتهم، وهم أدرى بأنفسهم وبما يرتكبون، والخائن خائف.

وأتى زمن علينا أمام القضاء نحو من ثلاثين دعوى من هذا القبيل، يطلب بعض أربابها جزاء المفتري أي حبسنا ثلاث سنين. وجاءنا الفرج بعد حين على مالم يكن في الحسبان، وذلك بتعيين رجل من أهل القدس اسمه اسحق روحي افندي البديري رئيساً لمحكمة بداءة الجزاء، فدرس عامة الدعاوى المرفوعة علينا، فوجدها كلها من نوع واحد فوحدها، وأقنع المحكمة بأن صاحب الجريدة لا غرض له إلا الاصلاح، ولا حرج في القوانين على من يطالب به، وليس فيما كتبته الجريدة ما يمس عاطفة المكتوب فيه، ولا ما يثلم شرفه ومروءته، فحكمت المحكمة بتبرئتنا من كل القضايا، فصعق الوالي والاتحاديون، ومن سار تحت علمهم، واستأنفوا النظر في الدعاوي أمام محكمة الاستئناف، فحكمت بتأثير رئيسها شكري بك، وكان تركياً من جماعة الاتحاديين، بسجن شهر واحد على أخي

أحمد مدير الجريدة المسئول ، ثم أنزل الحكم إلى النصف ، وطلب إليه بعض رجال القضاء أن يدخل من بابٍ من أبواب السجن ، ويخرج من آخر لتتم الصيغة القانونية ، ويقال إن المدير حُبس ، ويقيد ذلك في السجل فأبى . وأعلنت الحرب العامة فذهبت الدعوى مع ذهاب المملكة كلها . ومن الغريب أننا ما كنا نعرف رئيس المحكمة السيد البدري الذي حكم ببراءتنا ولا هو يعرفنا إلا من الجريدة .

قلت إن الوالي كان يتألم للتعرض لأعماله في المقتبس ، وكانت بيننا برودة بسبب ذلك ، وهو يوالي اقامة الدعاوى على الجريدة بواسطة أعوانه ولكثرة مارآه أصحابه حانقاً عليّ عرض عليه أحد أعيان الجزائريين ، بل أمير من أمرائهم وباشا من باشاواتهم أن يقتلني . فقال له الوالي : لاتفعل ، وتبين بعد أن هذا الجزائري كان من الخائنين للدولة ، ونفي بسبب ذلك إلى الاناضول . وخاف الوالي هذه المرة مغبة القتل ونهى عنه . أما ذاك الشقي فلطالما قتل الفلاحين وهتك اعراضهم بواسطة أعوانه الاشرار حتى اغتنى وترك ثروة كبيرة ، تمزقت شذر مذرفي بضع سنين ، وكان في تجويز قتلي يرمي إلى غايتين ، الأولى مصانعة الوالي ، والثانية خلاصه من نقد جريدتنا لتزويراته أحياناً .

جاءني ضابط تركي اسمه جميل بك ، وهو من دعاة حزب الاتحاد والترقي ، يخطب بالتركية ، ويثرثر في فضل الجمعية على العالمين ، فرجاني أن أصالح الوالي ، وطلب أن أرافقه إلى دار الحكومة لهذا الغرض ، فقلت له : باسم الله ، اعلم يا صاحبي أن ليس بيننا وبين الوالي عداوة شخصية ، وما نكتبه في الجريدة فلمصلحة الدولة ، ونحن إذا لم نوجه الكلام إلى الوالي المسئول فلمن نوجهه ؟ فلما اجتمعنا في دار الولاية سرّ الوالي جداً ، وظن أن الأمر يقف عند هذا الحد بهذا الصلح ، فلا أعرض له بعدها . فيسير كما يشاء مع من يدبر الأمر في هذه الولاية

العظيمة على هواه لا كما تقضي القوانين والمصلحة ، ومما قال لي : لقد أسقطتني من الأنظار بما كتبت عني في جريدتك ، وأصبحت خجلاً في نفسي ، حتى إني لأقول للحوذي أن يسير بي بين البساتين إلى داري ، لئلا أستهدف للعن في الطريق ، ويقولوا : هذا هو الوالي الذي يكتب المقتبس في إجراآته الخارجة عن النظم والأوامر المرسومة . قال : وفي الحق إني لم أرك يوماً أهنتني بكلمة واحدة ، أو تعرضت لشخصي باشارة أو تصريح . فأجبته : إنا نكتب ما نكتب لنعرض رأينا على أنظاركم ، وندلكم على عورات الضارّين في الادارة الحكومية ، وغرضنا في ذلك شريف ما أظنه يسوءكم ، وهو إصلاح حال الادارة التي لم يغير الحكم الجديد شيئاً من روحها ، ونحن لا نخرج بحال عن استعمال الحرية التي منحنا الدستور إياها . أما قولكم : إننا لم نذكركم بما فيه إهانة شخصكم الكريم . فنحن لا نقول بهذه الطريقة ، ونتعلم الأدب وحرمة الكبار منكم ، وأي دخل للخصوصيات في مسألة عمومية .

وحقاً كان هذا الأسلوب في الانتقاد مما يؤلم عمال الدولة وغيرهم أكثر من السباب والشتائم ، وكنت أتوقّى أن أمسّ إنساناً فيما أكتبه ، وحصرت الجهد في مناقشة العمال ، وكان كل ما يكتب في الغالب مستنداً إلى وثائق ، مدعوماً بنصوص القوانين ، ويؤازرني سراً في ذلك بضعة شبان سوريين تخرجوا من المدرسة الملكية في الاستانة ، مدرسة السياسة والادارة ، وعادوا إلى سورية ليتمرنوا في دواوين الولاية ، ثم يعينون قوام المقام ، وهم الذين كانوا يكتبون بالدقيق والجليل مما يجري في مقر الوالي ، ومنهم من كانوا من أعزّ أصحابي ، وممن عرفوا باخلاصهم للدولة وحبهم للعرب والعربية . وعمدنا في مراسلات الجهات على أناس متعلمين من أصدقائنا كانوا يعاونوننا بجلب الأخبار الصادقة حباً بالاصلاح لا طلباً للظهور ولا للمادة ، ولذلك جاءت تأثيرات الجريدة فوق المأمول ، فكانت إدارة فعالة في تنحية الولاة ، وعزل المتصرفين ، وقوام المقام وغيرهم .

ارتشت محكمة الاستئناف في جناية ارتكبت في دمشق ، كانت من أفظع ما سمع من أصناف الجنايات ، فما زلنا نكتب في تبرئتها للقاتل ، وكان والده من كبار المرابين ، حتى أقيلت المحكمة بكل من فيها من كتاب وأعضاء . وكان عبد الرحمن باشا وزير العدل على عهد أواخر السلطان عبد الحميد الثاني ، رجلاً عظيماً يكره المرتشين كراهة شديدة ، إذا ثبت له أن بعض القضاة تلوث برشوة وأضاع الحقوق والدماء ، يغتاظ ويحنق ويكتب بجانب اسمه (م) في مفكرته ، ولا يعود إلى توسيد عمل اليه ، ولو طلب اليه ذلك السلطان نفسه ، وكان السلطان يحترمه لهذه الأخلاق ولا يتدخل في شؤونه .

أصبح للمقتبس مكانة لم تحرزها جريدة من جرائد السلطنة العثمانية ، التي تصدر باللغة العربية ، لأنها كانت تكتب بحرية زائدة حتى ليظنها العارفون جريدة من الجرائد الوطنية في مصر ، تصدر على عهد العميد لورد كرومر ، وفي ذاك العهد كانت حرية مصر تشبه حرية بلاد الانكليز . ولطالما هدد أصحاب الظلامات صغار الموظفين إذا لم ينصفوهم بأن يرفعوا شكواهم إلى المقتبس ، أي أن المقتبس صار حكومة او محكمة على الأقل ، وهذا النفوذ هو الذي كان يتخوف منه الولاة ويكتبون به إلى مرجعهم الأعلى في دار الملك ، وهو يعظم وينمو كل يوم .

ويعذر الاتحاديون على تأففهم من نقد الجريدة ، لأنها كادت تكوّن رأياً عاماً في ديارنا ، وهذا ما راق ولن يروق أحداً من الأتراك منذ القديم ، وسياسة الترك مع العرب في معظم أدوار التاريخ نمط واحد ، وهي ألا يعترفوا للعرب بشيء من الحقوق ، لئلا يرفعوا رؤوسهم أمام غالبيهم وسادتهم ، وكانت المركزية في عهدهم من أشد ما عهد من نوعها تشبه مركزية فرنسا مع كل ما في الحكم الاستبدادي من عوج . وكان كل انسان يطلب اصلاحاً في أرجاء هذا الملك الواسع سواء أكان تركياً أم من عنصر آخر من عناصر الدولة ، يعامل أسوأ معاملة . ينفى ويسجن ويصادر

ويقتل هو ومن يقول بقوله ، ويتقولون عليه الأقاويل ، وأقل ما يتهمونه به أنه مارق من الدين ، يدعي النبوة ، ويقول بأباحة النساء ، وشرب الخمر إلى آخر أكاذيبهم . ويعد من بلغتنا أخبارهم من هذا القبيل بالعشرات وكثير من هذا الطراز قتلوا ولم يعرف بهم أحد . ولذلك كان من المستغرب نجاتي من تلك الأيدي الاثيمة .

لا تعجبن من هالك كيف هوى   بل فاعجبن من سالم كيف نجا

كنت عارفاً هذه الحقيقة عن رجال الدولة ، ومع ذلك كنت أمضي في سبيلي أحاربهم ، وأنا عارف بما يهدد حياتي كل حين ، وليس لي مستند إلا عواطف الامة ، وإذا جدّ الجد يقل الآخذون بيدي ، وأترك وشأني ، ولسان الحال يقول : (يداك أوكتا وفوك نفخ) .

الاخلاق الطيبة

كان لوالدي صداقة وثيقة العرى مع السيد عبد الغني القوتلي (جد رئيس جمهورية سورية الحالي) وكثيراً ماسمعته يقول : يا بنيّ قد تلد الولادة مثل عبد الغني القوتلي ولكن أعظم منه باخلاقه وكرمه فلا . وكان أبي يعجب من ثباته على عمل الخير وتفننه في ممارسة ضروبه .

قال كان يدعو الى قصره العظيم كل مدة أربعمائة أو خمسمائة فقير يهيء لهم الذ المآكل التي تفاخر بها دمشق ويجهز لهم الحلويات وما يتبعها من صنوف الفاكهة حتى إذا طعموا خرجوا من الباب ، وخدامه قد اعدوا لكل مدعو قماشاً مع بطانته يعمل منه ثوباً ، ونعلاً يلبسه برجله ، وريالاً ينفق منه على عياله ، يعمل كل هذا لايتبجح ولا يتنفج ولا يقصد إلا وجه ربه .

بلغه مرة أن أحد سماره الذين يختلفون إلى داره قال ان السيد عبد الغني القوتلي وجد كنزاً في داره فعمر منه جامع السادات في سوق مدحت باشا فكتم القوتلي الامر حتى جاء شركاؤه من البر فبعث يدعو صاحبه الذي اتهمه بالعثور على الكنز ليتناول طعام العشاء معه ، ولما فرغوا من طعامهم استدعى صاحب الدعوة كاتبه وأخذ يحاسب عملاءه حتى نظر في حساب جملة منهم فكان مجموع مااربح بواسطتهم خمسة آلاف ليرة عثمانية — وهذا المبلغ ضخم جداً في حساب تلك الأيام — والتفت الى المدعو صاحب الكنز وقال له يا أبا فلان ان من يربح من تجارته في سنة مثل هذا المبلغ العظيم عدا غلة أملاكه في القرى وريعها في المدينة لايصعب عليه أن يبني مسجداً بثمانمائة ليرة . وهكذا بكته بهذا الاسلوب الرقيق .

وقصصت يوماً على شكري القوتلي قصة رويت لي مرة عن جده العظيم

قلت : بلغني أن جدك حمل اليه ذات يوم من قريته اثنا عشر حملا من الحطب ، وكان يطل من طنف غرفته على الشارع فشاهد أحد الجمالة يقتطع حملين ويسوقها أمامه فاتبعه السيد حتى رآه أناخ الجملين أمام بيت في محلة النوفرة فبصر في الدار فرآها خالية من كل شيء يدل على حياة ، فأمسك بيد الجمال وابتاع له كيسين من الدقيق وصفحة سمن وصفحة زيت وصفحة دبس وسلة أرز وسلة بن وكل مايلزم للطعام وقال له ممازحا الآن يلزمك الحطب أما من قبل فماذا تعمل به ؟ مثال من التفنن في الاحسان .

وكان السيد القوتلي لا تنقطع صدقاته يجريها على مئات من أهل الستر ومن ابتلاهم الله بالفقر مما تنوء به خزائن الملوك يومئذ ، فكان حقاً ملك الكرم في عصره ، ومثال الرجل الصالح ، والمسلم الذي تمثل الاسلام حقيقة ، دأبه جباية الأموال ودأبه انفاقها في وجوه البر وعلى المحاويج والمعوزين . وكثيراً ما قلت للسيد شكري حفيده قبل توليه رئاسة الجمهورية يجب وضع ترجمة حافلة لجدك فان في سيرته مارعا يحفز الناس إلى عمل الخير وليس من العدل أن يقتصر أرباب التراجم على الترجمة للفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء فقط ، وما كان أجدر برجال المال والأعمال أن يتدارس الناس سيرهم ليقتدوا بهم ، فكان يصرح باني أعرف عن جده ما لا يعرفه هو فقلت له : الفضل في هذه المعلومات لوالدي .

وحدثني من أثق بصدقه من قدماء أصحابي أرباب المطابع قال : إلى اليوم يتحدثون في حينا حي القيمرية بقصة وقعت لتاجر مفلس مع السيد عبد الغني . ذلك أن أحد جيرانه من التجار تأخرت أحواله فعزم أن يبيع داره ويتوسع بثمنها ويستعيد شرفه فبلغ القوتلي ماصارت إليه حال جاره فارسل يدعوه اليه وقال له : انتهى إليّ أنك في ضائقة وأنك تريد بيع دارك قال : نعم ياسيدي ضرورة دفعتني إلى ذلك قال السيد : أنت إذا زهدت في جيرتي فانا لا أبيع جوارك مهما كلفني الأمر وهذه صرة من النقود تدبر نفسك بها وكف عن البيع لأجل خاطري ، فذهب صاحبه مجبور الكسر

وكان اميناً صادقاً واشتغل بالتجارة فاسترجع بعد زمن نعمته وخفّ إلى من أسدى اليه هذه اليد ، وأولاه هذه العارفة يشكره يعيد اليه المبلغ الذي كان أقرضه إياه إلى أجل غير مسمى . فضحك السيد وقال للتاجر : أنا لا أنزل عن جوارك وأنفق أضعاف أضعاف هذا المبلغ لبقائك جاري وان كان لا بد من رده فارجوك أن تتصدق به على من تحب . وهكذا ظهرت هذه المكارم في المحسن والمحسن إليه على أشرف ما كانت عليه أخلاق المسلمين يوم كانوا مسلمين عاملين باكثر شروط الاسلام ، وما ترد وا في بؤرة هذه المادية القذرة . يوم كانوا مسلمين لابورقة الهوية وتذكرة النفوس وكتب الجغرافيا .

حدثني الاستاذ الشيخ عيد السفرجلاني مربي ثلاثة أجيال من أبناء دمشق وقد اشتهر بتقواه وصلاحه قال : حججت في بعض السنين واتفق أن كان في الموسم السيد عبد الغني القوتلي ، فلو قلت لك ياسيدي أنه لم يبق في الركب الشامي رجل لم يأكل على مائدة القوتلي أو أخذ من صدقاته لكنت صادقاً في قولي ، وأعتقد أني لا أقول إلا ما رأيت .

قال إن فقراء بيت الله الحرام انهالوا عليه بما يضجر منه الحليم فكان يفضل عليهم مغتبطاً واتفق ذات صباح أن الشمس كادت تشرق والسيد يسارع إلى المسجد ليصلي الصبح حاضراً وعلى ظهره عباءة ثمينة فلقيه الشحاذ والسيد لا يحمل كيس دراهمه فما وسعه إلا أن خلع عباءته ونجا بريشه مجرداً إلا من ثوب رقيق .

وحدثني أبي أن السيد عبد الغني القوتلي قاطع أخاه مراد أفندي ، وكان لا يقل عنه بكرمه وحسن اخلاقه ، لانه بلغه أن السيد مراد قال للفلاحين في الحديثة اتركوا مقبرة المرابعين بعد الآن لا تدفنوا فيها موتاكم وقد خصصتكم بالارض الفلانية للدفن فقال السيد عبد الغني لأخيه ما كفاك بضع مئات من الافدنة في الحديثة وبالا حق لعتدي على قبور المسلمين لتقيم عليها حديقة الدار التي تبنيها . وكان مراد وعبد الغني شريكين في الاملاك والتجارة

الاول يتعهد أملاك الغوطة والمرج والثاني يقوم على التجارة في المدينة .

وربما يسأل أحد الفضوليين وما معنى هذا الاسم التركي (قوتلي) يطلق على أسرة عربية وقد حل هذا الاشكال لي من أثق به ، قال كان يقال لهذه العائلة بيت النحاس وكانوا تجاراً كباراً في الثياب وكان حجاج الاناضول من الاتراك يأتون في طريقهم إلى الحج كل سنة ويبتاعون هـذه البضائع ويقولون عند ما يساومون فيها بالتركية (حاجي قوتلي قماش ايسترز) أي يا حاج نطلب منك قماشاً متيناً (قوتلي) . وما زالت هذه الكلمة تتردد بين البائع والمشتري حتى غدت تطلق على بني النحاس والله أعلم .

لبنان

أحسن تعريف مختصر للبنان ان جباله أكثر من سهوله وانه من أجمل سواحل الشام اشتغلت فيه يد الخالق وأيدي الخلائق قروناً وكان في الاسلام عمالة من عمالات دمشق مقطوراً معها يسايرها في السراء والضراء بدون أخذ ورد . ولما أراد البرلستانت أن ينشروا مذهبهم في الشرق لم يجدوا أحسن من لبنان فجاؤا وأنشأوا مدارس في الجبال ثم أقاموا الجامعة الاميركية في بيروت وغار اليسوعيون من اللاتين على الكثلكة فحذوا حذو الاميركان . ولبنان عش الموارنة والموارنة كاثوليك مرتبطون بالكرسي البابوي في رومية . ونفخ الواغلون على البلاد في السكان روح التعصب الديني فكان من ذلك الضرر عليهم وعلى البلاد عامة . ولما تخرج الطلاب بالجامعة الاميركية لم يطب عيشهم في بلادهم فتفرقوا في الارض وكان الاحتلال الانكليزي لمصر والاحتلال يحتاج إلى من يخدمه فرأى في اللبنانيين المتخرجين باللغة الانكليزية أحسن أنصار فأخلصوا كلهم له ونسوا مصلحة مصر فاستفادوا من ذلك فوائد مادية لا تقدر وخسروا كثيراً في المعنويات .

وقويت الهجرة إلى الاميركتين فكان اللبنانيون في الطليعة من أكثر من هاجروا ، غادروا البلاد إلى غير رجعة ، فبدأت القرى تخرب والعيش في تلك الجبال يضيق . ولما جاءت فرنسا إلى هذه الديار عطفت على لبنان من النصارى عطفاً غريباً فاسترجع الجبل بعد ذلك بعض قوته واشتدت الدعايات للاصطياف فأصبح جبل لبنان مثابة المصطافين من الشاميين والعراقيين والمصريين وغيرهم من الامم فأفاد من ذلك وما هو إلا جيل حتى غدا كل لبناني يفكر في الدعاية للاصطياف كما يفكر في مصلحة أولاده وبيته .

وظل التعصب الذميم في بعض العناصر اللبنانية على أشده حتى إذا أراد اللبنانيون بل أرادت فرنسا أن يجعلوا لهم كياناً خاصاً وألفوا الجمهورية

اللبنانية كانت سورية خلالها تمد يدها إلى اللبنانيين وهم ينأون بجانبهم، ولما تألفت الجامعة العربية لم يدخلوا فيها حتى تمهدت لهم سورية بحقهم وبغير حقهم . وإلى اليوم يتدلل لبنان على سورية ويهدد ضمنا بانه إن لم يعطه ما سأل كل يوم ينضم إلى دولة قوية ربته وعلمته . ولا يجب أن ننسى مع هذا أن الاكثرية الساحقة في لبنان للمسلمين ولكن النصارى سبقوا وتعلموا قبلهم بواسطة الاوربيين والاميركيين وأخذوا يمسلون هذه الاعمال .

انا على يقين ان الصحف اللبنانية غداً متى صدر هذا الكلام ستسلقني بألسن حداد وتقول فيَّ ما قاله مالك في الخمر وقد حدث ذلك مرات والمثل الدارج يقول : (من احب ان يسكر لا يعد الاقداح) .

جمعية الاتحاد والترقي

استلمت جمعية الاتحاد والترقي زمام الدولة ، بتهديد السلطان عبد الحميد الثاني ، ونشرت الدستور ودعت المجلس النيابي الى الاجتماع ، وزالت شوكتها بعد أن الف السلطان جمعية سرية سماها الجمعية المحمدية ، اغتالت بعض أفراد الاتحاديين في الاستانة ، وبث فيها روح الثورة والعصيان ، وعاد الاتحاديون فتغلبوا على السلطان وخلعوه ونفوه الى سلانيك ، وقضوا على زعماء الحركة المحمدية في العاصمة والولايات ، وأخذوا يكثرون من اغتيال المعارضين لسياستهم ، من أرباب الاقلام في الاستانة ، وأحبوا أن يجروا على هذه الطريقة في الولايات ، وكانوا من قبل يحاذرون أن يأتوا فيها شيئاً مما أتوه في دار الملك فبدأوا بي ، وأرسلوا دركياً تركياً يهددني في رابعة النهار ، وأنا سائر مع رفيقين لي على جادة الصالحية ، وقال لي ما معناه : يكفي ياسيد ماعملت فالعاقبة لاتعرف ماتكون . ولما انتهرته هرب . وفي غضون تلك المدة أعطى الاتحاديون مبلغاً من المال لأحد الاشقياء ليغتالني قائلين له : (إني كافر وعدو الدولة) فذكر لأحد أصحابه ما أنيط به القيام به فقال له : ويحك إن أهل دمشق يمزقونك إذا فعلت ما أمرتك به الجمعية ، الرجل معروف بأنه ليس بكافر ، وأهل هذا البلد يحبونه ، فالأولى لك أن تعيد الدراهم لمن أخذتها منهم ، والله يرزقك من غير هذا الباب .

هذا كل ماستطاع الاتحاديون أن يأتوه انتقاماً لجمعيتهم مني ، بعد أن أصليتهم ناراً حامية على السياسة التي نهجوها مع العرب ، وكانوا يرسلون اليّ يعدونني باعطائي ماأطلب من المال ، على أن أعدل لهجتي في نقد أعمالهم ، واقترحوا عليّ أن يعينوني والياً في إحدى الولايات ، او في منصب يعادل

منصب الولاية ، على أن أترك الجريدة . فأجبت إن مطالبنا بالاصلاح إذا تحققت ترقى الشام فأستفيد أنا في جملة ملايين من الخلق ، وأنا لا أكتب لمغنم أصيبه ، وغايتي تعليم الشعب المطالبة بحقوقه ، ودعوته إلى القيام بواجباته ، حتى تنتظم أمور المحكومين والحكام معاً .

علم الاتحاديون حرصي على الدستور ، وعلى الحكم النيابي ، يوم قامت الجمعية المحمدية في الاستانة والولايات ، ودخل الناس أفواجاً ، كيف تهورت في حرب هذه الجمعية الارتجاعية حتى قررت قتلي . وقال لي عبد الرحمن باشا اليوسف من كبار الاتحاديين : إن القوم يعني جماعة المحمدية ، يبيتون لك القتل ، فأنا مرسل لك ثلاثة أشخاص من شجعان الاكراد يرافقونك حيث ذهبت ، أو تنقطع على الاقل عن التجول ليلاً في المدينة ، فقلت له : إنهم أضعف من ذلك . وهذا مثل قولي لفوزي بك البكري وقد طلب مني أن أكف عن التعريض بشفيق بك المؤيد ، وقال لي إن والده عطا باشا قال : إذا لم أعدل عن غمز أعيان البلد فان قتلي محقق ، فأجبته : إني إذاً في موتي لسعيد ، وأنا أعتقد أن عشرات من الشبان يقومون بعدي يستلمون زمام ما بدأت به ، وأي سعادة لي أعظم من ان أرى في أمتي من يتصدى للقتل لمقصدٍ شريف ، ويناقش بالحسنى كل من يقف في سبيلنا .

وبينما كانت الجمعية المحمدية تحاول قتلي ، كان جماعة من شبان الميدان — أعظم حيّ في دمشق — يتحالفون على حمايتي من الأشرار ، وقضوا بالمناوبة بينهم عشرين يوماً يتناوبون حراستي منذ خروجي من داري إلى أن أعود إليها ، في الهزيع الأول أو الثاني من الليل ، أخذوا على أنفسهم أن يحموني من إطالة أيدي الأذى إلي . وهؤلاء كانوا من قراء المقتبس ومن المعجبين بما يكتب في الحكام الظالمين ، وما عرفتُ ما بدا من مروءتهم إلا بعد مدة ، وما كنت أعرف منهم معرفة شخصية سوى رجل واحد فقط .

وبعد هذا أُتهمتُ بالارتجاع ، أي بمشايعة من يحاول إعادة العهد الاستبدادي ، وأنا الذي كنت من أول الناقمين عليه ، والهاربين له ، وللفرار منه فارقت الأهلَ والوطن سنين ، ورضيت بالاستخدام في الصحف المصرية حتى أعيشَ شريفاً لا أسفَّ إلى ما قد يُسف إليه بعض أمثالي .

هذا عملي وهذا عمل الاتحاديين ، والاتحاديون أعاجم لا يفهمون ولا يحبون أن يفهموا ، أقوياء الشكيمة ، لا يرضيهم إلا أن يسير كل إنسان في المملكة على برنامجهم الأعرج ، بدون بحث ولا نظر ، وإلا فالقتل مصيره ، والقتل أيسر الأمور في نظرهم ، وأي حرج عليهم فيه ما داموا يحاولون سلامة الوطن ! وما أعرف كم مرةٍ هددني الأتراك وأشياعهم بالقتل منذ قبضت يدي القلم ، حتى خرجوا من الديار الشامية . وكان يضحكني وعيدهم ، كما كنت أهزأ بوعودهم .

جاء مصر قبل اعلان الدستور العثماني بسنة أو سنتين أحمد رضا بك صاحب جريدة تركية ، كان يصدرها في باريز ، واجتمع الي المشتغلين بالمسائل السياسية من اللاجئين إلى مصر من ابناء العرب ، وسألت رفيق بك العظم ، وكان يدخل مع كل جماعة تتذرع بامر ينفع الشام وغيرها ، وقد اختلط به كثيراً ، عن رأيه في الدستور الذي يطالب به ، فقال انه يرى أن يكون دستوراً فيه التفوق للأتراك في كل حال ؛ ولا ينال سائر العناصر شيء من الحقوق التي تضر بسلامة المملكة ، فقلت له : ان القوم لايفلحون ، وكيف لمملكة سكانها ثلاثون مليوناً أربعة منهم من العنصر التركي ، وخمسة عشر مليوناً من العنصر العربي ، والباقون من أجناس مختلفة ، ومنهم الأكراد والبشناق والشركس واللاز والروم والارمن ، ان يكون بعض الاقلية الكل في الكل ، ويهمل امر سائر العناصر ، ولا سيما العنصر العربي (البغي آخر مدة القوم)

سلطان الاعيان

استدعاني ناظم باشا والي سورية وطلب إليّ أن أتولى تأديب ابنه ، وقال لي : أكتفي منك بأن تلقنه ما أخذته من أفكار شيخك الشيخ طاهر الجزائري ، فاعتذرت بأن أشغالي الزراعيـة في القرية تحول دون غشيان الحاضرة كثيراً . فلم يقبل عذري على ما قرأت في أسارير وجهه . وعدّه مخرجاً من هذه السخرة ، أو ترفعاً عن تدريس طفل ، أو سوء أدب من صغير إلى كبير . ورد كلام المظيم كان غير مألوف ، ولو كان في غير معقول .

وأتت علينا سنة جفت فيها الينابيع ، وغاض ماء الانهار ، فقام جيراننا أهل نهر المنيحي في الغوطة يعتدون على نهرنا نهر الداعياني ، ورفعوا بسط الماء القاسم بيننا ، فسال معظمه من ناحيتهم . والداعياني يروي أراضي أوسع وقرى عامرة بالسكان أكثر من المنيحي ، فشق الأمر على أصحاب الحق في قرانا ، وأرادوا ردّ مقسم المياه إلى حاله بالقوة . واجتمع كبار المزارعين وكنت في جملة من انتدبوا لرفع ظلامة الأهلين إلى الحكومة ، فنزلت هذه على إرادة المغبونين ممن كان الحق في جانبهم . فتأثر أحـد أصحاب نهر المنيحي ، لانكشاف المؤامرة عند أهل القرى وعند الحكومة ، وخصني بقسط وافر من غضبه ، أن كانت لي يد في إرجاع القديم إلى قدمه .

مضت أيام ونشبت فتنة في اليمن ، وأقبلت الحكومة العثمانية في دمشق تسخّر الدواب لنقل مهمات الجيش ، وكانت تضع يدها في جملة ما تضع على الجياد المطهمة وخيل السباق . وممن اعتدت عليهم أحـد وجوه تجار الخيل أخذت خيوله ، وكان يعدّ بعضها للسباق ، أو لتباع من الجيش الانكليزي في مصر ، فعظم ذلك عليه ، واستكتب أحد اصحابه بياناً بالعربية في وصف إدارة الوالي . ومما قال فيه : انه سلـّم لحيته لذاك الوجيـه (خصمنا في

الماء) يجره إلى حيث يشاء وشفع ذلك ببعض العبارات الجارحة . وعُلّق هذا البيان على جدران المدينة فاهتم له الوالي ، وحاول بكل مالديه من وسائط أن يعرف الكاتب . فقال له ذاك المين : إن كاتبه فلان ، يريدني ، مدعياً أن البيان كتب بقلمي ، وليس في المدينة من يكتب بالعربية غيري ! فصدر أمر الوالي بتفتيش داري ، ففتشوها وروّعوا عيالي ، وأخذوا أوراقي ودفاتري . ولما بلغني الأمر تغيبت عن الأنظار في بعض القرى ، وكان ذلك في شتاء ١٣٢٢ (١٩٠٤) ، ولما لم يجدوا أقل إشارة إلى أني أنا واضع ذاك البيان ، أراد الوالي تلافي الأمر ، فكلم الامير شكيب ارسلان قائلاً : إنه ليس له يحوي أدنى فكر سيء : وما يجب أن يتقول الناس عليه بسببي ، فجئته وأمر أن تدفع إلي أوراقي ، وكان فيها أشياء لا تروق السياسة المتبعة يومئذ ، والغالب أنها لم تهمه كما اهتم للطعن عليه . وحاول أمين سره ولي أفندي أن يؤخر أوراقي عنده فأخذتها منه على رغم أنفه . وهذه الحادثة السياسية استحالت فكاهة أدبية كما قال الامير شكيب أرسلان ، وكان يردد أبياتاً نظمها على البديهة فيما أصابني ، راقت الشيخ طاهراً فأراده على أن يتمها قصيدة يصف الحال ، ومن الغد كانت قصيدة في أكثر من خمسين بيتاً بدأها بقوله يداعبني :

ألا قل لمن في الدجى لم ينم ... طلاب المعالي سمير الألم
ومن أرقته دواعي الهوى ... فدون الذي أرقته الحكم
فكم في الزوايا تخبى فتىً ... شريد الكتاب طريد القلم
يرى الأرض ضيقاً كشق اليرا ... ع ويهوي على ذا الوجود العدم

ومنها :

وفي كل يوم سؤال وبحث ... وأنى تولى وأين انهزم
وقد كان في كبسهم بيته ... بجلق قال وقيل عمم
فكانت على كتبه غارة ... كغارات عرب (الصفا) بالنعم
وقالوا سينفى إلى (رودس) ... وقالوا سيجزى بما قد جرم

وقالوا سيحمـــله أدهم ... برقاة لا تستريح القـدم
وقد قيل (فزان) من دونه ... وتلك السموم وتلك الحمم
وبعض بسجن عليـه قضى ... وبعض بضرب عليه حـــكم
و (كرد علي) غدا عـبرة ... ففـات ومنـه الرجاء انصرم
فيا كرد لا تحزننك الخطوب ... فان الهموم بقـدر الهمم
ومن رام أن يتعاطى البيـا ... ن توقع أن يبتلى بالنقم
فذي حرفـــة القول حريفة ... وكم أدركت من لبيب وكم
وكم نكتـة أعقبت نكبة ... وكم من كلام لقلب كلم
ومن بالكتابة أبدى هوىً ... فان الكـتابة منها القسم

وبقي ذاك الوجيه المعتدي علينا في الماء يحمل احقاده إلى مجيء احمد جمال باشا قائداً عاماً على الشام اوائل الحرب العامة ، فكان مما نصح له فيما قيل ان الدولة لا تستريح في هذه الديار إلا إذا صلبتني ، فاني عدوها اللدود ، اتلاعب بعقول الناشئة فأفسدها وان مقالاتي في الحكومة تشهد باخلال عقدة الوطنية ، والخروج على الجامعة العثمانية . وقد قال لي جمال باشا بعد مدة مشيراً الى هذا الاقتراح بما يقرب من الصراحة . قال لي ، وانا في بيته ازور بامره الادبية التركية المشهورة خالدة اديب خانم ، وكانت نزيلته إن بعض الاعيان اقترح عليه قتلي ، فقلت له مهما قيل فاني مدين بالحياة لك ، فقال كنت أنوي شنقك ولكني وقدّرت علمك .

والحق مع ذاك الوجيه في أن يحاول التخلص مني ، لأني منذ أنشأت جريدة المقتبس اليومي في دمشق ، وأنا أنبه الحكومة لتنقذ الاهلين من تسلط أعيانها ، وأن تقصيهم عنها لئلا تزيد في سيطرتهم ، فيقوون على العبث بحقوق الشعب وحقوق الدولة ، ولو بحثنا عن مصادر ثروة معظم تلك الطبقة ما رأيناها تعدو مصدرين اثنين سرقة الدولة وسرقة الأهالي . وقد حاول ذاك الوجيه أن يستميلني بعد مدة ، وأظنه ما اقتنع أن مبدأ ضغينته كان لدفاعي عن حقي وحقوق الضعفاء في قريتي وما جاورها ، وكنت الظافر في تلك الوقعة ، وتأكدت أن الاعيان يبغضون من أرباب الأقلام كل من ينبه الافكار .

نجوت من الفاروقي وجبل الدروز

لما اعتدى بعض دروز حوران على جيرانهم أهالي قريتي غصم ومعربة وسكانها مسلمون سنيون ومسيحيون، وقتلوا منهم نحو ستين رجلاً وامرأة، ونهبوا بعض قرى السهل القريبة منهم، كتب المقتبس هذه الاخبار مفصلة، وما زال يكتب فيمن دأبوا على شق عصا الطاعة، حتى عزمت حكومة الاتحاديين أن ترسل حملة على الجبل تعيد الأمن إلى نصابه، وتضرب على أيدي الخارجين على السلطان. وأرسلت الحملة بقيادة اللواء سامي باشا الفاروقي.

أخذت الجريدة تروي الأخبار بصورة تفت في عضد العصاة، وتضعف شوكتهم، حتى قال لي سامي باشا الفاروقي إنه كان من نفع «المقتبس» في الحملة، ومن تأثيراته فيمن أخلوا بالأمن، ما يوازي تأثيرات فرقة من الجند، وأن صوته نفع الدولة كما كان يتوقع من عشرة آلاف جندي في مثل هذه الحال. وكان صاحبنا خليل رفعت الحوراني يكثر في الجريدة من الكتابة في كل ماله علاقة بأحوال الجبل، يبين مسالكه ومضايقه، وسهوله ووعراته، يتلقطها من أفواه العارفين، ولا سيما من صديقنا علي آغا المسلي والد شكري بك، فكان كلامه على الطرق والمياه، وعلى أخلاق القوم وعاداتهم مما يزيد أمراء الجيش بصيرة، وأكد رئيس أركان حرب الحملة أنهم انتفعوا بالخرائط التي رسمها خليل رفعت الحوراني وغيره في جريدة المقتبس أكثر من انتفاعهم بما لديهم من المصورات المختلفة، ذلك لأن الخريطة الوطنية مفصلة، فيها ما يحتاج إلى معرفته بدون تحريف في الاسماء، وخلت من الاغلاط التي تتسرب إلى الغريب إذا أراد أن يكتب في شؤون بلد غير بلده.

وثارت عرب الكرك خلال هذه المدة لأن الدولة أرادت إحصاء نفوسهم، كما أحصت نفوس حوران وجبل الدروز، فقامت الحملة الفاروقية

بتأديبهم فعم الأمن الأرجاء ، وشنق بعض زعماء الدروز والكركيين ، فذل المتزعمون وأرباب النفوذ في المدن والقرى . ولا تسل عما أصبح للقائد الفاروقي من الموقع في القلوب ، وغدا اسمه مضرب الامثال في الرهبة يخاف منه البادي والحاضر .

وما هي إلا أيام حتى وقع الاختلاف بيني وبين القائد ، وانصرفت عنه فلم يترك وسيلة لاسترضائي إلا أتاها ، وأنا لا أزيده إلا تجهماً ، وانقطع صوت الجريدة عن نشر محامده وأعماله ، كما كانت من قبل ، وما عاد يجري فيها ذكر لجبل الدروز ولا للحملة . حداني على ذلك ماثبت عندي وعند صديقي شكري بك العسلي من أن الفاروقي جار على بعض رؤساء الدروز فعاقبهم بما لا يستحقون ، وأعفى من العقوبة اكابر المجرمين ، وربما وقع له أن جرّم البريء وبرّأ المجرم ، فأكبرت الأمر جدّاً ، ولمت نفسي على تحمسي في تأديب الجبل ، وعلى اغضاب القوم ، وفيهم الاصدقاء والخلان ، وفيهم كرام الناس ، واصحاب النجدة والمروءة . فدهش القائد لوصولي إلى حقيقة ماجرى ، وما ظن أني اصل إلى كشف مادبر في سرّ . وما زلت أكشر له عن نابي ، وهو يرجو ان أقابله او اقبل دعوته ، فأرفض ويتوسط بعض أحبابي من ضباط العرب ليقنعوني بحسن حاله ، ويذكروا لي محبته لي ، ويريدوني على أن أزوره ، وبت مصراً على الابتعاد عنه ، أشير من طرف خفي لما حصل ، وهو يدرك أني لم اذكر لجماعته إلا بعض ما أعرف ويحاذر ان ابدأ بتسطير ما لا يليق من اعماله على صفحات الجريدة .

وأصيب القائد بالحمى بعد حين ، وبلغني أنه كان يقول في بحرانه : لئن أحياني الله لأنتقمن من (كرد علي) و (العسلي) انتقاماً يتفق ومعاملتهما لي ، سأقتلهما شر قتلة ، وأجعلهما عبرة ، فأريح البلد منهما ، وقضى نحبه بعد أيام . وقيل إنه كان أدخر من الاموال التي دخلت عليه جانباً عند أحد التجار العراقيين بدمشق فانكرها بعده ، ولم يصل إلى أسرته منها شيء ، لأن ذاك التاجر كان عارفاً بأصل هذه الأموال وآثر الفاروقي

أن يخبأها عنده ، لعلمه بأنه يظهر أمره إذا أودعها في أحد المصارف والغالب أن التاجر الباقعة لاشتهاره بالأمانة لم يأخذ منه الفاروقي سنداً بماله ، فاستحل أكله بعد موته .

حدثني صديقي يحيي بك الاطرش أمير الجبل في عهده أنه مانجا من يد الفاروقي يومئذ إلا بفضل ماأهدى اليه وانه سجنه في درعا ، وكان كل مرة يوهمه انه سيحكم عليه ، فيبادر الى تقديم مايرضيه . وأما ما اضطرني الحال الى التزام الصمت في الجريدة عن الفاروقي إلا لكونه من أبناء العرب وصعب عليَّ اذ ذاك ان نفضح أنفسنا أمام الأتراك ، فيكون مما نكتب حجة لهم علينا في إقصاء العرب عن الوظائف الكبرى ، مع أن من كانوا على هذه السيرة منهم يعدون بالعشرات ، والفاروقي إن صح مانسب اليه ، هو ابن تربيتهم . فاكتفيت بمقاطعته فقط وعرّفته إني عرفت ، وأسفت على ماقدمت له من الخدم ، واحتسبت عملي في خدمة أمتي ، ورجائي أن اكون مخطئاً في حكمي عليه .

ووقع لي مرات أن وقعت في مثل هذه المآزق ، فكنت أخلص القصد ثم يلتوي عليَّ الامر بالتواء من وضعت ثقتي به ، فأخاصم حق من بأيديهم اضراري وتعطيل عملي . طعن بي أحد الكتاب المصريين مرة لأني ماتطوعت كما تطوع غيري فقلت إنه اشعر من شوقي وحافظ ، وما جعلت من مجلة المجمع العلمي بوقاً لشعره ، قال : إني مااشتغلت مع انسان إلا اختلفت معه في الآخر ، وكان هذا الطعن صحيحاً من بعض الوجوه ومن لي بأن ينصفني الطاعنون فينظروا في وجه اختلافي مع من اتصلت به هل كان لأجل حظ نفسي أم للمصلحة العامة ، وأظن أن في تجهمي لمن تجهمت شيئاً من المنطق أكثر مما في دعوى خصومي . وهـذا الفاروقي هل من سبيل معه الى ألا نتخالف في الآخر ؟ أنا مع هذه الطبقة خادم أمين ماداموا على الحق ، فاذا اتضح لي أنهم حادوا عنه فكيف تود أن أحاسنهم ولا نتنازع . ؟

في الهزيمتين

من أجمل الذكريات ذكريات الصبا وما فيه من مغامرات ، وما يتخللها من توفيق وخيبة ، قد لا يصيب المرء مثلها ، ولا يجسر على اقتحام أخطارها إذا طعن في السن ، « والذكريات صدى السنين الحاكي » ، وهي مما يحرص على تدوينه لما تحمل من عبر وسلوى .

وهذا تفصيل ما وقع لي عند هزيمتي مرتين ، من وجه من أراد بي السوء من عمال العثمانيين قبل أكثر من ثلاثين سنة ، وهو تدوين لا يخلو فيما أرى من طرافة وتفكيه . ولكثرة ما انهزمتُ ، ووفقتُ في هزائمي كلها ، فأبنت عن مهارة في الهزيمة دعاني بعض الظرفاء « هزيمة » ، وأرادني أحد العلماء من المصريين (العلامة أحمد زكي باشا رحمه الله) أن أؤسس في القاهرة مدرسة أعلم فيها كيف ينهزم الخائف الذي يترقب ، كما يتعلم الطلبة علوم الدين في الجامع الأزهر وعلوم الدنيا في الجامعة المصرية . ولعلي كنت أجيب الطلب لو طال ذاك الحكم في قطرنا أكثر مما طال .

أقام والي سورية دعوى على جريدتي واحتال لاقفال الجريدة واغلاق المجلة والمطبعة قبل صدور الحكم علينا ، وبعث إلى مرجعه الأعلى في الاستانة يستأذن في الموافقة على مقترحاته ، فوافقه بلسان البرق على إلقاء القبض عليّ واقفال الجريدة والمطبعة . وجاءني بعد منتصف الليل شابان من محلة القيمرية كان لأحدهما اتصال بادارة البرق ، عرفا بالأمر فطلبا إليّ أن ألبس ثيابي وأسير معهما ، فان الشرطة تأتي بعد حين إلى داري لتفتشها وتقبض عليّ ، وكان الأمر كما قدرا ، وسرت معهما وأنا لا أعرفهما وغاية ما عرف أخي أنهما مشتركان بالجريدة ومن أرباب المروءة من الشبان ، فبت ليلتي في دار أحدهما وهي دار الشيخ غزال ، وبعد أيام أكرم أهل الدار مثواي

فيها انتقلت إلى حي السوَيقة ، وأويت إلى دار صديقي الشيخ عبد الرحيم البابلي يطربني بصوته الرخيم وإنشاده البديع ، ثم عدت إلى داري وأعددت معدات الرحيل ، وقلت : ما دمت مضطراً إلى الاختفاء في البيوت ريثما ينظر في دعواي ، وقد يطول النظر فيها عمداً ، فالأولى أن اصرف هذا الوقت في اوربا ، وكنت منذ سنين أريد الرحيل إليها للدرس والبحث فتعوق العوائق .

وفي ليل الثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٢٧ هـ ركبتُ من دمشق يرافقني صديقي السيد شريف تقي الدين ، وكان بطلاً نزّالاً يعرف الطرق والمسالك . ومن قرية القابون سِرنا قبيل الفجر ، ومنها إلى قرى بَرْزه فمعربا فبسيمة فدير مُقرّن فكفيْر الزيت فدير قانون فكفْر العواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليلتنا الأولى . ومن الغد قصدنا إلى سوق وادي بردى فعيتا الفخار فكامدِ اللوز فجبّ جنين فلالا فبعلول ، وفي هـذه القرية بتنا الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة بلد المدابغ ، وأنجدنا قاصدين جزين في جنوبي لبنان . وعاد صاحبي إلى البلد وسرت وحدي إلى تاتر فعاطور فالمختارة فدير القمر وبتّ فيها ، ووصلت إلى البارُوك مارّاً ببيت الدين وكفرنبرخ . وبت ليلتين في الباروك ومنها سرت إلى عين زحلْتا فبت فيها ، ومنها إلى حمّانا فقرْنايل فصليما وبت فيهـا ثلاث ليال ، ومنها إلى بحنّس فبكْفيّا فبيت شباب ، وقضيت في هـذه القرية الكبيرة فيما اذكر ثلاث ليال ثم قصدت إلى قرية الشاوية فقضيت فيها نحو عشرة ايام واخترت المقامَ في هذه القرية لأكون على مقربة من الفرَيكة بلد الاستاذ امين الريحاني اقضي معه بعض ساعات النهار ، ومن الشاوية نزلت الى بيروت في دار صديقي السيد احمد إياس ريثما تيسر لي بعـد الغروب النزول إلى باخرة نمساوية قبيل إقلاعها بقليل .

كان رآني في فندق دير القمر السيد صادق الكسم من تجار دمشق فأنكر عليّ جرأتي في رحلتي ، وقال لي ان الوالي يفتش عليك ، وكان

الوالي عدوي نقل من دمشق إلى بيروت ، فالأولى أن ترحل إلى مصر براً . فقلت له هذا متعذر الآن فقال : إذاً تأوي إلى القرى ، وتتخذ من بيوت العجائز مسكناً ، ولا تنزل في الفنادق ، ولا تجتمع إلى الرجال ، وعلى هذا أردت النزول في عين زحلتا في دار عجوز ، ولما وقعت عينها عليَّ بكت ، فسألتها ما يبكيك يا أماه ؟ فقالت : كان لي ولد في اميركا مات منذ مدة وليس لي غيره ، وكان يشبهك بالصورة ، فلما رأيتك تذكرته ، ثم سألتني عن ديني فقلت لها برتستانت ، ففرحت ، وقالت : وأنا برتستانت وهذه التوراة ، وأشارت إلى المنضدة ، والقسُّ يسهر عندنا . فلما سمعت باسم القس خفت أن يجيء تلك الليلة وتنكشف له حقيقتي .

وكنت قرأت تاريخ الاصلاح الديني ، وعلقت في ذهني شبه البرتستانتية على الكثلكة ، حتى لأستطيع أن أتكلم ساعة في البرتستانتية ولا أعرف ، إلا أن يكون المخاطب قساً مثلاً ، فانه إذا كان ذكياً يتجلى له أمري بعد قليل . فلما قالت المرأة ان القسَّ يجيئها من الليل ، ادعيت أن غرفتها لم تعجبني ، واكرمتها ببضعة قروش ، وخرجت إلى أسفل القرية فنزلت في الفندق . وكنت صنعت اسماً أردت أن اتسمى به ذاك اليوم ، وهو اسم أحد اصحابي المسيحيين بدمشق (خليل العبسي) فلما رآني صاحب الفندق وعرف اني دمشقي قال لي : ان خليل العبسي شريكي في هذا الفندق ، وكان الآن عندي وسافر ، فحمدت الله على اني لم استتر اسمه ، وسألني عن اسمي فاخترت له اسماً آخر من اسماء النصارى ، وأظنه أعفاني من السؤال عن مذهبي .

وفي لبنان لا بدَّ لك أن تبوح بثلاثة وأنفك راغم : مذهبك وذهبك وذهابك ، امور كانت العرب تحرص على كتمانها . واللبناني لتدينه يحاول ان يعرفك بما تدين ، ليزيد انسه بك وتبسطه معك إذا كنت على مذهبه ، ويريد ان يعرفك إذا كنت (مقرشاً) أم لا ، فان معاملة الموسر تختلف عن معاملة المعسر ، ويودُّ ان يطلع على مقدار مقامك عنده ليكون على

بصيرة من أمره . وأنا في تلك الحال لا استطيع أن أقول إلا اني برتستانتي ، والحكومة تطاردني ، والوالي غاضب عليَّ ، والانظار ترمقني . وقد جازت برتستانتيتي على من نزلت عليه ، وهو خوري الشاوية وعلى الخورية امرأته ، واتفق ان ابتعت من الطريق عدة كتب من كتب البرتستانت ، فتمت الحيلة على الخوري والخورية عشرة أيام . وكان الخوري يراني اقرأ كتب البرتستانت وانا اقصد بالقراءة الا أطيل الحديث معه ، وهو يسألني لماذا يقرأ البرتستانت كثيراً ، فأجيبه لأن رؤساءنا يوصوننا بذلك . واتماماً لما تحليت له كنت أطلب من الخورية ان تأتيني بزجاجة عرق ، وليس من نيتي أن أشرب منها ، فاذا انصرفت عني أخذت قدحين وصببتها في الحديقة ، لأوهمها اني تناولت من عرقها .

ودعوى البرتستانتية ما نفعتني في « بيت شباب » ذلك ان صديقي أمين الريحاني قال لي إنه زار حبيس مار بطرس قرب بيت شباب ، وهو يلبس المسوح على عادة قدماء الرهبان ، وانه كتب فيه مقالة بالانكليزية فقلت له : وانا اريد ان ازوره واكتب فيه مقالة بالعربية . فقال لي : وانت في اي حال الآن ؟ فقلت له : لا بدَّ من زيارته . ومن الغد استصحبت ولداً من ابناء القرية يدلني على قلاية الحبيس ، فما إن حييته حتى وجه إليَّ السؤال عن مذهبي . فقلت له : برتستانت ، فصاح : انت هالك ، انت هالك ، وهل انت الذي صبأت عن دينك الأصلي ؟ قلت له : جـدي . قال : وهل لك راتب من البرتستانت ؟ قلت لا ، قال اتعرف القراءة ؟ قلت : قليلاً . قال : اقرأ الكتاب المقدس تعرف ان لوثيروس ما قال بالبرتستانتية إلا ليتزوج ، إلى غير ذلك مما أفاض فيه . واظن معلوماته عن النصرانية لا تزيد على معلومات العامة ، وربما كانت معلوماتي يومئذ أرقى من معلوماته .

وكان الحبيس أكرمني بحفنة من التـين المجفف فاخذت أتناول منه ، والغلام الذي يرافقني يحـدُجني بنظره ، والغالب أنهم لايتناولون منحة القس امامه ويحملونها للبركة فقط ، كما يتبارك حجاج المسلمين بماء زمزم .

وبدا المطر بنهمر ، فلا والله ماخلصت من عظاته ، وتكفيره لي ، وتخويفي عاقبة أمري ، إلا بانقطاعها ، وهرولت انا ودليلي ، وقد اعطيت الحبيس شبه وعد أن أعود إلى قراءة الكتاب ، وارجع إلى حجر الكنيسة . وسرَّ دليلي بما سمع من وعظ الحبيس لي . وقال لي أن انتصح بقوله حتى انجو من العذاب يوم الدَّينونة . ثم قال : (يامعلمي ، شفت هذا الحبيس ؟ كان قبل ان ينقطع في صومعته يقف ساعة امام المرآة يصفف شعره وبرْطله ، وكان من شباب البلد ، وخطب ابنة عمه فأبت ان تتزوج به ، ولما امتنعت منه امتناعاً قطع معه امله ، دخل في الرهبنة ، فقلت له : هذا قد يقع فيمشق المرء ويخيب أمله في عشقه فلا يجد غير الرهبانية والانقطاع إلى الله عزاءً له وسلوى عما شغل قلبه مدة .

صادفت في الباخرة النمساوية التي هربت عليها من بيروت ، صديقي سعاد بك مدير صحة ولاية سورية ، وشقيق حسين جاهد بك رئيس تحرير جريدة « طنين » التركية في الاستانة ، ومن زعماء حزب الاتحاد والترقي ومن اكبر كتاب الترك ، ومعه صديقه صلاح الدين جججوز بك صاحب جريدة « قره كوز » الهزلية التي تصدر في الاستانة ، ففرح سعاد لتمكني من الهرب ، وسرته نجاتي من الوالي ، وكان من انسبائه الا انه مشهور بكراهته له ، وأحب أن يغيظه فقال لي سأكتب اليه : كيف تدعي أنك كنت ناظراً للضبطية (مدير الامن العام) لمثل السلطان عبد الحميد ، وهذا عدوك يمرُّ من تحت لحيتك في بيروت ولا تدري به فأين معرفتك ويقظتك ؟ فرجوته ان يرجئ هذا المزاح والتشفي من نسيبه على حسابي إلى ما بعد اقلاع السفينة من ميناء يافا ، حتى لا يكون للوالي ولا للدولة العثمانية بجندها وحرابها سلطان عليَّ .

وفي هذه الرحلة قضيت في باريز أشهراً حتى برئت ساحتي ، ورجعت إلى بلدي عن طريق الاستانة . وكان الداعي إلى الرحلة شراً فأنتج خيراً كثيراً .

أما الهزيمة الثانية فكانت أهم من الأولى لتشعبها ، وطول الطرق التي سلكتها براً ولأني كنت فيها كل ساعة معرضاً للخطر ، وقد أرسلت حكومة الولاية بصورتي إلى جميع المخافر والثكنات والمرافئ في سورية لاعرف عند رجال الدرك والشرطة فيقبض عليّ حالاً . ونوعت الأساليب حتى أعفي أثري ويغم على الوالي أمري ، وأقنعه بأني خرجت من ولايته فما اقتنع ، حتى ان أحد خلاني أتاني بورقة من أوراق الرسائل وبغلاف مطبوع عليها شعار البواخر الفرنسية (الميساجرى ماريتيم) وكتبت كتاباً بالريشة الدقيقة يشعر بأني كتبته على ظهر الباخرة ، ووضع في البريد من بيروت باسم أخي عساه ينفس خناقه قليلاً ويكف الطلب عني ، فلما ألقي إلى الوالي تأمله فقال : الخط خطي ، والورقة المطبوعة ورقة الباخرة ، لكني ما برحت دمشق . وبهذا فقط أثبت أنه ناظر ضبطية قديم .

لما فوجئت بهذه الدعوى الجديدة كنت راجعاً من رحلة إلى المدينة المنورة استغرقت ثلاثة وعشرين يوماً . وكان غرض الوالي من هذه الدعاوي الملفقة اشتغالي بنفسي ، والراحة من نقد صحيفتي ، ولو أياماً قليلة ، وكان الوالي في هذه المرة أشد نقمة عليّ من المرات السالفة ، وذلك لاعتصامه بالاتحاديين ، وكانوا أتوا به إلى سورية مرة اخرى ليعاضدهم في انتخاب اعضاء مجلس النواب ، فنفذ لهم ما أرادوا ، وهو ما كان من حزبهم ولن يكون ، ورأى أن الفرصة سانحة للقضاء عليّ آخر الدهر . ولما فررت أشاع في جماعة الجند والدرك ان كلّ من يأتي بي اليه حياً أو ميتاً يرقيه من جندي عادي إلى رتبة « يوزباشي » مباشرة ، عدا ما يعطاه من مكافأة نقدية .

كنت قادماً بعد العصر إلى ادارة الجريدة ، فرأيت سرية من الجند

تحيط بها ، فغمزني أحد الشبان أن أرجع ، وكنت على بضع خطوات من الباب فرجعت وتبعني فقال لي : إن أخاك قبضوا عليه الساعة وهم في تفتيش الادارة . ولما رجعت إلى داري وقع في قلبي أن القوة المسلحة لا تلبث ان تأتي للقبض عليّ . وكان الأمر كما حسبت ، فخرجت من داري سائراً على قدمي بين الحدائق لا ألوي على شيء ، ومعي السيد حكمة العسلي ، وانا افكر كيف اقطع نهر يزيد الحائل بيني وبين الجبل ، وكان الوقت ربيعاً ، والأنهار طافحة بالمياه ، فطلبت إلى فلاح هناك ان يجتاز بي النهر فمشى إلى مجاز يعرفه ، وما كان اكثر تعجبه ان رأى شجرة صفصاف كبيرة قلعت من جذعها وأسندت على شاطئي النهر ، كأنها جسر وضع لأعبر عليه ، وسرت قليلاً حتى بلغت قبة السيار ، ومنها سقطت إلى دمر اقصد بيت صديقي الامير عمر الحسني ، وكان حانقاً عليّ لأني كتبت ، او كتبت الجريدة ، تعريضاً بأخيه الامير عبد الله باشا لما قام بدعوة الجمعية المحمدية هو والسيد عبد القادر العجلاني في دمشق ، وكانت قامت هذه الجمعية بايعاز السلطان عبد الحميد ، لقلب النظام الدستوري ، وإعادة الحكم المطلق الاستبدادي ، وسيق القائمان بها إلى الاستانة للمحاكمة وبعد جهد جهيد كتبت لهما النجاة من القتل .

قصدت دار الأمير عمر لأنه افرنسي التبعة ، ومن المتعذر تفتيش داره ، ومع هذا احتاط وخبأني ثلاثة ايام في دار بعيدة . وفي اليوم الرابع ركبنا مع الامير طاهر ابن اخي الامير عمر من وراء جبال دمر فبلغنا المزة . وفي تلك الليلة بحثت الحكومة عني في قرية المزة هذه ، وكبست في صالحية دمشق دار صديقي عبد القادر بك المؤيد ، ولم نقف في المزة بل اجتزنا ارضها فقط ومنها سرنا إلى قرية بلاس وهي مزرعة الامراء آل الامير عبد القادر ، فنزلت في دار الامير محمد ابن السيد محي الدين ، وامه ابنة الامير عبد القادر الكبير ، فقضيت عنده اياماً على غاية من الهناء والطمأنينة ، حتى ابتاع لي الامير طاهر ثياباً بعضها من سوق الخلق

كالمعطف والمباءة ، وهذه أول مرة لبست فيها ثياب غيري ، ولا سيما مثل هذه الثياب الوسخة ، وقد تكون موبوءة ، وذلك لينطلي أمري على من رآني ، وكنت اطلقت لحيتي من يوم استترت ، وشعثت هندامي حتى أشبهت صورتي بعض سكان الحاضر في حماة . وكان جاءني أحد أصدقائي عبد القادر آغا سكر من أعيان حي الميدان وأبطال الرجال يريد أن يصحبني إلى مصر فظننته هازلاً فاذا هو يجد ، ورجع بعد أيام يركب حصانه ، وقد ابتاع حصاناً يحملني ، وفي الساعة التي كانت النار تلتهم سوق الحميدية بدمشق ، والحكومة والناس مشتغلون باطفائها قال الوالي : الآن يفر صاحب المقتبس مغتنماً فرصة اشتغالنا بهذه الفادحة ، فأمسكت عليَّ محطات السكك الحديدية كلها ، وفاته أن لدمشق عشرات من المنافذ وأن من اتهم تهمتي لا يهرب من طريق السكك الحديدية مادامت الأرض واسعة . وسرنا عصر ذاك اليوم من بلاس حافظاً لصديقي الأمير محمد أجمل ذكرى ، وقد كتم وجودي في بيته حتى عن أهله وأنسبائه ، ومنهم من كان يكرهني ، وربما كان يتقرب من العثمانيين بدلالتهم على مخبئي .

سلكنا سبيلاً معوجاً في أول مرحلة رحلناها من حوش بلاس ، فاجتزنا أرض المزة وبلاس والأشرفية وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب من قرى وادي العجم فدير المدس فالحارة من اقليم الجيدور حتى النقرة من اقليم الجولان ، وانتهينا عصر اليوم التالي إلى نهر الرقاد ، ولم نهوِّم في الطريق إلا دقائق قليلة ، لأن صاحبي كان يوجس خيفة من أن يعرف أصحاب الحكومة بالأمر فيلحق بنا الجند ، وكنا رأينا في الليل والقمر ليلة البدر ، بضعة انفار من الدرك فوقفنا عليهم وشربنا ماءً ، وكلمهم صاحبي بلهجة مغربية فعرفوا أننا مغاربة (وسأل أحدهم في عودته عن سبب مرابطتهم هناك ، فقالوا : إن صاحب المقتبس سيمر من هذه الأرجاء وقد أمرتنا الولاية بالقبض عليه !)

وتعرّف صاحبي عبد القادر آغا في الجولان إلى رجل نجدي اسمه عبد العزيز المحيسني يقود إلى مصر مع ستة من الرعاة سبعة وسبعين جملاً ، هي ملك أحد أصدقائي الحاج ياسين دياب من تجار دمشق . فذكر عبد القادر آغا للمحيسنيّ ماوقع لي ، وما يتوقع من شر يصيبني إذا سقطت في يد أحد رجال الحكومة ، وانه رافقني حتى يبلغني مأمني ، فقال انه سمع بقصتي . ومما قال له صديقي أنك إذا اخذته تحسن لأهل دمشق ، وهو يحمل دراهم يعطيك بقدر ما تحب . فأجابه : تقول لي انك تحسن لأهل دمشق إذا نجا روحه ، وتعرض عليّ ان آخذ منه اجرة ، ومتى كان العربيّ يأخذ أجراً على المعروف .

وعاد صاحبي عبد القادر آغا سكر ، وسرت على بركة الله مع جمال النجديين ، فقطعنا سهل الجولان وبتنا تلك الليلة دون عقبة فيق . واقترب مني ساعة نزولي فارس من خفراء شركة الدخان ، يحادثني ويتحبب إليّ ، فأزعجني بكلامه ، ولاحظ اني متعب كثيراً فقال لي : مالك وللجمال تتجر بها — ورُعاة الجمال يوهمون من نصادف اني انا صاحبها — لو فتحت لك دكاناً في سوق باب البريد ببلدك لعشت في نعيم ؛ وخلصت من هذا الشقاء ، ومن قطع الصحاري والبراري ،فتثاءبت وتناومت. فقال لرفاقي « إنه تعبان المسكين » وتركني وانصرف .

ومن الغد هبطنا العقبة فأشرفنا على اراضي غوْر بيسان وبحيرة طبرية ونهر الأردن (الشريعة) فاجتزنا الجسر القديم المتداعي سباحةً على الدواب ؛ ثم توقلنا الجبل الى موقع الدّلابكة ؛ وهو بين جبلين منفرجين متآزيين ، وبتنا ليلتنا في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة . وفي اليوم الرابع دخلنا في غابة عظيمة من شجر البطم نحو ساعتين ؛ فبلغنا قرية دبورية ؛ وفي منقطع ارض هذه الدسكرة يبتدىء مرج ابن عامر (سهل يَزْرَعيل) فقطعناه عرضاً في اربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ؛ ومنها إلى وادي عارة ؛ وطوله ثلاث ساعات ؛ وهو ضيق متوازي الأضلاع . وبتنا

الليلة الخامسة في عيون الأساور على ساعتين من قيسارية ؛ واجتزنا في اليوم السادس بقرى نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة ، فبلغنا نهر الموجاء على ساعة ونصف من يافا .

وحدثني من أثق به بعد مدة ؛ أن جماعة من أعيان نابلس وشبانها المثقفين ؛ ومعظم شبانها مثقف ؛ استصرخوا أهل قرى نابلس التي يلاحظ اني اجتاز بها ؛ وأشاروا اليهم إذا رأوني أن يحملوني الى مكان بعيد ، ويبعدوني عن أنظار كل من له علاقة بالحكومة ؛ فكان أهل القرية من القرى المستصرخة ينتدبون أناساً من شجعانهم وأصحاب المروءات منهم ، يقفون على الطرق في الليل والنهار ، لينقذوني من مخالب الظالمين وباتوا يترصدون المعابر والمسالك أياماً وليالي حتى قرأوا في الصحف المصرية أني بلغت مصر . وهذه مروءة عربية استرق بها النابلسيون قلبي مادمت حياً .

وفي اليوم السابع اجتزنا قرى الساحل مثل جبنة ، سدود ، مجدل بربرة ، بير هديد ؛ غزة . ورأينا بعض المستعمرات اليهودية الزاهرة . وقضينا الليل في دير البلح . وفي اليوم الثامن دخلنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة ، وبعد مسيرة ست ساعات بلغنا محطة رفح اول حدود مصر والشام . وفي اليوم التاسع دخلنا في رمال خمسة أيام حتى قالت الاسماعلية : ها أناذه . وكنا نسير في هذه الجفار على مقربة من البحر لانبعد عنه كثيراً ، والرمال لايتبدل شكلها .

ذكرت هذه المراحل لأني قطعتها على راحلتي وما كنت لأقطعها لو خيرت . وقد استفدت من هذه الرحلة فوائد جغرافية وطوبوغرافية . وما كان يومئذ خط حديدي يصل بين آسيا وافريقية أو بين دمشق والقاهرة ، ولا طرق معبدة تسلكها السيارات . وقصدت بتقييدي هذا تسجيل ظاهرة غريبة ، أو بدع قديم بطل ، وذكرى أيام قضيتها في عالم الابعاد فاستحليتها وهي مرة .

* * *

قلت في محاضرة ألقيتها في الاسبوع الذي بلغت فيه القاهرة ، في فندق ادن بالاس ، اجابة لمقترح جماعة من السوريين ، بعد أن عددت ماوقع لي منذ خرجت من بلدي إلى أن دخلت الاسماعلية ، وألممت بتاريخ ذاك الطريق الذي كان من أعمر الطرق منذ كان الاسلام : وكأن رحلتي في الشهر الماضي الى الحجاز وجنوبي الشام ونزولي على أهل البادية من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هـذا الشهر من مؤاكلة الاعراب في صفحة واحدة ، وفقدان الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والا كل من طعامهم ثمن العراق وجريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة أو على الساج يسجر ببعر الاباعر ، والرمال تسفو فتدخل كل مايعمل هناك من خبز وأدم ، وكل مطبوخ ومعجون .

ولقد حملوا لي الماء في قربة فما هي إلا ساعات حتى تغير منه الطعم واللون والرائحة ، وبقيت خمسة ايام أسقى من هذا الماء وأعده نعمة بالقياس إلى مياه الجفار البشعة المهوّعة ، وهي بعض ماء البحر روّقتها الرمال قليلاً . وأذكر ان « خويي » الحيسني ناداني مرة ، وجمالنا مسرعة في طريقها ، وحاديها يحدو لها بصوت يذكر بنجد وأهل نجد ، فالتحقت به مسرعاً ، وما انحرفنا دقائق عن قارعة الطريق حتى كنا وسط فريق من العرب فاستسق فأتوه بذكرة شرب منها وأعطاني فاذا بها لبن رائب ثم ارادني ان اشرب واشرب ، واردت ان اعطيهم شيئاً فأشار إليّ الا افعل . وكنت اتمنى شربة واحدة من هذا اللبن كل يوم وادفع فيها جنيهاً وانا غير مغبون . وكنا مرة نزولاً على بئر أنشئ على عهد الخديوي عباس الثاني ، وعليه كتب اسمه ،فأتاني وليد بعقطف من الطاطم (البندورة) الصغيرة فأحببت أن أعطيه ريالاً فصرخ خويي « بشلك » ثم قال لي : اذا توسعت في اكرام البدو هذا التوسع تضرّ بنا فنحن لانزال نجتاز بهم طول السنة فاذا تعودوا الكثير نضطر أن نعطي كل مرة كما أعطيت فلا يستقيم لنا بعد ذلك حال معهم .

وكنت في الليلة التي نجتاز في صباحها برفح آخر الحدود العثمانية المصرية قلقاً جداً ، وقضيت ليلي وأنا في هواجس أدبر وأقدر . وسرت قبيل الفجر أمام قطار الجمال وأنا اقول في نفسي : الآن فصل الخطاب فاما أن أنجو وأدخل أرض مصر ممتعاً بالنعيم بعد هذا الشقاء ، أو أعود أدراجي وأنا في قبضة الترك إلى مُطبق من مطابقهم ، ألقى ما ألقى من معاملتهم الجائرة . وبعد خمس ساعات سألت المحيسني متى نبلغ رفح فقال : قطعناها منذ كذا ساعة ودفعنا عنك للجندي ثمن علبة دخان لما اعترضنا قائلاً إن إخراج الخيل من الأرض العثمانية ممنوع ، فأقنعناه بأن هذا حصان راعي الجمال الذي تراه . فأخذ « البشلك » وهي قطعة تساوي قرشين ، ولم يمسسنا بسوء ولم يحقق من أمرنا غير ما رأى .

وسعدت في هذه الرحلة ان رأيت بين الشام ومصر صورة مصغرة من عيش اهل جزيرة العرب ، وذلك بالاختلاط مع تجار الجمال ورعاتها ، وكلهم نجديون لا يعرفون الفضول ، وما رأيت أحداً سأل خويي عبد العزيز عني بالاشارة ولا بالعبارة ، وكانوا في كل مساء وصباح يختلفون إلينا ونختلف إليهم ونشرب القهوة معاً ، وحديثهم في البعير وسوقه ورعيته وثمنه ورواجه وكساده . ولم اسمع في اربعة عشر يوماً بلياليها كلمة هجر وبذاء ، ولا تجديفاً ولا لعناً ، ولا نميمة ولا غيبة ولا كذباً ولا منكراً . وكان اولئك الأعراب مواظبين على صلواتهم ، يتيممون بالرمل إذا اعوزهم الماء ولا يسرفون فيه إذا وجد . وأنست بلهجتهم وفيها كثير من الفصح ولها رنة تطربك .

نزلت في الخيام في الشهر الذي وقع قبل هذه الرحلة ثلاث ليال في أرض ابل على شيخ من عرب الشرور اسمه محمد ابراهيم ، وأخرى في بير البيطار على محمد ابي الفرج شيخ بني عطا وهذان المنزلان على مقربة من وادي موسى ، وبت ليلة في الزيزاء (الزيزة) عند صديقي فواز بن سطام شيخ مشايخ بني صخر فرأيت العيش البدوي على اختلاف درجاته ، وكان

العيش في الليلتين اللتين قضيتهما في بلاد الشراة «ديمقراطياً» وفي ارض البلقاء «ارستقراطياً» نمنا هنا على فرش الحرير محشوة بريش النعام، وشربنا في الصبح لبن النياق .

سألني أحد الأعراب أي العيش افضل لنا نحن البدو : الحضارة ام البداوة ؟ فقلت له : ابقوا على بداوتكم واقتربوا من المدنية ما سمحت لكم حالتكم وإياكم أن تغفلوا عن تعليم أولادكم . وإني اخاف إذا عاشرتم الحضر فأكثرتم من عشرتهم ان يختلط عليكم أمركم وتخرجوا عن فطرتكم واخلاقكم إلى ما تئن منه حضارتنا من النفاق والكذب والتزوير والخديعة . ولولا الغارات المتواترة عندكم لآثرت أن اعيش في هذه الديارات بين البوادي ولو اشهراً في السنة .

زرت في تلك الرحلة عمان والصلت والكرك ومادبا ومؤته ، وجئت معان فقصدت إلى عاملها صاحبي القديم حليم بك ابو شعر وطلبت منه ان يُصحبني بدركي لزيارة وادي موسى فنادى دركياً واسرّ إليه شيئاً في اذنه ، واظنه قال له أن ينتبه لحديثي مع البدو وان يجيئه بخبري كله . وشكرتُ له لأنه لم يقل له جئني برأسه ، ولو فعل لجلب السرور إلى قلوب الاتحاديين ، القابضين على زمام المملكة يومئذ ، ولرقيت درجته في ذاك الاسبوع . وانتهى بنا السير قبيل الغروب إلى عين ماء عذبة على خمس ساعات من معان فقلت للدركي : نتعشى هنا ، فاستنكر ذلك وقال : وهل يمكن هذا وبعد ساعة نصير إلى قبيل العرب فيذبحون لنا ؟ فأقنعته بأن نأكل من زادنا لأني لا اريد ان اشق على الفقراء فنزل واكلنا .

وفي العشاء كنا نزولاً على العربان فما ان ترجلنا حتى سمعت صوت «المهباج» لعمل القهوة واصواتاً اخرى تنبئ بأن الخروف يذبح . فقلت للدركي : قل لهم انا تعشينا : فقال : هذا كلام لا يسمع ، دع هؤلاء الذين تراهم من الصبيان والشبان والرجال يأكلون الليلة على جرايرك (بسببك) فانهم ينتظرون قدوم الضيف على شيخهم حتى يذبح له فيأكلون الفضلات . وانتظرنا

ساعتين فخرج الخروف في قصعة صغيرة وجملت تحته رقاق من الخبز لُتّت بالمرق واللبن الرائب فأصبنا منه قليلاً إرضاءً لهم ، وكنا نراهم . والقريب من القصعة يتبعض للبعيد عنها ، فتسافر قطع اللحم من فوق رؤوسنا وتتعاور العظامَ أيدي البدو فأسمعهم وهم يعرقونها بأسنانهم كما يعرق الكلاب العظم . وخمنت من تناولوا من الخروف تلك العشية بنحو خمسين نسمة ، ولو لم نجئهم لباتوا على الطوى . ولو قدرت اننا سننزل على مثل هؤلاء الاعراب يكرموننا هذا الاكرام على فقرهم لحملت اليهم من معان على الأقل بعض الثياب أكسو بها بعض أبنائهم وبناتهم لأنهم كانوا أشبه بعراة .

وأعظم ما ملأ نفسي سروراً في رحلتي إلى المدينة المنوّرة أن رأيت العمران بدأ يسري ، بفضل السكة الحجازية ، إلى بعض المحطات ، وأخذت المدنية تدخل في تلك القفار ، ويجري الانتفاع بالمياه المخزونة في بعض الأودية في ارواء الارض ، فأنشئت الحقول والحدائق بعد بلدة معان ، وبدأ الأعراب هناك يتذوقون طعم السكنى ، ويتعهدون الزرع والشجر ، ولو ظلّ استثمار الخط إلى اليوم لرأيت قرىً قامت على جانبي هذا الطريق الطويل ، وصار للبادية ما تتبلغ به وتعيش ، ولقامت بعد الديار الشامية حتى مدينة الرسول « هجرات » على النحو الذي قامت في بلاد نجد بفضل الملك عبد العزيز آل السعود فأغنى أهلها عن الغارة ، وعلمهم الحرث والكرث ، وحبب اليهم عيش المدَر بعد عيش الوبر .

ولاحظت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام أن جميع العناصر الاسلامية تدخل بخشوع وأدب لا يكونان في أبناء العرب ، فان هؤلاء يضطجعون ويأخذون حريتهم ، ويلقون بنعالهم كيف اتفق ، مما لا يصدر مثله من الهنود والأفغان والجاويين والايرانيين والقوقازيين والسودانيين والاتراك ، كأن أبناء العرب يرون ان صاحب هذا القبر الشريف هو بعض أبناء عمهم أو احد إخوتهم ترتفع بينها الكلفة ، على ماهو الحال بين ابناء أسرة واحدة .

وتسألني وقد أنبأتك بما قصصت عليك ، وأنت هل تعبت بقطع هذه المسافات التي قطعتها راكباً حتى بلغت مصر ، فأقول لك ان ربك يبتلي عباده ويعينهم. كنت إذا ركبت دابتي إلى قريتي ثلاثة ارباع الساعة أضطجع إذا نزلت عنها ساعة أو ساعتين للاستجمام ، ولم تنقص أقل مرحلة قطعناها هذه المرة عن اثنتي عشرة ساعة ، وكثيراً ما كنا نسير ثماني عشرة ساعة في اليوم ، وسرنا في اليوم الأول اربعاً وعشرين ساعة متتابعة ، فكانت مرحلتنا الأولى كسائر المراحل غير شاقة ، وما أحسست بتعب يذكر ، وقد نكتفي بنوم ثلاث ساعات ننشط عقبها للركوب كأننا نمنا ثماني ساعات على فراش وثير ، ذلك لأن نومنا كان بالعراء على الأرض بعيدين عن القاذورات والرطوبات . وكنت أنشط اليوم بعد اليوم وآلف هذا العيش لا أتبرم به كثيراً ، وهو جديد بالنسبة لابن المدن والرفاهية .

ولما بلغت بعد ظهر اليوم الاخير من هزيمتي مدينة القاهرة قصدت إلى مقهى « اسبلنديدبار » تواً ولم أكن أحمل معي شيئاً إلا ما عليّ من ثياب وسخة . فكان كلما جاء واحد من اصحابي الصحافيين يعمى عليه أمري ، حتى أتكلم وأضحك ، أو يذكر له من سبقه اسمي الصريح ، وتجمع عليّ منهم بعد ساعتين عشرات شغلنا النصف البراني من القهوة ، والانظار تحدجنا ، والطليان ينظرون الينا شزْراً ، وكان مقهاهم وراء مقهانا ، ولعلهم ظنوني بعض أولئك الأعراب الفارين من ليبيه ، وكانت الحرب يومئذ على ساق وقدم بينهم وبين العثمانيين . واخذني حقي بك المظم وصورني بذاك الهندام العجيب ، وساقني رفيق بك العظم أمامه إلى داره ، فقلت له : انزل في الفندق ، فقال : ما من فندق في القاهرة يقبلك وانت على هذه الوساخة . ومن الغد خلعت حلتي ، وحلقت لحيتي ، وعدت إلى قيافتي . وعندها بدأ التعب يدب في جسمي ، ولم ترجع إليّ قواي إلا بعد نحو اسبوعين ، حمدت الله على السلامة ، وأنشدت مع من أنشد « أنت يامصر ملجأ الأحرار »

شبك نجوت منه ونجوت به

زارني في داري قبل الحرب العامة بنحو سنتين أحد موظفي خارجية فرنسا (ج. ب) ، وكان أوصاني به قنصل دولته في دمشق ، فرأى على مكتبي جريدة (الطان) ففتح الكلام بأن قال : إن اهل الشرق الأدنى يتوهمون أن هذه الصحيفة هي لسان حال خارجيتنا ، والصحيح أنها لسان حال نفسها لا تنطق بلسان الحكومة ، ولا هي من الصحف الرسمية . ثم قال إن جريدة المقتبس إذا خدمت سياستنا ، فلصاحبها أن يطلب ما يحب مقابل خدمته ، وقرّب وبعّد من هذا المعنى . فأجبته بلطف بما معناه : إنك تعرف ولا شك الاتحاديين ، جماعة حزب الاتحاد والترقي ، القابضين اليوم على زمام الدولة ، وتعرف أن الأتراك مثلنا من أهل الاسلام ، لا فرق بيننا وبينهم إلا هذه اللغة ، وتعرف أن جامعتنا بالأتراك لم تبدأ بفتح العثمانيين أرض العرب ، بل كانت علائقنا بهم وشيجة منذ انتحلوا الاسلام أوائل الحكم العباسي ، وقد ساروا معنا في قتال الصليبيين جنباً إلى جنب ، وبهم وبالأكراد دفعناكم عن بلادنا في القرون الوسطى . ولما بدا للاتحاديين أن يتركوا العناصر كان من رجال العرب أن حاربوهم بكل ما عندهم من أسباب الكفاح . وذلك لأن العرب لا يريدون أن يتخلوا عن لغتهم وقوميتهم ، يعتزّون بتاريخهم ويعجبون بحضارتهم . وأنتم كيف تريدوننا أن نسير معكم مع مخالفتكم لنا في الجنس والمدنية واللغة والدين . وكيف نشايعكم وأنتم تحاولون القضاء على لغتنا وقوميتنا في كل ارض حللتموها . بدّلوا سياستكم في الجزائر وتونس ، والمسلمون طيبة قلوبهم يعترفون بجميل من يسدي إليهم يداً ، ونحن في الحال نردد صدى امتنانهم منكم ، بدون مقابل على ما ننشر ثم إني وإخوتي مكفيون مؤنة الرزق ، ولنا مزرعة في

الغوطـة ترتفق بريعها ، وأنا واثنين من إخوتي نعمل في الجريدة ، فاذا كانت الصحيفة مثلاً تكلف غيرنا في السنة ألف ليرة فنحن تكلفنا خمسمائة وجريدتنا رائجة ولها قراء ، وتباع في جميع مدن سورية ، ولهـا موارد جيدة من الاعلانات .

تململ الزائر من هذا الجواب ، وأكد عليّ قبول اقتراحه فقلت له : لا يسعنا إلا أن نكون مع العثمانيين . وجاءني بعد الحرب العالمية بأكثر من ست عشرة سنة يزورني في داري فلم يجـدني . والغالب أنـه اشتاق إليّ وأراد أن يذكرني باجتماعنا السرّي على عهد العثمانيين ، وبما بدر على لساني يومئذ ، والسياسة تتبع الأحوال ، وتتبدل بتبدل الأزمان .

ومن كان يظن بأن ما جرى بيني وبين الرجل قد حفظت صورة منه في دار القنصل . وتصرّفت الأقدار تصرفها ، ونشبت الحرب العـامة ، ووضعت الدولة يدها على القنصليات ، وفتشت أوراقها ، واهمها الاطلاع على أسماء من كان لهم من الأهالي صلة بها ، فخرج تقرير ذاك الرسول الذي كان قصدني قبل الحرب ، وفيه تفصيل لما وقع لنا من حديث ، فدهشت الحكومة العثمانية من تصريحاتي هذه ، وكانوا يتهمونني بالصالي بفرنسا تارة وبانكلترا أخرى ، ويرمونني بخيـانة الدولة على كل حال ! ثم خرجت لي أشياء في أوراق دور قناصل فرنسا في بيروت وحلب ، ومنها منشور عام من سفير فرنسا في الاستانة إلى قناصل دولته في الديار الشامية يقول فيه : إن كردعلي شخص لا يركن إليه ، وإن الحكومة التركية استرضته مؤخراً ، وبرأته من دعوى كانت أقيمت عليـه ، وحذّرهم مني وقال : إني لا أسير إلا مع الأتراك .

وكان السبب فى نزع الثقة مني أني أبنت عن رغبتي لأحد أصحابي في باريز ، وهو المسيو لشاتليه صاحب مجلة العالم الاسلامي الفرنسية ، بزيارة المانيا في عودتي من فرنسا (١٩٠٩) فقال لي : إذا فعلت اخرجك من صداقتي ، ولا أعرفك ولا تعرفني . وعجيب من حال بعض السياسيين من

الغربيين ، يطلبون منا أن نوالي من يوالون ، ونعادي من يعادون ، ونحن لا دخل لنا في سياساتهم المتبدلة .

ووقع الاتحاديون في كتب ضبطوها من البريد على ما يؤيد أيضاً تعلقي بالعثمانيين ، وهو كتاب من رفيق بك العظم إلى فرع حزب اللامركزية في دمشق ، جواباً على كتاب رئيس الحزب خلاصته أنهم عرضوا عليّ الدخول معهم فأبيت ، وقلت لهم : إن الدولة تعد برنامج هذا الحزب خروجاً على سلطانها . فكان جواب رفيق بك : دعوه وشأنه ، إنه يعترض أبداً فيخرب ما نريد أن نعمره . ذكر لي ذلك ضيا بك ضيف جمال باشا الذي أشرت اليه في مكان آخر .

أدرك الاتراك أنهم ضلوا كثيراً باتهامي زمناً بأمور أنا بريء منها ، وجاءتني التبرئة بطبيعتها تمشي على قدميها ، ومضت أعوام وأنا أرمى بشكل كبيرة ، ويتهمونني بأني عدو أزرق لدولتهم ، جرياً على العادة المتبعة في اتهام من يقصد اتهامه بأقصى التهم وأشدها . وكنت أرى من الغضاضة عليّ أن أبرئ نفسي مما ينسب إليّ ولم يخطر لي ارتكابه ببال . وما كان يتأتى لي ذلك ، ولو أتيتهم بألف برهان على براءتي ما صدقوني ، لان معظم الخلق ينضح من انائه ، والكذاب يعتقد ان كل انسان يكذب ، والسارق يعتقد ان كل امرئ يسرق . وكنت اكتفي بأن اقول إن كانوا يتهمونني بأن لي ضلعاً مع الانكليز او الفرنسيين فان من يشايع دولة لا بد ان تظهر على كلامه امارات التحزب لها ، وتبرير مواقفها في سياستها ، فهل يجد الاعداء بأثري في كل ما كتبت في جريدتي المقتبس وفي الصحف التي آزرت فيها في مصر كالمؤيد والظاهر واللواء والرائد المصري كلمة واحدة تشعر بتشيعي للدول صاحبة المطامع في الشرق . ولطالما انتقدت سياسة الدولتين اذا رأيت ما يحق لي نقده .

وبعد فان هذه التقارير والشهادات كانت سبب نجاتي من القتل اثناء الحرب العامة . وكان اعدائي واوليائي يقولون اني سأكون اول المصلوبين

من ابناء العرب إذا وضع الميزان للحساب . وكان الاتراك يحرقون عليَّ الاُرَّمَ ، لكثرة ما تأذوا بما كتبت . والحق إني كنت انحي على القائمين بالامر ، كما تقاضيتهم بعض حقوق العرب المشروعة ، وهي مطالب لاتخرجهم من حظيرة الدولة وتزيد قلوبهم ارتباطاً بها . واكثر ما كنت اردد نغمته التعليم باللغة العربية في الابتدائي والثانوي ، وجعل المحاكمات بالعربية في الولايات العربية ، وان يعرف العمال بأجمعهم اللغة العربية ، إلى غير ذلك من المطالب المعقولة ، وكان بعض الاتراك يتألمون من سماع هذه النغمة ، لئلا تسري بزعمهم إلى الاكراد والالبان والروم والارمن وغيرهم من العناصر العثمانية .

بالغ الأتراك في اضطهادي ، وانا صابر لا يزيدني ما القى من اذاهم إلا ثباتاً على المطالبة بحقوق الامة . ولقد اغلقوا الجريدة مرات في عهد الدستور والحرية ، بضروب من التهم المضحكة لفقوها ، وآخر اغلاق كان لنشري مقالة عنوانها (حجاب النسوان) نقلت عن صحف الاستانة ، فصدر الامر باقفال الجريدة شهراً ، بدعوى أن المقالة خدشت الاذهان ! ثم رخصوا باعادة صدورها ، فاستنكفت من معاودة نشرها واعلنت اني لا احب العودة إلى الصحافة لما اورثتني من متاعب ، وهنا عرض عليَّ قنصل فرنسا معاونته بواسطة صديقي جورج فاخوري اولاً ، ثم كلمني شفاهاً بنفسه ، فأبيت اخذ شيء منه ، وشكرت له عاطفته الكريمة . واخذ الجواسيس يراقبونني ، ويتبعونني في غدوي ورواحي ، ويكتبون اسم كل من يزورني في داري ، وازوره في داره او مكتبه . ودام ذلك اشهراً حتى اعلن النفير العام ، وعزمت الدولة العثمانية على الدخول في الحرب إلى جانب دول اوربا الوسطى .

والي سورية خلوصي بك

نصب والياً على سورية خلوصي بك شيخ المهندسين في الدولة العثمانية ، وهو رجل عظيم بأخلاقه وعلمه ، وكان يحب الشام ويعطف على أهله . وقيل لي انه كان ربي فيه صغيراً ، وإنه يحسن التكلم باللهجة الدمشقية ، وأنا لم أكلمه بها . جاء في أول النفير العام قبل اعلان الحرب العامة بأشهر قليلة ، فزرته أول مرة في مكتبه ، فقابلني بعبوس وتجهم ، ثم قال لي : إن الوقت ضيق ، وأشار إليَّ أن أزوره بعد رمضان ، وكنا في أوله . وبعد أسبوع بعث يطلبني اليه بواسطة الشرطة فأتيته ، فقال لي : إن الحالة السياسية الحاضرة اقتضت أن يعجل الاجتماع بي ، وذكر لي أنه يحمل من الاستانة اضبارة ما أتهم به ، وان الحكومة تنسب إلي مسألتين ؛ احداهما أني أعقد الآمال على استيلاء فرنسا على هذه الديار ، والثانية أن قنصلها في دمشق يزورني وأزوره . فلما سمعت قوله انتصبت قائماً ، والغيظ آخذ مني ، ضربت بيدي على مكتبه بدون اختياري ، وقلت له بصوت عالٍ ، مما يخالف أصول الأدب مع الكبراء : إني أرى يادولة الوالي ان وجودي اصبح عبئاً ثقيلاً على الحكومة العثمانية في هذه الأرجاء ، وانا منذ مدة والجواسيس يتبعونني حيث سرت ، وتكتب كل يوم قائمة بأسماءِ من يدخل بيتي أو أدخل بيته ، ويراقب بريدي مراقبة مضحكة ، فهلا امرتم باخراجي من المملكة كلها ، او بحبسي في إحدى القلاع ، او نفيي إلى بلد بعيد ، انقطع فيه عن اتيان ما تعتقدونه ضاراً . اما آمالي مع فرنسا فان لم أكن اول من يعرف غوائل الاستعمار فأنا ولا شك احد افراد خمسة على الأكثر يعرفون ما هنالك . وأما صداقتي لقنصلهم فسببها انه رجل مستعرب يحسن العربية ، وكان اسمه المسيو اتافي ، وهو يستعير مني كتباً ، وانا أستعير منه الصحف

الممنوعة ، ثم إني إلى ذلك أجتمع مع معظم القناصل ، لأني أحب أن أتخبر لجريدتي ، وهم عارفون بالحركة السياسية ، ووكلاء الدول طبقة مهذبة في أممهم ، واجتماعي بهم أعود عليّ وعلى امتي وجريدتي من اجتماعي بالعامة ومن في حكمهم .

فحدق الوالي النظر فيّ دقيقتين ثم أجاب : يا هذا ليس لك أن تغضب ، ما دمت موقناً أنك على حق . وأنت عالم بأن المشتغلين بالسياسية عرضة أبداً لطمن خصومهم فيهم ، ينالون من شرفهم ، ويتهمونهم بأماناتهم ، ويضربونهم في كل عزيز عليهم . إذا عرفت هذا فليس لك إلا أن تضحك مما يلصق بك أعداؤك من التهم ، فمن الطبيعي أن يعاملوك هذه المعاملة ، ولا تتوقع منهم غيرها . فشكرته على هذا العطف واللطف ، وانصرفت من لدنه وهو يرجوني أن أزوره كلما اتسع لي الوقت ، فقلت له ضاحكاً : على شرط ألا أجيء بواسطة شرطي . قال : وهو كذلك .

وجئت الوالي العظيم بعد أسبوع فقال لي : وهو ضاحك مستبشر ، أكثر من زيارتي لتقلل من تقارير الجواسيس فيك ، فاني لا حظت أن تقاريرهم خفت هذا الاسبوع ، وآخر تقرير منهم كان فيه أنك اجتمعت وشكري بك العسلي وشخصاً آخر سماه ولا أذكر الآن اسمه ، وأتيتم براقصة وعريتموها من ثيابها ولففتموها بالعلم الفرنسي ، فضحكت وقلت له : من رآنا ونحن على هذه الحال المنكرة ، وهلا أغلقنا النوافذ والشبابيك أصلحنا الله ؟ وثقوا أن هذه الرواية الخلاعية لا يمثل مثلها في باريز ، كأن تكون في العراء أو في غرفة مفتحة من كل أطرافها ، وإني لم اجتمع مع شكري بك وأصحابه على منكر قط .

زرت الوالي بعد العيد فأهل بي ورحب وبشّ لي كثيراً ، وقدمني إلى من كان في مجلسه ، ومعظمهم من كبار الموظفين الاتراك والنواب ، فاتفق أني ما كنت عرفت واحداً منهم ، فقال لي : من الغريب أنك لا تعرفهم وهم أرقى فئة من عمال الدولة هنا ، فقلت له : إن بعضهم جاء سورية

من عهد غير بعيد ، وليس لي بهم علاقة ، ولم يتفق لي الاجتماع بهم ، لأنهم في واد وأنا في واد . ثم قال لي : أهنئ نفسي وأهنئك ، أهنئ نفسي لأنك تذكر اجتماعنا في أول شهر رمضان ، وقد ذكرت لك ما يوجهونه إليك من التهم ، إني في ذاك النهار برأتك على الفراسة لجماعة الاستانة ، ونفيت عنك ما ألصق بك ، وأنا الآن أغتبط بأن كنت صادقاً في تبرئتي لك . لأن أوراق قنصل فرنسا أثبتت أنك كنت واخوانك مخلصين صادقين لهذه الدولة ، وكنا نعتقد في جماعة الاخلاص ونرميكم بالخيانة ، فثبت الآن أن من توهمناهم مخلصين هم الخائنون حقاً ، وأنتم الصادقون (وأشار إلى أحد الباشاوات) فاسرح وامرح بعد الآن ، فقد بُرئت براءة قطعية ، فلك تهنئاتي وتهنئات حكومتي . فشكرت وانصرفت ، وفرحت وفرح معي كل من يحبني فرحاً عظيماً .

استحكمت أواصر الصداقة مع الوالي ، وغدا يكلمني بحرية قلما عهدتها في تركي ذي منصب سياسي خطير ، ولكن خلوصي بك كان عالماً كبيراً من علماء الدولة العثمانية ، قبل ان توسد إليه الولاية ، والعلماء أحرار بالطبع . وصرت اجلس في حضرته الساعة والساعتين ، وهو يمازحني ممازحة الأب لابنه ، ويلاطف بعض الموظفين والعمال ، وبعض كبار ارباب المصالح . سألني مرة ماذا دبرت لاعفائك من الجندية ، ألست ممن أصابتهم القرعة ؟ فقلت له أصابتني القرعة وأصابتني مصيبة بدفع أربعين ليرة بدلاً نقدياً . فقال : أحسنت بأدائك البدل ، وبايثارك دفع المال على الخدمة الفعلية ، فقلت له : ولم ذلك ؟ وانا لم أفهم قول سيدي الوالي أحسنت . وكيف أحسن بتغريمي هذا المبلغ ، في وقت سُدَّت فيه أبواب المصارف في وجوه معامليها ، فلا يستطيع أكبر غني أن يأخذ شيئاً من ماله ، ولا رجاء لمضيق أن يستدين من أحد ديناراً واحداً . قال : نعم أحسنت لأنك لو دخلت في الخدمة لأفسدت الجيش ، فلو كنت في خمسة آلاف جندي لفضضتهم ، بما تورد لهم من البراهين على قلة فوائد الحرب ، وعلى فظاعة

القتل ، فيرجعون من حيث أتوا . فقلت له : كأن مولاي يعرف ما في قلبي ، والله لو علمت أن هذه الدعوة تنجع ما تأخرت عن الجهر بها لحقن دماء البشر ، وتقليل نصيبه من الشقاء .

قلت لخلوصي بك ذات يوم إن قنصل ألمانيا يطلب مني أن أعود إلى إصدار جريدتي المقتبس ، ويلح كثيراً للاسراع بذلك وكان صديقي نظيف بك الخالدي المهندس كلفني سراً أن أصدرها وقال : إني إذا بقيت على امتناعي عن إصدارها ، يعد الاتحاديون ذلك تمرداً على الدولة ، وينبشون دفاتري العتيقة ، وهم لا يتلكئون عن إيقاع شرّ بي ، والعهد قريب بما كتبت فيهم وفي حزبهم . وقلت للوالي : إني قلت للقنصل بالواسطة إنني أحتاج إلى ألفي ليرة عثمانية لاصدار الجريدة ، لأني مدين بألف ، وأريد استخدام الألف الأخرى في تغذيتها سنة او سنتين على الأقل ، فاستعظم القنصل هذا المبلغ ، وقال إن جريدة من جرائد الولايات لم تقبض قط اعانة عظيمة كهذه .

وقال لي الوالي مرة : إلامَ أقول لك أن تعود إلى إصدار جريدتك وأنت تأبى ، وما أدري وجهاً لابائك وعليك دين فمن يسدّ عنك ديونك وأنت مدين بألف ليرة كما أخبرني شكري بك العسلي ، فقلت له توفيها عني فرنسا أو انكلترا أو ايطاليا فدهش الوالي لقولي ايطاليا وقال : صحيح إن لفرنسا وانكلترا مطامع هنا ولكن ما شأن إيطاليا في الأمر ؟ فقلت له : إني في السنة الماضية (١٩١٣) رحلت إلى ايطاليا لأبحث عن مواد تاريخية كانت مجموعة في خزانة خاصة لأحد علماء المشرقيات الايطاليين ، فكتبت صحفكم الاتحادية ، أني قبضت من إيطاليا عشرة آلاف ليرة . وبينا كنت أبكي في رومية يوم افتتاح مجلس نوابها ، لانتزاع طرابلس وبرقة من الحكم العثماني ، وقد تعرضت حكومة إيطاليا لذكر ذلك ، وفاخرت به في أول جلسة من دورة مجلس النواب كان أعدائي يتهمونني بأني ذهبت إلى رومية لقبض رشوة حكومتها ، وأنا لا ناقة لي ولا جمل في ليبية . فضحك الوالي حتى بدت ثناياه ، وضحكنا ضحكاً سمعه من كان ينتظر على الباب ليؤذن له على الوالي . ولما جاء الآذن يستأذن لأحدهم سلّمت وانصرفت .

جمال باشا والمقتبس

بينما كانت المفاوضات جارية بشأن اصدار المقتبس ، وأنا اقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، وقنصل ألمانيا يلحّ على الاتحاديين لاقناعي باصداره حالاً ، نصب قائداً على الشام ناظر البحرية احمد جمال باشا . ولما خلا بالوالي خلوصي بك ذكر هذا له ما يقترحه القنصل بشأن اعادة المقتبس ، فسأل جمال باشا عني وقال : أليس هذا هو الذي كان يكتب فينا تلك الكتابات المرة ؟ فقال له : نعم هو بعينه . فلما رآه قد استغرب هذا الاقتراح قال له سأطلعك على ما ظهر له من اشياء تثبت شدة تعلقه بعثمانيته ، وجاءه بالأوراق التي ظهر فيها ذكري في القنصليات الفرنسية ، فدهش القائد لما رأى وقال : وعلى ذلك فالرجل قد ظلم ظلماً فاحشاً ، وعلى الدولة لا على ألمانيا أن تعوض عليه خسائره الناشئة من اغلاق جريدته مرتين .

وطلب الوالي إليّ مقابلة القائد فذهبت اليه وبحثنا في شؤون الجريدة . ودفع إليّ في الحال كيساً فيه اربعمائة ليرة عثمانية ، وقال لي : بعد أيام سأتمم لك المبلغ إلى ألف ليرة ، واكراماً لخاطري ، وقبض على لحيته ، أصدر الجريدة بأسرع ما يمكن ، فقلت له إن الجريدة تصدر بعد غدٍ بحسب أمرك فسر كل السرور .

وعادت الجريدة إلى الظهور ، وبقيت مدة لا أكتب فيها مقالات افتتاحية ، فلفت القائد جمال باشا المرسيني نظر القائد أحمد جمال باشا إلى ذلك ، فسألني عن سبب امتناعي عن الكتابة ، فقلت له : كتبت فحذف المراقب ما كتبت غير مرة ، فقال : اكتب وأنا أراقب ما تكتب ، فكتبت مقالة قرأها مع الأمير شكيب أرسلان ، وأرسلها لتطبع ، وأمر ألا يحذف شيء مما أكتب ، وأن يتخطى قلم المراقبة مقالاتي وقال إني أعرف كيف أدير القلم في خدمة الحكومة ، واقدر الحال الذي نحن فيه .

وبقيت على ذلك حتى صدرت جريدة (الشرق) جريدة الدعاية التركية الالمانية ، ووسدت إليّ رياسة تحريرها ، وطلب مني القائد رفع اسمي من

جريدة المقتبس ، لتروج الجريدة الجديدة ففعلت ، وتركت الجريدة لأخي احمد يتولى تحريرها وحده .

وأخذ جمال باشا يحترمني كثيراً ، ويمازحني ونتباسط ، ولكن لابالصورة التي كان يعاملني بها الوالي خلوصي بك فمع هذا كانت صداقة أكيدة ، وعين الحب ظاهرة فيه كل الظهور . سألني القائد مرة مازحاً : مالك لا تكتب مقالات في العرب ، ومجد العرب ، وفضل لغة العرب ؟ كما كنت تكتب قبل الحرب ، فقلت له : الآن نحن في شغل شاغل عن ذلك ، وبعد الحرب نعود بحول الله إلى ما كنا عليه ، فضحك ضحك استهزاء ، ولسان حاله يقول : لئن كتبت الآن هذا لأصلبنك . وسألني مرة كم عمرك ؟ فقلت ثمانٍ وثلاثون سنة . قال هذا كثير فقلت له : يعني أني صرت كبشاً ثميناً ، وحان وقت ذبحي لتأكلوا لحمي ، فضحك كثيراً .

وما زال جمال باشا يظهر لي كل عطف ، ويتحبب إليَّ ، ويقول فيَّ كلام المعجب بصاحبه . قال لي أحد ولاتهم ، ونحن نجتاز الجسر في الاستانة ، أواخر الحرب العامة ، وكان جمال باشا قد غادر الشام منذ مدة . قل لي ماذا كان منك لجمال باشا حتى وقعت من نفسه هذا الموقع ؟ فأجبته إني لم آت شيئاً ، ومن انا ، وهو ورجل عظيم ، حتى أؤثر فيه . فقال لي : ليس الأمر كذلك ، كنا منذ أيام نتذاكر من يحسنون الأدب العربي ، والمجلس غاص ، فذكروا رجلاً يعرف هذا الأدب معرفة عظيمة ، فضحك جمال باشا وقال : إن فلاناً لا يعرف واحداً من مئة مما يعرف كرد علي . فقلت لصاحبي : هذا من حسن ظنه بي . وقال في القدس علناً وأنا أخطب امامه على مائدة ضمت زمرة كبيرة من اعيان الديار الشامية : إني لا أفهم أحداً ممن يخطبون امامي باللغة العربية في سورية وفلسطين إلا كردعلي ، فاني افهم ما يقول ، ويكهرب أعصابي أيضاً . هكذا قال ويسرّ المولى أن عظمت في عينه ، وأنا اعرف بنفسي من جمال باشا . وكان من إعجابه أن استمتعت براحة نسبية مدة الحرب العامة ، والناس يومئذ في بلاء وشقاء .

سأل صديقي الاستاذ كمال ملص صاحبه وصاحبي الشيخ اسعد الشقيري هل كان جمال باشا على شيء من الشعور الديني فأجابه نعم كان على جانب بارز منه . وقصّ عليه قصة تشعر بغيرته على المسلمين قال : أمر جمال باشا مرة أن يرسل من المنزل إلى دار مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا مقدار من الارزاق ومبلغ من الورق المالي لاعداد ضيافة عظيمة في داره يدعو اليها أعيان بيروت على اختلاف طوائفهم . وحضر الباشا الدعوة ونزل صاحب البيت مع المدعوين لاستقباله في مدخل الدار ، فلما وقعت عين جمال باشا على المفتي قبّل يده ، وأشار اليه بالصعود ثم اشار إلى الشيخ اسعد الشقيري أن يلحق به ، ثم صعد هو وراءهما ، حتى إذا جلس الجمع كان على يمين القائد الشيخ المفتي وعلى شماله الشيخ الشقيري وعند انتهاء المأدبة عاد الباشا وقبّل يد المفتي شاكراً له حفاوته . وركب الباشا مع الشقيري عائداً إلى منزله وقال له في الطريق : اني أعرف من هو مصطفى نجا وما رفعت شأنه اليوم إلا لأرفع بذلك شأن المسلمين .

ووقع لي ان ذكرت لجمال باشا أن خالد بن الوليد لما جاء دمشق فاتحاً ركز العقاب راية الرسول في رأس الثنية المعروفة بثنية العقاب (الثنايا) اليوم المطلة على الغوطة والمرج من الشمال ، وهي ذاك الجبل الهرمي الشكل الصعب المرتقى ، وحارب بني غسان في يوم فصحهم فكتب له النصر عليهم . وقلت له ان مما يحفظ هذه الذكرى العظيمة اقامة مسجد في قمة ذاك الجبل العالي فوعدني بذلك . ثم راجعته مرة ثانية فأثنى على هذه الفكرة وقال انه لن ينساها ووعد بان يقوم بانجازها على ما أريد بعد الحرب . ولحظت منه غيرة دينية وشعوراً اسلامياً في احاديثي الكثيرة معه ، ولكنه كان في المسائل السياسية لا يغفر لاحد زلة إذا حاد قيد أنملة عن قانون الوطنية العثمانية .

ومما اعده له في باب الغيرة الدينية ما اقترحه عليّ من أن أضع على

رأسي عمامة ليوسد إليّ افتاء دمشق فأتمكن من ادخال الاصلاح على اهل السلك العلمي ، فتبسمت في المرة الأولى لكلامه وقلبت الحديث إلى ما يشبه الهزل . فلما تكرر ذلك منه بعد حين قلت له : اظن مولاي يهزل في اقتراحه هذا عليّ . فأقسم انه يجد وانه يتوقع من ذلك خيراً للمسلمين لاعتقاده أن من الصعب أن يقوم بهذا من لم يثقف الثقافة اللازمة . وقال إن معالجة المشايخ بلسم الاصلاح خدمة للاسلام والمسلمين . فشكرت له فضله وغيرته ، وتنصلت واعتذرت من عمل قد لا يجلب عليّ غير الضرر .

الجاسوس السافل

سألت صديقي الدكتور عبد الرحمن شهبندر عن (خ . ز) ، وكان والده سكن الأناضول . سألته وقد أتى دمشق بعض السنين يهب المدارس الأهلية هبات جيدة فكان الجواب : إن الرجل مطعون في آدابه ، يستعمل أشياء لا تليق بشريف . فحفظت هذه الترجمة ، وصرت كلما ذكر اسمه في الجريدة أذكره بصورة عادية . وبينا كانت الدولة العثمانية في جناق قلعة في مركز حرج للغاية وذلك في الاشهر الأولى للحرب العامة جاءني الدكتور شهبندر يصحبه (ذاك التاجر) إلى قرية المزة حيث كنت ساكناً ، وقال لي : هلمّ نسمر عند رضا باشا الركابي فرافقتهما . فبدأ الدكتور يذكر ما يقاسيه جيش الدولة في حرب جناق قلعة من الضربات ، وقال ان الواجب أن يفكر أهل هذه الديار في مصيرهم ، كأن تؤسس جمعية سرية تتصل بالانكليز للاتفاق على خطة إلى غير ذلك .

فذكرت للجماعة ما لقينا من القوم عندما أنشأنا حزب الائتلاف ، وأن هذه الأمة يصعب الاتكال عليها ، لأنها لم تربَّ تربية سياسية تُعرّفها الصواب في قولها وعملها ، وقد جرّبناها غير مرة فضاع تعبنا وجهدنا معها وقلت إن الحرب تتقدم وتتأخر تبعاً للأحوال ، وما يدرينا أن تكون الغلبة غداً للدولة ، وأرى البحث في مصير الديار الشامية أكبر من عقولنا ، ونحن يسعنا ما يسع أهلها إذا نزل البلاء . فقال الدكتور متهكماً : وكيف إذاً تدعي أنك تخدم العرب ؟ وأين حميتك ووطنيتك ؟ فقلت له : لم أصحح شيئاً من هذا مع الأسف ، وإذا مت فاكتب على قبري : هذا خائن العرب ، وانظم قصيدة في هجوي ، وأنا لا أدخل ولن أدخل في مثل هذه المسائل . فقال الباشا صاحب الدار : اذا كان فلان يمتنع عن الدخول فأنا لا أدخل ، وافترقنا متعاهدين على الكتمان .

لحظت بعد حين ان جمال باشا أخذ يزيد في إكرامي وإكرام الركابي وأن عطفه على الدكتور يتناقص ، ولم ادرك إلا بعد مدة أن ذاك الرجل المنحط — الذي لم آمنه على روحي ، واشترك معه في جمعية سرية ، لأنه لم يؤتمن على عرضه — كان له اتصال عظيم بجمال باشا ، وانه كان مفلساً فوفق بينه وبين والي تلك الولاية العظيمة الغنية التي ينزلها ، وتشاركا لاستغلال النقليات على الطرق الحديدية ، وأعاد إليه الوالي بضائع كان اباعها وعاد فباعها بأثمان باهظة ، واشتركا في كل انواع التجارة ولا سيما المأكولات واعطى لشريكه معملاً عظيماً يستثمره . وكان جمال باشا يغدق على والدة ذاك الجاسوس ، مقادير من الأرزاق من المنزل يمونها بها ، ولما ماتت خرج في جنازتها سرية من الجند منكسي اسلحتهم . وهكذا استغل الجاسوس الوشاية بنا .

قال لي ذاك الجاسوس المنحوس ذات يوم ، وقد صادفته في المرج الأخضر في طريقي إلى داري : أرأيت هذا الشاب ؟ وأشار إلى أحد المارة ، وكان يلبس ألبسة من الجلد ، وهو شاكي السلاح . فقلت له : نعم قال : هذا ابن مرضعتي ، ولي عليه سلطان عظيم ، لأنه ربي في دارنا ، فأنا إذا قلت له : اقتل جمال باشا يقتله بدون توقف . فجسست في الحال نبضه ، لأرى إن كانت حرارته متصاعدة عن المعتاد . وقلت له : أمريض أنت أم مجنون ؟ ويحك ولماذا ، أسألك بالله ، تقتل أحمد جمال باشا ؟ قال : حتى يستقل العرب . وهذه فرصة لنا في هذه الحرب القائمة . فقلت له متحمساً : قولك هذا من أسخف الآراء ، وهل تقتل رجلاً مسلماً جاء ليدفع عن ديارنا أعداءها ؟ وينقذنا من براثنهم . وبالله لو بعثت الاستانة كافراً ، وجاءنا يقول إني على أن أدفع عنكم عدوكم لقبلنا يديه ورجليه ، ثم إن الدولة يا صاح إذا قتل جمال باشا لا تعدم عشرات مثله ، ترسلهم ليخلفوه ، فيجعلون عالي ارضنا سافلها ، انتقاماً من اهلها لقتلهم رجل الدولة . فبالله عليك إذا بدرت من لسانك هذه البادرة الآن ، وما كنت أظنها تبدر منك ، فلا تقل لأحد

مثل هذا القول ، وأنا اعاهدك على كتمان ما بسطت به لسانك . وهكذا اتقيت شره ، وأعتقد أنه نقل كلامي إلى جمال باشا ، وربما كان هو الذي وضع له صيغة استدراجي بهذا اللسان . ولما دخل الحلفاء الأناضول قبضوا على ذاك الجاسوس ، وزجوه في السجن أشهراً ، وصادروه في كل ما يملك ، فمات بعد أشهر قليلة مجرداً من كل نعمة .

بقيت تحك في صدري حالة ذاك الجاسوس أربعاً وعشرين سنة ، ولم أرَ فرصة أخلو بها بالدكتور شهبندر لأذكره بما قال في نمته ، يوم سألته عنه قبل الحرب ، وما كان فعله معنا من ابلاغ جمال باشا صورة اجتماعنا ، واعاتبه على تهوره معه ، وهو يعرف أكثر مني مبلغه من الأخلاق ، حتى كانت السنة الماضية (١٩٣٨) فذكرت له ذلك في داره في القاهرة ففكر ملياً بضع دقائق وقال : صحيح هكذا كان ، الحق معك . وقد يغلب على المرء حسن الظن في الخلائق ، فيعاملهم معاملة الشرفاء . وأنا لم أحتط هذه المرة مع ذاك السافل إلا بعد أن وقعت غير مرة مع غيره ، فعلمتني الأيام ، ولو عملت باقتراح شهبندر لكان القتل مصيري ومصيره لا محالة .

كثيراً ما قلت لصديقي شهبندر أوائل الحرب العامة إني في ريبة من أمر عبد الكريم الخليل – شاب كان يعمل مع أبناء العرب وأحزابهم المشتغلة بالاستقلال — وهو يغلِّب حسن الظن ويستبعد ان يصدر منه مايؤذينا ، على مارأى من شدة اختلاطه بجمال باشا ، وكانا يتهامسان ، والاعيان ينتظرون في الباب الاذن لهم بالدخول فلا يؤذن لهم . وصلب جمال باشا عبد الكريم ، فتبين بعد ذلك ان الرجل على تقية مستحكمة فيه ، كان يشتغل للترك وللعرب في آن واحد ، مثل رجل من بني الجندي قتله الترك ايضاً وكان يشتغل لهم وللعرب وللافرنج ، ومثل رجل من بني الشنطي وكان مذهبه كذلك وقد صلب أيضاً . وربما اشتغل أحدهم لعدة دول وعدة مذاهب سياسية .

سئلت وانا في بيروت قبل اعتقال عبد الكريم الخليل بأيام عما اذا كنت داخلاً

في الجمعية التي الفها فأجبت بالسلب ، ثم لقيته فقلت له : بلغني انك تقول هنا إني والركابي داخلان في جمعيتك فهل دخلت معك ؟ وهل سألتك يوماً عما تعمل منذ عرفتك ؟ قال : لا . فقلت له : لماذا تذكر اسمي وأنا لست معك ولا من رأيك ؟ قال إن القوم يسألونني عندما أريد ادخال احدهم في جمعيتي فيما إذا كنت والركابي داخلين فاذا قلت لا ، لا يدخل أحد معي . فهددته بان لا يتجر باسمي ، ولا يعود إلى ذكري لأحد ، وانا اكتم سره ولا أتدخل في شؤونه . فعاهدني واظنه عاهد كثيرين قبلي ، وعهده عهد اولاد طائشين ، وكان على شيء من البلاهة ، مهملا لأوراقه ، وربما تركها في أيدي من لا يعرفهم ، وخرج لقضاء حاجة . ومثل هذا لا يستودع سراً ، ولا يلقى المؤتمرون معه إلا شراً .

المتطوعون بالجاسوسية

حقيقة إن اسم « عاليه » كان يفزع الاحرار خلال الحرب العامة فالى هذه القرية اللبنانية كان يساق المتهمون بالسياسة ، يحشرون فيها زرافات ووحداناً ، وفيها يعقد الديوان العرفي اي المحكمة التي تصدر فيها الأحكام النافذة عليهم ، لا استئناف فيما حكمت ، ولا نقض لما أبرمت ،

وقد طلب هذا الديوان مرة إلى جمال باشا أن يبعث بي اليه للتحقيق مني في بعض المسائل ، او لاستشهادي بأمر ، فأبى إرسالي ، وامر ان يكتب بالسؤال فأسأل عنه في دمشق بدون ان اذهب إلى عاليه . ولم يبلغني ذلك إلا بعد حين وبالمرض ، وهذا من منن الباشا عليّ ، فانه لم تسمح نفسه أن اضايق بشيء بعد ان ثبت اخلاصي الدولة بأوراق القنصليات ، وتأكد أني كنت اطالب بالاصلاح للمملكة بأسرها ، واني كنت أخدم الدولة زمن الحرب خدمة حسنة .

جيء بالشيخ عبدالحميد الزهراوي — وكان الاصلاحيون رأسوه على مؤتمرهم في باريز ، ثم استرضاه الاتحاديون وجعلوه عضوا في مجلس الشيوخ — إلى الديوان العرفي في عاليه مخفوراً ليحاكموه . مع ان الحكومة ادعت يومئذ انها لا تؤاخذ احداً بما كان منه قبل الحرب ، بل تحاسب على الأعمال التي يقوم بها اعداء الدولة في مدة الحرب ، ومن قتلتهم كان قتلهم بما قدمت ايديهم سابقاً ، وفي الحرب لم يستطع أحد أن يتحرك فيما أحسب ، إلا أن يكون بعضهم تصدى للدعوة للانكليز .

ولما وصل الزهراوي إلى حلب أبرق إلى جمال باشا يقول له إن لديه معروضات خاصة ، يرجو ان يدلي بها اليه مشافهة . فأجاب القائد طلبه ، واستمع لما عرضه ، وما عرضه غريب في بابه . قال الزهراوي انه وان كان ذهب إلى

باريز ، ورأس مؤتمر الاصلاحيين ، فان نيته كانت سليمة ، وما كان يضمر خيانة للدولة ، وان الرجل الذي كان يفاوض الاجانب ، ويعرف اللغة الافرنجية ، هو صاحب المقتبس كرد علي ، اطلقوا سراحي بضعة أيام لآتيكم بأعداد من جريدته تقرأون فيها مبلغه من الوطنية العثمانية . فأجابه الباشا عليك ان تقول هذا الكلام في الديوان العرفي في عاليه .

وذهب الزهراوي إلى عاليه ، واورد امام الديوان العرفي ما قاله لجمال باشا ، فالتفت رئيس الديوان وقال له : هل تعرف عثمان بك العظم . فقال : نعم اعرفه . قال : هو شقيق رفيق بك العظم . قال: نعم . قال إن الديوان العرفي برأ عثمان بك لأنه لم يدخل فيما دخل فيه أخوه ، وما وجد وثيقة تثبت ادانته ، وحكم على رفيق بالقتل ، لأنه ظفر برسائل مكتوبة بخطه تؤيد خيانته . فأنت إن كان لديك شيء بخط صاحب المقتبس وتوقيعه يستدل منه انه احد اعضاء جمعية سرية تذرعت لقلب الحكومة ، او الدعوة إلى دولة اجنبية ، او غير ذلك من انواع الخيانات فأبرزه ونحن نأتي به حالاً ، واما ان يجلب باشارتك فلا . وقولك إنه كتب اشياء في الحكومة في جريدته فهذا نعرفه وعندنا مجموعته .

هذا ما قاله رئيس المحكمة العرفية المتطوع لقتل اخيه ، وهذا ماقاله جمال باشا التركي ، وتوسل به صاحبي العربي لخلاصه واتهامي . ولطالما احسنت اليه مذ جاء منفياً إلى دمشق في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وآنسته وخففت من كربته ، وكان يومئذ كذاك السامري لا مساس ، ومن يجرأ ان يقترب من مغضوب السلطان ، وما رأى مني منذ عرفته إلا الاخاء واللطف .

حاول الزهراوي الاشتهار بالعلم فكشفت الأيام أمره . بعث إليّ وأنا بمصر مقالة لتنشر في مجلة المقتطف كتبها على أسلوب القرآن فدفعتها إلى منشئ المجلة فلم تنشر ، وبعد مدة راجعته لكثرة إلحاح الزهراوي فقال لي صديقي الدكتور يعقوب صروف : إن من عادتي في المقالات الواردة من

المؤازرين أن أدفعها إلى ابنتي فتقرؤها ، فاذا رأيتها قد فهمتها وتسوغتها انشرها وإلا فلا . ومقالة صاحبك دفعتها على العادة إلى ابنتي فتلتها فما أدركت مغزاها ، فقلت : إن كانت البُنَيَّة لم تفهم فالقراء أجدر ألايفهموا .

وكتب إليّ الزهراوي من حمص مرة يسألني عما إذا كنت قرأت مقالاته في مجلة المنار (نظام الحب والبغض) فأجبته إني قرأتها ولم أفهم ما يريد منها ، فقال : اقرأها ثانية تفهمها ، ووافني برأيك فيها . فقرأتها ثانية فلا والله ما فهمت لها معنىً ، وخفت أن أذكر له ذلك ، وبوعز إليّ أن أقرأها مرة ثالثة فأجبته إني قرأتها مرة ثانية كما أشار إليّ ، والظاهر أن عقلي غير مستعد لفهم الفلسفةالعالية ، وهذه المقالات من هذا الطراز على ما ظهر لي فاعفني من إعطاء فكري فيها .

وكنت مرة أتحدث إلى صديقي إبراهيم بك رمزي من أدباء مصر فقال كلاماً فهمت منه أن الشيخ محمد الشربتلي مات ، فأسفت لوفاته فقال : لاتأسف فالعوض في حياة أخيه « المقداتي » الثاني الذي عندكم وهو الشيخ الزهراوي . ويريد بالمقداتي الذي لا يبين عما يريد في كتابته . وكان الشيخ الشربتلي مع الشيخ الزهراوي في هذا الباب فرسي رهان . كتب الزهراوي جريدة « الحضارة » في الاستانة مدة فما كانت تفهم مقالاته السياسية ، وكتب أشهراً في « الجريدة » بمصر فاضطروا إلى إخراجه منها لأن القراء لم يفهموا أقواله ، ولا حلوا معمياته وألغازه . ولم يشهد من يتطوع في تقريظه غير صاحب المنار فانه صوره صورة لا تقل كثيراً عن تصويره للسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده !

وكان الزهراوي إلى ذلك خدّاعاً ، نصحني غير مرة أن أترك مطالعة الكتب القديمة ، وأكف عن قراءة كتب الغزالي وابن تيمية وابن حزم الخ وأكتب من فكري دون الرجوع إلى هؤلاء الأئمة قائلاً : إني أعلم منهم ! فكنت أجيبه إني أتسلى بكلامهم فقط أوقات الفراغ ، وقصصت ما دار بيننا على

استاذي الشيخ طاهر الجزائري فقال : إن الرجل يقصد غشك . فقلت له : عرفت ذلك وأجبته جواباً مبهماً ، فقال ما معناه : إنه لم يتعلم ولا يرغب في أن يتعلم ، ويشق عليه أن يتعلم أحد ، ما زادت معلوماته عما أخذه عن الشيخ فلان في المدرسة الرشدية في حمص ، وهو لا يحب أن يتعب نفسه بالمطالعة ، فاذا طالعت أنت تفوقت عليه ، فهو لا يجاري المتعلمين ، وما طبع عليه من حسد يحمله على أن يصد كل راغب في العلم ، حتى لا يظهر في المستقبل الفرق بينه وبين من تعلم .

عود إلى المتطوعة بالجاسوسية ، وممن ذكرني وأكثر من ذكري في الديوان العرفي صاحب جريدة المفيد عبد الغني افندي العريسي فانه بدا له أن يتوسع في أجوبته فكتب فيما قيل نحو مئة صفحة كبيرة ، ذكر فيها حتى صبيان المدارس ، رجاء أن تعدل الحكومة عن مس كبار المجرمين بأذى إذا اتسعت المسألة إلى حد بعيد ، وقد خصني من هذه الصفحات بأربع ، الله أعلم بما حشاها به . وهو أيضاً لم ير مني إلا التنشيط الجميل . وكان من سيف الدين الخطيب ان ذكرني غير مرة ومما قال انهم كانوا في المدارس لا يعرفون ما هي السياسة ولا الاحزاب والجمعيات ، فصاحب المقتبس هو الذي علمنا ودربنا . وهذا كالعريسي والزهراوي ممن قتلوا صلباً ومما أغنت عنهم وشاياتهم بالابرياء .

ومن الأشراف الذين أثبتوا وطنيتهم ولم يبوحوا باسم أحـــد ، على كثرة ما لاقوا من التعذيب ، شاب متعلم من أهل صيدا اسمه توفيق البساط فانه آثر الموت والنكال على كشف سر أحد . ومنهم صديقي سامي بك العظم ، وكان مراسلاً للمقتبس في الاستانة ، فانه اهين في الديوان العرفي فتباله ، وأنكر ان يكون يعرفني ، أو أنه كان يراسلني بما يحدث من الأحداث الدقيقة في العاصمة ، فبرىء على أنه أبله ، كما برىء بعده بهذه الصفة صديقي الأمير طاهر الحسني .

ولقد أيقنت بعد الاستقصاء أن بعض ما اتهم به المتهمون في عاليه كان قائماً على الظن ، ولم يرجع في الأكثر إلى وثائق قانونيـة . وقد سألت الوالي خلوصي بك ، وكان ذهب إلى بيروت واجتمع إلى أعضاء الديوان العرفي ، عما كانوا يتهمون به فقال : إنهم أتهموا بضروب من التلفيقات ، أنزل الله البلاء بهم ، أي بالاتحاديين . ومن الحق أن نقول إن من اتهموا ما خلوا من شهادة بعضهم على بعض ، ومن أصحابهم من تبرعوا بالشهادة عليهم كما كان من شاب شهد على بعض أصحابه . ذكرت ذلك لوالده وكان صديقي فأنكر فعل ابنه ، وقال إنه يقصد ممـا فعل انقاذ عمه ، أي أنه تطوع بالوشاية ببعضهم وهيأ للحكومة العثمانية أسباب قتلهم حتى ينقذ عمه ؛ ولولا أن القائمين بالأمر كانوا يرجعون إلى المنطق وإلى القانون في معظم الحالات ، لامتلأت بيوت عاليه وبيوت القرى المجـاورة لها من المجرمين السياسيين ، لكثرة ما وشى الناس بعضهم ببعض . وقد قال أحـد ضبـاط الديوان العرفي : إن حال أهل هذا القطر عجيب ، كنت في الروم أيلي عضواً في احد الدواوين العرفية في بلد كذا . وكنا نأتي بالبلغاري لتقريره فلا يبوح بشيء ، ونعذبه أنواع العذاب ، ونحمي الطست ونضمه عليه ، فيسيل دمه ويحرق جلده ، فلا نسمع من فمه اسم أحـد ولا اشارة الى سر والأهالي هنا يتبرعون محتسبين بالوشايات حتى أضجرتنا كثرتها ، وبلبلتنا أنواعها ، ولو عملت الحكومة بما ورد مع البريد فقط من الكتب الصادرة عن أميركا بأسماء السوريين ، وفيها أشياء كتبت عمداً لتضر بالمكتوب اليهم ، لبلغ المتهمون بالخيانة الوفاً . فنحن نشفق عليهم وهم لا يشفقون على أنفسهم ، وعلى أبناء وطنهم وجنسهم .

ومثل ذلك حدث أوائل الاحتلال الافرنسي فان تقارير الجواسيس كثرت على القائد فأحالها إلى الديوان للترجمة ، فكان بضعة تراجمة يترجمون كل يوم عشرات من هذه الاوراق ، فلما رآها متشابهة في معناها ، وأنها كلها تقارير وشايات دنيئة يبدو الغرض الشخصي منها ، قال إنها من شكل

واحد ، وهذا لا يفيد سماعه ولا العمل به ، فأمر باحراقها كلها قبل النظر فيها وكانت بضعة الوف . وقال لي رجل من اسرة هـاني في بيروت : إنني أعرفك من زمن ، فقلت له : أنا لا أذكر أنني رأيتك ، فأين كانت هذه المعرفة ، قال : كنت رئيساً على التراجمة أول الاحتلال فعرفتك من التقارير التي كتبت فيك . وانا اعرف ان احد المستخدمين عندي كتب فيّ ثلاثة تقارير للسلطة الفرنسية لأني دعوته مرات الى القيام باحسان عمله ، وطلب مني مرة ان أشهد له في المحكمة شهادة زور تنفعه في مسألة إرث فأبيت . وكان عندي ثلاثة التمسوا مني زيادة رواتبهم ليرة أو ليرتين لكل واحد ، والقانون لايسمح بذلك فلما أبيت اجابة طلبهم شكوني إلى السلطة .

السياسيون والصحافيون

يُحسن رجال السياسة استدراج البسطاء لتسقط الأخبار . وممن رأيت من هذا القبيل الهر لود فيد قنصل ألمانيا في دمشق زمن الحرب العامة ، كان يهودياً ألمعياً داهية ، سألني مرة : هل تعرف فلاناً وفلاناً قلت نعم أعرفهما قال : أريد أن تقفني على ماهيتهما . فقلت : ليسا من بلدي ولا علم لي بحالهما . قال : وكيف ذلك ؟ قلت : وهل الواجب أن أعرف الخلق كلهم ؟ قال : لا . ولكن هذان ممن يجب أن تعرفهما وهما من أرباب الأقلام . قلت : ما عرفتهما فقال : جاءآني منذ أيام يشكوان ضيقاً وضنكاً فأعطيتهما على سبيل الصدقة عشرين ليرة عثمانية . فسكت ولم أبد استحساناً ولا استهجاناً .

وكان هذا القنصل كثيراً ما يسألني عن جمال باشا فأثني وأمجد ، وأذكر له أن القوم يحبونه ويدعون له بالتوفيق . ورأيت اتقاء شره ألا أقول له شيئاً إلا إذا كان من هذا البحر والقافية . وحاول مرة أن أصرّح له برأيي في الباشا وضايقني فقلت له : إن عوام دمشق يعتقدون أن يوم ينزل عليهم جمال باشا من الشمال أو الجنوب أو الغرب تمطر السماء وتنزل الرحمة ، فهز رأسه وهززت رأسي ، وتفارقنا بسلام .

مضت أيام وانتصر الجيش العثماني في كوت الأمارة بالعراق ، وأسر ثلاثة عشر الف جندي والجنرال الانكليزي طاوسهند ، فجاء القوم يهنئون القائد العام أحمد جمال باشا في فندق فكتوريا بدمشق فِرَقاً فِرَقاً . وخففت لتهنئته مع أرباب الصحف ، ولم يكن منهم في دمشق غير اثنين صحبتهما فلما دخلنا على جمال باشا عبس . وكان قبل دخولنا يضحك ، فسلمنا وجلسنا ثلاثتنا . فافتتح الباشا الكلام وقال موجهاً الخطاب إليّ : هل قصرت معكم

في كل ما طلبتم مني ؟ فقلت له : قد أغرقتنا بانعامك . قال : فما هذا الذي يبلغني عن قرع بعضكم أبواب الأجانب لأخذ إعانات منهم ! هل رأيتم اجنبياً قط جاء يدق بابنا ؟ يطلب مثل هذا الطلب منا ولما سمعت قوله هذا سرّي عني ، وتذكرت حالاً ما كان قاله لي القنصل عن شخصين استجدياه . ثم تكلم الباشا هنا كلاماً لم يبق معناه على خاطري ، والتفت إليّ وسألني لماذا توقفت عن إصدار مجلة المقتبس ؟ فأجبته إن من الصعب صدورها ، والزمن زمن حرب ، والناس متجهة عقولهم وقلوبهم إلى ساحات القتال ، ومتى انتهت الحرب بالنصر إن شاء الله أعود إلى إصدارها ، ثم إن الورق عزيز جداً ، فقال لي : أنا عندي ورق تعالَ إلى بيروت أعطك منه المقدار الذي يلزمك ، وعد إلى إصدار مجلتك ، واكتب بها مقالات لتعلم الاخلاق فقلت له : سيكون ذلك بسعدكم ، ومؤازرة رصيفيّ هذين . قال : نعم ، فضحكنا وانصرفنا .

وبلغني من رجل كان حاضراً في مجلس الوالي خلوصي بك أن هذين الرجلين استأذنا عليه بعض الأيام فرحب بهما ولاطفهما ، فأخذا يندبان طالعهما ، وقالا إنهما لقيا أعظم الشدائد لاتصالها بخدمة الاتحاديين - الحزب المتغلب يومئذ على الدولة - وأن أحدهما ضُرب وسُجن وأهين من أجل نزعته الاتحادية ، فكيف واخلاصهما اخلاصها يُعطى كل واحد منهما عشر ليرات في الشهر إعانة لجريدته ، وآخذ أنا الف ليرة عثمانية دفعة واحدة ، وقد حاربت الاتحاديين وسقيتهم من دنيّ كل كدرٍ ، فابتسم الوالي ، وتطلع بعينيه من وراء زجاجة نظارتيه ، وقال بين هازل وجاد : الغالب أن الدولة تعطي كل واحد بقدر ما يساوي ، رأت فلاناً يساوي ألفاً فأعطته ألفاً ، ورأت الواحد منكما يساوي عشر ليرات فرتبت له عشر ليرات مشاهرة . فتألم الصحافيان لهذا الجواب وانصرفا من لدنه يلعنان الساعة التي جمعتهما به ، وصرحا بما صرحا به حتى سمعا ما سمعا . ولو لم تكن الحرب والصحافة مقيدة ، لسلخا جلد الوالي ولعنا أباه وأمه .

عقول الاتحاديين والانكليز

زارني في داري قبل الحرب العامة مدير الشرطة ، وهو من أصل الباني وكثيراً ما كان يزورني ويدعي صداقتي ، ويبوح إليّ بذات نفسه ، ويتظاهر ببغض الاتحاديين ويذكر مساويهم . وكنت معه كما كنت مع جمهور الموظفين ابتاع منه ولا ابيعه كما يقولون ، لأني كنت أغلب سوء الظن مع كل من سائر الاتحاديين ، وما عرفت ترجمته الحقيقية وميله الأكيد ، ومما قال لي : إن جماعة الاتحاديين يزعمون أن لك ضلعاً مع الانكليز ، وأنك تقبض منهم كل شهر تسعين جنيهاً . فتأثرت وقلت له : جماعتك لا يعرفون الوطن والوطنية ، ويفضلون كل شيء على الدينار معبودهم ، لأنه هو في نظرهم كل شيء لا يعدله الشرف ولا المروءة ، ولا حب الخير . توهموا لما رأوني أدعوا إلى الاصلاح أني أخدم مقصداً خاصاً ، ونسوا أن في الكتاب من يكتب للنفع العام ، وعندهم أن كل من يطالب بمطلب شريف ، هو مدفوع بعامل من العوامل . لو عقل أصحابك لسألوا دائرة البريد عما يحمل كل يوم إلى الجهات من جريدة المقتبس ، وهم يرون انتشارها العظيم في دمشق ، أو لسألوا المطبعة كم عدداً تطبع كل يوم وما دخلها من الاعلانات . ومن كانت جريدته رائجة هذا الرواج ، يستطيع أن يعيش بدون معاونة دولة اجنبية . ثم إن الحكومة التي زعموا أني آخذ معونتها لا تعطي درهماً إلا إذا رأت مغنماً لها ، وهل رأى أصحابك في صحيفتي إلى اليوم كلمة تشعر بأني مشايع لانكلترا أو أن الأمر عكس هذا ، اناقش أعمالها أحياناً ، وأنقدها النقد المعقول المعتدل ، ولا أغلو مخافة أن يدخل القنصل على الوالي إذا غضب على الجريدة ، فلا يخرج من عنده إلا وقد أوقفها لأجل مسمى أو غير مسمى .

ومن غريب المصادفات أن الاتحاديين بينما كانوا يتهمونني بالتشيع للانكليز ، كان قنصلهم حانقاً عليّ إلى التي ليس بعدها . فقد خرج ذات يوم للصيد فاعترضه بعض السلبة فنجا منهم بعد جهد . فكتبت الجريدة أنه كان عليه أن يطلب جندياً أو جنوداً تحرسه كلما خرج إلى مكان بعيد ، حتى لا يقع عليه ما تكون عاقبته سيئة ، فيحدث بذلك مشكلة للحكومة . وكان هذا القنصل في جده فأطلق عليه العرب بنادقهم ، وما زال الرصاص في صدره . وقام القنصل بعد مدة يريد أن يؤسس نادياً في دمشق سماه « النادي الشرقي » فدخل معه كثير من الموظفين والاعيان ، وأبيت الدخول معتذراً بأن في النادي مسكرات وقماراً ، وأنا لا أشرب ولا ألعب ، فزاد القنصل غضباً عليّ . وكان رجاني بعض القائمين بتأسيس النادي أن اعد خطاباً ليلق يوم افتتاحه فأعددته فمنعني القنصل من تلاوته .

التجارة في السياسة

صادفت في الطريق في الاشهر الاولى للحرب العالمية صاحبي بشارة افندي الاصفر ترجمان قنصلية المانيا بدمشق وأحد كبار تجارها ، فقال لي إن القنصل قال له : لماذا لا يأخذ صاحب المقتبس اعانة مني لجريدته ، انه إذا طلب معونة اعطيه بقدر ما اعطيت ارباب الصحف بأجمعهم في سورية . وقال : يا أخي كل يوم لا تنشب حرب كالحرب الحالية ، وهذه فرصة لك لا تقع على مثلها ، خذ من القنصل ما هو مستعد لاعطائك اياه تبنِ به على الاقل داراً لأولادك . فأجبته : إني أخذت من جمال باشا ما كنت في حاجة اليه من المال ، حتى أصدرت جريدتي ووفيت ديوني ، والخزانتان الالمانية والعثمانية في حكم خزانة واحدة الآن ، والكيسان ككيس واحد ، ورجوته أن يسلم على القنصل ويبلغه شكري ، لحسن عاطفته نحوي ، واتبعت هذا بقولي : قل لسعادته إني إذا احتجت إلى شيء لا أتأخر عن طرق بابكم . فاستغرب صاحبي هذا الجواب ، لانه لم يحقق رغبة قنصله ، وكان يحب أن اغلب الفكرة التجارية على الفكرة السياسية ، وقد نقل كلامي بالطبع إلى قنصله ، وقنصله نقله لقائد الجيش ، وهذا أعجبه مني هذا الاباء ، واليه أشار لما لقيته مع الرجلين اللذين طلبا معاونة القنصل يوم جئنا نقدم تهانينا اليه بانتصارات كوت الامارة . وقوله لي لما سألني عن السبب في توقف مجلة المقتبس عن الصدور إنه يعطيني ورقاً لاصدارها ، لا كتب فيها مقالات تعلم الناس الاخلاق .

ظن بعض المشتغلين بالصحافة في الشرق أن الجرائد باب من أبواب الكسب فقط ، والماهر من يكون خراجاً ولاجاً . وهذا مازهدني في الصحافة منذ قام المتجرون بالوطنية . ولقد اقترح عليَّ كثيرون أن اعود الى اصدار

جريدة المقتبس فاعتذرت قائلاً : إن نفسي سئمت منذ سنين هذه الصناعة ، وقد رأيت كل حكومة منذ عهد الترك تحاول أن تفسد أخلاق أرباب الصحف ، حتى غدا معظم الصحافيين يجوزون لأنفسهم ان يقبضوا زمن السلم معونات من بعض الدول ، ومن الشركات ، ومن كل من يريد ان ينتفع من الثروة العامة . وصعب على الشريف أن يمتهن هذه المهنة التي عز فيها الصدق ، وهي من أشد مايكون احتياجاً له . ومن المتعذر أن تسقط على صحيفة لم تلوث بما لوثت به الصحف في الغرب . عدّوا الجرائد متجراً ومرتزقا يحل لصاحبها كل مال فخرجت هذه الأداة الجليلة عما وضعت له من نقل صادق الأحاديث ، والدعايات الوطنية النافعة ، والدعوة إلى الحق والمدنية .

لو تيسرت لي الأسباب لأصدرت جريدة أوزع أكثرها مجاناً أبتعد بها عن كل ما يدنس سمعتها ، وأعتقد ان صوت مثل هذه الصحيفة يصل إلى اعماق القلوب ، ويؤثر في الامة التأثير المطلوب ، لاني أتوخي ان اصونها عن كل ما يكون منه استخفاف بالقراء ، أي بالكذب عليهم والتضليل لهم . الجرائد مرآة الامة واذا اراد الغربي أن يحكم علينا بما ينكشف في هذه المرآة ، واعتقد أن هذه الصحف ناطقة بما في قلوبنا ، معبرة عن تربيتنا وأخلاقنا ، فالويل لنا ثم الويل .

السياسة صعبة المراس جداً ، ولا سيما الجزء العملي منها ، واظن احسن تعريف لها انها خلاصة العقل البشري ، وزبدة علوم العالم ، ويحتاج صاحبها إلى حسن فراسة ، وبعد نظر ، وبديهة مطواعة ، وقريحة فياضة ، ودرس متواصل ، وأظن من جمعوا هذه الصفات قلائل في الغرب فما بالك بالشرق .

بغض الانكليز

سألني الأمير زيد بن الحسين ، وهو ينوب عن أخيه الأمير فيصل في الحكم أثناء تغيبه في أوربا : لماذا لا يحبني الانكليز ، فقلت له : ربما يطمع الانكليز أن يماشيهم المرء بدون بحث ولا سؤال ، وأنا أحب أن أضع رجلي على صخر مخافة أن أنهور إذا سرت في الرمل . فأدار وجهه إلى الحائط ، وأحسبه ظن أني أعرّض بوالده في هذا الجواب .

استدعاني الأمير فيصل ليلاً ، وطلب إليّ أن أدعو الشاميين ليقولوا بانتداب انكلترا عليهم ، فيوحد الانتداب في أرض العرب، وكانت اللجنة الاميركية على وشك الشخوص إلى سورية ، لتسأل أهلها رأيهم في الدول التي يفضلون أن تنتدب عليهم . فقلت : كان عليكم أن تأمروا بذلك قبل ستة أشهر على الأقل ، لاعداد الافكار لقبول هذا الرأي . فقال : في الوقت متسع لمن يعمل ، ويمكن تدارك ما فات ، وأنت بما لك من الثقة عند القوم تدعوهم فيستجيبوا لك . وكان وراءه صديقي الدكتور أحمد قدري يشير إليّ ألا أناقشه ، وأن أظهر امتثال أمره ، فسكت .

ومن الغد وردت عليّ كتب من الأحزاب بدمشق ، يطلب إليّ كل حزب منها أن أذهب إلى اللجنة الأميركية وأذكر لها رأيي . ومن هذه الأحزاب من يطالب بالاستقلال التام الناجز لا حماية ولا وصاية ، ومنها من يشير ضمناً إلى القول بالانتداب الانكليزي . وكانت الصيغة التي لُقنها القوم : « نريد انتداب أميركا علينا ، فان لم يمكن فانكلترا ، ونرفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً . » ففكرت في نفسي وقلت : كيف أطلب انتداب دولة ، والاستقلال غاية كل وطني عاقل ، وهل من اللائق أن أطلب الانتداب الانكليزي ، وقومي في مصر تحصدهم رشاشات البريطانيين في

شوارع القاهرة والاسكندرية ، وكان ذلك خلال ثورة مصر الاخيرة . لينتدب من ينتدب بدون طلب مني ، ولزمت بيتي لا أخرج منه . ولم أذهب إلى اللجنة الأمريكية ولا طلبت انكلترا ولا فرنسا ولا اميركا .

وكان المطلعون يعرفون من المعاقدات التي حصلت بين الانكليز والفرنسيين أن سورية ولبنان من حصة فرنسا ، وقالت لي صديقتي ميس بل الانكليزية قبيل الحرب العامة ، من دون سؤال وقع مني لها : إنكم حصة فرنسا فهي أنفقت كثيراً على سورية ، وجهزتها بالمدارس والخطوط الحديدية وغير ذلك من المشاريع ، ونحن الانكليز لم ننفق شيئاً عليكم ، فاستغربت كلامها كل الاستغراب وكأن قولها كان نبوءة بما سيحصل ، وهي من جماعة الاستخبارات الانكليزية ، ذهبت بضع مرات من دمشق إلى بغداد على متون الابل ، وآخر مرة وقعت فكسرت ساقها ، وجملت معاونة الحاكم العراق لما سقط في سلطان بريطانيا العظمى .

بعث إليّ الأمير فيصل من باريز كتاباً بخطه يقول : إن الانكليز السكسونيين (انكلترا وأميركا) يعاونوننا على نيل استقلالنا وأننا سنحرزه ، ويوصي ألا أعبأ بغير هذا ، وأن ارفض كل قول يخالفه ، واظنه كان يقصد بكلامه تضليل عقلي ، وربما كان جماعته أشاروا اليه بالكتابة إليّ في ذلك . ولما جدّ الجدّ أوعزت انكلترا إلى الامير فيصل أن يبارح لندن الى باريز ليتفق مع الفرنسيين وأوصت به ، فكان الانتداب لفرنسا على سورية ولبنان ، وذهب كل ما أمله المؤملون كفقاقيع الصابون .

عاد فيصل إلى الشام وهو يطمع في أن يكسب رضا البريطانيين والفرنسيين . اي ان يجمع بين الضرّتين المتنافستين ، ولا يزيده غلمان السياسة إلا إحراجاً . ويقللون علناً من مكانة الفرنسيين ويهددون ويتوعدون ، ولا يدرون ما هم فاعلون ، حتى دخل جيش الاحتلال بالقوة إلى دمشق وحلب ، وركن بعض أولئك السياسيين إلى الهرب ، بعد أن هلك بتحميسهم وتحميس غلاة الوطنية ، والغيورين على الدين مئات في دمشق وميسلون .

إني مازلت أعجب بالانكليز فرادى ، ولا أرتضيهم جماعات ، تروقني ادارتهم ، ولا تعجبني سياستهم . وكلما ذكرت أن عرب السلطنة العثمانية كادوا ينالون استقلالهم ثلاث مرات ، وتكتب في قائمة الامم وحدتهم ، وأن الانكليز كانوا يقضون على هذه الامنية ، آلم الألم كله ، ولا استطيع مهما أحسنت ظني ، ان أغتفر هذه الاساءة ، وعندما أرى ان من الثورات الأخيرة في جزيرة العرب ماقام فيما قيل بأيد اجنبية ، تشتد كراهتي لهذه السياسة يتبعها القوي مع المستضعف . وكلما تمثل لعيني ان الانكليز في فلسطين يسلحون الصهيونيين ، ويجردون العرب من السلاح ، ويحكمون على هؤلاء باحكام ثقيلة جداً ، وقد يعفون أولئك من العقوبات ، أو يخصونهم منها بما خفّ ، يزيد غمي وتألمي .

ولقد جرت عدة محاولات لارجاع السكة الحديدية الحجازية كما كانت قبل الحرب ، فكان الانكليز يقاومون هذا المشروع سراً فيما بلغني لأنهم يحاولون ألا يكون ركوب الحجاج في غير بواخرهم ، وأن ينقطع الاتصال بين اجزاء الامارات العربية . وبذلك تأخرت تجارة الشام والحجاز ، وعادت الوحشية إلى الجزيرة ، وقد كانت أوشكت تدخل في المدنية .

انا اعرف ان الاستعمار الانكليزي أخف أنواع الاستعمار ، يبقي للمستعمرين ما يتبلغون به ، ولكنني ما أحببت الاستعمار قط فأحبه منهم . هذا رأيي فيهم ، وهذا ما يفسرونه ببغضي لهم . وما قيمة بغضي وحبي لدولة تملك خمس سكان الارض .

الامير فيصل

عرفت الأمير فيصل بن الحسين، وعرفت اخوته قبل الحرب العالمية . ووافى دمشق في الحرب ضيفاً على جمال باشا، فتأكدت الصداقة بيننا، وكنت أخلو به ساعات، ونتفاوض أموراً كثيرة، ويبوح كل منا لعشيره بما لا يبوح به لأقرب الناس اليه . ولطالما كان الشيخ اسعد الشقيري، ونحن في معسكر القائد العام، يحرضني على قطع الوقت معه، لئلا يضيق صدره، او يتبرم بالمقام في الشام، وقال لي مرة : عجباً لهؤلاء القوم (يريد جمال باشا وجماعته) دعوا ابن الرسول واهملوه هذا الاهمال .

وكان الامير يقترح عليّ اعداد بعض ألوان من الطعام، ويستأذن جمال باشا بالتخلف عن مائدته، ليكون في ضيافتي . ومقصده من ذلك أن نخلو بانفسنا في دارنا، بعيدين عن البيئة الرسمية في المعسكر . ويأتي معه احياناً من يحب من اصحابه، وبطبيب والده الخاص، وهو تركي يدعي أنه لا يعرف العربية، مع انه قضى سنين طويلة في الحجاز، وكنت ألفت نظر الامير إلى التوقي أمام طبيبه، فكان يقول لي إنه من خواصهم، عاش بنعمة أبيه زمناً، وعلمت بعد مدة أن جمال باشا اتى هذا الطبيب في حوران، وكان الشريف حسين ثار في الحجاز، فقال له باشمئزاز : أنت تركي، وتعد من حاشية الشريف حسين، وتدخل في حرمه، فكيف لم تطلع على نيته في العصيان على الدولة، والغالب أن هذا الطبيب كان عند حسن ظن الامير فيصل فيه، كان صادقاً لآل الحسين، ومات منذ بضع سنين في القاهرة .

ولما أراد الأمير فيصل ان يفرّ إلى الحجاز نافضاً يديه من العثمانيين، وقد كتب له والده أن يعجل العودة اليه، بعث مع أحد آل البكري أصدقائه، يقترح عليّ أن اصحبه إلى مكة، فقلت له إن القوم ينكبون

عيالي إذا هربت ، وإن صحتي لا تحتمل عيش البوادي ، فعدّ رفضي معقولاً ، وعذرني على توقي الشرّ والضرّ . ولما عقدت الهدنة ودخل الأمير فيصل دمشق مع الجيش العربي وجيوش الحلفاء ، كان أول ما طلب إلى أخي ان يكتب إليّ في استانبول بالحضور حالاً ، ولما زرته كان لقاؤنا لقاء أخ بأخيه ، وتفضل وعاون المقتبس على الصدور ، وكان توقف قبل جلاء العثمانيين عن دمشق . ومع هذه الصداقة القديمة المستحكمة الأواخي ما كنت أرى تعجيزه ، وقد أصبح أمير سورية ، على نحو ما كان يفعل بعضهم ، ومنهم رئيس المؤتمر السوري ، فانه ما كان يتوقف عن الاختلاف اليه قبل الشمس في غرفة منامه ، ولا في ساعة متأخرة من الليل ، وهو يتهيأ للدخول في فراشه . يباغته في خلوته وجلوته حتى ضاق به ذرعاً على ما فطر عليه من سعة صدر . ثم غضب على والده الملك حسين ، وكتب فيه ما لا يكتب وطعن في نسبه بما لا يقره عليه عاقل . أطلعني على الطعن صديقي الأمير شكيب ارسلان في برلين وقال : انظر ما كتب صاحبك ، فقلت له هو صاحبك قبلي ، وأنتما تتقارضان المديح . قال شكيب ؟ أنت تعرف ما بيني وبين الهاشميين من أجل السياسة التي انتهجوها في معاداة الدولة ، ومع ذلك لا أستبيح أن أطعن بهم هذا الطعن ، وأرى من واجبي إذا رأيت الطفل منهم ان أقبل يده لأنه ابن الرسول .

كثر من يصدّعون الأمير فيصل بزيارتهم ، وهو يقابلهم بلطف ، ويرضيهم بما تصل يده اليه ، وكانت الفوضى بادية في ادارته في دمشق ، على نحو ما كانت ظاهرة في حملته بالبادية . وإذا كان له بعض العذر في فوضاه يوم كان في الصحاري ، فهو لا يعذر على الفوضى في حالة الاستقرار بالمدن . والفوضى تبدو جلية في الحضر أكثر من البوادي . وكان الاسراف في قصره كثيراً ، وفيه سرّاق من كل صنف وأناس لا يهتمون لغير مصلحتهم ، وكان الانكليز يعطونه كل شهر مئة وخمسين ألف جنيه مصري ، ينفقها بكثير من التبذير ، هذا عدا ما في هذه الديار من موارد تدخل خزينة الدولة ،

وهو يحرص على ارضاء مشايخ الاعراب ، ومقدمي الريف ، والزعماء من سكان المدن واستمالة قلوب المسلمين وغير المسلمين ، والشاميين والحجازيين والعراقيين والبريطانيين والأجانب ، لذلك كان من واجب أصحابه أن يوفروا له وقته ، ولا يزيدوه أتعاباً إلى اتعابه بمقابلاتهم وطلباتهم ، وهو مضطر كل ساعة إلى أن يقابل أصنافاً من الخلق ، ولو لم يكن لديه إلا المنافسة بين البريطانيين والفرنسيين ، وكل من الفريقين يحاول أن تكون لدولته الكلمة العليا في الشام ، لكفاه ذلك هماً ومشغلة . أضف إلى هذا أن القوم لم يربوا التربية السياسية المطلوبة ، وهم خارجون من أيدي حكومات عبثت بحضارتهم ، وأضرّت بتربيتهم .

استصحب الأمير فيصل من باريز الكولونيل تولا ، فأنزله في دار عبد الرحمن باشا اليوسف ، وتعرفت اليه أول وصوله ، ونبهت على حاشية الباشا وأقاربه ألا ينطلقوا أمامه بالكلام ، ولا يستعملوا معه غير الأدب متحفظين ، اذ قد يدرك الغريب الأعجمي مرمى ما يتكلم به المتكلمون من نبرات أصواتهم ، وأسارير وجوههم ، وإن جهل اللغة التي يتخاطبون بها . وطال نزول الكولونيل في دار صديقي عبد الرحمن باشا ، وهذا يكرر رجاءه ألا أنقطع عن الدار ، لأن أعماله الخاصة تضطره إلى التغيب ، فأكون أنا مع ضيفه على المائدة ، نائباً عن صاحب البيت ، وكان السيد تولا لا يترك القصر في النهار كثيراً ، ويجلس في ردهة الاستقبال يتوقع أن يكلمه أحدهم أو أن يتكلموا أمامه . وتبين بعد أشهر وقد نجزت مهمته ، أنه يحسن العربية ، وما نطق بحرف منها أمامي ، ولا أمام أحد من أهل الدار ، مدة مقامه بينهم . فحمدت الله تعالى وجماعة المضيف على هذا الاحتياط ، وعلى ما ظهر به بيت عزيزي الباشا من مظاهر الوقار والأدب أمام الغريب .

تعلمت هذا التحفظ من حادثة وقعت لنامق كمال الأديب التركي المشهور قصها علي صديقي الأمير أمين أرسلان قال : كان نامق بك مسافراً في

قطار الشرق من الاستانة إلى سويسرا ، يصحبه بعض ادبائهم ، وكانت في المركبة عجوز افرنجية . فأخذ مع رفاقه بأطراف الحديث ، وتناشدوا الاشعار ، وتطرقوا إلى ما ابتلوا به من رفقة تلك الشمطاء الدرديس ، وأطالوا في هذا الباب وأكثروا وهي كالتمثال المنصوب لاتبدي ولا تعيد ، ولا تتكلم ولا تبتسم ، ولا تعبس ولا تنقبض . ولما قربوا من لوزان تقدمت العجوز اليهم ، وكلمتهم بلغة تركية راقية ، وقالت إنها مسرورة بسماع كلام ادباء الترك ، وقالت إنها لم يجر لسانها باللغة التركية منذ مدة ، وعرفتهم بنفسها فكانت امرأة سفير انكلترا في الاستانة سابقاً ، فصعقوا لما بدر من فلتات لسانهم ، ولما دل ما فاهوا به على قبح أدب . ثم دعتهم إلى تناول الشاي في منزلها من الغد في مدينة لوزان ، فأحبوا أن يفلتوا من دعوتها ، فأصرت عليهم ، وأرسلت من عرف المنزل الذي ارتادوه ، فاضطروا إلى الحضور مكرهين ، يتعثرون بأذيال الخجل ، ورأوها قد دعت سرباً من حسان الاوانس والعقائل ، وما تركت للاديب التركي ورفاقه مجالاً ليعتذروا ، وودعتهم إلى الباب ومن حولها الشابات الصباح ، كأنهن بعض وصيفاتها وخادماتها . وهكذا ضربت الانكليزية رفاقها في القطار ضربة موجعة على ام الرأس .

والانكليز من أعرف الامم بتسقط الاخبار ، ومن أقدر الخلق على كظم غيظهم ، حدث أن سفير انكلترا في الاستانة أرسل إلى قنصل دولته في دمشق ، قبيل الحرب العامة بنحو شهرين ، يقول له إن ضابطين تركيين برتبة كبيرة غادرا الاستانة إلى فلسطين ، ولم يعرف الغرض من سفرهما ، وطلب اليه التحقيق عن الدواعي اليه . فبحث القنصل عن الضابطين فعلم ان وجهتهما فلسطين ، وملأ سلتين من المآكل والمشروبات ، وتحين دخول الضابطين إلى المركبة في قطار فلسطين فركب معهما فكلماه بالفرنسية فقال لهما بالانكليزية إنه سائح اميركاني ، ولا يعرف غير الانكليزية ، وأخرج كتاباً انكليزياً يتلوه ويتغابى ، ثم نبش السلة وفتح زجاجة من الويسكي

ودعاها لتناول قدحين فأجاباه إلى دعوته اللطيفة ، ثم شرب وناولها واطعمها ما يتمززان به ، وأخذا بأطراف الحديث ، وقال أحدهما لصاحبه لنتكلم فهذا حيوان لا يفهمنا . ولكن القنصل كان يحسن التركية ، وما إن بلغ القطار محطة سمخ حتى عرف المهمة التي هما مسافران من أجلها . ونزل من القطار وانزل سلتيه ، وسلم على رفيقيه ، وانتظر قطار دمشق فركبه ، وكتب إلى سفيره بسر الضابطين .

ومما يدل على مهارة الانكليز بأخذ الأخبار حادثة سمعتها عن رجل منهم عاش بين الأتراك في الحرب العامة أربع سنين ، وهو من أعلق الناس بقلوبهم ، ومن أقرب رجال الحكومة إلى أخذ أسرار الدولة . ذلك أن جمال باشا لما أتى الديار الشامية استصحب معه من الاستانة شاباً شركسياً اسمه ضيا بك ، كان مقدماً عند الاتحاديين ونائباً في مجلس النواب العثماني وتعارفت إليه وتحككت به ، فألفيته ذكياً مرحاً يحفظ بعض جمل بالعربية ويوردها في المناسبات ، وكان ينادبني (يا خالي) إشارة إلى أن أمي شركسية وهو أخوها . وكان يطلعني على أشياء تخصني ويقوي عزمي ويبدد همي ، وأنا أستغرب منه ذلك وأقول : هي التربية ، ولا بد أن يكون هذا الرجل عاش مع جماعة راقين مدة في اوربا . وأصبحت لضيا بك منزلة في معسكر القائد العام ، يذهب في المهات ، ويؤتمن على الأسرار ويجتمع إلى من يحب ، ويختلط بالناس ، ولا يعرف عنه غير هذا .

وبلغني بعد الحرب أن هذا الرجل الشركسي كان انكليزياً صرفاً . ولد في القوقاز بين الشركس فحذق لغتهم ، ثم انتقل الى آسيا الصغرى ، ونشأ بين الشراكسة كأنه واحد منهم ، وتدخل مع الاتحاديين فعدّوه في جملتهم ، وانتخبوه نائباً في المجلس النيابي عن إحدى مقاطعات الأناضول ، ثم نشبت الحرب الكبرى ، فكان من حاشية جمال باشا يركب بركوبه وينزل بنزوله . وقيل لي بعد الحرب إنه كان معه مجوهرات كثيرة ، كان يهدي منها من يريد اكرامه واستخدامه وذكرت اسمه لأحد رجال الترك

بعد عقد الهدنة مع الحلفاء ، وما كان من أمره فقال : عزمت عليك ألا تذكرني بعباوتنا .

عود إلى الأمير فيصل . قيل إن مبايعة فيصل بملك الشام كانت بتدبير جماعته الذين عوّل عليهم واصطفاهم لسياسته ، وكانوا يعتقدون أنهم يجعلون انكلترا وفرنسا أمام أمر واقع إذاهم تقدموا فبايعوه ، فلم يرضَ الانكليز والفرنسيون عن هذه المبايعة ، وما دام هذا الملك سوى أشهر معدودة . وسواء كان الانكليز راضين عن هذه المبايعة أو غير راضين ، فقد خذلوه لما جاء دور الرسميات . وبدخول الجيش الفرنسي دمشق خرج الملك فيصل وبث الفتنة في الجنوب ، ونادى بالنقمة على المحتلين ومن عاونهم ، فكان من ذلك قتل الحوارنة رئيس الحكومة علاء الدين بك الدروبي ، وأحد وزرائه عبد الرحمن باشا اليوسف . وكان هذا دعاني إلى أن أصحبه في رحلته هذه ، فاعتذرت وقلت له : ما دمنا نسافر غداً إلى بيروت فأنا في هذا النهار أتفرغ لقضاء أشغالي ، فسلمت بفضل الله من هـــذه الغائلة . وعلاء الدين بك الدروبي من أهل حمص ، تخرج بعد أن درس في المدرسة الملكية بحسين حلمي باشا في الادارة . وأظهر نكراناً لجميل فيصل ، وتناسى أفضاله عليه بعد رحيله ، فطعن فيه في دار الحكومة في خطاب رسمي . وتهور بعد ذلك بزيارة حوران ، وكان متصرفها السيد أبو الخير الجندي كتب إليه سراً أن الحالة الروحية سيئة في لوائه ، فالأولى أن يؤخر رحلته فلم يستمع له ، وكان في ذلك حتفه وحتف صديقه وغيرهما ، وبمقتلهما خربت حوران ، بما ضرب عليها من الغرامات ، وما عرف القاتل الحقيقي .

كان القوم على عهد فيصل في قلق واضطراب ، يعقدون أعظم الاماني على ملك الهاشميين ، ويرجون بهم إرجاع دولة العرب . وأكثر ما أضرّ بذاك الملك وعجّل في القضاء عليه الاعتماد على الصعاليك الأغمار ، ومعظمهم أطفال في السياسة يريدون الظهور والانتفاع قبل كل شيء ، وكان الأهلون من ذلك في غمرة ، ولو طال ملك فيصل ، وأراد الانكليز نجاحه لما كان

مصيره ما كان . فقد رأيناهم لما صحت عزيمتهم على فلاحه في ملك العراق كيف هيأوا له ذرائع التوفيق ، وكان هو قد تعلم سياسة الخلق في الشام مما ارتكب ما ارتكب هنا من أغلاط . هذا والعقلاء العارفون مجمعون على أن استعداد الشاميين للحكم أكثر من استعداد العراقيين ، والنور باكر الأولين قبل أن يباكر الآخرين ، ولكن حظ العراق أعظم من حظ الشام ، وللبقاع نصيبها من الشقاء والسعادة .

ومن أسباب زوال ملك فيصل من الشام ضعف إرادته ، ومن ضعف إرادته أنه كان من أسرع ما يكون إلى نقض القانون فيعفو في الحال عمن التمس منه الصفح عنه ، ولو كانت المادة مادة قتل والمسامحة بها تضر بمصالح الدولة ، وكان كثيراً ما يعمد إلى سياسة الارضاء ، فقد نصب الشيخ تاج الدين بن الشيخ بدر الدين رئيساً على العلماء في دمشق ولما تتجاوز سنه يومئذ الحادية والعشرين .

وكان المتكلم الأخير مع فيصل هو الذي يقبل رأيه ويعوّل على كلامه مهما بلغ من سخف وضعف . وقد صحبه صديقي الاستاذ فائز بك الغصين — وهو من أذكياء العرب ، كان أبوه زعل الغصين من رؤساء اللجاة — في رحلته إلى باريز فلم يلبث أن رجع ، فسألته عن سبب عودته قبل إتمام أعمال الأمير فقال : إن الأمير يصعب العمل معه ، فهو أذن يستمع لكل من يأتيه بخبر ، تراه أبداً متقلقل الرأي ، ضعيف العزيمة ، وحقيقة ما قاله ابن الغصين ، فان الأمير لو أظهر حزماً في معاملة المشاغبين ، ما وقعت وقعة ميسلون ، ولا دخل المنتدبون أرضنا بالقوة . ومع هذا فقد كان من أفضل أولاد الحسين ، أسمع صوت العرب في الغرب ، وعرّف السياسيين بأن للشعوب العربية مطالب يثورون من أجل تحقيقها ، وأنهم أمة ذات ماض مجيد ، يجب أن ينظر إليه بعين الاعتبار ، فنشأت بذلك مسألة اسمها المسألة العربيـــة .

بطريرك الروم

عرفت صديقي البطريرك غريغوريوس حداد قبيل الحرب العالمية ، ولا أذكر بأي واسطة من وسائط التعارف كان اجتماعنا أولاً ، وبلغني عنه أن أحد الشمامسة جاءه ذات يوم يقول إن الحنطة التي كانت مخزونة في مخزن الدير بدمشق قد كادت تنفد ، واقترح على بطريركه أن يخص بصدقاته أبناء طائفته بعد ذاك اليوم . وكانت البطريركية لما اشتد الجوع أيام الحرب العامة توزع طعاماً على الفقراء من جميع الطوائف . فعبس البطريرك ، وصمت دقائق ، ثم قال للشماس ساخراً : إذهب ولا تعط صدقة إلا لانسان ترى منقوشاً على جبينه (روم ارثوذكس) ، وخصه بالطعام ولا تعط لغيره شيئاً . ثم قال بصوت متهدج : إدفع الصدقة لكل من يطلبها ، فالخلق كلهم عيال الله .

نُقل إليَّ هذا الحديث عن ثقات أعتقد صدقهم ، فعظم البطريرك في عيني ، وأيقنت أن نفسه صفت من لوثات التعصب الأعمى ، وكنت في دعوة أقامها في دمشق قائد الجيش جمال باشا ، وكان السيد غريغوريوس في جملة المدعوين ، ولما اقترب من الردهة همست في أذن القائد وقلت له : إن هذا البطريرك من العلماء الأجلة ، ومن أهل التقوى والصلاح ، وهو إلى هذا عريق في عثمانيته أكثر منكم ومني ، وقصصت عليه باختصار ما كان منه مع الشماس في توزيع الصدقات على المحاويج من كل نحلة . فقال لي الباشا : هذا الرئيس الديني جدير بأن يعاون إذاً . فقلت له : ويكون لمعاونته إذا تفضلتم دولتكم بذلك أحسن الأثر عند طائفته ، وعند جميع الطوائف ، ولا سيما عند المسلمين ، لأنه محبوب عندهم ، وموقر عند عقلائهم وأهل الرأي منهم . واتصل بي أن «صاحب الدولة» ارسل إلى

« صاحب الغبطة » مقادير وافرة من الحنطة ، ومنحه مبلغاً عظيماً من المال وأحله من نفسه محل التجلة والاكرام ، وما زال على معاونته حتى غادر الشام .

ما اطلعت البطريرك على حديثي مع قائد الجيش مدة الحرب ، لأن صداقتنا كانت حديثة العهد يومئذ ، وقد توطدت دعائم المحبة مع البطريرك بعد ذلك ، وصرنا نقضي ساعات معاً نتذاكر في امور علمية وأدبية ، ونخوض في موضوعات اجتماعية وسياسية ، وما كنا نتعارض ولا نتصادم . قضيت في سوق الغرب في لبنان أياماً ما كدت أفارق صديقي ، وكان مصطافاً هناك في ديرهم ، إلا وقت النوم ، وكنت أشهد مائدته في الظهر وفي العشاء ، وما استطعت لما له من السلطان على القلوب أن افلت من ضيافته . ولما انشأت المجمع العلمي اهداه ما عنده من الآثار والعاديات . وفرغ بعض السنين محل عضو في المجمع كان فيه رجل من طائفة الروم فأحب البطريرك ان اجعل خلفه شخصاً من ابناء طائفته فأبيت ، وقلت له : عضويات المجمع توزع على ارباب الكفاءات ، لا على المذاهب والديانات ، فعذرني .

كانت معرفة غريغوريوس بالتاريخ الاسلامي والفقه الاسلامي كفاء سعة عقله وعظيم تجاربه ، وكان من الخطباء الأبيناء ، والأدباء العارفين ، لا تمل حديثه ولا تمل من مجلسه ، وكنت كلما اطلت النظر في اخلاقه أقول إن هذا الرجل جمع بين النصرانية والاسلام ، واخذ من روح الديانتين كل ما تشتد حاجة البشر إليه .

ولما أخذ بعض ابناء طائفته ينقمون منه اشياء ويتحاملون عليه . تطوعت لرد هجماتهم ، وقلت لبعض أصدقائي منهم : إنكم تحاولون العبث باوقاف الطائفة ، وان تتصرفوا بأمورها على هواكم ، والبطريرك فيما أرى يحول بينكم وبين ما تحيلون له ، والله لتبكنّ عليه بكاءً كثيراً اذا فقدتموه ، فكانوا يبسمون لقولي ويدركون اني عرفت ما تكنّ صدورهم . وكان مما يعدون عليه أنه يعطي لابنة اخته راتباً شهرياً ، فكنت اقول لهم : إن الذي يأتي طائفته بعشرات الالوف من الجنيهات ، يصرفها في تعليم أولادهم وإطعام فقرائهم ،

تستكثر عليه إعطاؤه عشرات من الليرات في السنة لسيدة محتاجة ، وهي الوحيدة الباقية من رحمه في الارض .

دامت صداقتي مع السيد غريغوريوس إلى ان وافاه أجله ، وكانت من امتع الصداقات ، وأوفاها صفاء . ولما نقل جثمانه من لبنان ليدفن في دمشق ، كان المسلمون هم الذين تولوا الاحتفال بتشييعه ، فحضر جنازته منهم ما لا يقل عن خمسين الف انسان آسفين مكتئبين . وقد عجبت النزالة الاوربية يومئذ ان احتفل المسلمون برئيس ديني لا صلة لهم به في الظاهر ، هذا الاحتفال الباهر الذي يدل على عاطفة كريمة ، فأجبت بعض من سألني عن سرّ ذلك منهم قائلاً : لا تعجبوا لهذا الحب المتجلي في هذا الحفل ، فتحابب الناس متأصل في قلوبهم في هذا القطر منذ زمن طويل ، وما كانت تقع امور غير مستحبة بين ابناء هذا الوطن أحياناً إلا بألاعيبكم ، وألاعيب ساسة الدول العثمانية ، ورجل من عيار هذا الراحل العظيم يحبه جميع الطوائف ، لأنه على شدة تمسكه بدينه ما غفل عن حقوق وطنه ووطنيته . ومع انه بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ، وطائفته في هذه الديار أكبر الطوائف النصرانية عدداً ، فهو اقرب الرجال إلى قلوب السواد الأعظم من السكان ، يحبونه حبهم لاعز رجل من رجالهم ، وكثيراً ما أطلقوا عليه اسم بطريرك المسلمين محمد غريغوريوس . وزار مرة بيروت فخرج إلى لقائه اربعون سيارة تحمل مستقبلين من ارق طبقة من المسلمين وكانوا يصرخون وهم فرحون بمقدمه عليهم : إنا نستقبل حبر النصارى والمسلمين.

كان السيد غريغوريوس من التقشف والزهد على جانب عظيم ، خرج فيما روي لي عما يملك من صلبان الذهب ، باعها وأنفق ثمنها في إطعام الفقراء وإغاثة البائسين مدة الحرب العامة ، وكان يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ولا يألم إلا اذا قصده قاصد وليس لديه مال يواسيه به . ولطالما قلت امام الموافق والمخالف إن غريغوريوس من اعرق الناس في حب قوميته ، وأكثرهم تناغياً بعربيته ، واتمنى لو كان كثير من مشايخ المسلمين على سمته وأخلاقه ، او كما قلت .

وفد جناق قلعة وشؤون

ألف جمال باشا في السنة الأولى للحرب العامة وفداً من مفاتي سورية وفقهائها وشعرائها ووجوهها ، وشفعه بأربعة من الصحافيين أدمجني في جملتهم . فسافر الوفد إلى الاستانة ثم إلى جناق قلعة (الدردنيل) ليزور المشاهد التي تدل على عظمة الدولة ، ويرجع إلى سورية يخبر أهلها بما رأى وما سمع . والحقيقة أن الباعث إلى ارسال هذا الوفد كان للامتداح من أعمال جمال باشا أمام ولاة الامر في الاستانة ، وكان مركزه مزعزعاً فاعتزم تثبيته بهذه الواسطة .

وكان الوفد برياسة الشيخ أسعد الشقيري المكاوي ، الداهية الباقعة ، الذكي القلب ، الخفيف الروح ، وكان يخطب باللغتين العربية والتركية ، ويحسن في جملة ما يحسن ادب الكبراء ، ويعرف طبائع الاتراك ، لانه عاش بينهم زمناً طويلاً ، وكانت دراسته الاولى في الازهر ، ويرجع السبب في طلاقة لسانه إلى كون ابيه او جده من اهل وادي النيل .

واتم الوفد مهمته على ما يحب مرسله ، وتجلت في هذه الرحلة اطباع بعض افراده وجشعهم ، فتأذى بهم رئيس الوفد ، وكان يتوسطني لاكلم بعض من يشذون عن قانون الجماعة ، ومصطلح الممدنين في الاكل والجلوس والسير والاجتماع والخطاب ، فأتى ويلتي هو من بعضهم عنتاً وما دعا إلى هذه البلبلة الا عدم التجانس بين الموفدين ، على ان الوفد لو كان من غير جماعة المشايخ ما كان له ذاك الوقع في نفوس اهل الاستانة ، وما عرفوا ان منهم الجهلاء ، ومنهم من يشهد الزور ، ويكذبون ولا يرون في الكذب غضاضة ، وقد يفتونك فيما تعتقده محرماً ، ويبيحون لك ما كان محظوراً ، ومنهم من يحبون ان يستثمروا كل شيء لجيوبهم ومظاهرهم .

تمارض احد اعضاء الوفد صديقي الشيخ بدر الدين النعساني الحلبي ، لما بلغنا الاستانة ، وتخلف عنا ولم يرافقنا الى جناق قلعة . وركب الوفد إلى هذه الارجاء باخرة من بواخر المستشفيات الخاصة بنقل المرضى ، وكان الخطر محدقاً بنا من الغواصات ، ودأب المشايخ يتلون حزب البحر ، داعين الله ان ينجينا من الغرق ، فنجونا ببركات انفاسهم الطاهرة ، واثر حزبهم في البحر وما هاج ، بفضل توسلاتهم ، وتخطتنا غواصات الحلفاء وما كنا من المغرقين ، ولما عدنا إلى استانبول رأينا مريضنا قد ابلّ ، فقال لي إنه كان يدعو الله آناء الليل واطراف النهار ان يغرق سفينتنا ، لينقذ سورية من ثلاثين شيخاً ، وان غرقت انا معهم فانه يبكيني ، ويسره ان يكون المشايخ طعام الاسماك في قاع البحر . وطالب ذلك شيخ ايضاً ، وقد ظلمه من ادخله في سلكهم . قال هذه النكتة وكلامه لا يخلو من حقيقة جارحة .

وعدنا إلى مساقط رؤوسنا يحمل كل واحد منا نوط الحرب وساعة من ذهب ، ولكل واحد من ارباب الجرائد مئة ليرة عثمانية معونة لجريدته . فسقط فى ايدي بعض اعضاء الوفد لما بلغهم ما ناله ارباب الصحف ، وودّ بعضهم لو كان في الامكان عده في الصحافيين ، حتى يقبض ما قبضوه ، ولو بخلع عمامته وحلق لحيته ، وجعله في مؤخرة الصفوف .

زرت القائد العام في فندق فيكتوريا لدن عودتي من الاستانة ، وصادفت عنده رضا باشا الركابي ، فرحب بي ترحيباً كثيراً ، وشكرني على مهمتي في الاستانة ، ثم قال لي : بلغني انك تحب الذهاب إلى جبل الدروز ، لتحدث اهله بما رأيت في دار الملك . فقلت : هكذا النية اذا صدر امر دولتكم . فقال : نعما تفعل ، وسأرسل معك نُسيب بك الاطرش ليتولى خدمتك بما لا تقدر ان تتولاه بنفسك ، وعندها تكلم الركابي فقال : يا حضرة الباشا كان لفلان ، يعنيني ، صحيفة سوداء قبل الحرب ، فلما جئتم هذه الديار بيض صحيفته بخدمة الدولة (او ما هذا معناه) فقاطعه جمال باشا وقال : ثبت لي اخلاصه وغيرته على هذه الدولة ، واني ما وثقت به إلا

بعد ان جربته عشرين مرة . ومعنى هـذا انه وضع عليّ عيوناً يأتونه بأخباري ، واهم ما كان يهتم له شخصه ورأيي فيه . وانا كيف افوه بشيء يؤلمه وهو الذي عاملني معاملة رفع بها من مقامي ، ووقاني اذى المؤذين ، وما اكثرهم إذا شاهدوا ممن يؤذونه ضعفاً .

وكان في جملة العيون عليّ شاب من اهل حمص ذكر لي هو ذلك ، وذاك الجاسوس السافل الدمشقي وكان الشيخ الشقيري قال للباشا ، وقد رآني في عودتي إلى دمشق كاسف البال واجماً ، لأن فريقاً من اصحابي سيقوا إلى سجن عاليه مدة غيابي : إن فلاناً الذي خدمك كثيراً في الاستانة ما ذا يكون مصيره بعد أن قبض على أصحابه ، واودعوا السجن رهن التحقيق في عاليه ؟ فأجابه إنه راض عني كل الرضا ، ويعتقد بقوة ايماني وعقيدتي الوطنية ، ويحب أن ألقاه ليطمئني بنفسه . وكان أن صدر منه الكلام الذي قاله لي في فندق فيكتوريا .

ولقد شجعني على المضيّ في نقل حسنات قائد الجيش ، كلما دعا إلى ذلك داعٍ ، نصيحتان لعظيمين يعرفان نفسية الكبراء في هذا الشرق . إحداهما نقلها لي صديقي الشيخ أحمد حسن طبارة صاحب جريدة الاتحاد العثماني في بيروت قال : ابلغك نصيحة الشيخ طاهر الجزائري — لما عرّج على بيروت في طريقه إلى مصر قبل نشوب الحرب بأيام — قال : انشر للأتراك كل ما يريدونه في جريدتك ، وقل لصاحب المقتبس ان يجري على مثل طريقتك ، وإذا لم تفعلا فأنتما مقتولان لا محالة . ولكن حب الكسب غلب على طبارة فنشر في جريدته حوادث لا ترضي العثمانيين ، كان يبعث اليه بها احد قناصل الحلفاء مع اجرتها القليلة ايام النفير العام وقبله بقليل ، وانا عرضت على جريدتي مثل هذه النشرات لم ار من الحكمة نشرها ، وهي صادرة عن عن اجنبي لا اعلم النية فيها ، والدولة في احرج اوقاتها ، فسيق صاحبي إلى عاليه ، وهو من جماعة الاصلاحيين ، وربما كان مع غيرهم أيضاً ، وحوكم مع من حوكم فحكم عليه بالقتل .

والنصيحة الثانية صدرت عن رجل عرف الزمن وأهله معرفة حصيفة ، ألا وهو خلوصي بك والي سورية ، فاني لقيته في الاستانة منذ صرفنا من جناق قلعة ، وكان استقال من ولاية سورية لأن جمال باشا عزم على قتل المتهمين بالسياسة في عاليه ، ولما لم يقنعه ولم يقنع الاستانة برأيه في الابقاء عليهم استقال ، على شدة الحاح رجال الدولة بالبقاء . ولما لقيته ظهر الكدر على أسارير وجهي ، فالتفت إليّ وقال : خلوصي حيث كان خلوصي ، فقلت له : يبقيك الله ياسيدي ، إن مقام دولتك لا يحتاج إلى دليل ، وارجو ان تتمتع بالصحة انت وعيالك . وانا اندب فقط سوء حظنا ، فقد كان اقصى آمالنا ان ننتفع بثمرات عملك وتجاربك ، وقد علم مولاي مبلغ تعلق اهل سورية بشخصك الكريم ، لكثرة ما لقوه من عنايتك بأمرهم ، وغيرتك على مصالحهم . وكان اهل دمشق خرجوا لوداعه لما رحل عنهم يبكون ويأسفون . ثم قال لي : اسمع مني ثلاث كلمات تنج من هذا الرجل السفاح (جمال باشا) لا تطلب الذهاب إلى المانيا او النمسا ، فانه يعتقد انك تحاول الفرار للالتحاق بالحلفاء ، كما كنت طلبت ذلك آنفاً وارتاب منك ، ولا تكثر الاجتماع بالاهلين على ما كنت تفعل ، والزم دارك واقلل من الاختلاط ، وحاول من حين إلى آخر ان تمدحه في الجريدة ، وإلا فأنت مقتول . وإذا رأيت نفسك في ضيق ، وايقنت بتغير قلبه عليك ، فاكتب لي ان الجريدة لا تفي وارداتها بنفقاتها ، فأفهم انك ازمعت ان تعتصم بالاستانة ، وانا كل ساعة مستعد ان اجد لك وللدكتور عبد الرحمن شهبندر هنا منصباً لا يقل راتبه في الشهر عن خمسة آلاف قرش لكل واحد منكما . فودعته وكلي اسف على فراقه ، وانفذت امره في كل ما نصحني به ، وحفظت اجمل ذكرى لأشرف والٍ عرفته من ولاة العثمانيين .

أحرار الترك

عيل صبر والي سورية خلوصي بك مني ، لكثرة ما ذكرت له خلال احاديثنا اسم الاتحاديين،ولقولي له جماعتكم الاتحاديون ، وعمل الاتحاديون وقال الاتحاديون فقال لي : أنا لست اتحادياً ولعنة الله على الاتحاديين . هم فئة تسير بالمملكة إلى الخراب ، وعلى أيديهم ستنقرض وتبيد . وإني ما وصلت إلى هنا والياً عليكم حتى دخلت في كل المضايق ، وعرفت تصاريف الدهر بأهله . وأشار إليّ بالكف عن نسبته إليهم . وقال لي يوماً : ثق يا فلان أن بلادكم خرجت من حكم العثمانيين ويا للأسف ، بفعل هؤلاء الاتحاديين الجانين . ولما سمعت ذلك منه تطلعت ذات اليمين وذات الشمال مخافة أن يكون سمعه احد . وخفت ان يكون اصيب بضربة جنون ، فما زدته على ان تغافلت وتغابيت كأني ما سمعت . وكيف لا اخاف ان يكون استدرجني للكلام ، وانا كنت يومئذ احتاط في كلامي مع كل تركي ، واتوقى اكثر ابناء العرب ، فبالأحرى ان احاذر واليهم ، على ما كان بيني وبينه من صلات كلها ود وحرمة وثقة .

ووقع لي مع جناب شهاب الدين بك من علماء الترك وادبائهم ـ وكان دعاه جمال باشا هو وصديقه سليمان نظيف بك العالم الأديب المشهور لزيارة الديار الشامية واوصاني بأن الزمهما واكرمهما ، ونزلا في دار صديقي عبد الرحمن باشا اليوسف ، وقد خلونا مرة بأنفسنا في ردهة الاستقبال ، وكثيراً ما كنا نخلو ونتسار ـ وقع لي ان قال ما ادري كيف اصف هؤلاء الذين قبضوا على زمام الملك ، وكأنهم مستأجرون للقضاء الأخير على هذه الدولة ، إنهم سخفاء اغبياء يحاولون ان يستأثروا فقط بالدعوة إلى القومية التركية (المتكلم من صميم الترك) ولا يتركون مجالا لنصف سكان المملكة

وهم العرب ان يجروا على مثالهم في هذا المضمار . هذه المملكة يا صاحبي لا تعيش إلا كما تعيش امبراطورية النمسا والمجر ، ولا معنى ان اختص انا بالدعوة للقومية التركية ، ولا يكون لك انت العربي حظ منها . فاما ان ادعو انا وتدعو انت ، وإما ان اكف عن الدعوة وتكف انت . هـذا هو الانصاف .

قال : حقاً إننا ضعاف في إدارة الشعوب والممالك ، وقد حاولنا فيما مضى ان نُترّك الروم فخرج الروم عن حكمنا ، ثم حاولنا بعد ان نترّك الصرب والبلغار والرومان فخرجوا كلهم عن حكمنا ، وحاولنا ان نُترّك الألبان فنزعوا ايديهم من ايدينا ، والآن نحاول ان نترّك العرب وسيخرج العرب من سلطاننا . وسألته ما العمل إذاً ؟ قال : لا شيء ، قريباً يخرج عليكم الافرنج من البحر فتسقطون في ايديهم غنيمة باردة . نبّه على من تحب ولعرف ان يدخر قوتاً في بيته يكفيه وعياله اشهراً ، فربما طال حصاركم ، ولا تفكروا فيما سوى ذلك .

وقال لي مرة « جناب » المشار إليه ، ونحن سائرون في بعض ازقة دمشق على الأقدام ، وقد رأى حمل حطب على حمار يسوقه صاحبه مذعوراً ، كأنه يهرب حشيشاً أو أفيوناً . أصحيح إن الحطب عزيز في هذا البلد ؟ فقلت له : نعم ، حتى أنني منذ مدة احاول ان أجلب إلى داري حطباً من قريتي وأخشى ان يصادر في الطريق . فاهتز لهذا وقال : اذا كان مثلك لا يقوى على جلب حطب بيته من مزرعته ، فكيف نطلب من العرب أن يحبوا الترك ؟ كل جفاء يبدو من العرب نحونا هم معذورون فيه .

هذه حرية علماء الترك ، وهذه نفوسهم الصافية ، وهذه ثقتهم بالمخلصين من ابناء العرب . ولقد بالغ الأديبان التركيان لما حللت الاستانة بالحفاوة بي . وكان سليمان نظيف يقول لي : انا هنا اخدمك كما كنت أنت تعاملني في دمشق . فأقول له : إن مقامك يا مولاي عظيم جداً ، فأرجوك ألا تعاملني هذه

المعاملة . فكان يقول : أنا أقوم بواجب ، وساطلعك على أماكن لا عهد لك بها في هذه العاصمة ، وحقيقة أطلعني على خزائن كتب لا أعرفها وعرفني إلى شخصيات عظيمة ما كنت لولاه اصل اليها . وكانوا إذا حضروا مجلسه يوم الأحد من كل اسبوع يعرفني إلى من لم اكن أعرف بقوله : هذا من أحرار العرب هذا صديقي فلان . ويدعوهم إلى ان يتكلموا بحرية أمامي كأني منهم ، وبذلك عرفت مكانة رجال الترك معرفة يصعب أن يعرفها كثيرون حتى من الترك أنفسهم ، وأوقفني على ما كان يستتر عن الغريب لا محالة ، أهديته لما كان في دمشق اعداداً من مجلة المقتبس فطالعها مطالعة امعان ، وقال بعد أيام لصديقه جناب بك شهاب الدين : طالع هذه الاعداد التي تفضل صديقنا كرد علي وأهداني إياها ، اننا إلى الآن لم نستطع (اي الترك) أن ننشر مثلها ومتى طالعتها تحكم على العرب . فقلت له : هذا من فضلك وحسن ظنك بالعرب . فقال : هذه الحقيقة وتعرف اني لا أحب النفاق .

وفي الحق ان المنورين من علماء الترك وأدبائهم كانوا يحبون العرب . ويعجبون بالآداب العربية وبتاريخ العرب ، ويشمئزون من كل من ينال منهم ويطعن فيهم ، وكان رجال الاستانة مثالاً من هذا اللطف والعطف .

قلت لصديقي علي كمال بك — من أكبر ادباء الترك وكتابهم ، وكان يحفظ جانباً عظيماً من شعر المتنبي والمعري ويستشهد به في كتاباته بالتركية — عندما دخل الأمير فيصل إلى دمشق وكنت في الاستانة : بلغني ما ساءني من أخبار بلدنا ، بلغني أن شكري باشا الأيوبي عامل الاتراك معاملة نابية عن الانسانية ، لما جلت الحكومة العثمانية عن ديارنا ، وأنه لم يحسن معاملة النساء خاصة . فقال لي : لا تصدق ياعزيزي ، العرب لا يصدر منهم مثل هذا ، لو دخل الأتراك عليكم ظافرين لعاملوكم بمثل هذه المعاملة ، أما أنتم العرب فلا تفعلون ذلك . فتوقف فكري لقوله ، وجاءت الاخبار بعد اسبوعين أن الامر في دمشق كان خلاف ما بلغني أولاً ، وأن الاتراك لقوا عند سقوط دمشق من اخوانهم العرب كل رعاية . فذكرت ذلك لعلي كمال بك فقال : أما قلت

لك ، أنا عارف بطباعكم ، وكان قضى شطراً من حياته في مصر وفي حلب ، وهو الذي مزّقه الكماليون شر ممزق لما وافت جموعهم ضواحي الاستانة ، وكانت لي معه في مصر وفي أوربا مذاكرات ومهامسات . وكان الاتحاديون لأول نشأتهم غاضبين عليه فقلت لطلعت باشا وزير الداخلية : إنكم تحسنون صنعاً إذا استدعيتموه من اوربا ، وكان أمامكم هنا ، وربما سار معكم ، إذا أحسنتم سياسته ، وذلك خير من ان يكتب فيكم وهو بعيد . فاستدعوه وجعلوه استاذاً في دار الفنون ثم أصدر جريدة (پيام پيام) ووقع الخلاف بينهم لأن الاتحاديين لا يحتملون الحرية ولو كان من بدرت منه تركياً من صميم الترك مثل علي كمال بك .

واتفق لصديقي أحمد جودت بك صاحب جريدة (اقدام) أكبر صحف الاستانة في عهد العثمانيين أن نشرت جريدته مقالة عن اليمن فيها طعن في العرب ، فتحمس بعض طلابنا في الاستانة ، وهاجموا ادارة (اقدام) وحطموا الزجاج ، ومزقوا الأثاث ، وشتموا صاحب الجريدة . فكتب المقتبس يوبخ طلبة العرب ، على ما أتوه مستنكراً له واعتذر عن صاحب (اقدام) بأنه قد لا يكون اطلع على المقالة ، ولو رآها لما نشرها . وصحيح أن الأمر كان كما قدرت ، وصاحب (اقدام) كان آية في أدبه واطلاعه ، ما أحصيت عليه غلطة في باب الطعن بالعرب ولا غيرهم ، وعلى العكس كان يرفع مقام الأمة العربية ، وماكان في رجال الصحافة من يماثله بوقوفه على روح المملكة العثمانية وخصائص شعوبها . وكان لدفاعي عنه في المقتبس تأثير كبير في الأندية التركية في العاصمة والولايات أدركوا به أن العرب يحبون الترك ، وأن عقلاءهم يربأون بأبنائهم عن أن يشبوا على المشاغبة والسلاطة وقلة الانصاف . وأثبت أحمد جودت ، ولطالما أثبت من قبل ، أنه عظيم في ذاته واخلاقه ، ولم يعط النفس هواها ، وظلّ على حبه للعرب وتقدير قدر علومهم وآدابهم وماضيهم وحاضرهم .

كانت لي صلات عظيمة بكثير من ادبائهم وشعرائهم وعلمائهم ، ومنهم صديقي جلال نوري بك وكان صاحب جريدتين يوميتين احداهما تصدر بالتركية

والثانية بالفرنسية ، وكان من عظماء المفكرين فيهم ، وله عدة تآليف مفيدة نقل بعضها إلى العربية ، ولم ار في جميع ما قرأته من كتبه ومقالاته كلمة واحدة تشعر بالحط من قدر العرب ، وعلى العكس كان معجباً بتاريخهم اكثر من العرب أنفسهم ، وقال إن امته لم تنجب عالماً واحداً يذكر من عيار ابن رشد ولا غيره من علماء العرب وفلاسفتهم .

ومنهم صديقي لطفي فكري بك وهو من الاكراد المتتركين ، على ما كان صديقي ديران كيليكيان رئيس تحرير جريدة صباح من الارمن المتتركين ، وكان هذا غاية بين كتاب السياسة عند الترك بقلمه وطول باعه ونفسه . وكان لطفي بك عظيماً في حريته وبلاغته حتى قال فيه صديقي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ، وكان قرأ مقالاته في جريدته التي كانت تصدر في الاستانة لسان حال المعارضين ، لما سمعه يخطب في حديقة الامة بدمشق : ما رأيت مثل هذا الرجل جمع الله له المزايا العجيبة التي قل أن يمن بها على أحد ، فهو كاتب عظيم ، وخطيب عظيم ، جميل الوجه ، جميل النغمة ، قوي الحجة ، واسع الحرية .

هذا إلى أمثالهم ممن يقل في رجالنا أشباههم ، وقد تقدموا في الكتابات السياسية والاجتماعية . وكثيراً ما كنت أعارض بين مقالات أرقى جرائدنا وأرقى جرائدهم ، فأجد جرائد الترك أرقى كتابة وبحثاً وتوسعاً من جرائد الأقطار العربية ، ذلك لأن دولة الترك العثمانيين امتازت منذ القديم برجالها في السياسة ، كما امتازت برجالها في الحرب ، ولم تنجب في غير هذين الفرعين ، وأرباب القرائح عندهم كانوا يدرسون كما يدرس أرباب العبقرية من الافرنج ، يحاولون ابداً اتقان صناعتهم . وكلامي هذا يتناول المملكة العثمانية ورجالها من الترك قبل انفصال العرب عنهم بعد الحرب الكبرى .

جمال باشا والبارون أوبنهايم

كنت مع جمال باشا في حلب بعد قدومه الشام بمدة وجيزة ، وكنت نازلاً معه في فندق بارون ، وبينا أنا جالس في الصباح على سطح الطابق السفلي مع الشيخ أسعد الشقيري نتمازح ونتضاحك ، وقعت على رأسي من الطابق العلوي قطعة من الخبز ، فالتفت فرأيت جمال باشا مع والي سورية خلوصي بك ، فوجهت الخطاب إلى جمال باشا في الحال وقلت له : ولمَ الخبز تقذفنا به يا باشا ؟ فنعمتك علينا دافقة ، يقول المثل العربي (أجع كلبك يتبعك) وأنتم بحمد الله أشبعتم كلابكم ، وهم يتبعونكم حيث ذهبتم . فأغرب وصاحبه في الضحك وقال : قبحك الله ، لسانك طلق لا يسكت فأجبته : إذا وجد مجالا للقول قال .

وقال لي الباشا في هذه السفرة : هل تعرف البارون أوبنهايم ، فقلت له : أعرفه من مصر معرفة جيدة ، فقال لي : إحذر منه هو رجل دساس فحفظت وصيته وعملت بها . ووافى البارون أوبنهايم دمشق لتأسيس جريدة ألمانية عثمانية باسم (الشرق) ، فاستدعاني وتفاوضنا طريقة إصدارها ، وبحثنا في الاشخاص الذين سيؤآزروننا ، ومما قلته له لنضم إلينا يوسف أفندي العيسى فقال : ومن هو يوسف العيسى فقلت : صحافي من يافا . فسألني عن دينه فقلت روم أرثوذكس ، فانقبض ، وكان كثيراً ما ينقبض صدره من المسيحيين إذا رآهم أو ذكروا أمامه ، وذكرت له أن العيسى ما كان من حزبي ولا من أصدقائي ، ولما كتب في الصهيونية أحببته . فانتفض البارون وقال : إذا حارب الصهيونية فهو عدو بلاده ، فسكتُّ وساد السكوت ، ووقع في نفسي في الحال أن البارون يهودي النحلة (ابن حايم حُرِّفت اونهايم على ما يظهر) يؤيد ذلك أني كثيراً ما سمعته يقول بدون أن يُسأل :

الحمد لله إني كاثوليكي تقي . Grace à Dieu je suis uu bon Catholique

وعاد البارون بعد حين يحاول مفاوضتي فأعرضت عنه ، واغضيت عن الاجتماع إليـه . ورأيته في الشارع مرة فلم اسلم عليه السلام الذي كان يتوقعه مني . وبعد حين علمت أن البارون قصد إلى جمال باشا في القدس وشكاني إليه ، مدعياً اني لم أساعده على إصدار الجريدة المساعدة الواجبة لأني افرنسي النزعة والمواطف ! وهو ألماني ، لا أحب له النجاح في مهمته قال : ولو كنت افرنسياً لكان عطفه أكثر من ذلك . وقال : إن ديار الشام لا تستريح ما دام هذا الرجل حياً ، اقتلوه فان خيانته لكم لا تحتاج إلى دليل ، وأشياء من هذا القبيل انبعق بها ، وهو لا يرى من الباشا إلا الابتسام ، وقال الباشا على المائدة لرئيس أركان حربه فؤاد بك : جاءني هذا الصباح البارون أوبنهايم يسوّد لي صحيفة (كردعلي) ويقترح عليّ أن أقتله لأريح البلاد منه ، بدعوى أنه افرنسي بشعوره ، ولأنه لم يعاون البارون على إصدار الجريدة ، وبالحق إن (كردعلي) كبر في عيني كثيراً لأنه أنفذ إرادتي ، فأنا الذي حذرته من البارون منذ مدة ، فما نسي قولي له ، ولم يخرج عن العمل باشارتي .

ومن عجيب الاخلاق أن هذا البارون نسي أو تناسى سعيه في قتلي زمن الحرب العامـة ، وباغتني منذ بضع سنين وأنا في مكتبي الرسمي في وزارة المعارف ، فقابلته بتجهم ، فلم يفهم ما قدمت بداه ، وألحّ بطلب تآليفي هدية لخزانة كتبه ، وأعطيته إياها لأسلم من إلحافه ، ثم جاءني هـــذا الربيع (١٩٣٩) إلى داري ، وكان كتب لي كتاباً يطلب مقابلتي فلم أجبه ، وقصدني مرة ثانية في داري فلم أقبله ، وأنا في الدار . وبلغني أن دولته حجزته من التصرف بأمواله ، لاسرافه فيا قيل في الانفاق على ربيطة له (هو في الثمانين من عمره اليوم) والحقيقة أنه من أصل يهودي ، واليهود اليوم أعداء ألمانيا الألداء ، ولديه مجموعة من العاديات النفيسة يخشون

خروجها من ديارهم ، وهو ينفق على حفريات يجريها في أقصى حدود الشام بمعرفة علماء معروفين من الألمان ، ومنهم من يكتب له الكتب فتصدر باسمه ، لأنه على ما قال لي أحد علمائهم لا يحسن أن يكتب بلغته كتابة لائقة ، وهو من طبقة العوام فيها ، ومعلوماته ضئيلة حتى في الفن الذي يدعيه ، وهو فن العاديات والآثار ، وقلت لمن يتولى من كتب البارون ما يتولى ، ما قاله أحدهم في القديم : اللهم ارزقني حظاً يخدمني به أرباب الخطوط ، ولا ترزقني خطاً أخدم به أرباب الحظوظ . وكم في المؤلفين المزيف وكم من أغنياء بمالهم فقراء بعقولهم ومعارفهم .

أحرار العرب

كنت أبداً احاذر التبسط مع القناصل (ومع الأجانب عامة) في سياسة العثمانيين . وكثيراً ما ألغابي إذا جالوا في مثل هذه الجولات ، وكنت اوصي رفاقي ممن يختلفون اليهم أن يأخذوا حذرهم فلا يصرحون بأفكارهم لأنا لانأمن من أن يشيع ما يقال لهم . وهم في الغالب يدونون منه المهم ، وما كتب يتناقل ولا يؤمن ذيوعه . وما كان يخطر بالبال أن تنشب الحرب الكبرى ، ويتوصل العثمانيون إلى أن يضعوا أيديهم على أوراق القنصليات ولا سيما قناصل فرنسا . وقد احتاط قناصل البريطانيين ، فأحرقوا ما لديهم من الأوراق ، وكان عند قنصل دمشق مصورات وخرائط حفظ النقاط المهمة منها وأحرق الأصل .

ومن رجالنا من كانوا لا يحتاطون كثيراً في كلامهم مع القناصل ، ولهذا سقطت الدولة العثمانيــة في أوراق وكلاء الدول على أسرار باح بهـا بعض أحرار العرب ، وكانت من العوامل في تجريم بعضهم ومحاكمتهم في الديوان العرفي ، والحكم عليهم بالقتل صلباً ، وممن صلبوا وهم زهرة الرجال صديقي عبد الوهاب بك الانكليزي ، ولما حكم الديوان العرفي عليه بالقتل بكى أعضاؤه ، ولو عرف أنه سيحاكم ويحكم عليه لرضي باقتراح طلعت باشا وزير الداخلية عليه ، أراده أن يهيء له سبيل الهرب من الاستانة إلى الخارج وقال له اذا طلبت إلى سورية فلا أستطيع انقاذك .

وعبد الوهاب بك الانكليزي من الممتازين بعلمهم وأخلاقهم ، قلّ أن أنبغت الشام مثله في عهدهـا الأخير . كان مرة قائم مقام في « الباب » من عمل حلب ، وكان الأعيان على عادتهم يستحلون أكل أعشار الدولة ، ويقومون للوصول إلى ذلك بحيل مدهشة ، فزاد هذا المال بدون ضجة

أكثر من عشرين ألف ليرة عثمانية ، فكتب والي الولاية إلى وزير الداخلية بما وفق له قائم مقام الباب ، فكتب وزير الداخلية إلى عبد الوهاب بك مباشرة كتاباً بخطه ، يشكره على عمله الجليل الذي أخبره به الوالي ، ويهنئه على صدق العمل وحسن الادارة ، ومما قال له ، وقرأته بنفسي : لو كان عند الدولة عشرة قوام مقام من عيارك لعدت من أرق حكومات العالم . والوزير يومئذ طلعت باشا الاتحادي المشهور الذي خاف على حياة عبد الوهاب واقترح عليه أن يهربه إذا كان له شيء يتذرع به لمحاكمته فأبى .

ذكرت وأنا ادون هذا برقية وردتني ذات صباح من أنطاكية هذا نصها :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

سليم الجزائري شكري العسلي عبد الوهاب الانكليزي

وهؤلاء الثلاثة أصحاب اغتبطوا أن اجتمعوا بعد فراق طويل ، صلبهم الاتحاديون مدة الحرب في ساحة الشهداء بدمشق . وكانوا من أخلص أصدقائي ، وهم من أعظم شباننا بذكائهم ومعارفهم واستقامتهم .

وشكري بك العسلي كان قائم مقام في الناصرة ، ودرس المسألة الصهيونية واطلع على خفاياها ، ولما انتخب عضواً في مجلس النواب العثماني ، أراد الاتحاديون أن يبيعوا من الصهيونيين ثلاثة ملايين دونم من أرض فلسطين صفقة واحدة ، بمعاونة جاويد بك وزير ماليتهم ، وكان مذهبه مذهب اليهود الصابئة (دونمة) ، فكان شكري بك أول من رفع عقيرته في أضرار الصهيونية ، وخطب في الموضوع حتى سقط المشروع . وكان شكري بك هذا صنو عبد الوهاب بك إذا ذكر اسم أحدهما يذكر معه اسم صاحبه . أما سليم بك الجزائري فهو رجل الجيش ، درّس علوم التعبئة والمصافات في المدرسة الحربية بالاستانة سنين ، وأبان عن اقتدار قلّ أن كان لأمثاله ، وكانت دعوته العربية متجلية فيه ، والأتراك يضمرون له الشر ، فلما قويت كلمة الاتحاديين في الحرب قتلوه أيضاً ، وهو من أنبغ من أخرج العرب من رجال الحرب ، وهو ابن أخي شيخنا الشيخ طاهر الجزائري .

قتل الاتحاديون ثلة من أبناء العرب بدعوى خيانة الوطن ، حاسبين الحرب العامة فرصة لا تتاح كل حين للخلاص منهم . قتلوا نحو ثلاثين رجلاً ما أظن يستحق القتل منهم غير أفراد قلائل ، هذا إذا تسامحنا في فرض العقوبة . مثل ذنب من قال (شفيق بك المؤيد) لوكيل فرنسا في القاهرة أقطعوا بجيوشكم الخط من الاسكندرونة ، ونحن في الداخلية ننادي حالاً باسمكم . هذا رأي ، إن صح أنه قاله ، والقانون لا يقتل إلا من تشبث فعلاً بالشروع بالعمل ، وظهرت نتيجة تشبثه إلى حيز الوجود .

وبعد كتابة ما تقدم قرأت في مذكرات صديقي الاستاذ فائز الغصين وهو ممن اشتغلوا بالمسألة العربية ان العرب ألفوا ثلاث جمعيات سرية عقيب انتشار القانون الاساسي (سنة ١٩٠٨) وحرب الطليان في طرابلس وبرقة مع العثمانيين وهي جمعية العهد ألفها ضباط العرب مثل سليم الجزائري وعزيز علي ونوري السعيد وامين لطفي الحافظ فدخل فيها أكثر الضباط العرب والثانية ألفها طلاب المدارس العالية في الاستانة وعلى رأسهم عبد الكريم الخليل ، والثالثة ألفها عبد الغني العريسي وهي التي أظهرت نشاطاً عظيماً في الحرب العالمية ويقال انها انكليزية النزعة . وقد قتل الترك معظم رؤساء تلك الجمعيات .

ولقد حاولت أن استعطف القائد العام على المجرمين السياسيين ، فالتمست من فضله العطف عليهم ، في محاضرة القيتها في سينما جناق قلعه بدمشق ، محل دار الندوة الآن ، وذلك عقبى عودتي من دار الملك مع الوفد السوري (١٩١٥) وتوسلت اليه أن يرحمهم ويرحم عيالهم ، فاستدعاني من الغد فؤاد بك رئيس أركان حرب جمال باشا وقال لي : إذا كنت تريد رضا الباشا عنك فلا تذكر السجناء في « عالية » بخير ولا شر ، وأنت هل يذكرك أحد بسوء ، فما لك ولهم ؟ فالتزمت الصمت بعد ذلك .

أما صديقي الشيخ أسعد الشقيري خطيب الجيش ، ونديم أحمد جمال باشا ، والمقرب اليه أكثر مني بكثير ، فانه ما ترك باباً يمكن الدخول منه إلا ولجه ، ليرق قلب القائد العام عليهم ، وخاب سعيه في كل ما تذرع به

ومن ذلك اشارته على بني البكري أن يقيموا مأدبة لجمال باشا في قصرهم في قرية القابون ، وكان الامير فيصل بن الحسين في جملة المدعوين ، وهناك خلا الأمير مع الشيخ أسعد بجمال باشا ، ورجاه اصدار عفوه عنهم أو حبسهم أو نفيهم فرد قوله .

وكذلك تقدم الشيخ أسعد في بيروت وقبّل ركبة القائد جمال باشا في دار عزمي بك والي بيروت ، يتوسل اليه أن يجعل اولئك السجناء في قلعة يموتون فيها بآجالهم ، وأن يرجع عن قتلهم لما في القتل من الشؤم على الدولة . فتجهم القائد للشيخ الشقيري ، وغضب عليه غضباً شديداً ، وذلك بمشهد من عبد الرحمن باشا اليوسف ، وهو الذي قص عليّ ما وقع ، وقال له : أنت شيخ لا تعرف السياسة فلا تتعدى طورك ، وأنا أعرف ان مثلك إذا خدم مثلي خدم آماله وأفكاره ، وأنت تحاول أن تتدخل فيما لا يعنيك ، كأنك تقصد أن تلقنني ما لا أعلم . وهذه مسائل تتجاوز دائرة تقديرك ، فكف عن تعجيزي بذكر هؤلاء المعتقلين .

ودخلت على الشيخ الشقيري في الفندق لأودعه ، وأنا مسافر إلى بيروت فرأيته مصفر الوجه ، كأنه لم يرقد منذ أيام ، ولما رآني دمعت عيناه وبكى ، وقال لي : يا فلان شنق الجماعة . ومن الغد شنقوا بالفعل في مدينتي دمشق وبيروت . وهذا أمر رعيل شنق . وأغرب من هذا أن بعض الأردياء يتهم مثل هذا الشيخ بأنه ممن زين لجمال باشا شنقهم ، وهو لم يترك حيلة لخلاصهم إلا تذرع بها من تلقاء نفسه ولوجه الله .

كان جمال باشا على ما يظهر يكره الوساطات . كلمته ست مرات أنا والدكتور شهبندر في رضا بك الصلح وابنه رياض بك فكان جوابه لي ولشهبندر آخر مرة يخاطبني : هل تعرف كل شيء ؟ فقلت : كلا . قال : إن رضا الصلح الذي تتوسط له قد أتى امراً لو أتاه ابني لاغرقته في البحر حباً بسلامة الدولة ، ثم اقف أبكي عليه بصفته ابني (علمت بعد سنين ان الرجل كان يتهم بالدعوة لانكلترا) وطلب ألا نعود إلى الكلام في هذا المتهم ،

ومع ذلك رأينا ان تمجيز الباشا بالعفو عن الرجل وابنه قد أفاد ، فلم يقتلها كما كانت نيته ، واكتفى بنفيهما إلى آسيا الصغرى ، وكان تساهله أكثر مما كنا نطلب منه ، وما كنا نتطلب إلا حقن دمهما ولو بالسجن سنين .

جئت جمال باشا ذات يوم مودعاً إلى بيروت ، وكان قبل يوم صلب فيها يوسف الهاني من أغنى تجارها ، لتوقيعه بياناً بطلب فرنسا للاستيلاء على هذه الديار . فسألني الباشا : ماذا يقول القوم عني الآن في بيروت بعد قتل يوسف الهاني ؟ فقلت له وأنا أبتسم : يقولون إنهم توسلوا إليك بأنواع التوسل وأقاموا لك اجمل المآدب ، وأتوك بأجمل النساء يضرعن اليك ، وما تركوا شيئاً يعتقدونه انه يسرك ويؤثر في عواطفك إلا فعلوه ، ولا انساناً يعتقدون أنه ذو منزلة عندك إلا رجوه أن يتوسل إليك ، ومع كل هذا شنقته ، شنقته ، شنقته ، فضحك وضربني على كتفي وقال لي : اذهب بسلامة الله .

ولقد بليت من هذا الرجل بمصيبة ، فكان يطلبني لمقابلته أحياناً ، فأزوّر في نفسي جواباً او جوابين اقدر أنهما يجزئانني فيما يسألني ، فيتفق سؤالي في غير ما قدرت ، فأجيبه في الحال جواباً كجوابي له عن ابن هاني القتيل ، يسره ولا يضرني ، فيعلم أن كلينا عالم بالترّهات . وسألني مرة من هم المشار اليهم من رجال دروز جبل حوران ، فذكرت له منهم من كان اسمه على خاطري فقال : أظن انه فاتك غيرهم ، فاستأذنته وسألت من هو اعرف مني برجال الجبل ، فكتب إليَّ جريدة بأسمائهم دفعتها اليه . وكان ينوي أن يستدعيهم لأخذ ما يلزم من قراهم من الحبوب للجيش .

ولما عدت في السنة الأولى مع الوفد كان الدكتور شهبندر قد ركن إلى الفرار لأنه قرأ في وجه جمال باشا الغضب ، وأحس بأنه غادر به لامحالة ، لما كان ذاك الجاسوس السافل قص عليه خبر اجتماعنا الاخير في قرية المزة قُبَيل سفري ، وما قال شهبندر وما قلت انا : فسألني جمال باشا عن شهبندر ، وقال إنه بلغه أنه مختبيء في دمشق وأني اعرف مخبأه ، فقلت له : بلغني انه قد فر إلى جهة غير معلومة ، ولا أعرف غير هذا . فقال : أنت تعرف أمره

وتكتم عني ، إنه خرج من البلد ثم عاد وهو الآن متوارٍ عن الانظار . فأكدت له اني لا أعرف شيئاً عنه ، فاستغرب ذلك ، ولم أنج من الحاحه في استنطاقي حتى قلت له بعد اخذ ورد : إن شهبندر ليس بشجاع فيخرج من هذا البلد ويعود اليه ، وهو أيضاً ليس بمجنون يكتب له أن ينزع يده من القفص ثم يقف ببابه يتوسل بالرجوع اليه . وبعد أيام عاد فسألني عن شهبندر فأجبته اني لا أعرف إلا أنه هرب . فقال : وهكذا تحقيقاتي الأخيرة . فقلت له : الحمد لله على أني لم أكذب . وسؤال الباشا عن الدكتور شهبندر غريب ، فانه يعلم ما بيني وبينه من صداقة ، وكان عليه أن يعرف خلقي ، وقد رأى انه ما سمع مني كلمة تضر أحداً ولا ذكرت أمامه انساناً بسوء ، ولا أفشيت سراً عرفته ، طول مدة ارتباطي به ، فكيف كان يريدني أن ادله على مخبأ الصديق شهبندر حتى يقتله ، وكنا يومئذ نستر على أعدائنا ونعمل لهم ما استطعنا من خير .

كره الاتراك للعرب

بدت كراهة الاتراك للعرب ، منذ فتح العثمانيين الولايات العربية : أمة غالبة من مصلحتها اخفات صوت الأمة المغلوبة ، وأمة مغلوبة تبكي مجدها الضائع ؛ ولا عزاء لها إلا ما تردده ألسنة بنيها من عبارات الأسف على ماضيها ، وكان الترك منذ أول فتحهم استأثروا بالمناصب الرئيسة في السياسة والادارة والقضاء والجندية ، وخرجوا من ديار العرب بعد أربعة عصور من حكمها ، وما أشركوا العرب في سلطانهم اشراكاً فعلياً ، وربما كان بعض افراد من العرب استتركوا وتركوا جنسيتهم ، وذابوا في البوتقة التركية ، ودخلوا مع الاتراك على انهم منهم ، ولا أذكر انهم ادخلوا في وزاراتهم غير ثلاثة من ابناء العرب ، وذلك في آخر ايامهم ، ولم يوسدوا إليهم سوى وزارات لا شأن لها الزراعة والاوقاف .

كان السواد الاعظم من الترك سكان آسيا الصغرى يرون حب العرب من القربات ، مذ كان للترك ذكر في آسيا الصغرى ، وهم على ذلك الى اليوم . والذي رأيته ان حب العرب ظاهر فيمن كان على الفطرة السليمة من الترك . ويقلُّ بين طبقة المتعلمين منهم ، أو من كانوا اقرب إلى المشتغلين بالحكم .

حدثني صديقي الياس بك مطران ، وقد رأيته في بيروت قبل ان تضع الحرب العامة أوزارها ، وكان جمال باشا نفاه إلى الاناضول في جملة من ابعدهم من اهل سورية ، قال : وانا أسأله عن حاله في منفاه : إنه ممتن جداً من هذا النفي ويشكر جمال باشا عليه ، لأنه عرف الشعب التركي حق المعرفة ، وثبت له انه شعب قلَّ نظيره بأخلاقه وميزاته ، وأن ما رآه من لطف الترك وطيب قلوبهم يعجز لسانه عن شكره قال : ولقد ودوا مدة مقامي بين اظهرهم ألا امشي إن امكن على الأرض حرصاً على اكرامي ،

وكانوا يقبلون يدي وعيني وركبتي ، ويتبركون بي فأقول لهم أنا مسيحي فيقولون الست عربياً من بلاد محمد (ﷺ) فابكي ويبكون ! هذا هو الشعب التركي الذي اغتبطت بأني رأيته في أرضه ، أفلا أشكر من نفاني بعد ان رأيت ما رأيت .

ومع هذا كان بعض العمال من الاتراك المتعصبين لقوميتهم تعصباً اعمى يشمئزون كل الاشمئزاز من رجل يتكلم بالعربية ، وإذا كان موظفاً عندهم عدوا عليه من النقص تكلمه بالعربية ، وربما وضع الرئيس بجانب اسمه علامة تؤخر ترقيته ، وكان كثير من الاتراك والاكراد وغيرهم من العناصر يعرفون العربية وينكرون أنهم يعرفونها ، ليرضى عنهم بعض اصحاب الدولة ، كأن معرفة اللغة العربية جرم من الأجرام .

ومذ تولى أمر الترك مصطفى كمال باشا (كمال آتاتورك) انتقل تباغض الترك والعرب إلى الطور العملي ، بقطعه كل صلة مع العرب والعربية ، حتى لقد كان يُضطهد كل من يتكلم في تركيا بالعربية ، وكل من يكتب التركية بحروفها العربية القديمة ، وكانت الرسائل في بريد تركيا تقبل باللغات كلها إلا اللغة العربية ، ويخطب الخطيب في الجمع والاعياد بالتركية وينادي المؤذن إلى الصلاة بالتركية ، وحذفوا من لغتهم كل ما أمكنهم حذفه من الالفاظ العربية ، واستعاضوا عنه بألفاظ افرنجية وتركية قديمة . وأراد رئيس الجمهورية الاول أن يترّك كل شيء . ورأيت كتاب قراءة تركية في العقائد الاسلامية كتب بالحروف اللاتينية ، على طريقة السؤال والجواب ، ومما جاء فيه : ومن نبيك ؟ سيدنا محمد رسول الله . وهل محمد من العرب ؟ معاذ الله هو تركي . وهذا من السخافة التي اشبهت سخافتهم في دعواهم مؤخراً أن الترك هم من نسل الحثيين ، وقد ألفوا في إثبات هذه الاكذوبة الكتب وكتبوا الرسائل والمقالات ، والترك فرع من فروع التتر معروف أصلهم وموطنهم معرفة أكيدة لا تقبل المجادلة .

نشأت العداوة قديماً بين العرب والترك من أجل المغانم والمناصب ،

واليوم ذهبت الدواعي لاثارتها . والمهد بجمهور العرب وعقلائهم أنهم لا يكرهون الترك ، ويتمنون لهم كل خير ، يفرحون لفرحهم ويتألمون لما يسوؤهم . ولما ظفر الترك باليونان في وقعة سقارية ، وكان الترك قد خرجوا من الشام ، ودخلت هذه في حكم الحلفاء ، والنفوس لا تزال مملوءة غيظاً من استبداد العثمانيين ، أقام أهل سورية الزينات والمهرجانات فرحاً بهـذا الظفر الذي أحرزه اخوانهم الترك ، ولكن سياسة الكماليين أبت إلا قطع كل صلة مع العرب خاصة ، ومع أهل الاسلام عامة ، وكان اقتطاع الترك في العهد الأخير لواء الاسكندرونة من جسم سورية بدون مسوغ شرعي ، والسواد الأعظم من سكانه عرب ، مؤلماً لقلب كل عربي .

حدثني أحد أصدقائي من قناصل فرنسا ، ونسيت إن كان المسيو بيات أو المسيو اوتافي ، وكان كلاهما يحسن العربية ويكتبها كأهلها ، قال : كنت قنصلاً في طرابلس الغرب ، أسمُر عند الوالي في بعض ليالي الأسبوع ، ويسمر معنا القناصل وكبار موظفي الولاية ، وكان دأب هذا الوالي التركي لعن العرب جهاراً . فاتفق في إحدى الليالي أن كان المجلس خالياً من سمّاره وقد قذف لسان الوالي لعناته المعهودة ، فالتفت إليه متأثراً من ترداد هذه النغمة وقلت له : ولمَ دولتكم تبغضون العرب إلى هذا الحد ، وتلعنونهم عند كل فرصة ، وهل لهذا من سبب ؟ إذا كان هناك شيء أرجو أن تتفضلوا ببيانه . فقال : لا أعرف لذلك سبباً ، وهذا ما ألفته من صغري ، وكأنه مغروس في قلبي ، وأشربته مع اللبن . فقلت له عند ذلك : أنت مخطيء يا صاحب الدولة ببغضك العرب ، وبلعنك لهم كل حين ، وكان على العرب أنفسهم أن يبغضوكم معاشر الترك ، لأنكم كنتم السبب في زوال دولتهم ، وعشتم أجيالاً بما أتوكم به من دين ومدنية ، ورثتم كثيرا في الأقطار التي افتتحتموها وهي بالحقيقة من فتوحهم . وإنا إذا أنصفنا وألقينا نظرة عامة على ما قام بأيدي العرب من المصانع ، مبتدئين بالأندلس حتى نصل إلى الهند لا نجد فيـه يداً لتركي ، وهو من صنع علماء العرب

ومهندسيهم وحكوماتهم . ذهبت دولة العرب منذ أعصار وأعمالهم في الحضارة بارزة للعيان ، على كثرة ما دمرتم فيها ، وأنتم إذا ذهبتم غداً من الارض هل تبق لكم غير تلك الجوامع التي عمرها سلاطين آل عثمان في استانبول ؟ دعك يا سيدي من غمز العرب ، ولصاون عن بغضهم ، فبغض أمة بأسرها أو لعن قوم بعينه أبداً ، لا يليق بمن كان في مثل مكانتك ومنصبك . قال : وما سمعت الوالي بعد تلك الليلة فاه بكلمة يشتم منها بغض العرب ، ورجع عن لعنهم على ما ظهر لي .

هذا ما بقي في ذهني من المعاني التي ذكرها القنصل ، وقد وقعت لي حادثة غريبة تدل على مبلغ سعي الاتراك في تجهيل العرب ، وذلك أن إسماعيل فاضل باشا ، كان والياً على سورية ، وأصله من أهالي كريت ، وما أدري إن كان رومي الأصل أو تركيه ، وأرجح أنه من أتراك اقريطش ، وكان يدعي صحبتي ، ويحاول استمالتي . طلب مني عامل جبل عجلون وكان تركياً ، وأظن اسمه سزائي بك ، أن أنتخب له ستين معلماً لستين مدرسة أهلية ، عزم سكان عجلون أن ينشئوها بأموالهم ، فقضيت ثلاثة أشهر أبحث عن معلمين يحسنون التعليم في الجملة ، فلم أظفر بأكثر من ثلاثة عشر معلماً ، ومنهم من كان صاحب دكان ، ومنهم من كان له كتّاب خاص . ورافقتهم إلى الوالي ليسلموا عليه ويودعوه ، ولأطلب لهم رخصة بالركوب في القطار بنصف اجرة . وكان أول سؤال سألهم إياه هل تعرفون اللغة التركية ؟ فأجابوا بغير الايجاب . فامتقع لونه ، والتفت إليّ قائلاً : وكيف ذلك ؟ فقلت له أرجو أن يتعلموا ، والآن سيعلمون أبناء الفلاحين مبادئ القراءة والخط والحساب والعبادات ، وانصرفنا من لدنه غير موفقين ، فقلت للمعلمين إذا لم يكذب حدسي فأنتم غير ذاهبين إلى عجلون غداً ، وبعد ساعتين تناولت برقية من عامل عجلون يتوسل إليّ

ألا أرسل المعلمين ، بعد أن كان يلحّ بسرعة إيفادهم . فعلمت أن ذلك كان بإيعاز الوالي ، وأنه قال له : كيف ينتخب فلان المعلمين وأنت ترضاهم؟ وأظن الوالي ما عتم أن رفع من عجلون ابن جنسه الذي كان يريد لأهلها الخير . ومضت أيام ثلاثة ، وزرت الوالي في داره بعد الغروب ، وكان احتسى كؤوساً من المسكر ، وعيناه تقدحان شرراً ، فأول ما قال لي : يا فلان هل أنت ولد ؟ فقلت له : أنا رجل بحول الله ، فقال : كيف تظن أنا نعطي العرب سلاحاً يقاتلوننا به ، العلم سلاح ولا نريد أن نسلحكم إن من سياستنا ألا نعلمكم ، فتألمت لهذا ، ودعوت الله في سري ألا يطيل أيام هذه الدولة ، وقلت في نفسي إذا هم منعوا التعليم الابتدائي عن رعاياهم العرب ، وهو بمثابة الخبز في التغذية ، كيف تصفو لهم قلوب الخواص منهم ؟.

وطلب مني هذا الوالي أن يقضي يوماً في مزرعتي ، فقلت لأعيان القرية اطلبوا منه تأسيس مدرسة لتعليم أولادكم ، فأظهر استحساناً لهذا الاقتراح وقال عليكم تقديم البناء ، والمعارف ترسل إليكم المعلم ، فتبرعت لذلك بخمس وأربعين ليرة عثمانية عني وعن إخوتي ، وتبرّع احد الوجوه بالأرض للبناء ، واخذ الفلاحون يبتاعون الحجارة ويأتون بها من المقلع ، ثم رأيت الهمة قد تراخت وأصبح بعض أهل القرية يصرحون بأنهم لا يريدون تأسيس مدرسة ، فعلمت أن احد الدمشقيين ممن اعتاد ضمان أعشار القرية والانتفاع من جهل أهلها قال لهم : إن تأسيس المدرسة في قريتهم يسهل على الدولة أخذ أبنائها للجندية ، مع أنهم كانوا كلهم يخدمون فيها أسوة سائر القرى ، والغالب أن اخفاق المشروع كان باغواء الوالي فنفذ سياسته عند العمل ، وكان عند القول استحسنه وأظهر الرغبة فيه .

وكنت في الاستانة أنزل في (قاضي كوى) عند امرأة مسيحية ، وكان زوجها طبيباً تركياً في الجندية برتبة عالية فكف بصره ، وكنت أتحدث إليه وألاطفه فعرف أني من دمشق ، فقال لي : إن ابن اختي اسماعيل

فاضل كان والياً عندكم ، فسكت . ثم قال لي في جلسة ثانية : إن ابن اختي يحب أن يراك ، هل تأمر بضرب ميعاد للاجتماع معه ؟ فسكت وتشاغلت . ثم ألحّ في المرة الثالثة فقلت له : قل لابن أختك إن الذي يحاول أن يبقي العرب في الجهل لا أرى أن أجتمع إليه وهو يعرف معنى هذا الكلام ، وانقطع الحديث وما عدت أجتمع بالدكتور الأعمى كالأول .

والشيء بالشيء يذكر إن عدوي اللدود ناظم باشا والي سورية ، وكان يسكن « قاضي كوى » أيضاً حاول غير مرة أن يكلمني ويتحبب إليّ فرأيت الابتعاد عنه ، وهذا الوالي حاول قتلي لما كان في سورية ، وما أدري بأي وجه كان يود أن يكلمني ، وأنا رأيت ألا أضيع وقتي معه ، وأسمع اعتذاره وهو من المعروفين بكثرة المداهنة ، والقدرة على الضحك من كل من يواجهه ، وخلاصة ما بيننا أنني حاولت أن أدعوه لانفاذ القوانين ، وتوخى هو أن يفلت منها وأن ينجو من نقد جريدتي بأي حالة كانت .

رجع إلى الاتراك ومحاولتهم ابقاء العرب في الجهل . قصّ عليّ الشيخ طاهر الجزائري قصة عجيبة في هذا الباب قال : قال لي كمال بك مدير معارف الولاية في احدى العشايا ، وكان كرع كؤوساً من الشراب ، وهو سكران طافح : يا شيخ ما هذا الاهتمام منك بنشر المعارف ؟ (وكان الشيخ في أول شبابه مفتشاً لمعارف سورية ، وهو الذي أنشأ لها مدارسها الابتدائية ، وألف لها كتب التعليم الابتدائي كلها) أنا أخذت من وزارتي كتاباً سرياً بالأرقام تقول فيه إنه تبين أن المعارف عند المسلمين في سورية قد ارتقت إلى درجة كافية فاعمل جهدك على أن تؤخرها لا على أن تقدمها . وكان عدد الاميين يومئذ في ديارنا أكثر من سبعة وتسعين في المئة ، وأظن هذه الحادثة وأمثالها مما وقع للشيخ طاهر الجزائري هي التي حدت به على أن يبغض دولة الترك بغضاً شديداً ، ويلقى الله ببغضها وكراهة سياستها ،

وكان يقول من سوء بخت المسلمين أن الدولة العثمانية استولت على اعمر الولايات الاسلامية وأهمها ، وكان مع هذا ينوه كثيراً بتربية الشعب التركي ، وارتقاء الاسرة وتقدم البيوت ، ووفرة الأدب والتهذيب في جماعتهم .

وبعد فانا بهذه الوقائع عرفنا مبلغ حب حكومة الترك للعرب في الدور العثماني ، وكانوا يوسدون عن قصد للعربي الذي لا يجيد التركية تدريس البلاغة التركية ، وللتركي الذي لا يحسن النطق بكلمتين بالعربية تدريس النحو والصرف والمنطق وبلاغة العرب في مدارسهم الثانوية . وحدث أن أرسلت الاستانة إلى مدرسة تجهيز بيروت معلماً أرمنياً لتدريس الدين الاسلامي وكان لما عينوه يصرخ قائلاً لهم أنا مسيحي لا أعرف الاسلام ، ويجيبه من عينه ، لا بأس يمكنك أن تدبر نفسك ، وهذا ليس بالأمر الصعب عليك . ومثل ذلك كان في دمشق انتدب للعلوم الدينية مسيحي مستترك .

إن من أدرك سر توفر الاتراك على تجهيل العرب يقيم بعض العذر للمسلمين على ما صاروا اليه من التأخر في هذه الديار . وكانوا لغباوتهم يرون من الواجب عليهم أن يسكتوا عن مساوئ الحكم العثماني ، لأن القائمين بالأمر مسلمون . وبهذه الدعوى خدر الأتراك الأعصاب وجعلوا العرب وراء الامم الراقية . على حين كان جيرانهم من النصارى يرتقون سنة عن سنة معتمدين في رقيهم على مدارسهم الطائفية ، وعلى ما تتفضل الجمعيات التبشيرية فتبعث به اليهم من المبشرين والمرسلين ، يفتحون لهم المدارس ، ويعلمونهم اللغات والعلوم ، ويعدونهم للكفاح في ميدان الحياة ، والمسلمون لشقائهم يعتصمون بدولة الخلافة ، وتغويهم كلمات الاسلام والمسلمين ، ومشايخهم ينيمون أفكارهم باسم الدين ، وهم كانوا من العوامل في تضييعه ، لسكوتهم عن الحق واقرارهم الباطل ، وأصحاب الخلافة التركية يكافؤنهم على قلة دينهم ، وينفلونهم الرواتب والرتب ، ويخلعون عليهم السيم والقصب . وكان الذين يبيعون ذممهم أيام دولة الخلافة هم بأعيانهم الذين أصبحوا يتقربون

الى من جاء بعد الترك ، يتجسسون لهؤلاء كما كانوا يتجسسون لأولئك ، ويصانعون القادمين بمثل ما كانوا يدهنون للراحلين ، ومنهم من يمدون أيديهم اليوم فيقبضون من صناديق الاستخبارات ما يسدون به نهمتهم ، ويزيدون به راتباً آخر الى رواتبهم ، ويصدعون بما يؤمرون بالدعوة إلى تفريق القلوب ، وتمزيق الامة شيعاً حتى إن منهم من قالوا وما خجلوا لكبير من ساستهم إنهم رأوه في الحلم يرتع في الجنة مع الصالحين من المؤمنين ، ومنهم من قال احمدوا الله على وجود الأجانب عندنا فان بوجودهم حفظ الدين وكان قبل أشهر ينادي بالقيام عليهم من أجل الدين .

دعوة غريبة

قال لي الشيخ أسعد الشقيري ونحن في المعسكر في سفح قاسيون أواخر الحرب العالمية . أطلعني أمس جمال باشا على كتاب ارسله اليه من الاستانة كاتبه الخاص فالح رفقي يقول له فيه إنه زار منتديات العاصمة بعد ان تغيب عنها مدة ، وتعرف إلى رجال (ترك يوردي) (ترك اوجاغى) (ترك درنكي) فرآهم على شبه الاجماع ان دخول الترك في الاسلام قد أخرهم وأخملهم ، واطمع فيهم اعداءهم : جرّدهم من شخصيتهم ، وأبعدهم من قوميتهم ، وانتزعهم من حجر حضارتهم ، وانهم لو ظلوا على عبادة الكواكب كما كان طوران ما وجد أهل الغرب اليوم سبيلاً إلى محاربة دولتهم ، الى غير ذلك من السخف . وإذا صح قول فالح رفقي فيما كان يذهب اليه الأتراك الذين رآهم فهم جماعة الاتحاديين ، ومن قال قولهم ، وتقرّب منهم وصانعهم من شبان الترك وكهولهم ، ومن هذه الزمرة خرج اناس التحقوا بالكماليين ، ومنهم الدكتور رضا نور وزير معارفهم ، فانه صرّح في كتابه تاريخ الترك ان مردّ جميع ما صار اليه الاتراك من البلاء يرجع إلى اسلامهم ، وأنهم لو لم يسلموا لكانوا ارقى مما هم عليه ، وأنهم غفلوا عن العلم فتعلمت العناصر التي كانت تحت حكمهم ، وهم لم يعلموا أبناءهم وكان على العثمانيين ألا يتركوا المجال للعناصر غير التركية ان تتعلم .

وإذا جاز هنا الاستنتاج فلنا أن نقول ان ماقام به كمال آتاتورك من القضاء على ما رأى الخير في القضاء عليه من أوضاع الترك والاسلام ، إنما قام عن رأي من كان أمامه من انصار كثار مالؤه على هذه الافكار الغريبة ، وكان هو يفكر فيها ، وهو طالب في المدرسة الحربية . فطبقها في كهولته وهو صاحب قوة . والشروع مُلزم كما يقولون ، فلما بدأ آتاتورك

بدعوته استجاب لها الطامعون في المناصب والمغانم ، والناس تبع لصاحب القوة يقلدونه في كل ما يحب ، ويسيرون على هواه ويتحببون اليه ، وربما غلوا فأعطوه أكثر مما يتقاضاهم . فأصل المسألة إذاً قديم ، وهذه الدعوة أقدم من ظهور الاتحاديين أيضاً . وقد أتم الكماليون ما بدأ به الاتحاديون من قبل ، وجهروا بالدعوة ونفذوها ، ولو عاشت دولة الاتحاديين إلى ما بعد الحرب الكبرى لدعوا إلى مثل دعوة الكماليين ، وربما زادوا واغرقوا . ذلك لأن تلك الأفكار كانت مغروسة في طبقة من الفتيان لا يعرفون عن الاسلام شيئاً يذكر ، أما عن العرب والشرق فصورة مشوّهة لم يصور الصليبيون أبشع منها .

كانت الدعاية إلى الكفر بالاسلام ، والرجوع إلى عبادة الاصنام ، والأخذ بالقومية الضيقة قومية الترك . الخالصة ، ظاهرة قبل العهد الكمالي في تركيا ، وكان توفيق فكرت من أكبر شعراء الترك المتأخرين وهو الذي تنصر بأخَرة ومات على غير الاسلام يحفز أرواح ناشئتهم ، ويدعوهم إلى التجرد من مشخصاتهم القديمة ، ومما قال وهو ما حفظه المتعلمون من الفتيان عندهم .

ساده تورکدن بر حکومت قورمز لازم کلیر
بشقه قومي يورد مزدن قوغمز لازم كلير
أسکی زماندن وار بزم بر مذهب مخصوصمز
پت پرستلکدر بدردن مذهبي موروثمز
جد مز اول جنکيز عاقلدر بزم
جد مز جد الحسينه معادلدر بزم

معناه : علينا أن نؤسس حكومة من الترك فقط
وأن نطرد الشعوب الأخرى من حِجْرِنا
نرجع إلى ما كان لنا من مذهب قديم
ورثناه عن أبينا وهو عبادة الاصنام
إن جدنا الأعظم هو العاقل جنكيز
وجدنا من عيار جد الحسين

أي أن شاعرهم دعا إلى ثلاثة أمور : أن يشيد الترك ملكهم من

أنفسهم ، ويطردوا منه كل عنصر غريب عنهم ، وأن يعودوا إلى عبادة الأصنام مذهبهم القديم المتسلسل فيهم ، وعليهم أن يفاخروا بجدهم جنكيز العاقل الحكيم ، فهو مثل جد الحسين سبط الرسول . يعني أن جنكيز الذي خرب الممالك وأتى على الحضارة ، ولم يعهد مثله فاتح سفك الدماء على وجه الدهر ، هو مثل رسول الله ، وجنكيز هو الذي وضع قانوناً سماه (اليساق) أي المحظور ، حلّل فيه المحرّم وحرّم فيه المحلل .

ولم يطبق الترك دعوة توفيق فكرت بالحرف لأنها هذيان وهراء . وكان العرب وكل من لهم صلات بالأتراك من المسلمين يعلقون آمالا كبيرة على رئيس جمهورية الترك الحالي عصمت اينونو ، لما عُرف من اعتداله وتدينه (وهو مشكوك في جنسيته) ويعتقدون أنه يعدّل بعض التعديل في دستور الترك ، حتى تنزع الفوارق من بينهم وبين جيرانهم الشرقيين ، فان قانون سويسرا صعب تنفيذه في مجتمع متأخر كالمجتمع التركي . والقوانين لا تخلق الأمم والأمم تخلق القوانين .

كانت العرب أكثر العناصر تأذياً بالدعوة التركية ، ذاك لأنهم أصحاب هذا الدين الذي شكا من انتحاله أولئك المارقون ، وأصحاب المدنية التي عاشت دولة الترك ببقاياها ، واحتقار لغة العرب وقوميتهم من النغمات القديمة وإليها أشار الشاعر الهجاء أشرف بك لما غضب أحد أدبائهم أديب بك على ما عبثت به يد المراقبة في ديوانه بقوله :

أصولدندر چيزولر هر أثردن بر طاقم يرلر

أديبم صانمه كيم سادهسنك ديواني چيزمشلر

كچن كون أنجمنده يوق إمش حيرت

بتون هيئت عربجه بر كتاب ظن أيليوب قرآني چيزمشلر

ومعناه : من الأصول أن يحذف من كل تأليف عدة أماكن

فيا أدبي لا تظن أن ديوانك فقط هو الذي حذفوا منه

حدث أن كان منذ أيام حيرت (افندي) متغيباً عن المجلس (مجلس المعارف)

فظنت الهيئة كلها القرآن كتاباً عربياً فحذفته

شؤون مع الاتحاديين

سقطت القدس أو كادت بأيدي الحلفاء ، فرأى جمال باشا أن يبادر إلى مغادرة سورية على ألا يعود . وقبل سفره ألقى خطاباً في دعوة أقامها في دار الحكومة بدمشق لأكثر من مائتي شخص ، قال فيه إن طالعه قضى عليه أن يعهد إليه انزال العقوبات بأعداء الدولة ، فكان هو الذي تولى في الاستانة قتل جماعة صالح باشا (ابن الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي ومن أصهار البيت السلطاني) كما قتل في سورية من ارتكبوا ما يعاقب عليه القانون في سبيل سلامة الدولة ، ونسي أن يذكر أنه قتل كذلك خلقاً في ولايتي اطنة وبغداد لما وليهما . وكان يستحل غالباً اهراق دم كل من يعتقد أن في قتله حياة الدولة ، ويحب كل من يسهل له ذلك . وقيل إنه سمح للضباط خلال الحرب أن يقتلوا بالقرعة للارهاب ، من يشاءون من الجند ، بدون محاكمة ولا تحقيق ، ولا أعتقد صحة هذا الخبر . وعزم مرة على قتل أحد المهندسين لأنه أمره أن ينجز طريقاً في مدة عينها هو له فما أتمه ، ولم يعف عنه إلا لكونه تركياً يافثياً ، فتوسل اليه أصحابه الأتراك أن يبقي عليه فعفا عنه بعد اللتيا والتي .

ولما غادر جمال باشا أرض الشام اعتزلت رياسة تحرير جريدة الشرق ، فبعث لي جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير أكبر القواد بعد قائد الجيش الرابع ، وكان معروفاً بحسن السيرة والناس يحبونه ، أن أعود إلى ما كنت عليه زمن جمال باشا الكبير في جريدة الشرق ، وهو يعطيني راتبي ريالات فضية لا ليرات ذهبية ، اذ نضب الذهب من خزانة الجيش ، فقلت للواسطة : ليست المسألة مسألة فضة وذهب ، المسألة أني استعبدت مرة واحدة في حياتي ، ولا أحب أن أستعبد مرة ثانية ، استعبدني جمال

باشا الكبير لانه حماني منذ وافى هذه الديار من دسائس الدساسين ، وأنا أكره الاستعباد مهما كانت صورته ، ولست كفوطة الحمام انتقل من جسم إلى جسم .

ثم تعاقدت مع بعض التجار وأخذت مبلغاً من المال اتجر به في المانيا والنمسا ، وسافرت الى الاستانة ، وزرت جمال باشا الكبير فأهل وسهل كثيراً ، وسألني عن سبب مجيئي فذكرته له فقال : وأنت تشتغل بالتجارة ؟ كان عليك يا صاحبي أن تمارسها منذ عشرين سنة ، ولو فعلت لكنت اليوم غنياً . وأوعز إليّ أن أقابل سبقي بك أحد امناء سر أنور باشا ، وكيل القائد العام ووزير الحربية ، فقابلته مرة ثم وعدني ان اقابله مرة ثانية فجئته ، وحجبني ربع ساعة فتركته وانصرفت . فسألني جمال باشا بعد ايام عما تم بيني وبين سبقي بك فقلت له : قابلته مرة ، وكان في الزورة الثانية على ما يظهر مشغولاً فما اذن لي بمقابلته ، فكلمه بالهاتف ومما سمعته يقول له إن « كرد علي » لم يخدم في سورية جمال باشا ، بل خدم الدولة العثمانية ، ومن العار ان يقول القوم هناك إننا غيرنا سياستنا . وسمعته ايضاً يعبث بسبقي ، ويرجوه متهكماً ان يقبلني للمثول بين يديه إذا جئته ، وان يتنازل فيكلمني ، فاني احسن الكلام ، وقال اشياء في مدحي اغرق فيها جداً حتى عرقت خجلاً . وكانت النية ان يعطوني شاحنة من الورق للجريدة والمجلة وسبعة آلاف ومائتي ليرة عثمانية ورقية مخصصات سنة كما كنت آخذ في جريدة الشرق ، وان اذهب واتصرف كما اشاء في سورية .

ولما سقطت دمشق هرب جمال باشا وجماعته من الاستانة ، وكان ارسل يطلبني الى مواجهته قبل سفره بثلاثة أيام ، ولم تصلني دعوته إلا بعد أن غادر الاستانة بثلاثة ايام ، وما ادركت ما كان يقصد من مقابلتي له ، وقد قال لي لما سقطت دمشق : إياك أن تعود اليها ، فان الشريف حسيناً يقتلك ، ثم لقيت جمال باشا المرسيني على الجسر في الاستانة ، فسألني عن حالي فذكرت له ما كان ينويه اخوه جمال باشا الكبير فقال : تعال نذهب معاً

إلى وزارة الحربية وانا أعرف سيفي بك فتأخذ ما وعدت به ، فاعتذرت لأني لم أر من الحق ان آخذ معونتهم بعد سقوط دولتهم .

شخص انور باشا وكيل القائد العام إلى سورية وزار الحجاز ، فقال للشيخ اسعد الشقيري في طريق المدينة ، وكان جمال باشا يرافقه في تلك الرحلة : إنه يا أسعد افندي دبرت انت وجمال باشا مسألة (كرد علي) وانقذتماه من القتل ، وما علمتما ان (كرد علي) بعد الحرب لا يكون غير (كرد علي) قبل الحرب . فأجابه الشيخ : من انا حتى آتي ما تعزوه دولتكم إليّ ، سلوا اخاكم جمال باشا عما ظهر للرجل ، وعما يعمل الآن ، فأجاب جمال باشا : لم أغض عن (كرد علي) قط ، وقد استبان لي انه كان صادقاً للدولة ، كما ثبت بأوراق القناصل ، وإذا لم يقنعك قولي فاني مرسل الآن برقية إلى الديوان العرفي في عاليه ، وعنده اضابير المتهمين بالسياسة ، ليرسل لنا إضبارته ، فتعرف إذا كان داخلاً في جمعية سرية لقلب الدولة ، او له مدخل مع إحدى الدول صاحبة المطامع في سورية او غير ذلك من الجرائم ، ولتعرف انه عرضت عليه رشاوي عظيمة من دولة غربية فأبى اخذها وفضل خدمة الدولة العثمانية ، ثم إنه اليوم يسير معنا قلباً وقالباً . فاذا كانت السياسة التي اتبعتها في سورية لا تعجبكم فأنا اعود إلى الاستانة ، وترسلون إلى هنا من ترضيكم سياسته . وعندها اورد الشيخ أسعد آية « إن الحسنات يذهبن السيئات » ، وترجمها بالتركية ، وقال إن حسنات (كرد علي) الحاضرة تمحو سيئاته الغابرة ، فقال انور باشا : يا شيخ انا امزح واعترف بحسن سياسة جمال باشا .

والغالب أن جمال باشا حاذر من شر يلحقني من صاحبه انور باشا ، فأوعز إليّ ان أكتب له رحلته إلى المدينة المنورة ، وان لم أذهب معهما ، على مثال ما كتبت رحلة الوفد السوري إلى دار الخلافة وجناق قلعة ، وبذلك استمال قلبه إليّ في الظاهر ، وكان الامير شكيب أرسلان من جماعة انور يحميه ويحبه ، وكنت انا من أخصاء جمال يحبني ويحميني ، والله أعلم

بنيات الاثنين نحونا ، وانا لا أعتقد بأن قلب أمثالهما من القلوب التي تحب ، وما حبها لنا إلا لاستخدامنا في الدعوة لهما والدولة .

أكد لي بعض العارفين أن انور باشا كان إذا اراد قتل انسان ، وقام إلى الصلاة وأتم صلاته ، ورأى ان امره لم ينفذ ، يأمر بقتل من امره بالقتل وتلكأ ، ثم بقتل الاول الذي كان قضى بقتله ، وكان في آخر أيام الحرب يعذب في سجن استانبول نحو مئة ضابط ، لأنهم قالوا إن الاستمرار على الحرب لا يورثنا إلا خسارة في الانفس والاموال ، وذلك بانواع من الارهاق لم يروا افظع منها في محكمة التفتيش الديني في العصور الوسطى . وكان انور باشا يتظاهر بالدين والعفة ، ويعمل له في مزارعه أربعة آلاف جندي في آخر سني الحرب ، والدولة في حاجة شديدة إلى الجند يومئذ ، وهذه المزارع اغتصبها من رجل رومي فيما احسب ، وصودرت منه يوم سقوطه فافتقر عياله .

واشترك انور باشا ذاك التقي النقي ، مع جمعيته جمعية الاتحاد والترقي في تجارة السكر فربحوا عشرات الملايين من الليرات ، في زمن كان فقراء المملكة العثمانية ، وكل اهلها فقراء ، يحرمون السكر اربع سنين ، وبيعت الاوقية منه عندنا بريال بمعنى أن الرطل الشامي كان يساوي ليرتين عثمانيين وربع ليرة ذهباً ، ولا أعلم أي دين هذا وأية امانة .

أما صاحبه جمال باشا فقد ذكر لي عبد الرحمن باشا اليوسف ، أنه ذهب ذات صباح يودع عقيلة جمال باشا في المحطة ، وكانت مسافرة إلى سويسرا ، فرأى أربعة جنود يرفعون إلى القطار حقائب ثقيلة ، يلهثون كلما حملوا واحدة منها . وكانت عشر حقائب ، فذهب به الظن إلى أنها ذَهَبٌ لما شاهد من ثقلها ، وقد رأينا عيال جمال باشا بعد الحرب يشكون الفقر . فهل استحال ذلك الذهب ، إن صح انه ذهب ، في مصارف المانيا ماركاً المانياً من الورق ام ماذا ؟

وكذلك كان حال بعض رجال الدولة استحلوا الاتجار بهذا الضرب من

الاحتكار في اشد اوقات الضيق التي اصيبت به الامة ، فاغتنى كثير منهم في الحرب بمثل هذه الوسائط ، وما بقي لهم ولا لذراريهم ما جمعوا . ومن الذين اغتنوا سفير فينا حسين حلمي باشا ، فانه ربح بالسكر مئات الالوف من الليرات على ما أكد العارفون ، وكان هذا الرجل من عظماء العثمانيين في عصره ، يحفظ القوانين ويحسن الكتابة الرسمية ، وكان مشهوراً بالاستقامة ، وانا ما اعتقدتها فيه ، منذ قص عليّ عبد الرحمن باشا اليوسف ان جده سعيد باشا شمدين مؤسس بيتهم كان يعطي حسين حلمي باشا راتباً مقرراً كل شهر قدره خمسون ليرة عثمانية ذهباً ، مدة مقام حسين حلمي كاتم اسرار ولاية سورية أو رئيس ديوان الانشاء (مكتوبجي) . ومن يقبض مثل هذا المال من صاحب نفوذ له كل يوم مشا كل ذات شأن مع الحكومة والاهالي يتعذر عليك أن تعده عفيفاً مستقيماً ، وإن قيل عنه أنه كان ينفق نصف راتبه ويدخر النصف الآخر خلال المناصب التي شغلها ، ولذلك اقتصد مبلغاً يعد ثروة في تلك الايام . وإذا صحّ تلوثه بتجارة السكر فتكون عفته ضرباً من العفة التي لا اعرف كيف اصفها ، فما العفة بالاغضاء عن المبلغ الحقير وأخذ الكبير ، بل بالزهد فيها على السواء . ومن جاءني يدل عليّ بهذا النوع من الاستقامة ، فأنا أفضل عليه قطاع الطريق .

الاهداء والاستهداء

وشاء ربك أن ينشأ (ي . ر .) من بيت يحب ربه أن يهدي إليه . وكان قاضياً ، ورجائي أن يكون من قضاة الجنة لا من قضاة النار . فنشأ ابنه على حب الاهداء والاستهداء ، ونسي بعد حين عادة الاهداء وأتقن عمل الاستهداء . وأهدى صاحباً ، أول نشأته ، صندوقاً من التفاح ، وادعى انه من حديقة بيته وهو لا يملك يومئذ داراً ولا عقاراً ولا مزرعـة ، ليوهم مهديه انه لم يكن استهداء ، بل هو من ماله وصلب حاله . فأجابه صديقه بالشكر جواباً داعبه فيه ، فأظهر انه ما أحب منه هذه الدعابة ، وحلف ألا يهدي غيره بعدها شيئاً . اتخذ من مداعبته بما أغضبه حجة لينقطع عن الاهداء طول العمر . وخلاصة ما كتب له صديقه : « إني أردت أن أقابلك على هـديتك ، كما جرت عادة الناس ، وتطلعت ذات اليمين وذات الشمال في الأرض التي أورثنيها أبي ، فلم أرَ غير صنفين من الحاصلات : التبن والشعير ، وهما أجدر بالتقديم إلى البغال والحمير ، وشجيرة القنب ، وهو لا يستخدم في غير الشنق والحرق ، فان كنت ترغب في استهداء شيء منها فأنا على أتم الاستعداد لأُرسل المقدار الذي يلزمك عن طيبة خاطر » .

ودار الفلك دورته ، وعُمِّلَ هذا المهدي على بعض بلاد الجزيرة ، فعرف أهلها ، أو عرَّفهم هو بنفسه أنـه يحب الاستهداء ، فأهدوه حتى كادت تستنزف هداياه وُجْدُهم ، فما هي إلا أشهر معدودة حتى صدر الأمر بنقله إلى عمالة أخرى بعيدة ، أرادت الدولة بهـذا النقل ألا يفوت سائر عمالاتها عدله وإصلاحه ، لأنه كان حيث ينزل لا يفكر في الاستهداء بقدر ما يفكر في نشر العلم وفتح المدارس وعمارة الطرق ، وإبطال الرشوة ، وإمتاع الفلاح بحقوقه ! ولما آذنت ساعة الرحيل كتب إلى صديق له ،

أن اهل تلك العمالة ـ التي قضى بين أهلها أياماً عدها من أمتع أيامه ، لانه ما خلا فيها يوماً من استهداء شيء ـ هم فقراء بالنقـد اغنياء بالماشية ، إذا احبوا ان يهدوا الموّلى عليهم هدية يهدونه مما حوت اسطبلاتهم وحظائرهم : بقراً ، حميراً ، خيلاً ، بغالاً ، خرافاً ، تيوساً ، معيزاً ، دجاجاً ، طيوراً إلى ما شاكل ذلك من الحيوانات والدواجن . وانه اجتمع له من هـذه الاصناف قطعان يتعذر عليه نقلها إلى مقره الجديد ، وليس يرى في ناحيته من يشتريها ، ويدفع له ولو ثمناً زهيداً فيها ، ولا تسمح نفسه بارجاعها إلى اهلها ، وسأل صاحبه أن يمنّ عليه برأي يخرجه من ورطته ، لينتفع بما كسبه من المـال الحلال !

وعين الله ترعى هذا الفاضل الـكامل الذي فاق كل مستهدٍ أو مرتش على اختلاف في الاسماء ، ولشدّ ما صرف وكده ، وبذل ما أوتيه من ذكاء ودهاء في اختراع طرق توصله إلى غرضه . وكانت له مزية لا تنكر عليه وربما عدها بعض أترابه ضعفاً ودناءة ، وما هي إلا تفضل وتساهل . ذلك انه ما كان يحب أن يشق على المهدي ، فان كانت المسألة تحتمل عشر ليرات قنع منه بخمس ، وإن كانت تساوي خمساً رضي منه بنصفها ، لاعتقاده ، وهو من دارسي الاقتصاد السياسي ، بأن الربح القليل من الكثير أعوَد على فاعله من الربح الكثير من القليل .

حقيقة ان خطْب الرجل سهل ونفسه متواضعة . كان مرة محافظاً في احدى العواصم فوضع ُجعلا مقرراً على كل من له علاقة به ، ليحمل إليه ولو إناء من لبن رائب وعشرين رغيفاً من الرقاق ، وطبقاً من الزبد أو القشدة ، وما شاكل ذلك من المأكول الذي يجود عندهم ، ويخرج من ارضهم ، أو تعمله ايديهم . يأتي هذا ليجعل للخبز والملح بينه وبين من يدير شؤونهم حقوقاً وواجبات ، فانظر بالله ما أطيب هذه النفس !

وكان اذا زاد ما يصرفه من هذه الأصناف عن طعامـه يبيع الفضل ويجعله نقداً في صندوقه ، وقاعدته ان الساقية الجارية خير من النهر المقطوع ،

وانه اذا اقتصر على الأخذ من المسائل الكبرى بفوته جُمَل المسائل الصغرى والعدل يتقاضاه وهو من أكبر المؤثر عليه ، أن يساوي بين الجميع في القضاء والاقتضاء . ولولا ان الله حبب إليه المقامرة في بعض الليالي ، وكان يخسر في أكثر ألعابه ، لخلف ثروة عظيمة لا يخلف نصفها عشرة من اقرانه مجتمعين . هذا مع كل هذه القناعة في الاخذ ، والضنانة في العطاء !

وارتقى هذا البطل المغوار ، وعين الله عليه ، بهذه الصفات النادرة ، واصبح له من السلطان ما يستطيع معه أن يضر وينفع في الامور الكلية ، فأغلى الجعالة والهدية ، ورفع ثمن كل قضية . واستنجد به اناس من المشتغلين بالدفاع عن حقوق الناس . كانوا اقصوا بدعوى سوء حالهم وجهلهم ، فأخذته الشفقة عليهم اكثر مما اشفق على حقوق هذه الامة ، لأن المجموع في نظره اغنى من الفرد ، فهم لذلك احق بالرعاية ، فعلمهم ساعة من علمه اللدني ، وأفاض عليهم من ادبه الكسبي ، وارجعهم على بركة الله إلى ما كانوا عليه ، وما اخذ من افرادهم ما يشق عليهم اداؤه ، بل كان مجموعه حسناً بلغ ثمانمائة دينار ، ثم انه أخــــذه على ان يؤديه كما قال الى رئيسه يتقاسمانه ، وكان هو واسطة خــير ليس غير ، ورضي أن يخدمهم لوجه الله لأنه كان دائماً يقصد بمثل هذه الخدم وجه الله ! وقد تناول ما تناول وقلبه مطمئن بالايمان ، ونفسه تحدثه ، والله أعلم بالسرائر ، بأن ما أتاه كان رحمة بهم وبالقضاء ، وفي عمله إحقاق للحق ونصرة للعدل .

ومن عجب امر هذا الرجل المولع بالاستهداء أنه نوّع الاساليب في اخذها ، وما ترك فرصة تفلت من بين يديه ، وكل ما يساوم عليه تكون عقباه الانتفاع بشيء يأخذه على سبيل الذكرى لتواضعه ، ومن تواضعه انه لا يجوز كسر خاطر احد يقدم اليه شيئاً مهما قلّ ، فاعجب لهذه النفس الترابية التي لا تعرف الزهو والكبرياء .

وهو إلى هذا يحب أن يظهر بالعلم ، وأن يشتهر بالأدب ، وليس أشق عليه من رؤية أحــد يتفرد دونه بشهرة ، او تكتب له مــكانة في أندية

العلماء ، ويرى ان تفوقه في هذا الباب لا يكون إلا باسقاط ارباب هذا الشأن ليخلو له الجو ، ويستأثر بالصيت الحميـد دونهم . وكان يسره ألا يذكر احد بمحمدة ، ويدعو إلى الاعتدال في تقريظ الممدوحين ، حتى يكون الناس كأسنان المشط في الاستواء . وهو إذا كان يحب الاقتصاد حتى من اموال مهديه ، فكيف لا يحب الاقتصاد في مدح من يعدهم منافسيه .

وما ادري اين تعلم مكارم الاخلاق افي مجالس الذكر عند اخوانه اهل طريقته الدينية ، أم مع اخوانه في الماسونية الذين ارتقى الى اعلى درجات رتبهم ، وبرّز أيّ تبريز في محافلهم . ومن مزاياه ان كل مفعول جائز ، وأن للمرء أن يعمل كل ما يريد ، لا يصده عن سبيله صاحب قوة ، ولا مصطلح من عادة وخلق ، وانه إذا جاز سرقة مال الغير فمن أيسر الأشياء أن يسرق أفكار الغير ، ويغير على ألقابه فينتحلها غير خجل ولا وجل .

وعلى كثرة معرفته نسي ان المرء لا يأخذ اكثر من جرمه ، وأن من واجب العاقل ان يقف حيث وضعته الفطرة ، وان من نجح في ناحية يستحيل عليه أن ينجح في جميع النواحي ، وانه إذا تعلم فرعاً من فروع المعارف البشرية ، بطول الزمن وكثرة التمرين ، يتعذر عليه ان يتعلم مثلاً علم الأخلاق ويعلمه ، وصياد الدينار غير صيـاد العلم ، وحب الدنيا لايجتمع في قلب امرىء مع حب الآخرة ومن الصعب الجمع بين طرفين متباعدين ، والاحتيال على سلب الناس ثم النفاق عليهم بالأخلاق الفاضلة .

مسكينة هذه الأمة بليتها بالجهلاء كبليتها بالمتعلمين ، ومصيبتها بالمعممين « المتجببين » كمصيبتها « بالمطربشين » « المتبنطلين » . وربما كانت البلية بالمتعلمين أقطع لأن المتعلم يعرف كيف يضر ويؤذي ، وكيف يهدي ويستهدي ، وكم في الخلائق من إذا تأملت فيهم يعجبك ظاهر حالهم ، وإذا خبرتهم تدّقمس نفسك ، تراهم على حسن سمت وجميل وقار ، وتستمع من أفواههم ألفـاظ

المروءة والشرف والصون فاذا فحصت نفسيتهم فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

وتكرم بعض المعلمين والمديرين فعاملوني كما عاملوا أكثر اسلافي وأخلافي بالهدايا يقدمونها ، وكنت اردها اليهم ناصحاً لهم ألا يعودوا إلى اتيان مالا يليق صدوره من طبقتهم ، ومنهم من كنت ادفع اجرة عن هديته حتى أعيدها اليه . ومن اجمل ما رأيت من ضروب الاهداء هدية أحد التجار ، زار المجمع العلمي العربي واعطاه اعانة دفعتها للآذنين يشترون بها بذلا صيفية ، وما جاء الشتاء حتى رأيته يرسل إليَّ صندوقاً من سمك بحيرة الريحانية ، وكان هو ضامناً لها ، فرأيت بعد التردد الكثير قبولها والمقابلة عليها ، وماذا أرسل بدلها ، وليس عندي تفاح ولا دراق ، فقام في نفسي ان اهديه بدل هذه الالطاف كتباً ورسائل ، وأحببت ان تكون من الجنس الذي يتيسر له الاستفادة منه ، ويتسلى به آونة فراغه . وكانت هدية السمك تتكرر مرتين او ثلاث مرات في كل شتاء ، ودام الضمان ثلاث سنين ، فكنت في المرات الأخيرة في حرج من قلة الظفر بكتب تروق صاحبي وتنفعه ، وخفت أن تنفد من حوانيت الوراقين في مصر والشام . ولما انتهت مدة الضمان هنأته وهنأت نفسي ، وحمدت الله على النجاة من هدايا السمك اللذيذ ، وإرسال كتب تلذ مطالعتها في مقابلها . وسألت صاحبي إذا كان ربح من الاسماك فقال إنه خسر ، وعين مقدار الخسارة ، فقلت له : أصلحك الله . وقع العجز في ربع ضمانك لكثرة ما أهديت من هذا السمك الذي تلذذ به عشرات من اصحابك ، أتقنت فن الاهداء ، ولم تتعلم كصاحبي ذاك فن الاستهداء ، فكان شأنك ما رأيت .

إن كان يقلُّ في الامم المصلحون ، فان في امتنا يكثر المفسدون ، وإذا كانت هناك اختراعات تنفع الامم وتنشل الدول ، فان هنا اختراعات تضر بالجماعة وتدك معالم الممالك . وما عهدنا عندنا مخترعاً اخترع ماينفع ، ولدينا عشرات يخترعون في الشر فقط ، يفسدون ولا يصلحون .

وهذا الرجل طلب صداقتي وأنا لا أعرفه (ي . ر) وخدمني على العهد التركي خدمة أنقذني بها من معضلة ، وبت أرقب الأيام لأكافئه على جميله ، وسعيت لما حانت الفرصة باسناد منصب كبير اليه ، تولاه وهو لا يصدق أنه بلغه . وكان غاية ماعرفت عنه يومئذ أنه يحسن عمله ، لا يأتي ما يؤاخذ عليه ، متوسط الذكاء ، وفي طبقة الموظفين كثيرون مثله .

وما تربع في الدست حتى حدثته نفسه أن السعادة اقبلت ، وان من لا يغنم الفرص يضيع الحزم ، فشمر عن ساعد الجد ، إلى اقصى حد ، ورجع إلى فطرته ، فأظهر ما كان يكتمه من مذهبه ، وتجلت فيه عادة الاستهداء ، فأخذ بالكبير والصغير ، فكان له فيه اختراعات ومكتشفات ، واطرح كلمة خذ ، وأتقن كلمة هات . وساعده ديوانه أن كان متشعب الجنبات ، كثير الاموال جم الصادرات والواردات ، وكونه عارفاً بصناعته تخرج فيها من البزوة كما يقول الترك ، وأتقنها قبل ان يبلغ الحلم بحكم الضرورة . وعرف بمرور السنين مداخلها ومخارجها ، كما عرف أهلها كبيرهم وصغيرهم . أما معلوماته فما زادت عن معلومات المدرسة الابتدائية ، وكان يصطنع الرزانة ويتعمد الوقار ، ويسكت في المجالس ، ويبسم كأنه يفهم ما يلقى فيها ، وهو بعض منسياته ، على حين لا يمتاز عن العامة بمعلوماته ، إلا انه يتقن عملية الجمع والطرح والضرب والقسمة .

وزعمت لك أنه أتقن فن الاستهداء ، وله فيه مخترعات ومبتدعات ، أما الاهداء فما عرفه ، اللهم إلا ما كان من ورائه رد عادية غريب عنه ، او الاستشفاع إلى رجل له يد باسطة في تأخير أموره وتقديمها ، أو له سيطرة عليه من بعيد أو قريب ، وأحبَّ أن يقوى في ذاته فلم ير خيراً من الاعتصام بجمعية سرية . فاتخذها مجناً يتترس وراءه ، فيدرأ به عن نفسه العوادي ، وأخلص في خدمتها حتى وصل إلى أرقى درجاتها ، ونال أعظم مراتبها وأوسمتها ، واقترح يوماً على صاحبه أن يدخل في جمعيته فتوسد إليه

الوزارة بعد أربعة أيام ، فقال له : إنه ما تولى منصباً باستظهاره بجمعية ولا بجماعة ، وأولى له ثم أولى ألا يكون شيئاً من أن يدخل في شيء لا يريده للوصول الى شيء قد يريده وقد لا يريده . وأحب أيضاً ألا يخليه من معاونته فتوسط له باعطائه مبلغاً من المال باسم صحيفة له يشرف عليها ، والمترجم له لا يحسن الاهداء إلا إذا كان من مال غيره ، وفي سبيل تلويث سمعة من لم يتلوثوا ، من باب ودت الزانية لو كان كل النساء زانيات .

وأزيدك أن الرجل ما عرف معنى للصداقة طول عمره ، ولا عطف على بائس عائل ، ذلك لأن قلبه ما أحب إلا معبوداً واحداً هو المال . ومن قواعده أن ما دخل عليه من النقد لا يخرج من صندوقه إلا الى المصارف والمخابئ في داره ، ويرى انه لا يناسب منزلته أن يبتاع شيئاً من السوق فيأتيه بكل ما يحتاج إليه أولئك الذين قضت الأقدار عليهم أن يصبحوا تحت يده ، يصرّفهم ويتصرف بأمورهم .

ومن اختراعاته في الاستهداء أنه إذا جاء لاستلام منصب جديد يرسل منشوراً إلى من هم تحت إشرافه من العمال في الارجاء يقول فيه إن بيته يحتاج في سنته إلى ست صفائح من السمن ، ويرجو ان ترسل إليه مصحوبة بقائمة ثمنها : فيأتيه السمن هدية من كل مكان ، حتى تغص داره بما ضمت من الصفائح وتمسي بسمنها أغنى مما يملك منه تاجر كبير .

هـذا إلى ما يطلبه من كل مأمور من الحاجات الاخرى ، وهو على رأس كل سنة وفي الأيام الاولى من كل موسم يجدد طلب السمن ، ويطلب الصفائح منه ، ومرءوسوه يبيضون صحائفهم معه بأن يدرّوا عليه كل ما يطلب وما لا يطلب من حنطة وخراف وأوز ودجاج وطيور وأسماك وزبت وعسل وبيض وفاكهة وبقول . فان فاض ما عنده منه عن حاجته ، وحاجته منه قليلة جداً ، اتجر بما اختزنه ولا يعرضه في السوق على أيدي سماسرة بررة إلا عند ارتفاع الأسعار ، والخوف على الفقير من الجوع . فيبيعه نكاية بالخائفين من التجار والمضاربين !

رأيت بهذا انه وضع جعلا على كل واحد له به شبه اتصال ، ومهر في استخراج الهدايا وتطبيق أساليب الاستهداء مهارة زائدة ، وهو أبداً يجد ولا يتوانى في الاستخراج ، والجد ينبض الماء من الحجارة . والكتمان منه وممن يعطيه أصل النجاح في هذا الباب ، وكل سر جاوز الاثنين شاع . وله مع من كانت يده كزّة لا تندي بشيء اسلوب منتج للاهداء : يبدأ بتهديده تهديداً خفيفاً . كأن يقول انه مقصر في عمله ، او ان المستشار تكررت على مسامعه الشكوى من تقصيره ، وقلة معرفته ، وجهله بوظيفته ، وانه حاول هو رد هذه الشكاوى ، وهو يجهد ليقيه العزل او النقل ، فيهرول المهدد البائس من ساعته ويدفع له هدية من الورق او الورق او من تلك الاصناف التي تمون بيت صاحبه طول السنة ، فيستغرق ما يعطيه إياه راتبه اشهراً ، ويضطر المسكين الى الرجوع على ارباب المصالح ليسد عجز ميزانيته الخاصة ، بما حوته جيوبهم وغرّمه إياه رئيسه الجليل .

وصاحبي هذا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويمارس من اركان الاسلام ما لا يكلفه مالاً ، يصلي ويصوم ، اما الزكاة والحج فلا ، ويعتقد الى هذا بنعيم الآخرة الا انه يفضل عليه نعيم الدنيا . ولدوام هذا النعيم تراه يضن بالدانق لا يبذره كيف اتفق . وما وصل الى سمعي انه دعا احداً الى طعامه ، ويفضل ابداً ان يتناول من طعام غيره ، وكيف يعمل حتى تتكرر له المآدب ، ولا ينقطع سندها عنه ولو في الاسبوع مرة او مرتين ؟ ولبلوغ ذلك هداه ذكاؤه الى اختراع كان من جملة ما سجل من اختراعاته . ولما كان يستطيب طعام الناس اكثر من طعام بيته رأى ان يعوّد مرءوسيه الكرم فأنشأ يدربهم عليه ، ويستطعمهم بأن يقول لأحدهم : إن اهل بيتك يا هـذا يجيدون طهي الصنف الفلاني . ومن الغد يطبخ له فيدعى إليه او يحمل إلى داره مع أطباق اخرى لذيذة يقدّرون انه يستطيبها . ويقول لآخر :

بلغني ان الصنف الفلاني من الطعام يحسن حريمك تحضيره . وأنت يا فلان « ممن كان الحجاب بينه وبينه مكشوفاً بعض الشيء » متى تدعونا الى دارك ثانية ، فقد طال العهد بآخر أكلة اصبناها من طعامك الشهي . ومنهم من يكلفهم أن يخرجوا به إلى الحدائق والمتنزهات أيام العطلة مع ثلة ممن اعتاد قبول دعوتهم ، فيجشم الداعي نفقات تدخل الضيم على وفره ، إلى غير ذلك من ضروب التطفيل والتدجيل .

اللصوص يسرقون على الاكثر في الليل من يحاولون سرقته ، وهـذا يسرق ليله ونهاره ، وقريحته لا تفتأ تملي عليه اختراعات في هذا الباب . وهو لا يبالي بما يقول فيه مستخدموه في سرهم من التغالي في هذه الدناءات ويلعنونه في قلوبهم .

وما انتهت مهمة هذا العامل الجهبذ حتى كان قد استرهن من العقارات والمجوهرات الشيء الكثير ، ووظف امواله في أعمال رابحة ، وكثرت صفقاته المالية حتى كادت تعادل بتنوعها وتفرعها أعمال مصرف من مصارف الرهونات . وفي خزانته الخاصة من الاحجار الكريمة المرهونة التي يصعب فك رهنها ما لا تجد له مثيلاً إلا في قصور الملوك . اغتنم شدة عوز الناس فاستثمر أمواله بالربا الفاحش واحتال على الذهاب بالأصل المرتهن ، وهو كلما زاد الراهن عجزاً عن الاداء في الميعاد أقدم على ضبط عقاره وحليه .

وسألت بعض العارفين عمن أخذ هذا المحتال دروسه الأولى فقال إنه أخذ عن أستاذ له كان أعظم لصوص عصره ومصره . كان هذا قابضاً سنين طويلة بيد من حديد على ادارة فيها كل أسباب الاستهداء وأخـذ الاموال ، وكان مخترعاً أيضاً إلا أن اختراعاته محدودة مجتزيء بضروب قليلة منها ، يتربح بها كثيراً ، وما وفق لما طلب إلا بمشاركته لرؤسائه في المغانم وتهيئته لهم كل ما فيه مباهج حياتهم . وبينا كان الموظفون لا يتناولون في الدور الحميدي رواتبهم القليلة بصورة مطردة ، وبينا كان أرامل المتقاعدين

ويتاماهم لا يأخذون ما يتبلغون به كانت تسول له نفسه أن يقتطع من رواتبهم مقداراً معيناً يعرفه الصيارف . وإذا كان في نساء المتقاعدين ذات الجمال يشفع لها حسنها فيعف عن راتبها ولا يعف عن عرضها . ومات وخلف ثروة كبيرة ما جمع مثلها أعظم الخائنين ، وقد أنفق في حياته وأسرف في انفاقه ، وعاش عيش الملوك ، وارتكب كل محرم ، واحتقب كل اثم .

هذا الاستاذ البارع خلف ذاك التلميذ الأبرع ، وما مات من خلّف ، وكلاهما لم يترك ذكوراً يذكرونه بالرحمة ، وخلف مئات ممن سلبهم نعمتهم يجأرون إلى السماء ، في كل صباح ومساء ، ألا يبارك الله له فيما أخذ واقتطع ، وأكل وبلع . وكانت عاقبة الأول تبديد كل ما جمع ، وستكون مثلها عاقبة الثاني ان شاء الله .

غاياتي من سياحاتي

زرت أوربا أربع مرات (في سنة ١٩٠٩ و ١٩١٣ و ١٩٢١ و ١٩٢٨) وكانت الغاية من رحلاتي تجديد ما رثّ من قواي ، وترويض الجسم ، وتسلية الروح ، والتعرف إلى مدنية الغرب ، ودرسها في أرضها درساً عملياً ، بعد صرف جانب من الوقت في درس النظريات . وما كنت أدخل بلدة قبل أن اطالع في وصفها كتاباً أو كتباً ، حتى أتلذذ بما اشاهده ، وأستفيد من زيارتها استفادة حقيقية .

زرت فرنسا وانكلترا وايطاليا والمانيا وسويسرا والنمسا والمجر والصرب والبلغار واليونان والبلجيك وهولاندة واسبانيا ، ومنها ما زرته أكثر من مرة مثل انكلترا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا ، وأخذت فكراً إجمالياً عن أوصافها وشؤونها وعاداتها ومميزاتها . والاشتغال بموضوع خصائص الشعوب رياضة ذهنية إذا قيس بالنصب الذي يلقاه من ينصرف إلى الأعمال العلمية الجافة ، ويصرف ساعات عمره في تحليل المركبات .

كنت في فرنسا وفي الجزء الفرنسي من بلجيكا وسويسرا كأنني في أرضي وداري ، بين معارفي وأحبابي ، وذلك لمكان اللغة ، أما في سائر الممالك فقد كنت شبه متطفل عليها ، أدرس حالتها في الكتب ، وأستعين بالتراجمة وبأصحابي الشرقيين والمستشرقين على النفوذ إلى روح تلك الشعوب ، عرفت الاولى مباشرة وعرفت الاخرى بالواسطة . وشتان بين ما حققته بنفسك حتى استسغته وتمثلته ، وبين ما حققه لك غيرك ورويته عنه . وما أدركت سر هذه الحضارة الغربية في الجملة ، ولا تذوقتها بعض تذوق إلا في ربوع سويسرا . والغالب أن البحث في الأمر الصغير المنظم أسهل من درس الكبير المنتشر . أدركت ذلك في رحلتي الثانية ، وفي الرحلة الاولى لم

أعثر في فرنسا ، على معرفتي بتاريخها وأدبها ، على ما أتلقف به حضارتهم ، وإن كتبت في مدنيتها كتاباً ونشرته .

استعنت على التقصي والبحث بما كنت أبذل من دراهم قليلة ، قد يضن بها بعض أرباب الرحلات ، فكنت أستميل قلوب التراجمة بدعوتهم إلى تناول الطعام معي في بعض الوجبات ، فآخذ عنهم ما يسوغ استخدامه من المعلومات ، ومنها ما كان يجلي أمامي شيئاً من حقائق تلك الامم ، وأتغابى عما يعود على التراجمة من فائدة مادية . فقد يقترحون عليّ زيارة بعض الأماكن وشراء بعض الأشياء من محل كذا ، وأنا عارف بأن ليس لي من وراء ذلك كبير أمر ، وأعرف أن الترجمان يأخذ قسطاً مما انفق .

قال لي ترجمان في مدينة قرطبة من أرض الاندلس ، وقد صرفت في تلك المدينة الجميلة بضعة أيام : إنني احترف هذه الحرفة حرفة الترجمة في هذا البلد منذ أربع عشرة سنة ، رافقت خلالها مئات من أجناس البشر ، ومنهم عرب من شمالي إفريقية ، ومن بلادكم مصر وما وراءها ، فما دعاني واحد منهم إلى تناول طعامه ولا قهوته ولا شرابه قط ، كما فعلت أنت ، وكنت تحرص طول المدة التي قضيتها هنا ألا افارقك ليل نهار ، تريد أن تواكلني حتى في فطور الصباح ، عجبت من صدور هذا منك ، على حين يظهر من حالك أنك لست غنياً ، فما السرّ في كرمك هذا الذي استغربته ، فأجبته : السرّ في ذلك أن أهل بلادنا اعتادوا أن يأكل الصديق عند صديقه ، وقد تأصلت فينا هذه العادة على الأيام ، ومنا اليوم من إذا لم يكن في بيته من يواكله يقف على بابه يتسقط رجلاً يدعوه إلى مشاركته في طعامه . فتعجب من هذه العادة ، وما عرف أني أقصد بدعوته أولاً أن ازيل عني وحشة الغربة ، وأن أستفيد منه أشياء لا تعرفها الكتب ، وأني أقع ، بانفاقي زيادة طفيفة على نفقاتي المقررة ، على فوائد يصعب تلقفها بغير هذه الصورة ، وهي في نظري لا تقدر بثمن لأني احب سماع كل غريب .

كثيراً ما كان يعذلني بعض أصحابي على استغنائي عن مرافقة احد في

رحلاتي ، والواقع أني ممن يصعب عليهم أن يقيدوا أنفسهم ويقيدوا غيرهم ، وما دمت في مهمة أريد القيام بأعبائها أولا وبالذات من الصعب ان يتيسر لي استصحاب من يوافقني على تحقيق مآربي كلها . وأكثر من يرحلون منا إلى الغرب تكون رحلاتهم للتجارة أو للنزهة . وهذان الصنفان من أرباب الرحلات لا يوافقاني على ما أريد الدخول فيه . فالتاجر لا يهمه أن يجتمع إلى عالم مشهور ، ويسمع كلامه ويحمل فوائده ، ولا أن يدرس مخطوطاً عربياً في خزانة كتب ، ولا أن يبحث عن الاسفار النادرة ، بقدر ما يهمه أن يقابل اصحاب المعامل ، ويقضي ساعات مع وكيله وعميله ، وكذلك الذاهب لغرض السياحة والنزهة ، لا يهتم إلا للاطلاع على ماتحمله المدنية الغربية من المباهج . وهمّ التاجر الاقتصاد في النفقة ، والمتنزه يهون عليه التوسع فيها ، ومثلي قد يؤثر التوسط في ذلك . ومن المتعذر الجمع بين المطالب المتباينة . على أني كنت في معظم البلدان ولا سيما في الرحلتين الاخيرتين أتمنى لو كان معي رفيق من لحمي ودمي أفزع اليه فيؤنسني ، وأبوح اليه بذات صدري ، فيسري عني همي ، ونتنادر ونتضاحك ، ولكن كنت أقول إن كل ما في الترافق من محاسن يزول ساعة يتخالف المتصاحبان ، ويعتقد أحدهما ان صديقه يعتدي على حقوقه ، ويستأثر بالوقت او بالنفقة دونه ، ويجحف به ولا يعرف له قدره .

اكثر ما كنت ارتاح اليه مقابلة علماء المشرقيات ، فانهم لقربهم من منازعنا ، ومعرفتهم بعاداتنا ، ووقوفهم على غابرنا وحاضرنا ، اقرب الينا من معظم من في الغرب من اهل المدارك ، وبهم كنت اتعرف إلى سائر الطبقات ، فهم بلا جدال همزة الوصل بين الشرق والغرب . ويبالغ المستشرقون باكرامك في بلادهم إذا توقعوا منك بعض الفائدة لهم او لامتهم ، لدن عودتك إلى وطنك ، ومنهم من يدعوك إلى داره مع فقره الظاهر ، وذلك لمعرفته العادات الشرقية . اما هم فقد وقفوا علمهم قبل كل شيء على خدمة دولهم .

دعاني احـد المستشرقين في باريز على غير معرفة قديمة به ، فعجبت لهذه الدعوة وسألت احد اصدقائي ممن لهم اتصال بالداعي عن سر دعوتنا فلم يعرف ، وحضني على الحضور . وكانت الدعوة جامعة اسباب السرور ، وفيها اكثر من اثني عشر مدعواً ومدعوة ، وانصرفنا في ساعة متأخرة من الليل شاكرين لحفاوة الداعي ، ولطف من دعا من الاوانس والعقائل. وما إن عدت إلى دمشق حتى تناولت كتاباً ضخماً من طريق رسمي ومعه اضبارة كبيرة ، كأنها مسودات كتاب ، وإذا بصاحبي صاحب الدعوة المجهول سرها ، يدعوني ان اكتب له معلوماتي عن القباب في سورية ومن رقد تحتها من الأولياء والقديسين ، فوضعت مقترحه في إحـدى جلسات المجمع العلمي فقال بعضهم : إن هذا الموضوع يحتاج إلى درس خمس سنين ، وقال آخر : إنه يحتاج إلى خمسة اشخاص ، يدرسون ويبحثون خمس سنين ، وقال آخر غير ذلك . واستقر الرأي على ان هذا البحث ليس من اعمال المجمع ، وعمله لا يتعدى اللغة والادب . وعنـد ذلك فهمت سر تلك الدعوة ، وزال عجبي ممن حاول باطعامي وجبة من طعامه ان اضع له تأليفاً يضع اسمـه الشريف عليه . وبديهي ان الكتاب الذي يتطلبه لا يكتب في خزانة الكتب ، ولا في مكتب مؤلفه ، بل يحتاج إلى التنقل في ارجاء سورية ليدرس قبة قبة ، ومنها ما يتعذر الوصول اليه ، ولا تسل عما يحتاج ذلك من اوقات ونفقات ، والكرم الحاتمي الذي ظهر من صاحبنا المستشرق هذا يعد من التجارات الرابحة التي تربح مثلها عشرة آلاف .

وفي الحق إن ما لقيته من كرم إخواني علماء المشرقيات في انكلترا وهولاندا وألمانيا واسبانيا وفرنسا وغيرها صادر عن عاطفة شريفة وليس فيه ما يؤخذ عليهم . وللكرم عند الغربيين كسائر عاداتهم اصول وحدود ، فلا تتوقعن ممن لا تعرفه ، وليس بينك وبينه حقوق سابقة أن يكرمك ، ولا تستغربن إذا زرت احداً ولم يقدم لك فنجان قهوة ولا كأس شاي ولا كوباً من المرطبات فان ذلك لا يقدم لك إلا إذا دعاك صاحب الدار ، وعندئذ

يحتفل بك كثيراً إذ يكون على استعداد للقائك . وإذا دُعيت يجب عليك أن تجيب بالايجاب أو تعتذر إذا كنت تريد التخلف . وإذا أكلت طعام الدعوة وجب عليك أن تزور أصحابها بعد أيام لتشكرهم . وإذا دعيت إلى تناول كأس من الشاي كان عليك أن تكتب بالقبول أو الرفض ، والشكر والحمد على كل حال . والخلاصة فان لكل شيء في الغرب قيمة وقاعدة ، وياويل من لا يعرفها . وعليك أن تلاحظ أن للوقت في أوربا ثمناً غالياً أكثر من بلاد الشرق ، فاذا أعطاك الغربي من وقته ساعة فكأنما أعطاك الشرقي عشر ساعات .

اشتغلت في خزانة الامير ليوني كايتاني في رومية شهراً كاملاً (سنة ١٩١٣) ولما أنجزت عملي قدمت له بضع مجلدات من مجلة المقتبس هدية ، واستأذنته بالسفر إلى سويسرا ، وشكرت له فضله على قبولي للبحث في خزانته العظيمة ، فقال لي وهو مرتبك : ولِمَ هذه السرعة في سفرك ؟ أرجىء هذا لأيام أخر ، فقلت له : قد ضاق صدري في رومية من عدم فهم اللغة الايطالية ، وإن كان الخاصة كلهم يكلمونني بالفرنسية وكذلك في النزل فان الكلام فيه بالفرنسية أيضاً على المائدة ، لأن نزلاءه من أجناس مختلفين من أهل الأرض ، ومع هذا فأنا مستوحش وأريد أن أسمع كلام الشعب ، ولا يتيسر لي ذلك إلا في سويسرا الفرنسية ، وفيها أنوي أن استريح شهراً ، وهذا غير ميسور لي هنا ، وأنا من الصعب عليَّ أن أتعلم لغة في برهة قصيرة ، مع سهولة تعلم الايطالية على من يحسن الفرنسية . وربما كان سبب ارتباك الأمير لما استأذنته كونه ذكر حالاً أنه لم يدعني إلى داره ، ولا عرَّفني إلى أهل بيته ولا إلى أصحابه ، وقد قضيت معه ثلاثين يوماً ، وأيقن أن هذا مناف للعُرف ، وهو يعرف حفاوة الشرقيين بالغربيين في بلادهم . وقد كتب لي إلى سويسرا يدعوني ثانية أن أعود لانجاز عملي ، ويقول إن وجودي عنده يحدث له سروراً عظيماً . وقال لي احد أصحابي الايطاليين إن الأمير ذكرني في احد كتبه بخير . ولما نشروا

قائمة خزانته التي أهداها لمجمع لنشاي العلمي في رومية قدموا لها المقالة التي كتبتها في الأمير بالعربية وترجموها إلى الايطالية .

كان الامير خلال مقامي عنده مشغول الفكر أكثر الايام بانتخابات مجلس النواب . سألني نائب (رافنا) في جنوبي ايطاليا ، وكان نازلاً معي في منزلي ، عما أعمل في رومية ، فقلت له : إني أبحث عن مواد تاريخية حفظت في خزانة الامير كايتاني صورها الشمسية ، فعجب لمعرفتي به ، ولاحتواء خزانته على هذه المجموعة ، وقال لي ابلغه سلامي ، وذكر لي اشارة يعرفها الامير وقعت في المجلس النيابي ، ثم قال : إن الامير اليوم يحاول ان يعاد انتخابه في هذه الدورة نائباً في مجلس النواب ، وما إخاله ينجح ، فهو منكم ويغار عليكم ، اي أن عواطفه مع الشرق والعرب . وقال : إنه خطب في مجلس النواب وذكر ان ما اقدمت عليه ايطاليا في الاستيلاء على طرابلس وبرقة لا يليق بامة كانت مبعث النهضة في العالم ، وأن الاعتداء على شعب آمن مطمئن في أرضه بلا مسوغ شرعي أشبه بعمل قرصان بحرٍ منه بعمل دولة شريفة . قال : وما اكتفى بذلك بل كتب في الصحف الايطالية والأجنبية يقبح عمل الحكومة ، فما اظنه يفلح في الانتخابات هذه المرة ، وكان الامر كما قال . أخفق السيد كايتاني مع انه أنفق في هذه السبيل عشرين الف جنيه ذهباً ، وأنفق منافسه خمسة وثلاثين الف جنيه فاحرز الأكثرية وتغلب عليه .

ولقد شهدت الامير مدة الانتخابات يتغيب عن مكتبه في الصباح ساعة أو ساعتين ، وكان من قبل يواصل النهار وزُلَفاً من الليل في عمله ، فسألت أحد أمناء سره السنيور جويدي الصغير (ميكل انجلو) عما يشغل بال الأمير هذه الأيام فقال : مسألة تجديد انتخابه عضواً فى مجلس النواب ، فقلت له : قل له أرجو ألا ينجح في الانتخابات ، فان عند ايطاليا مئات يصلحون للنيابة عن امتهم ، وليس عندها غير واحد من عيار كايتاني في علم المشرقيات ، والنيابة لا تشرفه كما تشرفه تآليفه واعماله العلمية ، والأجدر

به ان ينصرف إلى ما اشتهر به . وقال لي جويدي بعد أيام : لقد استجيبت دعوتك ، إن الأمير لم ينجح في الانتخابات .

كان الأمير ينفق في السنة على العلم فقط عشرة آلاف جنيه ، وكان غنياً جداً يقدرون ثروته يومئذ بمئة مليون لير أو بخمسة ملايين جنيه ايطالي ذهباً عدا ثروة زوجته . وهذه الثروة الضخمة تبخرت كلها بعد الحرب الكبرى بفعل الايام التي لا تبقي سعيداً في سعادته ولا شقياً في شقائه ، تخفض العالي وتعلي من سفل .

قلت إن الامير كايتاني وهب خزانة كتبه لأحد مجامع ايطاليا العلمية ، وقد رأيت أحد علماء المشرقيات في اسبانيا الاستاذ ريبرا عزّ عليه ان تتفرق كتبه بعد وفاته ، فأوصى بها لتلميذه الاب آسين بلاسيوس ، على أن يشتغل بها طول حياته ، ويفتح بابها لطلاب الاستشراق ، ثم يتركها لمن يرى فيه الكفاءة للاستعانة بها بعده . فان لم يظفر به يجعلها في أحد دور الكتب العامة في اسبانيا . وفي هذه الخزانة جزازات السيد ريبرا في تراجم ثلاثين الف عالم من علماء العرب وأدبائهم في الأندلس . وهي من الاعمال العظيمة في خدمة المدنية الاسلامية ، وتاريخ المسلمين في الاندلس خاصة .

وباهداء العلماء مجموعاتهم في الغرب إلى دور الكتب العامة اغتنت خزائنهم ، فتجاوزت في الامم الكبرى أعداد الكتب في خزائن عواصمهم البضعة الملايين . وللخزائن الكبرى والصغرى قوائم وسجلات تستطيع أن تجد فيها ما تميل للكشف عنه في دقائق قليلة ، وأكثرها من حيث الانتفاع بالسرعة العجيبة خزائن المانيا فيما رأيت . والألمان مشهورون بتدقيقهم ، ومعرفة استخراج الفوائد ، والانتفاع من كل مادة الانتفاع المطلوب ، وعلماؤهم من أكثر الامم اشتغالاً ودؤوباً ، وصفهم بذلك مدام دي ستال الأديبة الفرنسية العظيمة في كتابها (المانيا) وقالت إن علماء شمالي المانيا — في القرن الماضي — يشتغلون ست عشرة ساعة في اليوم . وكنت في أكسفورد في مؤتمر المستشرقين (١٩٢٨) أسمع المنادي ينادي مستشرقي كل أمة لمقابلة

نائب الملك ، فلما نادى جرمانيا جاء نحو ثلاثين مستشرقاً ، وكنت أسامر صديقي العلامة ثران الفرنسي فقال لي وقد هاله ما رأى من انحناء قاماتهم : أرأيت انحناء ظهورهم إنه ليس من طول السنين بل هو من كثرة الاشتغال .

رأيت روح الجماعة والاجتماع ترفرف على كل شيء في الغرب ، لذلك تمّ لبعض الأمم الفقيرة بالقليل الذي جمعته واحسنت استخدامه اعمال يستحيل على الأفراد ان ينجزوها ، ضاهت بها ما تم في الممالك الكبرى . قلت لترجماني في لندرا : اجتهد أن نتناول طعام الظهر وطعام المساء كل مرة في مطعم جديد حتى نرى مختلف المطاعم والترتيبات فيها . وبعد يومين قلت له : كأنك نسيت أن تنوع لي المطاعم ؟ وأراك لم تصحبني إلا الى مطعم واحد فقال : إنا لم ندخل إلى مطعم دخلناه من قبل ، فقلت : وهل انشئت المطاعم التي دخلناها كلها على طراز واحد . قال نعم ، هذه شركة رأس مالها ثلاثون مليون جنيه أسست في لندرا سبعين مطعماً كلها من طراز واحد وذات ثلاث طبقات ، فعجبت لهذه المشاريع الضخمة التي تنم عن غنى القوم وثقة بعضهم ببعض .

أجمل ما كان يطربني في اوربا بلاد الريف ونشاط الفلاحين فيها ، وما فيها من عناية ظاهرة وما هناك من غابات وحقول ومزارع ومباقل ليس لنا مثلها في الشرق . وأكثر الاصقاع الاوربية لا فرق فيها بين المدن والقرى إلا اسبانية ، فان الفرق فيها ظاهر بين الريف والمدن ، والغالب ان اسبانيا كمصر اكتفت ببذل العناية بالمدن وغفلت عن القرى ، فجاء الفرق واضحاً بين المدنيين والريفيين . العصور الوسطى جار حكمها إلى اليوم في مصر وأسبانيا وكذلك القرن العشرون بما فيه من رفاهية .

ظاهرة غريبة تمثل لعينيك في بلاد الانكليز وهي انك تدفع الحلوان (البخشيش) في المطاعم والفنادق لا إلى يد من تريد اكرامه من الخدمة والخادمات ، بل تجعله تحت طبق الأكل فيجيء الخادم او الخادمة الموكل بذاك الخوان يلتقطه في سرّ بعد ذهابك ، وهو يرفع الأطباق والصحاف

والكؤوس المستعملة . وإذا دفعت حلواناً لأحد غلمان الفندق او اعطيت الحمال او الحوذي او اياً كان من اصحاب هذه الحرف دراهم لا ينظر فيها ويضعها في جيبه ولا يزيدك على كلمة شكر ، وانت بالطبع تعرف واجبك فتعطيه ما يجب ان يعطى . وفي المانيا ينادون غلام القهوة او المطعم او الحانة بيا سيدي الخادم (هراوفا) مبالغة في الاحترام كما يبالغ الانكليزي فيختم كتابه بقوله « عبدك الخاضع » وقد يكون في كتابه ما فيه .

اما في فرنسا فقد يهينك غلام المطعم او غيره من ارباب هذه الحرف إذا استقلَّ ما اديته له ، وقد يساومك على المقدار الذي يستطيع ان يستخلصه من جيبك . وليس في طول فرنسا وعرضها شيءٌ يقضى بغير هبة ، واهل هذه الطبقة لا رواتب لهم في المحال التي يعملون فيها كالفنادق والمطاعم والمقاهي والحانات ، وربما قاسمهم من يستخدمونهم ارباحهم ، ويزيد ما ينفق في هذه السبيل عشرة في المئة . وانت لا تأمن سماع كلام قاس ، إلا إذا كنت في مطعم او فندق يزيد على القائمة نفقة الخدمة عشرة في المئة فيريح قلبك . وكثيراً ما كنت ادفع الحلوان سلفاً في البواخر والفنادق حتى انصح وعند مغادرتي المحل ادفع ايضاً ما تيسر . ورأيت البلدان الانكليزية السكسونية في هذا المعنى اقرب إلى المعقول من الممالك اللاتينية .

ومن القواعد الشاقة في الفنادق الكبرى والبواخر الفنية أنك تضطر الى أن تلبس في الظهر كسوة غير كسوة العشاء مراعياً فيها قواعد الأزياء الرسمية . وهذا التشدد على اتمه في بريطانيا وفي بواخرها . ويتشددون كذلك في جميع السهرات والمجتمعات . ومن دور التمثيل كالاوبرا في باريز ما اذا كانت كسوتك لا تناسب مصطلحهم وأنت في الدرجة الاولى ، يخرجونك من محلك ، ولو كنت حاصلاً على تذكرة دخولك من قبل ، واذا جئتهم بكسوة عادية تطلب مكاناً رفيعاً يأبون عليك ذلك ولا يدخلونك . والحاصل فان تشدد الاوربيين في الرسميات مما يصعب على الشرقي الخضوع له وتطبيق برامجه المعقدة . والشرقي الذي عاش في الفوضى مضطر في الغرب الى ان ينفق جزءاً من وقته ليساير الأزياء .

والحشمة في الظاهر غالبة في بريطانيا العظمى والحكومة لا تعترف رسمياً بوجود أماكن الفحش، والحرية في الديار اللاتينية أوسع ويباح كل محرم إذا بعد عن الانظار بحسب ما رسمته القوانين. الانكليزي يتستر ويبالغ في التستر أكثر من غيره من الأمم والحياء يغلب عليه، وقد يفتح اللاتيني معك حديثاً إذا ابتسمت له وكلمته، وربما مازحك وتوسع معك في القول، وربما مازحك وسخر منك . . وهذا لا تراه في الأرض الانكليزية، وإن كانت الدعابة تغلب عليهم كما تغلب على سائر اجناس البشر.

لكل امة في الغرب مصطلح، قد تخالف فيه جارتها تخالفاً لا يدرك مداه إلا الذي يطيل المقام بينهم، وللحرارة والبرودة، والبعد من سمت الشمال والقرب من الجنوب دخل كبير في تكوين الرجال والنساء، فالشابة في بلاد الانكليز لا تبلغ الحلم قبل الثامنة عشرة على حين ترى في جنوبي إيطاليا جدة لا تتجاوز سنها الخامسة والعشرين، ولا يختلف الهواء بين جنوبي جزائر بريطانيا وشمالها، والمسافة لا تقل عن ثمانمائة كيلومتر. ورأيت شمالي فرنسا والمانيا وايطاليا أرقى من جنوبها، وجنوب اسبانيا أرقى من شمالها. وشاهدت البلاد البرتستانتية أرقى من الاصقاع الكاثوليكية، كما هو ماثل للعيان في سويسرا، وأيقنت أن الامم الأوربية كلها لا تعرف الشرق والاسلام والعرب معرفة حقيقية، وقد استأثر بهذه المعرفة علماء المشرقيات في كل امة وقليل ما هم.

علماء المشرقيات والاسلام

أشرت في الفصل السابق إلى أثر بعض علماء المشرقيات من أهل الغرب في التقريب بين الشرق والغرب . وكنت كلما مدحتهم أمام جماعتنا ، يتأففون من سماع كلامي ، لأنهم من الصنف الذي لا يعمل ، ولا يحب أن يعترف لأحد بأنه يعمل . وقد رأيت أن أنشر هنا مقالتين في هذا الباب كنت نشرتهما في جريدة (البلاغ) المصرية [1] قلت :

بدأ علماء المشرقيات بطبع كتب العرب والاسلام يوم اخترعت الطباعة في الغرب خلال القرن السادس عشر من الميلاد ، وما زالوا يبالغون بالعناية فيما يطبعون ، ويقربون مناله على الباحثين بما يعارضون عليه الكتب من النسخ ، ويحلونها به من الفهارس ، وقد طبعوا من هذا التراث العظيم إلى الآن ما تتألف منه خزانة عظيمة في مختلف العلوم والفنون ولولا عنايتهم لبقيت أمهات كثيرة من كتب السلف مهملة لا ينتفع بها ، ولعميت علينا أسرار عظيمة من كنوز مدنيتنا .

أما الشرق الاسلامي فلم يشرع بطبع كتبه إلا بعد قرنين ، من هذا التاريخ . وقلما جوّد الطبع ، وعني بالتصحيح والتعليق ، ووضع الفهرستات ، ذلك لأن معظم من عانوا هذه الصناعة صناعة الطبع والنشر كان قصدهم الربح لا الخدمة العلمية ، خلافاً لعلماء المشرقيات من الغربيين ، فانهم يتوخون بطبع كتبنا الفائدة العلمية قبل كل شيء .

---

(١) راجع بحثنا المطول (أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية) في المجلد السابع من مجلة المجمع العلمي العربي .

كنا على عروبتنا نخلط ونرتكب الفاحش من الأغلاط ، وكانوا على عجمتهم يجيدون ويجودون ، وما خلونا مع ذلك من دعوى عريضة ، وظلوا هم على تواضعهم ، يزيدون ما ينشرون تجويداً الحقبة بعد الحقبة . وجمدنا فلم نتقدم إلا قليلاً .

في مصر اليوم اكثر من مائتي مطبعة ، وفيها ألوف من الدارسين والعالمين ، ومصر تبيع مطبوعاتها من العالم الاسلامي ، ومع هذا ما زلنا نتوقع عناية علماء المشرقيات بنشر ما حوت خزائن الشرق والغرب من أسفارنا ، ننتظر ما ينشرون ، ولا تحفزنا الهمة إلى تناول ما تناولوا وتقليدهم فيه ، وهم الغرباء عن هذا اللسان ، والدخلاء على هذه المدنية . ولو قدر فقط لعلماء الأزهر ودار العلوم منذ خمسين سنة أن يختص كل واحد منهم بنشر شيء من مخلفات علماء الاسلام لما بقيت الوف منها ، لو طبعت لغيرت من طرق تفكيرنا ، وأجزلت مادتنا من البحث والنظر .

نحن لو رزقنا جانباً من همم المستشرقين ودؤوبهم ما احمرت وجوهنا خجلاً عند ارادة التنظير بين ما يفعل الغريب بمال غيره ، وما يفعل القريب بمجده وتراثه . وفي الحق إن من شهد بروح الاخلاص بما قمنا به في هذه السبيل ، وقابله بما تم على أيدي اولئك الأعاجم ، لا يسعه إلا أن يبالغ في الثناء على ما بذلوه من خدمة العلوم والآداب ، فأحيوا ما كان مدفوناً ، وعرفونا بما كان عندنا مجهولا ، فخدمونا بالعرض وخدموا العلم بالذات ، جزاهم الله عنه خيراً .

أمامي الآن مجموعة من أمهات كتبنا القديمة في الدين والتاريخ واللغة ، نشرها مؤخراً ثلاثة من علماء المشرقيات من الألمان . الأول كتاب (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) لأبي الحسن الأشعري جامع مذهب أهل السنة ، نشره في مجلدين العلامة ريتر وهو اليوم ينشر (الوافي بالوفيات) للصفدي . ونشر العلامة برتزل كتاب (التيسير) في القراءات السبع و(المقنع) في رسم مصاحف الأمصار وكلاهما للداني المتوفى ٤٤٤ وقد تم

في مصر طبع كتاب (طبقات القراء) لابن الجزري في مجلدين وكان بدأ بطبعه العلامة برجسترازر ، فلما مات أتم تلميذه ما بدأ به الاستاذ .

ونشر العلامة كرينكو (جمهرة اللغة) لابن دريد في ثلاثة مجلدات مع فهرسته في مجلد ضخم ، و (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) لابن حَجَر العسقلاني في اربعة مجلدات ، وكتاب (التيجان) لوهب بن منبه ، و (أخبار عبيد بن شَرْيَة) و (حماسة ابن الشجري) ويطبع ويصحح كتاب اعراب ثلاثين سورة لابن خالويه والمجلدات الثلاثة الأخيرة من (التاريخ المنتظم) لابن الجوزي وطبع معجم الشعراء للمرزباني و (المؤتلف والمختلف) للآمدي وكتاب (نحاة البصرة) للسيرافي وكتاب (الجماهر في معرفة الجواهر) لابي الريحان البيروني إلى غير ذلك مما يطبعه من كتبنا في الهند ومصر والشام والجزائر . وهو يحذق العربية ، تعلمها كالفارسية والهندية بدون استاذ ، عدا ما يعرفه من لغات اوربا ، فكأن هذا الكامل العامل مجمع علمي برأسه .

هذا مثال من عناية الغربيين بالعلوم الاسلامية ، وتفانيهم في نشر أصولها وفروعها ، ولو اردنا ان نمثل لذلك بامثلة أخرى ما عزّ على الباحث ايجادها ، فهل بلغنا مساماة أولئك الجهابذة الأعلام ، أو وصلنا إلى نصفهم أو ربعهم ؟ ونحن اصحاب البيت زهدنا فيه وبما فيه ، فانتقل إلى من حرص على بقائه والانتفاع بما حواه ، فنظمه على أحسن نظام وترتيب ، ووقاه العوادي والبوائق .

عنيت أمم اوربا بلغتنا حتى فنلندا والسويد والنروج ، وبذلت جهوداً غير قليلة لنشر آدابنا وعلومنا ، ونحن متناومون عما نسمع ونرى ، كأن الامر لا يعنينا . ولئن كان لنا بعض العذر في الماضي لتخلفنا في ميدان الثقافة ، فما عذرنا اليوم وقد تمثلنا كثيراً من طرائق القوم وأساليبهم ، وجاريناهم في كثير من مظاهرهم ، ولكننا على ما يظهر لم نحسن تقليدهم في تسلسل افكارهم ونشاطهم ، ورعايتهم للنظام ، وولوعهم بالترتيب . وقصارى الرجل منا أن يوسع عليه في الرزق فاذا نال ما تطمع فيه نفسه فكأنه حاز السعادتين .

قال لي أمس عظيم من عظماء مصر « إن الطلبة الذين خرجهم محمد علي في مدارس الغرب قد انتجوا انتاجاً نافعاً للعلم ، مع أنه ما كان يدرّ عليهم في اليوم غير ثلاثة قروش ، اختارهم من النابهين من طلبة الازهر اذ ذاك ، وأدار شؤونهم وهم في باريز ومصر ادارة عسكرية فأفلحوا وافادوا . وأن الأزهر لما كان العالم فيه يتبلغ براتب لا يتجاوز في الشهر ثلاث جنيهات أو أربعة او خمسة كان يفيد المسلمين اكثر من العهد الذي زيدت فيه الرواتب حتى أصبح الاستاذ يتقاضى ثلاثين جنيهاً او اربعين او خمسين ، وان المدرّس بهذه التوسعة عليه انصرفت همته إلى رفاهيته ، وكانت من قبل مصروفة إلى الافادة والاستفادة » .

في هذا القول كثير من الحق لا يسع المنصف إلا اقراره . وسر هذا الوناء استحكام داء التوظف في الدينيين والدنياويين ، سرى إلى من وكل الله اليهم أمر دينه وخدمة شريعته ، وكان المأمول أن تبعد بهم مواهبهم الكسبية واللدنية إلى مدى أرفع من المنافسة على المناصب ، والطمع في تسلق المراتب ، وأن يجعلوا لهم غاية نافعة غير المادة يتوجهون اليها بعقولهم وقلوبهم ، وكان بعض الطلبة من العرب اليوم ، على استمتاعهم بحرياتهم والتوسعة عليهم في ادراراتهم ، لا يطمعون في غير احراز شهاداتهم ، حتى اذا حازوها كان التوظف في دواوين الحكومة ومقاصير القضاء أقصى ما تطمع فيه نفوسهم ، لاعتقادهم أن الموظف يعيش آمناً مطمئناً في حياته ومماته ، فاذا تم لهم ما أرادوا لووا وجوههم عن المقاصد العالية ، وما لهم ولها بل ما لها ولهم ، وهم قد بلغوا ما تطالوا اليه من رفيع الدرجات .

كلما قلنا لأساتذتنا الدينيين والمدنيين إن علماء الغرب ممن يخدمون العلم أجل خدمة هم من طبقة الفقراء المفلوكين ، قالوا ونحن أيضاً صماليك مفاليس ليس لنا مال يساعدنا على اتمام امر ، ولا حكومات تعطف على ما نتوفر على اخراجه ، ولا جمعيات منظمة تضم شملنا وترعانا ، كلام من يقر على نفسه بالعجز المطلق ، وحجاج من ماتت فيهم الهمم فاعتذروا عن

كسلهم وتقصيرهم اعتذاراً لا يؤيده الحق . هـذا ونهضة الغرب ما قامت لأول عهدها إلا بأيدي ابنائه لا بأيدي حكوماته ، وأبناؤه هم الذين أكرهوا ساداتهم وكبراءهم على السير في طريق سعادتهم ، فانشأ الافراد الصالحون الحكومات الصالحة .

أظننا لم نشهد رجلاً جود شيئاً ولم يظفر بمن يعاونه على تحقيقه . وشهدنا من قعدت بهم الهمة عن اتمام عمل جدي ينتظرون أن تضمن لهم منه الماديات من أول يوم ومن يعتقد منا أن كل عالم أو أديب أو مخترع أو مكتشف في الغرب ينال كل رعاية منذ اليوم الذي يتكوّن فيه عمله تكوُّن الجنين في بطن امـه ، وأنهم كلهم من أصحاب الالوف وعشرات الالوف فهو مغالط لنفسه ولامته . فما كل حرفة في الغرب تغني صاحبها ، ولولا الغرام بالمعنويات كحسن الذكر والاثر ، وعظيم الاجر والفخر ، ما قام دين ولا صلحت دنيا . ولولا هذه العوامل ما بهرتنا هذه المدنية الحديثة وغزتنا بكل ما فيها من قوة وابداع ، ونحن عما يصلح لنا منها غافلون .

لولا تفضيل المعنويات على كل أمر ما قام علماء الاسلام في الدهر الغابر بما عقمت الايام عن تحقيق عشر معشاره اليوم على أيدي من خلفوهم . وقرأنا سيرة أئمة المسلمين فما رأينا الموسع عليه منهم غير أفراد في كل عصر ، وأيقنا أن الاصل في جماعتهم الفقر . وهذا لم يمنع العاملين منهم من الضرب بسهم وافر في كل ماعانوه من أدب وعلم .

ليت شعري ما ذا أصاب هـذه الامة ، وهواؤها هواؤها ، وسماؤها سماؤها ، وأرضها مازالت تلك الارض التي سار على أديمها الآباء والجدود ، ونحن نرى اليوم أدوات العلم والعمل موفورة ، والعلماء غير مقتر عليهم كما كانوا في سالف الاعصر ، يستمتعون بحريتهم ، والعبر تأبهم تترى فيعتذرون عن القصور والاتكال بما لا يقبله المنطق ولا يقره العقل .

ألفنا أن نتوقع كل خير من الحكومات تضمن لنا مقدماته ونتائجه . ومن هي الحكومات حتى نعتصم بها ونجعلها معقد آمالنا في كل شيء ؟ للحكومات

فروض غير التي نتطلبها منها ، إن هي أحسنت القيام عليها فليس من الانصاف أن نتقاضاها غيرها . الحكومات لا يتطلب منها غير احقاق الحق ، والقاء السلام ، وضمان حريات الناس ، وما عدا ذلك فهي ان لم تر من مصلحتها التنشيط فلا يسمها التثبيط .

الحكومات منا ولنا ، فهل سمعتم بحكومة قام فيها عقلاء من بنيها ، وتذرعوا للقيام بمشروع مفيد فحالت بقوتها دون انبعاثه ؟ هل حاربت حكومة أولئك الافذاذ من رجالنا لما أجمعوا على تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية العروة الوثقى وبنك مصر ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومشروع القرش وغير ذلك من المشاريع العلمية والاقتصادية والصناعية ، أم شهدناها تأخذ بأيدي القائمين عليها ، وتفاخر بهم لما أثمرت جهودهم .

لا أحد يضمن لأحد في هذا الكون نجاحه ، وما وقف مشروع قط إلا بضعف في تراكيبه ، وخور في عزيمة القائم به ، وليس في مقدور أحد أن يشغل مكان غيره ، يستصفيه هيناً ليناً ، ويتصدر فيه من دون صاحبه إن لم تؤهله له نفسه ، والعاقل العاقل يشق أبداً بذاته طريق نجاحه ، ولا يعتمد على غير جهده وكده ؛

انظروا قليلاً في سيرة نوابغ مصر لعهدنا هل ترونهم توقفوا في أول أمرهم على احد ، أم ذللوا بأنفسهم لأنفسهم ما اعترض سبيلهم من العقبات ، وراحوا ينسجون بأيديهم أسلاك مجدهم ، وينشؤون بدؤوبهم صرح سعادتهم ، حتى إذا تمت ادوات الفضل فيهم ، صفقت لهم أمتهم وهللت ، ومضت تمشي وراءهم طائفة مختارة .

قل للعالم الازهري ، إن ما يتطلبه منك دينك ومجتمعك كثير ، وعليك وحدك تبعة عملك . وقل للعالم المدني إن اكتفاءك بأخذ المناصب وتوقع الترقية في مصالح الحكومة صنيع من سقطت هممهم ، وأمتك ترجو منك أكثر مما تقوم به ، وقل لمن يتعلمون ، لو تعلمتم العلم للعلم ، وآمنتم أن العلم يقصد لنفعه ولذته ، وقمتم بواجبكم من دون جلبة ، لحمل اليكم علمكم شيئاً من الماديات

أيضاً . أما أنتم فكونوا على مثل اليقين أنكم مضمون لكم العيش إن عَلِمْتم وَعلّمْتم وعَمِلتم ، ونشطتم وما ونيتم ولا تهاملتم .

قل للدينيين كم من كتاب تشرتم فحللتم به غامضاً ، وجلوتم بمضامينه حقيقة قل لهم إن العلم النظري وحده ، وحفظ الدساتير جميعاً ، لا يغنيان الغناء المطلوب إن لم يقرنا بالعمل المنتج .

قال أحدهم لشيخ الاسلام ابن تيمية إن فلاناً حفظ صحيح البخاري فأجابه : زادت نسخة اخرى في البلد . ومن الحكمة أن لا نزيد عدد النسخ من البخاري بل أن نستخرج منه ما ننتفع به وننفع .

وقل للمدنيين لو فكر كل واحد منكم في موضوعه حق التفكير ، وخدم صنعته ما وسعته الخدمة ، ونشر للناس تحقيقاته ومبتدعاته ، لأصبحت الخزانة العربية في جيل واحد غنية بمطالبكم وأبحاثكم ودراساتكم ، واستغنى قومنا في الآداب والفنون عن الكتب الاجنبية .

داء الشرق الاتكال ، وداء الشرق قلة الاحتفال بالكفاءات الموجودة ، وداء الشرق إهمال التنظيم وعصيان القانون ، وداء الشرق قلة الدؤوب والملل من الاتقان . فهل تصح نياتنا على معالجة هذه الأدواء لنستوي امة رشيدة يكون لها الحق في الحياة على اختلاف مظاهرها ، وهل نتعلم أن البكاء لا يجدي ، وأن التمجد بالباطل لا ينتج ، وان العظمة الحقيقية بممارسة العمل .

مع مواطنينا

كان المستخدمون من النصارى في الحكومة على العهد العثماني قليلاً عددهم في الشام ، فلما خرجت من حكم العثمانيين أخذوا يتقلدون اعمال القضاء والادارة والمعارف والامن العام والاشغال وغير ذلك . وكان منهم وزراء العدل في بعض السنين ، ووزير العدل يعين قضاة الشرع ! وقد كثر اليوم عددهم في الدواوين بالنسبة لنفوسهم ، يدخلون منها الصالح وغير الصالح ، وقد يغض الطرف عن السارق المرتشي منهم أكثر مما يغض عمن كان مثله من المسلمين ، ويتسامح مع من تقل مؤهلاتهم في التعيين ، على مالا يجد مثله غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى .

ألفت الحكومة في الحرب الأخيرة مجلساً للميرة فكان رؤساؤه ومرؤوسوه من النصارى ، فزار احد الظرفاء مكاتبه في دار الحكومة ، فلما وقع نظره على المستخدمين قال هذه بيعة للنصارى لا ينقصها إلا ناقوس . وقال أحد المفكرين من رجال السياسة لأحد أرباب السلطة العليا أن تسعة وتسعين وثلاثة أرباع ممن ينتج الحنطة في سورية هم من أهل الاسلام أفما كان من الانصاف أن تنصبوا عضواً واحداً منهم في مجلس الميرة مع مواطنيهم النصارى ، وذلك نزولا على اعتبارات ما زلتم أنتم تراعونها ؟ وقد جرت عادة كبار النصارى إذا وسد اليهم أمر من أمور الحكم ألا يصطنعوا غير أبناء مذهبهم ، يستكثرون من استخدامهم في مختلف درجات الأعمال ولا يعينون المسلم إلا كارهين . قال أحد أعيان الكاثوليك وهو يمدح بعض رجال الانتداب ومنهم كبار الضباط وأنا أوافقه على حديثه ولكن هنالك عشرات من المستخدمين منا ينفق الواحد منهم خمسة أضعاف راتبه ومنهم الذين يكتبون تراجم الناس في جزازات ، فهؤلاء ليس من مصلحتهم أن يدلوا على أرباب الشرف

والنزاهة وسمى أناساً من تجار المسلمين من أهل الخير والمروءة .

والغالب أن دولتي الانتداب في الشام لم تريا من مصلحتها إلا الاعتماد على غير المسلمين في الادارة فقد قيل لي ان احصاء الموظفين في فلسطين هكذا : ٦٠ في المئة من المسيحيين (وهم لا يتجاوزون مئة وخمسين ألفاً) و ٣٠ من المسلمين و ١٠ من اليهود وأما حكومتا الانتداب في سورية ولبنان فما اعتمدت إلا على المسيحيين في الترجمة وأغرقت الدوائر بسوادهم في لبنان وإلى اليوم تحاول اغراق دواوين الشام بهم .

وحدث مرة أن جاء ضابط افرنسي يستلم قلعة دمشق ، فاستلم معها السجناء ، وعرضت عليه قوائم بأسماء المحبوسين بمسائل سرقات واختلاسات ، فسأل عنهم ، فأجيب هؤلاء المفلسون وأكلة أموال الدولة . فقال : أف ما أقل الأمانة في هذه الدولة ، وعرّض بالمسلمين ، فقال له كاتب جريدة الأسماء : ولكن يا سيدي ان معظم الموقوفين غير مسلمين ، فبهت الضابط وقال : هذا يؤيد ما كان يقال لنا في أوربا من أن أخلاق المسلمين في الشام أرق من أخلاق غيرهم من الطوائف .

وبعد فان انصراف المتعلمين من النصارى في سورية ولبنان وفلسطين إلى التوظف مبدأ فقرهم ، وان ارتاشوا بحسب ما يظهر الآن . وقد كانوا في متاجرهم وصناعاتهم أسعد حالاً ، والموظف مهما كانت درجته لا يخرج عن كونه عبداً بأجر زهيد يفنى في غيره ، وتضمحل ارادته ويموت فقيراً معدماً ، الا من نهب وسلب .

كان المسيحيون يتعلمون الفرنسية لتعاطي التجارة والصناعات الحرة ، فلما كان الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان كانت الفرنسية لهم أداة التوظف في مختلف الدوائر ، على نحو ما أصبحت الانكليزية في فلسطين . كتب إليّ الاستاذ فارس الخوري من حيفا أول الاحتلال الانكليزي يقول : « اللسان الرسمي في هذا الأقليم هو لسان الدولة المحتلة ، ولذلك أصبح لا يليق بالوظائف الا من كان عارفاً بهذا اللسان ، فاقتحمها غلمان المدارس

وتراجمة السياح ، واحتلوا القسم الأعظم منها ، وناهيك بخبرتهم وتجربتهم وأخلاقهم دليلاً على مجرى الادارة والعقل الذي يرافق الأعمال » . ومثل هذا يقال في بعض من تعلموا الفرنسية واستخدمتهم حكومة الانتداب في لبنان وسورية .

يحاول النصارى في هذه الديار أن يكونوا ، كما كان المسلمون فيها على العهد التركي ، لا ارتباط لهم إلا بالدولة القائمة ، وكان من الثقة التي وضعتها فيهم حكومتا الانتداب أن اغتنوا بعض الشيء فتوفروا على تعليم أولادهم ، وبنوا القصور ، وعمروا المزارع هذا ما كان من حالهم ومعايشهم ، أما إذا وقع حدث عظيم فانهم ينحازون ابداً إلى الفريق الذي فيه أهل دينهم ، وإذا جاء دور المغانم تقدموا فأخذوا حصصهم ، وقد يطلبون زيادة على حقهم ، يدعى المسلمون إلى الكريهة وهم يدعون إلى السعادة ، وانهم لمهرة فيما ينفعهم واتقاء ما يضرهم ، ولا شك أنهم سبقوا المسلمين إلى التعلم والتمدن ومنهم كثير من أهل الفضل والعقل الراجح ، وقل مع هذا أن رأينا من قام يناصر المسلمين في مطالبهم الوطنية اللهم الا أفراداً يعدون على الأصابع ويتحركون في دائرة معينة لا يغامرون البتة ، فاذا زال الخطر تقدموا أول المتقدمين يطالبون بحقوقهم المغصوبة ، ولم نر في الثورتين الفلسطينية والسورية منهم سوى أفراد قلائل جداً اشتركوا فيها بالفعل ، وتولى المسلمون كُبْرَ الثورتين وقتلوا بالمئات والألوف .

في اليوم الذي انهزمت فيه فرنسا أمام ألمانيا في النصف الأول من شهر حزيران سنه ١٩٤٠ نسيت الطوائف البابوية وفي مقدمتهم الموارنة أفضال فرنسا عليها منذ اجيال وراح بعض رجال الدين منهم يفاوضون ايطاليا لتكون القيمة عليهم ، فدهش الفرنسيون لهذا التبدل الفجائي يأتيه من حموهم وعدّوهم حزبهم الصادق في الديار الشامية . أرادوا أن يبدلوا السيد الكاثوليكي بسيد كاثوليكي آخر . عجب الفرنسيون لهذا وزاد عجبهم ان رأوا المسلمين على اختلاف طوائفهم يشاطرونهم مصابهم ويخففون من

آلامهم وشهدوا أناساً كانوا بالظاهر من المنحرفين عنهم ، وربما كانوا من المضطهدين منهم ، يجيئونهم يوم محنتهم ويواسونهم ويأسفون لما حل بأمتهم . وقد ادرك بعض المنتدبين أنهم كانوا مخطئين في حكمهم على المسلمين وأنهم باعتمادهم في الأخبار على التراجمة أضلوا الصواب وكانوا على غير هدى منذ ملأوا الوظائف بغير الكفاة من غير المسلمين ولا سيما في المعارف والجمارك والبريد والامن العام حتى لقد حاول بعض الأغمار منهم أن يستأثروا بالوظائف في دواوين كثيرة ليجعلوها كدواوين المالية في مصر وقفاً على الأقباط .

رأيت علائق النصارى مع اخوانهم المسلمين منذ نحو خمسين سنة اقرب إلى الاخاء والصفاء من اليوم ، فان توهم بعضهم أنه صار لهم عزة وقوة حرك فيهم نزغات غريبة ما كانت تظهر من قبل ، كتب غوستاف لبون الفيلسوف إلى احد رجال الاسلام يعتذر بأن التربية التي بلقنها الكاثوليك خاصة لا يتأتى منها الا ان تخرج أناسا يكرهون المسلمين . وإذا كان بعض أهل الذمة يذكرون شيئاً من العبث بحقوقهم على العهد العثماني ، فليس هذا من قانون الاسلام ولا من صنع المسلمين أبناء هذه الديار ، بل هو ممن كانوا يحكمون ولا رادّ لحكمهم أهل السياسة يومئذ ، فهم الذين كانوا يسوقون الرعاع لامتهان بعض الطوائف أحياناً ، ويزينون لبعض اذنابهم أن يعملوا على التفرقة بين أبناء الأمة الواحد . وعهدي بالنصارى والمسلمين في القرى يتحابون ويتساندون كأنهم أبناء بيت واحد ، أكثر من هذا العهد الذي قد ينظر المواطن فيه إلى مواطنه شزراً ، ويحتقره في باطنه على ما يضر بمصلحة الطائفتين .

لما اعوز القوت في لبنان أيام الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٩) منح جمال باشا قائد الجيش الرابع مقادير وافرة من الحنطة حملت إلى الجبل من الارجاء المجاورة ، فما كان من بعض المطارنة والاعيان هناك الا أن اتفقوا على اخذ نصف القمح واتجروا به لحسابهم ، وخلط النصف الآخر

بالتراب ، فأكل الفقراء منه وهلكوا . وكان ذلك بمرأى من بطريرك الموارنة يومئذ . وأشاعوا أن القائد تعمد اجاعة الجبل ليهلك أهله لأن أكثرهم نصارى ، ولو نفذ البطريرك تعاليم دينه لما انتظر اعانة من أحد ولباع بعض أملاك الكرسي البطريركي وصرفها في اطعام أبناء الطائفة ، وأملاكه تستغرق ربع لبنان ، وبذلك كان يتيسر له أن ينجد قومه زمن العسرة ، ولو كانت الرحمة وجدت طريقاً إلى قلبه لحذا على الاقل حذو الجامعة الاميركية في بيروت فان رئيسها السيد دودج لما نفد ما عنده من المال زمن الحرب ، وتعذر عليه جلب شيء من اميركا لاطعام الفقراء ، رهن أملاك الجامعة واستلف مالاً اطعم به البائسين والمعوزين حتى عقدت الهدنة ، وكأن الرئيس الاميركي فهم من النصرانية مالم يفهمه منها البطريرك العربي . !

وكان بعض الملتزمين للجيش من أهل لبنان يجوزون مزج الدقيق بالرمال والرماد فانكشف أمرهم ، وحكمت عليهم الدواوين العرفية باحكام مختلفة ، وعملهم هذا لا يرضى به الاسلام ولا تقول به النصرانية . وبعض النصارى هنا على الاغلب تجار وللتجارة خلقوا فاذا صار لهم شيء من الامر عملوا فيه باخلاق التجار لا يستهدفون غير الربح ويعرفون كيف تصل ايديهم اليه .

كانت الطوائف الاسلامية كالشيعة والنصيرية والاسماعيلية والدروز اخوان الكثرة الكاثرة من أهل السنة في الشام ، وكانوا يرضون بكل ما يعطونه من حقوق ، فلما جاء الغريب انتفضوا كما انتفض العصفور بلله القطر ، وقاموا يطالبون بحقهم المزعوم ويذكرون حوادث افرادية وقعت في الدهر الغابر ، ويقع مثلها بين أبناء الأب الواحد ، ولا يفتأون يرددون نغمة الأحقاد القديمة ، وود أصغرهم عدداً لو أسس دولة برأسها ، وأن يجعل كياناً خاصاً لبضعة الوف . وأعظم ما يعبث بعقولهم الجهل وقلة الحساب للمستقبل ، ويعرف العقلاء منهم حق المعرفة أن نار الأكثرية أحسن في العقبى من جنة غيرهم .

من غريب أمر الطوائف في المنشأ ان الكاثوليكي يبغض الارثوذكسي أكثر مما

يبغض المسلم ، ويعتقد كفره وهلاكه ، فاذا كان للباباوي مصلحة ينحاز إلى الارثوذكسي ويترك المسلم . ورأيت المسيحيين لا يتبايعون على الأغلب إلا مع أبناء دينهم ، ولا يستخدمون إلا أبناء طوائفهم ، وهذه الخلة المضرة راسخة في الأرمن أكثر من غيرهم ، ولو عاملهم المسلمون هذه المعاملة المضحكة ، وقاطعوهم مدة لماتوا جوعاً ، واضطروا بعد حين إلى الهجرة ، ولكن سماحة الاسلام أكثر مما يصور لهم بعض قسيسيهم الذين سمعت أن من مواعظهم لابناء طوائفهم أن المسلم إذا كان مسكاً يجب على المسيحي ألا يضعه في عبه . وأرجو أن يكون هذا الكلام غير صحيح .

وعهدي بالمسلم في مدينة دمشق يوصي مسيحياً بأولاده بعده ، وكذلك المسيحي مع مواطنه المسلم . وأعرف جماعة من النصارى وجل أصدقائهم من المسلمين ، وهم كأبناء أسرة واحدة ، وأعرف مسلمين لا يألفون إلا المسيحيين ولا يتعاملون إلا معهم . وما ينتقد على المسلمين وعلى المسيحيين فهو أثر عصور الظلمات ، خلقته الحكومات ونمته وغذته ، ثم جاءت مدارس المبشرين فأذكت نار التباغض . وكان الروم الارثوكس يميلون إلى سياسة اسلامية ، وقال لي أحد مندوبي فرنسا في دمشق : إن الروم الأرثوذكس لا يسيرون إلا معكم فهم منكم فقلت له : لنا الشرف بذلك .

وأختم هذا الفصل بقصة مضحكة وقعت لي مع رجل من المنتسبين للأدب ومن أعضاء المجمع العلمي العربي . ذلك أني تغيبت مدة في أوربا بعض السنين ، ولما عدت رأيته قد قرّظ كتاب مختصر تاريخ سورية للأب لامنس اليسوعي ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، وبالغ في الثناء عليه ، وأنا أعرف من هو لامنس وما يكتب ، وما رأيه في الاسلام والعرب . فطلبت الكتاب فرأيته لم تشق أوراق صفحاته ، فقلت للمقرظ الزميل هل تعرف الفرنسية ؟ قال : لا . قلت : كيف تقرّظ كتاباً كتب بالفرنسية في مجلة جليلة الشأن كمجلة المجمع العلمي ، على حين لم تقرأ الكتاب ، ولا تحسن هذه اللغة ، ولا ترجم لك مترجم ما يحويه . فكان جوابه : أليس الأب

لامنس مشهوراً بتأليفه وعلمه ، فكتابه من الطراز الذي يصدر منه ؟ .

وقرأت كتاب لامنس فكانت تعروني هزات ألم عند تلاوته ، لما أرى من غمطه حق العرب والمسلمين ، والعبث بالتاريخ والحقائق ، ولما أتممته كتبت فيه نقداً لأنشره في مجلة المجمع ، وأحببت قبل أن أدفعه للطبع أن أقرأه على بعض زملائي ، فلم يستحسنه العضوان المسيحيان ، وقالا إنه ينم عن تعصب ، أما السيد لامنس فله أن يقول فينا ما شاء ، ولا ينسب إلى التعصب ، ومن السماحة أن نسكت عما يهيننا به من أقواله ، وارتأى هذان الزميلان أن أطوي النقد ولا أنشره فأبيت . وخرجت من المجمع فاتبعني أحدهما برجل من أصحابي المستخدمين كانوا في دار الكتب . يعرض عليّ ألاّ أنشر النقد على كتاب لامنس . فقلت له : لا بد من نشره مهما كلف الحال ، فقال : إن المفوض السامي هو الذي أمر بتأليف هذه المحاضرات التي جعلها لامنس بعد ذلك كتاباً . فقلت له : إن المفوض السامي أمر أن يحاضر لامنس بتاريخ سورية ، ولم يأمره أن يطعن بالعرب والمسلمين ، ولا أن يحرف تاريخنا ويسقط رجالنا . ثم التفت إليه وقلت له : هل يستطيع المفوض السامي أن يقتلني كما كان يفعل جمال باشا مع من يغضب عليهم من أعداء الدولة ؟ قال : لا . قلت : غاية ما في الأمر أن يكتب إلى مندوبه في دمشق يقول له : أوعز إلى « كرد علي » أن يستقيل من رياسة المجمع العلمي ، فأستقيل ضاحكاً وأقبع في داري ، ولي فيها ما يشغلني أكثر من عمل المجمع وألذ وأطرب .

ونشرت نقدي ، وردّ الأب لامنس عليه رداً ضعيفاً ، وأراد أن يدخل المهاترات في مناقشته فما مكنته . وكان من نتائج هذه المناقشة أن صدر الأمر برفع الكتاب من المدارس ، وكانت النية ادخاله في المدارس الاسلامية والنصرانية . وهو كتاب إذا قرأه التلميذ المسلم ينشأ على بغض أبناء دينه ويحتقرهم ويمتهن الاسلام وإذا قرأه الطالب المسيحي يكره المسلمين والاسلام والعرب والعربية .

وبعد فأرجو ألا يحمل كلامي هذا على غير محمله من ارادة الخير لمجموع هذه الامة ، على اختلاف الملل والنحل ، وأن يعرف من لم يعرف أن الاديان جاءت للسلام ، ولتطهير النفوس ، وهي متحدة في جوهرها ، فالنصرانية دين الرحمة والمحبة ، والاسلام دين العدل والاحسان . فدسّ بعض من تلقوا هذا التراث اشياء ليست من متن الدينين ولا من صُلبهما ، ووضعوا من عند انفسهم هراءً ما انزل الله به من سلطان .

اضحكتني جملة وردت في جريدة تونسية هزلية مرة ، وقد جاء دمشق رجل من ابناء تونس اسمه صالح التونسي درس في جامع الزيتونة ، وكان من التعصب على جانب عظيم ، فعزم ان يظهر علمه بالقاء درس عام في الجامع الاموي ، فأسفر درسه عن قيل وقال ، كاد يؤدي إلى تلاطم وتلاكم ، فكتبت تلك الجريدة فصلاً ، عنت له ما معناه (فساد التعليم في جامع الزيتونة احدث فتنة في دمشق) ونحن نقول من الواجب اصلاح التعليم عند النصارى والمسلمين ليخرج المتعلمون المواطنون اتراباً متحابين ولئلا يؤدي فساد التعليم إلى ما لا تحمد عقباه . قرأت في تقاييدي أن سائحاً ألمانياً عاشر أهل العراق نحو عشرين سنة ، واطلع خلالها على علومهم وأحوالهم ، فألف كتاباً قال فيه إن الامم الشرقية آخذة بالانقراض لرداءة التعليم بين أظهرها وخمود أفكار بنيها .

مع العامة

ربما خفي على كثيرين عذري في الاعراض عمن لا يستحقون صداقتي ولا عداوتي . الناس درجات في الصداقة ودرجات في المداوة . فمنهم معارف قضت حالة من الحالات أن تعرفهم فليس لك مع هؤلاء أن تزعم أو يزعمون لك أن بينكما صداقة . ومنهم من عرفتهم فراقك سمتهم ، فصحبتهم صحبة وقتية لم تدخل في الصميم . ومنهم من كانوا لك بمثابة الأخ والوالد والولد . وهكذا يقال في المداوات ، فمنها عداوة من تعرض عنه لا تحب أن تصاحبه ، ومنهم من قد تضطرك الحال اليه ، وكلاكما يكنْ لصاحبه عداوة ، فأنتما لا تتحابان ولا تتعاديان علناً ، ومنهم من تجاهره ويجاهرك المداوة لاتبالي به ، لأن أقل ما يبيته لك مما يسوءك ، وأدنى ما يضمره ثلمك وسلبك .

كنت مرة في الشمال وعزمت أن أذهب إلى احـد الاقضيـة لافتش مدارسه ، فعرض عليَّ العامل الاكبر هنـاك أن يصحبني فقبلت . وأخذ في خلال الطريق يسألني عن رئيس الوزارة وعمله ، وعن علاقته بالسلطة وعن الوزارة وطول عمرها وقصره . أسئلة ما أظن وزيراً يُسألهـا عن وزارته ، وكنت كلما وضع سؤالاً من أسئلته أبسم ولا أجيب . وبعد أن أتم كلامه قلت له : يهمني أمر المدارس والكتاتيب قبل كل شيء ، ولا أعرف علاقة الرئيس بالمتدينين ، ولا ما يكون منه إلا في الرسميات ، والرسميات معروفة لكل أحد ، ثم حدقت النظر فيه وكلمته بنعومة في البيان ، وخشونة في المغزى قائلاً : ظاهري من عينوني وزيراً ، لأن لي خلقاً من الصعب أن يلتئم مع حكومة من الحكومات ، أما أنت فقد خلقت لتكون مع كل حكومة ، لأنك تأخـذ أخباراً وتأتي بأخبار ، ومثلك ينفق على من عينوه أياً كانوا .

هذا الرجل من الأذكياء ، ويعرف الادارة بالنظر والعمل ولا يفسر كلامه إلا بأنه يريد أن يستدرج وزيراً أكبر منه مقاماً وتجربة ليتسقط من لسانه الأخبار ، بأسلوب يوهم أن الوزير تجوز عليه طريقته في استدراج بعض المستخدمين في ديوانه ، إذا حاول كشف مخبآتهم . ولقد كانت برقيات هذا العامل تترى في تهنئتي في الأعياد والمواسم ، فلما تركت الوزارة انقطعت تهنئاته وبرقياته ، لأنه كان يهنئ الكرسي ، ويريد دوام صداقة الكرسي ، وعلاقته بالكرسي لا بصاحب الكرسي . ومعظم من يدهنون لأرباب الدولة هم على هذه الشاكلة ، أصحاب لهم ما داموا في الكراسي ، فاذا تخلوا عنها فكأنهم لم يتعارفوا ساعة اليهم .

وتنكر ودّ المرء في لحظ عينه ويعرف عقل المرء حين تكاتبه

مضت أعوام وكنت في مأدبة حافلة فتقدم ذاك العامل يحييني ويمد يده ليصافحني ، فأعرضت عنه مظهراً أني لا أعرفه ، وأحب أن يكلمني فتصاممت ، وتركت محلي ، فعدا ورائي ، وأنا لا أزيده إلا تجهماً ، فلاحظ أحد أصحابي ذلك ، وسألني لماذا أحاول الابتعاد عن هذا الرجل على هذه الصورة ، فقلت له : إنه ممن لا يحبون إلا الكرسي ، ولا يحترمون إلا الكرسي ، وذكرت له ما وقع منه معي فقال : لك الحق ، وغريب منه أن يحاول استخبارك واستدراجك .

قالوا خص بالبلاء من عرفته الناس ، بل خص بالبلاء من عرف الناس . وكيف لا تهزأ برجل لا يسأل عنك إلا إذا كان له مغنم يحاول أن تعينه على أخذه ، او فائدة خسيسة يتوقع استحصالها ، وهو يدعي صحبتك ، وتمضي السنون ، ولا يراك ولا يسأل عنك ، إلا إذا واجهك بالعرض في الطريق ، او في أحد المجالس ، ولا يزورك إلا في وقت يختاره ولا يناسبك وقد يستغرب أنه لم يجدك ، وأنت ليس بينك وبينه موعد ، كأن مقامك يقضي عليك ان تكون تحت الطلب ابداً لترضيه وترضي غيره . وعندي ان من كانت هذه حاله هو احد رجلين : إذا كان متعلماً مهذباً يعامل غير

معاملة الجاهل الذي لم يتهذب ، وهذا يضحك من عقله ويقال له ما قاله الشاعر :

إذا ما تميمي أتاك مفاخراً فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب

جاءني مرة رجل من جيراني لم أره حياتي ، كان أهلي وأهله أصدقاء . فقلت له معاتباً : إني أسكن في جوارك منذ سبع سنين ، والآن تسأل عني مع معرفتك بصداقة أهلنا ، ثم علمت أن زيارته كانت تجارية ، يحب أن يستنجدني لأكلم له مدير الشرطة ، ليبعد الحارس الذي كان يقف أمام داره . فتأففت وقلت له : لن أكلم مدير الشرطة ، وأنا ليس لي مال أخاف عليه اللصوص ، ومن كان غنياً فليسع هو ليحرسه الحراس ، وكان من الأغنياء الذين لم ير أحد ما في داخل دورهم .

هذا خلق يلومني عليه أيضاً بعضهم ، ذلك انهم اعتادوا أن يدهن بعضهم لبعض إذا تراءت الوجوه ، وأن يلعن بعضهم بعضاً في الغيبة ، وأنا أمقت هذا الخلق الوضيع وان علمت ان العالم يكرهون من يحيد عن مصطلحهم مهما بلغ من سخف ، ويسخرون في سرهم ممن سار على قواعد معقولة وضعها لنفسه فأراحته .

مما يؤلمني أن يتسلق العامة إلى مقامات الخاصة ، وان يحاول الجهلاء أن يكونوا سادة العلماء ، وهذا ناشئ عن تخاذل الخواص ، ألقوا الحبل على الغارب ، وما أهمتهم غير أغراضهم الموقتة ، فترك المجال للهمج الرعاع . وربما كانت لهؤلاء رابطة تربطهم أكثر من الفريق الآخر الذي منه يؤمل الخير العام . يقول ابو حيان التوحيدي في طلب الخاصة رضا العامة : ان التصدي للعامة خلاقة ، وطلب الرفعة بينهم ضعة والتشبه بهم نقيصة ، وما تعرّض لهم أحد الا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولوثته ونفاقه وريائه أكثر مما يأخذ منهم من اجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم .

يهمس كثيرون أنني ضنين بجاهي ، لا أشفع لكل من يقصدني ، ولو بالكذب عليه . حقيقة أنا لا أشفع لكل أحد ، ولا أحب التوسط لمن لا أعرفه ، فالشفيع مسؤول عن شفاعته ، فكيف تشفع لمن لا تعرف ،

وشفاعتك شهادة فيه . ولطالما توسطت لبعض أهل هذه الطبقة التي يغشك أصحابها لتشهد لهم الزور ، ثم ندمت على ما أقدمت عليه ، وقد ثبت لي بعد أن ليس لهم حق في شكواهم ، وأنهم كذبوا عليّ ولم يصدقوني حقيقة أمرهم . ثم إن من تعتقد أنهم يحققون ما ترجوه منهم ، قد لا يجيبونك إلى طلبك ، إما لأن المسألة عقيمة متعذرة ، أو لأنهم يأبون النزول على ما تطلبه منهم ، ولذلك علمني الدهر ألا أوصي بمن يحاول أخذ وصاتي ، واكتفي بأن اقدم طالب الوصاة للموصى عليه فقط ، وهو وشأنه ، ولو كانت القوانين نافذة على الكبير والصغير لما احتاج هذا الصغير أن يتوسط أحداً في الحصول على حقه . والظاهر أن خمسة في المئة ممن يطلبون الشفاعة هم محقون فقط . وهذه المسائل تروج على الاكثر في الحكومات التي تهمل شكلين ، وبين أمة جاهلة لا تعرف مالها وما عليها .

وصعب أن يحب الخلق من يبدو لهم بهذا الخلق ، فالرعونة تغلب على صاحب الحاجة لا يهمه غير قضائها ، وكثير من هذا الضرب من البشر يقرعون بابك بعد أن يكونوا قرعوا أبواباً كثيرة وما نجحوا . وصاحب الشرف يرى من الفضاضة أن تهمل وصاته ، أو يتخذها من تُكتب له حجة يخرجها ذات يوم يتبجح بها .

دعاني أحد أصدقائي في القاهرة إلى النزول في داره ، وأقيمت لي مآدب كانت الصحف تذكرها وتذكر أسماء من يحضرها ، فكثر المراجعون لي ، لما عرفوا أن لي علاقات مع رجال الحكومة المصرية ، ومنهم أصدقائي فكان بعضهم يقصدني على غير معرفة سابقة ، ومنهم من يحاول حلّ مشكلته القديمة مع زوجته ، لأن وليها صديقي ، ومنهم من يطمع أن يتقدم في درجته ، وثالثة تود أن ترتقي وظيفتها وراتبها في التعليم ، ورابع يود أن يدخل ابنه مجاناً في المدرسة ، ويعفى من أجورها لفقر حاله ، وخامس اختار أن يبيعني مديحه ، وسادس أن ابتاع اطاراً كتب فيه قصيدة يمدحني بها ، وكلهم ظنوا أني أصبحت في مصر ، أقدم وأؤخر في دفع ألم المتألمين

وجلب الاحسان إلى البيوت وادخال السرور على القلوب ، واحقاق الحق ، وازهاق الباطل . وضاق صدري من الحالة التي صرت إليها ، فلم أرَ أحسن من أن أكتري لي غرفة في منزل يوناني ، وكتمت اسم منزلي ، وتواريت عن الأنظار حتى آن الرحيل من مصر ، وبقيت معظم السنين أرتاد لي منزلا لا يعرفني فيه إلا الخلص من أصدقائي ، مخافة أن أضيع أوقاتي في الشفاعات ، وأخجل من أحبابي في الحكومة ويخجلون مني ، إذا لم يستطيعوا أن يجيبوا طلبي فيما التمسته منهم لارضاء من لا أعرف .

كثيراً ما سمعت من استاذي الشيخ طاهر الجزائري أنه في اليوم الذي يجمع الناس على حبه يعتقد نفسه ساقطاً ، ذلك لأن معنى الاجماع أن الممدوح ينافق كل انسان ، لا ينكر منكراً ، ولا يدعو إلى معروف ، وصاحب الاصلاح ، في العادة يمقته فريق ، ويرضى عنه آخر ، ومن أراد تطبيق ما يعلم ، يتأفف منه السواد الأعظم .

ولقد نصحني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري نصيحة وقَتْ أوقاتي من الضياع ، وفكري من البلبلة ، وكان ذلك لما بدأت بتحرير جريدة « الشام » قال : إذا أحببت النجاح في هذا البلد فلا تلق باذنك لما يقال فيك من خير وشر ، وارم ببصرك فقط إلى الهدف الذي يمنيك الوصول إليه ، ولا تلتفت ذات اليمين ولا ذات الشمال ، وإذا وضع لك واضع حجراً في طريقك فتنحَّ عنه ، وعد إلى سلوك محجتك .

تقبلت هذه النصيحة ، وما عبأت بعدها بسماع أقوال المثبطين ، ولا بمصانعة المداجين ، وعرفت مع الزمن أن أصوات أهل هذه الفئة تضيع في الهواء كالهباء ، وانهم كسالى لا يعملون ، ويشق عليهم ان يروا أحداً يعمل ، وما كنت أردّ على من يناقشني ، لئلا أدخل في أخذ ورد ، فان كان ما قاله مما ينفع أنقله وأنشره وأشكره عليه ، وإن كان من الهُراء المعتاد أتحول عنه ، ولا أشغل الوقت بما كتب . وأكثر من جروا على هذه الطريقة إنما يكتبون للشغْب ، والكشف عن المساوي ، والظهور على الاقران

وكل صعلوك مغمور يحاول في العادة أن يشتهر بالنيل ممن هم أفضل منه . وما أفلح من ساروا على هذه الطريقة ، ودخلوا في الاعتراض ، وبعدوا عن الاشتغال بخوَيصة أنفسهم ، الثرثارون الطمانون يقضون أعمارهم في حسرة ولا يأتون ما ينفعون به أنفسهم ولا غيرهم ، ورأيت منهم جماعات ماتوا بغيظهم ، وكان من نجحوا من الفريق الذي يقلل من الاعتراض .

ونصح لي استاذي لما أصدرت مجلة المقتبس في القاهرة ألا ألتفت إلى المشاغبين ولا أكترث بهم ، وإن جلوا ، فان الحكيم من يسعى إلى تمام القصد وأقل ما يستفيد المشاغبون إضاعة وقت من اكترث بهم ، وإن قلّ فالوقت ثمين . قال أقبل على شأنك واعرف مقتضى زمانك ، ولا يمنعك تنكيت المنكتين المكبتين من تنبيهك على غلط فرط منك فيما سلف ، وكلما عثرت على شيء من ذلك في عدد فنبه عليه فيما يلي فان ذلك أقرب إلى الاعتماد على ما تكتب . وأكثر العلماء الذين انتفع الناس بكتبهم كانوا على هذه الطريقة ولم يتنكبها الا الحشويون ومن نحا نحوهم . وقال : أعرض عمن يبحث عن تفضيل بلدة على بلدة ونحو ذلك فان مثل هذا من مباحث الحشوية . قال وقد سألني منذ أيام أحد السياح عن حد المصري والسوري فقلت له : المصري من ينفع مصر والسوري من ينفع سورية ، وكل من نفع بلدة فهو منها طبعاً ، فالمصري الذي ينفع سورية مصري سوري والسوري الذي ينفع مصر سوري مصري ومن لا نفع لديه لكلتيهما فهو ليس بمصري ولا سوري . وقد انتبهت أمريكا لهذه الحكمة الكبرى فجعلت كل من ينفع أميركا نفعاً ما أميركياً فنجحت .

قيم الاشياء

قال لي احد اصدقائي من أساتذة كلية الآداب بمصر : ألا تنكسر قلوبنا إذا رأيناك تلقي في الجمعية الجغرافية الملكية ، تحت اشراف كلية الآداب ، ثماني محاضرات في الادارة الاسلامية ، كان البحث ماثلا فيها ، وتكون المكافأة عليها خمسين جنيهاً ، في حين القى السير دنيسن رُس ،مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ثلاث محاضرات على منبر تلك الجمعية نفسها ، لم تنمّ عن شيء من العناية ، اللهم إلا ما كان هناك من قصص أضحكت السامعين ، فلما انجز محاضراته دفعت اليه الحكومة مئتي جنيه فامتعض وعبس ، ثم زادوه مئة أخرى فسكت ، وما أظهر رضى ولا شكر . فقلت : لا تأسف يا أخي فان القوم لا يعطون على الغناء ، ولا على قدر العناء ، وإنما عطاؤهم قائم على الارضاء ، وعندكم من ذلك نماذج كثيرة في الجامعة وغيرها في تفضيل الغربي على العربي . إن بلادكم مأخوذة با كبار اصحاب القبعات ، ولو كنت أفرنجياً لنظرت إليّ حكومتكم غير ذلك النظر . وأظنها مع هذا لا تراني بالعين التي ترى بها العربيّ الغريب ، لسابقتي في خدمة مصر ، ولأن من خدموا هذا القطر باخلاص يضارع اخلاصي قلائل ، ومن خدمها كان موظفاً يعيش بخيرها ، ومن مصلحته أن يعمل لها . ولما منح وزير المعارف هذه المكافأة القايلة قال لعميد كلية الآداب : إن هذا لاجل (فلان) فقط ، وإياك أن تأتيني باحد من فلسطين أو غيرها .

لما صدرت ارادة الملك فؤاد الاول عليه رحمة الله بتأليف مجمع اللغة العربية الملكي ، وكان اعضاؤه عشرة من المصريين وخمسة من الاقطار العربية وخمسة من المستشرقين من أهل الغرب رأى وكيل وزارة المعارف يومئذ أن تكون نفقات إقامة الغريب من العرب في مصر أقل مما يخصص لنفقة اقامة

العضو الغربي . ورأيت هذا القرار ماساً بالكرامة ، فعزمت أن استقيل من عضوية المجمع الجديد ، لهذه التفرقة التي لا موجب لها بين العربي والغربي ، لو لا أن الملك لم ير وجهاً لهذا التمييز بين الاعضاء الاجانب على اختلاف أصقاعهم واجناسهم .

واقسم أن مشروع المعجم الذي عرضه زميلي الاستاذ فيشر على مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة ، وتأليفه ونشره يكلف الحكومة المصرية الوفاً من الجنيهات ، لو أتى بمثله مؤلف من أبنـاء العرب لانهالت الصحف تضربه وتدميه ، وتسخر منه وتقع فيـه ، ولكن صـاحبي افرنجي ، والافرنج عامة لا يقولون عبثاً ، ولا يضعون من التآليف إلا ما يفيد ، ولا يرسلون مثلنا القول جزافاً . وهذا مما يثبت قاعدة ان الاشياء تعظم بمظم مصدرها .

حقيقة أن من نشأوا من أمة صغيرة لا ينظر إلى أعمالهم مهما عظمت بالعين التي ينظر بهـا إلى من جاؤوا من أمة عظيمة . ومن كان على حال كحـالي مثلاً لا أمة تعضده ، ولا جامعة يرتبط بها ، ولا مجمع يأخذ بيده ، كثير عليه لعمر الحق ما تم على يده ، ومستغرب منه ما انتجه . وربَّ مشروع أردت أن أبدأ به موقناً فيه الخير للعلم والآداب ، ولهذه الامة العربية التي تنقصها أشياء ، فأخرني عن المغامرة فيه قلة الظهير والنصير . واني لا استحي من هذا التصريح ، وارجو ألا تؤثر هذه المثبطات في نفوس النـاشئين على عهدي ومن بعدي .

لا أكتم أني اغتبطت بما صار إليَّ ، وقلت وما زلت أقول إني نلت من المظاهر فوق ما كنت أرجو ويرجو من كان في مثل حالي ، وأن عشرات من القدماء والمحدثين لم يحصلوا على بعض ما حصلت عليه ، وانا ما كنت أعد طول حياتي من الموسرين ، ولكنني ما كنت أعد من المعسرين . وكنت أرى من التوفيق المظم ، إذا طبعت الكتاب وردت عليَّ نفقاته فقط بعد سنين ، أو نشرت مجلة أو جريدة وما خسرت شيئاً يذكر على نشرها . ذلك

لأني أقدر الحال والموقع ، وأعرف ان من يقرأ الكتب والصحف في أمتي لا يتجاوز بضعة الالوف ، في حين يعد من يقرأون الكتب في الأمم الكبرى لعهدنا يعدون بمئات الالوف . وما توقعت ربحاً مما كتبت ونشرت قط ، وربما كان لمن قدر له أن يكتب مقدار ما كتبت ان يجني فوائد مادية كثيرة ، وانا ما خلقت تاجراً ، وللتاجر منازع غير منازعي . ومن طبعي إذا أقبلت الدنيا ان لا أسر بها ، وإذا تخطتني لا أستاء . وكيف أسر وأكتئب وانا عارف طاقة أمتي ، ومبلغ معرفتها ودرجة نهضتها .

لو كان في امكاني ، وأنا أرى الفقراء لا يقدرون على اقتناء الكتب ، على حين هم الذين يقرؤون ويستفيدون ، لطبعت من أسفاري وأسفار غيري الوفاً ووزعتها عليهم مجاناً . ومن عظيم الأسف أن المقتدرين على ابتياع الكتب إذا اهديت اليهم اخذوها ، ومنهم من لا يشكرك على هديتك ، على ما تقضي بذلك قواعد اللياقة واللباقة ، اما أنهم يطالعونها ويستفيدون منها فهذا علمه عند ربي . ورأيت منهم من يبيع هذه الهدايا وينتفع بثمنها مع استغنائه عنه ، وذلك قبل ان يقص ورقها ، او ينظر في صفحة منها ، ويؤسفني ان تتداول الأيدي بعض النسخ من الكتب ، وقد يتناولها المقتدرون على اقتنائها ، لكنهم مثل اكثر الجمهور في هذا الشرق الفقير ، يعدون الكتب من الكماليات ، خلافاً للافرنج فانهم يعدونها من الحاجيات ، فترى الواحد منهم يقيد في مفكرته الشهرية ثمن الكتب والصحف كما يقيد نفقة الخبز واللحم والمشروب والملبوس ، واجور حضور التمثيل والسينما والنزهة .

فأمة كأمتنا هذا مقدار سخائها على العلم ماذا يرجو منها المشتغلون بالتأليف ؟ ومتى يا ترى يقدر لأبنائها وبناتها أن يولعوا بالمطالعة ، ويعدوها حاجة من حاجات النفس ، لا غنية عنها لغذاء الروح . امم الغرب بما بلغته من درجات الرقي هي التي يعيش منها ، بما تبذل في سبيل العلم ، الوف من المؤلفين لا صلة لهم بجامعة ولا بحكومة ولا بمجمع ، ولا يطلب منهم

إلا أن يجوّدوا عملهم فقط ، وينتجوا انتاجاً مطرداً ، فتنهال عليهم الأرباح ، وقد يثري الممتازون منهم الذين كتبت لهم شهرة كما يثري ملوك الفولاذ والحديد والنفط في اميركا .

ثم لمعظم قيم الأشياء إذا صدرت من اناس كان لأمتهم قيمة في الوجود وقد كان الملوك والأمراء والاغنياء عند العرب في الدهر الغابر يتولون الأخذ بأيدي المؤلفين ، واليوم تظاهرهم في الغرب المجامع والجامعات والجمعيات والجماعات . وترى عندنا اعمال الافراد ضعيفة على نسبة ضعف اوضاع ديارهم والمؤلفون بمعزل لا يؤبه لهم ، واكثر من يصنفون الكتب منا هم من طبقة الموظفين في الدولة ، ومعظم ما يؤلفونه كتب للمدارس طمعاً بربحها المضمون ، او قصص للعامة لا تعلو عن مستوى عقولهم ، يُقبلون على مطالعتها فلا تفيدهم كبير امر ، ويستفيد منها المؤلف والطابع اكثر مما تفيد المتصفح والمطالع . والقراء من وراء ذلك لا يتناولون إلا ما يعرض عليهم بالحاح ، ولا يدرون غالباً بالجيد الذي يكتب وينشر .

هزل مصر والشام

تشهد في مصر ما تشهده في الممالك الكبرى من مظاهر الحياة . ففيها الجد على أتم حالاته ، وفيها الهزل على غاية من الاتقان ، ويُطربني جدّها وهزلها ، وأنا في مصر مصري وما أنا بمصري ، فلئن تخطتني جنسيتها ، فما حرمتني الفطرة مشاركة أهلها في عواطفهم وشعورهم ، وكثير من أطوارهم . كانت إقامتي في مصر متقطعة ، فلم أرَ أن اعرض لسياستها إلا بقدر معلوم ، وما عُنيت العناية اللازمة بالوقوف على تراجم أهلها ، وتوخيت أن أعرف بمجملات عنهم ، وذلك لتشعب أطراف موضوع لا يبرّز فيه إلا من تمحض له وانقطع إليه . واحتاج على الاكثر أن أعرف من رجال مصر تراجم العلماء والأدباء ، أما تراجم السياسيين وغيرهم فشرح يطول .

من الطبيعي أن يتآلف المتشاكلون في الفكر والثقافة . وفي القاهرة من ذلك ضروب وألوان ، ولا يصعب كثيراً على النازل عليهم أن يصل إلى الطبقات المنوعة ، إذا كان أدلاؤه مهرة ، ما دام المصريون معروفين بهذا الظرف وهذا اللطف . وبعض سكان عاصمتها كأهل العواصم في الغالب تصدهم متاعب العيش فيها عن الافتكار فيما تفكر فيه الناس في العادة ، من مثل الوفاء وتعهد الصاحب ، فيصدق عليهم أنهم من الطبقة التي لايسرها من حضر ، ولا يسوؤها من غاب ، أو أن هـــذا من خلق عدم المبالاة المتأصل في بعض أفرادهم .

مصر من البلاد التي يعيش فيها الغريب خمسين سنة ، ولا يفتأ كل حين يقع فيها على شيء جديد ، ويظفر بموضوع طريف ، ما كان له به عهد بالأمس . عرفت صديقي وحيد بك الأيوبي وهو وأنا في ميعة الشباب وكان من أبناء الأعيان المفكرين المثقفين ، وتفارقنا زمناً ثم التقينا قبل اثنتي

عشرة سنة ، وإذا به رئيس جمعية جهرية سماها اسماً غريباً (البُمكوكة) وبمكوكة الناس مجتمعهم على ما في القاموس . كانت هـذه البمكوكة تلتئم كل ليلة في قهوة متواضعة من منعطفات شارع ابراهيم باشا ، ثم انتقلت إلى قهوة السلام في نفس الشارع . ويبدأ اجتماع أعضائها من بعد العشاء وينصرفون في ساعة متأخرة . وتتألف من محامين واطباء ونواب وموظفين ورؤساء دواوين ومؤلفين وصحافيين وأعيان أصحاب أطيان موسرين وغيرهم ، ولا يقل المواظبين منهم عن ثلاثين رجلاً ، ما فيهم إلا الممتاز بأدبه وفضله . فاذا اجتمعوا تجردوا عن مظاهرهم ، وكانت اجتماعاتهم للمرَح والتنادر وسماع الأخبار . ويجاهرون بأن بمكوكتهم فوق الأحزاب وفوق السياسة ، ولا غاية لهم إلا الضحك والاضحاك . والرئيس وحيد بك الأيوبي ، ونائب الرئيس ادوارد بك القصيري من أكبر المحامين في مصر .

هؤلاء الجماعة من رجال الأعمال ، فاذا انتدوا كل ليلة ـ وقد يزورهم في بمكوكتهم اخوان لهم من حين إلى آخر ـ فللترويح عن نفوسهم ، وللخوض في لهو الحديث . ولك أن تصف جماعة البمكوكة بأنهم مجدُّون في أوقات الجد ، وهازلون في أوقات الهزل ، ويا ما أحيلا اجتماعاتهم ، وأوقع في الأذن أصوات محاضراتهم ، وشرَّفني الرئيس بضمي إلى جملتهم ، وأمرني أن انشئ بمكوكات أو بماكيك في بلاد الشرق ، فصدعت بأمره ، وأنشأت في داري بمكوكة يختلف إليها أخلص الأصدقاء . ولكن إذا شابه خلاني بماككة دمشق اخواني بماككة القاهرة في دراساتهم وثقافاتهم ، فلن يشاركوهم بخفة ارواحهم وتنكيتهم . بلاد الشام سهلية جبلية معتدلة يغلب الانقباض على اهلها ، وبلاد مصر سهلية حارة يغلب المرَح والطرب على أهلها .

ولله ما يجري في هذه البمكوكة المصرية ، فان كل أعضائها ، والرئيس على رأسهم ، يصطنعون المرَح ويلتمسون الضحك ، وناهيك بجمعية فيها مثل الدكتور محجوب بك ثابت المشهور بعلمه وخفة روحه وحضور نكتته

وأذكر أني عدت من الشام في بعض السنين ، وكنت متلهفاً شوقاً الى اخواني البمكوكيين ، فقصدت إلى البمكوكة لاستطلع طلع أحوالهم ، فرأيت بعضهم مكتئباً ، والرئيس مقطباً ، فسألت عن السبب فقيل لي إن الرئيس مصاب بضعف بعض الاعصاب ، والاعضاء في حزن من جراء ذلك ، وكل منهم يكد قريحته ، ويستوحي علمه ، لايجاد علاج يعيد إلى الاستاذ نشاطه وصحته ، ويتنافسون في هذا الشأن ، ولا تنافس وزراء السلطان ابراهيم العثماني في ايجاد مقو لضعفه ، مع الفارق بين أعضاء البمكوكة وأعضاء وزارة الفاجر ابراهيم . وفي الحقيقة أن أعضاء البمكوكة كانوا يجدون في شفاء رئيسهم مخافة أن يصاب المرؤوسون بمثل ماأصيب به رئيسهم . ولا تسل عما ذكر خلال تلك الايام من نكات وحكايات وأشمار وآثار ، وأكثرها مما يضحك الثكلى ويسلي الحزين ، التزم فيها جانب التورية والتعريض ورعاية آداب الاجتماع .

رجعت إلى الشام وكتبت كتابين مطولين في فترة قصيرة الى الرئيس أذكر له بعض مافتح الله عليّ من أدوية لدائه ، فلما قرأهما الرئيس على الاعضاء تجددت لهم عناية بمداواته ، وبقي القوم يهتمون لذلك أشهراً ، لاتخلو ليلة من الالماع إلى سير مرض الرئيس وإلى ماظهر من الادوية ، والى ماوفقوا لمعرفته من طلاسم وأدعية الى غير ذلك مما ينجع في شفائه والرئيس يشكو ، وهم يخففون عنه آلامه ويسلونه ، ولما عدت في الشتاء التالي إلى القاهرة سألت الرئيس عن حاله ، فضحك وقال : وأنت أيضا صدقت مازعمته لكم ، اني ادعيت هذه الدعوى لأضحككم ، وقد حصل المقصود من هذه الفرية حولاً كاملاً ، وأنا بحمد الله ليس لي ما أشكو منه مما ذكرته لكم . فعجبت وأكبرت صفات الرئيس وحبه لمرؤوسيه ، كما كنت أعجب بكرمه على كل بائس مملق . وقلت له إن انتسابي إلى بمكوكته أحب إلى نفسي من كل لقب لقبت به ، ومن كل مجمع علمي

شرفني بعضويته ، فمع جماعته السلوى والسرور ، ومع أولئك كد الذهن ، وكرب الجد .

يكتب رئيس البعكوكة في الاحايين في جريدة الاهرام قطعاً لطيفة في اللغة والادب والسياسة . وجاء البرق ذات يوم بنقل كلام أحد رجال السياسة ويقول إن الانكليز يرابطون بجيشهم في مصر لحماية الاستقلال ، ومن الغد كتب الرئيس بضعة أسطر في الاهرام يكبر هذه العناية بامر مصر ، ويقول ان عندنا الآن إذاً احتلال واستقلال ، فماذا نسميها ؟ نسميها (الاحتقلال) نأخذ من الأول حرفين ومن الثاني ثلاثة . وسأله مكاتب التيمس في القاهرة ، وماذا نسمي ذلك بالافرنجية فقال على البديهة Occupendance مأخوذة من Occupation الاحتلال و Indépendance الاستقلال . وكثر السائلون للرئيس عن هذا الاسم الجديد ، وعما إذا كان له أصل في اللغة ، وهنأوه على توفيقه للعثور على هذه اللفظة الجميلة وعبثاً حاول أن يقنعهم أنها لفظة وضعها وضعاً ، وما كان يرضي بعضهم إلا أن يكون وجدها في معجمات اللغة .

ورئيسنا يعطف على كل من يعده الناس ثقيل الظل ، فاذا سمع بمن هذه حاله احتضنه وبره . وقد يصحب أحد الصعاليك المعدمين إلى مطعم الكونتننتال يغديه او يعشيه . وقد اعترض عليه مرة نائب رئيس البعكوكة قائلاً له : إن فلاناً في حاجة إلى (بنطلون) فسراويله ممزقة ، وانت تنفق عليه في الوجبة الواحدة ما يزيد على الاربعين أو الخمسين قرشاً صحيحاً ، اعطه ثلاثين قرشاً يشتر بها بنطلوناً بعشرين والعشرة ينفقها على عياله . فأجابه الرئيس : سبحان الله يا ادوارد بك ، ألا تعلم اني إذا عاونته على ابتياع بنطلون جديد اكون قد غيرت معالمه وابدلت شكله ، واظن الرئيس يقصد باستصحاب الفقراء إلى مطاعم الاغنياء ليقول لهؤلاء بلسان الحال إنه لا قيمة لما تتعاظمون به من الانفاق ، وأن الفقير قد يشاطرهم هناءهم ببذل عرض قليل .

وعقل رئيس البمكوكة ، والحق يقال ، ليس من المقول المحدودة ، عقله مبتكر مبتدع ، فقد اصدر في صباه ثلاث جرائد في وقت واحد بأسماء مختلفة ، ومديرين ومحررين منوعين ، جعلها كلها لمقاومة الاحتلال ، وجعل لها كتاباً ومراسلين ومحررين ، وكان يصدرها في اوقات مختلفة . وليس لها كلها ادارة غير جيب الرئيس وقمطره ، يكتبها أو اكثرها وينشرها على أنها ثلاث جرائد مختلفة الوضع والطبع ، متحدة المنزع والغاية . ولم تكشف هذه اللعبة إلا بعد مدة ، وله من هذه الالعاب اشياء تسر ولا تضر ، يَضحك منها ويُضحك .

في مصر اليوم عدة جماعات ومجتمعات تظفر في بعض حواشيها بأفراد ممتازين يختلفون إلى المقاهي ويزهدون في الاجتماع في بيوتهم ، وكذلك الحال في الشام ، وكانت فيها الأندية الخاصة او البماكيك في كل حي من احياء المدن والقرى الكبيرة . ولي جماعة في « بار اللواء » امام ادارة جريدة الاهرام بالقاهرة ، وهم بقايا صالحة من ارباب الثقافة العالية ، والوطنية الحقة الصامتة . ومنهم صديقي القديم الابر محمد بك علي المهندس . وقد وقع لي وانا اسير معه في بعض الشوارع ، وهو اسود البشرة محمود الصفات — وامه شريفة من اسرة الأسدي في اسيوط — خدم السياسة المصرية بما يخدمها به الرجل الشريف اعواماً طويلة ، وما طلب على خدمته وطنه مكافأة ، ولا طمع في مظهر من المظاهر التي يطمع فيها المتجرون بالوطنيات — وقع لي ان لاقيت على الجادة صديقاً لي آخر اسمه صالح افندي السوداني ، وهو مزاحم محمد بك علي بلون السواد ، وهو من ارباب الاقلام المخلصين في خدمة مصر ، فقلت لهما : خطرت ببالي الآن قصة وقعت لي في بلدي ، وانا في صدر الشباب ، وكان لنا جار ، وهو اخي من الرضاع ، اسمه رشيد الهبل من ابناء البيوتات القديمة ، خلف له اهله ثروة جيدة ، وكان اسود اللون قاتمه مثلكما — ولكما المثل الاعلى — وكنت يومئذ اركب الخيل وعند والدي وعنده ما نمتطيه عند الاصيل ونخرج إلى المتنزهات

والبساتين ، فقال لي والدي يوماً : إنك يا بني تثبت كل يوم حسن ذوقك ، أما رأيت في هذه المدينة الكبيرة اجمل طلعة من جارنا ابن الهبل تصحبه إلى نزهتك ، ودعا لي بالتوفيق والغبطة . والتفت إلى الصديقين وقلت لهما من باب مطابقة الحديث للترجمة : اليس قول والدي يصدق عليَّ الآن ، ولا شك ان الناس هنا ادق شعوراً ، فيضحكون إذ يرونني بينكما فضحكنا ضحكاً كثيراً . وتالله إني لأفضل هذين الاسودين بما فيهما من صفات غرّ على كثيرين من البيض اصحاب الصحائف السود .

كان الشيخ طاهر الجزائري كثيراً ما يحدثنا بأخبار الدكتور حسين عودة نزيل صيدا ، يلقيها علينا ممزوجة بهزل وغير خالية من جد . فامتلأت الرؤوس بأخبار صاحبه ، وود كل واحد منا لو يطير إلى صيدا ، فيتعرف إلى هذا الطبيب . وما كتب لأحد من جماعتنا ان يقوم بهذا الغرض قبل صاحب هـذه المذكرات . فاني قصدت إلى صيدا لألقى فيها جامع شتات الفضائل بلدينا حسين عودة ، فأبل غليل شوقي إلى رؤيته .

واريد ان يعرف اولاً من هو الدكتور عودة . ولد الدكتور في دمشق والتحق في صباه بمدرسة القصر العيني في القاهرة لأخـذ الطب . فرسب لشدة ذكائه عدة سنين ، وما زال يرسب في صفه ، حتى جاء مصر الأمير عبد القادر الحسني الجزائري يوم فتح قسم من ترعة السويس سنة ١٨٦٣ وقد رجاه أهل حسين عودة ان يكلم الخديوي اسماعيل ليسهل على ابنهم أخذ شهادة الطب ، فصدر الأمر بمنحـه شهادته ، فاغتبط واختار السكنى في صيدا ، زاهداً في نزول بلدته الاصلية ، لئلا يكون موضع سخرية عند ارباب الهزل من اهل دمشق ، لان خلقته وقيافته تضحكان حقيقة ، فهو مجدور وفي عينه الواحدة شتر ، وفي رجله عرج . ووفاء لمدرسته لم يرض ان يخلع بزتها طول عمره ، فكان إذا بلي المعطف ، وقد كتب على ازراره (تلميذ القصر العيني) اوصى على معطف جديد من نمطه وذلك كل عشر سنين مرة ، ورفع الازرار عن المعطف القديم ، واناطها بالبذلة الجديدة ، يذكر الناس بأنه خريج كريم ، من ذلك المعهد العظيم .

كانت هدايا الدكتور تترى إلى صديقه الشيخ طاهر الجزائري بدمشق يحملها المكار كل مدة من عاصمة الفينيقيين الى عاصمة الامويين ، أتدرون ما كانت تلك الهدايا النفيسة ؟ كانت قصاصات من جرائد مصرية وسورية قديمة وحديثة ، أقدمها لايزيد على بضعة أشهر ، وعمر أحدثها شهر واحد فقط . وكان يقطع من كل جريدة ما راقه ويجمع الباقي ويضمه في كيس نظيف أبيض ويخيطه جيداً حتى لاتمتد الأيدي الى السرقة منه . وقد اتحفني المهدى اليه مرة بشيء منها ، فلما رأيتها قديمة استعفيت من أخذ حصتي في الدفعة الثانية ، وأحببت أن أخص بها من يحبون الجرائد ، ولو كانت قديمة بالية .

كان الدكتور حسين عودة مولعاً بالحشائش ، يطب مرضاه بها على الدوام . وقد ملأ المجلات الطبيـة في عصره بفوائدها ، فأول ماوقعت عيني عليه فى داره مجموعات عظيمة من هذه الحشائش مرتبة مصففة مجففة ، جعلت على مناضد ومقاعد ، وكتبت اسماؤها عليها ، مثل ماترون من نوعها في متاحف النباتات ومعارضها ، وألقيت نظري على الحائط فاذا به عال جداً ، لايقل علوه عن اثني عشر ذراعاً ، فسألته ولِمَ هذا الحائط شاهق الى هذه الدرجة ؟ فقـــال : لأن النظر إلى البحر يوءذيني ، ويحمل الكرب إلى قلبي ، ولذلك كان هذا السور نعمة عليّ لانه يحول دون نظري وما يكره !

كان الدكتور يطب الاغنياء في بيوتهم بقرش ونصف فاذا زاروه في عيادته أخـذ منهم ربع قرش (متاليك) أما الفقير فان قصده او ذهب هو اليه بنفسه ، لا يقبض منه شيئاً ويعطيه ثمن الدواء ، والدواء بالطبع بعض تلك الحشائش . ولذلك يعد الدكتور عودة من أبرّ الاطباء بيمينه الذي اقسمه يوم خرج من المدرسة الطبية إلى مدرسة الحياة . وسرت مع الدكتور في اسواق صيدا وضاحيتها ، فرأيت اهل البلد كبيرهم وصغيرهم رجالهم

ونساءهم اطفالهم وبناتهم يعرفون الدكتور ويعظمونه ويسألونه في الطريق علاج اسقامهم ويدعون له بطول العمر .

ودّعت الدكتور وقد شفيت النفس من المتعة به ثلاثة ايام ، وكنت نازلاً في الطبقة الثالثة من فندق المطران فقيل لي بعد الغروب بثلاث او اربع ساعات ان الدكتور آت لزيارتك ، فعجبت وخففت لاتلقاه على السلم وقلت له لماذا تصدّع نفسك ياسيدي ، وقد ودع كل منا صاحبه في النهار ، فقال : هذا واجب أقوم به ، فشكرت له ادبه وتفضله . ورأيته في هـذه الزيارة الليلية يحمل « نبوتاً » اطول منه ، وفانوساً صغيراً ، ويلبس في رجليه قبقاباً عالياً . فسألته بأدب ، لم يَلبس القبقاب والوقت صيف ، فأجابني بما معناه : إن دبابات الارض كثيرة ، ولا يأمن الساري في الليل من شرها ، فلكي يكون بمأمن من قرصها يحمل هذا المصباح يستصبح به ، علّه يراها قبل أن تصل اليه ، فاذا اقتربت منه ضربها بالعصا ، وإذا حاولت الصعود اليه تعذر عليها الصعود إذ يقتلها قبل أن تصل إلى رجله ، وكان في قوله جاداً ، وكان جداً كله ، وهذا وجه لطافته .

ومن جملة جده انه كان يعتقد انه يعيش العمر الطبيعي ، والعمر الطبيعي عنده مائة وخمس وثلاثون سنة ، أو مائة واربعون لا أدري ، ولما كان هو على غاية من التقوى ولم يسيء استعمال قوته قط ، فانه بالغ بحول الله هذا العمر لامحالة . أما هو فعاش في هذا الامل اللطيف نحو تسعين سنة ، ومن اخبار جدّه ، وهو معتقد بما يقول ويفعل ما حدث له مرة ، وهو يتنزه على شاطيء البحر مع صاحبه الشيخ طاهر ، وقد لحق بهما احد الطلبة ، وكان هذا لا يخلو من جذب ، على ما يظهر ، فمضت أربع ساعات على اجتماعه اليهما ثم التفت إلى الدكتور وقال له : ياسيدي الدكتور أرجو ألا يكون في حضوري ما ينغص عليك خلوتك إلى الشيخ ، فأجابه الدكتور بدون توقف : يا بنيّ نحن لم نحسّ أنك معنا ، إنا في شاغل عنك ، نحن الآن ندبر أمر ثلاثمائة مليون من المسلمين . وهكذا كان وما شاء الله كان .

اللطف الخفي

ما تطلعت إلى ما في ايدي الخلق ، ولا حسدت ذا نعمة على نعمته ، وكانت نفسي راضية كلما اغضبتني الايام ، ضاحكة مستبشرة مهما قست الأزمات . اضقت اول شبابي ، وكنت اعول أسرة كبيرة مؤلفة من بنات واطفال صغار ، والمنظور الينا بين قومنا وفي حينا انا من الاغنياء . وكان معوّلنا في معاشنا على مزرعة لنا اذا اكدى ريعها بعض السنين نضيق ، فلا ارى غير الصبر على الشدة ، مع اني استطيع ان اقترض ما اتوسع به بالنظر لما كان تحت يدي من ملك ثابت يقدر يومئذ بنحو عشرة آلاف دينار عثماني . فكنت اجانب الاستدانة مخافة ان اعجز من قابل عن الاداء ، فتضطرني الحال إلى الرجوع الى الاصل ، ويخشى ان ينزع من بيتنا بعض ما نملك ، وبذلك حفظ ماورثناه وزاد ولم ينقص .

ولما انشأت الجريدة والمطبعة ، كان بعض المعارف يقرضوننا ما يلزمنا من المال ، علماً منهم بأنا نرجع اليهم ما اخذناه مهما كانت الحال ، واعتماداً على ما نملك ، فنعمنا بهذه الثقة ، وما أزعجتنا الازمات الاقتصادية كما ازعجت غيرنا ، وما اسففنا لتناول شيء لا يحلّ لنا ، وما وقفت اعمالنا من قلة . قال لي صديقي الاستاذ عبد القادربك المؤيد ، وكان رحمه الله من رجال المال والاعمال ، وله عليّ عطف كبير : إنك اخذت من جمال باشا الف ليرة ، فلم لا تبتاع او تبني لك داراً ؟ فقلت له : قد بنيت في دمشق اربعين داراً ، فقال وكيف ذلك ؟ قلت : كنت مديناً لاربعين شخصاً فدفعت اليهم ديونهم كاملة ، وأمسيت ولا دين عليّ ، فسارت اشغالي بانتظام . فسكت ثم قال : وفاء الدين قبل كل شيء . ومعظم من وفيتهم ما كان لهم عليّ من دين في تلك الأيام المدلهمة (سنة ١٩١٤) ، وقد امتنعت المصارف من اداء ما عندها لمعامليها من أموال ،

كانوا يقولون إن ليرة واحدة يوم اقرضونا تساوي بضع ليرات يوم ارجاعها وكانوا جد مسرورين ومتعجبين .

حدث في بعض السنين ان تأخر أكثر المشتركين عن دفع ما عليهم لادارة الجريدة في أوقاته ، وكانت سنة رديئة الغلات ، وأتى الشتاء قاسياً بثلوجه حتى انقطع الطريق بين دمشق وبيروت أربعة وأربعين يوماً . فتأخرت الادارة على خلاف العادة عن اداء المياومات والمشاهرات ، لنحو ثلاثين عاملاً من عمال الجريدة والمطبعة ، وغلت أسعار الحاجات ، وكان الورق قليلاً في مستودع الجريدة ، وأخذنا نبتاعه بالثمن الفاحش ، وبالطبع كنت وشقيقي اللذين يشتغلان معي على تلك النسبة من الضيق . وكنت أحضر إلى ادارة الجريدة فلا أجد مكاناً أجلس فيه ، لكثرة ما تساقط من ثلج ومطر على السطوح ، فلا أصل إلى تلفيق الجريدة إلا بمشقة زائدة . وفي تلك الحقبة جاءني الرجل الذي كان يحاول ان يرشبني لأخدم دولته وأطلب ما أشاء ، فرددته بلطف ، وتظاهرت بالغنى ، ولم أقص ما وقع لي معه إلا على استاذي سليم افندي البخاري فقط ، فقال : نعما عملت ، وفي الله العوض عن هذا المال مهما كان مقداره .

ومضت أيام ونحن على هذه الحال صابرون ، لا نعرف لما نحن فيه مخرجاً ، وديوننا عند المشتركين لا تقل عن ألفي ليرة عثمانية ، لا نستطيع استيفاء شيء منها ، فاذا بأزمتنا تنفرج بطريقة ما خطرت لنا ببال . وافانا عالم من أقاصي كردستان اسمه بديع الزمان عازماً أن يطبع رسائل وكتباً فطبعناها له بسرعة ، وكانت اجرتها حسنة ، وأخذت ترد علينا من وكلائنا في الديار الشامية وغيرها سفاتج من المال هي بعض مالنا عندهم فكانت جملتها كبيرة . ووضعت قائمة بما ورد على الادارة في شهر واحد من مال ، وفينا به جميع ما علينا للمستخدمين ، وعاشت بيوتنا والجريدة ، ولم يبق علينا ذمة لأحد ، واطلعت استاذي البخاري على هذه القائمة فسر جداً وقال لي : أما قلت لك إن في الله العوض ؟ وها قد عوضك من مالك ما كان متأخراً عنك ،

ولم تلوث ذمتك بمال فيه كل الشبهة ، ولو كنت تناولت ذاك المال العظيم الذى عرض عليَّ لقتلني الاتحاديون أول يوم عثروا فيه على أوراق قنصل فرنسا ، وقد عشت بحمد الله بعد ذلك أعواماً ، ونعمت بالحياة ، وقطفت ما كان حصرماً وحراماً كله ، وقد أصبح طيباً حلالاً ، وعمرت داراً وتمتعت وعيالي بمباهج الحياة ، وربيت أولادي الستة وزوجتهم كلهم ورأيت أولادهم . وهذا من اللطف الخفي الذي لا اعرف تعليله .

أتت علينا أعوام قلت فيها البركة فكان يلذ لي الصبر على الضائقة ، ويزيد عزائي إذا أيقنت أني ما استدنت لأتوسع في النفقة مجاراة لأقراني وجيراني . عرضت عليَّ في أول نشأتي قطعة أرض في قريتي مساحتها فدانان ، فقلت لشريكي أنا لست مستعداً لابتياعها ، وغاية ما أستطيع أن اقتصده مبلغ كذا ابتاع به الارض الفلانية ، وهي أقل من نصف مساحة الأولى فقال لي : خذ هذه أحسن لك ، وتستطيع أن تقلب المبلغ المرهونة لقاءه عند المصرف الزراعي إلى حسابك ، وتدفعه مقسطاً على سنين ، فأجبته إني لا أحب التعامل بالربا دائناً ولا مديناً ، وابتعت الأرض الصغيرة فأثرتها وزرعتها وبعت منها أشجاراً للوقود ، فجمعت نحو ضعفي ثمنها في سنتين . واضطررت غير مرة إلى ابتياع أرض من مزرعتنا من أحد الشركاء فاشتريت بالربا ، فما رأيت البركة فيها ، وربما وقعت عليَّ بعد حساب الفائدة التي أديتها بضع سنين إلى الصيارف أو المصرف ضعفي ما كنت مضطراً لأخذها به ، ومع ذلك لطف الله بي .

ووقع لي أن تعرضت حياتي للخطر مرات ، ونجوت على أهون سبيل ومن عادتي ألا أتوق كثيراً (ومن التوقي عدم الافراط في التوقي) وأستمد الرأي من أصحابي إذا وقعت في مأزق ، فهم يشيرون وأقبل مشورتهم وأتحمل تبعتها وحدي . وكانت مشوراتهم سديدة أبداً ، وإذا مرض الطبيب الماهر يحتاج إلى من يطبه . وما وقعت في يد خصومي قط ، ومنهم من كان يبيت لي القتل ، ويتطلع كل حين إلى اهانتي ، ولم أُحبس ولم أُنفَ ،

وكنت أهادن الخصم وأتمهل ، وأرجىء الحملة عليه إلى وقت تكون فيه قوى المدافع والمهاجم متكافئة بعض التكافؤ .

ومن اللطف الخفي أن المصلحة اقتضت بإيماز المنتدبين أن يقام معرض الصنائع الشرقية برياستي ، بصفتي وزيراً للمعارف والفنون الجميلة في مدينة دمشق ، وفي قاعات المجمع العلمي العربي ، وكان هواة العاديات وبعض بيوت دمشق وغيرها متأثرين من السلطة لأنها أخذت عدة صناديق من النفائس إلى معرض مارسيليا عارية مسترجعة ولم تُعدها إلى أربابها . وفي هذه الحالة الروحية تحتم انشاء المعرض فأعلنت أني آخذ على عهدتي وحسابي الخاص جميع ما يعرض من الآثار ، مدة انعقاد المعرض ، فقبل بذلك حتى جماعة من الفرنسيين ، لأن الحكومة كانت فقدت ثقة الاهلين بها . وكان مقدار من عرض آثاره ومصنوعاته ٨٦ شخصاً وعرضت فيه (٦٢٧) قطعة مختلفة ، وزار المعرض أربعون ألف انسان منهم ثلاثة عشر الف امرأة (٨ — ١٥ حزيران ١٩٢٨) وكنت في مدة المعرض في قلق عظيم من تعهدي هذا لاصحاب الآثار والمهيمنين عليها ، مثل ادارة الاوقاف ، كنت أخشى السرقة والحريق وغير ذلك من المصائب ، فمَنَّ المولى بمرور هذا الاسبوع ولم يُفقد شيء ولم يعطب شيء ، وما عُرض اعيد لاربابه سالماً . وربح تجار الاقمشة أرباحاً طيبة ، وما خجلت أمام المواطنين ولا أمام المنتدبين .

أحباب الانكليز

كان رضا باشا الركابي سطوة أوائل الاحتلال الانكليزي بعد الحرب الكبرى ، عينه المارشال اللنبي حاكماً عسكرياً في دمشق . وكان عند العثمانيين برتبة عالية في الجيش ، فاستقال باعلان النفير العام ، قيل لمرض أصابه . وأصاب الانكليز باعتمادهم عليه ، وأثبتوا أنهم قد يحسنون الاختيار ، فالركابي من أقدر من تولى الأحكام في الشام بعد انتزاعها من أيدي العثمانيين . ومع أنه جندي أتقن طرفاً من القوانين ، تعلمها لما ولي ولاية البصرة بالوكالة ، ومحافظة المدينة بالأصالة وهو من فئة قليلة وقفت على روح الجماعات يشتد ويلين عند الاقتضاء ويتجاهل ويتغابى .

قلت له يوماً : أرجو أن توعز لفلان أن يواظب على عمله في المجمع العلمي ، فانه هناك الكاتب والمحاسب ، ولا يأتي إلى عمله غير مرة أو مرتين في الأسبوع ، والقبض والصرف في يده ، وبتخلفه تتأخر الأشغال . فقال مستفهماً جاداً : ومن هذا ؟ فقلت له ، باسلوب من التهكم شديد : هو قريبك الذي وضعته عندي بدون علمي ، وفرضته عليّ فرضاً ، ما هذا التجاهل يا باشا سامحك الله ؟

وله أمثال هذا كثير كان يصدر منه فأنكره ، وأذكره له فيقطب أو يتكلف التبسم ، وكأنه يقول في باطنه لا يجرؤ احد عليّ مثلك . وكنت للصداقة القديمة بيننا أذكر له ما يحضرني من غلطاته الادارية ، حرصاً على مصلحة الحكومة الجديدة ، فكان يشق عليه سماع كلامي ، وقد يكون ما بدا منه موعزاً اليه به من مقام عال ، وهو لفرط مهارته يوهم من يوهم أن ما يأمر به كله من بنات أفكاره .

كان الركابي يعتمد على الغرباء في انشاء حكومته ، أكثر من اعتماده

على أبناء البلد . وكثر ثناؤه على مدير الشرطة الفلسطيني ، وما كنت أجيبه بحلوة ولا مرة ، على نحو ما كان يبدو منه اذا ذكرت انساناً بخير أمامه ، كان يسكت وينظر الى وجهي ، كأنه لا يوافقني على قولي ضمناً .

وأقيل الركابي مرة من منصبه فزرته ، فوجدت داره محاطة برجال الشرطة السرية ، فقلت له : والله لقد شمتُّ بك ، وأنا أشهد الساعة الجواسيس يقفون في مدخل دارك ومخرجها ، وما جاءوا إلا بأمر مديرهم صنيعتك ، فأنت الآن تنال جزاءك لاعتمادك على مثله ، كأنك لم تجد من أبناء البلد من يقدر أن يكون مدير شرطة في هذه المدينة ؟ ويكون أكثر ادارة من هذا الذي أضجرتني بثنائك عليه . فسكت ، كأن الكلام غير موجه اليه .

قال لي يوماً : قل لأصحابك فلان وفلان أن يعتدلوا وإلا عزلتهم ، فقد بلغني أنهم يتجوزون في الخروج على القوانين ويضيعون الحقوق . فقلت له : إن هذه الملاحظة إذا صدرت منك يكن لها الوقع الذي تتوخاه ، فانهم أحبابك مثلي ، وأنت الذي أتيت بهم إلى الحكومة ، والأجدر بي الا أكون سفيرك اليهم بذلك . ولو كان ينوي عزلهم حقيقة ما توقف عنه ، كما فعل مع من لم ترضه حالتهم وأراد انقاذ الحكومة منهم ، فنحاهم بطرق له غريبة ، فيها كثير من الدهاء والذكاء .

كنت أقول للركابي باشا : انكم تسارعون إلى تعيين الموظفين من الفلسطينيين وفلسطين فيما أحسب ستنفصل عنا ، فان كنا نحبها فلنترك لها رجالها ، ونحن هنا في غنية عنهم وعندنا من عيارهم كثير ، والمصلحة أن نوظف من كثرت شكواهم من حرمان الوظائف ، والأولى بنا أن نستخدم الشبان ونمرنهم لننتفع بمواهبهم ، فكان يشق عليه قولي . وما أدري إن كانت هذه خطة مدبرة بينه وبين أولياء الشأن حتى يخلو الوطن القومي اليهودي الجديد من الرجال ، ويعمل اليهود في أرض الميعاد منفردين لتأييد سلطانهم عليها .

وقال لي الأمير فيصل في هذا الصدد شيئاً فقلت له : قلتم لنا أو قالوا ستكون الولايات العربية كلها دولة واحدة ، فاغتبطنا وفرحنا ، وتطوع أبناؤنا في خدمة السلطان والدك لتحقيق هذه الغاية ، ثم قلتم سيستقل الحجاز وحده ، وسورية وحدها ، والعراق وحده ، فرضينا مرغمين ، والآن تحشر الرجال كلهم في سورية وتخلي فلسطين من أبنائها ، فتقولون إنكم وفلسطين سواء . فأكد لي أن مصير سورية الجنوبية وسورية الشمالية واحد ، ولعله كان يعني أن يكون لهما انتدابان مختلفان . فقلت له : اللهم استجب ، وأكبر ظني أن هـــذا الكلام كان مما لقنه من الذين كانوا يوحون اليه من وراء ستار . ولعله كان لمن حرص كثيراً على جلب الفلسطينيين إلى سورية الجنوبية ، دخل في نقل حديثي إلى من يعنيهم الشأن . فكان درس الأمير فيصل الذي القاه عليّ فصل الخطاب في هذا الباب .

ارتأى الركابي مرة أن يصانعني ، وهو معزول عن منصبه ، فقال لي أثناء زيارته لي في داري ، وقد استقبلته في مكتبي ، وأنا وراء منضدتي : أرى أنه سينبعث علم كثير من هذه الغرفة ، فشكرت لطفه ، وما كان يصدر منه بعض هذا المدح لو كان قابضاً على زمام الأمر . لانه تتبدل نفسيته وهو في المنصب تبدلاً محسوساً على ما كنت أراه .

بدا له أن يعرّب الحكومة والأهالي ، فكان لا يسمح لأحد أن يتكلم بالتركية أمامه ، ولو كان لا يعرف غيرها ، وينفر من كل من يلفظ لفظة واحدة منها ، وقيل انه استدعى مرة ترجماناً ليترجم له كلام رجل تركي وينقل له كلامه بالتركية ، وهو يعرف التركية كالأتراك ، قضى جل عمره لايتكلم بغيرها ولا يكتب سواها .

ولما عاد الركابي من شرق الأردن ، وقد اقيل أو استقال من رياسة وزارتها ، حدثته نفسه أن يكون مع الفرنسيين كما كان مع البريطانيين ، لأنه خدم الفرنسيين خلال الثورة السورية كما قيل ، فأقبل يتودد اليهم ،

وما أدري أي خبيث وعده بمعاضدة الفرنسيين ، إذا خاض المعركة النيابية ، فتورط ودخل الانتخابات ففشل ، وكان كل رجائه أن يعود إلى رياسة الوزراء في سورية ، وأتخذ لذلك عامة الأسباب ، واستكتب الصحف والكتاب ، ناسياً أن التجلي لا يعاد ، وأن من الصعب التمتع بالحظوة في دورين .

نحي السيد الركابي مرة فجمع له عبد الرحمن باشا اليوسف أعيان البلد ، وأصر عليّ اصراراً شديداً أن أرافقهم الى الأمير زيد المشفع بالركابي فنعيده إلى عمله . ولما استمع الأمير اليهم ودعهم ، وأشار اليّ بالتخلف عنهم وقال : وأنت أيضاً يا استاذ تشفع للركابي كأنك لا تعرفه ؟ أتدرون ماذا كانت مكافأة عبد الرحمن باشا من الركابي ، لما عاد فاستلم زمام الحكم ؟ كانت مكافأته أن أثار عليه فلاحيه في البطيحة ودبابٍ على ما نقل إليّ . وإذا ثار عليه فلاحوه خسر مزارعه هناك ، وثمنها لا يقل يومئذ عن مليون ليرة عثمانية ذهبية .

ونقل لي أنه دخل عليه أثناء جلاء الترك مبلغ من المال عظيم أعطاه الأتراك أياه ليستخدمه في أمور سياسية لمصلحة الدولة التركية ، وقيل إن البدو سلبوه إياه ، والذي عرفته أنه يكره المرتشين والسارقين ، ولو صح ما يتهمه به بعضهم لكان له في آخر أيامه مال يترفه به ، وقد رأيناه مقتراً عليه على كثرة الرواتب التي درت عليه ، والهبات التي وصلته ، والنفقات المستورة التي كان اليه صرفها ، وهو غير متهم بريبة ولا يقامر .

لما دخل الفرنسيون دمشق ارتأيت أن يؤلف وفد من شبان المسلمين الذين يحسنون الفرنسية لزيارة الجنرال غوابيه ، وقلت في نفسي إن ما حسبه العقلاء قد وقع ، والعاقل من يخفف الشرّ ما أمكن . والأحجى أن يظهر شبان البلد بمظهر الكرامة . فاتفقت مع السيد صبحي الحسيبي على الأشخاص الذين يدعون إلى الذهاب ، على ألا أكون معهم . وكان الركابي دخل الدار ، وأنا خارج منها ، فسأل عن سبب مجيئي فذكر له ابن الحسيبي

ما عولنا عليه من دعوة الشبان لزيارة القائد ، فقال : إنه يطمع في أن يستغلكم . كأن بيني وبين الفرنسيين حاجزاً لا يزيله غير هؤلاء الفتية ، وكانت النتيجة التي كنت أتوقعها أن المنتدبين لم يتعرفوا الى شبان دمشق وأتوا بغيرهم ، ووسدوا اليهم الوظائف ، فكان أعظم عظيم منا يحجبه المستخدم اللبناني (الذي جرى التعويل عليه) الساعة والساعتين لا يبالي به ، وظهر للداخلين أننا أمة لا تعرف مصلحتها . وكل ذلك بفضل نصائح الركابي واساءة ظنه بي .

تأثير البيئة

لشدّ ما أشعر في مصر اني غير ما أنا في الشام، وفي الغرب غيري في الشرق، وفي القرية غير ما أكون عليه في الحاضرة، ولذلك أعذر بعض من تستهويهم بيئتهم، فتصدر عنهم آراء مستغربة متضاربة، ولا أعذر من يطلق المنطق الصحيح، مهما كان البلد الذي ينزل فيه، والنحلة التي ينتحلها، فالمنطق واحد في كل جيل وقبيل، وفي كل مصر وقطر.

حدّت شهوة الشهرة والإغراب صاحبي أمين الرّيحاني اللبناني (١) على ان يظهر مرة في مظهر مؤرخ، وما كان عُرف بغير الكتابات الادبية، ومعظم تاريخه في نجد كان املاء صاحب نجد على ما روى الراوون. فاقتبس من كتابي (خطط الشام) السيئات التي راقته وجسمها، وألبسها ثوباً من خياله، ونشرها في كتاب سماه «النكبات» حمل فيه على بعض رجال الاسلام، وزيف ما قاله المنصفون فيهم، ولجأ إلى قاعدة «خالف تُعرف»، ومما نصح به المسلمين أن يتركوا التناغي برجالهم وتاريخهم ويتبعوه، وما أعرف إلى أين؟ ولعله يقصد أن يلتحقوا به ليمتلوا ملته، وكان جاهر كثيراً أنه خرج عليها، وإن كان حبها مما أشربه قلبه، وهو معذور في ذلك، فان من المعتقدات ما يُتوارث مع الدم على ما يظهر. وغريب هذا القول ممن يدعي

---

(١) كتبت هذا قبل أن أفجع بفقده، وكنا منذ تعارفنا يحب أحدنا صاحبه محبة أكيدة، ثم طرأت بيننا اختلافات في الرأي، أهمها جرأته على الطعن بتاريخ العرب والهزوء برجال الاسلام. وكان على ما يظهر صاحب أحوال، مأخوذاً بالخيال، وبعض ما كتبه لايفهم، وآخر ما كتبه جملة مطولة في رثاء الدكتور عبد الرحمن شهبندر، أرسلها لي فلم أحلّ معمياتها، ودفعتها الى الاستاذ فارس الخوري فتلاها، وهو أيضاً لم يفهم منها شيئاً وأوصى الريحاني أن يدفن على طراز لايشعر بدينه فأبى مطارنة الموارنة الا ان يحملوه الى مرقده الأخير على حسب طقوسهم لم يُخلّوا بشيء منها، فلم يُفلت من تأثيرات رجال دينه في الحياة وفي الممات.

الفلسفة ويلقب بفيلسوف الفُرَيكة — والفريكة مزرعته التي ولد فيها — ونعته بالفيلسوف سواء كان من صنعه او صنع أحبابه جميل وعجيب .

والريحاني إذا حاول كتابة التاريخ الاسلامي ، وهو فارغ الذهن منه ، مثلي إذا توخيت ان أدون مناقب قديسه وشفيعه مارمارون ، أو بطل لبنان يوسف كرم الذي غلا بعضهم بشجاعته غلواً مضحكاً ، ليقولوا للناس إن جبلهم الاشم أنبغ الابطال كما أنبغ الفلاسفة . إن الريحاني ما تحامل على ما رأيت من تأثير البيئة ، وإن قال بالفلسفة ، ودعا إلى حرية الرأي ، وغاية ما أرجو له ومنه ألا يخرج عن المنطق .

كان الريحاني مرة عندي في الدار هو والسيد فارس الخوري يتفاوضان ، وأنا ومن حضر في ناحية بحيث نسمع كلامها ، فكان مما قالاه ان النصارى في الديار العربية بأسرها لا يكاد يتجاوز عددهم المليون والنصف المليون ، تتخذهم أوربا آلة لسلب حق الاكثرية في الاستقلال ، فالأولى بنصارى الشرق أن ينتحلوا الاسلام ، أو يهاجروا إلى أميركا أو غيرها ، ويتركوا العرب يؤلفون دولتهم الجديدة ، وهم لا يقلون عن ستين مليوناً . ومن كان يقول بهذا القول عاد ينصح للمسلمين أن يتركوا تاريخهم ويتبعوه .

أشرت غير مرة على منشيء جريدة هزلية أن يرعى رجال المسلمين قليلاً ، ولا يهزأ بهم ويسخر منهم على الدوام ، وقلت له إن الانصاف يقضي عليه إن كان لا بد من الضحك والاضحاك أن يشرك معهم مواطنيهم من ابناء دينه ، فكان يبسم لقولي ، ومن مصلحته ألا يسقط احداً من أبناء نحلته ، وقاعدته وقاعدة امثاله أن يرفع ابداً من شأنهم ، وإن كان بعضهم موضوع كل سخرية .

ورأيت صحفاً لبنانية تتجاهل ان في العالم شيء اسمه النهضة المصرية ، وما اوّلت ذلك إلا ان هذه النهضة عربية اسلامية في ذاتها ، ويسوء المتعصبين أن يعترفوا بما وصلت اليه مصر من الرقي ، وأن ينسب لغير ابناء دينهم شيء من النهوض ، وكان بعضهم إذا اضطروا الى ذكر امر عن مصر ،

يذكرونه باشمئزاز وتقزز ، وهذا من اشنع اصناف التعصب ، يحمل في مطاويه ، المكابرة في البدهيات والمحسوسات . وما إخال هذا التمويه ينطلي حتى على السذج من سكان مزارع قمم لبنان .

لي صديق من اعيان الموارنة وأغنيائهم المثقفين ، سافرت معه مرة بحراً من بيروت إلى مرسيليا ، وعدنا معاً من مرسيليا إلى بيروت وكنا طول الطريق نتصارح ونتبادل الافكار ، ونتناقش مناقشة جميلة ، وكذلك كان دأبنا كل عام منذ خمس عشرة سنة نتفاوض في السياسة الوطنية . فكان إذا ذكرت له سورية انقبض صدره ، ويزيد انقباضه إذا ذكرت له الوحدة السورية ، وبينت له فوائدها الاقتصادية والقومية ، وكان يدعي أن النصارى يذوبون في الوحدة السورية إذا تمت ، لأن الأكثرية تكون بيد المسلمين ، ويصبح النصارى اقلية ، وليت هناك من يسأله ولمَ لم يذب النصارى تحت حكم المسلمين خلال ثلاثة عشر قرناً في هذه الديار ؟

وكثير ما صرح فقال : إنكم (أي المسلمون) منحطون ونحن (اي النصارى) ارتقينا الى درجة لا نستطيع معها أن نعيش معكم ، والى اليوم لم تأتوا ببرهان على ترقيكم ، ومتى كشفتم حجاب نسائكم على الاقل تثبتون أنكم تمدنتم ، فكنت اقول له ان رجالنا اليوم احسن منهم أمس ، وان الحجاب يزول بطبيعته على ما نشهد ذلك في مصر وبعض حواضر الشام ، وان الحجاب اليوم مفقود تقريباً من القرى . ورجوته غير مرة أن ينزل عليّ ضيفاً في داري ، لأجمعه الى مختلف الطبقات من المسلمين فيسمع كلامهم ، ويحكم بنفسه أنا ارتقينا ، وأنا لسنا كما يتوهمنا المتعصبون شعباً لا يقيم للحضارة وزناً . وقال لي غير مرة : لو كان كل المسلمين مثلك لدخلنا في الوحدة معكم ، فكنت أقول له : إنك تطلب المستحيل لو كان كل المسلمين مثلي لانقرضوا ، وعجبت من هذا المنطق المقلوب ، والتمويه الذي لا يجوز على عاقل .

ومن جملة ما أورد عليّ من عيوب المسلمين قوله إنهم غير أهل للحكم وذكر لي مثالاً على إثبات قضيته وقع له في محكمة لبنانية رئيسها مسلم ،

وخلاصة ما قال ان له اراضي كان ابوه يملكها من قبل ، لم محكم له المحكمة بها لأنه غير مسلم ، وبحثت عن هذه الأرض فعلمت أنه حكم له بها في محكمة البداية ، وكان الرئيس مسيحياً . ثم اخذ هذا الرئيس واودع السجن مدة لما ثبت عليه من الرشوة ، وسألت القاضي الذي لم يحكم في الاستئناف وهو صديق لي قديم ، فعرفت ان مساحة تلك الاراضي واسعة جداً ، تبلغ عشرات الألوف من الأفدنة ، قامت عليها مزارع وأحياء وجوامع وكتاتيب ، وهي اليوم تساوي بضعة ملايين من الليرات ، وكان أبوه ادعى ملكيتها ومعه سند تمليك مزوّر، وأرادت الحكومة العثمانية القبض عليه فهلك قبل أن يقع في قبضتها ، فانظر إلى هذه الأهواء الشخصية التي مزجت الخصوصيات بالعموميات .

أبحرت مرة من بيروت قاصداً مرسيليا ، وكان رفاقي في الدرجة الأولى زمرة من أعيان تجار اللبنانيين المسيحيين من نزلاء أميركا الجنوبية عادوا بعد أن تعهدوا أهلهم ووصلوا رحمهم ، ونشقوا هواء مساقط رؤوسهم ، فتعرفت إليهم وحصلت في الحال معهم ألفة ، كأننا كنا أصدقاء من القديم وما كنت عرفتهم من قبل ، وبعضهم عرف اسمي من الصحف والكتب ، وكان معنا على ظهر الباخرة آنسة افرنسية راقية تصحبنا طول الطريق ، لا تكاد تفارقنا إلا في ساعات النوم ، فعجبت من هذا الحب الماثل بيننا وهذه العواطف التي كنا نتبادلها ، وقالت لي : عجيب تحابب السوريين ، فقلت لها : صحيح أننا أبناء وطن واحد إلا أن أول تعارفنا كان في هذه الباخرة ، فزاد عجبها ، فقلت لها : نحن السوريين على ذلك إذا كنا خارج أرضنا ، بعيدين عن المؤثرات الطائفية والنعرات السياسية .

فتح لي اولئك الوطنيون قلوبهم ، وكانوا يأسفون لتمزيق سورية إلى دول صغرى ، ويودون لو تمت الوحدة العربية ، ليكون لهم كيان في أرض المهجر ويعتزوا بقوميتهم ، على ما يرون اقل الامم شأناً يفاخر أبناؤها بجنسيتهم . ولم أعلل كلام رفاقي الأفاضل ، وكانوا يتكلمون عن عقيدة

لا رياء فيها ولا تدجيل ، إلا لكونهم عاشوا في أرض حرة ، وأدركوا فيها معاني الوطنية والقومية ، وسلموا من عسلطات رجال الدين ، وتضليلات الكهنوت الغربي . وما كانوا كالذين يدعون الفلسفة وأعمالهم على خلافها ، ولا كذاك الصحافي يُضحك قراءه على حساب المسلمين ويستثني من السخرية عمداً أبناء طائفته ، ولا كذاك الوجيه الماروني الذي يطمع أن يستولي على أرض تبلغ مساحتها مساحة ناحية كبيرة بطريقة غير شرعية ، وإذا لم توافقه المحكمة على رغبته فالمسلمون أغبياء أرباب تعصب وأصحاب أغراض ، وليسوا أهلاً لتولي الاحكام . نعم أدرك اولئك التجار الأذكياء من اللبنانيين أن بلادهم لا تنجح إلا اذا اتحد أهلها ، وتحابوا على اختلاف نحلهم وأصقاعهم وقصوا عليَّ من ويلات رجال الدين قصصاً لا يبوح بها إلا أمثالهم من المنورين الأحرار ، وما كانوا بحاجة إلى أن يصانعوني ، ولا أن يصانعوا غيري ، والذي يظهر غير ما يبطن قد تدرك حقيقته بالنظر إلى وجهه .

ثوب الرياء يشفُّ عما تحته   فاذا التحفت به فانك عاري

ولطالما قلت مع القائلين إن جماعة الانفصال عن سورية من أهل لبنان لا يبلغون خمسة في المئة ، واكثرهم ممن يطمعون في حلب المنزة ، وأن يتولوا الوظائف ويستثمروا لبنانيتهم ، والباقون وهم السواد الأعظم لا يرون غير الوحدة مخرجاً ، لما يتوقعون من ثمراتها الجنية ، يقطفها المواطنون على السواء . وكلهم لا يصورون المسلم شخصاً مرعباً ، كما يصوره رجال الدين والسياسة والمستوظفون جرياً وراء أغراضهم .

حدثني صديقي لبيب الرياشي من أدباء لبنان النصارى ، وهو الذي وضع كتاباً في الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال : سألني أحد قضاتنا في جونية عما أكتب في النبي العربي ، فقرأت له فصلاً من فصول كتابي ، فاستمع إليه وهو واقف موقف الخشوع والتأدب . فسألته لِمَ يقف على هذا الشكل ؟ فقال : إن من عادتنا أن نقف اجلالاً لمن نرى أنهم كبار

أفلا نقف لأعظم عظيم في العرب الذي هدى ثلاثمائة مليون من البشر لعبادة الخالق . ونحن وإن كنا نصارى فالواجب علينا تعظيمه لأنه رسول العرب ونحن منهم . فانظر الى هذا الأدب وقسه بما صدر من مسيحي آخر يوم احتل الفرنسيون دمشق بعد وقعة ميسلون قال لصاحبه المسلم ، وهو أخوه في الماسونية وينتحل الكثلكة : يا فلان هل بقي لكم شيء تستطيلون به علينا ، أصبحتم أنتم ودينكم ونبيكم وكعبتكم تحت أقدامنا . وكان هذا الرجل وأبوه وجده ممن عاشوا بنعمة المسلمين ، وما رأوا منهم إلا كل رعاية . فكان هذا شعوره الذي أوحته اليه بيئته ، يوم رأى أعلام الفرنسيس ترفرف على سورية ، فأهان الاسلام وصاحبه هذه الاهانة . وكأن الجيش الفرنسي اتصل به يومئذ ما ينبعث من أفواه بعض المتعصبة ، فنشر منشوراً علقه في الكنائس جاء فيه أن كل من يذكر الاسلام ورسوله بسوء يقتل بالرصاص حالاً ، فسكتت ألسن المتعصبين والحمد لله رب العالمين ، رب اليهود والنصارى والمسلمين ، ورب المجوس والبراهمة والبوذيين .

عظيمان عند ابن عثمان

ألا من حدثته نفسه أن يعرف كيف يحظّ الحظ بعض الخاملين فيرفعهم إلى مراتب النابهين في الحكومات الاستبدادية فليسمع ما قصه علي والدي :

(كنا بضعة تجار من الشاميين في استانبول ننزل في خان من خاناتها ، ولم تكن الفنادق يومئذ معروفة ، وكنا نتآلف ونشترك في النفقة والسمر . وكان يزورنا درويش شاب أسمر اللون ، جهوري الصوت ، تبدو إمارات الذكاء عليه ، وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعتمّ بعثرر ، ويكتسي عباءة وقفطاناً ، ويضرب بالدف ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم . وما كان يشاركنا في النفقة ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة . وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصيادي الرفاعي وليد قرية خان شيخون من عمل حلب .

« وجرنا الحديث في إحدى العشايا الى البحث عن أفضل من مشى على الأرض بعد رسول الله ، وذهبت بنا الآراء كل مذهب ، وأخذ كل منا يدلي بما يراه ، فصرح أبو الهدى برأي لم يرض عنه الجماعة ، وعدّوه تهجماً على الصحابة الكرام . قال إن نقطة واحدة أهريقت من دماء آل البيت أفضل من كل من مشى على الارض بعد الرسول ، فقال له مناقشوه : فأين إذاً ياجاهل يبقى ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وكبار الصحابة والائمة ، وقام أحدهم ولطم أبا الهدي على وجهه ، وحاول أن يزيده صفعاً ، فحلت بينهما ، معتذراً عن أبي الهدى بأنهم لم يفهموا قصده ، وأولوا كلامه تأويلاً ما كان يريده .

« مضت أيام انقطع فيها أبو الهدى عن مجلس أصحاب الخان ، وعرضت في غضون ذلك لبعض الشاميين مسألة اقتضى أن يكلم بشأنها ناظر الضبطية (الامن العام) فانتدبني اخواني للقيام بهذه الوساطة ، بدعوى أني أعرف

قليلاً من التركية ، وصورتي مقبولة ، وأني جسور اعتدت مقابلة الكبراء ، فذهبت الى النظارة ، واستأذنت على الناظر ، ولما فتحت لي ستارة البهو ، كان أول ما وقع عليه نظري ذاك الصاحب الذي انقذته من الصفع يوم الخان ، شاهدته قاعداً في صدر المجلس والناظر جالس بين يديه جلسة الصغير مع الكبير . وأدركت في الحال أن الشيخ أبا الهدى أصبح ذا مظهر جديد حتى صار مثل ناظر الشِّحنة على رفعة مقامه يقعد منه مقعد المخبت المتاوت . ولم ألبث أن عدّلت على رأسي عمامتي ، ورددت طرف جبتي على قامتي ، وتقدمت بأدب نحو أبي الهدى أسلم عليه أولاً ، وأظهر أني أحاول تقبيل يده . فلما شاهد أبو الهدى حركتي هذه انتصب قائماً وخفّ للسلام علي ، وعانقني بلهفة عناق الأخ أخاه ، وأخذ يسألني عن صحتي وأعمالي . والتفت إلى الباشا الناظر يعرفني اليه تعريفاً جميلاً ، ويثني علي الثناء المستطاب ، قائلاً هذا فلان من أعيان دمشق وكبار تجارها ، وهو على جانب عظيم من الأدب والفصاحة ، ثم تكلمت في المسألة التي جئت من أجلها فانحلت في الحال .

« وبعد مغادرة النظارة علمت أن السبب في تقدم أبي الهدى هذا التقدم السريع هو أن امرأة الناظر هذا أصيبت بمرض أعجز الأطباء ، وكان يحبها حباً جماً ، فتذرع بكل ما في وسعه لشفائها ، ولما كاد ييأس من عافيتها وصفوا له أبا الهدى الصيادي ، وما يكتب من حجب وتمائم ، وما يقرأ من أدعية وعزائم ، فاستدعاه ليطب حبيبته بما عنده من بضاعة المشايخ ، بعد أن عجز الطب الحديث عن برئها . والغالب أن الشيخ لم يقطع ترتيب الطبيب ، وترك السيدة تتناول ما وصف لها من أدوية وعقاقير فبرأت بعد أيام . فعظم مقام الشيخ في عين سيدها وشاع بذلك ذكره في دار الملك ، وكثر قصاده والمعتقدون به ، وجمهور الترك يحسنون ظنهم بمن يأتيهم من طريق الدين بما يلائم عقليتهم ، ويسارعون إلى تصديق من يعتقدون فيه الخير .

« ولم تمض أيام حتى أصيبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثاني

بعارض يشبه عارض امرأة الناظر ، فعلم الوزير بالامر وعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبي الهدى مع زوجه ، وقال فيه كل خير حبّبه إلى السلطان ، فاستدعاه لمداواة حظيته بأدعيته ، فجاء يداويها بما داوى به امرأة الناظر ، فشفيت الجارية بعد أيام . وأعقب ذلك اتصال أبي الهدى بالسلطان عبدالحميد.

أقبلت السعادة على الشيخ الصيادي فتقمصها ، وسيق اليه العز بعد الخمول . فاصبح مستشار السلطان ، وأحد الرجال الممتازين في دولته ، يستأمره في المسائل العظمى ، ولا لصبر نفسه عن فراقه زمناً طويلاً ، وكان من أعماله مكافحة المذهب الوهابي لئلا يتسرب إلى العراق والشام ، لأن السلطان كان يخاف على ملكه في ديار العرب من الوهابيين وصاحبهم . وقد يتعمد الشيخ أحياناً اظهار الغضب على السلطان ، فينقطع عن غشيان قصره مدة ، فلا يرى السلطان بداً من أن يسترضيه بالهبات العظيمة ، ليعود إلى ما كان عليه معه من التواصل ، وأصبح صاحب الكلمة العليا حقاً بين أرباب الدولة ، والشفيع الصادق الذي لا ترد شفاعته ، يشير على السلطان بنصب من يرضى عنهم من الرجال ، وبنصب حتى (الصدور العظام والوزراء الفخام) وبعمله هذا أصبحت الوزارات أو بعضها رهن اشارته في كل ما يطلب اليها .

وكان من سياسته أن يحمل سلطانه على الاعتقاد أنه صاحب النفوذ الاكبر في الولايات العربية ، رضاه رضا العرب وغضبه غضبهم ، وأن عرب السلطنة العثمانية في قبضته ، يحركهم ويسكنهم كما يشاء . واقتضته هذه السياسة أن يتخذ لها من الذرائع السرية والجهرية ما يلجأ اليه بعض الماكرين من السياسيين الماهرين ، ويتحيل لبلوغ مقصده بكل ما أوتيه من ذكاء ودهاء . ولقد رأى من متممات هذه السياسة أن يفتح بابه لكل طالب ، فشخص اليه أرباب المصالح من الاقطار العربية ، يتوسلون بجاهه للحصول على رغائبهم . هذا يريد أن يتولى القضاء أو الافتاء ، وهذا يرغب في ترقية درجته في دائرته ، وهذا ينشد عملاً يعيش به في بلدته ، وهذا تحلب شفتاه لاحراز رتبة وتقلد وسام ، وهذا يكتفي بأن يثبت له نسبه ويصادق عليه ، وهذا يطمع

في الاستيلاء على وقف عظيم ، وهـذا ينازعه جاره او شريكه في أرض ويحاول هو استصفاءها كلها ، كل هؤلاء ومن على شاكلتهم يفدون على السيد أبي الهدى فينشلهم من الفقر ، ويسوّدهم على الدهر .

وعلى ما بلغ الشيخ من مقام سام ، ظل محافظاً على ما كان عرف به أول أمره ، فلم تلهه مباهج الحياة ولا القرب من خليفة الترك ، ولا ما كان يتمتع به من جاه عريض ، عن ممارسة طريقته ، والولوع بالانشاد كما كان ينشد ليالي الخان مع مواطنيه الذين ماعرفوا قدره . فأقام إلى جانب قصره لهذا الغرض زاوية ، ينزل بنفسه إلى حلقة الذكر فيها ، مرتين في الاسبوع ، وينشد ، وهو يضرب على الطار ، ما طاب له أن ينشد . ويترنم بقصائد كان يؤثرها ويقول إنهـا من شعر شيخه الرواس ، زاعماً ان هذا الشيخ كان بغدادي الاصل ، تعلم في أزهر مصر ، وأنه وافاه في آخر عمره إلى قرية خان شيخون ، وأعطاه الطريق ودفع اليه شعره ولقّنه سره . وقد بنى الصيادي لشيخه زاوية في مدينة السلام ، وفاءً لحقه عليه ، وتكريماً لاسمه ، وتنويهاً بتقواه ، كما بنى مثلها في أماكن من ديار العرب ، رأى حاجتها ماسة إلى نشر طريقته . أما الشيخ الرواس صاحب الشعر الذي كان محبباً إلى قلب أبي الهدي فقد حدثني الثقة أنه شخص موهوم ، وما عرف رجل اسمه الرواس صاحب طريقة وشاعر مقبول الشعر . سرّ من الاسرار لم ينكشف لأحد ،

يقول بعضهم إن أبا الهدى لم يكن على شيء كثير من العلم والأدب أول ظهوره ، فلما عظمت شخصيته جلب معلمين لأولاده ، فكان بحجة أنه يلاحظ دروسهم يستمع لما يلقيه الاساتذة ، وبذلك تعلم ما قوي به على وضع بعض كتب في التصوف والأدب بلغت نحو أربعين رسالة وكتاباً . وقيل إن بعض خواصه نحله بعضها ، وإنه ما كان ينظم ولا ينثر ، والناظمون والناثرون بعض قاصديه وعفاته . على أن من زاروا الشيخ في أواخر أمره كان يستهويهم بجميل حديثه ، وسعة محفوظه ومكارم أخلاقه ، وشدة عطفه على العرب من دون سائر العناصر العثمانية .

وأهين الشيخ في الانقلاب العثماني (١٩٠٨) اهانة لا يليق صدورها من أولياء الأمر يومئذ ، سلطوا عليه الرعاع ، وهم يحملونه مريضاً إلى الحبس وهو شيخ معمر ما كان مع السلطان في مقام المتجسس ، بل في مقام الناصح المرشد ، دلت على ذلك تقاريره التي عثر عليها في جملة ما ظفروا به من اضبارات السلطان المخلوع . وأكد العارفون انه ما خاطبه مدة اتصاله به إلا بما فيه نفع الدولة ، حتى لقد قال كبير حزب الاتحاد والترقي لجماعته ، لما عرتهم الدهشة مما في هذه الأوراق : اكتموا الأمر ولا تنشروها ، وإذا فعلتم تعلو منزلة أبي الهدى في النفوس ، وربما عاد القوم فقدسوه وتبركوا به ، فتزيدون ولياً آخر إلى أوليائكم .

هذا مجمل ما يقال في أولية السيد أبي الهدى وخاتمته ، وهو لم يتوخ في معظم ما أتاه إلا رضاء السلطان لتدوم له نعمته ، وما كان في الواقع غير رجل وصل إلى ما وصل إليه بمواهبه وجربزته . وما كان لنغمة الاصلاح مكان في نفسه ، ولا لتوسيد أعمال الدولة للكفاة شأن عنده ، بل كان هواه في تكثير عدد أنصاره ، وارضاء المرتزقة الذين دأبوا في كل زمن أن يعيشوا على عاتق الملة حلمة طفيلية تمتص الدم وتمرق العظم . والمصلحون أفراد في كل امة ، وابو الهدى ما ادعي أنه منهم ، فهو قد نشأ على حب الطريقة ، والتغني بالجمال ، والغرام بالخلوات ، وبقي طول اتصاله بالسلطان لا هم له في الظاهر إلا بث دعوته واثبات نسبته . سعى لما فطر عليه وأخذ من نفسه ، ولا ينفق الانسان إلا مما عنده .

بعد أن استمتع أبو الهدى بالحظوة لدى ابن عثمان أعواماً ، وخدم السلطنة العثمانية بمحاربته الوهابية ، جاء رجل آخر من أبناء العرب نفق عليه بأسلوب خالف فيه اسلوب الأول ، وخدمه في سياسته الداخلية والخارجية ، وكان من عادته أن يبدد أوهامه ، ويجرئه على ساسة الغربيين ، ويقفه على أحابيلهم ودسائسهم ويقول له أبداً : إن دول الغرب إذا وقع

اتفاقها على الدولة فلا رجاء في بقائها ، أما وهي متخالفة فعلى السلطان أن يسرح ويمرح ، وألا يلتفت إلى ما يلقيه بعض رجاله في رُوعه بتخويفه غضب رعاياه وغضب اوربا ، فهذه مسائل ليست في الحقيقة مما يجب أن يأبه له أمير المؤمنين .

هذا الرجل من أهل دمشق ينتسب إلى قبيلة الموالي العربيه ، جاء السلطان العثماني بجهاز لا بأس به من لغات ومعلومات حقوقية ومالية ، واسمه أحمد عزت العابد ، من أسرة ذات وجاهة وسابقة في خدمة الدولة . وكان أيضاً نادر الذكاء ، واسع الحيلة ، أوصله إلى المليك أحد كبار مقربيه ، وكان من قبل في منصب عال في الاستانة ، فاختبره السلطان ثم جعله موضع ثقته ، واتخذ منه رجلاً يرسله في المظالم ، ويعوّل عليه في الخطوب .

كان اسم وظيفته الرسمية قرين الحضرة السلطانية والكاتب الثاني في القصر الملكي ، وعمله في الحقيقة من أهم الأعمال . كان ينظر في الارادات السلطانية ويرى فيها رأيه ، وقد يوقف نشر بعضها بعد صدورها إذا وقع فيها على نقص ، أو ما يلحظ منه ضرر يعود على السلطان أو السلطنة ، فتعاد الارادة لتلبس قالباً ثانياً ثم توشح بالاسم السلطاني ، أو يصرف النظر عنها بالمرة . والسلطان يحمد ذلك من معتمده ويرتضيه ، لاعتقاده اخلاصه ومعرفته . وأكد العارفون أنه كانت تعرض للسلطان في الليل عوارض تضطرب لها أعصابه فتصدر بعض اراداته في تلك الساعة خداجاً ناقصة . فمنزلة أحمد عزت باشا في القصر كانت إذاً منزلة المستشار الثقة وصاحب الخبر الأمين .

تفانى ابن العابد في حب مولاه ، وكان يهون عليه أن يحتمل ضروب الاهانات ، وأن تشوه صحيفته عند الخواص والعوام إذا كان في ذلك رضا سلطانه ، وربما كان من أهم أعماله مراقبة أحوال الوزارة وما تنقضه وتبرمه ، وكثيراً ما يلقى من ذلك عنتاً إذا كان رئيس الوزارة أو أحد وزرائها حراً أبياً كما وقع أن هجم عليه مرة رضا باشا وزير الحرب وضربه بالكرسي على رأسه فأدماه ، لما دخل عند انعقاد مجلس الوزراء ، وليس

من حقه أن يدخل إليه ولا أن يتكلم فيه ، وكان الوزراء يتفاوضون في ثورة اندلع لهيبها في اليمن ويفكرون بإرسال حملة تطفئها .

نعم كان يجعل من نفسه مجناً يدرأ به عن سيده ، فيحتمل دونه تبعة أعمال سياسية خطيرة . ووقع له لما خبأ في جيبه برقيات أتت من قائد الحملة اليونانية ، لأن مولاه كان يحاول التسويف في اعطاء الجواب ، ولا يحب في باطنه أن يدخل في حرب مع اليونان ولا مع غيرهم . فرضي ابن العابد أن يطعن به الطعن الشديد ، ويُغضب رجال الدولة ، وكانوا يرون اشهار الحرب على العدو ضربة لازب .

وربما لم يحنق الأتراك على أحد من أبناء العرب الذين شاركوهم في الحكم مثل حنقهم على ابن العابد ، جاهروه بالكراهة الشديدة ، وكراهتهم له ناشئة من استئثاره بمقدرات المملكة ، وببعض الغنائم التي كانت وقفاً على أفراد منهم ، ولأمور كانوا يعزونها اليه تتعلق بالأعراض . وحدثني أحد من اختلطوا به كثيراً أن حب قوميته كان ماثلاً فيه كل المثول ، حتى ليجهر بقوميته أمام أعرق الأتراك في التغني بقوميتهم ، ولطالما أظهر لهم الوشم الذي طبع على معصمه الأيمن ، وهو يوقع الأوراق الرسمية ليريهم أنه فخور بعربيته ، وأن أصحاب الدولة في حاجة ماسة اليه ، على طول استئثارهم بأمور الملك ، ولكن هذه الفصول أشبه بالهزل منها بالجد . ولو كان على اخلاص فيما زعم لأتى بدليل حسي على حبه قومه ، ومن يهوى أمته وكان في مثل مقامه ينهض بها ويدلها على الطريق السوي ويحقق لها امنية من أماني المصلحين .

وإذا جئنا ندرس أخلاق المترجم له فلا نجدها تخرج عن أخلاق سائر المتعلمين من أبناء السلطنة في ذلك العهد ، يتقنون لغة الدولة للتسلق إلى المناصب ، ويتفقهون فيما يلزمهم من العلم ، ليجدوا السبيل إلى تسديد أعمالهم ، ويجمعوا أموالاً من طرق يستحلونها . ولم نسمع أن أحداً من أبناء العرب على العهد الأخير بذل لقومه من ماله وجاهه ما ينفعهم حقيقة ، ومنهم من كانوا إذا خلوا بالأتراك يبرؤن من قوميتهم ويشتمون قومهم . أما أبو

الهدى الصيادي وعزت العابد فقد أرضيا الناس بالقشور ، وقد تكون مُرَّة ومضرة أحياناً ، فأعمياهم بالمناصب والرتب والأوسمة ، وحملا حثالات من الموظفين على رقاب الامة حتى ضجت بالشكوى من مظالمهم واستباحتهم كيد الضعفاء . كان من دواعي تقدمهما كونهما من أبناء العرب ولم ينفعا من تقدما على حسابهم بشيء يذكر . وكان السلطان يصطنع العرب وغيرهم من العناصر ليقوى بهم على الترك ، وهؤلاء كانوا يبغضونه وما زالوا به حتى خلعوه .

كان عزت العابد مثل رجال السلطنة في أخـلاقه ، ولا يتيسر أن تكون سيرته أطيب من سيرتهم في مملكة غاية ما يقال فيها أنها مجموعة عناصر متشاكسة ، نصف أهلها على النصف الآخر جواسيس ، كما قال أحـــد الظرفاء ، وفي عهد سلطان حببت اليه الوشايات حتى أصبح الابن يتجسس على والده ، والمرأة على زوجها ، وهو لا يرى سلامة ملكه إلا إذا كان رجاله مختلفين ، وامته متدابرة متباغضة ، كأنه كان يحب أن يحكم رعيته بالدسائس لا بالعدل والاحسان .

وبينا كان الشيخ الصيادي متوفراً على تأييد نفوذه في ارض العرب ، ودعوته اناشيد وطارات ، وخوانق ورباطات ، كان أحمد عزت باشا يجد لانشاء الخط الحديدي الحجازي من حيفا إلى درعا ومن دمشق إلى المدينة ، لتربط جزيرة العرب بآسيا الصغرى رباطاً محكماً ، واليه يرجع الفضل بعد اعانات العالم الاسلامي في تمديد هذا الخط العظيم ، وقيل إنه ما انتفع بشيء من أمواله . ولو تأخر سقوط عبد الحميد عامين آخرين لاتصل الخط بمكة ثم بصنعاء .

لهج عزت باشا بتجهيز الشام والحجاز بالكهرباء ، وخطوط الحديد والترام ، كما لهج منافسه بعمل كل ما يؤثر في أفكار أهل الأمصار ، ومن الطرق إلى ذلك ارضاء قصاده ، وكان يعاني من تثقيلهم ما لا يكاد يحتمله انسان . وخدم عزت باشا مولاه أيضاً في المسائل العربية ، وكان ملماً بها لأنه عاش زمناً في الشام حتى بلغ الكهولة ، فعرف نفسية العرب

أكثر من رجال القصر السلطاني ، ومعظمهم لم يخرجوا من فروق الى بعض الولايات إلا على سبيل النزهة أياماً معدودة . والغالب أن سلطان العثمانيين صنف كبار رجال سلطنته أصنافاً صنفاً منهم احتفظ به لخدمته في العاصمة وآخر أرسله إلى الولايات . وابن العابد جمع تجارب أهل القاصية والدانية من رجاله .

كان عمل العربيين العظيمين عند السلطان متشابهاً من وجه ، ومتخالفاً من آخر ، وهو صدق السلطان عن الاخبار ، وكانت المنافسة بينهما على أتمها ، قضت سياستها أن يعرف (ولي النعم) أنهما عدوان لدودان ، فكان أحدهما يتكلف الطعن بالآخر ، ويظهر كل واحد مساوئ قرينه ، ويتزيد في بغضه له .

مات ابو الهدى فقيراً ، وكان متلافاً مسرفاً ، وهلك زميله غنياً موسراً ، ضاماً إلى ثروته الأصلية من رواتبه الضخمة والانعامات السلطانية المتواترة عليه ، عشرات الألوف من الليرات ، أخذها من الامتيازات والشركات وغيرها ، فعدت ثروته بمئات الالوف من الدنانير ، وكان جد عارف باستثمار الأموال وانتهاز الفرص للاثراء ، وهو إلى هذا مقتصد اقتصاداً هو البخل بعينه .

كان الأول قروياً من بيت فقير ، وكان الثاني مدنياً من بيت غني . عانى الأول شيئاً يمت في ظاهره إلى المعاد ، وعني الثاني بما يحتاجه من القوانين وعلوم السياسة . فكانت تربية الأول تربية قديمة ولك أن تقول إنها تربية ابن القرن الحادي عشر من الهجرة ، وتربية الثاني تربية ابن القرن التاسع عشر للميلاد . حاول الأول أن يعيد الخلق إلى ماض خيالي لانفع منه ، وحرص الثاني أن يدفع ببلاده إلى الأمام بعمرانها ومدنيتها . استفاد الأول في حياته ثناء من أحسن اليهم ، وما نفعه يوم سقوطه ، واستفاد الثاني ما كثرت به أمواله فكان عملياً في حياته ما أهمه المدح ولا القدح ، ولا ثناء صحيفة ولا قول شاعر . عشق الشيخ المعنويات وهام الباشا بالماديات .

الرجال الذين عرفتهم في مصر

دخلتُ مصر لأول مرة (سنة ١٩٠١) وبدأت أتعرف إلى رجالها ولا سيما رجال الصحافة منهم وكانت كثرتهم الغامرة يومئذ من أبناء سورية ولا سيما من لبنان. وكان الشيخ عبد الحميد الزهراوي الحمصي نزيل دمشق ألّف رسالة في الفقه والتصوف وطلب مني أن أطبعها له في القاهرة ففعلت. وعرف اسم الطابع من البريد، لأن الرسائل الواردة من مصر تفتح كلها. وعمل الجواسيس من هذه الرسالة موضوعاً يتقربون به إلى ولاة الأمور، فكان طابع الرسالة كمؤلفها من المغضوب عليهم. فاضطررت إلى البقاء في القاهرة ريثما تسكن العاصفة وينسى الذنب الذي اقترفته.

وكانت جريدة (مصباح الشرق) أرقى جريدة اسبوعية صدرت، يحررها محمد بك المويلحي ويؤازره فيها أبوه ابراهيم بك من أكبر كتاب ذاك العصر، وأقدرهم على كتابة الهزل في الجد. ويطبعها في المطبعة العمومية بشارع عبد العزيز حيث يطبع «الرائد المصري» الذي بدأت احرر فيه في الشهر الثاني من نزولي مصر.

ولم اجرؤ على التعرف إلى المويلحيين، وخصوصاً الاب، وتباعدت عنه لما رأيته ينال كثيراً من استاذي الشيخ محمد عبده، ويتقول عليه ما لم يقله، ويصنع عليه أموراً لم يفعلها، وقيل انه كان مدفوعاً إلى ذلك من مقام عال. وأنا كنت يومئذ أعشق الشيخ، وأفتخر بالانتساب إليه، واعجب ببلاغته والقائه، وأدهش بسيرته وحريته. وكنت أحضر دروسه في التفسير مرتين في الاسبوع في الرواق العباسي في الأزهر. وأغشى مجلسه الخاص في داره بعين شمس مرة في الاسبوع. وسمعت أحد الحاضرين في بعض مجالسه يقول والمجلس غاص بأصحاب الشيخ: أرى ابراهيم

المويلحي في هذه الأيام ساكتاً عن مولانا الاستاذ . فقال الشيخ : أنا أحمد الله على ذلك ، ولولا أن الأسد مصاب بالنسيان لافترس جميع الحيوانات . أو ما هذا معناه .

لقيت من الشيخ محمد عبده أول تشرفي به عطفاً استعبدني به ، ولقد قال لجماعته ساعة اجتمعنا أنه قرأ ما كتب في مشروع السكة الحديدية الحجازية ولم يدرك الغاية منها ، ولا تخيل عظم هذا العمل ، ولما قرأ ما كتبته ، وأشار إليّ ، في مجلة المقتطف ، وقع في مقالتي على مالم يقع على مثله في الجرائد الاخرى . فعندها شخصت الابصار اليّ ، وقد عرّفني إلى جماعته بما قال تعريفاً مقبولاً نفعني ، وما أظنه كان يقصد بالتنويه بعملي إلا الأخذ بيد شاب مغمور إلى طريق الشهرة . وبالفعل كان من حسن حظي أن تعرفت بعد هذه الجلسة إلى كثير من الرجال ما كان يتيسر لي أن أعرف أمثالهم في أشهر طويلة . وكان يوم الاستقبال في داره بعين شمس أعظم واسطة لمعرفة طبقات مختلفة من أعيان الامة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم .

كان الشيخ إلى علمه الواسع رجل سياسة عظيم ، يستخدم الاساليب السياسية لنفع الامة . رأيت الشيخ محمد شاكر ، وكان من أذكى الأزهريين في عصره ، يحمل في بعض الصحف على الشيخ بامضاء مستعار . وما راعني وأنا عنده في عين شمس جالس في المجلس وما كان أتى أحد من الزوار ، إلا والشيخ شاكر يحضر ويسلم على الشيخ تسليم حب وتعظيم ، ويقبل راحة الشيخ من قفاها وباطنها ويبالغ في احترامه ، فاستغربت ذلك ، وكأن الشيخ لاحظ هذا فما زادني على نظرة بابتسامة وعلمت بعد ذلك أن الشيخ هو الذي أشار إلى الشيخ محمد شاكر أن يغمزه في الأحايين ، ويظهر للملاء أنه من خصومه ، ليقنع القصر أنه واياه على طرفي نقيض . ذلك لأن الشيخ كان يريد اصلاح معهد الاسكندرية ، وما كان يرى من رجال الأزهر من يحسن الاضطلاع بذلك غير الشيخ شاكر . واعتقد أن الجناب العالي لا يرضى بالشيخ شاكر لهذا العمل ، إذا كان موصى عليه

من الشيخ محمد عبده . فأوعز إلى الشيخ شاكر أن يظهر الخلاف عليه ، فتم له ما أراد من اصلاح المعهد الاسكندري على يد الشيخ شاكر . وكان المشهور أن الشيخ شاكر من أخصاء الشيخ ، وهو الذي اقترح على لورد كرومر أن يجعله قاضي قضاة السودان ، لكفاءته وبعد همته .

كنت أعلم أن الخديوي عباس كان يعجب بالشيخ محمد عبده ، ويعتمد على رأيه ويستشيره في الأزمات ، ثم غضب عليه فتقدمت بعض الصحف تنادي باسقاطه . وقيل إن سبب غضبه منبعث من كونه قاومه في بعض مسائله الخاصة في الأوقاف ، وكان ذلك مبدأ المداوة . وكان العبث بأموال الأوقاف على ما روى لي صديقي عبد الرحمن بك فهمي (وكيل وزارة الأوقاف سابقاً) السبب الأكيد في جعل وزارة الأوقاف وزارة برأسها كسائر وزاوات مصر تابعة لمجلس الوزراء مستقلة في موازنتها .

كان الفضل في تقديمي الى فضلاء المصريين في رحلتي الأولى إلى مصر لصديقي رفيق بك العظم والسيد محمد رشيد رضا وكان من أعظم أماني النفس أن أتعرف الى علماء القطر وادبائه ، فقرت العين منهم بنفر لم أشهد مثلهم في أرض الشام . ولا سيما جماعة الشيخ محمد عبده وجماعة دار العلوم ، وهم أيضاً من أصدقاء محمد عبده يفتخرون بالنسبة اليه . وكان شوقي اليهم لا يوصف بعد أن غادرت القطر في الرحلة الاولى على ألا أعود اليه ، لكثرة ما كنت متبرماً بالعيش فيه . فلما أقمت شهراً في بلدي عاد الحنين إلى مصر وأهلها . وما أعظم تبدل الحالات النفسية .

كان أصحاب الشيخ المفتي بحكم منصبه أخلاطاً ، المتخرجون في دار العلوم نمطاً واحداً . وتمقد اجتماعات هؤلاء كل مساء في قهوة متاتيا أمام حديقة الازبكية ، والبها كان يختلف المشايخ والافنديه والبكوات والباشاوات : محمد المهدي . أحمد الاسكندري . محمد الخضري . عبد العزيز شاويش . حسن توفيق العدل . سلطان محمد . حفني ناصف . أحمد ابراهيم . حسن منصور . محمد دياب . محمد عبد المطلب . وكلهم تلاميذ دار العلوم وأكثرهم يدرس

فيها أو في مدارس اخرى ، وكان يرأسنا الدكتور عثمان باشا غالب مدير القصر العيني ، وهو عالم بالطب والمواليد الثلاثة ، وله تآليف جليلة وثقافة افرنسية ، يحسن هذه اللغة كما يحسنها أدباؤها . ويختلف الينا شاعر النيل حافظ ابراهيم . ولا تسل عن روعة ذاك المجلس ، وإن كان أكثر من فيه من الشبان ، ولكن شبان ولا كالشبان ، ومجلسهم في الحقيقة مجمع علمي في مقهى ، تسمع فيه من كل فن خبراً .

هذا عدا من كان يختلف إلى هذا المقهى من رجال العلم والأدب ، وكان مجيئهم على غير اطراد . أمثال علي بهجت ، اسماعيل رأفت . مصطفى لطفي المنفلوطي . محمد لطفي جمعة . احمد مفتاح . وبصورة مستديمة أمام العبد الشاعر . ويجيء إلى هذا المجلس بعض الصحافيين ، وان كان عشهم في قهوة اسبلنديدبار في شارع ابراهيم باشا . وهناك تلقى محمد مسعود . حافظ عوض . داود بركات ، يوسف الخازن . أحمد الألفي .صادق عنبر . نجيب شاهين . اسكندر شاهين . محمدالسباعي. وليالدين يكن. ابراهيمسليم النجار. خليل زينية. سليم سركيس . علي يوسف الكريدلي . الياس فياض . طانيوس عبده . سامي قصيري . توفيق حبيب. يوسف يكن . يوسف البستاني . مصطفى الدمياطي . احمد حليمي . ومن علماء السوريين وأدبائهم الراتبين في هذا المقهى . سليمان البستاني . رفيق العظم . شبلي شميل . عبدالرحمن الكواكبي . خليل سعادة . رشيد رضا . خليل مطران . داود عمون . وبعد حين انضم اليهم الشيخ طاهر الجزائري ، ولأجله كان يحضر احياناً أحمد تيمور بك واحمد زكي بك العالمان المشهوران . ويتردد اليها كثير من رجال القضاء والادارة امثال محمود رشاد . اسكندر عمون . سعيد شقير . نعوم شقير . ابراهيم مصور وهناك كثير من الأدباء والعلماء لا يختلفون الى المقاهي كثيراً ويقصدهم من يريدهم في بيوتهم ومكاتبهم أمثال قاسم أمين . فتحي زغلول . حسن عاصم . محمد فريد . محمود سالم . محمد محمود التركزي الشنقيطي . ابراهيم اليازجي . يعقوب صروف . فارس نمر . محمود سامي البارودي . اسماعيل صبري . أحمد شوقي . عبد العزيز فهمي .

أحمد لطفي السيد . جرجي زيدان . علي يوسف . مصطفى كامل . أحمد كمال . اسماعيل حسنين . محمد الببلاوي . عبد الحميد البكري . عبد العزيز محمد . عبد المحسن الكاظمي .

ولم يكن يذكر في مصر يومئذ من يتولون زعامة الآداب والعلوم اليوم مثل محمد مصطفى المراغي . علي مسرور الزنكلوني . محمود أبو العيون . طه حسين . علي مشرفة . سليم حسين . ابراهيم الهلباوي . عبد الرزاق السنهوري . محمد حسين هيكل . مصطفى عبد الرازق . عبد الرحمن الرافعي . أمين الرافعي . مصطفى صادق الرافعي . أحمد أمين . أحمد زكي . علي ابراهيم . عبد القادر حمزة . منصور فهمي . عباس محمود العقاد . ابراهيم عبد القادر المازني . انطون جميل . خليل ثابت . عبد المنعم رياض . محمود شلتوت . محمود عزمي . أحمد حسنين . صادق جوهر . محمد توفيق دياب . عبد الحميد حمدي . أمين سرور . اسعد لطفي . سعيد لطفي . أسعد برادة . امين معلوف . أحمد نسيم . محمد الهراوي . أحمد الكاشف . أحمد محرم . علي فؤاد . محمد رياض . عبد الحميد العبادي . عبد الوهاب عزام . عبد الرحمن عزام . أحمد حسن الزيات . محمود الزناتي . محمد عبد الوحد خلاف . عبد الوهاب خلاف . زكي محمد حسن . أحمد عاصم . محمد عوض محمد . عبد الرحمن البرقوقي . عبد العزيز البشري . احمد فهمي العمروسي . أحمد ضيف . أحمد العوامري . علي الجارم . أحمد فريد الرفاعي . حسن ابراهيم حسن . محمد أحمد الغمراوي . أمين موسى قنديل . توفيق الحكيم . مصطفى زيادة . أحمد عبد السلام الكرداني . وحيد الايوبي . ابراهيم مصطفى . عبد المجيد نافع . حسن الشريف . حسن السندوبي . محمد بدر . محمد عبد الله عنان . علي فكري . اميل زيدان . امين الخولي . شفيق غربال . صبري أبو علم . محمد فهيم . محمد أحمد جاد المولى . محمود تيمور . محمد فريد أبو حديد . أحمد زكي أبو شادي . محجوب ثابت . أحمد عيسى . جرجي صبحي . ابراهيم رمزي . طنطاوي جوهري . أحمد خليل . فؤاد صروف . محمد هاشم عطية . عبد الرحمن الجزيري . الدمرداش محمد . ابراهيم

مدكور . احمد مصطفى المراغي . كامل كيلاني . راشد رستم . محمد أمين حسونة . عبد الوهاب حمودة . أمين واصف . نسيم صيبعة . يوسف كرم محمد صبري . مظهر سعيد . أمير بقطر . عبد الله عفيفي . فكري اباظة . حسين شفيق المصري . أحمد وفيق . سلامة موسى . محمد الصادق حسين . محب الدين الخطيب . ابراهيم جلال . صالح جودت . عبد العزيز أحمد . محمد عبد الغني حسن . توحيد السلحدار . أمين عثمان . أحمد الشايب . حافظ رمضان . ابراهيم دسوقي أباظة . فؤاد أباظة . علي أدهم عبد الحميد السنوسي . مصطفى نظيف . حسن القاياتي . محمود محمد شاكر . أحمد محمد شاكر . محمد بدران . عزيز خانكي . حنفي محمود . عبد الحميد بدوي علي توفيق شوشه .

هؤلاء الذين عرفتهم في الدور الأخير من العلماء والادباء ، وقرأت كتبهم ومقالاتهم وعاشرتهم وجالستهم وهم جيل جميل ، وأكثرهم بين الأربعين والخمسين وقليل منهم تجاوز الستين . وبعضهم سبقونا إلى رحمة الله . ولعل هناك من علمائهم في القطر لم أحظ بلقائهم وأعرفهم من كتبهم أمثال أمين سامي . محمد فريد وجدي . أو هم ممن شغلتهم مناصبهم عن اظهار علمهم واشتهروا في ناحية اخرى وهم في حقيقتهم علماء مفكرون ، ما نسوا خدمة الآداب على كثرة ما لديهم من الشواغل . عرفت منهم حافظ عفيفي . أحمد شفيق . علي ماهر . بهي الدين بركات . طلعت حرب . محمد علي علوبة . محمد حلمي عيسى . نجيب الهلالي . صبري ابو علم . محمد العشماوي . علي الشمسي جعفر ولي . محمد رياض . علي زكي العرابي . سني اللقاني . سليم حسن أحمد فخري . عادل غضبان . السيد احمد صقر . شوقي ضيف . عدا من نسيتهم ولم يبقوا على خاطري .

أخرجتْ مصر في العهد الأخير عظماء في معظم الفنون والعلوم ، وتغير نظام الأزهر فأخذ يخرج من دار العلوم والجامعة طبقات من الأدباء والباحثين ما كان لمصر ولا للشرق العربي عهد بأمثالهم ، فنبغوا وساعدهم على نبوغهم كونهم من أمة متألفة منذ عهد محمد علي الكبير ، وكان لهم

مما تدر ديارهم من أخلاف الرزق ، ويفيض فيها من معين الغنى ، أكبر معوان على التثقف والتعلم . يضاف إلى ذلك ما خصّ به المصري من ذكاء فطري ، وما امتازت به أرضه لقربها من اوربا ، فكان احتكاكهم بالغربيين أكثر من جميع أمم الشرق . ولا يكاد يجول في الخاطر فن إلا ونجد فيه اليوم اخصائياً أو عدة أخصائيين ، وأكثر ما غلب عليهم من العلوم علم الحقوق والطب وهندسة الريّ وهم متأخرون في التجارة والصناعات ، لا يضاهون في مضمارها الرومي والارمني واليهودي والطلياني والسوري من سكان حوض البحر المتوسط .

قال لي أحد أصدقائي في القاهرة منذ بضع سنين إن فلاناً يريد أن يتعرف إليك ، فقلت له : أرجئ ذلك الآن . وسألني عن السبب الذي من أجله استنكفت عن الاجتماع إلى صاحبه . فقلت له إن من عرفتهم من الرجال في هذا البلد قد شغلوني عن غيرهم ، واستهواني لطفهم وأدبهم عن أن استكثر من الصحاب . وللصداقة قواعد لا بد من مراعاتها ، وهي مشاركة الصديق صديقه في فرحه وترحه ، وفي كل حالاته ، لا بد له من ذلك في السفر والحضر ، فاذا كثر على المرء عدد الأصحاب ، فله أن يختار حالاً من حالين ، إما أن يصرف شطراً من وقته في تعهدهم ، والقيام بواجباته نحوهم ، وإما أن ينصرف إلى عمله فيضعف عن وفاء حقهم . انكم كلكم معاشر المصريين تحبون بما فطرتم عليه من حسن العشرة ، ورقة الخصال ، وحضور الذهن ، وجميل الأدب ، فاذا كبرت جريدة من أعرفهم منكم اقتضى لي أن اقطع من وقتي جانباً انفقه في خدمتكم وتعهدكم ، وليس لي كاتب سر يعاونني ويخفف عني حمل عبء الجزئيات لأنهض بثقل الكليات . ورجل واحد لا ينهض بواجبات كثيرين ، ومطالب الحياة وافرة ، وشهوات النفس لا تقف عند حد ، ولا بد للمرء من تحقيقها ، والعمر قصير ، والزمان غادر غير عاذر .

درجت على البعد عن رجال السياسة ما وجدت إلى البعد عنهم سبيلا ، وكنت أنظر إليها بأنها علم واختار تحاميها في العمل(١) ، وما عرفت من رجال السياسة إلا من قضت الأحوال بمعرفته بدون تقصد . وزهدني في بعضهم اني لحظت أن منهم من يترفعون عن الناس ويشمخون بأنوفهم ، وقد تتغير أخلاقهم إذا جلسوا على منصة الحكم . ومن الصعب أن تألف من روحه غير روحك ، ومن غايته في الحياة غير غايتك . وكيف تخالل من يعتقد في باطنه أن بينك وبينه فوارق ، وأنى تحب من يرفعك ويسترضيك ما دام يؤمل منك منعاً ، ويتباعد عنك إذا ظهر له انه في غنية عنك . من عادة رجل السياسة خصوصاً ان يحاول الانتفاع من كل قوة تعرض امامه ، وانا لا احب في الجملة ان استثمر .

عرفت بعض امراء البيت المالك في مصر فأكبرت فيهم ادبهم وفضلهم ، وصادقت منهم الأمير عمر طوسون ، والأمير يوسف كمال ، فرأيت من تفانيهما في خدمة مصر ما عظم موقعهما من القلب والعين ، ولو كان كل أمير في الشرق يقوم بواجبه كما يقومان لتغير ولا جرم وجهه ، ولزادت بين الأمم قيمة أهله . كان منهما أن جعلا ما هما فيه من نعمة سابغة وقفاً على خدمة مصر ، وشغلا ساعات الفراغ في تدوين الابحاث ووضع الكتب . فأخرجا من ذلك مجموعات مفيدة جداً ، يتعذر على كل مؤلف أن يصل إلى مثلها .

---

(١) كتب اليّ الأمير شكيب ارسلان من لوزان يوم ٣٠ نيسان ١٩٢٨ ما نصه : ما ذكرته لي عن مصر والشام واحوالها السياسية كله معروف ومؤسف ولكن المنافسات الشخصية وحب الظهور والرئاسة وما يتبع ذلك هي التي تبلي الأوطان بهذه الأمور ، وأكثر ما يقع منها يكون بلية على الذين بدأوا بها وجعلوا ديدنهم من أول الزمان الكيد لزيد والدس على عمرو والارجاف بخالد ظناً بأن هذا هو الذي يُسقط الجميع فتبقى هناك رئاسة واحدة لا نزاع فيها ... نعم ان الذين سنوا هذه السنة حسداً من عند أنفسهم وكانوا يعتدون على الناس الذين ما تعرضوا لهم طول الحياة بأذى هم هم الذين وقعوا اليوم في الحفر التي طالما حفروها لغيرهم ، والله تعالى يصلح الأحوال ويلهم الناس عزم الأمور وان كان لا بد من قاذورات السياسة في البلاد فالأولى بالحازم الرشيد ان يلجأ الى قنة العلم ويترك هذه القاذورات لمن يتمرغون فيها اهـ .

الدعايات الاجنبية

كثرت رحلات الاجانب قبيل الحرب الاخيرة إلى الشام ، ولكل دولة من الدول بيننا ظهراء ولكل مذهب سياسي جديد أو عتيق منتحلون . فبعضهم يعمل للديمقراطيات (حكم الشعب) وآخر يعمل للديكتاتوريات (حكم الفرد) ، وآخر يعمل للشيوعيين المتطرفين ، او الاشتراكيين المعتدلين ومنهم من يحبذ الاتراك الكماليين ، وآخر يدعو للملك ابن السعود أو للامير عبد الله بن الحسين إلى غير ذلك .

جاءني منذ خمس سنين أحد نواب ايطاليا يحمل من استاذه صديقي العلامة نلينو وصاة ، يقول إنه يحب أن يدرس حالة التعليم الابتدائي في سورية وفلسطين والعراق ومصر ، لتطبق حكومته من هذه الانظمة ماترى فيه فائدة لأهالي طرابلس وبرقة (ليبية) وطلب مني ان اذكر معلوماتي في هذا الشأن ، فاعتذرت بتغير بعض نظم التعليم بعدي ، وأرسلته إلى الوزير السيد سليم جنبرت مع كتاب مني . وعاد من الغد ورفيقه الذي معه ، وهو ايطالي ولد في سوريه ، يقول إنه يكتفي بما لدي من معلومات عن التعليم وان كانت قديمة ، وأشار إلى أن الوزير الذي أرسلتها اليه لا يعرف شيئاً من أمور المعارف ، فقلت له : إن من عنده من الموظفين يعرفون ، وكان عليه أن يطلب منهم ما يلزم ، فقال رفيقه : نحن نكتفي بمعلوماتك فقط ، وعرّض بأني أحلتها على وزير عامي .

ومما ذكر النائب الايطالي أن فرنسا في سورية على ما رأى ، عنيت فقط بتزيين المدن وأهملت القرى . فقلت له : إنها أنجزت في القرى أشياء نافعة ، وطدت الامن ، وعبدت بعض الطرق ، وخففت الضرائب ، ومنعت السخرة ، ورفعت سلطة المتغلبين على المستضعفين ، ونرى اليوم اضعف الفلاحين يقيم

على اكبر أرباب النفوذ من المزارعين وغيرهم قضية وربحها إن كان محقاً إلى آخر ما قلت. فاقترح علي ان اذهب الى رومية لالقي محاضرات، والتقي باصحابي المستشرقين، فاعتذرت عن الرحلة (لأني ذهبت إلى رومية مرتين) لتعاقدي مع الجامعة الاميركية بالقاهرة لالقاء محاضرات فيها، خلال انعقاد جلسات مجمع اللغة العربية الملكي التي انا مضطر لشهودها بصفتي عضواً فيه. وقال لي إذا زرت طرابلس وبرقة، وأجور السفن رخيصة جداً، تشهد ماتم فيها من الاصلاح على يد الحكومة الفاشستية، وما أنشأناه من الطرق والجوامع وعمرنا من الدساكر والقرى. وقال إن من سياسة ايطاليا الاستعمارية ان تجعل بيت العربي إلى جانب بيت الايطالي حتى يمتزجا على الايام. وذكر ما تحرص عليه ايطاليا من اسكان ابنائها في ليبية، وما تهيء لهم من سبيل التشويق لذلك.

ثم صرّح بأكثر من هذا وقال: لماذا لا تحب الذهاب إلى ايطاليا؟ واحبابك فيها كثار وهل تحسب لاصحابك هنا حساباً (يعني الفرنسيين) أم هم يحولون دون ذهابك؟ فقلت له: إني لا أخشاهم، ولاهم يحظرون علي السفر إلى الجهة التي اختارها، على أنني لا أرى إن صح أنهم لا يرضيهم ذهابي إلى ايطاليا، أن آتي ما يغضبهم. ولِمَ أغضِبُهُم وأنا لم ألق منهم إلا كل رعاية منذ وافوا هذه الديار، فقد ادخلوني الوزارة مرتين بدون علمي، ورفعوا مقامي بين ابناء قومي، وتعاونت معهم فما اختلفنا، كانوا يقنعوني فأسير معهم، اوأقنعهم فيسيرون معي. واتفق ان اختلفت مع مستشاري فعزوت اليه أموراً حققوها ورأوا صدقي فيها، فما لبثوا أن نحّوه عن عمله، واستعاضوا عنه بمستشار من اصحابي، واوصوه أن يسير معي سيراً حسناً. وكان لهم اثر ظاهر في مظاهرتي على تأسيس المجمع العلمي العربي والمتحف ودار الكتب، مما لم ألق بعضه من الحكومات الوطنية نفسها. فمن يُعادي يعادي لسبب، وانا لم اجد سبباً لمعاداة المنتدبين. أما الفرنسيون عندنا فهم من طبقة الموظفين ينفذون فقط ما يؤمرون به. ولي في باريز اصدقاء اعزة عليّ لا ارى ان يجول في خواطرهم أني اتيت مالا يرضيهم،

وإن كان ادبهم يمنعهم من التصريح بشيء من ذلك ، فليس بيني وبين الفرنسيين إذاً إلا الثقة المتبادلة .

ومن الغد لقيت في ساحة الشهداء أحد أصحاب الأخبار ، فسلم عليّ ، وقال لي باشاً جداً ، إن نسيبه (الرجل الذي كان مع النائب الايطالي) حدثه أمس بحديثي مع النائب بحذافيره ، وبالطبع هو نقله الى من يشتغل لهم في البعثة ، وما كنت أعتقد أن الأمر يجري كما جرى ولا ان رفيق السائح الايطالي هو ايطالي متبلد في ديارنا وله فيها أقارب .

وبعد مدة عرضت عليّ محطة باري اللاسلكية في ايطاليا أن أوافيها بخمس عشرة محاضرة في الموضوعات التي اختارها ما عدا السياسة ففعلت ، والقيت المحاضرات باسمي . وقال لي أحد أصحابي ان قبولك بمحاضرة المستمعين من محطة باري اللاسلكية هو خدمة ايطاليا من طريق غير مباشرة . فأجبته إنها خدمة العرب من طريق مباشر ، والموضوعات علمية أدبية تاريخية فكاهية . فالعرب هم الذين أتوخى نفعهم ، وهم الذين يستمعون اليها ، ولو طلبت مني سائر المحطات العربية في الغرب أن اوافيها بمثل هذه المحاضرات ما تأخرت عن اجابة طلبها ، ما دام الذين يستمعون اليها هم قومي . أما خدمة سياسة ايطاليا أو غير ايطاليا فلها أشخاص غيري يحسنونها أكثر مني .

وكتب إليّ في هذا الربيع (١٣٥٩ — ١٩٤٠) المستر بارير المستشرق الانكليزي أنه وسدت اليه خدمة في محطة الاذاعة اللاسلكية في لندن وطلب مني أن أوافيه بأحاديث تاريخية وادبية لتلقى باسمي من تلك المحطة ، فاخترت له عشرة أحاديث من مذكراتي الخاصة ، قدرت أنها مما يلذ سماعه ، فاستلمها وأكد لي أنها ستحوز القبول من كل بد عند اللجنة الموكول اليها النظر في أحاديث المحدثين . وأشرت اليه أن له الحرية أن يحذف من أحاديثي ما يشاء ويبقي على ما يشاء ، فأرجعها بعد مدة معتذراً ، ومما قال في كتابه (وعندنا أنكم اذا جمعتم هذه الأحاديث في كتاب عن مذكراتكم فانه ولا شك يصادف قبولاً عظيماً ، لا من العالم العربي ، بل من هؤلاء

الانكليز المهتمين بشؤون الأقطار العربية ... وعلاوة على ذلك فانها كـكل المذكرات الشخصية تتضمن بعض اشارات الى شخصيات بارزة بعضها لا يزال على قيد الحياة ، والبعض الآخر قد اختاره الله تعالى إلى جواره . ومع أن هيئة الاذاعة البريطانية هيئة مستقلة فنشعر بأن اعتقاد الجمهور أنها على صلة بالحكومة الانكليزية (كذا) قد يعرضنا للنقد إذا نحن أذعنا مثل هذه الأحاديث ، وأظن محطة الاذاعة اللندنية استفتت أيضاً اضبارتي ، فما رأتني على الأرجح حرياً بأن أستمتع بثقتهم ، والله يعلم السر وأخفى .

والمستر باربر الذي تفضل وطلب إليَّ أحاديث للمحطة اللندنية ، كان زارني منذ سنين يحمل وصاة من الدكتور أحمد سامح الخالدي من رجال التعليم في فلسطين فأهلت به ورحبت ، ورأيته مستشرقاً مستعرباً ، وقد كتب كتاباً بالانكليزية في التمثيل العربي في مصر ، وهو من المشتغلين بالسياسة الشرقية ، كان مراسلاً لجريدة التيمس فاستقال ، وهو على جانب عظيم من التهذيب ، سألت عنه احد رجال فلسطين فقال : هو كما قال لك الخالدي من أحباب العرب ، وخبرناه بالاشتغال معه فكان صادقاً في قوله وعمله . وتباحثنا ساعات طويلة في سياسة الانكليز مع العرب ، وفي الوحدة العربية ، وفي اغلاط الحكومات الانكليزية في هذا الباب . وقلت له : إن العرب احبوا الانكليز فما قابلوهم على حبهم لهم بحب مثله ، وما شرط من يحب إلا ان يحب . وبحثنا في انحطاط المسلمين ، وفي ثورة فلسطين ، وفيما ارتكبه البريطانيون من الخطإ مع اهلها . وتحدثنا في تحزبهم الظاهر للصهيونيين ، وبشرني في قدمة ثانية ان حكومته قررت ان تغير سياستها في فلسطين ، وقال إنه ألف كتاباً في القضية الفلسطينية ، ومما جاء فيه انه طُلب إلى رئيس حكومته ان يختار محلاً في ارجاء الامبراطورية الانكليزية يؤوي اربعة وعشرين ألف مهاجر اشوري ، فكان الجواب انه لا يوجد مكان في الامبراطورية يتسع لهذا العدد . فعقب على ذلك بقوله : إذا كانت هذه الامبراطورية الكبرى ليس فيها مكان لاستيعاب هذا العددمن المهاجرين ، فهل في قدرة فلسطين الصغيرة

الرقعة ان تؤوي سبعة عشر مليوناً من اليهود ؟ وقال في محاضرة له في فلسطين القاها في بريطانيا وارسلها اليّ مطبوعة في كراسة : إن الصهيونيين كانوا عرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني ان يبيعهم فلسطين بمبلغ عظيم فأجابهم إن فلسطين وان كنت الخليفة ليست ملكي ، وهي ملك من عجنت تربتها بدمائهم .

اقترح عليّ أناس من العرب والافرنج من المتصلين بالملك ابن سعود صاحب الحجاز ونجد أن أذهب لزيارته في الحجاز ، أو أن أحج في الموسم ، فكنت أعتذر . ودعيت مرات منذ عشر سنين إلى زيارة بعض أمراء العرب فاعتذرت ، لأني لا أريد أن أخدم سياسة احد . وإذا قضي عليّ ذات يوم أن أخوض غمار السياسة فيكون ذلك لما أعتقد فيه مصلحة الجماعة ، لا أخدم شخصاً بعينه ، ولا دولة برأسها . ولو كان لي مثل هذا المأرب لكانت مصر أولى الدول بالتطوع في خدمتها ، والأشياء فيها موفورة لي أكثر من كل قطر .

قصدني في العهد الأخير كثير من علماء المشرقيات من الالمان والروس والدانيمركيين والاسبانيين ، وبعض الهنود المسلمين وغيرهم . وكلهم كتموا المهمات التي جاؤا لأجلها ، وأعتقد أن أكثرهم يخدمون سياسة أممهم أو السياسة التي استخدمتهم . ومزحت مع رجل نمساوي جاء ليؤلف كتاباً في سورية ، فقلت له : كأني بكم يا معشر النمساويين تستيقظون ذات صباح فترون على حدودكم مئتي الف جندي ألماني يريدون ضمكم إلى بلادهم ، فقال : إن الأمر لا يتوقف على مئتي الف جندي لأن خمسة وتسعين في المئة منا يريد الانضمام إلى المانيا . ومزحت مع جرماني سويسري وقلت له : إن الثلاثة ملايين الماني سويسري ، وهم ثلاثة ارباع سكان سويسرا سينضمون إلى المانيا فما هشّ لقولي ، وقال : لا نريد ذلك لا نريد ، وهذا أمر لا يتم .

وجاءني مرة انكليزي موظف في وظيفة عظيمة في العراق يحمل لي سلاماً من صديقي الاستاذ مارجوليوث المستشرق الانكليزي ، وسألني رأيي

في الوهابية فذكرت له مذهبهم ، وقلت له انهم تخلصوا من الخرافات بعض الشيء ، وهم أشبه بالبرتستانت عندكم . قال : هذا لا يهمني بل احب أن تذكر لي رأيك هل في مكنتهم أن يقوموا بدعوة سياسية ؟ فقلت : إذا ودّ البريطانيون ذلك . ثم قال : والحجاز ألا يرجى الخير منه للعرب ؟ فقلت له : إن المسلمين يعتقدون أن كل خير جاءهم كان من رسولهم محمد ابن عبد الله ، ولما كان من عقيدتهم ألا يقوم نبي بعده فالخير لا يتوقع من الحجاز . وتكلمنا في الثورة المصرية وقال إن القائمين بها شباب لايقدرون التبعات فقلت : ان اكثر الثورات في العالم قامت بأيدي الفتيان ، وثوار مصر أخطأوا بالنسبة لمصالحكم وأحسنوا لأمتهم . وتكلمنا في تقسيم الديار الشامية وفي أراضي الانتدابيين الفرنسي والانكليزي . وبعد اشهر زحف ابن سعود على الحجاز واخذ الملك حسين الى قبرص .

وجاءني المستر لاياس مدير مدارس فيكتوريا بالاسكندرية سابقاً ، وكان قضى بضع سنين في دمشق ليُحكِم اللغة العربية ، ونقل إلى لغته ديوان الحماسة لأبي تمام شعراً فيا بلغني ، وكان عالماً فاضلاً ، وسمته سمت العلماء ، واخلاقه في الغاية من التهذيب السكسوني البديع . فقال لي : إن سكان نجد جديرون بأن يكون لهم نصيب من عنايتكم في التعليم ، وان تفتح لهم المدارس ، فالأمية غالبة عليهم ، فقلت له : يا صديقي كيف تتطال الى تعليم غيرنا ونحن من اعوز ما يكون إلى من يعلمنا ؟ إن عدد الأميين في ديارنا اكثر من تسعين بالمائة ، افلسنا احرياء بأن نفكر اولاً في ابنائنا ثم نفعل الخير بغيرنا ، فنفكر في تعليم اهل نجد ! فاقتنع .

وكنت اهديت المستر لاياس نسخة من كتابي (غرائب الغرب) فجاءني بعد ثلاثة اشهر يقول انه طالعه بامعان ويشكرني على هديتي ، وسألني عن أحمد فارس — وكنت اقتبست من كلامه فصلاً في الأخلاق الانكليزية — فقلت له هو أحد علماء اللغة ومن أوائل رجال النهضة الأدبية عندنا فقال : هذا لا يعرف الانكليز ، وكذلك الحال في تين Taine الفرنسي فانه لا يقدر

البريطانيين قدرهم بل هو عدوهم ، فقلت له : هذا فيلسوف ، والفيلسوف لا يقول إلا ما يعلم ، ومن الصعب زحزحته عن الحق . فقال لي : أتريد أن تعرف أخلاق الانكليز على حقيقتها وتكتب فيهم كتاباً ؟ قلت له : نعم . قال : تكتب إلى صديقك الاستاذ براون في كمبرديج يكتري لك غرفة في جواره ، وتذهب بنفسك تقضي ستة أشهر هناك تدرس الانكليزية ، وأنت بالنظر لتمكنك من الفرنسية تحكم الانكليزية في هـــذه المدة ، وتدرس خلالها أخلاق الانكليز وعاداتهم ، وتدوّن منها ما يروقك . وقال : أظن ذلك يغضب أصحابك هنا أي الفرنسيين فقلت له : أنا اذا اعتزمت أن أقوم بهذه الرحلة العلمية لا يقف أحد في وجهي ، ولكن شبَّ عمرو عن الطوق ، وصعب عليّ في هذه السن أن أدرس لغة أجنبية ، ووقتي لا يسمح بمغادرة بلدي هذه المدة الطويلة . وأظن هذا الكتاب الذي اقترح عليّ وضعه في الأخلاق الانكليزية سيكون له وقع كبير عند حكومة بريطانيا العظمى .

سأل أحد أصحابي صديقي لاياس هذا عن رأيه في محاضراتي في المجمع العلمي العربي، فقال إنهـا جيدة ليس عليها اعتراض ، إلا أني اعطي الاوربيين فيها فوق استحقاقهم ، وابالغ في وصف حضارتهم ، وسأله أو غـيره لا أدري على التحقيق عن محاضرات أحد الاعضاء فقال : ما خرجت عن وعظة في كنيسة انجيلية ، وسأل بعضهم عن آخر فقال : يحاول أن يضحك الحاضرين وأكثر نكاته باردة .

عزت باشا العابد

أربعة أتراب نشأوا في القرن الماضي من حيٍّ واحد في دمشق ، وتخرجوا بعلم واحد في مدرسة واحدة ، فجاء منهم أربعة مثقفون . طاهر الجزائري ، سليم البخاري ، ابو الخير عابدين ، أحمد عزت العابد . قرأوا على الشيخ عبد الرحمن البوسنوي في المدرسة الجقمقية ، وكان مربياً عظيماً ، فلقنهم مبادئ العلوم ، واصول اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية . وانقطع الثلاثة الأولون إلى دراسة العلوم الاسلامية ، فكانوا علماء فقهاء ، وشذ عنهم تربهم الرابع فانصرف إلى اتقان التركية والفرنسية ، وأجاد الكتابة بالعربية والتركية ، ونظر في القوانين فأتقنها ، ودخل في خدمة الدولة ، فساعدته وجاهة والده هولو باشا على قطع المراحل الى المناصب العالية مسرعاً ، حتى صيره السلطان عبد الحميد الثاني العثماني قريناً له ثم كاتباً ثانياً في المابين وكان خادم السلطان الامين نحو ثلاث عشرة سنة وما سقط إلا بسقوطه .

وحاول أحمد عزت باشا العابد بعد أن صار السلطان عبد الحميد في أسر الاتحاديين في قصر ألاتيني في سلانيك ، وانقضى عهد الحكم المطلق ، أن ينتخب عن دمشق عضواً في مجلس النواب ، فقاومته في جريدتي (المقتبس) لأنا كنا نريد أن ينوب عنا الشبان المتعلمون ، ممن لم تصبغهم مصبغة الاستبداد بنيلتها الحالكة السواد ، وكنا نعتقد أن أنصار الحكومة الاستبدادية لا خير فيهم في العهد الدستوري ، وهم طالما زينوا للسلطان عبد الحميد أن يمضي في اضطهاد الحرية والأحرار ، والرجل الواحد من الصعب أن يفلح في دورين متناقضين .

وجس عزت باشا النبض ، وسبرنا بمسبار ذكائه ، فعرف ما تمنى تحقيقه

إذا خدمناه فيما يحب ، فوعد إن نحن سعينا في انتخابه أو لم نقاومه على الأقل ، أن ينشىء في حي الميدان ، محلة أهله القديمة في دمشق ، مدرستين ومستشفيين للذكور والاناث ، وأن يعلم خمسة أولاد من ابناء سورية العلوم العاليه في جامعات الغرب الى آخر ما وعد به . ولم أرض أنا وجماعتي إلا أن يضمن لنا القيام بمشاريعه فنأمن عليها أولاً ثم نتطوع لمعونته ، وأردنا أن نعتمد على شرفه في انفاذ ما عرض علينا ، فخفنا أن تكون وعوده وعود بعض السياسيين فأبينا ، وما استطاع الدخول في معركة الانتخابات لإيقانه بالفشل .

وكنت وأصحابي نعلق آمالاً كبيرة على ما يجري من الخير على يد هذا المثري العظيم ، اذا استمع لنصائحنا فلما رأينا أنه ليس من نيته أن يمنح امته شيئاً أعرضنا عنه ، وقلت لشقيقه مصطفى بك : قل لشقيقك إن وطنه ينتظر منه اموراً ليس بالصعب عليه تحقيقها ، ولا تنقص كثيراً من ثروته . ويفير بها ترجمته في الدنيا ان كان يحب الدنيا ، ولشفع له في الدار الآخرة ان كان يعتقد بها . إن بعض ما ناله من الجاه كان لنسبته للعرب ، فما باله يتأخر عن خدمتهم ، وهو قادر على الأخذ بأيديهم إلى طريق السعادة ؟ وإن الفرد من أولاده ليعيش بنصف مليون ليرة كما يعيش بخمسين ألف ليرة ، على أن لكل واحد من ولديه ثروة خاصة لا يحتاج معها إلى ثروة أبيه ليعيش . (وأظن عزت باشا أوصى ببضعة آلاف ليرة عثمانية لتأسيس مدرسة في دمشق أخذتها جمعية الاسعاف الخيري لانشاء مدرسة الأيتام) .

ولما جاء عزت باشا إلى دمشق ، وكان المجمع العلمي العربي حديث النشأة يحتاج الى معاونات كثيرة ، ليقوم بغرضه العظيم ، وموازنته ضيقة لا تتسع لكل ما يحاول تحقيقه ، قرر أعضاؤه أن ينتدبوا منهم أربعة ، فيهم أقرب الناس اليه ، تربه سليم افندي البخاري وصاحباه سليم بك عنحوري وفارس بك الخوري وصاحب هذه المذكرات . وأردت أن أستعفي من هذه المهمة فاضطروني إلى السير معهم بصفتي رئيس المجمع العلمي ، وأرادوا

بهذا الوفد أن يهزوا أريحيته لمعاونة مجمعهم . فبعد مساومات ومهامسات احمرت لها الوجوه ، وعرقت الجباه والرؤوس ، تبرع الباشا بمئة ليرة سورية ، وبالطبعة الجديدة من دائرة المعارف البريطانيـة . وعاد عليٌّ الباشا من الغد في المجمع العلمي ، وهو بثوب المنامة ، يقول إنه لم ينم من الليل أمس لأنه رأى في دار الكتب الظاهرية مصحفاً شريفاً بخـط جميل ، قيل له إنه ابتيع بثلاثة ريالات ، وأنه مسروق من احدى خزائن المدينة المنورة ، وهو مستعد لأن يدفع لنا ثمنه ويأخذه ليعيده الى مكانه الأصلي . فبينت له أن المصحف دخـل خزانة دار الكتب فأصبح في حـكم الوقف ، ولا سبيل إلى اخراجه ، ولا فرق بين أن يحمل هنا أو يكون في المدينة . وقال أحد الخبثاء : ولعل الباشا كان ينوي أن يعوض ما دفعه للمجمع العلمي ، فان المصحف يباع من المتاحف الكبيرة ، أو دور الكتب في العواصم الشهيرة ، بما لا يقل عن مئة وخمسين جنيها . والله اعلم بالنيات. وقال لي الباشا ، وانا اودعه على الباب ليرضيني بوعد معسول : إن له نحو سبعة عشر الف ليرة في ذمة حكومة سورية من اصل ماله من الديون على الدولة العثمانية فاذا قبضها يعطيني منها اربعـــة آلاف ليرة ، فما قبض ولا قبضت . وكان ما وصل المجمع العلمي هو كل ما سمحت به نفس أعظم غني في الشام .

أول رئيس جمهورية في سورية

خلّف أحمد عزت باشا العابد ولدين علمها في باريز تعليماً راقياً ، أحدهما عبدالرحمن بك درس هندسة المعادن ، واشتغل بالمسائل المالية والتجارية ، والثاني محمد علي بك وهو الاكبر درس الشرائع وصار مشاوراً للحقوق في الباب العالي مدة ، ثم جعل في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني سفيراً للدولة العثمانية في واشنطون ، واشتغل أيضاً بالمسائل المالية ، وكلاهما اغتنى في حياه أبيه .

وأتى محمد علي بك إلى دمشق يفتح بيت أبيه وجده ، ويحرص على تحسين سمعة أبيه . وصار مرة وزيراً للمالية ثم انتخب أول رئيس للجمهورية السورية . فكان ينفق من ماله الخاص علاوة على راتب الرياسة مبلغاً في كل عام ، ليظهر بلاده أمام القريب والبعيد بالمظهر اللائق بها . وهو أعظم رجل سياسي عرفته الديار الشامية في دورها الأخير ، وأول وآخر سفير عثماني من أبناء العرب ، استوفى شروط الرياسة لمعرفته التامة بالشؤون السياسية .

وكانت اجتماعاتي به قبل الجمهورية وفي خلالها تستغرق الساعات ، وهو يتفضل ويطلب مني موالاة الاجتماع ، وأنا أعتذر باشغالي ، وأتحامى صرف وقت كبير معه ، على مافي مجلسه من متاع للنفس ، ولطالما قال : أريد أن تكون وأنا في الجمهورية ، كما كنا قبلها ، وكنت أسمع منه فوائد في التاريخ الحديث ، وسياسة الدولة العثمانية ، وأحوال عظماء الأرض ، لم أسمعها من غيره . ولا عجب أن يعرف هذا ، فقد كانت بيئته من أرقى البيئات في الاستانة ، أيام صولة والده ، كتب له أن يجتمع الى عظماء الدول ، وعلماء الأمم ، على مالم يكتب لأحد من رجالنا مثله . فكان حديثه عن الشخصيات والجماعات والدول والماليين والسياسيين والمترفين والمسرفين ممتعاً جداً ، إذا بناه غيره

على مطالعاته ، فقد كان هو يبنيه على مشاهداته ومطالعاته ، وكان ذا معرفة ثاقبة بتاريخ أمته ، يعجب برجالها الماضين ، وذا كرته قوية ، وكان كثيراً ما يتلو علينا قطعاً من الأدب الفرنسي والادب العربي حفظها أيام الصبا ، وكان إلى هذا على جانب من الظرف . وما اصدق ما وصفه به صديقي الاستاذ خليل مردم بك بقوله إنه ما رأى رجلاً اسمه اصغر من حقيقته مثل محمد علي بك العابد .

وهو لا يخلو من ضعف ارادة . سالم كثيراً مدة رياسته فلم يرض عنه حتى من سالمهم ، وذكر مرة بسوء أمام جمعية الأمم فتأثر مما قيل فيه ، وهم قد ظلموه وما أنصفوه ، وما احتج ولا غير من معاملته . وحنق أصحابه لما وقع عليه ، واعتدوا اهانته موجهة للسوريين في شخص رئيسهم الأول . وفرضوا عليه أيام رياسته أن يتولى الشيخ تاج الدين رياسة الوزارة مرة ثانية ، ومع كرهه الشديد له لم يعترض على هذا التعيين الاعتراض اللازم ، مع ما في هذا من التعدي على حقوقه . واراد الشيخ أن يذهبا معاً إلى حلب ، والنفوس ممتلئة من الشيخ ، فلقيا اهانة شديدة من الشعب ومن طلبة المدارس ، وما كان الرئيس مقصوداً بها ، وشط الرئيس الصغير على الرئيس الكبير وهو يفوقه علماً وسناً وثروة ومقاماً ، فكان في هذه الرحلة يتقدم عليه في كل مكان . ولما عاد الرئيس من رحلته عرض عليه أحد كتابه مجموعة ما كتبته الصحف فيه وفي رئيس حكومته ، وما لقياه من الاهانة فقال : إن كل ما قالته صحيح : رحلة كان منها اهانة الحكومة واهانتنا ، أغلقنا فيها المدارس وملأنا السجون .

والغالب أن محمد علي بك كان يحسن الظن باوضاع الغرب ، ومن ذلك أنه جعل معظم ثروته أسهماً مالية فخسر نصفها في العهد الأخير فكان في ذلك قهره ومرضه . وكثيراً ما كنت أزين له ان يبتاع المزارع وينشيء العقارات في بلده فما كان يرى رأيي . ولطالما عرضت عليه ان يبني داراً

فخمة تليق به فكنت اشعر انه يريد أن يسكن في أوربا بعد انتهاء مدة الرياسة ، وهكذا فعل .

كان أعداء السيد العابد يتهمونه بالامساك وما كان في الحق ممسكاً على ما صوَّروه ، كان يطعم الفقراء كما يطعم الأغنياء ، ويتصدق ويعطي من يراه أهلاً للعطاء ، ولكن الفوضى كانت منتشرة في بيته ، ينفق على الغالب بلا نظام . وكان من أثر ذلك أن رُمي بالشح ، وأظن حساده وخصومه كانوا يريدونه أن يخرج عن كل ماله ليعدوه في الكرماء ، فيمسي مثلهم صعلوكاً معدماً وهذا أمر لا يعقل ، ولا يطلب من رجل يقدر قدر المال .

وكان مع علمه بالمواضعات المدنية والمصطلحات الجمهورية ، وتشدده في المحافظه عليها ، لا يتلكأ عن الاستمتاع بحريته في غير الأوقات الرسمية ، يزور أصحابه كما يزورونه ، ويعاشرهم معاشرة الاخوان ، ويكون في بيوتهم ويكونون في بيته ، كواحد منهم ، لا فارق بينهم ولا تمييز ، وكثيراً ما كان يقص عليهم من الفكاهات والنوادر المستظرفة ما يقصد به تسليتهم واضحاكهم ، أو مشاركتهم في مرحهم ، وجلب السرور إلى قلوبهم ، فيعظم في العيون والقلوب ، ويدعو العقلاء إلى الاعجاب بنبله وفضله .

وكان لفرط أدبه يحتمل مني أحياناً قسوتي في خطابه وجوابه ، ويغضي لما يعرفه من حبي له وحبه لي ، عن توسعي في انتقاد أعماله ، وهو موقن أن ما أقوله أقوله بما لي عليه من الدالة ، وما أكنه له من الحرمة ، وغيرة مني على مصلحته ومصلحة البلد . قال لي وقد عدت من مصر بعض السنين : إنه ذكرني وذكر غيري من أصحابه وأصحابي ، لتوسد إلينا مقاعد في الوزارة الجديدة فقلت له : أخطأت خطأً عظيماً ، ألا تذكر أني أقسمت لك يوم كنا نتنزه بين دمر والهامة في السيارة ، وأنت تأسف لعدم مشاركتي لك في الحكم ، أني لا احب الدخول في شيء من أعمال الحكومة مهما كانت درجته ، واني زاهد حتى في رياستك هذه ، وان صداقتنا قامت على التشاكل في الفكر والمحبة المتبادلة ليس إلا ، فلماذا تذكرني

للمفوض السامي وانت تعرف أن الوزارات بعد أن تقلدها العوام ووصل إليها مثل (غ . ل) لم تعد لها تلك الروعة ، ولا ذاك الشرف الموهوم ! وصعب الآن على من كان له مثل أخلاقي أن يقوم فيها بما يرضي وجدانه وأمته . فأرجوك بعد الآن ألا تذكرني للمفوض ولا لغيره . وقد أدرك أنه ما دام ذكر اسمي ولم يُوفق لاتمام رغبته ، فلا معنى لأن يمنّ عليّ فيقول إنه سعى وأخفق ، وأنا لم أطلب منه شيئاً .

كتبت هذا ، وأنا اقول : تُرى هل تجمعنا الأيام بصديقي محمد علي بك العابد فأقرأ عليه هذا الفصل ليلاحظ ما قد يلاحظه عليه ، وطويت ما كتبت ، وصمدت الى غرفتي أقيل ، وإذا بالمذياع ينعي هذا الصديق الأبر من جنوة فأومضني فقده ، وما زال الدهر يفرق بين الحبيب وحبيبه .

سورية والرجال

ذهبت وصديقي عبد الرحمن باشا اليوسف إلى سوق الغرب في لبنان آخر سنة من سني الحرب المشؤمة (١٩١٨) لنقضي أياماً هناك ترويحاً للنفس، وكان لا يخوض في السياسة الحاضرة مع كل أحد، ويخاف مثلي من التبسط مع كل انسان حتى من أخيه وأبناء اخوانه، فما وجد آمن لنا من أفق سوق الغرب نتباثث فيه الاسرار، فقال: إن جمال باشا قال له ولمحمد باشا المظم، وقد بدا عليه اليأس من نتيجة الحرب: إن الانكليز سيستولون على سورية، فهل تظنان أني أتركهما هنا، تتمتعان بقصوركما ومزارعكما، سأسوقكما أمامي الى الاناضول، تفتقران كما نفتقر، وتشحذان كما نشحذ. قال ابن اليوسف هذا، وسجد على الأرض قائلاً: يارب اقرض هذه الدولة التي أذلتنا وأهانتنا. وشاءت الاقدار يوم حم القضاء أن يمضي جمال باشا على وجهه لا يلوي على شيء، وظل أهل هذه الارض في ارضهم.

قال الجنرال غورو أول مفوض سام في سورية ولبنان لحبيب باشا السعد الوجيه اللبناني: إذا كنت تعتقد أن دولة من الدول يهمها شخص لذاته، مهما بلغ من مكانته أكثر من اهتمامها بمصلحتها، فأنت على خطأ. إن فرنسا تفادي بجثة رجل مثلك إذا كان لها من وراء ذلك أقل فائدة.

قال المسيو بونسو المفوض السامي في سورية ولبنان للشيخ تاج الدين رئيس دولة سورية: حقيقة إن الرجال تتفاوت، فقد عرضنا على وزارتكم وعلى الوزارة اللبنانية مشروع حصر الدخان، فما اطلع أحد على ماناقشتم فيه، ولا انتشر خبر عن المشروع الذي عهد اليكم النظر فيه. أما في لبنان فقد

تناقلته الألسن ثاني يوم دفعناه لوزارتها ، وفي اليوم الثالث كان نص المشروع منشوراً برمته في بعض الصحف البيروتية . ولما عوتب صاحبها على نشر هذا المشروع قبل أوانه ، وكان من أعضاء الوزارة ، قال إنه غفل عن ثيابه ، وكان يخبأ نص المشروع في جيبه فسرق منه ، ووصل الى الجريدة فنشرته ، فأين وزارة من وزارة ، ورجل من رجل .

دخل علي مستشار المعارف ، وأنا في مكتبي بالوزارة ، ظاهر الغضب على محرر جريدتنا المقتبس لنشره في الجريدة تعريضاً ببعض رصفائي الوزراء ، خدمة لأغراض من يخدمهم من حزبه ، فسألني المستشار عن غضبي على خلاف عادتي ، فذكرت له السبب فقال : لا أعرف كيف أعلل هذه الاخلاق فيكم ، تسقطون أبداً رجالكم من الاعين ، ورجالكم قليلون مهما بلغ عددهم لا يتجاوزون المئة ، فاذا أسقطتموهم كلهم ، فمن يبقى لكم يخدمكم في السراء والضراء ، وينفعكم باسمه ومكانته .

كان استاذنا الشيخ طاهر الجزائري ، وهو على سرير الموت ، يقول لمن حوله من أصحابه : أذكروا من عندكم من الرجال الذين ينفعونكم في الشدائد ، ودونوا أسماءهم في جريدة لئلا تنسوهم ، ونوهوا بهم عند كل سانحة ، واحرصوا عليهم حرصكم على أعز عزيز ، وأظنهم على كثرة ما كدوا حافظتهم وذا كرتهم ، لم يعدوا أكثر من خمسين رجلاً . وكان يقول لنا : تجاوزوا عن سيئاتهم ، وانتفعوا بحسناتهم . وشيخنا هـــذا قضى عمره في السعي إلى الاصلاح والتجدد .

لم اجتمع بالمفوض السامي المسيو بونسو الذي وقاه أصحاب الأخبار مدة من مقابلتي إلا يوم زرته مع رصفائي الوزراء لنشكره على اختيارنا للوزارة ، وقال لي هو وأمين سره المسيو موغرا ، كل منها على حدة ، : ان صديقك المسيو ماسينيون (أستاذ كوليج دي فرانس) يحبك كثيراً ويقول فيك الخير ، فقلت للمفوض إنه صديقي من القديم ، وان صداقتنا

قامت على تبادل الافكار وخدمة العلم ، فعطف أحدنا على الآخر عطف الحبيب على حبيبه ، وهو لايرى عيوبي ، ويبالغ بحسناتي . وأنا مثل غيري لا أخلو من عيوب ، ولكن (عين الحب رمداء) كما تقول العرب في أمثالها . فعرفت من هـذا الكلام أن صديقي ماسينيون هو الذي اقترح على المسيو بونسو أو على وزارة الخارجية أن يضمني الى الوزارة ، وليس لرئيسها يد في هـذا الشأن ، فان الرئيس قبل سنتين من وزارته هذه أراد أن يؤلف وزاره ائتلافية ، على عهد المفوض السامي المسيو دي جوفنيل ، وكان هذا صديقي وقد نوّه بي في جريدة الماتين مرة ، وكان من رؤساء تحريرها : فاقترح عليه أن يأخذني وزيراً للمعارف في وزارته فأبى وقال : أنا لاأعمل معه ، ولم تؤلف الوزارة يومئذ ، ودخلت في الوزارة الثانية بدون ارادة الرئيس . وكان يوهمني أنه هو الذي اختارني لمؤازرته ، وأوعز الى صديقه السيد جميل الالشي وزير المالية أن يقنعني بأن الشيخ هو الذي وقع اختياره عليّ وليس لاحد عليّ منة إلا له .

دعوت صديقي السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي لزيارة الشام ، وكانت له صـلة ود بالمسيو بونسو المفوض السامي منذ كان في تونس ، فأنزله في قصر الصنوبر ببيروت حيث يسكن . ولما جاء دمشق سألني عن وزارتنا فقلت له : إنها ستنفض بعد حين ، ويجيء رئيس جمهورية ، ووزارة جديدة ومجلس نواب . فسألني عما أصير إليه فقلت : لا أدري ، ولا يعرف ذلك غير صاحبك المسيو بونسو ، فهل ترى مانعاً ، اذا حضرت لك مناسبة عند عودتك ، أن تسأله عما يكون من أمري بعد الوزارة الجديدة . ومضت أيام ولم ألق صديقي التونسي إلا بعد زهاء سنتين في المجمع اللغوي الملكي في القاهرة . فقال لي : لا تظنن يا صاح أنني أنسيت ما عهدت إليّ السؤال عنه ، سألت عن مصيرك المسيو بونسو ، ونحن نتنزه في حديقـة القصر صباحاً ، فلم يجبني على سؤالي إلا أنه قال إنه يعرف ما بيننا من

صداقة ، ومن الغد قال ، ونحن في نفس البقعة التي كنا فيها أمس : يا سيد عبد الوهاب ، ثق أن من الصعب جداً حكم هذه البلاد ، ما قصدني رجل من أهلها إلا طعن بغيره ، فاذا استخبرته عما يجب أن يعمل يقول : لو تخيرتني للحكم لأريتك العمل السديد . وصاحبك السيد (كرد علي) ما رأيته يوماً يطعن بأحد ، ولا أتاني في أمر خاص به منذ عرفته ، وهو حقاً رجل جدير بالاحترام (وقال أكثر ذلك من المدح) فأنا لا أرضى له الرياسات لأنها متعبة ، ولا تعود عليه بخير . وصديقي لفرط حزمه لم يكتب إليّ بما جرى مخافة أن يقع كتابه في يد أحد المنافقين .

المجمع العلمي العربي

لما عدت من الاستانة بعد هدنة الحرب العالمية (١٩١٨) جاءني صديقي القديم رضا باشا الركابي الحاكم العسكري في دمشق يسلّم عليّ في داري ويطلب إليّ قبول رياسة مجلس المعارف . فقلت له : إني أنوي العودة إلى إصدار الجريدة والمجلة ، ونشر كتبي الجاهزة ، فوعدني بأن أماني تتحقق كلها مع القيام بالعمل الذي يطلب قيامي به . وقال : إقبل هذه الوظيفة التي ستكون وزارة فيما بعد ، فليس عندي غيرك للقيام بها . فاعتذرت ومما قلت في الاعتذار إليه إني لم أربِّ نفسي لأكون موظفاً ، ولو أحببت التوظف ، كما تعلم ، لكنت اليوم في أرق المناصب . وأصرّ عليّ كثيراً وقبض بيده على لحيته وقال : اكراماً لهذه . فأخجلني فقبلت ، على شرط أن يعاونني معاونة فعلية مدة وجوده في الحكم ، فاذا تنحى عنه استقلت معه .

وبدأت رئيساً على جماعة من الشيوخ ، منهم من درس العلوم الدينية ، ومنهم من شدا شيئاً من الأدب ، والتجانس فيهم قليل . وبعد مدة كتبت للاستاذ ساطع الحصري الحلبي في الاستانة اريده على الشخوص إلى دمشق ليتولى ادارة داري المعلمين والمعلمات ، فلم يجبني على كتابي ، وقام له تلاميذه بدعاية واسعة النطاق ، فاضطر الركابي بادرار بعض الاحزاب أن يرضى به مديراً عاماً للمعارف . فلزمت عندئذ داري ، وكان ما تم على غير إرادة الركابي وقال لي : أنت الذي جنيت على نفسك بامتداحك الرجل واستدعائك له . وكتم عني ما جرى على عادة السياسيين في التكتم ! وقال في الغيبة : إني لا أعذر . ولو صرح بما جرى على جليته لعذرته من أول ساعة .

بيد أن الركابي أكثر عليّ من الالحاح في البقاء ، وزيّن للأعضاء إقناعي ، فكانوا يتوسلون إليّ أنواع التوسل ، ويصرحون بأني إذا لم

أقبل بالبقاء فالحكومة تصرفهم من الخدمة ، فأكون السبب في قطع ارزاقهم وهم أرباب عيال يجب عليّ أن اراعيهم وأرحمهم . وعند ذلك قلت للركابي : إذا كنت تحرص على بقائي في الحكومة ، فأنا أرضى على أن ينقلب هذا المجلس برئيسه وأعضائه مجمعاً علمياً مرتبطاً بالحاكم العام مباشرة ، فقبل وصدر المرسوم بذلك .

رأى الركابي باشا دعاية كبيرة لساطع بك الحصري ، فنزل على رغائب الدعاة ، وتركني وشأني . فلما قبلت برئاسة المجمع العلمي ، وكان أعضاؤه مي في مجلس المعارف ، وفيهم أخصاؤه وأقرباؤه سُري عنه ، وظننت انه يعاونني بالفعل كما وعد . بيد أنه عاد إلى التخلي عني ، وصدع بأمر الحكومة لما ارادت أخذ المخصصات الموضوعة في الموازنة للمجمع العلمي الجديد ، وما كان منها أنفق اكثر من ثمانمائة جنيه ثمن كتب وآثار وترميم المدرسة العادلية مقر المجمع ورواتب الموظفين ، وصرف ايضاً الرئيس والأعضاء ، وأبقى عضوين اثنين احدهما صاحب نوادر يسليه في داره ، والثاني ينظم له قصائد يمدحه بها . وقضى هذان العضوان اشهراً لم تحدثهما النفس ان يفتحا البريد اليومي فضلاً عن ان يتم على يدهما شيء من الأعمال اللهم إلا إذا كان يُعد من ذلك قراءة الصحف ، وتبادل النكات والحكايات ، وتناول اكواب الشاي والقهوة . فأصيب المجمع لأول نشأته بهذه الصدمة . اما مؤسس المجمع الذي نشر دعوته بين علماء الشرق والغرب ، فأولوه ثقتهم وصفقوا له ، وهو طفل ، فقد باء بالخجل ، وقال خصوم العرب : إنا قوم لا ثبات عندنا ، والدليل انا افسدنا بيدنا ما اسسنا قبل ان تظهر ثمراته .

قلت للركابي وهو يعذلني على تعجلي في شراء الآثار والمخطوطات وغيرها : إن من الامور ما يجب عمله بسرعة ، ومنها ما يتحتم التريث به ، وشراء الآثار والمخطوطات من الامور التي تستدعي العجلة ، لأن تجارها آخذون بتلقطها من كل مكان ، فلا يبقى الا التافه بعد برهة قصيرة ، ونحن عازمون أن نؤسس متحفاً ودار كتب تليقان باسم دمشق التاريخي . وذكرته الى

ذلك أني دخلت خدمة الحكومة بالحاحه ، مشترطاً أن يعاونني ، حتى اذا خرجنا الى بيوتنا كان لنا من عملنا الطيب ما نتعزى به أمام امتنا . وقلت له ، وقد أغضبني عبوسه : إن هذا الكرسي الجالس عليه — في مكتبه بدار الحكومة — لا يبقى لك ، وهززته هزة عنيفة ، فأعني أعمل في هذه الفرصة السانحة ، وأموال الدولة تبدد ، واحسب ما يأخذه المجمع من بعض ذاك الاسراف ، ثم لنشهد النتيجة .

وفي الواقع إن المجمع العلمي لم يلق تنشيطاً يذكر من السلطات المحلية منذ أنشأته ، وأصابه من مقاومات أرباب المقامات ما لا يشرف الاسم العربي ، قال لي مرة الأمير فيصل بن الحسين : ألا تخاف الله ، نحن في صدد تأليف جيش وتنظيم حكومة ، وأنت بما لك من النفوذ على أعضاء مجلس الشورى تأخذ الالوف من الجنيهات للمجمع وداري الآثار والكتب ، وتسرف في انفاقها ، حتى لقد كبدت الدولة خمسة آلاف جنيه أنفقتها على بضعة أحجار جلبتها من تدمر . فضحكت ، فقال : بالله ، قل لي كم صرفت في هذا الباب ، فقلت له : ليس مقدار ما صرفت على ذُكر مني الآن ، وعلى كل فما أنفقته أقل من هذا المبلغ الذي ذكرته سموك ، وأرى أن تتفضل وتستأمر رئيس حكومتك . فسأله عند انصرافي من لدنه ، فكان الجواب إنه صرف في هذه السبيل نحو خمسة وعشرين جنيهاً فقط . واستحى الأمير فيصل أن يعود معي الى موضوع المجمع وإسرافي بماله ، عقبى وقوفه على حقيقة ما أنفقت ، وما خفت الله فيه .

وفي غضون تلك المدة تفاوضت وناظر المالية صديقي سعيد باشا شقير في أمور المجمع فعرّض بشراء الآثار ، وقال إنه ليس من الحكمة أن يصرف في جلب حجر مثلاً خمسة آلاف جنيه ، والحكومة تحتاج إلى مسائل أهم بكثير الآن فلم افهم مراده ، لأنه لم يصرح بأني انا الذي انفقت خمسة آلاف جنيه على احجار تدمر ، وكانت المناقشة بعيدة المرمى ، عبارة عن درس مالي صدر عن رجل مقتصد الى رجل قد يوصم بالاسراف في

اموال الدولة . وما عدنا الى المناقشة مع صاحب المال في هذا الموضوع ، والغالب أن وزير المالية كان بلغ مسامعه اسرافي هذا ولم يرجع إلى الكاتب وما كتب في حساب هذه المادة .

ثم لم يلق المجمع العلمي من السلطات الوطنية تنشيطاً بل لقي تثبيطاً ، فالامير الذي له الحق أن يفاخر بأن المجمع انشئ في أيامه خذله بهزل الهازلين وارباب الاحزاب ، والركابي ضربه ضربة تكاد تقضي عليه ، وضرب رئيسه ، وكان قبل أشهر يتوسل اليه ان يبقى في الحكومة بالصفة التي يختارها . ولما توقف المجمع بصنع أرباب الأغراض عرضت وزارة المعارف لائحة على مجلس الوزراء لاطراد أعمال المجمع فطرحها وزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن شهبندر بدعوى الاقتصاد . واراد الملك فيصل أن يتلافى ما فرط ، ووعد أن يوعز إلى حكومته باعادة المجمع إلى سالف حاله ولم يبر بوعده .

عاد المجمع إلى سيره في ظل الانتداب الفرنسي وعدت إلى رئاسته ، وجرى التبديل في أعضائه والزيادة عليهم . وكان أكثر أعضاء الشرف يبينون عن اخلاص ، ومعظمهم من الموظفين ، عملوا معي بدون أن يتوقعوا مكافأة على عملهم فخدموا العلم والآداب أجل خدمة .

وآذى المجمع السيد فائز الخوري ، فخطب في مجلس النواب في عدم فائدته (١) ، فألغى القسم الأعظم من مخصصاته ، بموافقة وزير المالية السيد شاكر نعمت الشعباني ، وهذا رجل لا يعرفني ، ولا يعرف ما هو المجمع العلمي ، بحت أصوات أعضاء المجمع وهم يصرخون أن اعمال مجمعهم معطلة ، ولا يصح أن يبقى أعواماً بدون رئيس ، والكتلة لا تستجيب إلى النداء وتحاول أن

---

(١) الغالب ان صديقي السيد فائز ندم على جرأته في المجلس وكأنه اعترف بما وقع منه وعرف انه ليس من المناسب ان يقف السيد فارس الخوري يبني معي المجمع العلمي العربي وشقيقه ينقضه ولكن الغرم عليّ كان في هذه المسألة وذلك اني حرمت راتب المجمع العلمي بضع سنين كان مجموعها ثلاثين الف ليرة سورية تعادل بأسعار اليوم مئة الف ليرة سورية .

ترضيهم بالكلام وأنا أقول ، وكانت تحاول الا تغضبني : لا أود العودة إلى الرياسة ، وإذا وسد العمل إلى الكفوء أعاونه ما ساعدتني صحتي ووقتي دون أن أتحمل تبعة رسمية . وبلغ الأدب بالوزير عبد الرحمن الكيالي مرة أن اخذ يساومني في جلسة المجمع على راتب الرئيس وذلك لأتنازل عن بعض مخصصات الرياسة ليعطى الفضل لعضو بن رضي عنها . فقلت له سواء كنت انا او غيري في الرياسة ، فعلى عاتق رئيس المجمع واجبات لا بد له من القيام بها ، ومخصصاته التي لا ترضون باقرارها مستكثرين لها أقل من راتب سائق سيارة رئيس الجمهورية ، وهكذا كانوا يرفعون أقدار العلماء .

والحّ عليّ الامير مصطفى الشهابي لما تولى وزارة المعارف الحاحاً شديداً لقبول الرياسة ، فلما رضيت ورضي بشروطي أشار الي أنه لم يستطع أن يخالف ارادة الكتلة في اقصائي عن الرياسة .

وحمل الوزير الكيالي صديقي خليل مردم بك أن يكتب اليّ وأنا في مصر بقبول الرياسة ، وأكد لي أن الامر تم من كل وجه ، ولم يبق أدنى عائق ، فلما أجبته بالايجاب قال : إن القوانين لاتبيح الجمع بين راتب التقاعد ومخصصات المجمع ، مع أن من أعضاء الكتلة البارزين من جمع بين رواتب كثيرة . واقترح السيد جميل مردم على ابن عمه الاستاذ خليل مردم أن يقبل برياسة المجمع فأبى وقال : إن الاعضاء الدمشقيين لايقبلون أن تكون الرياسة الا لرئيسه ومؤسسه .

وظهرت بعد ذلك نية الكتلة وقال لي الأمير شكيب أرسلان إنهم عرضوا عليه رياسة المجمع في أوربا فأبى قبولها وقال : إن الأولى بها رئيسه ، فأكدوا له أني تقاعدت وذهبت في سبيلي . وكان السيد جميل مردم في ذلك الاسبوع فاوض ابن أخي بسام في باريز وقال له مرتين : أكتب الى عمك انه لايكون رئيس المجمع غيره ، ونحن نعترف بعلمه وشهرته الخ . هذا ولم يطلب منه أحد هذه الرياسة ولا توسل اليه متوسل لتقلدها .

وعادوا بعد حين يرشحون للرياسة الامير شكيب أرسلان فانتخبته أول المنتخبين ، وأشرت الى رصفائي بانتخابه ، وقلت لهم إن الامير خدم العرب والاسلام أعواماً طويلة أجلّ خدمة فحري بالامة وهو الآن في شيخوخته أن تكافئه هذه المكافئة القليلة على جهده الكبير ، فانتخب وعين وهو في اوربا ، فكان نصبه عندي من حسنات الكتلة الوطنية . ولما هبط مصر ليتابع سفره الى الشام حدث الانقلاب المظلم في الاوضاع السياسية في سورية ، فرجع أدراجه الى سويسرا . وبقي المجمع العلمي معلقاً في الفضاء كما كان منذ بضع سنين خلت ، والعامل الاول في تأخره فائز الخوري شاكر نعمت الشعباني ، جميل مردم ، والسيد جميل هذا كان بدأ وهو وزير المالية فأنقص موازنته ، وحاول أن يبقيه مدة وزارته بلا رئيس .

زارني بأخرة صديقي العلامة فارس الخوري يصحبه صديقاي الشاعران المطبوعان فؤاد الخطيب ، خليل مردم بك ، ففتح قصة رياسة المجمع العلمي وقال إنه اعجب بما صدر مني ، وسمعه باذنه من لساني في داري وداره في اوقات مختلفة ، من حبي للامير شكيب ارسلان ، ومعاونته على احراز الرياسة فقلت له : لاتعجب ، وليشتد عجبك اذا صدر مني غير ذلك . اعلم ياصاح أن للحجارة والحوذية رابطة فمن باب أولى أن يكون للعلماء مثلها ، وبئس العلم علم لايؤثر في أخلاق صاحبه : إني صديق الامير منذ سبع وأربعين سنة ، مالقيت منه الا كل خير وود ، فكيف لعمري لاأعاونه ، وقد خدم العرب والاسلام طول حياته ، وما إخال أحداً يعرف قدر الأمير شكيب كما أعرفه ، ولا أحد يعرفني كما يعرفني شكيب . ثم ماهو هذا الراتب الذي خصص له فيحسد عليه ، وعندي أنه تقل الالوف لشكيب ، ولو خيرت لاخترت أن أخصه ببعض راتبي ، وأنا قد عرضت عليه هذه الرياسة منذ توليت وزارة المعارف في المرة الاولى على أن اكون معه كاتم سر ، وتكون له الرياسة دوني .

وقلت أيضاً : وتذكر يا فارس أني قلت لك أمام الأمير شكيب في فندق

« أوريان بالاس » اني زاهد في رياسة المجمع العلمي ، وإني أفضل أن أكتب كراسة واحدة وأطبعها على تولي رياسة المجمع سنة كاملة ، ولكني لا أحب أن أضرب من قفاي ، ولا أن أسقط في شرك الدسائس . إنكم عرضتم هذه الرياسة على الأمير ، فقال لكم إن رئيسه أولى به ، فهو مؤسسه والعارف بخفاياه ، فقلتم إنه تقاعد ، وأشرتم الى أنكم ترغبون في أن تخصوه بهذه الرياسة . وتقصوه عن تولي وزارة من الوزارات أو رياسة من الرياسات . وأنا ليس لي بعد كل هذا إلا أن أعتب على من كان يريد أن يعبث برجل خدم هذه الأمة خدمة علمية لم يخدم مثلها أحد من أقرانه . وأنا اذا كنت بعد اشتغالي بالتاريخ الحاضر والغابر وبحثي في تراجم الناس دهراً طويلاً لا أعرف من هو فلان وعلان فمن يعرف ؟

وقال السيد خليل مردم في هذه الجلسة إن الأمير شكيب كان كتب اليه سراً قبل أن يوافق على قبول رياسة المجمع العلمي أن يطالعه اذا كنت أحرص على الرجوع اليها ، فأجابه يومئذ بدون أن يذكر لي ذلك ، أنه جرى هذا البحث في حضوره غير مرة فكنت أقول : شكيب أحق الناس بالرعاية ، وأني ما فهت إلا بما ينبيء بعظيم حبي له وإكباري لعمله ، وإني كنت فرحاً بقرب عودته الى هذه الديار ، فكيف يسألني رأيي في هذا الصدد ؟ وقد سمع ما انطوت عليه جوانحي من الاعظام والاحترام له وقال السيد الخوري : اني بتنازلي عن الرياسة حللت العقدة ، وفرجت الكربة .

وممن قاوم المجمع من الافرنج المسيو اوستاش دي لوري مدير المعهد العلمي في دار اسعد باشا العظم ، فان هذا الرجل لم يترك باباً للتدخل في شؤوننا إلا ولجه ، حاول أن يأخذ ما جمعناه من الآثار فأخفق ، وكان مصيره الفشل في كل ما حاول ، دام على هذا سنين حتى منعته نظارة خارجية فرنسا من التدخل في امورنا وقالت له إنه ليس بالمستشرق فليحسن علائقه مع علماء يعملون لانهاض لغتهم وخدمة تاريخهم ، وأوعزوا اليه أن يحسن علائقه مع المجمع ولا سيما مع رئيسه . ومن الغد جاءنا يرجو أن

نضع ايدينا في يده ونأمره بأمرنا . فأغضيت عنه حتى رفعته دولته بخيانته لها ، وذلك أنه اشترى ديناراً قديماً وباعه من بريطانيا المظمى بمبلغ عظيم ، وكان عليه أن يعرضه أولاً على حكومته ، فكفينا شره ، وكفى تجار العاديات ضره ، لأنه كان أبداً يتهددهم ويتوعدهم ، ويبتاع منهم بضاعتهم بأثمان بخسة ، ويتجر بها وهو موظف ، وكنت سألت وكيل المندوب السيد شفلر اذا كان يجوز للموظف عندهم أن يتجر بنفس البضاعة التي وكل اليه أمر ادارتها ، فقال إن للرجل ثروة خاصة وهو يتجر لحسابه .

لقيت الألاقي من الحكومات السورية في سبيل هـذا المجمع العلمي ، كأنه كان بعض ملكي . وكان الأردياء الحسدة يعرفون حرصي عليه فيضربونه ليضربوني ، ويعبثون بمصلحته ليؤذوني . ذلك لأنه قام قبل أوانه على ما قال أحد رصفائي وكان لا يصدق أن في دمشق مجمعاً علمياً يعمل ويفيد ، بالنظر لما يعرف من قلة الاستعداد له في هذه البيئة الضيقة . على أن من قصدنا فائدتهم كانوا راضين كل الرضى ، ولا سيما طلاب المدارس والطبقة المستنيرة من الأمة . وكان لمحاضراته أحسن وقع في نفوس السامعين ، نبه الأفكار الى مجد الامة ، وعلمها تاريخها وأدبها ، وعرّف الناشئة إلى آداب ما كانوا يعرفونها من قبل ، وأسمعهم نغمات فعلت في أفئدتهم ، وهيأتهم للنهوض ، وكانت مجلته على ما أجمع على ذلك علماء الشرق والغرب من أرقى المجلات النافعة ، قل أن صدر مثلها ، وناهيك بمجلة يؤازرها نحو ثلاثين عالماً وأديباً من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات . وقد عني المجمع بوضع الفاظ لكثير من الكلمات الأفرنجية في شؤون الحياة ومصطلحات الدواوين وغيرها ، ودل الكتاب على مغالطهم ، والمؤلفين على تقصيراتهم ، والمحور الذي كان يدور عليه تثقيف الناشئة بالأدب العربي والأدب الغربي .

وشهد الله أني كنت افكر في أنجع الطرق لانجاحه ليل نهار ، مدة توليتي رياسته ، وما رأيت باباً يوصلني الى النهوض به إلا طرقته ، ولطالما بذلت ماء وجهي لأناس ما كنت اتنازل للسلام عليهم من قبل ، حتى استهديت

له المخطوطات والعاديات ، وكنت اقتصد من موازنته القليلة مالاً أدخره لأمور تنفعه في المستقبل واحاول اعلاء مكانته بين علماء الشرق وعلماء المشرقيات . وكان من أثر حرصي عليه الابتعاد به عن السياسة ، فأصبح المعهد الوحيد في جميع ارض الانتداب يعمل حراً لا رقيب عليه ، ولا مستشار له يملي على من فيه ارادته . وكان الفرنسي في الشام سيداً في كل مكان إلا في المجمع العلمي العربي ، فانه كان يزوره خاشعاً متواضعاً حتى لقد قال المفوض السامي المسيو بونسو وهو يزور المجمع مع المفوض السامي في فلسطين كلاماً في هذا المعنى وان الفرنسيين في سورية يعلّمون وفي المجمع العلمي يتعلمون . وقال بعض المفكرين : إن المجمع لقي كل معاونة من المنتدبين ، فلما تركته فترت همتهم عن معاونته معاونة فعلية ، ولو شاؤا لأعادوه الى سالف عهده والله أعلم بما هنالك .

وبعد فقد صبرت الصبر الجميل في هذه السبيل ، ومن علائم الصبر صبري على أخلاق بعض من عاشرتهم في دار المجمع حتى أمهد كل عقبة تحول دون انبعاثه . دخل أحد أعيان طائفة الروم ذات يوم يزورني في مكتبي بالمجمع ، وكان عندي بعض الأعضاء ، فلما رأوه أخذوا كلهم يتكلمون معاً ، يبغي كل واحد أن يظهر أمام الزائر بمظهر يعجبه ، فاستغرب هذا وخرج ولم يفهم شيئاً من حديثهم ، ولما ودعته إلى الباب سألني ما هذه الثرثرة ؟ فقلت له : الحال كما ترى . فقال : إن كان أحد يدخل الجنة فأنت أول الداخلين إليها لطول صبرك على هؤلاء أعانك الله على هذه الرياسة .

وتجددت همة بعض أعضاء المجمع في اول سنة ١٩٤١ لاعادته إلى سابق عهده ، ونشطوا لتحقيق غرضهم لما رأوا زيادة في وفر الدولة بضعة ملايين ليرة سورية اقتصدت بفضل حكومة مجلس المديرين . وكان بعض الرصفاء كثيراً ما يعرّض في العهد الأخير أني بالقاء الحبل على الغارب قد أهملت المجمع حتى كاد يقضى عليه أبد الدهر ، وان نفرتي من بعض الرصفاء تبعد المجمع من الوصول إلى هدفه الأسمى فنزلت على ارادتهم وأزلت الخلاف ودعوت الأعضاء كلهم ودعوت معهم صديقي المسيو لافاستر مندوب المفوض

السامي ومعاونه ومدير المعارف العام . وبعد أيام فاوض رئيس مجلس المديرين الاستاذ بهيج الخطيب صديقي الاستاذ عبد اللطيف الشطي مدير المعارف في معنى اعادة المجمع وتقررت مفاوضتي فجاء الاستاذ الشطي يزورني في داري ويعرض عليَّ إذا كنت مستعداً إلى الرجوع لرياسة المجمع فأجبته بالايجاب فجرى الانتخاب وانتخبني رصفائي بالاجماع المطلق ، وعدت فاستلمت الزمام يوم ١٦ آذار سنة ١٩٤١ . وقلت للسيد بهيج الخطيب في معرض شكره على هذه العناية بالمجمع إن أصحاب المعالي والسعادة عملوا في هذا الباب ما لم يعمله أصحاب الفخامة والدولة ، أي ان الوزارات القانونية والمجالس النيابية قاومت المجمع أما مجلس المديرين فاهتم بارجاعه لاعتقاده النفع منه . وكنت على ان استقيل من رياسة المجمع في صيف سنة ١٩٤١ لما أصرَّ وزير المعارف السيد محسن البرازي على اختيار شخص من الأعضاء لا اريده فأبى رئيس الحكومة إذ ذاك صديقي السيد خالد العظم قبول مقترحه واوعز إلى وزيره باختيار الاستاذ خليل مردم بك لهذا المنصب لأنه موضع ثقتي . وجرت امور في خلال هذه الازمة المجمعية . لا تشعر بتجرد كان ينبغي ان يصدر عن العلماء قبل كل الناس ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفي بعض دورات المجلس النيابي تقدم السيد جوزيف ليان نائب حلب بالطعن بالمجمع العلمي العربي وذكر عدم فائدته وكثرة ما ينفق عليه من مال الأمة فرد عليه اولاً نائب دمشق السيد نجيب الريس رداً محكماً ثم قام رئيس الحكومة السيد سعد الله الجابري فعدد ما قام به المجمع من الفوائد للغة وقال ان المجمع يمثلنا في العلم ودمشق هي الدعامة الاولى في نهضتنا . وفي جلسة اخرى طلب الاستاذ الريس إلى رئيس مجلس النواب الاستاذ فارس الخوري بصفته من أعضاء المجمع العلمي منذ نشأته ان يقول رأيه في المجمع فقام يعدد ما قام به من الأعمال للغة والتاريخ ، وابان ماله من الاثر الحميد في تحسين سمعة البلاد وما له من المكانة في عالم العلم وبين المستعربين من علماء المشرقيات . فكان قوله فصل الخطاب . واثبت رجال الحكم الجديد غيرتهم على العلم والآداب .

أربع شخصيات

الأولى

هو من الافراد الذين يحسنون الضرر والنفع ، ونفعهم أكثر من ضررهم كان حازماً شديداً في ادارته ، يفضل ان يكون معاونوه ممن يعف عن اموال الراعي والرعية ، واذا عنّ له انقاذ الخلق من ظلم ظالم يعرف كيف يلقيه في شرك لا يخرج منه سجيس الليالي . واذا كان الفاسد على شيء من المزايا ويرجى الانتفاع منها ، وكان ممن يخشى سلاطة لسانه لا يتم اصلاحه معه الى النهاية ، ويهدده بأساليب له يظنها نافعة حتى يرعوي ويكف من شره .

كان يعرف السياسة المكافيلية ، ويعمل برباطة جأش ويحسن ضبط نفسه ، يداوي بالسكوت ما لا يحب الجهر به او يبتسم ابتسامة صفراوية عندما لا يحب التصريح ، يعرف ما يعمل وما يعمل له ، ويملي ارادته على الكبير والصغير ، واذا كان صاحب السلطة غراً مستبداً يخفف من غلوائه بالبرهان ، فاذا عجز عن ذلك تحصل المشادة بينهما لأنه لم ينفذ له المعقول وغير المعقول من رغائبه ، وهو ممن ألفوا مراعاة القانون ، وله مشاركة كافية في بعض فروع ادارته ، والظاهر من حاله انه تحت الطلب لخدمة أرباب الدول بلا قيد ولا شرط ، حباً بالمنصب وما يتبعه من ظهور وسطوة .

يؤلمه النقد اذا كان في الخدمة ، ولا يهش كثيراً للمناقشة ، ويفضل أن يأمر فيطاع ، وألا يسأل عن سر امره . ويظن ان كل من يرى هم كالجند في كتيبته ليس عليهم غير الطاعة . تتمثل فيه الغطرسة والغلظة وحب الانتقام ، وأظنه لا يحب غير أولاده ، ويقل جداً المخلصون في حبه .

كان بارعاً بالتجاهل تجاهل العارف ، وبالتغابي تغابي العاقل ، وأتقن

هذا التجاهل وهذا التغابي حتى لتظن انه يعتقد الغباوة بكل من يلقاه . وطريقته هذه اذا سكت عنها من يخافون شره ، فان من لا يبالون مظهره يذكرون له عيوب ادارته في وجهه . أما الوفاء فما عرف لفظه ولا معناه ، واما الصداقة فصعب عليه القيام بعهودها ، والعالم من الأزل لا يحبون إلا من ينفعهم ، أو يعتقدون انه ربما ينفعهم ، وكان قومه يرهبونه اذا كانت له سلطة ، فاذا ساواهم اشاحوا بوجوههم عنه ، لأنه من الشخصيات التي لا تحب اذا جردت من الحكم ، فلا هو حسن العشرة ، ولا ممتع الحديث ، ولا يخرج مع جلسائه عن احاديث العامة . والمناصب تعطي شيئاً من الرونق لبعض الرجال .

كان من سياسته أن يدخل في أحزاب وجمعيات مختلفة المنازع ، ويقسم لها كلها أن يخلص لها ! حتى إذا نجح حزب منها كان في مقدمة المتصدرين في الكراسي الامامية ، وأول المطالبين بالمقام الاعظم ، وهو كمعظم رجال السياسة مولع بالوقوف على الدقيق والجليل من أسرار الشعب ، هو من العمال الذين لا يهشون ولا يبشون إذا كانوا في دست الحكم ، ناعمين بالعز ، ممتعين بالقوة ، فاذا نُحوا راحوا يعيدون ما كان لهم من صلات بقومهم ، ويفزعون إلى الله فلا يسعهم إلا الصف الاول بين المصلين في المسجد الجامع ، وتراهم أبداً والسبحة في ايديهم ، يستغفرون ويدمدمون ثم تشهدهم في زمن العزل يتوسعون في حريتهم ويفرطون ويحاولون أن يبرزوا على الأحرار ممن كانوا بالأمس يمقتونهم ولا يقربونهم . وقد يحملون من اخبارهم لعدوهم ما لا يليق صدوره من كبير ، وتقوى فيهم ملكة النقد وهم عزل من سلاحهم ، وكانوا من قبل مهما علا الصياح من المظالم ساكتين . هو مثال من الشخصيات التي تغير اربابها المناصب ، ويتلونون في اخلاقهم منصوبين ومعزولين ، ويكتسون في كل حال كسوة الممثلين الحاذقين ، ولكن بوقار كثير وفي غير تبذل .

تراه إذا كان في حاجة إليك يلقاك صباح مساء حتى لتخجل انت منه

ولا يخجل هو منك ، وإذا واتته السعادة فأحرز مقاماً لا ينشب ان يرفع وجهه إلى السماء ، ويحوله عن السائرين على الارض . دخلت إلى يده اموال كثيرة في عهدين ، اموال سرية وجهرية ، فبددها مع غيرها في امور لا يحسنها ، فأعوز في شيخوخته ، واكبر الظن انه لم يتناول شيئاً ليس له فيه وجه حل .

الثاني

تخرج في ارقى مدارس الدولة العثمانية ، وخدمها خدمات كان فيها تابعاً لا متبوعاً ، ووصل إلى ارقى الدرجات أيام حكم الغريب ، وعرف بالاخلاص له زمن قوته ، وهو على جانب من الذكاء والجربزة ، يظهر الغيرة على مصالح الرعية ، ويخدم صاحب السلطان ، ولا يرد لهفة الضعاف والمظلومين . هو من طبقة العمال التي ترى السلامة في المسالمة . يحرص على إرضاء اصحاب الحوائج ، ولو بالكذب أو المواعيد أو المعاريض ، ويظن هذا من حسن السياسة والكياسة ، ولا يهتم لدفع المجتمع خطوة إلى الأمام ، ويهمه ابداً الاحتفاظ بهدوئه وطمأنينته ، ولذلك يتحبب الى أرباب الحول والطول ، شأن الضعيف في ذاته يستمد قوته من غيره ، فاذا تخلى عنه صاحب القوة حار وخار .

فيه رقة حاشية ، وجمال عشرة، وتكلف رزانة ، وحب للتجمل، وبذل إذا كان في البذل ما قد يحفظ المظهر، ومع انه عصري في مناحيه، يتذرع بالانتساب إلى الشرف، وسحنة وجهه وسحنات آله تنادي بأن دعواه في ذلك غير صحيحة . هزأة يهزأ بالكبير والصغير ، ولا يستثني من سخريته إلا أصحاب القوة ، وهؤلاء يغرق في مجاملتهم ومصانعتهم . ويعبث بمن يدعون إلى الاصلاح ، ويضحك حتى من عقل من جعل دأبه نشر العلم ، ويقول جازماً إن كل جهد لا يعود على صاحبه بفائدة عاجلة باطل وعبث . يخيل اليك من حركته أنه يعتقد البلاهة في كل من يلقاه ، ويتوهم انه بروغانه يخفي عنهم ما أتى في سر . كان من صميم الاتحاديين حزب الدولة ، وفني فيهم فقلدوه العمالات

واتمنوه على اسرارهم، فلما دالت دولتهم ، تبرأ منهم وأنكر أنه كان في جملتهم . وكان في مقدمة الانتدابيين أيام انتدابهم على بلاده لا يعتقدون ان أحداً يدانيه في اخلاصه لهم . وكان من اكبر زعماء الماسونية واحباره في محفله شائمة ذائمة ، ومع ذلك كان يحاول أن يبرىء نفسه من الالتحاق بهم .

هو يحب السالم من المغانم ، ويدخل مع كل من يضمن له راحته وهناءه ، ومن طبعه الابتعاد عن القيل والقال ، ومن دهائه إذا شعر أنه سيطرح على مجلسه موضوع يتوهم أنه لا يرضى القوم اقراره ، ويلغطون فيمن كان من الموافقين عليه ، يتغيب عن البلد ، وإذا لم يعرف من قبل ما سيعرض في الجلسة وطرح فيها ما لا يوافقه ، يصاب في الحال بوجع في بطنه ، ويذهب إلى الخلاء ومنه إلى داره ، ولا يعود إلى ديوانه حتى يقرر زملاؤه مايقررون ، كأنه يتقاضى راتبه لينظر في المسائل السهلة التي تروقه ، أما الصعب منها فله أن يلقيه على كواهل غيره . وهذا من جملة عبثه ، يعبث حتى بوصفائه ولداته . كان منذ فارق المدرسة إلى أن ذرّف على الثمانين يلهج بالعطف على من كان لأهله شيء من المجد ، يشير من طرف خفي إلى ان من كان أجداده نبلاء يحمل في نفسه شيئاً من النبل يؤهله للتصدر ، ويعنيه بما تتمتع به الفئات المختارة ، من جاه عريض ، ونعمة سابغة ، والنبيل الذي يعنيه ان لم يكن على صفات مُتَنَبِّله لا يشرّفه جدوده ، وربما كان أسلافه ممن أضاعوا بأيديهم مجدهم ، وهم من أكلة اموال المدارس والجوامع والأوقاف ، او من خدام الدولة البائدة اشتهروا بسرقاتهم وجاسوسيتهم ، او من غير تلك الطبقات الشريرة ، فيوهم انهم كبار في عينه ، وما هم في الواقع إلا صغار ، وإذا حاسبناهم حساباً يسيراً خرجوا وليس لهم من مزايا الرجال قليل ولا كثير .

إن من لم يرزق صفات تؤهله للظهور والتنبل لا يجدي البكاء عليه ، وأولى له ان يذهب من طريق من نشأوا غير نشأته ، ويترك المجال لمن جاروا العصر وما جمدوا ولا اتكلوا ، ولا وقفوا عند حد التفاخر بالعظم الرميم .

وما شرف الانسان إلا بنفسه أكان ذووه سادة أم مواليا

دأب هذا السياسي يثني على كبير كان مقدماً في الدور البائد لتوسطه لبعض طلاب الوظائف وإيصالهم إلى ما يشتهون من المناصب والمراتب ، ولعله كان هو من جملتهم ، ولا يمدح السوق إلا من ربح . ولطالما زعم له أنه نفع العرب ، لأن الوظائف هي كل شيء في نظره . ومع أن الرجل الذي يتغنى بمحامده قد اضر بالدين والدنيا ، وأقل ما يقال فيه أن صنائعه كان اكثرهم سبة على الاسلام ، هذا أمر لا يهمه ، ولا يفكر بانه كان الواجب على صاحبه ان يخفف من مصائب الدولة ، لا أن يزيدها بلاء على بلاء .

والى هذا يعترف بان سيرة أكثر القضاة كانت سيئة ، ومنهم الجهلاء الذين لايصلحون لشيء ، لان معظهم ماعرفوا القضاء الا آلة للكسب ولقد بدا لمدحت باشا والي سورية المظم أن يمرن الشاميين على الحكم فطلب أن يختاروا له أربعة من أبناء العائلات ، فلما ولاّهم عسفوا الشعب فخجل المتوسطون لهم أن رأوا أولئك المتصرفين يظنون الوظائف غنيمة يتغنّمها من يتولاها . كأنه لاجناح على ابن العائلة أن يخالف القانون ويهزأ بالشرع ، وواجب الكبار أن يسامحوه إذا سرق ، وأن يغضوا الطرف عن مساويه ، ويبرئوه مما الصق به ، ويعيدوا اليه نعمة أهله ، وان كان هو السبب في تمزيقها ، والظاهر أن هذا المعمر الكبير كان لكثرة مارأى من هذه النماذج القبيحة من المستخدمين وطد نفسه على الانس بهم ، وأوحى اليه غرامه بمسالمة الخلق ، والاحسان لارباب البيوتات أن يقرهم كلهم على ماهم فيه .

كانت الامية غالبة الى عهد قريب على العمال ، وكان بعض القضاة والحكام ورجال الجندية اميين ؛ ولطالما قلت حتى في الرسميات من الخير اغلاق مدرسة معلمها أمي ، وسدّ محكمة قاضيها عامي وأن لايوسد التدريس والقضاء لامثالهم . وقد رأيت من هذه الثلة المخجلة في الاقاليم والحواضر نموذجات كنت إذا شهدت تلاعبها أناجي المولى في سرى عن سر خلقه لها وهو تعالى لايصدر عنه العبث .

كانت الامور أبداً على العهد التركي الى الهزل ادنى منها الى الجد قال أحد الظرفاء من أصدقاء بيتنا وكان أمياً عامياً لصديق له من الظرفاء أيضاً . أراك لاتوقرني التوقير الواجب مع إني صاحب سبعة كراسي في دار الحكومة (أي عضو في سبعة مجالس) فأجابه : مالي ولك ان شاء الله تكون صاحب مئة كرسي ، فصرخ فيه صاحب الكراسي : ياخبيث إذا كنت صاحب مئة كرسي فانا إذاً صاحب مقهى لاعضو من أعضاء الحكومة ، ومن الغريب أن يكون من جملة كراسي هذا (العم المحترم) كرسي في مجلس المعارف .

الثالث

هذا كان على جانب من الحزم والروية ومن المداورين أيضاً ، ومن الحرصى على حماية أبناء أسرته وأبناء البيوت القديمة ، وسياسته ان يستكثر أبداً من الراضين عنه ، يرضيهم في نطاق القانون أو بالخروج عليه وعلى شدة تفانيه بارضاء الناس عزَّ من يحبه منهم ، وتتجلى عبقريته ، وتمثل للأعين عفته إذا جاءه من يطمع في حمايته من أهله ، فانه يصرف عندئذ كل مافيه من حيلة ليبلغه ما يشاء بمخالفة القانون جهرة . وحماية الاهل والاقارب ماثلة في أكثر من اصطلحنا على اطلاق اسم الكبراء عليهم .

وابتلاه الله بقريبين ، ما اظن ان الله خلق أحط من اخلاقهما ، ولا أوغل منهما في الفساد على انواعه ، وكلاهما جمع مالاً عظيماً من التوظف ، وكلاهما فقد ثروته برمتها ، أضاعها الاول في حياته ، والثاني لسنتين من وفاته . وكان لاشأن لنسيبهما هذا الا معاونتهما على اجرامهما ، يجهد كل جهده ليبرئهما متى انكشفت سيئاتهما في جريمة جديدة ، وهكذا حال بعض رجال هذا الزمان يتعلمون مايستعينون به على تقلد الحكم ، وتبقى اخلاق بيوتهم راسخة في نفوسهم ، واذا قلت لهم في ذلك اجابوك وما خجلوا .

هي السياسة ومن لايرضيه ان يسير بسيرتنا فليقعد في داره . فانظر إلى هذا الذكاء كيف يتبختر عندما يعرض الحظ النفساني ، ومن الدليل على تجسم هذا الخلق في هذا المترجم له انه يعين كل جاهل ساقط اذا كانوا ممن يختلفون اليه ويصانعونه ، ويرجو منهم خيراً ساعة الضيق ، يرشح للوظائف أسقط صنائعه وأسقط أقربائه وهو ولا شك عارف بتجردهم من المزايا ، وماذا يهمه اذا كانوا جهلة أو متجسسين أو مرتشين اذا سدّ هو نهمتهم وأوصلهم الى رغائبهم بالحاق الضرر بخزانة الامة وادخال الخلل على مصالحها . وهذا ما رأيته من أكثر السياسيين وأرباب الأحزاب يعمون عن كل عيب في جماعتهم ، ولذلك كان من اللازم عزل السياسة عن الادارة ، فمن يتولى أمراً ادارياً يجب ألا يكون له دخل في السياسة .

ورحم الله طلعت باشا وزير الداخلية في آخر أيام العثمانيين ، وأحد المخلصين الصادقين من الاتحاديين ، فقد عرض عليه أحد معارفه أن يوظف أحد ذينك الشقيين ، بدعوى أنه سبق له أن خدم في الادارة ويحمل شهادة عالية ، فقال له ما زبدته : ما دمت جالساً على هذا الكرسي يستحيل أن يلي هذا خدمة في الحكومة لأن الحكم عرض ، ومن لا عرض له لا يؤتمن على أعراض الامة . وقد ثبت عليه أنه بعث بزوجته إلى أحد كبراء الدولة تغنيه وترقص له ، وزوجها مغتبط بأنها حظيت بالقبول منه .

أظن بعض ساستنا يحتاجون إلى تغيير تركيب أدمغتهم حتى تكون لهم متانة أخلاق الوزير التركي طلعت .

المدارس تعلم قشوراً من المعارف ، لا تلقن عقلاً ، ولا تنزع خلقاً متأصلاً .

الرابع

وهذا سياسي آخر ساد باستخدام ما لديه من قوة موروثة ، مضافة إلى ما أوتيه من قوة مكسوبة . لم يدرس الدروس العصريه ، ولا تعلم لغة شرقية ولا غربية ، ولا دخل مدرسة مدنية ولا دينية ، ولم يتخرج

بأحد ، ولا عمل تحت اشراف أحد ، وبرز للعالم كبيراً بمظهره وهذا لا يستغرب في الشرق موطن الخوارق والعجائب .

هناك ذكاء وقوة حجة وحركة لا تفتر ، وهناك تجديد وجمود أحياناً ، وأناة وطيش أحياناً ، ومطامع عظيمة يبذل في تحقيقها آخر درهم ، ومغامرة إلى أقصى حدود المغامرة ، وثبات في الشدائد ، واستهانة بكل عزيز اذا كان من وراء ذلك ما يؤدي الى التفوق على منافس . ولو بذل بعض هذه العناية في تحصيل العلم لعدّ من العلماء الممتازين .

يحب من الاعمال ما يكون ذريعة الى التمجد به ، ويحلو له أن يناصر المشاريع النافعة ولو كان القائمون عليها ممن جاهروه بالعداوة . ظاهرة غير باطنه وسريرته غير سيرته ، ودهاؤه يفوق اخلاصه ، واسع الحيلة ، صبور على الأذى ، يحسن استمالة القلوب ، ويحسن تنفيرها . وسياسته اخترعها لنفسه لم يقرأها في كتاب ، ولا رواها عن المعاصرين والغابرين ، يستخدم كل ما يجوز وما لا يجوز في سبيل أغراضه ، وهو بارع في الدس على خصومه ، ومن أكثر الناس وعوداً ، ويعتقد أنه بالاكثار من الوعود يرضي الطالبين ولو موقتاً ، وقد يلبس وعوده حلة يستلطفها لأول وهلة من لم يكن له عهد بطريقته ، واذا انكشف أمره يعود فيهيئ قولاً آخر يقوله ، واذا اشير اليه بالاقلال من هذه الوعود هزأ بالقائل هزأه بأرباب العقول ، وقد يقع له أن يعد عشرة أشخاص بمغنم واحد ثم يدفعه لآخر غيرهم ما كان داخلاً في زمرة من أقسم لهم أن يخصهم بالنفع ، ومن قلة عقل الموعودين أن يعودوا بعد حين يصدقون ما يوعدون به .

ربما غالى منافسوه في الطعن عليه ، لانهم يعتبرون أنفسهم أعلم منه ، وهو الذي جاءهم بأساليب في التآمر يكاد لا يظهر لهم سرها إلا بعد وقوعها ، ولو كان عقله على مقدار لجاجته عند حاجته لجاء منه الرجل الذي ينشل الدول من سقطتها .

من سياسته أن يرعى العامة أكثر من الخاصة ، لاعتقاده الخير في العوام وانه لا ينفعه غيرهم في مواطن ليس للخاصة استعداد لمثلها ، ولهذا كان معظم من يصطنعهم من صنف قليل البضاعة من المعرفة ومن الأخلاق ، ويرى أنه لا يضيره سوء اختياره ما داموا يخلصون له ، وفيهم من المزايا ما يعرفه هو فيهم ، وهو الى هذا يماشيهم ويتقرب من ذهنيتهم .

يخلص لكل من يوليه ثقته من الدول ؛ ويفنى فيمن يعتقد أنهم وحدهم يقدمون ويؤخرون في حاضره ومستقبله . خدم دولاً ثلاثاً كان في كل واحدة منها الامين المخلص ، يرضي رجالها بكل ماأبدعته قريحته من ضروب الارضاء ، ويهون عليه كل أمر اذا كان من وراء ذلك جلوسه يوماً واحداً في الحكم . وهداياه تترى الى من بأيديهم التأثير فيه وفي منصبه ، يأخذها من أي مال وصلت اليه يده ، وغرامه باكتساب المال يوازي غرامه في الاسراف فيه ، تراه عصرياً مجدداً الى أقصى حد ، وربما تسامح بأمور لها مساس بالدين اذا صلحت له الدنيا كما يحب ويهوى .

واذ كان هواه السياسة يرعاها أبداً لايصعب عليه أن يدوس الحق برجله اذا تعارض مع سياسته ، وكثيراً ما عطف على المفضول وترك الفاضل ، وهو على مضض اذا استخدم بعض الكفاة ، لأنه في باطنه لايحترمهم وهم لايحترمونه ويدلون عليه أيضاً بما امتازوا به من صفات وخصائص . وقال بعضهم فيه إنه يحسن اختيار عماله ولا يحسن الاحتفاظ بهم الى النهاية . وفي الازمات يلجأ الى اشياء يخيل اليك معها انه يرجع بالبلاد القهقرى ثلثمائة سنة ، وهذا ينافي دعواه التجدد والتمدن ،

لو قيست هذه الشخصية بالشخصيات التي تكلمنا عليها قبل هذا لرأينا صاحبها بذّ اولئك الدارسين المجربين الذين صعدوا سلم المعالي درجة درجة ، ونسجوا مجدهم خيطاً خيطاً ، فقد شهدناه خدم نفسه وخدم المصلحه العامة بالممكن على اسلوبه الخاص وأضر نفسه ونفع من احبهم . أما الثلاثة الآخرون

فما أتوا بشيء يذكر في سياستهم وادارتهم اللهم الا أشياء ماطبقوها واموراً موهومة مانفعت من رعوهم ، وهذا لم يحصر ذكاءه في دائرة واحدة بل أرسل به الى ساحات واسعة يجول ويصول ويخطىء ويصيب ويمنع وينفع .

قيدت هذا الكلام لما فيه من عظة وعسى ان يدرك الفطن من مغزاه أن الكبار مادامت هذه منازعهم لايرجى الآن قيام حكومة رشيدة بايدينا . نقول هذا والاسف آخذ منا بعد أن رأينا كيف يسير أرباب الطبقة الاولى من رجالنا تحت الايدي الغريبة . ونتساءل ايكون عملهم أحسن ياترى لو كانوا في حكومة مستقلة تتجلى فيها أخلاقهم وقرائحهم في قيمتها الحقيقية ، بدون أن يكون لها من يرقعها ويجبر نقصها .

في مصر ومن أجل مصر

دخلت الفندق بباريز ، وكنت على أن أقضي فيها بضعة أيام في طريقي الى أكسفورد ، لحضور مؤتمر المستشرقين (١٩٢٨) ، وما كنت أعلم أن سمو خديوي مصر عباس حلمي ينزل هذا الفندق ، وله فيه جناح خاص . واتفق أن كان واقفاً على رأس السلم ، فأهل بي كثيراً ، وكنت تشرفت بمعرفته من قبل ، فتحدثنا ملياً ، ثم تفضل ودعاني الى تناول الطعام معه من الغد في غابة بولونيا من ضواحي باريز ، ولم يكن معنا غير صديقه وصديقي حافظ عوض بك الكاتب السياسي المصري ، ووكيله بباريز وهو مصري اسرائيلي (خليفة بك بوبلي) . فذهب الحديث بنا كل مذهب ، ولحظت أنه كان غاضباً على الأمير شكيب أرسلان ، فحاولت عبثاً أن يحل الرضا محل الغضب . ثم ذكر له حافظ كتابي (خطط الشام) فقال الخديوي انه لم يره ، فقلت : أقدم نسخة منه ، فقدمتها لدن عودتي . فكتب إلي جواباً يشكرني ويقول في آخره : (وهنأتك على هذا العمل الصالح الذي كان ضرورياً لرقي سورية التي نحبها ونعزها ، ولا نبرح مفكرين في خيرها ، اقتفاء لأثر جدنا ساكن الجنان محمد علي) .

وربما كان الخديوي يود لو كان ملكاً على الشام ، وكانت سورية في بدء خروجها من حكم الترك تؤمل لو كان لها ملك من آل محمد علي ، خصوصاً بعد أن خرج منها الملك فيصل . وبلغني أن فرنسا فاوضت الأمير يوسف كمال ، خلال الثورة السورية ليتولى ملكها ، فاشترط لذلك أن يكون المفوض السامي الفرنسي في سورية سفيراً كسائر السفراء ، وهو يتعهد أن يقيم من أعمال العمران ما يشغل السوريين عن كل ثورة ، فلم يقبل بالطبع اقتراحه ، ولا يقل الطالبون لملك سورية إلى اليوم عن عشرة

أشخاص ، ومن الناس هنا من يفضل الحكم الجمهوري ، ومنهم من يحب الحكم الملكي المقيد .

ندبني المجمع العلمي العربي وحكومة سورية لتمثيلهما في حفلة تكريم أحمد شوقي شاعر مصر . وعرضت خطابي على مراقب الخطب ، فحذف منه جملة ، كان في حذفها على صواب ، لأن الكلام يتم بالاستغناء عنها ، وهي تورثه تطويلاً . وأرادني أحدهم أن أحذف تحية رأس الأسرة المالكة محمد علي الكبير وما يتبعها من تحية الملك ومن تقدمه من آله في حكم مصر ، فأبيت وقلت : لا أحب أن أخرج على حدود الأدب ، وأنا منتدب عن دولة وعن مجمع علمي هو الوحيد في الشرق الأدنى ، ومن كان له ما يقال مع صاحب مصر فهو وشأنه . وعلى هذه الصورة قرأت خطابي في الأوبرا الملكية بالقاهرة ، فكان له وقع عظيم في النفوس ، قوبلت فيه بعاصفة شديدة من التصفيق مرات . وتعرفت بعد ذلك الى بعض رؤساء الأسرة المالكة ، واستحكمت بيننا الصداقة .

ودعاني شوقي ، وأظن باشارة من القصر الى زيارة جلالة الملك فؤاد الأول ، فقابلني جلالته مقابلة عطف عظيم ، وطلب اليّ أن أعود الى سكنى مصر ليوسد اليّ عملاً علمياً في قصره العالي ، وزادت رغبته في ذلك لما ذكرت له الصحف والمجلات المصرية التي آزرت فيها ، فقال إنك بمساهمتك بخدمة السياسة والأدب في مصر تعد مصرياً . وذهب الفكر بي مذاهب لما ذكر المليك المحبوب مقترحه ، فتوسطت صديقي شوقي لاعفائي من تقلد المنصب الجديد . فقال شوقي لكبير الأمناء إن صاحبي عزفت نفسه عن سياسة قطره ، فيصعب عليه أن يعالج سياسة غيره ، وأنا أجد لكم شاباً مصرياً كفوءاً للعمل الذي تحبون توسيده اليه ، فأجابه : نحن نعرف شباب مصر ونعرف أن نختار منهم متى أردنا ، وإنما نود أن نستخدم شخصية صاحبك . وهكذا تفضل ملك مصر العظيم فأعفى عني بحسب ما تراءى لي وشكرت تلك العواطف الجميلة . وكنت أخجل كلما تشرفت بلقائه بما كان يفيضه عليّ من

مكارم أخلاقه ، واستخليته مرة لأقدم شكري لجلالته على ما أولاني من فضله بضمي الى أعضاء مجمع اللغة العربيـة الملكي (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) فتفضل وقال : « إنه كان يخشى ألا أقبل بهـذه العضوية أما وقد قبلت فهو يشكرني » .

وكنت علم الله أود امتثال أمره الكريم في سكنى مصر لولا أن هواءها لايلائمني كما يلائمني هواء دمشق مسقط رأسي ، وفي أرضها دفن أبي وجدي ، ولولا أني لاأحب أن أشرع بأمر جديد قد يخالف من بعض نواحيه مانهجته حتى اليوم ، فيظهر التنـاقض بين يومي وأمسي . ولما عدت الى مصر بعد تغيب سبع سنين عاد الملك فؤاد الأول أحسن الله اليه بكرر اقتراحه الاول في ارادتي على سكنى مصر ، فأجبته في قصر القبة العامر إني رهن أمره في كل مايلوح لخاطره الكريم ، سواء كنت في الشام أو في مصر ، لاأحتـاج إلا الى اشارته العالية لأصدع بأمره . وارسلت من جهة ثانية صديقي السيد محمد الببلاوي الى قصر عابدين ، وقد سمعت أن الامر كاد يتم بتوسيد عمل اليَّ في القصر ، حتى لايبادروا الى تبليغي ارادة ملوكية ، لاأستطيع قبولها واكره ردها . وكان جلالة الملك يحرص على جلب العلماء الى بلده ، ذكر ذلك في حديثي معه اول تشرفي بمقابلته فقال : (إني أود أن أجلب الى مصر كل اخصائي في فنه وأدبه ، حتى لاتبقى دون غيرها في مضمار التقدم ، ولطالما أردت بعض المشتغلين بالعلم في الغرب أن ينزلوا على الرحب والسعة ديارنا ليفيدوها بعقولهم وقرائحهم ، وقد أزور بعضهم في بيوتهم أحملهم على هذا الغرض ولكن بعض علماء الغرب لايقدرون أن ينفكوا عن أعمالهم ، ويصعب عليهم أن يرحلوا طويلاً الى الشرق) .

وكان هذا المليك العظيم يشارك مشاركة عظيمة في العلوم المختلفة ، حتى لتحس وأنت في حضرته انك في حضرة عالم لافي حضرة ملك . قال

لي في احدى مقابلاته ان السير دنسن رُس مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن قال له إنه ينوي الذهاب الى فارس ليقنع رجال سياستها بالعدول عن الخط الفارسي واستعمال الحروف اللاتينية كما فعل الكماليون ، فتألم المليك لهذا المسعى وقال للمستشرق الانكليزي : اذا فعلت فأنا أنفض يدي من صداقتك ، وأقاومك بكل مافي وسعي ، وذكر له جمال الخط الفارسي وجمال الخط العربي وكان (طيب الله ثراه) فتح مدرسة في القاهرة وحشر اليها أعاظم الخطاطين من الاتراك لما بارت صنعتهم في تركيا ، وكان من أثر ارشاده أن يقول المستشرق المومأ اليه بعد حين : ان اللغة العربية والحروف العربية والقرآن والاسلام كلها قواعد بناء واحد إن هدمت واحدة منها تداعى البناء كله .)

أبيت سكنى مصر مع أني أجد بين ظهراني اخواني فيها من السلوى ما لا يتيسر لي أن أنعم بمثله في بلدي . وتفتنني مغريات الحضارة على ما لا أجد له شبيهاً في الشام ، وعليَّ يصدق بعض الشيء قول أبي تمام :

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاس اخواني

تعاهدت أنا وصديقي الشيخ أسعد الشقيري ألا نشتغل بشيء اسمه سياسة بعد الحرب العامة لكثرة ما لقينا من آلامها ، فانقطعت بالفعل الى الأعمال العلمية الصرفة . واذا اشتركت في الوزارة مرتين ، فالوزارات في سورية على عهد الانتداب كانت وزارات تعين من المنتدبين لا دخل لها في السياسة ، وإنما هي وزارات جديرة بأن يطلق عليها اسم وزارات ادارة ، والسياسة بيد الدولة المنتدبة . وبهذا بررت بعهدي وخلصت من غوائل كثيرة ، وما كنت في الوزارتين شهد الله ، أفكر في غير اصلاح المدارس وتعميم التعليم الابتدائي . وكنت لهذا السبب أبتعد ما أمكن عن عظماء السياسة

لئلا يمهدوا اليَّ بمسائل لا أحب الدخول فيها ، وتتخدش الخطة التي رسمتها لنفسي بعد الحرب ، وصعب عليَّ أن أدخل آخر الأمر ما تباعدت عنه في الأول ، والمسائل العلمية لا تترك لمعانيها وقتاً للتفكير في غيرها .

وحاول مفتي القدس ان تكون الحفلة الأولى من أسبوع شوقي برياسته وكانت اللجنة جعلتها برياستي بدون علمي . لأني مندوب عن مجمع علمي وعن دولة سورية ، والمفتي مندوب نفسه فقط . فرفعت اللجنة اسمي في اليوم الاول وجعلتني في اليوم الثاني ، وسرته بهذا التقديم ، واستكتب في الصحف انه رئيس المجمع العلمي في فلسطين ، وما عهدنا لفلسطين مجمعاً علمياً الى اليوم .

ودعينا إلى الجامعة الاميركية في القاهرة لتناول الشاي انا وصديقي الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي ، وكان جاء الى مصر ليكرم شوقي أيضاً ، فالتقينا في محطة اللد على سبيل المصادفة ، ونزلنا معاً في فندق كونتيننتال . فقلت لاسعاف انا لاحب إجابة هذه الدعوى ، والوقت ضيق وعندنا اجتماعات أخرى لابد من حضورها ، وبدأت الحفلة تصاغ فيها الاماديح لمفتي فلسطين ، وكلما رجونا انتهاء الاحتفال زاده شعراء الطلبة وخطباؤهم تقديساً وتمجيداً ، وزدنا من جراء ذلك تبرماً ومضايقة ، ولما رأيت الامر يطول استأذنت وانصرفت على شدة حرص مدير المدرسة على بقائي ، وقلت لاسعاف : إن النفاق رائج عند الغربيين رواجه عند الشرقيين ، وعند المدنيين كما هو عند الدينيين ، وأسفت على مخالفة قاعدتي في الا أحضر حفلة لا أعرف الغرض منها ، ولا اشترك في مائدة لا أتبين الاشخاص المؤلفة منهم . وحدث بعد سنين أن دعتني هذه الجامعة أيضاً إلى حفلة شاي لتكريم الاستاذ فنسنك أحد علماء المشرقيات الهولانديين فاعتذرت لأني لا أعرف من يحضر فيها . وقلت لمن آخذني قبل سنة لامتناعي عن إجابة دعوة الجامعة الاميركية أيضاً : إن معرفة الاشخاص في الدعوات الخاصة

من القواعد الأميركية ، وكان على الجامعة التي تحمل اسم أميركا أن تجري على هذه الخطة ، وإذا عدّ امتناعي عن الحضور شذوذاً ، فأنا أحب هذا الشذوذ إذا كان فيه ماير يحني ويريح الناس .

وجريت في الدعوات التي اقمتها في العهد الاخير على كتابة اسماء المدعوين في رقعة مطبوعة ، فكان بعضهم يعتذر لتخلفه عن الحضور لانه سقط في قائمة الاسماء على اسم من لايحب الاجتماع به ، فارتفع بذلك حرج عن أصحابي واستحسنوا ذلك ونسج بعضهم على منواله .

سياسة

قال لي رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الحسيني إن دارعة افرنسية رست في ثغر بيروت فيحسن أن تذهب لتحية قائدها باسم حكومة سورية ، فقلت له : جرت عادتك أن تبعث في مهماتك غيري ، فأرسل أحد رصفائي نائباً عن الحكومة ، واعفني من هذه الرسالة ، وأنا لا أحب التشريفات ولا أحسنها . فأصر عليّ بالذهاب ، وأرفقني بكاتب مؤتمن عنده ، ليكون شهيداً على ما أقول ، وما علمت ان كان انتدابي لهذه التحية هو من عندياته ، أم كان بايعاز من مقام أسمى .

ولما وصلت الدارعة كان وكيل المفوض السامي المسيو تترو هناك ، وقد اخذت منه الحمرة فقال : إنكم في دمشق تلعبون وتهزلون ، والرئيس لا يحضر الى مكتبه كل يوم ، ، وسياستكم تتجه نحو سياسة الوطنيين المتطرفين . فأجبته أن ما بلغه غير صحيح ، وان الرئيس مواظب على عمله أكثر من اللازم ، حتى انه قضى أمس الجمعة وهو يوم عطلة في دار الحكومة ، من الصباح إلى الغروب ، وجئته في المساء وسألته اذا كان تغدّى ، فقال : لا . فقلت له : اذا أحببت أن تطول خدمتك ، يجب عليك أن تأكل في أوقات معينة وتنام وتستريح ، وان كان لا بد من الاقامة في قصر الحكومة ، حتى أيام التعطيل ، فات من بيتك بسرير ، وأوصهم على طعام يحمل اليك . وذكرت له أن اتجاهاتنا السياسية ليست مع المتطرفين ولا مع غيرهم ، وليس من دليل حسي على صحة هذا التقول على الحكومة ، وأقنعته بان حكومتنا لا تتساهل بواجبها .

ذكرت للشيخ حديثي مع تترو ، وقلت له ان القوم على ما رأيت يتربصون به وبحكومته الدوائر ، فاما أن يكتبوا الى المفوض السامي المتغيب في باريز فيتفق مع وزارة الخارجية على اقالة حكومتك ، وإما ان ينتظروا

مجيئه لانقاذ برنامجهم ، فتدارك امرك والا تداعت وزارتك . فشرع في الحال يتخذ الوسائل فنجح وبقيت وزارته في الحكم بعد ذلك نحو سنتين .

كان المسيو برويير مندوب المفوض السامي يكرهني ويحب مستشار المعارف المسيو راجي ، وكان هذا خصمي منذ توليت الوزارة ، فقد كان يتدخل فيما ليس من شأنه ، وانا اقف في طريقه بالقليل من الوسائل التي كانت لدي . وقد دعيت مرة لنتفاوض في منهاج التعليم الثانوي برياسة كاتم السر الدائم المسيو تترو في بيروت ، وكان معي مستشاري ، ولحق به المندوب المسيو برويير فحضر الجلسة ، وليس من حقه ان يحضرها ، فلما تكلم مستشار المفوضية وتكلمت انا ، اراد مستشاري ان يتكلم فما فهم الحاضرون ماقال ، وتبسموا مما اورده من العبارات ، وانفضت الجلسة .

وتخلفت عن الجماعة وبقيت مع المسيو تترو وقلت له جاداً : اما بلغك انه كادت تقوم فتنة امس في دمشق ، فقال : لا ، وكيف كان ذلك ؟ فقلت له : انت تعلم ان الفقراء والاغنياء سواء امام الله ، وفي الجامع عندنا لافرق بين السلطان والشحاذ . وقد شاء مندوبكم المسيو برويير ان يحضر صلاة العيد في الجامع الأموي ، فتأخر عن الميعاد ، ولما حضر كان المصلون اقاموا الصلاة ؛ فغضب وشتم خصوصاً لما رأى انهم لم يخصوه في السدة بكرسي عظيم ، احسن من كراسي الجالسين من غير المسلمين ، فالحمد لله على انطفاء هذه الفتنة . فضحك وضحكت معه . وكأن كلامي صادف هوىً في قلبه ، ولعله يريد ان يقول انظر بالله عليك أليس الحق مع المفوض السامي في عدم رضاه عن هذا الرجل ؛ وكان عين في هذا المنصب على غير ارادته .

وكان هذا المندوب برويير يرسل سيارته في ساعة متأخرة من الليل الى ترجمان المستشار ليستشيره في بعض ما يعنّ له من المسائل ، ذلك لأن الترجمان كان موضع ثقة المستشار ، والمستشار موضع ثقة المندوب ، وقد بلغ من دلال الترجمان الأخرق ، أنه كان كل سنة يبيع أسئلة البكلوريا

من الطلاب ، فانكشف تلاعبه بعد عزل المستشار ، وكان نصيبه الطرد من عمله . وكان هذا الترجمان ممن يعتمد عليهم أحد أعضاء الكتلة الوطنية ليكون وسيطه الى المستشار فالمندوب ، فيتمكن من قلب الحكومة التاجية ، واستلام زمام الوزارة . وقيل لي إن التقارير اللازمة في هذا الباب كانت تكتب في قلم مستشار المعارف ، فما نجح يومئذ ذاك في سعيه للوزير ، ولا وفق المندوب ولا مستشاره ولا ترجمانه . وكان هذا الوطني دأب على تقصي أخبار كل وزير بمفرده ، يسأل حتى شرطيه عن حركاته وسكناته ، ويعده بالترقية متى استلم زمام الحكم ، إذا هو أطلعه على أحوال وزيره .

وضايقني هذا المندوب ، وضايق رصيفيّ في الوزارة السيد صبحي النيال وزير العدل ، والسيد عبد القادر حسني الكيلاني وزير الزراعة ، وقد عُرضت على مجلس الوزراء مسألة الدخان ، فكان ريدنا على أن نقول باحتكاره ، ونحن نرى المصلحة في استثمار الحكومة له ، وأن تطلق الحرية للأهلين في زراعته وصنعه ، وكان يترامى إلينا أن الشركة طالبة الاحتكار وضعت مبالغ عظيمة للوزارة اذا أجابتها على طلبها ، ومنحتها الامتياز بالاحتكار . ولما أصررنا على رأينا نحن الوزراء الثلاثة ، شكانا المندوب الى المفوض السامي ، لامتناعنا من إعطاء الدخان للشركة ، مدعياً أن واردات الدولة تنقص إن لم يكن الاحتكار ، وهكذا كان رأي وزير المالية . فسأله المفوض السامي عما إذا كان الوزراء الثلاثة المصرون على إطلاق الحرية للدخان هم ممن يتهم بالرشوة فقال : لم يُسمع عنهم شيء من هذا القبيل ، فعندئذ قال له على ما اتصل بي : ليس الوزير موظفاً حتى نرسم له خطة ، ونطلب منه انتهاجها ، الوزير صاحب مهمة ، وصاحب فكر ورأي ، ولا يليق أن نوعز إليه باعطائنا الرأي الذي نؤثره . هؤلاء الوزراء أعرف بمصلحة بلادهم ، فاذا كانوا يفضلون إعطاء الدخان إلى شركة فأقرهم على طلبهم ، وإذا أحبوا جعله حراً فأمض ما يحبون . فرجع المندوب بخفي حنين ، وخاب أمل من يقولون معه بالاحتكار من الوزراء .

وفي وزارة الشيخ تاج الدين الثانية تقرر احتكار الدخان في سورية ولبنان بفضل المفوض السامي المسيو دي مارتيل ، فحدثت من ذلك ضجة كبرى في لبنـان ، وتدخل بالأمر بطريرك الموارنة ، وما أمضى المسيو دي مارتيل إلا ما أراد ، وانتفع بذلك فيما قيل بعض العظماء في الجمهوريتين السورية واللبنانية ، ممن وافقوا على الاحتكار لتربح الشركة الفرنسية من مال سورية الفقيرة مئات الألوف من الليرات كل عام .

وكان هذا المفوض السامي يبغضني ، وهو وحده من بين المفوضين السامين في سورية الذي تجهم لي ، ولم اجتمع اليه سوى مرتين في بضع سنين قضاها في ارضنا ، اولاهما لما دعا عظماء الدولة لأخذ آرائهم في الحالة السياسية ، توسعت معه في نقد السياسة المتبعة توسعاً أحنق صدره عليَّ ، والثانية لما دعاني الى الشاي ، وأراد المندوب صديقي المسيو لا فاستر تقديمي له وتعريفي اليه التعرف الذي يليق ، فقـال له : إني اعرفه ، بلهجة قاسية . فكان يدعوني بعدها الى الحفلات فلا أحضر ، والغالب أنه كان يترامى إلى مسامعه اعتراضي على سياسته وكان يأتي أموراً تتنافى مع وقار منصبه العالي ، والحق إن السياسة الاقتصادية التي لهج بها كثيراً وانتهت بري ألوف من الفدادين من أرض حمص كانت عمله الوحيد الذي يفتخر به .

كيف وضعت تآليفي

سألني الاستاذ منير الشريف إذا كنت أشرت في مذكراتي إلى الاسباب التي دعتني إلى وضع تآليفي ، فقلت له : إنك لفت نظري إلى أمر ما جال في بالي ، فقال : أكتبه ففيه فائدة ولعليم . فكتبت هذا :

كان أول ما نشرته ترجمة رواية قبعة اليهودي ليفهان سميتها (يتيمة الزمان في قبعة ليفهان) (١٣١٢ هـ) وكنت يومئذ آخذ الأدب عن استاذي السيد محمد المبارك ، فترجمت الرواية كما يترجم المترجمون بعبارة سهلة مع المحافظة على الاصل ، وعرضتها على استاذي ينظر فيها فما راقته ، وفضل أن تكون مسجوعة على طريقته ، فنثرت بعضها ونثر هو أكثرها فجاءت قطعة منسوجة كلها بالسجع . هكذا كان الاستاذ يرى الانشاء ، وعلى هذه الطريقة تخرجت به أولا ، وأدرك هو ضعف طريقته بعد أعوام . وقال لي وأنا قد نزعت قيود السجع نزعاً : ما أسعدك تخليت عن السجع ، وعمدت إلى الكتابة المرسلة ، بدون تكلف الاسجاع والازدواج ، وأنا ما زلت محافظاً على الطريقة القديمة ، ما قدرت أن أتخلى عن الملكة المقيمة التي غلبت عليّ ، وإذا أردت اليوم أن اكتب كتاباً خاصاً في غرض من الاغراض يتعاصى عليّ تسطيره ، ذلك لأني اريده مسجوعاً وقريحتي لا تواتيني ، والسجع مستحكم فيّ رضيت أم كرهت ، وهو لا يحسن في كل موضوع وفي كل موضع .

وكتبت بعد ذلك كتباً كانت لي بمثابة تمرين على التأليف ، ولم أطبعها منها ترجمة الاسماء التركية لرضا باشا نقلتها إلى العربية والفرنسية «١٨٩٣» ومنها تعريب بعض فصول من ثلاثة كتب في الحرية ، وهي حرية الوجدان والحرية المدنية والحرية السياسية لجول سيمون ، ولما رجعت إلى ما نقلت لم يرقني ، وقلت

إن القراء من باب أولى لا يستسيغونه . ونشرت بعض فصول في جريدة المؤيد من كتاب الحرية السياسية .

وكنت احب أن أضع تأليفاً في حرية العرب فكتبت فيها دفاتر لم أستحسنها بعد سنين ، ورأيتني لم احكم الموضوع ، وكانت معلوماتي التاريخية فيه ضئيلة لم تكف لتصوير البحث ، ولم اعطه كلبتي وما درسته على ما يجب كما درست أكثر الموضوعات التي عالجتها بعد . ولما أعدت النظر فيما كتبت لم أرَ أحسن له من طرحه في سلة المهملات وليتني أيضاً نبذت « رواية يتيمة الزمان » في زنبيل سقط المتاع أيضاً ، ولكن الشباب وحب الظهور يومئذ حفزاني إلى طبعها ، على أنها كانت لي بمثابة الخطوة الاولى نحو التأليف ، ما خلت من فائدة وتدريب عليه . وكانت معلمة لي ، على صغر حجمها ، ألا اعاود طريقة الاسجاع التي بطل زيها في هذا العصر .

ولما نشرت مجلة المقتبس حاولت ان اضع بعض التآليف التي كنت ارى فيها نفعاً ، فاستغرقت الجرائد السياسية ومجلة المقتبس العلمية كل وقتي وجهدي ، وصرفت في ذلك بضع سنين (١٩٠٦ — ١٩١٤) منها ثلاث سنين في مصر أخرجت خلالها من المقتبس العلمي ثلاثة مجلدات ، وأخرجت في دمشق خمسة مجلدات وعددين اثنين من السنة التاسعة . وما وفقت خلال هذه المدة إلا لطبع جزء من ترجمة « تاريخ الحضارة » لشارل سنيوبوس ، نشرته في المجلة أولاً كما نشرت « رسائل البلغاء » وطبعتها تباعاً في أجزاء المجلة وجعلتها بعد كتاباً برأسه طبعته مرتين . ثم طبع طبعة ثالثة وقد نقحته وزدته زيادات كثيرة ، وأصبحت هذه الرسائل النادرة مرجعاً للمتأدبين والباحثين ، لما حوت من نصوص لا أثر لها في الكتب المطبوعة ، وكانت مما أعان بعض ناشري المخطوطات في الأدب والتاريخ فعارضوا عليها بعض نصوصهم ، وأجمل ما فيها رسائل عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيي الكاتب ، واستفاد منها كثير من الادباء الذين عرفتهم في مصر والشام وتأدبوا بأدب هذين الكاتبين العظيمين ، ومنهم اليوم أساتذة ورؤساء في

الجامعتين المصريتين ودار العلوم والأزهر والمجمع العلمي العربي .

وطبع لي صاحب مجلة مسامرات الشعب روايتين عربتهما عن الفرنسية وهما « الفضيلة والرذيلة » و « المجرم البريء » نقلتهما بسرعة وطبعتهما بسرعة ، ولم أنظر في المسودات ولا في التجارب نظرة ثانية ، فتسللت اليهما هفوات مطبعية وغيرها ، مضافة إلى رداءة الترجمة ، على أن القراء يومئذ قرأوهما وربما استحسنوهما ، وما هما في الواقع غير كتابين لم يدخل موضوعهما قلبي وكتبتهما لغيري ، وكانت الغاية من نشرهما مادية صرفة ، والمادة شيء والادب شيء آخر .

استخرجت (١٣٤٣ هـ) بعض مانشرت من المقالات في مجلة المقتبس ومجلة المقتطف وجريدتي المؤيد والظاهر وغيرها وسميته « القديم والحديث » وطبعته في مصر ، ولم أرض عن طبعته لأنها حملت أغلاطاً فاحشة ، ولم ينظر أحد في تجاربه . وكان صديقي الاستاذ محمد لطفي جمعة كثيراً مايحثني على جمع هذه المقالات مخافة أن تضيع في الصحف اليومية والمجلات العلمية وهذه المقالات أو أكثرها لاترضيني اليوم ، وكانت شيئاً في عهد كتابتها وفي ذلك دليل على ضعف ابن آدم يستهجن اليوم ماكان استحسنه بالأمس ،

وشعرت بالحاجة الى وضع تآليف صورت في نفسي موضوعاتها ، وبحثت قليلاً عن مراجع للاستعانة بها ، فلم يساعدني الوقت على البداءة بها ، وتبرمت بما كان يضيع من وقتي في تحرير المجلة وفي أشغالي الاخرى فعزاني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري بقوله : « إن المجلة تأليف وزيادة » وكان لايرى تكبير حجم مجلة المقتبس ، ويؤثر تجويد المقالات ويوصي بكتابة مختصرة ، وعنده ان بضع ورقات جيدة التأليف أفضل من مئة صفحة مملوءة حشواً وتطويلاً . ولذلك كنت أصرف جهوداً في تأليف المجلة أستقصي أبحاثها وانقل آراء العلماء المحدثين والقدماء . وتأليف مجلد كل سنة من مجلة مختلفة الموضوعات أصعب في الحقيقة من وضع كتاب

ذي موضوع معين ، خصوصاً إذا كان منشئها يكتب أكثر صفحاتها ، وينظر في مقالات مؤازريه نظراً بليغاً ، ويتوخى ان تكون موضوعاتها من الطريف المفيد . ومن أين لصاحب المجلة أن يضع كتابا ويجود فيه يومئذ والأبحاث تعرض له بالعشرات ، وهو مضطر إلى قراءة أكثر من ثلاثة آلاف صفحة بالعربية والفرنسية والتركية كل شهر عدا الجرائد السيارة ويكتب كل يوم بضعة أعمدة في موضوعات شتى ، ويصحح مقالات وأخباراً لايقع عليها العد .

كان صديقي الاستاذ رفيق بك العظم كثيراً مايحثني على وضع التآليف الممتعة ، وقد كتب لي مرة من القاهرة (١٣٢٢ هـ) يقول : « وبودي ألا توزع قواك التي وهبت لك في أجزاء منثورة وفصول مبتورة ، وأن توجه نفسك إلى تأليف كبير يكون لك ذخراً وللأمة نافعاً ، وأفضل مايحتاجه قومك الآن التاريخ . . اقترح عليك هذا حرصاً مني على ملكتك العلمية أن تعفو في مستقبل الايام آثارها بين متفرق الجرائد وفي ثنايا المجلات والله موفقك وهاديك » .

كنت منذ القديم أفكر في موضوع مشتت المادة متنوّع الأبحاث ، وهو وضع تاريخ سياسي ومدني مطول للديار الشامية ، فان ما كتب في هذا الباب لم يحم أصحابه حول الموضوع كثيراً ، وأخذت ابحث عن الكتب وأزور المعالم والمجاهل في هذا القطر ، واستكثر من اقتناء الاسفار النادرة باللغات الثلاث العربية والفرنسية والتركية ولا سيما الاسفار العربية القديمة التي أحياها علماء المشرقيات من الغربيين . وكنت أطالع كل ذلك مطالعة تدبر والتقط جواهرها ولما استوفيت البحث في خزائن مصر والشام وبعض خزائن الاستانة تعلقت همتي أن أرحل إلى أوربا ليتسع مني مجال النظر في خزائن كتبها العربية والافرنجية ، فعرضت فكرتي على السيد مارتين هارتمان من علماء المشرقيات الالمان وكان جاء دمشق وقلت له إني مزمع الرحيل إلى باريز ولندن وأكسفورد وكمبريدج وليدن وبرلين ومونيخ

وليبسيك وغوتا وفينا ورومية والاسكوريال ومجريط ، للبحث في خزائنها عن مخطوطات العرب في التاريخ ، فقال : إن الفكرة حسنة ولكنها غير عملية ، وتنفيذها يستغرق من وقتك حولين على الأقل ، تحتاج فيها إلى نفقات طائلة ، فالأولى أن تذهب إلى رومية ، وفي خزانة الأمير كايتاني صاحب كتاب تاريخ الاسلام صور صورها بالتصوير الشمسي من خزائن العالم ، فيها ما خلفه الثقات من مؤرخي العرب في تاريخ الاسلام ، مما لم يطبع حتى الآن ، فاذا زرت خزانته في التاريخ فكأنك رأيت جميع تواريخ العرب المحفوظة إلى اليوم في خزائن الغرب . فقصدت مصر وزودني صديقي أحمد زكي باشا بوصاة منه إلى صديقه الأمير ليوني كايتاني في رومية فقدمت عليه فرحب بي وسهل علي مهمتي ، فكنت كل يوم ابحث ثلاث ساعات في الصباح في خزانته مدة شهر .

ولما نشبت الحرب العامة كانت بعض فصول الكتاب قد نسجت . وأنا حائر في وضع التاريخ السياسي ، أأجعله على الدول أم على السنين ؟ وحائر أيضاً في الكلام على كل اقليم باقليمه على النحو الذي عرفته العرب ، وبدخل الكلام على جغرافيته وطوبوغرافيته وتاريخه السياسي والمدني ، ثم عدلت عن الطريقة التي اتبعتها في تأليفه بعد أن ألفت جانباً منه على الاقاليم ، واطلع أصدقائي عثمان مردم وخليل مردم وبدر الداغستاني على مسودات « خطط الشام » ، وما جمعت له من المواد وأعددت له من الفصول والابواب ، فألحوا عليَّ بانجازه وطبعه ، وأرجأنا الأمر إلى مابعد الحرب . ولما وضعت أوزارها أخذ السيد الداغستاني يحثني كثيراً على طبع الكتاب ، وكان هو مثلي ومثل رفاقي الذين كاشفتهم بالموضوع يخشون ضياع التعاليق التي علقتها ، والمواد التي جمعتها بطول السهر والدؤوب وكنا كلنا نقول إن شعباً يطالب باستقلاله حري أن يكون له تاريخ يرجع اليه ، ويقول للأمم . هذا ما كنت عليه ، وهذا ماصرت اليه .

استطراد : أراد عزمي بك والي بيروت خلال الحرب الكبرى أن أؤلف له كتاباً في سورية الداخلية كما ألف له مجلدان في سورية الساحلية (ألوية اللاذقية وطرابلس ونابلس وعكا) فطلبت للقيام بهذا التأليف ألف ليرة عثمانية ذهبية فاستعظم ماطلبت ، وقال ان تأليف الجزءين الخاصين بولاية بيروت لم يكلف الواحد منها ثلاثمائة ليرة عثمانية ورقية ، وكان من وضعوها وترجموها من الشبان المبتدئين أخذوا من المواد التي وقعت لهم من الكتب المتداولة ، وما عنّ لهم الخوض فيه من المباحث بادئ الرأي . فقلت له إني في صدد تأليف تاريخ مطول في الديار الشامية وقد جمعت له مواد وقعت عليّ غالية جداً ، فقد انفقت على سياحتين لي الى اوربا للبحث في الخزائن ، وعلى ابتياع مااضطررت الى ابتياعه من كتب علماء المشرقيات في التاريخ والجغرافيا والرحلات والادب وغيرها مبلغاً لايقل عن الف وخمسمائة ليرة عثمانية ذهباً ، صرفتها مجزأة على أعوام فاذا نزلت عن هذه المواد ، وكتبت كتاب سورية الرسمي لايبقى للمواد التي جمعتها وانفقت عليها هذا الانفاق طلاوة ولا جدة ، فلم يقع انفاق بيننا .

واجتمعت بعزمي بك في الاستانة بعد أن نحي عن ولايته — وكان من أذكياء الاتحاديين يغلب عليه الجدّ ويحرص على انهاض المسلمين — فقال لي إنه آسف لأني لم اجب طلبه إلى تأليف كتاب عن سورية الداخلية ، فأجبته وأنا كذلك آسف لعدم انفاذ أمرك . أنت استكثرت المبلغ الذي طلبته مع أنه دون ما صرفت ، وما كنت أتوقع من ذلك تجارة أربح بها ، وربما لم تنس كيف وصلت إلى تلك المواد التي جنيتها بالمجهود المعظم ، ثم خاطبته متهكماً : هل ألفت يا سيدي كتاباً قط ؟ قال : لا ، قلت إذاً هذه صناعتي ، وأنت اسمح لي أن أقول لك إنك لا تميز بين المؤلفين وما يؤلفون . قلت لي إنك أنفقت على ما ألف لك لولاية بيروت مبلغاً زهيداً على التأليف والترجمة ، وتقترح أن أجري على ما جرى عليه غيري ، وربما كان بعضهم يكتب

لك هذا بدون أجر ، لأنه لم ينفق قرشاً على موضوعه من قبل ، ولا استعد له وهو منه خالي الذهن ، ويتطال في هذه الحرب الزبون أن يصون نفسه عن الدخول في الجندية ، ويتخذ من انقطاعه إلى التأليف حجة لاعفائه منها ، والأروح لنفسه ان يكتب كتاباً ، وما كتب حياته كتاباً ولا رسالة ، وهو جالس في حجرته يأكل الأكل الجيد ، ويلبس اللباس الجيد ، وينام النوم الهادئ ، على فراش وثير ، بعيداً عن الخطر في ساحات الوغى .

وقلت له إن من طبعي الا اهين العلم ، وما سبق لي ان اسقطت قيمته ، بل رفعت من شأنه ما استطعت ، ولقد انفقت في سبيل التعلم اولاً ثم التعليم ثانياً ثم نشر ما علمت ثالثاً ، نفقات لم ينفقها فيما احسب انسان ممن عرفت من ابناء وطني ، وارجو الا تعد ذلك تبجحاً ، وان توقن ان هذا هو الحق . وبذلك لا أواخذ على رفض طلبك ، وطلبك ما كنت أعده تفضلاً عليّ ، بل سخرة من سخرات الحرب الممقوته ، حمدت الله على أن نجوت منها .

وكان عزمي بك يحاذرني ويعتقد أني من جماعة جمال باشا ! وأذكر أني كتبت مقالات في الحملة على المحتكرين البيروتيين في جريدة الشرق فما وسعه إلا أن شكرني عليها واستزادني منها ، وإن كانت ضمناً موجهة اليه ، ولتشير من طرف خفي إلى أنه ضعيف الادارة ، يتلاعب المحتكرون بالأسواق ، وهو ساكت لا يبدي ولا يعيد .

وإذا صحّ ان يكون لي تأليف زمن الحرب الكبرى فكتابان من كتب الدعاية أحدهما رحلة الوفد الشامي إلى الاستانة وجناق قلعة ، والثاني رحلة أنور باشا الى المدينة ، وهما كتابان كتبتها وطبعتها على نفقة الجيش ، وأنا غير راض عن اكثر ما فيها ، وهما كتابان لغيري لا لي ، وفيها صورة من سياسة تلك الأيام ، وما كتبه الكاتبون والشعراء في معاونة الدولة العثمانية وهي في أحرج أوقاتها . وبحثت في الحرب في عدة خزائن عن الكتب النادرة ولا سيما خزائن دار السلطنة فالتقطت منها فوائد عظيمة .

وبعد الحرب عاد السيدان خليل مردم وبدر الداغستاني ، وقد فجعنا بحبيبنا عثمان بك يحثان على نشر (خطط الشام) ويسهلان عليَّ أمر طبعه ، وأنا أحجم مخافة أن أنكب بطبعه إذا طبعته على نفقتي كما نكبت بتأليفه . فاستقر الرأي على تأليف لجنة من أصدقائي خليل مردم ، بدر الداغستاني فوزي الغزي ، فخري البارودي ، لطفي الحفار ، سامي العظم . جمعت نفقات طبع الكتاب بالاشتراك فورد عليها من اشتراكات الشام ومصر وغيرهما ماطبعت به الاجزاء الستة اي نحو الف ليرة عثمانية ذهبية . وندر طبع كتاب في الشام على هذه الصورة ، ودل طبعه على روح التساند بين أبناء الوطن الواحد ، وكان من النادر أن يثق القوم بانجاز كتب تطبع بالاكتتاب وايقنوا لثقتهم بهذه اللجنة أن الكتاب يطبع لامحالة ، فدفعوا الاشتراكات عن طيب خاطر . طبع من الكتاب ألفان وما بقي من نسخه بعد الاشتراكات وهي نحو ألف نسخة أهديت منها للمجامع العلمية والخزائن العامة والمجلات والأصحاب والفقراء نحو ثلاثمائة نسخة ، وبيع الباقي ولم يرد عليَّ من ريع الكتاب مائتا ليرة أي نحو ثمن ماأنفقت على تأليفه ، وعلى ثلاث رحلات رحلتها الى أوربا ، وعلى شراء الكتب النادرة ، واشتغلت خمساً وعشرين سنة مغتبطاً بوضع كتاب كبير في تاريخ بلادي وحضارتها قرأه قومي وتعلموا فيه تاريخهم ، وأصبح مرجعاً للباحثين من العرب والافرنج

كان صديقي الاستاذ عارف النكدي يستبعد وضع تاريخ للديار الشامية ويقول إنه ضائع في تضاعيف التواريخ العامة مندمج فيها ، فمن الصعب استخراجه ، ولما انتشر الكتاب ورأى توفيقي في وضعه اعجب مما وفقت اليه فطلبت منه ان يكتب نقده في التأليف الجديد في مجلة المجمع العلمي العربي ، فكان ينتقد كل جزء عند صدوره وانتفعت ببعض نقداته ونشرتها في آخر الكتاب اسوة ماجاءني من نقد الباحثين والعلماء . ولم انشر تقريظاً مع ان التقاريظ التي كتبت في الكتاب غير قليلة . ومن طبعي ان يتدرب الناس على حب النقد للفائدة المتوقعة منه للمؤلف وللناس وللعلم . ولذلك

لم انشر في كتبي قط ولا في المجلات والجرائد التي كتبتها تقريظا او شيئاً يشبه المدح في عملي بل كنت انشر النقد فقط . وهذا ما كان صديقي العلامة الأب انستاس ماري الكرملي يستغربه مني ، ولطالما قال لي إنه مارأى مؤلفاً في الشرق يتطلب النقد تطلباً وينشره .

نشرت (خطط الشام) في دمشق وكنت افضل طبعها في مصر لعلمي بأن الكتاب الصادر عن القطر المصري يلقى قبولاً في العالم العربي لايكون مثله لكتاب يطبع في الاقطار العربية الاخرى ، وعاقت عن طبعه في وادي النيل مسألة التصحيح ، ومن الصعب ان اقضي فيه اشهراً للنظر في تجارب الطبع .

وطبعت في القاهرة كتابي (غرائب الغرب) وكانت الطبعة الاولى منه في دمشق ، وزادت هذه الغرائب ضعفين في الطبعة الثانية ، وهو في مجلدين فيهما ما كتبته في المقتبس من مقالات في وصف المدنية الاوربية ومنها مقالات ايطاليا وسويسرا كتبتها في لوزان في أيام قليلة ، وكنت أكتب ثلاثاً أو اربعاً منها في الجلسة الواحدة ، وتدخل كل مقالة في نحو خمسة أعمدة في الجريدة ، وكتبت بنشاط غريب ، وقلما كنت اعاود النظر فيها ثانية . ووقع لي مثل هذه السرعة في الكتابة في مصر وقد قضيت فيها مرة ستة أشهر ، والحكومة تنظر في قضية سياسية على المقتبس بدمشق وصدرت الجريدة خلال تلك المدة ، وكان لزاماً عليّ أن أكتب على الاقل مقالاتها الافتتاحية ، فكنت أجمع في ذهني الموضوعات التي أريد معالجتها ، وأجلس يوم البريد صباحاً إلى مكتبي فأكتب حتى الظهر ست مقالات افتتاحية دفعة واحدة ، وارسلها لتنشر في جريدتي على اسبوع .

وكثيراً ما كنت أقضي أشهراً لا تنشط نفسي لكتابة شيء ، وقد أكتب في شهر واحد ما لا يخرج من قلمي في سنة . وقلما كتبت غير كتابة الهواة ، وما اضطررت الى الكتابة التجارية إلا في الصحف السياسية على الاغلب . ولهذا النشاط والفتور عوامل نفسية كثيرة يعرفها من يكتب ويؤلف . وقد لاحظ بعض العارفين أن كتابي « غرائب الغرب » (الطبعة الاولى منه)

كان في أوله رائقاً وفي نصفه الاخير جافاً . والسبب في ذلك أن الجزء الأول من هذا الكتاب كتب في بيئة حافلة بالمسرات ، كتب في باريز في غفلة الدهر، والقسم الثاني كتب في داري القديمة في دمشق ، وكنت إذا أحببت أن أسرح نظري لا أجد أمامي غير جدار من الطين لا جمال فيه ولا شيء مما ينعش الروح والصدر .

دعيت إلى مؤتمر المستشرقين في ليدن من بلاد القاع في صيف سنة ١٩٣١ وسألت رصفائي أعضاء المجمع العلمي العربي عن الموضوع الذي يرون أن أخوض فيه هناك ، وقلت لهم إن كل عضو لا يسمح له الكلام أكثر من عشرين دقيقة ، على ما رأيت في مؤتمر المستشرقين في اكسفورد سنة ١٩٢٨ ، وقد تكلمت فيه على نهضة العربية الاخيرة ، وتعاون العرب والمستعربين على النهوض بها ، وعلى نشر دفائنها المخطوطة . فقال أحد الاعضاء صديقي الدكتور اسعد الحكيم : قل لهم إن الاسلام أصبح معروفاً عند الأمم بما نقل إلى لغاتهم من كتبه ، فليس من اللائق بعد الآن ببعض المؤلفين أن يطلقوا ألسنتهم فيه بما لا يليق ، ولا أن يطعن بالمسلمين والعرب الطعن الذي لم ينشأ إلا عن أحقاد قديمة وتعصبات رديئة . فقال الأعضاء : هذا هو الموضوع . وقلت لهم : ليتني كنت قيدت أشياء عرضت لي ولها صلة بما نريد فقالوا : تكلم بقدر ما عندك من المادة ولا يطلب منك الزيادة . فأخذت بدرس الموضوع درساً خفيفاً لا كتب فيه سبع صفحات . ولما أزمعت الرحيل حددت الحكومة لي مدة الرحلة أربعين يوماً فاستقللتها ، وعدلت من تلقاء نفسي عن السفر ، وفرح رئيس الوزراء لانه كان يود أن يذهب إلى باريز وكذلك وزير المالية ، فأبت المفوضية أن تجيبها إلى رغبتها إذ لا غاية ترجى من سياحتها .

ولما عدلت عن الذهاب الى ليدن انصرفت إلى درس الموضوع الذي اقترح عليّ أن أعرض له في جلسات المؤتمر ، واتفق أن تركت الوزارة بعد حين فسيطرت على وقتي كما أشتهي ، ومازال الأفق يتسع ويمتد ، وأنا تحدثني نفسي أني سآخذ مما كتبت محاضرات للمجمع العلمي حتى كتبت

أكثر من تسعمائة صفحة ، كان منها « كتاب الاسلام والحضارة العربية » طبع في مجلدين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، على نفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد سلخت في تأليفه ثلاث سنين لم أنقطع فيها يوماً واحداً عن التأليف ، ومدة اشتغالي كل يوم ثماني ساعات فأكثر . وشاهدت تيسيراً في التقاط مادته ما وقع لي في تأليف كتاب غيره . فكنت أذكر ما تلوته من ثلاثين أو أربعين سنة في هذا المبحث أو المباحث فاسقط في الحال على ما أنوخى ، وقرأت ورجعت إلى أكثر من خمسمائة مصنف باللغات الثلاث وقال بعض العارفين إنه أجود كتبي تأليفاً ، وذلك لأن موضوعه عام جذاب يحتاج إلى الرجوع اليه الموافق والمخالف . والكبير والصغير ، والعربي والافرنجي . ومما كتب إليّ الامير شكيب أرسلان فيه : « أنا معتقد أنك وفقت فيه توفيقاً كبيراً وأنه خير ما كتبت بل من خير ما أخرج من الكتب في هذا العصر ، ولعمري إن هذا الموضوع كان يُعْوِزه كتاب جامع محيط بأطرافه كهذا الكتاب سدّ هذا العوز ، وكفى الناس مؤونة نشدان الأدلة من هنا ومن هنالك ومن هناك . الى أن قال : ولذلك مست الحاجة إلى وضع كتاب يضيق معه مجال المغالطة في فضل العرب ، ويأخذ على المكابرين أو المتجاهلين أفواه الطرق ، فكان هذا الكتاب الذى أرجو أن ينقل الى لغة مشهورة من اللغات الأوربية فاننا نحن في حاجة إلى أن يعلموا هم عنا أكثر مما نحن في حاجة إلى أن نعلم نحن عن أنفسنا » .

وكتاب « الاسلام والحضارة العربية » صورة من حالة العرب قبل الاسلام وحالتهم بعده ، فيه اشارات إلى تأثيرات الاسلام ولغته في الاقطار المغلوبة ، ومناقشة من نالوا من الاسلام والعرب وكتبوا فيها بالهوى ، والاستدلال على نقض أقوالهم بكلام علماء منهم تكلموا نازعين ربقة التعصب الديني . وقد رددت فيـه أمهات الشبه التي أوردها الشعوبيون أعـداء العرب والاسلام ، وعرضت لما أثر الاسلام في اوربا من طريق الاندلس وصقليـة ، وما كان من الخير لهاتين الجزيرتين وما والاهما من حضارة

العرب ، وعرضت ما كان من تخريب التتار من الشرق والبربر والصليبيين من الغرب في كيان العرب والاسلام ، وما كان من غارات المستعمرين على ديار الاسلام والشرق عامة ، وما أخذه الافرنج من علوم العرب ، وما اخذه هؤلاء عن الامم الحديثة لما حاولوا النهوض في العصر الماضي ، وذكرت ماأتى به الاسلام من علوم خاصة به ، وما عبث به العابثون في هذا الشأن في العصور التالية مما كان فيه تدلي أهـــله . وأفضت في سياسة الامة العربيـة والامم التي خلفتها كالترك والبربر والشراكـة والاكراد والفرس والهنود . وتوسعت في ادارة الحكومات التي توالت على ارض المسلمين من عهد صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام إلى يوم الناس هذا . فكان من هذين الفصلين الاخيرين موجز من تاريخنا فيه زبدة مايجب حفظه من تاريخ الاسلام والعرب .

وحاضرت ببعض فصول هـذا الكتاب في الادارة الاسلامية في دار الجمعية الجغرافية الملكية بمصر فتصدت السيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية في مصر لطبعها فطبعتها باسم « الادارة الاسلامية في عز العرب » وهـذه المحاضرات دخلت منقحة في الكتاب وهي مقتطعة منـه عندما كان تحت الطبع . كما فعل طابع كتابي « غرائب الغرب » اقتطــع منه مقالات « غابر الأندلس وحاضرها » ونشرها على حدة بعد نشرها في « غرائب الغرب » وكذلك رسالة « الحكومة المصرية في الشام » فانها محاضرة دخلت في كتابي « خطط الشام » .

وقضيت عاماً وبعض عام في وضع كتاب (امراء البيان) وكنت كتبت بعض فصول منه حاضرت بها في ردهة المجمع العلمي ونشرتها في مجلته ، ثم رجعت اليها وحذفت منها وزدت . وهذا الكتاب من الكتب التي جمعت مادته في نحو عشرين سنة اي منذ تخيلت موضوعـه . وجاء في مجلدين ايضاً وطبعته كصنوه لجنة التأليف في مطبعتها بالقاهرة وكان الداعي الاكبر الى تأليفه بيان فضل المنشئين على البلاغة وعلى الأفكار وذلك على الطريقة

الغربية الحديثة في التحليل والنقد. هذا بعد أن رأيت المؤلفين من القديم يعنون بالشعر والشعراء فقط ، ولم يعنوا العناية المطلوبة بالكتابة والكتاب وهم الذين خلفوا لنا مؤلفاتهم ورسائلهم وعلمونا اكثر من الشعراء . والشعراء على الأغلب ماعرفوا غير المديح والهجاء والرثاء والاستجداء ، وزادوا الناس من بضاعة الكذب ، وعلموهم المبالغات والغلو . وهذا الكتاب تقرر في دراسة السنة الخامسة التوجيهية في المدارس المصرية العالية وكان بذلك اول كتاب عربي لمؤلف غير مصري الجنسية يدرس في وادي النيل على ماالظن وكذلك درس في كلية الآداب كتاب الاسلام والحضارة العربية .

وفي خلال هذه الفترة نظرت نظرة ثانية في ترجمة (تاريخ الحضارة) وكنت نشرته تباعاً في المجلة وأخرجت منه الجزء الأول (١٩٠٨) واتممت ترجمة الجزءين الأخيرين منه ولم يطبعا كما لم يطبع كتاب محاضراتي الاخيرة في مصر والشام وهي تبلغ نحو ثمانين محاضرة . وكتبت جانباً من (كنوز الاجداد) ولم أتمه . واحييت بالطبع كتاب سيرة احمد بن طولون للبلوي من اهل القرن الرابع ، وعلقت عليه شروحاً وتقاييد وطبعته في دمشق. وبهذا الكتاب تجلت لنا نواح كانت غامضة من سيرة هذا الرجل العظيم ، ومن تاريخ مصر والشام في القرن الثالث وما إليها ، ومن علاقة مصر ببغداد والخلافة العباسية يومئذ ، وفيه قصص جميلة يتمثل بها ابن طولون الأعين بادارته وسياسته ، وذكائه ودهائه ، ولينه وشدته . وقال صديقي العلامة كرنكو : « إن هذا الكتاب فتح باباً جديداً لمعرفة ذاك الدور الطولوني العظيم الذي تقلّ الأخبار الأكيدة عنه ، لأن الطبري على جلالة قدره في التاريخ كان على ما يظهر مقلاً من حوادث مصر والشام في عهده » .

ومن التآليف التي وضعتها زمن الحرب الأخيرة ولا تزال في المخطوطة كتاب المذكرات وكتاب سميته أقوالنا وأفعالنا (طبع في مصر) وهو في بعض مشاكلنا الاجتماعية والسياسية . وكتاب المذكرات اشبه بجريدة يومية

وكتاب الأقوال والأفعال يشبه مقالات المجلات العلمية وفيه ما طرأ عليّ منذ وعيت إلى الآن . كان الفضل في تأليفه لصديقي عالم تونس سيدي حسن حسني عبد الوهاب ،ولطالما حثني على تدوين ما كنت أقص عليه مما وقع لي ويقول أن في تدوينها كل فائدة لقراء العربية . وعنيت بتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي علقت عليه وخدمته (طبع) ومن التآليف التي وضعت بعض أقسامها وهيأت لها موادها « معجم القرى الشامية » ثم مللت منه ولم اتمه بعد أن اضعت فيه وقتاً وهو كتاب مفيد لكنني اصبحت أحب أن أكتب مافيه فكر أكثر من الكتب التي لا يتطلب فيها غير تصحيح النقل وقد مزقت الجزازات التي أتممتها منه حتى لا أعود إلى البحث فيه واقترح عليّ في خريف سنة ١٩٤٣ أن أكتب لسلسلة اقرأ مختصراً في وصف مدينة دمشق وتاريخها واقتصادياتها وغوطتها فكتبته في ١٥٠ صفحة صغيرة . ونشرت كتاب المستجاد في فعلات الأجواد للقاضي التنوخي وأنا أعد للطبع كتاب البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي . وطبعت كتاب الأشربة لابن قتيبة وعلقت عليه . وعنيت بوضع تاريخ غوطـــة دمشق مزجت فيه الزراعة والادارة والأدب وهو يطبع الآن في جملة ما يطبعه المجمع العلمي العربي من مطبوعاته .

هـذه تآليفي والدواعي إلى وضعها ، ولو كنت خصصت أوقاتي كلها للتأليف ، ولم أصرف أعواماً في السياسة ، لكانت مجموعة ما كتبت أكثر ولو كنت احسن الدعاية لتآليفي لصادفت رواجاً اكثر مما صادفت ، ومع هذا انتشرت في اقطار بعيدة ما كان يجول في الخاطر انها وصلت إليها . والعزاء الوحيد في الكتب ان لها قراء في الأمصار تتناولها السنة بعد السنة إذا كانت مفيدة وصالحة للبقاء ، وربما كانت شهرتها بعد مؤلفها اكثر من شهرتها في حياته . وبعد ذهاب المؤلف من الارض يقدر بقيمته الحقيقية . ورجائي ان يكون ما كتبت خالصاً لخدمة الأمة العربية ، وألا يكون ما خطته يمني مما يسود الوجه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

فهرس الجزء الأول من المذكرات

ص		ص	
٣	روح المذكرات	١٢٥	التجارة في السياسة
٥	لقب أسرتنا	١٢٧	بغض الانكليز
١٠	ذكريات الطفولة	١٣٠	الأمير فيصل
٢١	عوامل المثبطين	١٣٧	بطريرك الروم
٢٧	الصادون عن العلم	١٤٠	وفد جناق قلعة
٢٩	أخلاق بعض القضاة	١٤٤	أحرار الترك
٣٢	العلماء يعترفون	١٤٨	جمال باشا والبارون أوبنهايم
٣٤	أدب	١٥٢	أحرار العرب
٣٦	أمي صاحب أخلاق	١٥٨	كره الأتراك للعرب
٣٨	اجتماعات مفيدة	١٦٦	دعوة غريبة
٤٠	شعراؤنا — شر أصبح خيراً	١٦٩	شؤون مع الاتحاديين
٤١	فقيد السياسة الغالي	١٧٤	الاهداء والاستجداء
٤٢	ما يغلب على مدن الشام	١٨٤	غاياتي من سياحاتي
٤٣	انصاف آلهة	١٩٤	علماء المشرقيات والاسلام
٤٤	التطويل في المقالات — الرافعي مؤرخ العصر	٢٠١	مع مواطنينا
٤٥	تمثال تيمور	٢٠٩	مع العامة
٤٦	الشاميون في مصر	٢١٥	قيم الأشياء
٥٠	الاشتغال بالصحافة	٢١٩	هزل مصر والشام
٥٦	الصحافة أيضاً	٢٢٦	اللطف الخفي
٦٤	ناظم باشا والمقتبس	٢٣١	أحباب الانكليز
٦٨	الأخلاق الطيبة	٢٣٦	تأثير البيئة
٧٣	لبنان	٢٤٢	عظيمان عند ابن عثمان
٧٥	جمعية الاتحاد والترقي	٢٥١	الرجال الذين عرفتهم في مصر
٧٨	سلطان الأعيان	٢٥٨	الدعايات الأجنبية
٨١	نجوت من الفاروقي وجبل الدروز	٢٦٦	عزت باشا العابد
٨٤	في الهزيمتين	٢٦٩	أول رئيس جمهورية في سورية
٩٩	شبك نجوت منه ونجوت به	٢٧٣	سورية والرجال
١٠٣	والي سورية خلوصي بك	٢٧٦	المجمع العلمي العربي
١٠٧	جمال باشا والمقتبس	٢٨٧	أربع شخصيات
١١١	الجاسوس السافل	٢٩٦	في مصر ومن أجل مصر
١١٥	المتطوعون بالجاسوسية	٣٠٣	سياسة
١٢١	السياسيون والصحافيون	٣٠٧	كيف وضعت تآليفي
١٢٣	عقول الاتحاديين والانكليز		

[illegible]

محمد كرد علي

المذكرات

الجزء الثاني

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
«المتنبي»

ثمن الجزء الواحد { خمس ليرات سورية في سورية ولبنان
ستون قرشاً مصرياً في مصر وسائر البلاد العربية

١٣٦٧ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٨ م

رؤساء الوزارات

اتفق أن وسدت رياسات الوزارات لأناس لا عهد لهم بالحكم والادارة ، فمن حقي بك العظم إلى صبحي بك بركات إلى أحمد نامي بك إلى الشيخ تاج الدين الحسني إلى السيد جميل مردم بك كلهم قفزوا إلى الرياسة قفزاً ، وارتجلوا لها ارتجالاً . وجاؤا بالسادة جميل الالشي وعطا الأيوبي ونصوحي البخاري من المتمرنين على الادارة أشهراً قليلة ، لغرض اقتضى ذلك . وأتوا بوزراء مختلفة درجاتهم ، ومنهم المتعلم ومنهم العامي ، وبعضهم كالموتى لا يفتحون أفواههم بما يتوهمون أنه يؤلم مرجعاً عالياً على الأغلب . وكذلك الحال في لبنان ارتجل الوزراء والرؤساء ، ومنهم من كانوا معروفين بفساد أخلاقهم وسرقاتهم قبل الانتداب وظلوا في عهد الانتداب على فسادهم وسرقاتهم ، ومنهم من كانوا لصوصاً ويجاهرون باللصوصية ، فجمعوا بذلك ثروات طائلة صرفوها في القمار وغيره . ولو حسن الانتخاب لجيء بأقرب من هـــذه الطبقة إلى الصدق والامانة ، وادراك معنى التعاون .

عملت وزيراً مع حقي بك والشيخ تاج الدين خمس سنين وسبعة أشهر ، وكان أكثر من معنا من الوزراء مقتدرين وكانوا بانتخاب المفوض السامي . وكان الرئيسان على مثل ما كان عليه أكثر رؤساء الحكومات ، يستوحون المندوب والمفوض في المسائل الكبرى . وغاية ما كان يطمع فيه رئيس الوزارة ألا يعمل وزيره ما يغضب الجماعة ، وأن يكون على اتفاق مع مستشاره ، وهو ينصرف الى التشريفات ، واتقاء خصومه ، والتمويه على أوليائه ، وارضاء مستخدمي الانتداب وكل من له صلة بهم .

وقلما كان الرئيسان اللذان اشتغلت معهما يوقفان لي عملاً ، ويرضيـان مني فقط أن يأتيا للخدمة في المعارف بأناس قد لايجوز استخـدام أمثالهم

فيها ، فتحصل مشادة قليلة بيني وبينها ، اريد اختيار الكفاة وأصحاب الأخلاق السليمة في الجملة ، ومن كانت لهم شهادات ، وهما يحبان مراعاة سياستها ، وحماية صنائعها .

أبي الشيخ تاج مرة أن يصادق على قائمة المعلمات والمعلمين الذين عينتهم ، وكانوا كلهم يحملون شهادات تؤهلهم للخدمة ، أو أدمج له معهم اثنين لا يحملان شهادة ، واقترب وقت فتح المدارس ، وأنا أتوسل إليه أن يعفيني من تعيين هذين الشابين المقترح تعيينهما ، حتى لا يقول المنتدبون أني اخالف القوانين المعمول بها ، ولا أفتح المجال لتصديق ما قاله فيَّ المستشار السابق ، ولما نفد صبري من الحاحه أشرت إلى المستشار أن يطلب المندوب أوراق التعيينات الجديدة مصادقاً عليها ، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي التجأت فيها إلى المندوب . ذلك أن الرئيس ما كان يسمح لنا أن نزور المندوب إلا في الأوقات الرسمية مدعياً أن ذلك أدعى إلى حفظ كرامتنا مع أنه كان ليل نهار يطلب رضا أقل واحد من جماعة الانتداب والغالب انه كان يخاف على منصبه من بعض وزرائه ومنهم من لو جوز لنفسه بعض ما جوزه هو لتركه جانباً وأستأثر بالرياسة دونه .

حرص رؤساء الوزارات في كل دور على استخدام ذويهم وخواصهم والافضال على أنصارهم وصنائعهم . وأعظم من كان له الغرام العظيم بحماية الأهل والأقارب السيد حقي العظم ، فقد حاول املاء الدواوين بأناس من ذوي قرباه وفيهم الصالح وغيره . وكان الشيخ تاج يكثر من استخدام الضعاف لأعمال الحكومة ولطالما بينت له مضار هذه السياسة ، فكان يورد عليَّ حججاً لتفضيل الدمشقيين في التعيين ، وأنا أقول له إن المملكة ليست عبارة عن دمشق فقط ، وإن هذا التخصيص سيدعو الحلبيين الى الانفصال ، إذا ظل المركز يحرمهم الوظائف .

حاول الشيخ وقد فرضت عليه فرضاً ، أن يتخلص مني غير مرة ، وأراد منذ الاشهر الاولى أن يخرجني من الوزارة مع الاستاذ سعيد المحاسني

وزير الداخلية فحدثت أزمة وزارية كان المقصود في ظاهرها اخراج ثلاثة وزراء ، ومنهم السيد جميل الالشي ، ولكن هذا كان معنا نحن الاثنين في الظاهر ، والحقيقة أنه كان من آخاص المخلصين للشيخ ، ثم سمحت المفوضية باخراج المحاسني ولم توافق على اخراجي .

وحاول الشيخ في رأس الوزارة أن يورثوه رواتب والده من الاوقاف وهو عارف أنه لا يحسن التدريس ولا يستطيع المواظبة فاخفق على ما بذل من وعد ووعيد. وممن هددهم الاستاذ الشيخ عبد المحسن الاسطواني قاضي دمشق ورئيس التوجيهات العلمية فرده وفرق هذه الاموال على عشرات من القراء العميان وحاول الشيخ تاج الدين بكل ما لديه من حيلة أن يقنع السيد الاسطواني بتوجيه دروس أبيه اليه وهدده بالعزل ان لم يجبه الى طلبه فقال انك مقتدر على تنحيتي من المنصب ولكنك لا تحكم على قلبي وديني . وتذرع رئيس الحكومة باقالة الاستاذ الاسطواني فلم تجبه السلطة الفرنسية الى طلبه .

كان بعض رؤساء الوزارات والوزراء من الآخذين بمبادئ الماسونية ، يستعينون بقوة هذه الجمعية السرية على الوصول الى المناصب ، وقلّ أن رأيت موظفاً كبيراً لم يدخل الماسونية ، ومعظم من انضموا إلى حظيرتها عندنا كانوا من الطامعين في حمايتها ، وهم موضع نظر بسيرتهم ، دخلت الماسونية أرضنا منذ العصر الماضي وقلما تم على يدها شيء ينفع ، ذلك لأن المقدمين فيها لم يقوموا بما تدعو إليه قوانينها من الخير ، ورأينا معظم الرؤساء منهم يستحلون أكل أموالها ، وإذا كان الخير في فطرة بعضهم فانهم لا يلبثون أن يبتعدوا عنها كاتمين أسرارها ، آسفين على ما أضاعوه من المال والوقت مدة ارتباطهم بها .

مسألتان مضحكتان حدثت احداها في أيام رئيس الوزارة حقي بك والثانية في عهد الشيخ تاج الدين ، ونعرضها هنا فكاهة وتسلية . حرص الأول أن يكسو الوزراء والموظفين ألبسة مزركشة بالقصب أيام التشريفات ، وأن يصنف خدام الدولة أصنافاً ، يجعل لكل صنف منهم بذلة خاصة وقصباً خاصاً . وكانت تساوي البذلة يومئذ نحو ثمانية عشر جنيهاً مصرياً ،

إذا عزم صاحبها على بيعها لاتساوي جنيهين ، وكان السيد حقي العظم للوصول إلى ما يحرص عليه من ذلك وللسرعة في انفاذه ، يأتي الى مجلس الوزراء بالرسام والخياط وصانع القصب ، يعرض على وزرائه النموذجات ، ويشاورهم في الطراز الذي يقع اختيارهم عليه . والمجلس يضيع وقته في هذه الامور وأرباب المصالح ينتظرون منه البتّ في أشغالهم . وقد استعملت كل ماعندي من حجة حتى أقنعه بأن ابتداع هذه الكسوات مجحف بالموظفين وأ كثرهم فقراء فأصرّ على انفاذ مشروعه . ولما صنع لنفسه بذلة قلت له : الآن حصل المقصود فان اكتساء رئيس الحكومة بالقصب يجزيء عن اكتساء الموظفين كلهم ، على نحو ماقلت له لما عرض عليّ وسام جوقة الشرف : لما كنت دولتك تقلدت الوسام فكأن الوزراء كلهم تقلدوه ، ونحن إلى الآن لم نأت مانستحق به هذا التشريف فاقتنع وأعفاني . وانتهت معضلة القصب بعد أن أضعنا بها بضع جلسات من جلسات مجلس الوزراء ، وما انتهت في الحقيقة إلا لما شكاني الرئيس إلى المندوب ، وسألني هذا عن سبب الامتناع ، وعن استنكافي من لبس القصب فقلت : إني لم ألبس هذا القصب أيام الدولة العثمانية ، وسلطنتها الضخمة سلطنتها ، فأنا لا أرى أن ألبس بذلة رسمية في هذه الحكومة الصغيرة ، وإني مستعد للتنحي عن الوزارة أو يلغى المشروع فألغي .

أما المشروع الثاني في وزارة الشيخ تاج فقد كان الخطب فيه أسهل ، لأنه كان محصوراً بالوزراء ، ذلك أنه حرص على الباس وزرائه (الفراك) وسألته لما عرض علينا أن يقتني كل وزير كسوة منها : وما هي الفراك ، أليست البذلة التي يكتسيها غلمان الفنادق ؟ فقال : نعم . هي من هذا النوع فقلت له : وما الفائدة من اقتنائها ، فقال : اذا دُعيتم إلى المفوضية وغيرها لحفلة راقصة تجدونها حاضرة . فقلت له : أنا لا أعرف الرقص ، وما اعتدت أن أرقص للقرد في دولته ، فأرجوك اعفائي من هذه الكسوة ، ومن هذه النفقه الضائعة . واستحسن على ما يظهر بعض رصفائي قولي ، ونجونا

من بذلة الفراك . أما رئيس الوزارة فاستصنع واحدة منها ، كان يلبسها في الحفلات الراقصة والساهرة ؛ وما كانت تليق له وهو بدين قصير القامة أعرج وعلى رأسه عمامة ، وثوب الفراك مقطع من أمام ومن وراء .

وبلغني عن أحمد نامي بك أحد رؤساء الحكومات في سورية ، أن حب الأناقة بلغ منه أن كان يُبدل بضع حلل في اليوم والليلة ، وله في الأزياء والتأنق غرام ، وهو لا يكاد يفارق المرآة ينظر فيها إلى هندامه ونظامه أبداً ، ويسأل خُلصانه عما يرون في كسوته من نقص يمكن تلافيه . ونامي بك كان من أصهار سلاطين العثمانيين ، ولذلك سمي الداماد أي الصهر ، وكان أبوه فخري بك شركسياً مصرياً عرفته ، وكان رئيس بلدية بيروت زمناً ، وكانت له مشاركة في الآداب ، وعلى جانب من الاخلاق ورأيت نامي بك في داره يوماً وقد تليت أمامه قصيدة في مدحه لأحد متشاعري بيروت جاء فيها ذكر التاج . وكان في المجلس أحد وزرائه السيد يوسف الحكيم ـ وهو الذي رأى أن يحيطه بسور يحول بينه وبين الناس ـ لما ورد ذكر التاج أقسم بالله أنه لا يليق هذا التاج إلا لهـذا الرأس ، يعني نامي بك .

وكان يوسف الحكيم في ابعاد صاحبه عن القوم مثل ما كان من السيد احسان الجابري حاجب الملك فيصل بن الحسين لما بويع ملكاً على سورية فكان حرصاً على جلال هذا الملك ، يعين لمن يواتيه الحظ بالمثول بين يدي الملك دقيقتين أو أربعاً ، ويقول للملك أن ينهض لواحد ، ولا ينهض لآخر ، ويقلل من الكلام أو يكثر ، على حسب ما يرى . وكذلك فعلت الحكومة الوطنية فحظرت على رئيس جمهوريتها ابن الأتاسي ألا يخرج من قصره ، ولا يظهر لأحد ، ولا يسأل عن أحد ، وأحاطوه ببضعة أفراد من الدرك في حبسه المزوق .

في الفترة التي مضت بين اشتغالي بوزارة حقي بك واشتغالي مع الشيخ تاج ، كان رئيس الحكومة السورية التي سموها حكومة الاتحاد السيد

صبحي بركات ، وهو من أهل انطاكية لا ينطق بجملة واحدة صحيحة باللغة العربية ، وقد وصل إلى الرياسة بطريقة عجيبة ، كان يقاتل الفرنسيين مع ابراهيم بك هنانو صاحب ثورة الشمال . وتوسط له أحد أقربائه ممن يعتمد عليهم الفرنسيون ، فعدوه من المؤلفة قلوبهم ، وعهدوا اليه برياسة اتحاد سورية ، وكان صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي يعد رفعت آغا والد صبحي بركات من أعظم رجال سورية لأنه كان يقاوم الأتراك في عصره .

قال ابن بركات في دار الحكومة علناً ، إنه لم ير أحداً خدمه مثلي ، ولم يطلب منه جزاءً على عمله بالتلميح ولا بالتصريح . وكان كلما فتح لي موضوع الوزارات ليرضيني ، أقول له تعاون كما يجب مع المنتدبين ، وسير الاشغال بما يفرض عليك ، ولا تذكرني في هذا الموضوع لأني لا أطمع في وزارة ، وأنا راض بمركزي ، وأريد لك النجاح . وقال مرة في حلب لأحد أصدقائي عمر نبهان ، بعد أن أقيل من منصبه بمدة : إن كل ما فعله في دمشق لم يأسف على صدوره منه إلا ما كان من مشا كستي . ذلك لأنه كان يتخيل أني أطلب منه وزارة ، فكذب ظنه لما رآني في الثورة تعرض عليّ الوزارة أربع مرات وأرفضها . ولما جعل رئيس مجلس النواب ، وطلب من فرنسا مطالب نافعة ، وذهب إلى باريز للمطالبة بها حمدته على مافعل امام أصحابي ، وقلت إنه كفر بذلك عما سبق له عند تولى الامر ، فواجب الكتلة الوطنية الآن ، وقد استلمت الحكم أن تكافئه لانه أضاع بما صرح به منصبه ، فبلغه مافهت به وأحب أن يزورني ليشكر لي ويعود إلى التواصل بعد التقاطع ، فابيت وبقينا متباعدين .

كان صبحي بركات يشارك في بعض الموضوعات ، ومن طبعه أن يطيل لسانه في وزرائه وفي غير وزرائه ، وإذا غضب اختلّ توازنه . غضب علي مرة فلما لم يستطع أن ينتقم مني ، أحب القضاء على المجمع العلمي العربي ، وسبب غضبه أن وزير المعارف في حكومته الدكتور رضا سعيد الأيتوني أقام في رمضان مأدبة لرئيسه وللوزراء ودعاني معهم ،

وكتب بطاقاتٍ باسم كل مدعو وضعها على الأطباق ، يعين بها لكل إنسان مكانه الذي يجلس فيه . فكان المقعد الذي اختاره لي صاحب الدعوة بعد شقيق رئيس الحكومة . فقلت لأحد أخصاء الداعي وأنا خارج من الدار إن صاحبك بلغ من المصانعة مبلغاً عظيماً . إنكم تعرفون مبلغ احتقاري للتشريفات ، ولكن الرجل تعمد تحقيري بوضعه لي بعد أخي صبحي بركات ، وسني ومقامي يؤهلاني لأكون فوق شقيق الرئيس على كل حال ، وليس لأخيه من المزايا إلا أنه شقيق رئيس الحكومة ، وما زاد على كونه فلاحاً من فلاحي أنطاكية . فنقل صاحب الدعوة كلامي إلى رئيس الحكومة ، فغضب غضباً عظيماً ، وتجهم لي فقاطعته ، ودام التقاطع أشهراً ، ثم أرسل لي أحد وزرائه السيد جلال زهدي بعد مدةٍ يسترضيني ويدعوني إلى معاودة الاجتماع مع الرئيس فقلت له : أسألك بالله وبكل عزيز أن تقول له : كفاه إدلالاً علينا بمنصبه ، وما مكانته إلا من طريق هذا المنصب فقط ، وليعلم أنه إذا استقال غداً لا يبقى له أحد من كل من يصانعه اليوم . ليلزم داره وألزم أنا داري ، انرى من يقرع بابه كل يوم . وأظنه يوم مفارقة الحكومة لا يختلف إليه إلا من يأملون عودته إلى الحكم ، وقليل ما هم ، فغاظه هذا الكلام أكثر مما غاظه كلامي الأول في أخيه ، وأقيل ابن بركات وبقي في حلب ودمشق كما تنبأت له لا يقترب منه أحد.

والدكتور الأيتوني وزير المعارف يومئذٍ من أكبر من خدموا السيد صبحي بركات ، قام له مدة وزارته بمثابة وكيل خرج في داره ، يشتري له حاجاته البيتية ، وإذا مرض أحد عنده بات عنده ممرضاً لمريضه ، ومع كل هذا غضب عليه مرة ، فقال في الملأ يوم الجمعة في قاعة الاستقبال : كنت أظن رضا سعيد شيئاً فاذا هو كرش مملوء ...

وقد أرسل لي ابن بركات في الثورة السيد لطفي الحفار ليأخذ رأيي في وزارة جديدة نؤلفها ، ونترك له حبيبه جلال زهدي فيها ، وإذا لم تقبل

به يتركه ، على أن يكون هو الرئيس ، فقلت له . إني في أشد الضيق ، وتالله لو أعطيت خمسمائة ليرة ذهبية كل شهر على أن اكون وزيراً معه لا أقبل ، وكيف أرضى برياسة من قال منذ أيام علناً انه لم ينم ليله نوماً هادئاً مثل الليلة التي ضربت فيها دمشق وخربت على رؤوس أهلها ، وذكرهم بكل قبيح ، وشتم أعراضهم ، وهو الذي احتفل بعرسه ودمشق تلتهب بالنيران ، وأتى بالراقصات والمغنيات يرقصن ويغنين في داره ، فكان هو يطرب ومن ورائه وأمامه يصمد أنين المظلومين ، وبكاء المنكوبين ، فان كان نسي ما قال فأنا وأهل بلدي لا ننسى . واقام مثل هذا الفرح في دار فؤاد بك المدرس بحلب وأتى بالراقصات ، والبلاد تذوب بالثورة كما يذوب الملح . وقد نصحت له بالكف عن هذا الاستهتار الذي يأتيه في بيروت ، من الجلوس في الحانات ، والراقصات من حوله ، فقال : أنا أتمتع بحريتي ؟ فقلت له : رئيس حكومة اسلامية لا يستطيع أن يكون حراً على هذه الصورة ، فهل شهدت رئيس حكومة لبنان أو رئيس جمهوريتها ، يجلس مثل هذه الجلسة في مكان عام ، إن كان لا بد من الاجتماع إلى هذه الطبقة فاعمد إلى دارك ، وليكن ذلك على الأقل بدون تبذل .

ونشأت لي صداقة مع الجنرال أندريا قائد موقع دمشق أيام الثورة ، وقال لي عند أول اجتماع معه : إنكم كلكم ثوار ، فقلت له : إن الثائرين منا خرجوا إلى الغوطة يقتتلون مع جماعتكم . فقال : لا ، إن منكم الثائر بالسلاح ، ومنكم الثائر بالفكر . فقلت له : أنا لا أقول بقولك . فقال : إن كان الأمر على ما تقول فلمَ لا تعينوننا على اظهار الثائرين . فأجبته مرتجفاً : يا جنرالي ليست هذه صنعتي . فانتبه وغيَّر مجرى الحديث . وقلت له ذاك اليوم : أتطمعون في استبقاء سورية أم في الاحتفاظ بصبحي بركات ؟ فقال : اللهم سورية فقلت : نحّوا إذاً صبحي بركات عن منصبه فالنفوس حانقة عليه . ومن الغد قصد الجنرال الى المفوضيه في بيروت ، وبعد ثلاثة أيام كان ابن بركات في داره كأحد الأفراد لا سلامات ، ولا شرطي ،

ولا حاجب ، وأنصاره أمثال وزيره الحلبي نصري بخاش الذي ما كان يعرف إلا خدمة المراجع العليا بما يكتب لها ، وكالذي جعله عضو محكمة التمييز وهو رومي هاجر حديثاً من الأناضول ، ولا يتكلم كلمتين بالعربية فضلاً عن أن يقرأها ويكتبها ويتفهم أسرارها ، واسمه نيقولا كي أفندي .

دخلت على الشيخ تاج الدين في مكتبه الرسمي فرأيت عنده صديقي الاستاذ سامي العظم يلتمس منه أن يوافق على تعيين شخص من بني العظم أعرف أنه لا يصلح لشيء . فقلت له : يا سامي ، إلامَ تستعملون هذه الخرق البالية ؟ وتحشون دواوين الحكومة بمن كان عليكم رحمة بهذه الأمة أن تتركوهم في بيوتهم ، وتأخذوا للخدمة من الشباب حملة الشهادات العالية الذين ملأوا المقاهي ، وهم لا يجدون عملاً لهم بعد الدراسة ، والتفتُّ إلى رئيس الوزراء وقلت له : كما فعلت بفلان ، وأنا أعرف أنه قريبه ، وجعلته مدير ناحية داريا وهو أمي يكتب له كاتب القرية أوراقه الرسمية ، ثم انه غني يملك مزرعتين ، فلماذا لا تتركونه لمزرعتيه ، وإني لأفضل أن أملك مزرعتين على أن أكون وزيراً ، ولو أمكنني المقايضة لقايضته . فسكت ، ثم قلت له : وفلان الذي جعلته مدير ناحية دمر فقال إن بني فلان افتقروا وليس عندهم ما يأكلون ، فقلت له : وهل الحكومة رباط أو زاوية دراويش يقصدها أرباب البطالة والجياع ، فترى من واجبها إطعام كل من جار عليه الدهر ، أو جلب لنفسه الفقر بسوء تصرفه . ثم إنك جعلت مدير ناحية تدمر رجلاً دخل مستشفى المجاذيب مرتين ، وفي عقله شيء إلى اليوم ، فهل يجوز أن يتولى مثل هذا العمل ؟ فقال : وهذا افتقرت أسرته . فقلت : تالله تفتأ تقول لي افتقرت وانك ترحمها بتعيين أحد أفرادها لتعيش فاذا كان الأمر يسير على هذا الشكل فلماذا نفتح المدارس ونربي الشبان ؟ ونحن لا نختار للوظائف إلا من يرقّ قلبنا عليهم ، وعندي أن تقتصدوا من هذه الموازنة الضخمة التي تخصون بها وزارة المعارف كل سنة ، وتأخذوا موظفيكم حيث شئتم ، وليمُت هؤلاء المتعلمون جوعاً حتى يُطعم من يؤثر

بالرحمة . فاضطرب الرئيس لهذه المجاهرة وقال لي : تفضل الى غرفتك !

كان الشيخ تاج الدين منذ الأشهر الأولى لوزارته يحاول أن يبدلني ، ووعد بوزارتي غير واحد ممن يريد إسكاتهم من المستوزرين . وتذرع أن ينحيني عن الوزارة ، فما قبلت المفوضية باقتراحه ، وترامى إليَّ أنه قيل له : إذا ترك فلان وزارته تسقط الوزارة ، فخاف عليها وأرجأ صرفي من الخدمة إلى فرصة أخرى . ومما قالوه له في المفوضية إن للرجل لساناً وقلماً ، وهو سيسألنا عن سبب إقالته فماذا يكون جوابنا وهو عارف بعمله محبوب منـا ومن الشعب ؟

رجاني وكيل المندوب أن ألقي كلمة في مدرج الجامعة السورية ، وكان من انصار رئيسها (وكان يبره بالمال) ليجعلها بزعمه كصلح يعقد بيني وبين رئيسها ، وكان بيني وبينه تخالف في الأخلاق والعقلية . وسرت في نهاية الاحتفال مع المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية ، وأنا خارج من التكية السليمانية ، فقال لي : ونحن بمعزل : إني أبلغك سلام المسيو هوپنو (مـدير السياسة) وهو يقول إنا ممتنون منك ، ونفتخر بوجود شخصية مثل شخصيتك في الوزارة . فأسرعت إلى الشيخ تاج ، وذكرت له ما بلغته ، فاصفارَّ وجهه ، وانكب على مكتبه ، وأطرق دقيقتين ، ثم رفع رأسه فقلت له : أظن أن الذي دعاه إلى هـذا الكلام ما كان شاع من صرفي ، فعاد إلى الاطراق أيضاً دقيقتين ، ولما رفع رأسه وهو على هذا الاضطراب ، ولم يفه بكلمة واحدة ، قلت له : السلام عليكم ، وانصرفت . والغالب أن مدير السياسة أبلغني ما أبلغني حتى لا يعرو همتي فتور في العمل إذا عرفت أن التشبث في المفوضية يجري بتنحيتي .

قلت للشيخ تاج الدين إن الوعاظ قد جرى تصنيف درجاتهم ، ونالوا رواتب ما كانوا يحلمون بها ، ودفعت لهم الحكومة المتأخرات من المشاهرات ، فمن الواجب أن يعلموا الاهلين دينهم ، وما ينفعهم في دنياهم ، ومن أخذ الاجرة طولب بالعمل . وزينت له أن يأمرهم بالتدريس لشدة الحاجة

إلى ذلك ، وضربت له مثلاً بسكان الشاغور أحد أحياء دمشق ، وقلت له إن عددهم لايقل عن ستة عشر الفاً ، وقلما تجد بينهم من يعرف الحلال والحرام ، لايحسنون التطهر ولا التعامل ، ولا إقامة الشعائر على الاصول ، فاذا كان من سكان الحاضرة من هم على هذه الشاكلة فما بالك بالقرى البعيدة فقال : سأذكر ذلك للمفتي . وبعد ايام عدت فسألته هل أوعز الى المفتي ليشرع الوعاظ بالتدريس ، فاجاب : إن المفتي يحاذر أن يشغبوا عليه ، فلا يجرؤ أن يدعوهم إلى ماتريد فقلت : إن المفتي إذا أمرته يأمر حالاً بامرك ، وجماعة الوعاظ مرتبطون بمقامك مباشرة ، فانت تدعوهم الى واجبهم فيطيعونك . فقال : سنرى . وعدت بعد أيام وذكرته بالموضوع فتململ ، وقال : وأنت ماذا تنتظر من هؤلاء المشايخ فقلت : لأنا بتعليم العوام دينهم تقتصد الحكومة من السجون ومن الشرطة والدرك ، وتجود الصحة وتخف الامراض ، ويقل الشغب وترتاح السكان . فقال : دعك من هذا وهل يعلمونهم غير الخرافات ؟ فقلت له : وهل دين الاسلام خرافات ؟

وقصصت ماوقع لي مع الرئيس بعد حين على أكبر علماء البلدة فقال : كان عند الشيخ جواب سؤالك لكنه تعمد ألا يجيبك ، ذلك لان الخمسة والاربعين واعظاً الذين أخذوا كما قلت رواتب جيدة ، ما كان العلماء يقبضون مثلها ، لا يقتدر على التدريس منهم سوى سبعة ، والباقون من العوام ، لايحسنون التدريس ولا الوعظ ، وهم المصفقون له ولابيه ، فقلت له كنت أحب وقد دخلت الدسائس في السياسيات ، أن يكون الدين عنها بمعزل ، وبقي هؤلاء المدرسون الجهلة الى اليوم يقبضون الرواتب فقط .

واقترحت على الشيخ أن تدرس العلوم الاسلامية في المدرسة السميساطية وكانت خراباً فعمرت ، وذلك بأن يختار لها بواسطة وزارة المعارف في مصر عالم مصري ، يديرها ويتولى تدريس بعض الفروع التي يؤثرها وينتخب لمعاونته في التدريس من يشاء من أساتذة السوريين . ومما ذكرت

أن هذه المدرسة إذا خرجت كل سنة عشرة من الطلبة يتولون المناصب الدينية ، لاتمضي أعوام حتى يكثر الكفاة من أهل هذا السلك ، فيصبح علم الطالب بعد ذلك شرطاً أساسياً في تقلد الوظائف الدينية ، وأكدت له أنه إذا تم هـذا ، وجعل أحد رجال المعارف عضواً دائماً في مجلس المدرسة ، والمعارف لاتخلو في كل زمان من علماء ، يعود هذا عليه بسمعة طيبة ، خصوصاً وأبوه شيخ وجـده شيخ وهو شيخ ، وسلسلتهم في المشيخة كالحلقة المفرغة لا يعلم أين طرفاها .

وذكرت للرئيس أن هذا المشروع لايحتاج أول الامر إلى أكثر من عشرة آلاف ليرة سورية تؤخذ من اموال الاوقاف ، فقال : إن مدير الاوقاف لايرضى باعطاء هذا المبلغ الضخم ، فقلت له : إن مدير الاوقاف قريبك وصنيعتك ، ولا يتأخر عن اعطـائك ماتأمر به من مال الوقف الذي لم يقفه المسلمون إلا على إقامة الشعـائر وتعليم الدين ، والغالب انه لم ير من مصلحته ان يتعلم احـد التعليم الديني ويفضل ان يكونوا من الجهلة ليسوقهم إلى انفاذ اغراضه .

بدا للشيخ تاج الدين او لغيره ان تنشر دولة سورية كتابا في اعمالها خلال ثلاث سنين ، فعهد الي بكتابته ، وقال ، يبغي بعث همتي ، : إنه سيكون لك تأليف جديد ، فأجبته هازئاً : في أيامك السعيدة ألفت وعرفت ، ومن قبل لم أؤلف ولم أعرف ، ولما هيأت مواد الكتاب للطبع عرضتها عليه فاعتذر بكثرة أشغاله عن قراءتها وسمح بطبعها . ولما كتبت مقدمته قرأتها عليه فسمعها متكارهاً . ولما صدر التقرير — ثم نقل الى الفرنسية — قال لي إنه طالعه ولم يعجبـه ، فقلت له : إن التقرير يعزى اليه ويصدر باسمـه ، وليس فيه اشارة الى أنه تأليفي ، فالرئيس استعار قلمي فقط ، فليس من اللائق إذاً أن يمدح نفسه في تقريره ، وبالارقام فقط يقنع من يقنـع بصلاح حكومته . ولما نشر التقرير في الشام ومصر وفرنسا وردت على الشيخ كتب ثنـاء واستحسان فاطلعني

على بعض ماورد عليه ، وقال لي : إنه لو كان رئيساً للجمهورية ، وقيل له : هل تؤثر أن ينقص من رياستك عام ويخرج مثل هذا التقرير عن حكومتك ، لفضل انقاص مدة رياسته وصدور مثل هذا التقرير . وعندئذ قلت له : صحيح يا أستاذ أنا لا أعرف ولا أحاول أن أعرف سوق العوام إلى السياسة التي أحبها أو يحبها غيري ، ولا أحسن الكذب على هذا والتمويه على ذاك ، ولكن لي عملاً في الوزارة قلّ ان يستطيع أحد أن يقوم به مثلي . وهذا اشارة إلى ما كان يشتكي منه من أني لا أعمل معه في السياسة .

ولما قال هذا عرض عليّ أن أتناول من صندوق الحكومة الف ليرة سورية مقابل وضعي لهذا التقرير فقلت له : لست موظفاً صغيراً لأسف الى أخذ مكافأة على شيء قمت به ، وما أنا إلا أحد أفراد ستة قاموا بهذا وكنت أنا المدون له ، وابرزته بهذه الحلة ، ومن الغضاضة على وزير ان يأخذ أجراً على ما هو داخل في نطاق واجبه ، وهو يتناول مشاهرة جيدة تزيد عن حد الكفاية . فاستغرب هذا الكلام .

ما كان الشيخ تاج في الواقع يرغب في كتابتي كثيراً ، لأنها لا تعبر عن كل ما يجول في صدره ، رجاني أن اكتب له ترجمة حياته فكتبتها له في صفحة واحدة فلم ترضه . وبعد أيام ضحك وأخرج لي ورقة وقال : أنظر ما كتبوه لي ، وإذا بترجمة حياته كتبت بمبالغات مدهشة ، كان أقل ما فيها ان دمشق لم تخرج من عهد معاوية بن أبي سفيان رجلاً من عيار تاج الدين بن بدر الدين ، بدهائه وحلمه وعقله ، فضحكت وقلت له : من كتب هذا ؟ فتلكأ ولم يجب . فقلت له : أخبرني فقال : فلان ، أحد أرباب الجرائد ، فقلت له : لا عجب ، فالكتابة عند هـــذه الطبقة على مقدار المنفعة . إفهم هذا عني ، إن هـذه الترجمة سخيفة جداً وأعداؤك ينالون بها منك . ما معنى قول من تبرع لك بهذا الكذب أنك أحلم وأعقل ممن جاء بعد معاوية بن أبي سفيان ؟ وهل ترضى أن يخدعك مخادع بمثل

هذا الكلام ؟ إن على هذه الأرض مشى خلفاء وملوك وعلماء وعظماء ما أخرج التاريخ أعظم منهم . على هـذا الصعيد « يا شيخي » مشى سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبـد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وعليهـا مشى الرشيد والمأمون ، وعليها مشى نور الدين وصلاح الدين ، وعليها مشى ابن تيمية وابن عساكر . فاذا نشرت هـذا كنت محل نقد العقلاء ، فطواها وأظنه لم ينشرها ، كما نقش اسمه على كل مخفر وحائط ودار حكومة وجامع وجسر ومدرسة بنيت أو رممت في أيامه ، فلما جاءت حكومة الكتلة حطمت كل ما ذكر اسمه عليه من الاحجار .

كدت أخشى أن يقول من يقرأ بعض فصول هذه المذكرات : إني جعلتها كتاباً أنال به من بعض المنظور إليهم . إنها الحقيـــقة التاريخية أدونها ، وإذا ثلجت نفسي بقول الحق ، لا أبالي أن أقول ما قاله أبو ذر الغفاري : « قول الحق لم يدعْ لي صديقاً » ، وإذا كان القوم لم يعتادوا سماع الكلام على الرجال بهذا الأسلوب ، وهذه الحرية ، فأنا لا أستطيع أن أقول فيهم غير الذي عرفته ، ولا أن أبتدع لهم قرائح لم يرزقوها ، وغاية ما أتحراه ألا أتقوّل عليهم . فاسمع هذه القصة تتمة لهذا الباب العجيب الذي طال إلى ما لا أريد .

مرض رئيس الوزارة مرةً ، ولما تماثل للشفاء أراد أن يكون الاحتفال بسلامته احتفالاً يسمع صداه البعيد والقريب ، وما كان له مال يستعين به في ذلك ، وكان صرف النفقات السرية قبل انقضاء السنة ، واستزاد بضعة ألوف من الليرات ، فهداه ذكاؤه إلى طرق باب ما خطر على بال إنسان . خطر له أن يطوف أرباب « السيارات » أي مشايخ الطرق في الشوارع ويقوموا بهذا الزياح ، رافعي أعلامهم ، ضاربي طبولهم ، ناشري سبحاتهم ، قابضين على حباتهم وثمابيدهم ، متعممين بعمائمهم الخضر ، مكتسين أكسيتهم البلق ، وان يختموا تطوافهم في أنحاء البلدة بدار الحكومة يحيون رئيسها على سلامته . ولما لم يجد الشيخ أمامه مالاً يرضي به هؤلاء المطبلين تناول من ميزانية الصحة مبلغاً من المال كان وضع فيها لمداواة المسلولين .

كنت متغيباً في القرية ، واتصل بي ما حدث في الحاضرة عند عودتي ، وانه قتل أحد الأهلين أمام دار الحكومة في (الدوسة) داس حصان أحد المشايخ رجلاً في جملة من داس عليه . وأسفت أسفاً كثيراً لما جرى ، وذكرت الأمر لأحد الوزراء الذين يعتمد عليهم الرئيس ، ولمته لتوقفه عن نصحه ، حتى لا يحيي مثل هذه البدعة القبيحة بدعة السيارات ، وكانت بطلت من دمشق ونواحيها منذ سنين فاقسم أنه لم يبلغه شيء قبل طواف المشايخ ، وسماع صياحهم في الطرقات ، وقال : ألا تعرف الى هذا أن الشيخ لا يستمع لنصيحة أحد ، فقلت له : إنه أساء بما فعل ، ونحن ندعي أمام الغريب أنا أصبحنا أمة متمدنة ، وهو باحيائه هذه السنه السيئة يعود بنا الى ما قبل عصرين أو ثلاثة . وكان من أثر أخذ مخصصات المسلولين أن ألغيت من قابل هذه المادة من موازنة الصحة ، لأن المستشار المالي قال إنه لا حاجة اليها ، لأنها أخذت لغير ما وضعت له فوقع الاستغناء عنها .

أما حقي بك فما اظنه على طول مقامه في الرياسات خالف المنتدبين في مسألة واحدة ، وكان يجيب على كل مسألة تعرض عليه بالايجاب والقبول ، حتى لقد قال أحد رجال الانتداب ، وقد أضجره باستكانته ، وسرعة موافقته على المسائل المعروضة : إنا نريد رئيس وزارة يقول لنا تارة نعم ، وتارة لا ، لا أن يقول لنا نعم دائماً فان هذا لا فائدة فيه . ولذلك سماه وأمثاله بعض الظرفاء بالواوية أي الذين يقولون أبداً « وي » oui ويقال في أميركا لهذا الصنف من الناس الذي يجيب الى كل ما يطلب (يس مان) .

وأذكر أنه أملى علي كتاباً بالتركية وأنا معه في الوزارة ، وما علمت أنه يريد أن يرى خطي ، لأنه وضع في البريد الى تركيا على ما يظهر كتاب اشتبه به المشتبهون أنه مني ، ويشعر بالصالي بالأتراك بعد خروجهم من هذه الديار . ولو كان ذكوراً لقال لمن قالوا له أن يفحصني على هذه الصورة ، إني من المستحيل أن أشايع الترك ، أو لسألني على الاقل عن الكتاب المشتبه

به ، وهو الذي يعرفني معرفة أكيدة من مصر قبل توليه هذه الوزارات نحو عشرين سنة .

وظلَّ حقي بك منذ أول الاحتلال الى عهد قريب في منصة الحكم حتى تقاعد . وغضب عليَّ مرة لان جريدة المقتبس تناولته بالنقد فأكدت له بالواسطة ان الجريدة تخليت عنها واخي يتصرف بسياستها وحده ، وما أدري إذا كان اقتنع بكلامي ، اما انا فحاولت أن اقنع شقيقي بالكف عنه فما اطاعني . وكان من اثر غضب حقي بك هذه المرة ان اوعز الى قريبه السيد عبد القادر المظم ، يعضده نسيبه الآخر السيد بديع المؤيد المظم ، ألا ينتخبني لرئاسة الجامعة ، وحلَّفاه بالطلاق ألا ينتخب غير الدكتور رضا سعيد اخيهم في الماسونية .

ولا انسى لحقي بك معاونتي ، وهو رئيس الوزارة ووكيل رئيس مجلس الشورى، على اخذ تقاعدي في نطاق القانون وكان السيد مصطفى نعمت من الاعضاء يقاومني كثيراً وكذلك جماعة المالية والسيد جميل مردم وزير المالية يومئذ وخلفه السيد شاكر نعمت الشعباني . وهذا لم يبادر الى امضاء تقاعدي الذي ينص عليه القانون إلا لما اوعز اليه محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية بسرعة اتمامه . ومن الغريب أن يظهر هذان الحلبيان مصطفى نعمت وشاكر نعمت وهما من ضباط اركان الحرب عند العثمانيين بهذه المقاومة لي بدون موجب وما ادري كيف يكون تحكمها إذا كان صاحب العلاقة بها ضعيفاً .

ومن مزايا حقي بك انه مهذب تهذيباً تاماً واقرب الى الخير منه الى الشر ، وعفيف عن أموال الدولة ، ويعتقد بصحة مذهبه لا يوارب فيه . فقد قال منذ اول يوم اتى الشام من مصر ، وكان ينزلها من سنين طويلة : انا افرنسي ، وكل ما يصدر عن الافرنسيين صواب ، وظل ثابتاً على رأيه لم ينافق كغيره ، ممن يعمل اذا وظفت له وظيفة كأعظم الانتدابيين ، وإذا صرف من الخدمة شاغب وادعى الوطنية وبكى وناح على حقوق سورية الضائعة .

ومن خطيئات حقي بك تذرعه احياناً بتوظيفه اشخاصاً في سيرتهم ما ينفر منهم ، وكنت في القريتين فاتصل بي انه عين او كاد قائم مقام عليها ، رجلا حرص على تعيينه في خدمة الحكومة فكتبت له اذكر ما اعرفه من سيرته فصرف النظر عن تعيينه . وبعد سنين أصر على رئيس الجمهورية لجعل صاحبه مدير شرطة دمشق فقال له الرئيس محمد علي بك العابد : يمكن تعيين هذا الرجل وزيراً ورئيس وزارة ورئيس جمهورية ولا يمكن أن يكون مديراً للشرطة ، فأصر حقي بك على تعيين مرشحه ، فقال له رئيس الجمهورية ، على فرط حلمه وتهذيبه : انا لا اقدر ان اعمل مع من لهم مثل هذه العقلية ، وكان رئيس الجمهورية على حق في هذا الرفض ، لأن الموصى به على غاية الاقتدار في القوانين ، وقليل البضاعة من الأخلاق .

مع المندوب

دعاني مندوب المفوض السامي الكولونيل كاترو إلى تناول طعام المساء مع المسيو فرانكلين بويون . وكان هـذا قادماً من أنقره ، وقد عقد مع الأتراك محالفة ادعى أنه حفظ بها حقوق امته . وكان يشيد كثيراً بمناقب الترك ونهضة الأتراك ، ومما قال إن عندهم وزراء لا تتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين ، ويتكلمون الفرنسية كالفرنسيين ، وأخذ يفيض من هـــذه المبالغات ، والغاية من ذلك التورية بأنه حالف دولة عظيمة ، وبالغ بنهضتهم لأنهم أروه أنها في نفسها نهضة افرنسية .

وكان المدعوون بالطبع ينصتون ، ويشغلهم الطعام الذي بين أيديهم عن غيره ، وأكثرهم لا يعرف اللغـة الفرنسية إلا أن المندوب صاحب الدعوة أراد أن يسمع الحاضرين نغمة اخرى ، فسألني عن رأيي في الأتراك ، فاكتفيت بأن قلت له خلاصة ما قرأته منذ شهرين في المجلة العالمية البارزية ، نقلاً عن مجلة ايطالية ، من أن العالم الشهير لمبروزو من علماء تشريح الدماغ قال : إن الولد التركي تنمو قواه إلى الثالثة عشرة ، على نحو ما تنمو قوى الأطفال عادة ، فاذا جئت تفحص عقله بعد سنين اي في سن العشرين مثلاً تجده كما عهدته في الثالثة عشرة ، وهكذا حتى آخر سن الشباب والكهولة الخ . قلت هذا ما قرأته ولا أعلم مبلغه من الصواب ، والذي أعرفه أن لمبروزو عالم جليل لا يقول جزافاً . فدهش فرانكلين بويون لهذا الـكلام ، وكان لسان حال كاترو « لم آمر بها ولم تسوءني » .

كان كاترو على صفات ممتازة ، ومنها الاستقامة واخافة المرتشين من جماعته وجماعتنا ، والقاء رهبته في قلوب مستشاريه ، إلا أنه كان لا يرى أن يترك لأعظم الشخصيات في الولاية المنتدب عليها استقلالاً فكرياً ،

ويكره من يراجعه في بعض آرائه . وروى لي أحد الوزراء ، ممن كان مذهبه مماشاة الانتداب ، أنه عثر لكاترو على تقرير قال فيه إن المخلصين حقاً لفرنسا في سورية هم أربعة فقط (وذكر اسماءهم) والأخير كان وزير المالية وهو أشدهم اخلاصاً لأنه أعطى فرنسا الخط الحديدي الحجازي بكل ما فيه من أدوات وقاطرات وشاحنات ، وماله من معامل وأماكن بدون أدنى جلبة . والحقيقة أن هؤلاء الأربعة كانوا منذ اليوم الأول ينفذون رغائب المندوبين بدون اعتراض البتة ، ومن هذا الراموز يطلب المندوب ان يكون الناس كلهم بالطاعة والخضوع ، وامثال هؤلاء مئات في سورية لأن الناس عبيد الدنيا ، ودنيانا بيد المنتدبين ، من شاءوا اطعموه واشبعوه ، ومن شاءوا حرموه واجاعوه .

سافرت إلى فرنسا في سنة ١٩٢١ فقال لي المندوب كاترو نجتمع في الوقت الفلاني هناك ، فاسأل عني في محل كذا . وبعد انهاء عملي سألت عنه فقيل إنه في الجزائر يتعهد املاكه ، فرحت إلى لندرا ازور المتحف البريطاني وجامعتي كمبردج واكسفورد ، ولما عدت لم ار ان أسأل عن المندوب ثانية ، وكانت نفسي تحدثني ان من نيته ان يستعملني لغرض له في باريز ما ادري ما هو ، ولكنه على كل حال ينفعه ولا ينفعني . وركبت القطار إلى مدريد فالاندلس فجبل طارق ومنها إلى مرسيليا فليون فسويسرا فألمانيا فايطاليا فمصر فسورية .

ولما جئت مصر قرأت في المقطم تصريحاً منسوباً إليّ قالوا إني قلته لأحد أصحاب المجلات الفرنسية وخلاصته ان سورية اصبحت بفضل فرنسا جنة ارضية ، وان السيد بديع المؤيد احد رصفائي في الوزارة صرح بمثل هذا التصريح وانا وافقته عليه ، فبعثت في الحال تكذيباً لما نشر باسمي ولا علم لي به ، وهو ظاهر البطلان ، إذ يستحيل ان تجعل حكومة الانتداب سورية جنة في عامين ، ولم يكن مضى على احتلالها اكثر من ذلك . وعرض على زميلي ان يكذب فقال : وهل انا مجنون كصاحبي حتى اترك

منصبي من اجل كلمة قيلت على لساني كذباً . والحق معه فانه لايزعجه ان يكذب عليه وربما يجوز الكذب احياناً . ولما بلغت دمشق قيل لي ان السلطة غاضبة عليَّ لتكذيبي خبر المقطم ولأني ذهبت إلى المانيا ، وكان في دمشق ضابط استخبارات يحب ان يكون السوريون كلهم عبيداً للانتداب .

زرت كاترو فآخذني على ما بدر مني ، ولا سيما على عدم الاجتماع به في باريز ، وعدَّ عليَّ من الذنوب اني زرت المانيا ، واجتمعت إلى جمال باشا (قائد الجيش الرابع زمن الحرب) عدوهم اللدود ، إلى غير ذلك من الأمور التي ارتكبتها ، ولا ترضي حكومة الانتداب ، فقلت له : هذا ما جرى ، وانا ذهبت لأزور ابن اختي شفيق حسان في مونيخ ، وعرجت على برلين وليبسيك لابتاع كتباً لي وللمعارف ، خصوصاً وقد سنحت لي فرصة لذلك ، وقيمة الألف مارك ليرة عثمانية واحدة ، فابتعت مقداراً من الأسفار ، وإذا زرت جمال باشا فلأن له عليَّ يداً ، والوفاء يقتضيني ان اتعهده ، وهو اليوم فرد لا قوة له ولا حول ، وقد حماني زمن الحرب وانا اذكر له هذا الجميل ، واحب ان افهمه ضمناً انه لو كان عامل اخواني الذين قتلهم بمثل ما عاملني لكانوا له اليوم وهو في محنته مثل ما انا له وزيادة . وقلت : إنكم كنتم الى امس تصفون مصطفى كمال باشا زعيم الترك بأنه رئيس عصابة اشقياء ، فلما قضت سياستكم بملاطفته صرتم تطلقون عليه في جرائدكم لقب مصلح تركيا الأكبر . فاجتماعي بجمال باشا ، وإن كان كما تقول هو من اعدائكم ، لا يضر احداً ، وليس له الآن من السلطان ما كان له في هذه الديار زمن الحرب . فقال لي : فعلى هذا لا نستطيع ان نعمل معاً . فقلت له : الحل الأجدر بي وبكم إذاً ان تقبلوا استقالتي ، وإن شئتم دفعتها اليكم الساعة ، فقال : ادفعها إلى رئيس الحكومة ، وانصرفت ، فعهد إليَّ برياسة المجمع العلمي العربي فقط .

ولما اقتضت مصلحة حكومته ان تستدعيه من سورية تأسفت لنقله ، وقلت لغير واحد من المنتدبين وغيرهم إن فرنسا لا تحسن صنعاً بهذه الطريقة

القائمة على المبادرة إلى نقل موظفيها ، بعد تمكنهم من معرفة البلد الذي نزلوه ، واحاطتهم بدقائق الاعمال التي تقلدوها ، وكان من المصلحة ابقاؤهم زمناً طويلاً كما يفعل الانكليز في مصر . وكاترو هذا إذا كانت له بعض اغلاط لايرتكبها فيما احسب في المستقبل ، وقد زادت تجاربه واتسعت معرفته ، وذكرت له الصفات التي عرفتها فيه ، وقلت إني اعذره على ما وقع بيني وبينه من سوء تفاهم ادى إلى التخلي عن منصبي ، فهذا من الحوادث الشخصية .

ومضت الأيام ، ولقيت صديقي الاستاذ نسيب مسلم في باريز ، وكان محبوباً عندهم ثم غضبوا عليه يوم ثورة دمشق ، لاعتراضه على ضربهم قرية مضايا بدون مسوغ ، وكان قائم مقام الزبداني ، فأخرجوه من الخدمة فقال لي : إنه اتى كاترو في الاستانة ، وكان ملحقاً عسكرياً بسفارة دولته فيها ، فقص عليه ما قلته فيه ، عندما جرى نقله من دمشق ، فقال له : عجيب ، وهل قال لك ذلك ؟ إني ليسرني قوله . قال له : نعم ، قال هذا في حضور جماعة ، وكان في قوله جاداً مخلصاً . وبعد أشهر اجتاز كاترو بدمشق وأحب الاجتماع إلى اناس اختارهم ، فكنت في جملتهم ، وأردت أن أتملص من زيارته ، فأصرَّ عليَّ بالاجتماع إليه متصرف البلد صديقي السيد نورس الكيلاني ففعلت . ولما اجتمعنا في دار الحكومة سألني عن حالي فقلت له : إن حالي أحسن حال ، ارتقى المتحف ودار الكتب والمجمع العلمي ، لانصرافي إلى النظر في شؤونها . وشغلت أوقات الفراغ بتآليفي ، فطبعت منها في هذه الفترة في القاهرة ودمشق سبعة مجلدات . وهواء العلم أنعش للقلوب من هواء السياسة الفاسد . وإني لأشكر لمن كان السبب في إحراجي وإخراجي من الوزارة . فانقبض وجهه من الجملة الأخيرة ، ثم قلت له : وأنت قل لي كيف حالك مع الأتراك وما رأيك فيهم بعد أن زدت بهم خبرة ؟ وقلبنا الحديث .

وعاد الكولونيل كاترو إلى سورية بعد حين مديراً لاستخبارات الشرق مع المفوض السامي المسيو بونسو ، واتفق أن كنت متغيباً في الجبال للاستجمام

فلم أستطع أن أزور المندوب ، كما تقضي بذلك العادات المتبعـة ، واغتنمت بعد مدة شخوص المفوض السامي الى دمشق ، وبعثت إليه كتاباً أطلب مقابلته خمس دقائق للسلام عليه ، والاعتذار عن قصوري بالقيام بالواجب في جيئته الأولى ، فجاءني كتاب من مدير الاستخبارات بدمشق يسألني عما كان في نيتي أن أقوله للمفوض السامي،وهل لزيارتي صبغة سياسية ، فأجبته شارحاً للحال ، ذاكراً تقصيري في المرة الأولى بالواجب ، وأن ليس لي ما اعرضه عليه إلا إذا رأى في وقته متسعاً لزيارة المجمع العلمي ليطلع على ما جمعه من الآثار والمخطوطات وغـير ذلك . فبعث لي مدير الاستخبارات بموظف يسألني إن كان ثمة أشياء لا أحب أن أكتبها بتوقيعي ، وطلب أن أذكرها له ليعرف المقصد من زيارتي . وقال إن فلاناً من ضباط الاستخبارات قال : إني اوشك ألا يقبلني المفوض السامي . فقلت له : أبلغـه إذاً أنني حاولت أن ألقاه لأقوم بواجبي ، ولا احب تصديعه بزيارتي بعد الآن ، فانتقل ما جرى إلى المفوض السامي ، فما استحسن على ما يظهر فعل دائرة الاستخبارات ، وارسل لي مندوبه في دمشق المسيو پيرآليب بصورة رسمية يعتذر باسم المفوض السامي عن زيارتي ، وأنه في قدمته الثانية تكون أول زيارته للمجمع العلمي ،

كان السبب في حنق الكولونيل كاترو عليَّ أنه طلب مني العلم الكبير الذي كان يحمل امام الملك فيصل ، لما بويع ملكاً في دمشق ، وكنت اخذته في جملة ما أخذت من الأعلام وغيرها ووضعته في المتحف ليحفظ . طلب أخذ هذا العلم ليجعله في المتحف العسكري بباريز ، فأجبته إن العلم أصبح ملك الأمة وأشبه بالمال الموقوف ، والوقف لا يجيز إخراج شيء بعد دخوله في ملكه ، وإذا أعطيت العلم يتعذر عليَّ الخروج في شوارع دمشق ، لأن أهلها يصمونني بالخيانة ، وألحَّ عليَّ مرتين في أخذه فأشحت في المرة الثالثة بوجهي عنه ، وتشاغلت عن حديثه ، فاحمر حنقاً وأبغضني من ذلك اليوم .

قال لي الكولونيل كارو وهو پرتستانتي المذهب : إن الكاثوليك كانوا يأملون بمجيء الفرنسيين إلى هذه الديار أن نطرد المسلمين من الوظائف ونستعيض عنهم بكاثوليك ، وهذا ما لا تأتيه حكومة في الأرض . والغالب أن سياسة الكاثوليك نجحت بعدئذ ، فلم يدخل المفوضية وتوابعها في سورية مستخدم إلا من الكاثوليك والموارنة ثم من الروم الارثوذكس والبرتستانت واعتمد الانكليز في فلسطين على النصارى أيضاً ومزجوهم بجماعة من الدروز ، وكانوا في مصر أيام الاحتلال ، لا يعتمدون على غير النصارى السوريين .

انتخب الأطباء بدمشق الدكتور يوسف عرقتنجي مدير صحة في سورية وهو كاثوليكي النحلة ، فأرسل مرسوم نصبه إلى البعثة ليصادق عليه فوقف مدة ، وعلمت بالأمر فذكرت للكولونيل كارو أن أوراق الرجل متأخرة ولم يتم تعيينه ، فقال لي : إنه مسيحي ، والمسلمون لا يرضون عن هذا التعيين ، فأجبته إن اطباء المسلمين هم الذين اختاروه لهذا المنصب ، ونحن هنا لا ننظر إلا إلى الكفاءة ، ونغمة الطائفية هذه مما يردد في لبنان ، والرجاء ألا تنقل الى هنا ، فانها مضرة بنا . فعند ذلك رضي أن يوقع تعيين مدير الصحة الجديد .

نكتة

دعاني رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الى تناول الغداء في داره ، واكد علي بالحضور ، وكنت أستنكف من غشيان داره في غير الاعمال الرسمية ، واتصوّن عن شهود مائدته ومائدة غيره ، إلا اذا عرفت المدعوين بأعيانهم ، لئلا يكون منهم من استثقله ويستثقلني ، وقال لي إن مجيئك ضروري في هذه المرة . والدعوة لاكرام صديقك المسيو بينار (كاتم سر البعثة العلمانية في باريز) والمدعوون مديرو المدارس العلمانية في بيروت وحلب ودمشق وعقيلاتهم ، وكلهم ممن تعرف فاجبت الطلب .

ولما جلسنا الى الخوان قال لي الشيخ : قصّ على السيد بينار القصة التي قصصتها عليّ منذ ايام ، فقلت : قصة الجمال ؟ فقال : نعم . قلت : نصرف النظر عنها ونفكر في ايراد قصة اخرى ، فقال : هذه طريفة في بابها . فلم البث ان قلت : كان في الاستانة في آخر أيام دولة بني عثمان شاب اديب من ابناء الاعيان معروف بخفة الروح وسمة الفضل ، وهو صاحب جريدةهزلية سياسية اسمها(قره كوز) اي خيال الظل ، وكانت لكثرة ماتحوي من المغزى تترجم بعض الصحف الالمانية والفرنسية ما ينشر فيها من النكات والقصص . واسم منشئها صلاح الدين بك جمجوز كان من اصدقائي رجال الصحافة التركية ، وهو نائب في مجلس النواب عن مدينه استانبول . سأله بعض المكارين ذات يوم رأيه في الحاج عادل افندي رئيس مجلس النواب العثماني وكان من قبل شيخاً معمماً . فأجابه إنه رئيسنا ، وليس من حقي ان اقول فيه الا خيراً ، فقال السائل : قل لنا مادرجته من المعرفة ، وهل يليق لهذا المنصب الكبير ؟ فقال : هذا مالا أعرفه . ولما ألح السائل بطلب جواب سؤاله قال : اذاً اقص عليكم قصة وانتم وشأنكم ، وانشأ يقول : كان في سالف

الزمان جمال رأى لما اشرف على الموت ان يجمع جماله ويطلب منها ، وهو في آخر عهده بأيام الدنيا واول عهده بالآخرة ، الصفح عما بدر منه نحوها مذ كانت في خدمته . فقد يكون ارتكب معها اموراً ما كانت منه عن قصد ، كأن يضربها بعصاه ، ويشح عليها بالعلف او الماء او يسير بها مراحل طويلة أو يحملها احمالاً لا تطيق حملها ، اذا نفق معه بعض الجمال ، فيحمل الجمال الحية حمولة ما نفق معه إلى غير ذلك .

وكان هناك جمل في أخريات الصفوف فتقدم قائلاً لصاحب الجمال : كل ما بدر منك نقيم لك الاعذار فيه ، وليس لنا أن نؤاخذك عليه إلا مسألة واحدة لا نغتفرها لك ، وهي أننا كما ترانا مئة جمل طوال عراض ، وأنت ما برحت طول الوقت الذي قضيناه في اسفارك تقطرنا بذنب حمارك الصغير الذي تركبه ، هذا ما لا يسعنا السكوت عنه . فضحك المدعوون ضحكاً كثيراً حتى كادت احدى السيدات أن تقع عن الكرسي وكأن الحضور طبقوا القصة على الشيخ تاج الدين .

ولما انصرف المدعوون آخذني الشيخ على استئثاري بالكلام في الدعوة ، زاعماً أني لم اترك لغيري مجالاً ليتكلم في نوبته ، فقلت له : لقد حرت في أمري معك ، إذا سكت تطلب مني الكلام ، وإذا تكلمت ترميني بالاكثار . تندبني لانوب عن حكومتك في مواطن تكون معرفة اللغة الفرنسية شرطاً فيمن يمثل سورية ، فأقول لك عندك وزراء غيري يعرفون اللغه ، فتقول : نعم ، ولكنهم يتكلمون خمس دقائق ويصمتون ، وأنت تتكلم طول الليل والسامعون ينصتون لك ، وقلت له : ما هذه الحال معك ؟ وأنا لم أقصر خلال المائدة من ان انقل لك ما يقال ؛ وانقل الى ضيوفك ما تقول وأجمل اقوالك . وانصرفنا وهو لا يظهر غضباً ، وأظنه نوى في سره فقط ألا يدعوني ما حيي .

وقعة في مصر

قامت منذ بضع سنين ضجة على الجامعة الاميركية في القاهرة ، ووصمتها بعض الصحف الوطنية بأنها «مدرسة تبشير لا دار علم» ، وأن غايتها تنصير المسلمين ، وقد نصّرت أناساً فيما قيل . واتفق أن كنت متعاقداً مع هذه الجامعة لالقاء محاضرات علمية في دارها ، فكتب لي من مصر بعض الغُيُر على الدين أن أمتنع من القاء ما وعدت بالقائه . وحاولت بعض الجمعيات بالقاهرة أن تثني عزمي عن أن أهبط وادي النيل وأرادتني بعض الصحف الاسبوعية التي عرفت بغرامها بالادب المكشوف والفن المكشوف على الامتناع عن القاء محاضراتي ، ولما حاججتهم بأن غيري من المصريين المسلمين يحاضر في الجامعة الاميركية ايضاً ، فيسعني ما يسعهم ، قالوا إن المحاضرين المصريين ليس لهم مثل مكانتي في ديار الاسلام ، فلا يضير المسلمين إلقاؤهم محاضرات في هذه الجامعة التبشيرية !

وحظيت بلقاء جلالة الملك فؤاد الاول فكان مما تفضل وقاله لي : وهذه المحاضرات ألا ترى صرف النظر عن إلقائها في الجامعة الاميركية ؟ فقلت : إنني يا مولاي تعاقدت والجامعة قبل ان تشير الصحف إلى انها مدرسة تبشير بأكثر من شهر ، ولا يليق بالرجل ان يرجع عما امضاه ، فان كانت مصر على ما لها من الوسائط لم تعرف إلى اليوم إذا كانت الجامعة الاميركية مدرسة تبشير ، فأنا في الشام أولى بألا اعرف ، لينتظر القائمون بهذه الضجة فان رأوني أخدم العرب بهذه المحاضرات ، فأنا لا اريد منهم جزاءً ولا شكوراً ، وإن رأوها مضرة تخدم الجامعة فقط ، فليطلقوا فيَّ ألسنتهم . وعندي ان هذه الجامعة لو بدا لها أن تمتنع من إلقاء هذه

المحاضرات لكان الواجب عليّ أن أؤدي إليها مالاً حتى تمكنني من إلقائها في قاعتها لما أتوقع من نفعها . »

وجاءني من إدارة الأمن العام رجل عرفته قديماً في الصحافة ، ودعاني بلطف إلى زيارة المدير ، فبادرت إليه . فقال لي إن عميد كلية الشريعة في الأزهر الشيخ مأمون الشناوي كتب إلى شيخ الأزهر يقول له إني أقرر تشريعاً في الجامعة الأميركية ، وما كان التشريع المزعوم إلا أني قلت نقلاً عن المؤرخين إن امراء المسلمين في الأندلس كانوا أيام عزهم يتزوجون من بنات امراء النصارى ، فلما تراجع أمر المسلمين أصبح امراء النصارى يتزوجون من بنات المسلمين كرهاً .

وحسّن لي مدير الأمن العام أن اقابل الشيخ الظواهري شيخ الأزهر في مكتبه ، ولما اجتمعت إليه عاتبني على عدم زيارتي له — وكان سأل أحد معارفي عما إذا كنت زرت الشيخ المراغي شيخ الأزهر السابق ، فامتعض لما علم أني زرته مرتين — وقال لي : أرأيت كيف أتيت بك لزيارتي بواسطة الأمن العام ؟ وأخذني إلى داره وغدّاني معه ، فأراني غضبه ورضاه . ومما استفدت ذاك اليوم من علمه الواسع أن أباه كان من أولياء الله ، ورجا أن تحفني بركاته ، وأن من كراماته أنه كان يطعم خمسين الف إنسان من طعام رجل واحد ! ذكرت هذا الحديث العلمي الذي أسمعنيه الشيخ الظواهري لأحد شيوخ الأزهر الاستاذ الزنكلوني فقال لي : أما ذكر لك أيضاً أن أباه دخل على الخديوي إسماعيل في بعض الأيام ، وقال له إنه رآه في منامه في حالة حسنة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، رآه راكباً بغلة والرسول يمشي في ركابه ، فصاح الخديوي مستهجناً نفاقه وأمر بطرده من مجلسه ، وقال له كان عليك أن تعكس المسألة وتقول إنك رأيتني على الأقل أسير في ركاب الرسول . ومن أنا حتى يمشي رسول الله في ركابي ؟ أنا أتمنى أن أكون غبرة أقدام محمد (ﷺ) .

واثيت شيخ الأزهر بمحاضراتي في الجامعة الأميركية فحذف بعض جمل قليلة ، ذكرني بما كان من قلم المراقبة على العهد العثماني ، وبمحكمة التفتيش الديني في العصور الوسطى في الغرب . وتأخرت الجامعة عن نشر المحاضرات مدة لأن الاستاذ الظواهري طلب الى ادارة الأمن العام أن تحول دون نشرها ، فلم تنشر في كتاب إلا بعد اعتزال الشيخ الظواهري مشيخة الأزهر ، فنشرناها كما كتبتها اول مرة . وهذا كل ما استطاع الشيخ الظواهري ان يأتيه تأديباً لي على اغفالي زيارته لما هبطت مصر ، وعلى جرأتي على زيارة الشيخ المراغي منافسه في رياسة الأزهر . فانظر إلى اي حد يبلغ حب الدنيا ببعض علمائنا .

دعاني صديقي الاستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني من هيئة كبار العلماء ، ومن شيوخ الأزهر ، ومن تلامذة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، إلى داره مرتين ، فاعتذرت بكثرة أشغالي ووعدت بالتشرف به قريباً ، وفي المرة الثالثة اعد ضيافته ودعاني بلسان صديقي الدكتور منصور فهمي فسألته عمن يكون معنا في الدعوة ، فقال : أصحابك أولاد عبد الرازق الشيخ مصطفى بك وعلى بك ، وربما جاء الاستاذ المراغي شيخ الأزهر ، وما أظنه يحضر لأنه مدعو إلى مأدبة رسمية لا يسعه التخلف عنها . فحضرت ودهشت أن رأيت في الدعوة مفتي مصر الشيخ عبد المجيد سليم وعميد كلية أصول الدين في الأزهر الشيخ عبد المجيد اللبان ، وهما ممن عرفت . فلما رأيتها عتبت في باطني على الداعي ، لأنه لم يذكر من يكون معنا على جليته . وأخذت اعرض لما عاملني به صاحبها بالأمس شيخ الأزهر السابق ، يوم الدعوى عليّ بأني أضع تشريعاً جديداً في الجامعة الأميركية . فقلت للحاضرين وكلهم مشايخ ، والخطاب موجه للمفتي والعميد ما فحواه : إنكم يا سادتي تسيئون إلى الدين بالهيمنة عليه بهذه الصورة ، وهل تعرفون ما تنطوي عليه القلوب ، والقلوب لا يعرف ما فيها غير علام الغيوب ؟ تنكرون دين هذا فتعدونه من أصحاب النار ، وترضون بايمان ذاك وتدمجونه في أصحاب

الجنة ، هذا والاسلام يطعن به في مدينة القاهرة ، ويطعن برسول الله في كتب ونشرات ، والعلماء لا يردون على هذه المطاعن ، ويحاولون أن يقفوا في سبيل رجل مثلي صرف حياته في خدمة الاسلام والمسلمين والعرب والعربية ، فيما نشر من كتب ومجلات وجرائد ، وما ألقى من محاضرات ومسامرات ، وما جرأ انسان أن يقول له وهو في جهاده منذ أكثر من أربع وأربعين سنة أنه خالف الشرع في مسألة ، أو أحصيت عليه زلة يستوجب بها التكفير ، وتآليفه اليوم تقرأ في الأقطار الاسلامية من دون نكير . خير لكم يا سادتي وأسباب النشر موفورة لديكم ، وفي مصر أكثر من مئتي مطبعة تطبع لكم ، أن تردوا في كتب ورسائل غارات المغيرين على الدين ، لا أن تنالوا فقط من رجل هو من صميم المسلمين ، تشبعت نفسه بكتب الغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم من أعلام الاسلام . إن العلم أيها السادة لم يقف عند افق الأزهر ، وفضل الله غير محصور في أحد ولا في بلد ، يحوزه كل من اشتغل ودرس ، والمناصب الكبرى لا تنبئ بعظمة أربابها ، وما العظيم إلا من يفيد امته .

فاعتذر الشيخان عن شيخ الأزهر السابق وقالا : أما كفاه ما حل به ، وأنت من ينكر عليك علمك واخلاصك وجهادك ؟ فأجبتهم : المسألة أني احب من السادة العلماء ألا يتسرعوا في تكفير مسلم ، ويستعملوا الحكمة التي كانت ديدن الشيخ محمد عبده ، ولو كان حياً ما خرج بعض أرباب الأقلام عن حظيرة الدين ، ولتمحضوا على ما كان يشتهي لخدمة المسلمين ، ولجلبهم بجميل سياسته كما جلب قاسم أمين في عهده ، وكان من قبل ناشزاً على الاسلام .

لمت نفسي لما انتهى الحديث على هذا التعريض القاسي بالشيخين ومن لف لفهما ، وآخذتها على ما بدر مني من الحدة على من ليس لهما يد في الذي وقع ، والمسألة ان الشيخ الظواهري قوّلني ما لم أقل ، وأوصل المسألة إلى المليك المحبوب حتى طلب جلالته مني أن أعدل عن القاء المحاضرات في الجامعة الأميركية .

واحب بعض اصدقائي من أرباب الصحف أن يكتبوا شيئاً في الموضوع أو أن يتلقفوا مني حديثاً فأبيت ، حباً بمصر ، وبرجال مصر ، وبالجالس على عرش مصر . ومن المضحك أن أحد من اعتادوا التجسس عليَّ من المشايخ في دمشق أحب أن يشرك بالشماتة بي كل شامت ، فدفع اشتراك جريدة لاحدي الصحف الدمشقية ، ليكتب في جريدته أني سجنت في القاهرة . ولما عوتب الصحافي على نشره هذا الخبر الكاذب اعترف أن الشيخ أعطاه اشتراكاً فكتب له ما أراد قال : وأنتم ادفعوا لي اشتراكاً فأكتب لكم أن الشيخ المشترك لن يسجن فقط بل اكتب أنه داسه قطار فهلك ، مثال مبكٍ من اخلاق من نسميهم اهل العلم وأرباب الأفكار .

استطراد : كان صديقي الاستاذ احمد تيمور باشا قد علق بعقيدته أول نشأته — كما قال عن نفسه — شيء من آثار التربية في مدارس الأجانب : فكان يعرض ما يظهر له من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والحدثات التي تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فيجد التناقض والتصادم ، فصار يتردد على كثير من كبار علماء الازهر وغيرهم لعله يجد عندهم فرجاً ، فرآهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات .

وأنا كنت كلما رأيت شيخاً من الشيوخ أعجب لهذا الذكاء كيف يعتقد صاحبه بأشياء لا تناسب الدين ، مثل رواية الظواهري كرامات والده وهي مما لا يقول به ذو مسكة من العقل ، فكيف بشيخ الأزهر في هذا العصر ، ولا تعليل لذلك إلا البيئة التي ينشأ فيها الأبناء على قدم الآباء ، وتتسلل الخرافات فيهم فيغدو الاخذ بها عقيدة مسلمة وحقائق ثابتة وقد كان بالامكان أن يخرج هؤلاء الشيوخ عما علق في عقولهم من هذه الخزعبلات ، لو سمت هممهم لأن يطالعوا كتب العلماء الأعلام من القدماء . والغالب أن منهم من يرى حزب العامة اكثر سواداً من حزب الخاصة ، ويظن ان مصلحته مع الحزب الكبير اكثر من الحزب الصغير فيتابع الجمهور على العمياء ، ولو كان في ذلك العبث بالشرع . وما إخال اكثرهم يؤمنون

عما يقولون بأفواههم . ورحم الله صديقي السيد محمد رشيد رضا فانه اصلى هذه الطبقة المخرفة في مجلته (المنار) ناراً حامية من نقده نحو أربعين سنة ، ومن لنا بمن يخلفه ويكون قوي الشكيمة مثله ، وعلى علم بالدين الصحيح السالم من تخريف المبطلين من المتأخرين .

دعاني السيد سعد اللبان نجل الأستاذ اللبان ، أحد شهود الحال في دعوة الأستاذ الزنكلوني السالفة ، إلى داره في « جاردن ستي » ، وكان والده حاضراً ، وكذلك الحبيبان السيد الزنكلوني والسيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي وغيرهما من الأصحاب ، فجرت محاورات المدعوين إلى ذكر الطرق ، وكان الشيخ اللبان يقدس عملها فوافقه السيد التونسي ، وأورد علينا ما تحققه من حسنات الطرق في الغرب الأقصى والأدنى والأوسط ، فقلت للحاضرين وقد ضاق صدري من هذا الحديث : أنا لا أنكر أن الطريقة السنوسية في صحراء افريقية نفعت وما أضرت ، وذلك لأن أربابها يزرعون الأرض ، ويعيشون بكدهم ، ويقفون في وجوه المبشرين ، ويذكرون الله أما سائر الطرق أو معظمها فما كانت إلا أداة شر على الاسلام ، يستخدمها المستعمر في أغراضه ، واسمحوا لي بالنظر لمعرفتي بالشام والعراق وآسيا الصغرى ومصر أيضاً أن احدثكم بما فعلته الطرق في تأخير العلم والمدنية ، والعبث ببهاء الشرع الاسلامي ، وأفضت في ذلك فسكت الحضور ، وما بدا لأحد أن يرد عليّ قولي ، وكان انكارهم في قلوبهم فقط على ما ظهر لي . ولما خرجنا من الدعوة قال لي الاستاذ الزنكلوني ما معناه : انت وزير وتكلمت كلام العلماء ، وزميلك السيد حسن حسني عبد الوهاب ، ليس وزيراً وتكلم كلام الوزراء ، أي أنه جمجم وما أبان ، مراعاة للشيخ اللبان ، ومن يقول بالكرامات من الرجال والنسوان .

المصرى خارج بلاده

رأيت في المنام (١٩ رمضان سنة ١٣٥٨ ، ١ ديسمبر سنة ١٩٢٩) صديقي أحمد شوقي بك أمير الشعراء فقص علي قصة رجل مصري رآه في طرابلس الشام ، أعجب به . قال : « ان الاقدار ساقت هذا الرجل إلى ذلك الثغر فأعجبه جماله فاتخذه موطناً له نحو خمسين سنة واشتغل بالمحاماة فعاش في رفاهية واغتنى وصار له مقام بين أهل وطنه الثاني » .

هذا ما علق بذهني من هذا الحلم — وأنا ما بنيت أعمالي على الأحلام قط ، ولا كفرت بها ولا آمنت — وقد ذكرني هذا الكلام بموضوع كان يتردد على خاطري من مدة طويلة وهو « المصري خارج بلاده » ، فقلت أكتبه هنا فهو لا يخلو من طرافة ونفع فأقول :

ترك جيش ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير في الديار الشامية وما اليها ألوفاً من المصريين ، أصبحوا بعد حين من الدهر كأهل الشام في مناحيهم ، على نحو ما كان من بضعة ألوف من المصريين وردوا على فلسطين قبل الحملة المصرية ، وكانوا السبب الظاهر في إعلان محمد علي باشا الحرب على والي عكا بل على الدولة العثمانية ، لأنه طلب إرجاعهم إلى مصر فأبى الوالي على محمد علي اعادتهم ، محتجاً بأن مصر والشام شيء واحد وكلاهما تابع للدولة . وهؤلاء المهاجرون الأول تفرقوا في أنحاء فلسطين وأحالتهم بوتقتها شاميين . والغالب أن المهاجرين في الدور الأول والدور الثاني لم يجدوا أيام هجرتهم فرقاً كبيراً بين عيشهم في بلادهم الأصلية ، وعيشهم في موطنهم الجديد ، ان لم تكن الشام يوم هاجروا أرقى من مصر . ولولا أنك تلمح في سحنات أهل غزة ويافا وحيفا وعكا مثلاً تلك السمرة الجميلة ، وتسمع في بعض

أسمائهم لفظ « المصري » لقلت انهم شاميون من عشرات البطون .

قص عليّ صديقي شكري المسلي ، انه رأى في ولاية قونية في آسيا الصغرى كتلة كبيرة من المصريين من بقايا جيش ابراهيم باشا المصري ما زالوا إلى اليوم الذي رآهم فيه يتكلمون بلهجتهم المصرية كأنهم فارقوا مصر بالأمس مع انهم نزلوا في صميم أرض الترك ، وأتت ثلاثة أجيال على هجرتهم .

وهذا ذكرني بما قاله أحد علماء المشرقيات من الاوربيين من أن قوة التمثيل في العربي شديدة جداً ، حتى لو أسكنت قبيلة عربية في وسط أوربا ، وغبت عنها أعواماً طويلة ، وعدت تتعهدها لما ألفيتها انصبغت بصبغة الأرض التي نزلتها ، بل لشهدها قد صبغت هي من كان في جوارها من السكان الأصليين بصبغتها العربية ، ونشرت بينهم لغتها وبعض عاداتها . وقد سأل أحدهم بيرلوتي الأديب الفرنسي قبل وفاته : أي الامم أحب إليك ؟ قال : العرب لأنهم لم يغيروا أخلاقهم منذ أربعة آلاف سنة .

وما أدري إن كان تم على أيدي المهاجرين المصريين في أرجاء قونية شيء مما ارتآه المستشرق في العرب فعربوا من بجوارهم . وعلى كل فانهم يصفق لهم لأنهم قضوا نحو مئة سنة في أرض الترك ، وما نزلوا عن لغتهم وعاداتهم ، هذا مع أن الامية كانت غالبة عليهم . وروايتي عنهم هذه ترد إلى أواخر عهد العثمانيين . ولست أدري إن كان ذاك القبيل من المصريين قد احتفظوا بشيء من لغتهم على عهد الكماليين ، وقد حارب هؤلاء في أرضهم كل ما ليس بتركي .

كان لي غرام منذ القديم بالبحث في خصائص الشعوب ، وبالطبع كان لبحث الشامي والمصري المقام الأول في نفسي ، أنظر التأثير الذي أحدثه الاقليم في السحنة واللغة والخلق والعادة . وأمثل الآن لذلك بخمسة أشخاص من أهل مصر عرفتهم معرفة جيدة . وكان الاثنان الأولان من أخلص

أصدقائي ، وقد عملا في التجارة مدة حياتهما . والثالث صحبته أيضاً وهو صاحب مشروعات ، وعمل الرابع في الزراعة ، والخامس حوذي صاحب مركبة ما زال حياً يرزق . رأيت المصريين اللذين اشتغلا بالتجارة في دمشق مثالاً نادراً في الرجال . يعرفان الجد كثيراً ويعرفان الهزل كثيراً . وكان كلاهما مولعاً بالمطالعة ، ويقرأ كل ما تصل يده إليه من الكتب والصحف ، ومن المطالعة ألما بأشياء ما كان واحد من عشرة آلاف من سكان البلد يعرف مثلها أو نصفها . فكانت معلومات الواحد منهما لا تقل عن معلومات صحافي راقٍ ، لو كان كل منهما يحسن لغة أجنبية ، وما كان الأول يكتب ما يعنُّ له ، بل يقيد في دفاتره ما يستحسنه فقط من كلام غيره ، واسمه عبد الرؤوف المصري (الرفاعي) واسم الثاني محمد المصري ، وهذا اعتاد الكتابة ومرن عليها فكان يكتب كتابة يقل الغلط النحوي والصرفي فيها ، وقد تعلم بالسليقة وسار مع الطبع .

اشتغل عبد الرؤوف بتجارة الطرابيش ، وكان غريباً في أمره وطوره ، وما تزوج إلا بعد أن ذرف على الستين ، وعاش أكثر من أربعين سنة في دمشق ولم يتعلم لفظة واحدة من لهجتها ، وما نزل عن لفظة واحدة من لهجته المصرية ، هذا مع شدة اختلاطه بأهله وأقاربه من أهل هذه الديار ، وهم لا ينطقون بكلمة واحدة باللهجة المصرية اللهم إلا ان كانوا معه ليسروه فقط ، ويظهر عليها التصنع والكلفة .

وجاء محمد المصري دمشق يافعاً وامتزج بأهل الميدان من أحياء دمشق واشتغل بالتجارة ، وعاشر أهل البادية والحوارنة والدروز والغوطيين والجبليين ورأيته بعد نحو خمس وأربعين سنة من هجرته شامياً صرفاً لا يستطيع عشرة منجمين حذاق أن يكشفوا أمره ، ويعرفوا أنه مصري إلا إذا حكموا عليه بمصريته من خفة روحه ونكتته الحاضرة . وقد كان يكتب في أسلوب الهزل في الجد مقالات أنشرها له في جريدة المقتبس يتناول فيها الأحوال

الحاضرة ، ويبنيها على منامات ومشاهدات ، ويقدم لها مقدمات عجيبة ، يعرض فيها بالوالي وبحكومته ورجاله . فتحدث مقالته من التأثير ما لا تحدثه عشر مقالات أفرغت في قالب الجد يكتبها السياسيون والاداريون والحقوقيون . وكان الوالي أشد ما يكون تأثراً من مقالاته ، لأنه لا يقدر أن يجد له فيها مأخذاً يستطيع به مؤاخذته ، ليسوقه إلى القضاء ويحاكمه على ما يلحق به من إهانة بزعمها ، ويعرف الوالي أن تأثير ما يكتبه « الميداني » وهذا الاسم كان توقيعه في الجريدة ، شديد الوقع في نفوس العوام . وما خلت حملاته من تأثير في إسقاط ذلك الدور المنحط ، وكان الخاصة والعامة سواء في الاعجاب بما يكتب الميداني لجمعه في كتابته بين دعابة مصر وهزل الشام .

والرجل الثالث اسمه خورشيد وهبي بك من مهندسي الري بمصر أتى هذه المدينة وهو في الثمانين وعاش فيها أكثر من ثلاثين سنة واقتنى أملاكاً في سفح قاسيون بدمشق ، وكانت لي به صلة أكيدة وصداقة دامت مدة طويلة . وابتاع قرية في وادي العجم اسمها بويضان ، وقدر أنه بالحفر عن الماء يجده لأن القرية كانت بين جبلين ، وفي الجبال مخازن المياه ، وهما جبل الشيخ (حرمون) وجبل الدروز (جبل الريان) . والغالب أنه نظر إلى بعد ما بين الجبلين في الخريطة ، وما قدر البعد الحقيقي بينهما . فأنفق أموالاً طائلة ولم تنبجس المياه . والقرية التي حاول انباض المياه في أرضها من أشح القرى بمياهها ، وأرضها صخرية قاسية .

وقال لي انه كان ينوي انشاء مدرسة زراعية مجانية لتعليم أولاد الفلاحين ، وأنه كان ذات يوم إلى نصفه في التراب يحفر والماء لا يجيبه ، وقد اشتد غضبه ، فخاطب المولى تعالى ، وقال له : « أنت مطلع يارب على سريرتي وتعرف أني أقصد بهذا العمل خدمة الفقراء ، فلماذا تضن عليّ بالماء » وهكذا لم يوفق بعد بذله مبالغ عظيمة وجهد دل على همة شماء . والنجاح غير مقدور لكل أحد .

كان خورشيد وهي على جانب من الذكاء والفضل وحب الخير ، وكان من جهة اخرى يأتي اموراً لا تصدر عن أطفال وتنبئ ببساطة زائدة ، كان غيوراً على مصلحة البلد الذي نزله الى أبعد حدود الغيرة ، يشارك في مسائله العامة ، فيرأس مثلاً لجنة مقاطعة الترامواي والكهرباء ، ويبين عن مرونة ومعرفة ودؤوب برغم تقدمه في السن ، يقصد بذلك خدمة المدينة ومحاربة الافرنج الذين يكرههم مع أنه صرف في انكلترا اثني عشرة سنة من أيام حياته وتعلم هناك ، وهو على مناح انكليزية . وبلغني أنه حرم ابنه ارثه وأعطاه لسبطه الدمشقي ذلك لأنه كان يكره زوجته المصرية ويحب الشامية . وكثيراً ما عمل الحب في رجل تزوج اثنتين فأنكر أولاد الأولى واستهام بأولاد الثانية . وقد أشرت اليه غير مرة ألا يحرم ابنه فأبى وتجهم لي قائلاً إن أمه آلمته وآذته . استفدت من عشرة خورشيد بك أشياء كثيرة . ومما قاله لي إنه كانت بينه وبين أحمد عرابي باشا صاحب الثورة المصرية المشهور صداقة متينة في بلدة ذكرها لي فأنسيتها . قال : وكان عرابي برتبة ملازم فكان يختلف اليه رجل انكليزي ويتحدثان في خلوة ساعات ، وبقي الانكليزي على هذه الحالة سنين مع عرابي .

والمصري الرابع الذي عرفته كان فلاحاً في قريتنا ، وكذلك كان أبوه من قبله، عرفته وأنا فتى ، واسمه عبد المجيد المصري استخدمته سنين في مزرعتي مرابعاً ، وكنت آمنه على الانبار والبيدر والعلف والبذار والتبن وعلى السقيا والحرث والكرث ، وأثق به في حساب العملة ومحاسبة الفلاحين وأصحاب المواشي وغيرهم . فكان في غيبتي وحضوري نمطاً واحداً في الاستقامة والتدقيق ، كأن المال ماله ، يعمل كل هذا ولا يمنّ ولا يثرثر ، ولا يقول تعبت وعملت ، كما هي عادة معظم الفلاحين المستخدمين عندنا . وكان صالحاً براً لا يقطع صلاته ، ويتعمد أن يصلي مع الجماعة ، إذا كان في القرية لا في الحقول والغيطان ، وكان يتنفل ويصوم اياماً من السنة فوق الايام المفروضة عليه ،

ويمتاز عن أهل طبقته في القرية بكثير من الصفات التي تكاد تكون مفقودة فيهم وهي الامانة . وكنت إذا أراد عيالي ركوب الدواب من القرية الى دمشق اختاره من بين زملائه عندي لمرافقتهم ، لما كان عليه من التهذيب وقلة الفضول . وبقي الطابع المصري بادياً في سحنته ولا أثر فيه ولا في ابيه للهجة المصرية ، لأنهما سكنا القرية منذ زمن طويل .

والمصري الخامس محمد حمزة المصري الحوذي وهو اليوم في عشر الثمانين وله اتصال بأسرة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقاً وبيت الشيخ المهدى العباسي المشهور ويحفظ لهما قصصاً ، وكان الشيخ بخيت يعطف عليه ويعاونه بمبالغ من المال لا يستهان بها . تزوج بشامية ورزق أولاداً كلهم اليوم « شوام » جاء هذه المدينة منذ خمس وأربعين سنة ، ويتكلم باللهجتين المصرية والشامية على السواء ، والمصرية أشد ظهوراً فيه ، وأكثر خصائصه ماثلة فيه ، يفيض بالكلام في الدقيقة التي أركب في عربته ، حتى لأحاذر بعض الاحيان ان يستهويه الكلام ، فيغفل عن ضبط حصانيه ، أو يفلت اللجام من بين يديه ، فنقع في نهر أو جدول ، أو نصير الى هوة أو منعرج ، يورد علي النكات المستملحة ، ويشفعها بلفتات ليسمعني صوته ، وهو على المقعد الأمامي ، ويرى صورتي وأرى صورته . وحدّث عن سروره إذا ذكرت له أشياء عن مصر الحديثة ، وكم كان سروره لما عرف أني من أصحاب الشيخ بخيت ، وأعرف أشياء عن العباسي ، ويسر جداً أني أقدر النكتة قدرها ، في أكثر مايورد على سمعي . وأظنّ أنه أدرك أني انقبضت لما قصّ عليّ مرة رؤيته في الليل ، وهو يسوق عربته ، أولئك الصالحين في مشهد الاربعين بصالحية دمشق ، وجنازة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وأظن هذه الخيالات وليدة الحشيش في نفس تحب أهل التقوى في أصل فطرتها .

ويشبه مشوارنا إلى القرية كل مرة مشوار صاحبين متحابين أحدهما

راكب والثاني سائق . وحالي معه تذكرني بما كان يقوله لنا أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري : « اذا أردتم ان تنتفعوا بالعوام فلا تظهروا أن بينكم وبينهم فروقاً كثيرة ، بل أوهموهم أن الفرق قليل بينكم وبينهم لا يبلغ أكثر من درجة أو درجتين » . وسائقنا هذا أعامله على ذلك ، فيزيد في الدعاء لي ولأولادي ، وأعامله ايضاً بما تستحقه قريحته وحافظته ويوازي حديثه واكثاره .

ليس لدينا إحصاء يركن اليه لمعرفة عدد المصريين اليوم في سورية ولبنان ، والمقيد عند قنصل مصر في بيروت نحو اربعة آلاف ، على ما كان حدثني بذلك القنصل صديقي محمد بك حامد فيما اذكر ، وأكثرهم يحترفون حرفاً دنيئة . وكان عدد المصريين قبل الاحتلال الانكليزي في الشام كثيراً جداً ، ادركت بقاياهم فكان منهم القراء والمغنون والآلاتية والسواس والسماسرة والمنجمون والمهرجون والطبالون والطباخون والحوذيون والفراشون . وكان جمهورهم يومئذ يهاجر في طلب الرزق ينشدونه من أقرب طرقه ، ويندر فيهم التجار . وتقل هجرة الطبقة العالية هجرة قطعية : وربما كان انقطاع الطبقة الراقية عن الهجرة من مصر منذ دخول القطرين تحت راية الدولة العثمانية . وكان الشاميون والمصريون على عهد المماليك سواء في الجنسية والتابعية . وكانت الجنسية يومئذ جنسية الاسلام الواسعة ، لا هذه الجنسية الضيقة التي نسجنا بها على منوال الغربيين . كان القاضي المصري يعين في الشام ، والشامي يقضي بين الناس في مصر . والعالم المصري يدرّس في مدارس دمشق وحلب والقدس كما يدرّس العالم الشامي في مدارس القاهرة ومدارس الصعيد والوجه البحري .

ولطالما تمنيت لو زاد امتزاج المصري بالشامي اكثر من الآن ، ليعرف احدهما الآخر معرفة اكيدة ، وفي هذا الامتزاج من الفوائد الاقتصادية والاجتماعية ما لا ينكر محله ، وستزيد غداً الحاجة الى هذا التمازج بعد أن نمت نفوس مصر فزادت خمسة اضعاف ما كانت عليـــه قبل ستين سنة ،

وعشرة أضعاف ما كانت قبل مئة سنة ، حتى كادت تضيق بعض أرجائها بسكانها ، وهم يحتاجون إلى مرتزق ، وصناعاتهم تحتاج الى مصرف . وقد تم بعد تحسين الري كل شيء في الأعمال الزراعية او كاد ، وانشأت مصر لها صناعة كصناعات الحرير والصوف والكتان والسجاد والجلود وغيرها . واقرب الاقطار الى تصريفها الديار الشامية (فلسطين وسورية ولبنان) وهي تروج عندنا لعدة اعتبارات حتى ولو فاقتها الصناعات الغربية بمجاودة اسعارها وجمالها احياناً ، والنفاسة غالبة على ماتصنعه المعامل المصرية .

ان الحالة الاقتصادية ستضطر المصري في وقت قريب الى الخروج عن عزلته مهاجراً في طلب الرزق . وها اننا نرى بعض المتعلمين التعليم الابتدائي والوسط والعالي من المصريين متبطلين لا عمل لهم . ومع هذا نرى المصري كالفرنسي لبدأ حتى اليوم لا يحب ان يغادر بلده ، لاعتقاده انها اجمل الاصقاع ، لا يهنأ له عيش في غيرها ، ويغلط بزعمه من يهاجر منها ويهجرها . وأعتقد ان اصحاب الصناعات الحرة في مصر اذا جربوا الهجرة الى الديار الشامية هجرة قطعية او مؤقتة سيحمدون غب هجرتهم . وافضل بادىء بدء ان يكون المهاجرون من الطبقة الممتازة ، فان لهؤلاء في كل أمة وفي كل بلد سلطاناً على النفوس لا يكون مثله أبداً لأرباب الطبقات الأخرى . فقد رأينا ما كان من منافع القنصليات المصرية في بعض عواصم أوربا وأميركا وآسيا ومدنها المشهورة ، وان مصر لتنفق مئات الألوف من الجنيهات مسانهة على وكلائها وقناصلها فتجني بها من الفوائد المادية والمعنوية ما لا يعرفه الا من يحسن تقدير هذه الامور . وكما أن الامة يمثلها أبناء طبقاتها الراقية فكذلك كل أمة لا تعرف كما يجب إلا في ارضها ودیارها

نريد أناساً من الطبقة العالية من اهل مصر يقيمون بيننا على الاقل أكثر ايام السنة ، او يهاجرون الينا مهاجرة قطعية ، يقتنون المزارع ، ويعمرون القصور والدور ، وينشئون المتاجر والمصانع والمخابر ، ويكون لهم من

الصفات التي تألف وتؤلف ، وشخص واحد من أرباب القدوة الحسنة يؤثر مالا تؤثر الجماعة ان كانوا من اخلاط الزمر .

قلت للسيد عبد الرحمن الكواكبي (صاحب ام القرى وطبائع الاستبداد) هل في حلب من الرجال أمثالك كثير ، قال : عشرون رجلاً ، فقلت له : أني اعرف حلب كما اعرف ما في جيبي ، إنها لم تنبغ لعهدنا غيرك ، وما أظنني مها فتشت في أعطافها وأطرافها أجد لك عدلاً في الشهباء ، فضحك ! والمصلحة تقضي علينا الآن ان يهاجر الينا العيار العالي من المصريين لينتفع منا وننتفع منه ، يكون من الطبقة الموقرة المحترمة كما كان ذاك المحامي المصري الذي أقام في طرابلس الشام وقص عليّ شوقي قصته .

التفتيش في الريف

كنت أعنى خلال تولي وزارة المعارف بتفتيش المدارس ، فأخرج لزيارة القريب والبعيد منها ، ومن المدارس ما كنت أزوره كل سنة مرتين ، وذلك لعدم الثقة بتقارير بعض المفتشين ، وقد ثبت أن منهم من كانوا لا يصدُقون فيما يكتبون في سير التعليم ، وسيرة المعلمين والمعلمات والمديرين والمديرات ، ومنهم من كان يكتب تقريره وهو لا يعرف المدارس التي في عمله ، ومنهم من يكتب مقترحاته في مدرسة قبل أن يزورها ، ومنهم من يسخر أحد العارفين بأن يكتب له شيئاً عن معارف عمله ، وكشفت ذلك في مفتش حلبي قضى نحو سنتين في عمالة حماة وحمص ، وكان مقيماً في حمص وهو لا يعرف مدارس حاضرتها فضلاً عن مدارس الريف ، فيتوسل الى أحد العارفين صديقي الدكتور صالح قنباز فيكتب له تقاريره .

أهم ما كان يزعجني في رحلات التفتيش مسألة المبيت في الأعمال النائية عن الحواضر ، فان أرباب النفوذ ومشايخ القرى يتنافسون في ضيافة الكبراء وليس من مصلحة الوزير ، ولا من شرف منصبه ، أن يبيت في بيوت الأهلين ، لئلا تكون عليه منة لأحد ، وتفادياً من أن يستغله المستغلون فيزيد على حسابه نفوذهم ، ويرهق الفلاح المسكين ، وليس هناك دور ضيافة أو فنادق مصغرة أو اناس يرضون بأخذ أجرة عن مبيت المرء وطعامه ومن القرى ما اذا ازمع بعض الأهلين أن يفتحوا بيوتهم لذلك يمنعهم صاحب النفوذ في القرية ، مشكلة ظاهرها اكرام القادمين ، وباطنها استغلال هذا الكرم لحساب بعض الشياطين . ولهذا كنت في حرج من المبيت في الأماكن التي لا فنادق فيها ، والفنادق لا توجد إلا في حواضر معينة . فاما أن أسير المئة والمئتين من الكيلومترات في السيارة حتى أبيت في بلدة

فيها فندق ، وإما أن اثقل على الأهالي أو أجلب سريراً أو سرراً وأنام في دار الحكومة مع رفاقي كما فعلت مرة في حسجة . وإما أن أقبل بالنزول على من لا أحب تناول طعامهم ، ولا النوم في فراشهم ولا ربط صلات معهم .

حدث لي مرة في دير الزور على الفرات أن أويت ومن معي إلى فندق متواضع ، فجاء رئيس البلدية يصيح لا يليق بالوزير أن ينزل في هذا المكان وشدد في أخذي وبالغ ، وأقسم الأيمان المغلظة حتى تركت الفندق إلى داره . وهناك دعا على العادة من أحب أن يدعوه ، فسلبت راحتي ، وتبرمت ببعض من لقيت ، وحجزت حريتي حتى اضطررت إلى الاستئذان للسفر قبل أن اتم مهمتي على ما احب . وفي الرحلة الثانية الى الدير نزلت في خان ، وأوقفت شرطياً على بابه ، وآخر على باب غرفتي يمنعان دخول أحد عليّ ، فجاء رئيس البلدية نفسه ، وأهان الشرطيين حتى قرع عليّ الباب فكلمته وأنا في الفراش متعب جداً بكلام جارح صرفته به عني ، فشكاني الى قائد الموقع الكولونيل غودنز ، فقال لي هذا من الغد في معرض الكلام : كان دفع رئيس البلدية أمس عنك قاسياً ، ولِمَ أبيت قبول دعوته ؟ فقلت له : إنه أحوج صدري ، وحاول أخذي إلى داره بالقوة ، فما هـذا الاكرام البارد ؟ وأحب أن أقول لك الخطة التي سرت عليها طول حياتي وهي أني لا أزيد نفوذ الأعيان ، ولا أعمل على اسقاطهم ، إن نزول الوزير عند هذا الرجل وأمثاله يزيد نفوذه ، وربما حُمل المصروف على الوزير عشرة أضعاف ما كلف ، وقيد على الأهالي الفقراء ، فكيف يليق بمن راتبه عظيم ، وحكومته تدفع له نفقات سفره ، أن يعجز الأهالي ويأكل طعاماً ثمنه من مال الفلاح المسكين ، فاستغرب الكولونيل هـذا الكلام وأشاغلنا بحديث آخر .

وهناك مشاكل في النزول على الفلاحين لا يدركها إلا المجرّب . فان الفلاح إذا أكل عنده صاحب مظهر يقوم في ذهنه أن له أن يعجزه بالدقيق

والجليل من مشاكله مدى العمر ، ومشاكل الناس لا تنتهي ، فكيف يلزم الرجل الذي تناول طعام مضيفه مرة ، وبات عنده ليلة ، أن يكون صاحبه ومحاميه على الأيام . أكلة واحدة تقع على من اصابها غالية جداً لا ينجو من متاعبها ، ولو أطعم صاحبه عشر وجبات ، وأهداه ما يوازي عشرة أضعاف ما صرف . والفلاح يظن لقلة معرفته أن ذلك الضيف العزيز صار بحكم هذا الخبز والملح من جماعته ، وفي وسعه أن يعمل له كل شيء ، ومن واجبه أن يعاونه في الحق والباطل .

وعلى هذا فالرحلة لا تطيب في القاصية إلا إذا صار لكل قرية كبيرة فندق ، أو رضي وجيه القرية أن يتناول أجرة ضيافته . ثم إنا رأينا من أفرطوا في إكرام الضيوف في الريف ، وألزموا بالجري على هذه الطريقة أمسوا بعد مدة فقراء . والزام الكريم نفسه اكرام من يعرف ومن لا يعرف يزيد في نفقاته الى ما لا تحمله حالته فيفلس .

سياستي مع المنتدبين

قامت سياستي مع المنتدبين على الصراحة التي لا أستطيع الخروج منها ولو حاولته ، وعلى صدق العمل وصدق القول ، فكانوا أحياناً يعجبون بما يسمعون مني ، ويصدقونني كما اصدقهم على الأغلب ، ويبالغون باحترامي ورفع مقامي .

جرت بيني وبين المسيو روبردي كه أمين السر العام في المفوضية العليا محادثات ومحاورات اقتضاها وجودي في الخدمة . وكان كثيراً ما يذكر ما لي من صراحة ، ويصارحني بأشياء ما أظن يصارح بها كثيرين . ويخاطبني اذا خلونا بأنفسنا بدون ألقاب وبصيغة المفرد ، مخاطبة الصديق صديقه . وكان قبل أن يتولى منصبه صحافياً . وقلت له مرة ان الصحافة توصل إلى كل شيء ، فقال : هذه كلتي وانا ابو عذرها .

وزارني مرة في المجمع العلمي وغبطني على اقامتي ، وقال لي إنه يتمنى أن يكون مثلي في دائرة صغيرة كدائرتي يتوفر على اصلاحها ، ولا تحب نفسه القيام بأمور لم يخلق لها ، وإن عدت في العرف كبيرة . وكان وقف له على باب المجمع موقف التعظيم ثلة من رجال الشرطة ، يحيونه بصفته وكيل المفوض السامي فقال : لا أحب هذه المظاهر ، وما خلقت لهذه القيود المتعبة ، وسألني مرة لماذا لا ترشح نفسك عضواً للمجلس النيابي ؟ فاني بما أعرف من محبة الأهالي لك ، ينتخبونك للنيابة عنهم ، فقلت له : إني احب تقسيم الأعمال ، وأعتقد النجاح فيه ، فأنا أستطيع أن أدير شؤون المعارف وأرأس المجمع العلمي ، ودخولي في النيابة يخرجني عن خطتي واختصاصي ، وأرى غيري أحق مني بأن يتولى النيابة عن الأمة ، وإذا تعرضت لتوليها تكثر عليّ الأعمال فيبدو ضعفي فيها . فقال : أحسنت

إن من اعتاد مثلك ممارسة القضايا العلمية المقررة يصعب عليه أن يكون بوقاً لغيره ، كأن يرسله حزبه ليدافع عنه في مسألة هو في باطنه يعتقد بطلانها ، فنعما عملت بزهدك في النيابة .

ولما انفصل عن منصبه في سورية ، وأصبح عضواً عن دولته أمام جمعية الأمم الدفاع عن الانتداب في سورية ولبنان ، كان كل سنة يعود إلى ديارنا ليتزود بالمعلومات الجديدة لتقريره السنوي عن الانتداب ، ويقبض الجعل المقرر (مئة ألف فرنك) ، وكان يطلب مني كل مرة أن يتحدث إلي فأذكر له ما كان الأهالي يشكون منه ، ونتكلم بحرية ، كلام اثنين يهمهما نجاح أمر البلاد .

وجاء في بعض السنين يطلب مني الاجتماع به كالعادة فخففت إليه ، وكانت سورية تغلي كالمرجل والاهلون على أحر من الجمر من التسويف في حل قضيتهم ، وقد سئمت تبدل أوضاع الحكم على غير جدوى ، وأشرف الساحل والداخل على الافلاس لما منيا به من بلية التقسيم ، ونكبة النقد المتزلزل الأسعار ، وبما نصب في الحدود من الحواجز الجمركية . وأحببت التوسع في القول مع صاحبي لعلمي بسعة صدره وسمة علمه ، وقلت عسى أن ينقل كلامي إلى من يهمهم الأمر ، فيكون منه بعض النفع لهم ولأمتي خصوصاً وهو يعرف إخلاصي لهم وحبي لمدنيتهم ، وأني لا أغش ولا اخادع وقلت له مرة : مهما أحببتكم فاني أحب هذه الديار أكثر منكم ، وبلادي ومصلحة بلادي أولاً ثم أنتم ومصلحتكم . وقال لي مرة : إن ما أتته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي لا تستطيع أن تأتي مثله في سورية على هـذا العهد .

وتسأل عن تلك الجلسة ، وما دار فيها من الابحاث الخطيرة وما بدر على لساني من آراء قد تضر بمصالحي المادية ، كما قال لي أحد الأصدقاء لما أطلعته على طرف مما دار بيني وبين السيد دي كيه ، ومما قلته له : لا ينجيكم من العنت ، ولا ينجي أرضنا من هذا الخراب السائرة إليه ،

إلا ربط لبنان بسورية ربط اتحاد أو وحدة ، فالساحل يكمل الداخل وكلاهما لا يعيش وحده ، ونحن لسنا متعصبين على ما يصورنا بعض رجال لبنان ، ونحب أن نعيش مع اللبنانيين كما عشنا معهم أجيالاً على قاعدة الحكم الذاتي ، وإذا تعذر عليكم ذلك ، فتنجون من القيل والقال باعادة لبنان إلى ما كان عليه من الحدود في العهد العثماني ، وتعيدون إلى سورية الأصقاع التي ما كانت تعد من لبنان وانتم وسعتم حدوده بضمكم إليه أقضية لا يحب اهلها أن يدخلوا فيه مثل صيدا وصور ومرجعيون وحاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك والحصن وعكار وطرابلس . وطرابلس هذه منفذ سورية الطبيعي الى البحر ، وأهلها من قد رأيتم في المطالبة بالانضمام الى حكومة دمشق . وإذا تم الاتحاد أو الوحدة فتبقى بيروت وشأنها إن لم تحب الدخول معنا . فقال إن طرابلس والحصن وعكار هي أرض لبنانية منذ القديم ، ولا سبيل إلى ضمها إلى سورية . فقلت له : انها ما كانت في دور من أدوار التاريخ معدودة من لبنان ، وما هي إلا قسم من سورية ، وهي سورية جغرافياً وطوبوغرافياً وادارياً . فقال انها ضمت الى لبنان ، منذ اثنتي عشرة سنة فمن ينزعها منه ؟ فقلت له : ينزعها الذي ابتدعها أول مرة وضمها إلى لبنان بجرة قلم ، وما عليه الا أن يجري عليها قلمه مرة أخرى ، فاصفر وجهه لما سمع مني هذا وتأفف وعبس ، وأظهر تململاً ما أولته إلا أنه يود قطع الحديث والاكتفاء بما قلت ، وأن اعجل بالخروج من عنده ، لأن في الباب أناساً يرى أن يستقبلهم ايضاً ، والوقت قصير ، وهو يكتفي مني بما قلت . وغادرت غرفته بعد دقائق وهو أشد ما يكون ضجراً من مجلسي فودعني وداعاً بارداً ما تعودته منه في الأيام الماضية .

وعاد في السنة التالية ، وكأنه ادرك ما بدر منه في العام الماضي ، وأني ربما كنت متأثراً من معاملته لي على ما بيننا من صداقة . فتوسط للاجتماع به صديقي المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية العليا ، وهذا كتب الى المسيو كوله مستشار معارف سورية فأبلغني صديقي هذا رجاء المسيو

بونور بالاجتماع الى المسيو روبر دي كيه ، وقوله إني من اصدقائه ، فقلت له : تفضل وأبلغ المسيو بونور أني ولا شك صديق المسيو دي كيه كما قال، ولكن امتي صديقتي أكثر منه ، رأيته في السنة الفائتة قد استثقل كلامي ، وود لو أقطع سلسلة حديث كنت أراه نافعاً لانقاذ سورية من محنتها ، إنك ياصاح تعرف حق المعرفة أني من أنصار الوحدة السورية ، وقد كتبت هذا في بعض كتبي الأخيرة ، وقلته جهرة ودعوت إليه في الملأ ، وما خفت ولا جبنت من التصريح في كل فرصة وفي كل مجلس بهذا الرأي ، ولما ذكرت له الوحدة في آخر جلسة لي معه امتعض من قولي وتبرم به وتمنى لو وجد سبيلاً ليخرجني من غرفته قبل أن أنجز حديثي الذي طلبه مني ، وتجاهل أن من طبعي ألا أقول إلا ما أعرف لا انافق ، لذلك عزمت ألا ألقاه بعدها . أما تقريره السنوي فيضعه ويعرضه على جمعية الأمم اجتمع بي أم لم يجتمع ، ما دام عنده مثل صاحبه (فلان) يعتمد عليه ويحبه ، وربما كان في نظره أعظم رجل في سورية ، ومن كان عنده مثل هذا الصديق المتفاني في حبكم لا يحتاج كثيراً إلى مثلي . وأبيت ان أجتمع به ، وانقطع هو في السنين التالية عن طلب الاجتماع ، وحرمني قول الحق صداقة عظيم مثله . قبح الله السياسة .

زار دمشق السيد برونه أحد نواب فرنسا وابن عم صديقي المستشرق أرنوركي ، يحمل لي سلاماً من صهره وقد طلب إليه يوم يوافي دمشق أن يجتمع إليّ ويخبره بحالي وصحتي وصحة أولادي ، وكان يعرف بعضهم وهم صغار ، فاجتمعنا ساعة ، وتذاكرنا في امور كثيرة ، ومما قلته له إن (ش) (أحد كبار موظفيهم عندنا) قد ترك المجال لزوجته تستلم هدايا المهدين ، حتى صار لها من الحلي والجواهر مالو عزمت أن تضعه على أطرافها دفعة واحدة ما استطاعت أن تنهض به لكثرته ، وعندكم رجال أفضل من هذه الطبقة التي تبعثون بها إلينا ، فهلا رميتم غيرنا بجماعة المستعمرات

وخصصتمونا برجال يأتون من طريق فرنسا لا من طريق مستعمراتكم ، وما هي إلا أيام حتى نقل المشكو منه إلى مقاطعة اخرى وبقي فيها سنين ، وبقيت زوجته بالطبع على طبيعتها ، تستهدي المجوهرات وغيرها ، وباسم الله وما شاء الله .

وأعاضونا عن هذا العامل بعامل مثله أو أحط منه (ف) وكان هذا أسرق من فأر الحبس ، وذا نفس وضيعة ، حتى رضي أن يدفع عنه رئيس الدولة اجور مبيته وثمن طعامه في الفندق أعواماً . هذا ودولته تعطيه راتباً جيداً يمكن أن يعيش به عيشة راضية ويقتصد منه لمستقبله . وقلت لأحد أصحابي منهم إن وجود مثل هذا الموظف عار وشنار ، إنه لا يمثل نفسه ، بل يمثل دولة عظيمة ، فكيف يليق أن يسف هذا الاسفاف . وما أقيل هذا العامل إلا بعد مدة طويلة ، ومن غريب الاتفاق أن معظم أهل الاستقامة من عمالهم لم يمكثوا في ربوعنا طويلاً ليراعوا المصلحتين مصلحة أمتهم ومصلحتنا ، وكان من كثير من المنحطين بأخلاقهم أن قضوا معظم خدمتهم عندنا ، وحرمنا طبقة مختارة متمرنة على ادارة الشؤون .

زار دمشق نائب باريز المسيو سوليه ، وفي السنة التالية زرت باريز فأتى إلى الفندق يزورني واقترح عليّ أن أزور المسيو بيرار وزير معارف فرنسا ، قائلاً إن من باب اللياقة أن يزور وزير معارف سورية وزير معارف فرنسا ، فأجبت مقترحه ، وضرب لنا الوزير موعداً ، فزرته في مكتبه الرسمي ، وتحدثنا في أحوال سورية ، ومما سألنيه : هل أنتم تتكلمون بالسريانية هناك ؟ فقلت له : كنا نتكلم بها من نحو ألفي سنة واليوم نتكلم بالعربية ، ولم يبق من مواطنينا من يتكلم بسريانية محرفة إلا ثلاث قرى في شمالي دمشق ، فتعجب من ذلك ، وقال : ما هكذا قرأنا في صبانا . فقلت له : الظاهر أن الكتب التي اعتمدتم عليها كانت من طبعات قديمة صححت أغلاطها في الطبعات الحديثة ! وسألني إذا كنا كلنا نصارى ، فأجبته :

فينا النصارى وفينا المسلمون ، والسواد الأعظم من أهل الاسلام ، والمذاهب كثيرة عندنا لا تقل عن عشرين مذهباً ، فقال : وهذا لم أكن أعرفه . فقلت له : ربما كانت معلوماتكم مأخوذة عن مصادر قديمة غير موثوق بها .

وانصرفت من عنده متعجباً — وأظن النائب سوليه كان يعجب أيضاً — من أن يكون وزير المعارف ، في أرض العلم والمعارف ، في هذه الدرجة من المعارف . وقلت في سرّي كم رفعت السياسة اناساً إلى الرتب العليا وهم في حقيقتهم غير أهل لها .

عرف القارئ العزيز مبلغ وزير معارف فرنسا من العلم ، ومع انه ليس بالكاتب ولا بالشاعر ولا بالأديب ، ولا ألّف حياته كتاباً ، ولا نمّق خطاباً ، انتخب عضواً في المجمع العلمي الباريزي ، والاسباب الموجبة التي أوردوها لتشريفه هذا أنه كان تذرع أيام وزارته باعادة الثقافة القديمة إلى المدارس الثانوية Les humanités ، أي أن يعود الفرنسيون إلى درس اللاتينية واليونانية يصرفون فيهما أعواماً طويلة ، فما وافق مجلس النواب على هذا الاقتراح القليل الثمرة ، الكثير العنت والتعب ، وهو مشروع يؤخر فرنسا خمساً وسبعين سنة إلى الوراء كما قالت مجلة (الأخبار الادبية) Les Nouvelles littéraires وقال المجمع الذي ضمه إليه : إن مجرد تشبث السيد بيرار بفكرة الثقافة القديمة كاف لأن يؤهله لعضوية الأكاديميا ، قلت لما قرأت هذا : ولا عجب فالمجمع العلمي في باريز يعيش في العصر العشرين بعقلية ابن العصر السابع عشر يوم أنشأه منشئوه .

قلت لأحد رجال الانتداب : إني يا صاح مصرح لك بما يصعب على المتطرفين هنا أن يصرحوا به من أعمال دولتكم في ربوعنا ، وفي الخلائق من يقلبون أعيان الحقائق إذا غضبوا على شخص أو جماعة ، أو اختلفوا وإياه في مسألة أو مسائل . وأنا جدّ عارف بما كانت ديارنا عليه في العهد التركي ، وما صارت اليه في عهد الانتداب . إنكم وطدتم الأمن ، ونظمتم

الدرك بنظامكم البديع ، حتى صار خيراً كله ، وكان على عهد العثمانيين شراً كله وأنقذتم الفلاح من السخرة التي عاش فيها زماناً ووقيتموه من ظلم المستبدين ما أمكن ، حتى ليقاضي أصغر فلاح أعظم وجيه ، وتحكم المحكمة على هذا إن كان مبطلاً ، ويصل الفلاح الضعيف الى حقه . ولقد خففتم عنه الضرائب ، ونظرتم في صحته فأقمتم له المستشفيات والمستوصفات يطب فيها مجاناً . وكوفحت الملاريا والأمراض الوافدة ، وجففتم بعض المياه الراكدة والمجاري الضارة ، وعبدتم من الطرق مئات من الكيلومترات ، حتى سهل السفر من أقصى حدود مملكتنا الى أقصاها ، وتيسر التنقل في الأودية والسهول والحزون والجبال ، وعمرتم خزان حمص وجسر الفرات وعشرات من المعابر والجسور ، ربطت الأطراف بعضها إلى بعض ، وأنشأتم مدارس كثيرة ، ونشرتم التعليم بقدر ما ساعدت الحال ، وشيدتم بعض دور الحكومة وأنشأتم غير ذلك من المصانع ، وأصلحتم الادارة والقضاء ، إلى آخر ما قمتم به من الأعمال النافعة ، وهي في نظري عظيمة إذا قيست بالخراب الذي كان عليه هذا القطر في العصر العثماني .

ولكن قل لي بأبيك ماذا عملتم للزراعة حياة هذه الأرض ومورد ثروتها الوحيد ؟ فصمت قليلاً وقال : لا شيء ، وملاحظتك في محلها . فقلت له : وهذا أغتفره أيضاً واعتذر عنكم عذراً مقبولاً ، وأظن عذركم قلة المال وامتناع الشركات عن توظيف أموالها في اصقاع لم تستقر حتى الآن حالتها السياسية ، وذلك عملاً أيضاً برأي المسيو آشار مستشار الزراعة ، ومن رأيه أن الزراعة الصغيرة أنفع لسورية والسوريين من الزراعات الكبيرة ، وكان يفضل أن يشتغل الأهالي وحدهم ، ولو على صورة يبدو الضعف عليها بادئ بدء ، على أن تكون زراعتهم وصناعاتهم الزراعية في أيدي شركات تستثمر كل شيء لنفسها .

قلت له : إني أغضي عن هذا التقصير أيضاً وما زلت أقول إن كل شيء صدر منكم يمكن الجواب عليه ولو جواباً ضعيفاً ، وأمر واحد لا يجاب

عليه وسياستكم اقتضته ، وقد أضر بنا كثيراً ، وأعني به تقسيم سورية إلى دول ، وانتم ترونها إذا أنصفتم لا يتألف منها مع فلسطين وشرقي الأردن أكثر من دولة صغيرة ، وقد حركتم عرق الطائفية في النفوس فأذكيتم جذوة التعصب الديني بين أبناء الوطن ، فزادوا تباغضاً وهم أحوج ما يكونون إلى أن يتحابوا ، وزدتموهم تباعداً عن السواد الأعظم من السكان ، ومصلحتهم في التقارب والتفاهم واعتمدتم على غير المسلمين في دواوينكم فبرهنتم على تحزب لا ينطبق مع الاصول التي عرفت عنكم .

كنت في دعوة رئيس الوزراء ، وكان الى جانبي الكولونيل ترا كول مدير استخبارات الشرق ، فأردت أن أفتح معه حديثاً ، فسألته عن سير الثورة في فلسطين (الثورة التي نشبت قبل الثورة الاخيرة) فقال لي : لا شيء ، فقلت له : إن جيشاً منظماً يقضي بالطبيعة على ثورة يقوم بها شعب أعزل في أيام قليلة ، فقال : أنتم ماذا تعملون هنا ؟ فقلت له لا بد أنك شاهد ما نصنع قال : أتحب أن اصدقك ؟ لو كنت مكانكم أمس وجاء هؤلاء المتظاهرون الى دار الحكومة يهتفون لاستقلال فلسطين ، لأخذت منهم عشرين رجلاً وصلبتهم . فقلت له : ولماذا تقتلهم وهم طالبوا مطالبة سلمية فقط ؟ فأطل عليهم رئيس الوزراء من الشرفة وحياهم وقال لهم : سأسعى لمعاونتكم على طلبكم . فماذا حدث من ضرر في ذلك ؟ ثم إنا لسنا هنا كجمال باشا في عهد الحرب العامة جئنا لنقتل الخلق فمن يستحق القتل يقتله القانون ، فقال : أقول لك الحق ، المسلمون بهائم . فاضطربت لهذا النعت الذي نعت به المسلمين . وأحببت أن أضعفّ له تهوره هذا ، فقلت له : أظنك تعني مسلمي فلسطين . قال : لا جميع المسلمين بهائم Tous les musulmans sont bêtes فزاد غضبي وقرأه في وجهي ، فأحب أن يسترضيني ، وكان أمامه كأس من الشمبانيا تناوله وقدمه الي فامتنعت من أخذه وقلت له : أظنك نسيت أني مسلم ومسلم قائم بما فرض الاسلام علي ، وهذا الخمر محظور في ديني ، فسكت وسكت .

ولما انتهى المدعوون من طعامهم وانصرفوا ، ذكرت لرئيس الوزراء ما فاه به مدير الاستخبارات ، وكان الرئيس يحاذر منه ، لأنه يريد به الشر ويبغضه ، وقلت له : هذا ما وقع ، فالرجل اذا لم يحضر غداً الى مكتبي ويعتذر مني ومن الحكومة رسمياً عما جرحني وجرح امتي به بهذا الكلام الجاف ، فأنا مستقيل بعد غدٍ من الوزارة فأصبح من أفراد الامة ، وأنشر هذه القضية في الملاء في نشرتين بالعربية والفرنسية . ومما قلته إن حكم هذا الرجل حكمه الجائر على أمة عظيمة لا أرضى مثله أن يقوله لي ، فالمسلمون فيهم رجال كالاوربيين بعلمهم واخلاقهم ، وأي سخافة أن يحكم على ثلاثمائة مليون من الشعوب المختلفة حكمه هذا . أنا إذا قلت للمسلمين أنتم بهائم قد يقبلون مني اعظم من قولي لصدوره عن حب لهم يراد به حضهم على الأخذ بأسباب الترقي ، أما ان اسمعها من فم تراكول فلا .

فأبلغ رئيس الوزراء ما جرى وما قلت ، وعرف كيف يستغل الحادث فجاء مستشار الداخليـة المسيو فوكنو من الغد إلى غرفة رئيس الوزراء ودعاني فسألني المستشار عن القصة ، فقصصتها عليه كما وقعت فقال المستشار : اما كان تراكول سكران ؟ فقلت له : لا . وبعد انصراف المستشار تقدمت إلى رئيس الوزارة وقلت له : استرحت من تراكول ، فهو سينحى . فاستبعد ذلك وقلت له : سترى ، وما مضى عشرون يوماً حتى عين الكولونيل الذي ازعجني بكلامه السخيف قائداً على فرقة في الجزيرة ، فجاء يودع رجال الحكومة ، وودعني في الجملة ، فلما صار في الباب قال لي وزير المالية السيد توفيق شامية إنه يحبك كثيراً . قلت : هو فانٍ في حبي وانا ايضاً فانٍ في حبه ، وكانت تنحية تراكول بفضل المسيو بونسو المفوض السامي وكان من اعقل من تولوا هذا المنصب في عهد الانتداب .

ضقت ذرعاً بمستشار المعارف المسيو راجي ، وكان يتدخل في كل الأمور ، اعتاد ذلك من أيام سلفي وزير المعارف السابق الذي هان عليه أن يكون بيد المستشار كالميت بيد الغاسل . فكان راجي يفاوض المدارس

مباشرة ، ويراسل ارباب المعامل في فرنسا ليبتاع منها للوزارة الادوات والآلات والكتب والورق وغير ذلك ، ومن اهم ما افتضح به امره تدخله في اضراب طلبة الجامعة عندما اردت انقاص موازنتها لأخذ الزائد لانشاء مدارس في القرى ، وهو الذي أهاجهم فهاجوا ، ثم دعاهم الى السكون فسكنوا . فكتبت كتاباً خاصاً الى المسيو بونسو المفوض السامي ، أذكر هذه المسائل ، واقول إن مثل هذا الرجل يضر بسمعة دولته ، وأنتم إنما جئتمونا لترشدونا وتعلمونا ، ومصلحتكم تقوم بمستشارين ينفعون ولا يضرون .

وافتتحت الكتاب (٢٨ كانون الاول ١٩٢٩) بما تعريبه : تفضلوا فاسمحوا ان ألفت نظركم العالي الى امر يهم فرنسا ويهم سورية على السواء وان أعرب لكم عن رغبتي الصادقة في ان ارى العلائق منسجمة كل الانسجام بين الدولة المنتدبة وحكومة بلادي ، وتقوم علائق الود بين البلدين بعدة امور لا اذكر الا واحداً منها واعني به نشر الثقافة الفرنسية والسورية ولا تنتج هذه النتيجة الحسنة الا اذا كان من يمثل هذه الثقافة الفرنسية العليا في سورية متحلياً بصفات عالية وعلى سيرة حسنة ذلك لان بيده احياء العلم الفرنسي والعمل على الجمع بين الامتين بجامعة الفكر والثقافة . وليت شعري هل يقوم من عهد اليه القيام بهذه المهمة بامانة واخلاص . اما انا وأشك في امره كثيراً . ان سلوك مستشار المعارف خلال السنين الاخيرة يدعو السوريين الى الشك في حسن نية الدولة المنتدبة فهو لا يضرُّ بسورية فقط بل يتناول ضرره الى اسوأ من ذلك هو يسود اسم الفرنسي في سورية واليكم باختصار ما قدمت يداه . وهنا اوردت عشر مسائل اساء فيها المستشار الاستعمال فثبت عليه بالتحقيق سوء عمله ولما ارسلت الكتاب في البريد اخذت مسودته وتلوت ترجمتها على رئيس الوزراء فقال : ولماذا لم تفاتحني بالامر قبل ان قمت بما قمت به ؟ فقلت له : لأني تألمت نفسي لما أهاج رئيس الجامعة بالاتفاق مع المستشار جمهور الطلبة احتجاجاً علي ، فحاولت ان اكتب في الصحف حقيقة المسألة ، او ان ادلي بحديث لاحد محرريها ،

فأبيت علي ذلك ، ورأيت انك عاونت مدير الجامعة اكثر مما عاونتني ، وانت تعرف اني على حق وهو مبطل ، فوقع في نفسي ان اشكو المستشار مباشرة ثم اعرض عليك ما تم ، فقال : اما والامر كذلك فلا يسعني إلا ان امشي معك ، ولعله كان يعرف ان المستشار يعمل مع السيد جميل مردم بك ، بواسطة ترجمانه ، على إقالة الوزارة ليتولى الحكم ، فرأى ذلك خير وسيلة للخلاص منه .

وكان من اثر كتابي للمفوض السامي ان وقع التحقيق عن المستشار فثبتت صحة اقوالي فيه ، واقيل من منصبه بعد نحو عشرة ايام . وكان ذلك بفضل المسيو بونسو . ولم يعهد فيما علمت ان اقيل مستشار في سورية ولبنان في عهد الانتداب من اجل خلاف مع وزير . وربما كان كل من تولوا الوزارات الين عريكة مني فسددوا وقاربوا واتفقوا مع مستشاريهم ، ولو كان الاتفاق على مضض ، وأنا غالبت مستشاري فغلبته ، ولجأت الى الطرق القانونية في شكواي منه ، وذلك بعد ان اغضبني مرات واغضبته ، وهذا أيضاً من فضل المسيو بونسو العاقل الذي لا يفر ممن يكلمه بالمعقول .

جاءني المسيو راجي مستشار المعارف بموازنة الجامعة السورية ، وكان من اعظم المنتدبين عطفاً عليها وعلى رئيسها للصداقة بينهما . وكان هذا يهديه في كل فرصة هدية عظيمة يستديم بها صداقته وحمايته للجامعة — ورجاني أن اصادق عليها بسرعة فألقيتها في القمطر ، وجاء بعد يومين يطلبها ، فقلت له : إني لم انظر فيها ، وبعد تسويف ما طال اكثر من اسبوعين ، وهو يراجعني بالحاح ، مللت منه فنظرت فيها فاذا هي تحمل في مطاويها اسرافاً عظيماً ما توقعت ان ارى غيره ، وفي الامكان أن يقتصد منه خمسة وسبعون الف ليرة ولما عدت واجتمعت بالمستشار قلت هذه الميزانية عمل الخرق والاسراف فيها ظاهر فقال : أنا الذي نظمتها ، فقلت : ولو كنت أنت ، فغضب وأظنني في ذلك اليوم قلت له : أرى أنك لم تطلع على ترجمة حياتي : فقال : وكيف لا . قلت : إني على ثقة أنك لاتعرف دقائقها . اعرف ياصاح أني مازلت منذ

خرجت الى معترك الحياة احارب الظالمين والمرتشين والسارقين من الموظفين ، وقد كتبت ذلك في كتبي وفي الجرائد والمجلات التي حررتها أو آزرت بها ، ودعوت الى اسقاطهم جهرة في المجالس والمجتمعات ، وتحملت في سبيل دعوتي كل اذى وأقيمت علي القضايا ، وابتليت باشد البلايا ، وليس من نيتي الآن أن اناقض نفسي ، فأعمـل في آخر أيامي ما يخالف ما عملته ودعوت اليه في أولها ووسطها . ليس عندي صندوق أدفع منه الهدايا لمن أحاول استمالة قلبه ، أنا صحيفتي بيضاء ، وجبيني ناصع ، وأجري على بصيرة ، ولا أخاف أحداً إلا ضميري . فلما ذكرت لفظة (الهدايا) احمرت اذنه الواحدة ، حتى صار لونها احمر ادكن ، وأخذت تضطرب كرقاص الساعة . فتركني بدون ان يسلم عليّ وخرج مغاضباً ، وراح من ساعته يشكوني الى حاميه المندوب . ومن الغد كلم المندوب رئيس الوزراء ، ونقل له ما قلته للمستشار ، فقال : إنه لم يبلغه ما جرى ، وماذا يقول لي وانا ثقافتي افرنسية وعن الفرنسيين أخذت . فقال له المندوب : صحيح هذا ، وانا اجتمعت معه مرتين ، فرأيته حسن المأتى ، لطيف العشرة ، وما عرفت السر في ان يَبْدَهَ المستشار بمثل هذا الكلام القاسي . فقال الرئيس لا بد ان يكون المستشار فاه باشياء اغضبت الوزير ، فأجابه هذا الجواب ، وانتهى الأمر عند هـــذا الحد ، وما صادقت على الموازنة او ترفع منها الزوائد ، فاضطر رئيس الوزراء لاقرارها حسماً للنزاع وارضاء للمندوب ، ولأنه لا يحب ان يغضبه من اجل مبلغ زائد في ميزانية الجامعة .

وكثيراً ما كنت اطرح في القمطر اوراقاً يبعثها المستشار ان ابادر للمصادقة عليها ، لعلمي بأن فيها اشياء لا يرتاح لاقرارها قلبي ، وتنطوي على اسرار صعب كشف غامضها . واذكر اني حققت مرة سيرة إحدى معلمات دمشق فثبت لي ان في سلوكها بعض الهدة ، واحببت نقلها إلى مكان قريب ، فراحت إلى وكيل المندوب وترضته فكلم رئيس الوزراء بشأنها ، فرجاني هذا ان اصرف النظر عن ابعادها ، كما التمس مني المستشار ذلك واكثر

عليّ الشفاعة بها ، فضجرت وخرجت عن اعتدالي وقلت له : ابلغ سعادة وكيل المندوب ان وزارتهم لا تساوي في نظري شيئاً ، كيف تحمون معلمة ثبت بتحقيقات الشرطة وغيرها انها سيئة السيرة ، وتردون كلام وزير احب ان يطفئ مسألة قذرة بابعاد المعلمة عن المركز ، وكان الواجب طردها من سلك التعليم بدون توقف ، واكدت عليه ان ينقل كلامي هذا إلى الوكيل ، وفهم اني فهمت ما جرى ،

ومثل هذه المسائل كانت تؤلمني كل الألم ولطالما هممت بالاستقالة لولا ان كان يحول دون امضاء ما ارغب فيه صديقاي الاستاذان مصطفى تمر وشفيق جبري ، وكانا من اعظم رجال الوزارة ويدي اليمنى فيها ، فأرجع عما قصدت حباً بالمصلحة ، وكان الخير في هذا التصبر والصبر ، لأن المستشار اقيل بعد مدة ، وتفرغت للعمل على ما احب بدون عائق حتى آخر ايام الوزارة .

المشهور عن الفرنسيين انهم كالمصريين اضعف الامم في معرفة الجغرافيا ، وقد لا يحسن المتعلم منهم جغرافية بلاده دع غيرها . وكثيراً ما وقع لي ان تحدثت في فرنسا إلى بعض اهل الطبقة المتوسطة فكانوا يستغربون ما اقصه عليهم من أحوال الديار الشامية ولا يعرفون اين هي من معمورات البلدان ، وكنت اراهم اجهل ناس بأمم الشرق عامة والمسلمين خاصة ، ورأيت بعض المنورين منهم في عهد الانتداب في الشام حاولوا في دائرة اختصاصهم ان يدرسوا ، فأتى بعضهم بنتائج حسنة ، ودونوا كتباً من ذلك في الآثار والاقتصاد والعاديّات ، تألفت منها مجموعة والتعمق في مدوناتهم يقل ، ويفوقهم الانكليز السكسونيون في ذلك

كان بعض من ألقاهم في السفر والحضر إذا سألوني عن أشياء وأخبرتهم بما أعلم ، يظنون أني اتزود فيما أروي ، وأستملي من خيالي معظم أقوالي ورأيت بعض الاوربيين يعتقدون أننا سود البشرة كالزنوج — والاتراك لفرط ادبهم يطلقون على الكلب الاسود اسم (عرب) لأنه أسود كالعربي

بزعمهم — ومن الغربيين من يعتقد أن أهل سورية يأكلون البشر ، ومن يرحل منهم إلى سورية يعدونه كالذاهب إلى أرض واق الواق ، فاذا عاد إلى أهله سالماً هنأه أصحابه تهنئة من دخل منطقة الخطر وخرج سالماً .

كنت مرة في لوزان نازلاً في منزل كان فيه معي سيدات وسادة من ألمانيا وفرنسا وانكلترا ، فجرّ الحديث على المائدة إلى الكلام على الاسلام ، وأوردوا عليّ المطاعن التي وجهت إليه ، فكنت افندهـا ولا سيما مسائل الزواج وتعدد الزوجات وابين فيها حقيقة الدين ، واترجم لهم بعض آيات الكتاب العزيز ، وأورد لهم شواهد من التاريخ والاحوال الحاضرة ، فيعجبون من هذا التباين بين ما يسمعونه مني وما يروونه عن غيري . ودام هذا الحوار عدة ليالٍ ، فكان معارفي هؤلاء يستغربون أقوالي ، ويتلطفون فيقولون إنهم لا يشكون في صدقي ، فمن أين جاء هذا التناقض إذاً ؟ فكنت أقول لهم إن ما قرأتموه هو مما كتبه رهبان العصور الوسطى ، وما زلتم تتناقلونه إلى اليوم حقائق مسلمة ، وما هو إلا مما أملاه التعصب الذميم ، ومن مصلحة الرهبان ألا يقولوا غير هـذا ، وألا يشيعوا غير سوء القالة عن الاسلام والمسلمين . وبهـذا علمت علم اليقين أنه رسمت للاسلام وأهله صورة قبيحة جداً في قلب كل غربي ، وأن العرب والمسلمين عامة مقصرون في هذا الباب ، وكان عليهم أن يعمدوا إلى التعريف بأنفسهم وبدينهم وتاريخهم ، كما تفعل أصغر الأمم شأناً . وكثيراً ما اشتهيت لو انشئت مجلة باللغة الفرنسية والانكليزية ، تبين حقائق الاسلام والعرب ، وتصحح ما جاء ويجيء في الكتب الافرنجية من الأغلاط ، وما يتسرب كل يوم من الهفوات الفاحشة إلى ما ينشر في الصحف والمجلات .

وقد انتبه إلى ذلك حكيم عظيم من حكماء فرنسا هو غستـاف لبون فارتأى أن يعاد النظر في كل ما يدرس من مادة التاريخ في مدارس فرنسا ، ولا سيما تاريخ العرب والاسلام ، حتى لا يتعلم أبناؤها تاريخاً محرفاً مكذوباً

وقال مرة : إن مدنية فرنسا مدينة بأمور كثيرة للعرب وأن الفرنسيين لا يشيرون إلى ذلك إذ يعد بعضهم الاعتراف به مما يتنافى مع حب الوطن والوطنية .

كانت الكتلة الوطنية ، في آخر ايام وزارتي الاخيرة ، كثيراً ما تهيج الطلبة وتحملهم على الاضراب والاستخفاف بالمدارس وقوانينها واساتذتها ومديريها ، فكنت انصح سراً لبعض اصحابي منهم ، وارجوهم ان يتركوا الطلبة في دروسهم حتى لا يشتغلوا بما يصدهم عنها ، فيخسرون انفسهم ، ويخسرهم اهلهم ووطنهم . واضربت مرة مدرسة تجهيز دمشق وتجهيز حلب ، وجرت فيها امور تعبث بالنظام ، فجاءني الى داري ترجمان المستشار ، ومعه كتاب كتب على الآلة الكاتبة ، مفاده صدور امري باغلاق تجهيز دمشق الى اجل غير مسمى ، فاخذت الكتاب واستدعيت المستشار فقال : لا بد من الاغلاق . فقلت له : إن في اغلاق المدرسة تحدياً للطلبة ، وقد تسري دعوتهم الى سائر المدارس ولا سيما الابتدائية ، فنقع في مأزق اصعب . فأصر على تنفيذ الاغلاق ، وقال إن المندوب يرى ذلك ، فاجتمعت بالمندوب وقلت له : إنا بذلك نزيد النار اشتعالاً ، وليسمح لي سعادة المندوب ، وكان المسيو سولومياك ، وهو من خير المندوبين في دمشق يشبه الكولونيل كاترو والمسيو لا فاستر بحزمه وحسن ادارته وعفة نفسه — ان اقول له إني اعرف روح البلد واوقن ان العنف في هذه الاحوال لا يجدي شيئاً وانا وإن كانت الامور السياسية من شأن المندوب ، ارى هذه المسألة مسألة ادارية ، وللوزير ان يتكفل بحلها . فقال : هل تتحمل انت تبعة عدم الاغلاق ، فقلت له : نعم أتحمله ، اتركني اعمل وحدي . فاستدعيت من الغد اساتذة مدرسة التجهيز وقلت لهم إن النية اغلاق المدرسة وإذا اغلقت لا يعلم متى تفتح ، وأبنت لهم ما ينتج من الضرر من ذلك للطلبة ولهم ، بقطع رواتبهم مدة التعطيل ، وأوعزت اليهم ان يتطوعوا كلهم لاعادة الطلبة الى الدروس ، ومن الغد كانت الصفوف تامة وشكرني وقال : حقيقة إنكم تعرفون اهل بلدكم .

أما مدرسة حلب فان مستشار معارفها رأى طرد ثمانين طالباً منهـا ، فاستدعيته الى دمشق واستدعيت معه مستشار المفوضية المسيو بونور وغيرهم وقلت : إني غير مستعد لأن أطرد أحداً ، لأني بطردي ثمانين طالباً أقضي على مستقبلهم ، وأدعو أهل حلب أن يثوروا على الحكومـة ، فما أحب أن تنشب ثورة في الشهباء ولا في غير الشهباء ، فسرّ مستشار المفوضيـة من كلامي ، وكان يعرف مثلي أن مستشار حلب غير أهل لمنصبه وان رأيه هذا من الآراء « الخنفشارية » فلما صدر مني رفض الاغـلاق تهلل وجهه كثيراً . وأذكر أني لم أسمح إلا بطرد طالب واحد طرداً موقتاً ، وعادت المدرسة الى الانتظام في سيرها .

ومن الغريب ان هؤلاء الطلبة المساكين الذين كانوا يحملونهم على مخالفة النظـام ، ويباعـدون بينهم وبين دروسهم ، ويعلمونهم التهجم على أساتذتهم ، عادوا فانقلبوا على الكتلة نفسها لما تولت الحكم ، وكانت لهم يد في زحزحتهم عن كراسيهم ، واهانوا بعض زعمائهم . وهذا ما كنت احاذر منه ولطالما قلت لبعض اعيان الكتلة : إنه لا ثقـة بصداقة العوام لأنهم لا يستحون من نفض ايديهم من ايديكم يوم تنقطع فائدتهم المادية منكم ، وكذلك الأولاد فان افـكارهم غير مستقرة ، فليست مظاهرتهم قوة لـكم . وحكومة تستند الى مثل هذه الركائز محكوم عليها بالانهيار ، فحققت الأيام قولي .

الحّ عليّ رئيس الوزراء بتعيين معلمة افرنسية في ميتم الاناث ، وما كان لها راتب في موازنة هذه الدار . ولم تجر عادتنا في المدارس الابتدائيـة أن نعين معلمات من غير الوطنيات . ورأيت المستشار يتشدد في رفضها ، ويشير الى ان سيرتها غير حسنة ، والرئيس يزيد الحاحاً حتى اضطرني الى ان اقول له إنه لا ينجح في مساعيه ، وان من الخير له أن يصرف النظر عن تعيينها ففعل ، وبعد أن كاد أحـدنا يغضب الآخر ، وقلت له ما قاله المستشار : هل يرضيكم ان تكون معلمة يتيماتكم سيئة السيرة ، وعرفت سر

التعيين من كلام المستشار فأغضيت وتغافلت (وأنفك منك ، وإن كان اجدع) .

جاءني المستشار كوله يريد عزل المسيو بورين مدير الدروس الفرنسية في تجهيز حلب . وكنت أعرف أن امرأته كتبت مقالات في جريدة (لا سيري) الصادرة في بيروت غضب منها بعض الفرنسيين في الشهباء ، فأحبوا الانتقام منها بطرد زوجها من وظيفته . وكانت حجتهم لاقالته أنه لا يحسن التعليم ، وان الطلاب يشكون منه ، فقلت للمستشار إن تعيين الموظفين الفرنسيين هو من خصائصكم ، وإن كان الموظف عندنا من ابنائكم يعد سورياً في العرف ، لأن راتبه من خزانتنا ، ولا يعين إلا بتوقيعنا وأنا لا اريد ان اقيل هذا الاستاذ لأسباب منها اني عرفته ينفع الطلاب ، وسمعته مرتين في قاعة التدريس يدرس تدريساً حسناً ، وقد اخذ عنه كثيرون من ابناء حلب لغتكم ، وما سمعت شكوى منه ، فاذا كان على ما يزعمون من ضعف ، فما بالهم سكتوا عنه ثماني سنوات ، وهو في الخدمة ، ولِمَ لم تعرف عيوبه إلى اليوم ، ثم إن الرجل مصاب بمرض القلب ، إذا اقلته يتأثر فيهلك حالاً ، ولست مستعداً لأن اقتل استاذاً إرضاء لخاطر من غضب عليه . وانا اعرف « يا سيد » ان هذا الانتقام موجه إلى امرأة الرجل في شخصه الضعيف ، فان كان لهم ما يقال معها فليحاسبوها على ما كتبت ، وهذه المحاكم مفتحة الأبواب لهم .

وناقشني المستشار مناقشة طويلة ، فأصررت على رأيي ، وكنت ارد عليه بلطف ، لأنه كان لطيفاً ، وما استطاع ان يزحزح الاستاذ الفرنسي عن مقره ، وعجب من التزامي له . ولما نجوت من جعل وزارة المعارف آلة انتقام من رجل شريف من عمالها ، جاءتني صاحبة المقالات إلى المكتب الرسمي وارادت ان تقبل ركبتي ويدي ، فتجاهلت ما وقع ، فقالت : علمت بكل ما تفضلت وقلته بشأن زوجي ، وبموقفك الشريف في الدفاع عنه . واقسمت انا معشر السوريين اقرب إلى العدل من الفرنسيين . فقلت لها : إنا تعلمنا هذا من اجدادنا ، ومن فلاسفتكم وعلمائكم .

لم يرتق فرع من فروع الادارة على عهد الانتداب مثل ارتقاء الدرك والفضل في ذلك للقواد المحنكين الذين تعاوروا اصلاح هذا السلك ، وكانوا من طراز عال علماً واخلاقاً وحنكة . جاءني وانا في مكتبي في قصر الحكومة الكولونيل بريفو قائد الدرك مودعاً . وكان من هذا العيار النفيس الذي ذكرت . ويذكر له اهل دمشق في احدى المظاهرات حادثة دلت على نبل وكرم أخلاق ، ذلك ان احد المتظاهرين رشقه بحجر في جبينه فأدماه ، وجيء بالضارب فانكر انه هو ، وقال إن الضارب طفل رآه ، ولو كان غيره لأمر في الحال باطلاق الرصاص على المتظاهرين . فقلت له : إنك ياحضرة الكولونيل لا تعرف أهل هذه الديار بقدر ما اعرفهم انا ، وإني على ثقة ان مئات منهم يحبونك على البعد ، وهم لا يعرفون شخصك بل يعرفونك باعمالك ، ويعجبون بما قمت به من اصلاح الدرك ، حتى كان هذا الأمن الذي لم نشهد مثله ، نحن ياسيدي العزيز امة لنا مالسائر الأمم من محاسن ومساويء ، ولكن شيئاً واحداً ما عهد فينا وينافي طباعنا وهو نكران الجميل ، فلا ننسى على وجه الدهر من يسدي الينا يداً ، بَعدَ عنا او اقترب. ولما كنت أنت احسنت لهذا القطر ، فالقوم يعجبون بك ، ويتبعون إعجابهم بك بالثناء عليك والدعاء لك ، وأنا ادعو لك بان تتمتع بالصحة حيث كنت انت وعيالك وان يكون النجاح قرينك في كل عمل تتقلده ، فتأثر من كلامي ودمعت عيناه . وددت لو امكن تقديم هدية صغيرة اليه باسم الاهلين تذكاراً له على عمله المجيد ، ولكنا الشعب اعتاد ان يصرف الالوف في أمور غير منتجة ، ويغفل عن القيام بأمور تعد في نظر العقلاء من الواجبات .

زارني الكولونيل برت قائد موقع دمشق ورئيس اركان حرب الفرقة يقترح عليَّ ان ادخل في سلك التعليم فتاة مسلمة كانت امها جارته وقال لي : إن امها فقيرة وعلمتها ، فعينتها في الدرجة التي تليق بها . ونشأت بيننا صداقة واخذنا نتزاور ومما قال لي : إني عرفتك وعرفت اخلاقك وصلابة عودك من التبليغات السرية التي نبلغها في حركة الادارة والسياسة ،

وما يقع من الحوادث الجسام ، واطلعت على ما وقع بينك وبين مستشارك ، وما كان من تغلبك عليه بالحق . ومما قال لي : إني اشبه المسيو كلمنصو رئيس وزارة فرنسا زمن الحرب العامة ، بصورة الوجه وصلابة الرأي . واستفدت منه اموراً كثيرة لأنه كان بحر معرفة وتجربة . وتفاوضنا مرة حال رجل كان هو يستغرب ما صدر منه ، فلما قلت له إنه اسرائيلي تونسي اهتز اهتزاز الطروب واجابني : الآن سريت عني ورفعت الاشكال ، لأني كنت استفظع عمله ، واستبعد صدوره من افرنسي الأصل . وحقيقة إن الدخلاء على الفرنسيين كانوا دائماً احط من الفرنسيين العريقين في جنسيتهم . فحسن الخلق والتهذيب تتجليان في الفرنسي غالباً . ولطالما استبان لي الأدب في العريق في افرنسيته ، حتى ولو كان من الطبقات النازلة ، اما الدخيل عليهم فيكون على الاكثر وضيع النفس إلاّ من رحم ربك . ولا عجب ان يكون الاصلاء على هذه الأخلاق الطيبة فهم امة تتعلم وتتهذب منذ اجيال ، والمدنية متسلسلة في اعقابهم .

قال صديقي الامير طاهر الحسني لاحد رجال الانتداب بعد مرور سنين عليه في سورية : لقد خدعتمونا بمن كان يفد علينا من رجالكم ، فكنا نظن ان جميع رجال الحكم والادارة من ابناء فرنسا هم من عيار القناصل الذين كانوا يشخصون الينا ، اخلاقاً وعلماً ونزاهة وسياسة ، فاذا عندكم مثل ما عندنا وعند غيرنا . وقلت للامير ان رجال السلك السياسي هم طبقة مختارة في فرنسا ، وقد يكونون من ابناء الاسر القديمة ، وعلى شيء من السمة ، لا يسفون الى ما يُسِفُّ اليه غيرهم من ابناء الطبقات الأخرى ، ممن كان يقع نصبهم بواسطة الاحزاب والمحافل الماسونية وغير ذلك .

ولطالما رأينا بعض رجال الانتداب في الشام ممن تولوا مناصب عالية ، وهم في الاصل من رجال السلك الدبلوماسي على اخلاق حسنة وكفاءة ممتازة يملأون كراسيهم كما نقول ، يحبهم الاهلون وهم يحببون إليهم فرنسا بسيرتهم الطيبة . عرفت كثيرين من هذه الفئة ومنهم صديقي المسيو لا فاستر .

فقد قضى سنين طويلة في ادارة المطبوعات ومندوباً للمفوض السامي في حلب ودمشق ، فكان مثالاً صالحاً في الجمع بين مصلحة حكومته ومصلحة وطننا ، ومن أقدر من عرفوا معنى التعاون النزيه .

كان يقصدني في وزارة المعارف لحسم بعض مسائل تتعلق بولاية حلب فنتفاهم حالاً ، وما كان أقل من أعظم الوطنيين غيرة على حلب ومصلحة أهلها ، وكنت اذا رأيت هذا أعجب به وأقوله له وأشكره على هذه العاطفة الشريفة وأبادر بما في طاقتي لاجابة طلباته كلها وربما زدت عليها . وكثيراً ما كنت أقول في سري : حبذا لو كان جميع المنتدبين كصاحبي لافاستر يبذلون من قلوبهم وعقولهم ، لخدمة ما وكل اليهم انجازه في أرضنا .

ليس كل من ينتقدون هم على صواب ، ولا كل من يعترضون على الفرنسيين يحققون ما يقولون . الديمقراطيات تخرج رجالاً ، والملكيات تخرج رجالاً ، ومن كان جوهره جيداً فمها كان نوع الحكم الذي درج في ظله ينفع أمته ولا يضر غيرها . وفرنسا مهما كان حالها لا ينكر عليها عاقل بيض أياديها على العلم ، وهي ، مهما قال فيها الغاضبون عليها ، مهد النظريات الاجتماعية والسياسية . ونحن السوريين إذا اختلفنا مع بعض الحكومات التي تولت الأمر هناك من أجل قضية استقلالنا فالانصاف يتقاضانا ألا ننسى فضل القوم ، على ما ذكرت ذلك مفصلاً في غير محل من هذه المذكرات .

الفرنسيون يغلطون كما تغلط كل أمة ، ومن أغلاطهم السياسية نحو أنفسهم أنهم دخلوا في هذ الحرب الناشبة على ضعف استعدادهم لخوضها ، لا جرم ان العدل يقضي أن نعترف لفرنسا بحسناتها ، ونذكر إلى جانبها غلطاتها . وأي دولة في النصرانية والاسلام ، وفي الشرق والغرب ، لم تسجل عليها سيئات كما دونت لها الحسنات .

طغى حب المادة على أمم الغرب كافة ، وكان لفرنسا نصيب منه ،

ففسد بعض أولي الأمر فيها ، وفسدت صحافتها ، وضعفت أوضاعها وميزاتها . اعترف عقلاؤهم بذلك موخراً وأقروا أن الواجب معاورة كل ذلك بالاصلاح والنظر ، وتنشئة جيل جديد على غرار الاجداد ، يراعون الفضائل ، ويدر كون معاني الوطنية السامية .

كنت على مثل اليقين يوم درست أصول الحكم النيابي أو الحكم الجمهوري والشعبي أن هذا الاسلوب بالنظر لما أقرؤه في صحف الغرب ، وأعرف من أسرار هذه المدنية ، ما لاق من كل وجه لجميع الدول ، وكانت سويسرا وانكلترا في مقدمة من حسن أثره فيها ، لان الحرية تغلغلت في أبناء تينك الأمتين وتأصلت فيهم الشورى والغرام بها ، فكان كل فرد فيهم مشتركاً فعلاً في الحكم ، ويغار على هذا الطراز منه كأنه هو له وبدونه يموت ويفنى .

أما الولايات المتحدة وفرنسا حيث كانت للديمقراطية أيام ومواسم فان الحكم النيابي في جوهره عندهما حكم الفوضى ، وتشتت الكلمة ، والاضطراب الدائم ، والحزازات المستديمة وسوء الاستعمال والعبث . وكل من درس أصول انتخاب أعضاء مجالس النواب والطرق التي يسلكونها للنجاح ، وتسلكها الأحزاب والأنصار ، بدون نظر الى حياة المرشحين وعيارهم الذي يؤهلهم لتحمل هذا العبء الخطير — يدرك أن جودة الاختيار تكاد تكون مفقودة ، وقد لا يصل إلى كرسي النيابة الا الوسط في علمه وتجاربه وذمته ، ولذلك تصير أزمة الحكم الى أيدي بضعة من شياطين الأنس في كل أمة يصرّفون الامور على هواهم ، والباقون تبع لهم . ومجالس تتألف في حقيقتها من أناس متوسطين بقرائحهم ، لا يبالون الشرف الحقيقي ، هيهات أن يحصل منها الأثر النافع من كل وجه ، ولا يرجى منها إلا أن تركب ما يؤذي ، والنفع منها قليل ، ذلك لان الوسط لا شيء في هذا الجهاد العالمي ، وما الشأن إلا للاشراف الممتازين من أرباب البصيرة . وكاد العقلاء في فرنسا

يجمعون منذ سنين على ان الديمقراطية افلست وذكروا من مساوئها الشيء الكثير ، وصاحب الدار ادرى بالذي فيه ، فدلوا على أن الفاظ الحرية والاخاء والمساواة كلمات جوفاء ليست إلا طلاء غراراً بلمعانه ، وخضاباً ينصل ولا يثبت على الحوادث .

إن من يصل الى منصبه مهما كانت درجته بقوة المال أو الجمال لابد أن يستحل أخذ ماأعطي ، وقد لايعطى إلا من يحب أن يأخذ ، ولا يتوقع من رجل هذه حاله إلا الانغماس في أمور خسيسة ، لاتهمه كثيراً معالي الامور . ومنذ عرف تاريخ البشر كانت نفسية أهل هذه الطبقة فاسدة منحرفة . ومن ارتشى صنع ما أمر به ، ولا خير للمجتمعات من اص ولا مرتش .

خيالاتنا

لما زرت باريز بعد الحرب العالمية ، رأيت أناساً من الطبقة التي تفهم بحسب الظاهر لم يبلغها ما جدّ من العلائق بين سورية وفرنسا بعقب الحرب ، ومنهم من كانوا لا يعرفون أن لدولتهم جيشاً في أرضنا ، وأن فرنسا عهد اليها النظر في حال الديار الشامية مع انكلترا ، بل بلغ الجهل ببعضهم أنهم لا يعرفون مركز سورية من مصور الامم ويعدونها من أرض الترك في آسيا ، كما كان يقال لها على عهد العثمانيين ، .

ولدن عودتي من تلك الرحلة أسررت لبعض المشتغلين بالمسائل العربية أن القوم في باريز لا يعرفون ما يجري في ديارنا ، فالأولى أن توفدوا رجلاً أو اثنين ليقوما بنشر ما يجب أن يعرف عنا ويحتكا بالطبقة التي يرجع اليها الحل والعقد عسى أن يكون من ذلك فائدة ، وقصصت عليهم بعض ما رأيته وسمعته . وبعد ايام زارني أحد أصدقائي وهو زعيم عظيم من زعمائنا ، وكنت قدمت استقالتي من وزارة المعارف ، وعرض عليّ الرحلة الى باريز في المهمة التي ارتأيت ايفاد رجل لاطلاع الفرنسيين على حقيقة مطالبنا ، وذلك مقابل الف ليرة سورية . فسألت صاحبي إذا كان يهزل أم يجد فقال : وهل المجال مجال هزل ؟ فأجبته : أراكم لم تهتدوا الى الطرق الموصلة للغرض ، فالمسألة أعظم مما تخيلون وبودي لو جمعتم مقداراً عظيماً من المال أولاً حتى اذا توفر لكم ، وضمنت النفقة اللازمة مدة طويلة ، يعهد الى رجل أو رجلين من رجالنا بهذه المهمة ، ويمدان بما يلزمهما هناك . وأرى أن من يراد ارساله في هذا الأمر الخطير ، يجب أن تأخذوا عليه العهود الاكيدة بأن يخدم الغرض الذي انتدب اليه فقط ، ومن أهمها ألا يقبل هدية من أي انسان ، وبأي صورة من الصور ، وألا يتقلد

حياته منصباً ما دامت سياسة البلد متقلقلة على أن تتكفل الجمعية بعيشه وتربي اولاده حتى يكبروا ، وإذا مات لا يتركون للأقدار ، واذا خان عهدكم تقتلونه . هذا ما أراه لمصلحة سياستنا ، أما الألف ليرة التي تعرضها عليَّ فهي لا تكفي لاستعد للخروج من بلدي ، ، ولو كنت غنياً لتوليت هذا المهم وأنفقت كل ما يقتضي له من النفقات من مالي حتى تصل امتي الى امنيتها . الجد قليل ويا للاسف في أعمالنا ، نظن المعضلات هينة الحل على ما يصوره لنا الخيال ، ولذلك كانت الخيبة ملازمة أكثر أعمالنا .

انتدبت خلال الثورة السورية مع زمرة من أهل دمشق لنلتمس من المفوض السامي رفع ضرب المدينة فتعرفت في القطار الى أحد أذكياء الطليان المثقفين فسألني عما كنا نعمل في بيروت أنا ورفقائي فقلت له : لا شك أنك قرأت في الصحف الغرض من الوفد قال : عرفت ذلك ، ورأيتكم لم تهتدوا حتى الآن الى الطريقة الموصلة الى مطالبكم في الاستقلال ، إنكم شعب لا يعرفكم أهل أوربا حق المعرفة ، ولا يتصورون ما ترمون اليه من المقاصد ، ولا ما بلغتم من درجات الرقي ، فعليكم اذا أردتم أن تفلحوا في رسالتكم أن تتخذوا أسباب الدعاية على نحو ما فعل غيركم من قبل . قال تعلمون أن الطليان قد وفقوا الى تأليف وحدتهم ، وما كان تحقيقها بالأمر السهل لما كانت تلقى من المقاومة . وقد اشتغل لها ثلاثة أجيال منا حتى حصلنا على النتيجة . وكان أجدادنا يصرفون ثلثي جهودهم خارج ايطاليا والثلث الآخر في أرضنا ، ويرسلون أشخاصاً ممتازين الى العواصم الكبرى في أوربا للاختلاط بالنواب والشيوخ والوزراء ورجال الصحافة ، يلقون محاضرات ويكتبون ويستكتبون مقالات يتلطفون فيها بعرض قضيتنا ، وبطول الزمن استجاشوا لهم أنصاراً ، وأسمعوا صوتنا الى من لم يكن يسمعه . ولما قمنا بالعمل الحاسم كان من عطفوا على مسألتنا قوة الظهر من ورائنا يدفعون عنا خصومنا . فكان عمل أجدادنا وآبائنا إفهام الشعوب

والحكومات أننا أمة تصبو الى ضم شملها ، وأنا أهل للقيام بهذه الجامعة وهي حقنا الصريح الذي يجب ألا ينازعنا فيه منازع .

قال وهكذا قامت وحدتنا وأنتم لم تأتوا من أساليب الدعاية شيئاً يعتدُّ به على الوجه الذي توفرنا عليه اعواماً طويلة وفادينا ضروب المفاداة في سبيله . وأهم ما يجب أن تلجأوا اليه ابلاغ أمانيكم الى من يجب أن يفهموها على جليتها وأن تثبتوا انكم أبناء ذاك الماضي المجيد ، وأصحاب تلك الحضارة المشهورة ، تودون اليوم أن تستعيدوها بأنفسكم ، وتظهروا للملاء أنكم أهل للحياة . درس مفيد ألقاه عليّ وعلى رفاقي ذاك الغربي . وأظننا لو جرينا على التعريف بنا وبمطالبنا أولاً وجمعنا رجالاً من كل مواطن لما احتجنا الى ثورة ولكننا أمة قد تبني أمورها على الأحلام تقول كثيراً وتفعل قليلاً

اصطحاب الأغنياء

سألني السيد سعد الله الجابري ، قبل أن يتولى للكتلة الوطنية وزارتي الداخلية والخارجية بأعوام ، لماذا أصحب عبد الرحمن باشا اليوسف ، والمعروف من نزعتي الابتعاد عن الأعيان ؟ فقلت له : إن صداقتي له متصلة بصداقة أبيه وجده لأبي ، وهو لا يشبه أكثر الأعيان الذين جمعوا ثرواتهم بالطرق المعهودة ، ونعمته إنما انتهت إليه بالارث ، وعهدته أقرب إلى الخير من بعض أمثاله ، ولم يعرف عنه أنه استحل الاعتداء على حقوق الفلاحين ، ولا عمد إلى التزوير في استصفاء مال أحد وايقاع ضرر به ، وكان يفضل على الفقراء ويبرهم ، وقد يهب المساكين وأبناء السبيل من الصدقات كل سنة ما لو احصي لكان شيئاً عظيماً .

ثم إني أعتقد أن صحبتي لهذا النبيل قد تسوقه إلى الخير وتنفعه ولا تضره ، فانظر إليه وكان عازماً على تأسيس مدرسة زراعية عملية في تل مسكن إحدى مزارعه في مرج الغوطة ، وأن يقف عليها أراضي واسعة يتعلم الفقراء فيها علم الزراعة على الأصول الحديثة ، وتكون دعامة من دعائم التمدن في هذه الديار . فعاجلته منيته قبيل أن تتم امنيته .

وما خلا عبد الرحمن باشا من اناس كانوا يظهرون أمامه بمظهر الغيرة على مصلحته ، فصارحوه بأنهم يستغربون رضاه عن تصدري في مجلسه ، ولاموه على استماعه لحديثي ، وعلى العمل أحياناً بآرائي . فأجابهم إنه رآني أعفّ عن ماله ، ولا اسف إلى شيء مما يسفّ إليه بعض حواشيه ، وأدعياء صحبته ، وأني ما طلبت شيئاً منه ، وأنه لو كان يعلم أني يهون عليّ أخذ هداياه لأعطاني كثيراً ، وأنه يحق لي أن أتصدر مجلسه لأني من أعلم

من يختلف إليه ، وأنه يرجو ان أكون لأولاده في مقام الناصح المرشد ، ونصيحة واحدة مني لهم لا يعدلها شيء في نظره . قال ولكل هـذه الاعتبارات أحترمه واجله .

وقلت لابن الجابري : وأنا هل أعطيت عهداً على نفسي ألا أصحب حياتي غير الصعاليك ؟ وثق أن اختلاطي بطبقة الأعيان يعدل بعض التعديل في مشاربهم ، على أن من صحبتهم من هذه الطبقة كانوا إلى الخير غالباً . وكان استاذي الجزائري كثيراً ما يوصيني بأولادالأعيان فيقول : إذاأردت دفع البلاد إلى الترقي ، فبادر بادخال النور على أبناء الأعيان ، فعندهم المال والجاه ، وإذا ما تعلموا حملوا إلى أهلهم بذور الارتقاء ، وأصبحوا أعضاء نافعة في خدمة الأمة ، والمتعلم الواحد منهم يحدث ثورة في اسرته .

هكذا كان يرى شيخنا ، وهو رأي سديد فيما أرى ، ولا يتأتى تحقيقه إلا بالاختلاط بأولئك العيون ، والتأليف بين قلوبهم والابتعاد عما ينفرها . وكنت شهد الله كثيراً ما تحاسبني عزة نفسي على عِشرة الكبراء في مصر والشام ، وأراني لا أستغني عنهم ولا هم ممن يزهد في صداقتي ، على حين لا أستطيع مجاراتهم في الظهور بالمظهر الذى تتوق إليـه نفسي ، ولا احب أن تكون لهم منّة عليّ بحال .

نعم سبق لي أن حاربت أشخاصاً من الأعيان ، كانوا آفات على الوطن يستثمرون الفقير والضعيف ويستخدمون نفوذهم في مضرة الراعي والرعية ، وما كان الاعيان كلهم على هـذه الشاكلة ، وكان بعضهم على حالة حسنة ، جمعوا ثرواتهم من التجارة والزراعة ، أو انتقلت إليهم من أجدادهم ، أو من طريق الاقطاعات ، فعمروها وأحسنوا الانتفاع بها . وهؤلاء ليس لك عليهم سلطان ولا يستطيع أحد مؤاخذتهم ، ومثل اولئك الأشراف يظلمون إذا عوملوا معاملة اولئك الظلمة الأجلاف .

في الأمثال : إن الرّقين تغطي أفن الأفين ، أي أن الدراهم تغطي

ضعف ضعيف الرأي . ومن صدق عليهم المثل من لصوص الأعيان ، فأنا لا أصحبهم إذ لا خير منهم يرتجى ، وما تبتغي من فئة مقيمة أبداً على حوك الدسائس ، والاعتداء على من يهون عليها الاعتداء عليه . ومن هذه الفئة طائفة كنت أرى من المستحيل زحزحتهم عن أخلاقهم ، ولما وضح لي سوء حالهم بعد الاختبار قاطعتهم ، وكانوا يدهشون من ابتعادي عنهم ، ولا يعرفون له سبباً ، ويعدونه من الشذوذ الذي ألفوا أن يشهدوه مني بزعمهم ، وأنا لم أرَ من واجبي بعد أن بلوتهم أن أنفعهم بفكر ، ولا أن أكون لهم سياجاً يختفون وراءه ، ومن أعان ظالماً سلطه الله عليه .

الخير قليل في البشر ، والغالب عليه الشر ، والانسان كما قالوا مدني بالطبع ، أي لا يستغني عن مداخلة الخلق فلم يبق إذاً إلا المبالغة في انتقاء العشراء ، والزؤان على كثرته في صوبة الحبوب لا يحول دون الانتفاع بالحبات الصالحة منه .

قال أحد رجال الدولة العثمانية في دمشق وقد جرى في حضرته ذكر احد اعيانها : نزلت بلاداً كثيرة ، وخبرت حال ايالات ومقاطعات عدة ، فما وجدت اكثر استرسالاً في الغيبة والنميمة ، ولا أشد إغراقاً في السعاية والوشاية من بعض أعيان هذه البلدة ، أما الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا فهما من اقرب الناس إلى الخير ، ولا يخلو افرادهم من ادب وفضيلة .

والمراد بالأعيان كبار ارباب الاملاك وبعضهم يحرص ابداً على رضا الحكومة عنهم ، وإنك لتجد في هذا الصنف انواع السخف وضروب الشر ، وهم لم تعهد لهم سابقة في المكرمات ، إذا دعوا إلى الحسنى شكوا الفقر ، وإذا اريدوا على الصالحات صعروا خدودهم ، وما اثر لواحد منهم ان انشأ مدرسة ، او انفق على تعليم ولد فقير ، ولا على غير ذلك من الأعمال الصالحة . سألني بعض الاروام في مصر عما إذا كان عندنا (في مصر والشام) اناس ينزلون عن نصف ثروتهم لأمتهم ، فكان الجواب سلباً بالطبع

فقالوا : إن من رجالنا من نزلوا عن جميع ثروتهم لأمتهم ، فقلت إنكم اشد حمية واصح وطنية منا .

سأل شيخنا العلامة الجزائري احد كبار تجار بيروت عن اسم والي بلده ، فقال إنه لا يعرفه فقال له : عجيب هو عندكم منذ نحو سنتين ، وأنت لا تعرف اسمه فضلاً عن شخصه ، فقال : أوقاتي لا تتسع للبحث عنه ، وليس لي علاقة بالحكومة . فقال الشيخ : في بيروت التفريط وفي دمشق الافراط ، فان اعيان هذه المدينة لا يهنأ لهم بال إلا بالاحتكاك بواليهم وحاشيته ، صباح مساء ، حتى ليسأم لقاءهم ، ومنهم من يصدهم عن بابه فيتحيلون للدخول عليه ، بكل ما لديهم من وسائط ، وأنتم معشر البيروتيين لا تتقربون من واليكم بل لا تذكرون اسمه .

وشيخنا هذا كان مرة في زيارة والي سورية ناظم باشا ، وقد ورد عليه الأعيان يحيونه ، فمنهم من كان يقبل يده ، ومنهم من يلثم ذيله وركبته ، وكلهم متهاوتون في حضرته ، متهالكون على الغلو في تمجيده ، فانقبض صدر الشيخ من هذا الصّغار ، فلما انصرفوا التفت إلى الوالي وقال له : أيروقك أن تحكم اناساً هذه نفوسهم ؟ فسكت الوالي ، فعاد الشيخ وقال : أما أنا فلا أود بحال من الأحوال أن يكون من أحكمهم من هذا الطراز . اي ان استاذنا لا مأرب له أن يكون والياً على عبيد صغار النفوس . هذه الطبقة من الأعيان التي تفنى في صاحب الشأن ما دام صاحب حول وطول وتعرض عنه كل الاعراض في اليوم الذي ينزع منه الحكم وينقطع الأمل من عودته إلى ما كان عليه .

قصّ عليّ احد الشيوخ ان احد رجال الدولة نصب والياً على سورية فدعاه أحد الأعيان إلى النزول في داره ريثما تهيأ له دار خاصة . واغتنم ذاك الوجيه فرصة نزول الوالي في بيته ، وكانت مشاكله كثيرة فأخذ يحل

ما يمكن حله منها بواسطة نزيله العظيم ، ولما اعتزل الوالي بعد مدة منصبه ، دفع إليه ذاك المضيف الكريم قائمة ضمنها ما انفقـه على الوالي خلال نزوله ضيفاً عليه فاعتذر الوالي بأنه نسي أن يسدد هذا المبلغ في حينه ووعد أن يرسله إلى صاحبه من بيروت ، وبعد أيام وردت على ذاك الوجيه ميضأة من الرخام تستعمل للتغوط وكتب الوالي السابق : هـذه مقابل ما انفقه المضيف على ضيفه . وعمل ذاك الوجيه ان صحّ من احط ما يدوّن .

وكثيراً ما كان استاذي الجزائري يقول إن هؤلاء الأعيان لا يعرفون الكرم والشح غالب عليهم وإذا اضطروا يوماً إلى ان يأدبو مأدبة لكبير يرجون خيراً لهم من ورائها ، فان منهم من يبقي عياله في مسغبة وتقتير شهراً كاملاً حتى يعوض ما انفقه ،

اختلاف اجتهاد

يظهر أن الادارة ابنة التجربة ، وربيبة المِران ، رائدها العقل ، وموحيتها البديهة ، وملهمتها البيئة . وربما كانت المسألة الواحدة تنحل في وقت حلاً يخالف ما حلت به في آخر . والحلول تبع للمكان والزمان . والادارة علم صعب قد يتفوق فيه من ليس على علم كبير ، وربما أخفق في معاناته صاحب المعارف الجمة ، ومن كان يظن فيه الكفاءة للتبريز على غيره .

لما توليت وزارة المعارف كان من أكبر همي أن أسرح من الخدمة العاجزين الجاهلين من المعلمات والمعلمين . وأن استعيض عنهم بمن يتخرج في دور المعلمين ، أو من أحرزوا الشهادة الثانوية ، وكان من أشد ما حرصت عليه نشر التعليم الابتدائي في المدن والقرى ، ولما أيقنت ان الريف يكاد يكون محروماً نعمة المعارف ، وأهله يدفعون الضرائب أكثر من غيرهم أزمعت أن أوثر القرى بالمدارس الجديدة ما أمكن . وآلمني ما رأيت من ان ليس في كل مئة قرية زيادة على ثلاث او أربع مدارس ضعيفة ، فأنشأت ما استطعت من كتاتيب في بعض أمهات القرى علماً مني بأن أهل المدن يتوصلون إلى تعليم اولادهم بما لا تصل اليه ايدي سكان القرى ، وأنه لا يتعذر على اهل الحواضر بلوغ غايتهم من تعليم ابنائهم ، بما قام فيها من المدارس على اختلاف درجاتها ونزعاتها وان ابن القرية إذا لم تعلمه الحكومة يستحيل عليه ان يتعلم ، والبناء يقوم على أساسه ، واساس النهضة نشر التعليم الصالح في جمهور الأمة .

وعلى هذا خصصت القرى بأكبر قسط مما انشأت من المدارس الابتدائية ، واقللت من فتح مدارس جديدة في المدن ، وكنت احاول أن أجعل المعلم المتمكن من صناعته في القرى ، لأن في مقدوره أن يعمل بنفسه مستقلاً ،

وجعلت الضعيف من المعلمين والمعلمات في الحواضر لتيسر مراقبتهم وتعليمهم ما تتطلبه منهم مهنتهم . وقد نجحت هذه التجربة . وحاول مرة بعض معلمي الحواضر ان يعصوا أمر المعارف في هذا التدبير ، فكتبت اعلاناً علقته على باب مدير التعليم قلت فيه ان كل من لايحضر مدرسته في يوم كذا ويأت من الحاكم الاداري في عمله بشهادة تثبت استلامه التدريس يعد مستقيلاً . فلم يبق انسان لم يطع الأمر ، وكانوا نحو مائتين فما اذكر وقلت اني املأ الشواغر بمعلمين أجلبهم من مصر ويحملون الشهادات المطلوبة ويرضون بالرواتب المقررة .

وحاولت ان أشرّف صناعة التعليم وأعرّف القوم ان المعلم مرشد وممدن ، يجب احترامه واكرامه ، وان اهم الاسباب لترغيب الشبان في هذه الصناعة ، وكان الاقبال عليها قليلاً ، لان الحكومة ما قدرت لضعف مواردها أن تجعل رواتب المعلمين على مستوى رواتب غيرهم من الموظفين في الدولة ، ولم تر من الحكمة ترك رجال الادارة أحراراً وقد يكون من توسيع سلطانهم ضرر على الرعية ، وأقل ما فيه أن تعود السخرة وأخذ الاعانات من الفقراء ، وكانت الطبقات النازلة تُرْهَق بهذه المغارم في الدور الماضي .

ولما انتهت مهمتي في الوزارة الثانية لامني خلفي على عنايتي مدة وزارتي بأهل القرى أكثر من أهل المدن في توزيع التعليم ، فأرسلت أعتذر اليه وأقول له إن هذا اجتهادي ولعلي كنت مخطئاً وارجو ألا يغلط هو كما غلطت انا ، واظنه ما اهتم خــلال وزارته لفتح مدارس ابتدائية لا في المدن ولا في القرى ومن العمال من لا يقيم وزناً للفلاحين وربما عدهم من المخلوقات المحتقرة غير خليقين بأن يتسرب الى عقولهم قليل من النور والمعرفة . ومن العمال من لا يهمهم الا ارضاء حزبهم الذي اتى بهم اما القيـام بواجب المنصب فأمر لاشأن له في نظرهم .

كان قسم عظيم من المعلمين والمعلمـات قبل تخريجهم في دور المعلمين عبارة عن جهلة وجاهلات واكثرهم لا يعرف شيئاً من علم التربية الحديثة ،

ويعلم على طريقة الكتاتيب التي كانت شائعة في القرن الماضي ولذلك اخرج من الخدمة سلفي في وزارتي الأولى كلّ من لم يره صالحاً للتعليم . وجاءني ذات يوم احد من اخرجهم يشكو ظلامته ، ويقول إنه طرد من عمله بغير حق ، فقلت لمن كان معي : إني لن اعيد معلماً اخرجه الوزير السابق ، لأن الملحوظ فيه انه يعرف ما ينفع ، ومن تلطف وكنس لي الدار فألقى بالقمامة خارجها ، فهل بذلك عملي بعض الشيء حريٌّ بالشكر ، وليس من العقل ان اعيد الكناسة الى محلها السابق ، تؤذي السكان ، وتلوث المكان .

أما خلفي في الوزارة السيد نصوحي البخاري فقد أعاد الى سلك التعليم كلّ من كنت نحيتهم عنه . أراد من ذلك اتباع سياسة الارضاء ، وتجاهل أن الجاهل لايخرج من بين يديه إلا جاهل . وكان صاحبي مولعاً بالاقتصاد من موازنة المعارف على ضآلتها ، فلا ينفق ما كان عليه أن ينفقه في سنته حتى يستحق وبعض من كانوا معه مكافأة عن الأموال المقتصدة ! وهذا اجتهاد لا أرضاه ، لأن المنطق يأباه . اما اجتهادي فكان أن أنفق كل ما خصص لي في السنة نفسها ، لعلمي أن لوازم المعارف كثيرة جداً ، ولو كان مايظن أنه وفرٌ عشرات الألوف ما صعب على الوزير انفاقه انفاقاً مثمراً ، في دولة حديثة العهد بانشاء المدارس وينقصها كل شيء . ومن يحاول ارضاء جميع الناس يغضب المصلحة العامة ، ومن يمزج الادارة بالسياسة كمن يمزج السكر بالجبس ، او الكافور بالدبس .

أتت السياسة الى بعض الوزارات بأناس ما تصوروا حياتهم ما هي المعارف أو القضاء او الاشغال العامة او المالية ، وأتت بأناس كانت لهم دراسات خاصة نالوا عليها شهادات تسهل لهم طريق الاستخدام في عمل معين ثم تركوا الدرس إلا ما كان منه داخلاً في نطاق عملهم . وكان من هؤلاء من حسنت سيرتهم ، وحسن السيرة لا يكفي إن لم تكن للوزير قريحة مؤاتية ، وعقل مولد ، ومشاركة قوية في تشعبات دواوينه

ومن اجتهادي في الادارة أن أسارع الى انفاذ ما أريد بعد أن أنظر في الجملة فيما تتجه اليه همتي ابادر لما أحاول تحقيقه وان اعتقدت أنه بقي هناك من أستشيره ، أو أرجع اليه من أضابير ودساتير وذلك لاعتقادي بأن انهاء الأمر بسرعة على ما قد يعرض له من نقص أسلم في العاقبة من التراخي والمطاولة ، وتقدير ما يحدث وما لا يحدث . وقد يكون النفع بالتأني أقل من الضرر الذي يحدث بالاسراع . والاسراع لا يحمد ابداً وكذلك الابطاء ، والحالة هي الحاكمة على الانسان ، ولكل وقت حكمه واجتهاده . ولعلي صادفت بعض الفشل فيما عالجته بالعجلة من أعمال ، ولكن ما أصبته فيها من التوفيق كان أكثر . ربحت بالاقدام ما لم أربح مثله في الاحجام وفي التطويل اضاعة الفرص ، ومن يحسب حساب كل شيء قد لا ينجز أمراً .

آخذني مرة الشيخ طاهر الجزائري على اخبار تنشر في جريدة المقتبس توهم انها مشتملة على خصومي السياسيين ، فاقسمت له اني ما اختلقت خبراً مازحاً ولا جاداً قط ، وعرضت عليه أن جريدتي اذا اقتصرت فقط على نشر ماثبت من الأنباء تسبقها الصحف الاخرى بالحوادث ، على حين ان معوّل الصحف على الاسراع في نشر ما يترامى اليها ، على شرط ايراد المصدر . فان بدأ محرر الجريدة الخبر بقوله (جاءنا من مصدر ثقة) كانت روايته أدنى الى الحقيقة من قوله (شاع) او (يقولون في بعض الأندية) او (ننشر هذا بتحفظ) او ما شاكل ذلك من الصيغ . وقد شاهدنا صاحب صحيح البخاري على تحريه الشديد ، واقتصاره على اصح الأحاديث قد وقعت له اشياء لم تصح عن الشارع صلوات الله عليه . هذا وقد صنفه جامعه في هدوء وتؤدة ، وبالغ بالتدقيق فيما روى وروى له دهراً ، فما بالك بالصحف الطيارة في عصرنا هذا ، عصر السرعة والتبدل والمفاجآت . فعذرني ناقدي العظيم على اجتهادي في اذاعة الأخبار على هذا الوجه ، ولعل المتعنتين لا يرضيهم مني ذلك .

كنت اجتهد في شؤوني الخاصة والعامة ، وما ندمت على اجتهاد وقع

مني . كنت اذا بعت بعض حاصلات مزرعتي أو بعض مطبوعاتي بثمن قد يرى فيه المدقق بعض الغبن عليَّ اغتبط لأني أوظف المال الذي آخذه حالاً في شيء مثمر ، او اسد به حاجة تقضي المصلحة بالتعجيل في قضائها . ووقع لي ان بعت شيئاً ثم سقطت اسعاره بعد ايام وعلى العكس ، فكانت الحكمة فيما فعلت ، والشاري يدخل على الربح والخسارة . وحدث لي ان ربح المبتاع كثيراً وان تضاعف المال الذي اخذته وصرفته بعد ايام قليلة . ولو كنت تشددت في النزول عما ملكت لخسرت لا محالة . والأرباح الكثيرة فرص والارباح المعتدلة من الامور العادية .

من خلقي ألا اتدخل في مجهول ولا فيما ينافي العقل والشرع ، لذلك لم اجوز لنفسي يوماً ابتياع ورقة يانصيب ، ولا ان اتجر بالورق النقدي ، ولا بالأسهم والسندات ، وما اشتركت ولا كفلت احداً كفالة مالية ولا وضعت توقيعي على سند ليس لي به علاقة ، ولا خزنت غير حاصلاتي توقعاً لارتفاع السعر . وقد لا ينجح من هذا خلقه في التجارة ، والمضمون قليل واقل من القليل . وهذا اجتهاد ايضاً ولا يلام المرء على اجتهاده . وانا بعد أن ثبت لي أن الخاسرين اكثر من الرابحين في هذه التجارات يعز عليَّ ان ادخل في هذه الصفقات ، وكم من فرصة اضعتها وكان يمكن الانتفاع منها والتربح بها ، فأحجمت وجبنت ، ثم رأيت الخير فيما فعلت ، ذلك لأني ابداً كنت احاذر المغامرات .

اضعت سنين طويلة من ريع زراعتي فشاركت واجرت فربح الشركاء والمستأجرون كثيراً ، وكانت حصتي ضئيلة بالقياس الى رأس المال ، اي ثمن الأرض ، فما اسفت لما وقع لأني استفدت ايضاً من توفير وقتي . وقد ضمن لي ربح ثابت على كل حال ، وهذا احسن من مال يتعبني ويشغل فكري وصعب على المرء ان يعمل اعمالاً عقلية ويكد ليملأ جيبه وصندوقه . وهذا اجتهاد مني عاد عليَّ بضرر مادي وربحت منه في معنوياتي ارباحاً لا تقدر بثمن في نظري . وعوض عليَّ من جهة اخرى رواتب قبضتها زادت على ما جناه الشركاء والمستأجرون من ارضي .

كنت اسير على ما يوحيه إليَّ عقلي عندما يقترح علي الانضمام الى اناس لا اعرف سيرتهم للمشاركة في مسائل ظاهرها نافع ووطني . وذلك لأني بلوت الاحزاب وعرفت اغراضها ، وأدركت مرامي الجمعيات . ومن فضل الله اني كنت اقل رفاقي تهوساً في الحزبية ، وتهوراً في الاقدام عليها واجتهادي هذا وفر علي اوقاتي ومالي . وهذا لأني كنت في هذه المسائل افكر طويلا ، واقول ليس من العقل ان يطلب مني مشايعة كل انسان ، واتباع كل رأي يفرض ويعرض . والمشاكل كثيرة ، واماني الامة لا تحد ولا بد ان ينصرف كل فرد الى تحقيق ما اخذ من نفسه واعتقد قلباً وقالباً فائدته ومن حسن طالعي اني ما حرصت كثيراً على مسايرة بعضهم على كثرة ما اسمعونيه من المغريات لحملي على الالتحاق بجماعة اجهل اغراضهم ، وليس بيني وبينهم تجانس في الفكر والتربية ، ومتابعة آرائهم لم ابد فيها ولم أعد . وكيف لعمر الحق اقلد في شيء فيه اضاعة وقتي ومالي وربما حياتي ، وقد ثبت لي انه ما أفلح في هذه الارض حزب ولا جمعية اللهم إلا إذا كان من بعض الشياطين ان اتخذوا من حزب مطية لأغراضهم الخاصة ، يصلون على متنها الى المراتب والمكاسب . والمغفلون من يخدمون معهم في هذه المناحي على العمياء وبدون اعمال الروية ، يرفسهم الكبار بأرجلهم من غير حياء ، في اليوم الذي تتحقق فيه مآربهم . وكل جمعية أراد اصحابها الظهور سقطت وتشتت ، وكل جمعية قصد بها الخير نمت ونبتت . ومن هذه الجمعيات ما أتى عليه ربع قرن ، وهو الى اليوم يقوم بالغرض الذي انشيء له ، ومنها ما لم يعش أكثر من ايام قليلة . اما الاحزاب السياسية فكانت اشبه بالمهازل ، في معظم الادوار ، لان السياسي على الاكثر يستحل كل ما يوصله الى الغرض الذي ينشده . فيعبث ما شاء له العبث ، ورأيت الجمعيات كلما قلَّ عدد افرادها تكون الى النجاح ، وإذا كثر المتشاكلون فيها تدوم وتنجح .

كنت في أغلب الاحوال أتابع اجتهادي واتحمل وحدي تبعته . وما ندمت

على ما اتيت قط إذا سبق لي اشتراك في الفكرة ، وكنت أري ابداً تحديد المطامع ، وارضى بما يحصل ولو بعد جهد . فقد خاف زملائي لقلقة المتعصبين من المشايخ يوم بدأت بانشاء المجمع العلمي العربي ، إذا نحن وضعنا اليد على بعض التماثيل وعرضناها في المدرسة العادلية الكبرى ، فأصررت على جمعها وعرضها وقلت لرصفائي إن صريخ هؤلاء الغُيُر لا يصل الى اكثر من سقوف بيوتهم وما ضرني ان احتمل وحدي التبعة وامضي في تأسيس دار الآثار في سبيلي لا ألوي على شيء . ولما لم اطع سلطان الوساوس والهواجس كتب لي التوفيق، ولو اطعت من أرادوني على التسويف وخوفوني العواقب ، لفشل المشروع لا محالة ، ولأعد المشاغبون عدتهم لمشاكستي ، وربما كانوا بلغوا مني مأربهم، فباجتهادي الخاص انتفعت المصلحة العامة . وما اخفقت في امر إلا اذا كان يتوقف اتمامه على احد او على سلطة . ولو كانت آمالي في المجمع العلمي مثلاً تجد لها من يعاضدها من حكومة او صاحب مال عظيم ، لآتت من أكلها في عشرين سنة بما يفوق ما تصورته ، ولكن استعداد الحكومات كان قليلاً لقبول هذه الامور . وما كنت اهتم انا لتحقيقه كان اصحاب الشأن يضحكون منه في سرهم .

درجت على تنشيط الناشئة على الكتابة والخطابة والتأليف والنشر . خلق تأصل فيَّ وعرفه قومي مني ، اقصد به تخريج شبان صالحين في الجملة . وكان بعض رصفائي في المجمع يخالفونني في اجتهادي هذا ، وانا أرى أني اقوم بواجب عليَّ لأن اساتذتنا أخذوا بأيدينا حتى تعلمنا فلهم في اعناقنا منة لا نوفيها لهم إن لم ندفعها الى من بعدنا انعطي الذي اخذناه . وكان أحدهم يقول يجب ألا يفتح البـاب إلا لمن جَزُل حظهم من الآداب ، وأن على الشبان ان يتربثوا في الظهور فلا يتطالون اليه إلا متى ذهب الشيوخ من الوجود . ومعنى ذلك الانتظار ألا يتخرج بنا احد فتذهب تجاربنا معنا ، اما هم فلينتظروا حتى يفنى هذا الجيل ، ثم يستلمون الزمام بعدنا بدون ان تكون صلة بين السلف والخلف . وبهذا الاجتهاد تضيع فيما احسب الفائدة المرجوة

من التلقي ، وتبطل اعتبارات كثيرة نافعة ، جرى عليها العرف والعادة في كل عصر .

وهناك زميل آخر لا يروقه ان يفتح باب المجمع للمحاضرة فيه ، أو المؤازرة في المجلة إلا لصفوة الصفوة ممن كان استعدادهم من المسلم به ، اي ان يقتصر على طبقة راقية جـــداً ، وإلا فقد المجمع روعته . واضاع مكانته ، ذلك لان زميلي هذا كان يزعم ان الخاصة الكفاة يستنكفون عن القاء محاضراتهم ونشر مقالاتهم ، إذا فتح الباب لكل احد ، بيد ان المحاضرين والكاتبين ليسوا كلهم على غرار واحد ، وكذلك العقول لا تكون من طراز واحد . ومعنى الاقتصار على النوابغ المحاضرين والمؤازرين ألا نسعى الى تعليم احد ، ومن ينقصه شيء لا سبيل له الى اتمامه ، والواجب طرحه . ولو جرينا على هذه القاعدة لبقيت الآداب وقفاً على بضعة افراد . ولا نعلم إذا كانت هذه الأثرة تفيد أم ان الفائدة بكثرة العارفين ، وكل امرىء يفيد بحسب سليقته وذكائه . نعم إن الاتقان شرط اعظم في كل صناعة ، وإذا كان من المتعذر الحصول عليه فهل يجوز لنا ان نُرْذِل الوسط ، ولا يكمل النقص ؟ وربما كانت هذه القاعدة مما يمكن تطبيقه في جمهورية افلاطون او المدينة الفاضلة للفارابي ، اما في مجتمع كمجتمعنا ، وفي جمهورية كجمهوريتنا ، فمتعذر كل التعذر ، ومن ينشد الكمال المطلق يوشك ألا يسقط على كامل ، ومن يتخيل انه لا يعمل إلا إذا توفرت له جميع الاسباب بحسب رأيه ، محكوم عليه بالعقم ، وعدّه ولا تخف من طلاب المحال .

سجلت هذا هنا لانه من تجاربي الخاصة رجاء أن يستفيد منه من يكثرون الاعتراض على كل ما يسمعون وما لا يفهمون ، ويحاولون لادنى نظر ان يهدموا ما بني ولا يحسنون وضع لبنة في بناء جديد .

ذكرتني الطمن وكنت ناسياً

لما أجبت طلب راديو الشرق الى القاء مسامرات في اذاعته أتحفني مديرها بنسخة من مقالة كنت كتبتها في جريدة المقتبس (عدد ١٧٨٧) خلال الحرب العامة ، وقال إنها وشاية من رجل مجهول ، وخلاصة المقالة أن صاحب اقدام كتب من سويسرا مقالتين قال في الأولى إن أحد أساتذة السوربون في باريز قال في خطاب له : إن علماء فرنسا لا يعدون علماء الا بالشفاعة والسياسة ، وأن فرنسا في المؤتمرات تبعث لتمثيلها باناس من الجنس الذى ارتقى بالرجاء والشفاعات ، في حين تبعث المانيا أمثال العالم فيرخو لينوب عنها ، وهو المعروف بعلمه وشهرته ، وأن المانيا تنتخب أمثل رجالها لمنابر التدريس ، ولذلك يهرع اليها الطلبة الأجانب من كل جانب ، ويرجحونها على فرنسا . واستنتج من ذلك أن فرنسا ليست بلاد درس ، ونصح للمولعين بتحصيل العلوم والفنون أن يذهبوا الى المانيا ويحذقوا الألمانية . وقال في المقالة الثانية ، وقد استبشر بأن الدولة عزمت على جلب بعض الاخصائيين من أساتذة الألمان الى دار الفنون في الاستانة ، ان الأمر لا يتم بجلب بضعة معلمين ، بل إن المملكة تحتاج من هذا الى سرية ، تعلمنا أفكار المانيا الاقتصادية ، وعلوم المانيا ونظامها وأوضاعها ، قال ونحن نريد من أولاد المسلمين أن نخرج رجالاً ونطلب لهم خبزاً في كل صقع ، ولذلك وجب علينا أن نخرج الشبان على الأصول الألمانية في العلوم والمعارف وهـــذه تجزئنا .

هـذا ما قاله رصبي التركي وقد قلت في التعليق عليه يومئذ : ومثل هذا القول أحق أن يخاطب به أهل سورية الذين حاولت فرنسا منذ عشرات السنين أن تلقنهم في مدارسها المسمومة بسموم النفاق والمكر أن

مدنية فرنسا أرق المدنيات ، مع أن الوقائع منذ نحو مئة سنة أثبتت أن الأولية لغيرها لا محالة ، وأن الفرنسيين أمة انحطت في أخلاقها ومناحيها ، ومن مثل هذه البضاعة الكاسدة تنفق على الشرق الاسلامي ، موهمة سكانه أنها ما برحت في طليعة الدول في كل شيء مع أن أقل الناس تفكراً يعرفون مبلغها بين الامم والدول ، وقد علمتها ألمانيا بالعمل كيف فرطت وأفرطت في الماضي فأصبحت اضحوكة الامم ، وأن فرنسا احتقرت الأديان ، واعتقدت أنها الكل في الكل ، فأبت المولى عجزها ، وأن العبث الذي عبثته بعقول ضعاف العقول وضعاف القوة من امم الشرق ، قد حوسبت عليه حساباً غير يسير ، وستحاسب على أكثر . وما ننس لا ننس ضربها بعصا من حديد على دين الاسلام ولسان العرب في تونس والجزائر ومراكش وكل بلد اسلامي استعمره أدنياء أبنائها .

ومثل هذه الدولة المنحطة في سلم الاجتماع التي اشتهرت بلادها بالفسق والفجور والخفة واللهو في أقطار الأرض ، ومع هؤلاء الأدعياء في العلم الذين أشار اليهم رصيفنا صاحب اقدام ممن يتولون التعليم والتربية في فرنسا دع مدارس الشرق التعس ، لا يسوغ لنا بعد الآن أن نفكر في أن نعلم أولادنا في بلادها ، بل نبعدهم عن مبادئها كما نبعد السليم عن الأجرب .

كانت فرنسا تخدع السذج بحسن حالها ، ولكن الحرب الحاضرة (١٩١٤ — ٩١٨) كشفت عن عورتها في العلم والصناعة والسياسة والأخلاق إن فرنسا تفننت في اختراع أزياء النساء في عهدها الأخير ، ولكن ألمانيا اخترعت مدفع ٤٢ .

أعدت ألمانيا عقولاً ، وعلمت فرنسا فضولاً ، فكان من ذلك النتيجة التي رآها كل منصف في العالم . ان دولة اشتهرت بأنها آذت الشرق في استقلاله وأخلاقه ودينه ولسانه هي دولة لا يجوز لأدنى الامم أن يجعلها قدوته ومعلمته ، فطريقنا بعد الآن الى ألمانيا ، فمن كلياتها نتغذى ، وبأدب أهلها نتعلم ، وعنها نأخذ . اه

هذا ما قلته منذ نحو ربع قرن ، وكنت أود لو طوى المقالة من أحب أن يذكرني بها اليوم ، لأن تعليقي يومئذ على ما فيه من الغلو ، وتأثر بسياسة تلك الأيام ، لا يخلو من حقائق جارحة ، تجلت بعد هزيمة فرنسا الأخيرة عام ١٩٤٠ وقد قال مثل قولي كبار رجالها ، وضربوا امتهم في المحافل الرسمية بعيوبها في وجهها ، على أن تفوق التربية الألمانية والعلوم الألمانية من المسائل المفروغ منها ، ورجال التربية في فرنسا بحّت أصواتهم وهم ينادون بالعدول عن طرائق قديمة عقيمة في التعلم والتربية ، والاخذ بمذاهب الألمان بالعلم ، وفي خزانتي بضعة كتب في هذه الأبحاث ، ومن أهمها ما كتبه غستاف لبون وأدمون ديمولان الفرنسويان أصلاً وتربية ، وما أظن فرنسا اليوم بعد أن رأت العبر تلو العبر إلا آخذة بالطرق الحديثة والنجاة من الأساليب البالية ، أما قولنا في مدارس سورية التبشيرية الاستعمارية فما زلنا فيه على رأينا الأول وإن آلم بعض العمي في حب قوميتهم Les chauvins لأنا نعتقد أنها تخرج اناساً ، لا لخدمة بلادهم بل لخدمة غيرها ، وإنا نعذر أصحابها على خططهم ، فهم يصرفون أموال دولهم لتحقيق مقاصدهم ، ولو كنا أقوياء لرددناهم على أعقابهم عن أرضنا ، ولحلنا بينهم وبين تأسيس هذه المدارس المضرة بوطننا وقوميتنا . أما الاستعمار الفرنسي فانا ما حبذناه قط ، ويوافقنا على رأينا عشرات من المؤلفين الفرنسيين ممن لا يتهمون بحزبية ، ولا يرمون بتعصبات سياسية وجنسية ، ونسأل اولئك الذين لا يرضيهم قولنا هذا بأعز ما لديهم هل يرون الجزائر بعد امتلاك فرنسا لها (١١٥) سنة قد تمتعت برخاء يشبه ، ولو من بعض الوجوه ، ما تمتعت به مصر ؟ وهل أخرجت الجزائر رجالاً يوازون بأقدارهم العلمية والعملية نصف ما نبغ من المصريين في عهد الاحتلال الانكليزي في وادي النيل ؟ (راجع ما كتبناه في غارات المستعمرين من الغربيين على بلاد المسلمين وغيرهم ص ٣١٧ ج ١ من كتابنا الاسلام

والحضارة العربية) أما أن فرنسا معلمة العالم فهذا ما لا ينكره عليها حتى أعداؤها ، فان لها في التاريخ من ذلك حسنات يرفع أبناؤها رؤوسهم بها . وشهد الله أنا كنا متألمين لما حل بالأمة الفرنسية من المصائب الاخيرة ، وما كان الشعب مسؤولاً عن كل ما ناله من هزيمة وتفسخ ، فالشعب الفرنسي فطر على ذكاء ومضاء وفضائل وحب خير ، والعقلاء منهم نحبهم ونسترشد بعلم رجالهم وأدب كتابهم (انظر ما كتبناه في غرائب الغرب ص ٣٠٨ ج ١ تحت عنوان نحن في البلاد الفرنسوية) .

والافكار على كل حال عرضة للتبدل ، خصوصاً بطول العهد وكثرة التجارب ، والعقل هو الحاكم والحكم ، لا العواطف والأحاسيس .

حل الماسونية

يوم انهزمت فرنسا أمام الجيوش الألمانية في حزيران ١٩٤٠ واحتل الألمان باريز يوم ١٣ منه انحلت الجمهورية الثالثة ، واستلم زمام الحكم الماريشال بيتان رئيساً للدولة بقرار مجلسي الشيوخ والنواب ، فحلّ جميع الأوضاع الديمقراطية والأحزاب السياسية والجمعيات السرية ، ومنها المحافل الماسونية ، وقد قرأت في جريدة « كانديد » الصادرة يوم ١٧ تشرين الاول ١٩٤٠ أنه افتتح في باريز معرض ماسوني ، عرضت فيه تركة « محفل الشرق الأعظم » « والمحفل الأعظم » الماسونيين في باريز ومنها مسارج وسيوف من القصدير ، ومطارق وصناديق نيطت بها كرات سوداء ، ومآزر عملت من جلد الخنزير ، ومسجات البنائين و « بطارش » مطرزة رسم وسطها مثلث يلمع فيه نجم « صهيون » وما إلى ذلك من متاع كان يستخدمه أبناء الأرملة عند إدخال شخص جديد ، ومنها مفروشات الغرفة السوداء التي يجعل فيها المنضم إليهم حديثاً معصوب العينين مع جمجمة إنسان ، وردهة الزعماء التي يقررون فيها السلم والحرب ، وان النية حمل هذه التركة الغريبة في القطار والسير بها إلى جميع أرجاء فرنسا حتى يراها سكان أقصى الأرياف ، ويتجلى بها ما في الماسونية من امور .

وبحل المحافل الماسونية في فرنسا انحلت جميع محافل الشام ، وذهاب الأصل يوجب زوال الفرع ، وتقاسم الزعماء تركتها ومنها تلك الأشياء التي كانوا يستعملونها . والماسونية حكومة في حكومة ، من شأنها إسقاط الأديان ، والتدخل بسياسة الأوطان ، ولذلك ألغتها ألمانيا وإيطاليا ، وحذت حذوهما تركيا وبلغاريا ورومانيا والمجر ، فان كان في الماسونية بعض ما يستحب من التعاليم ففيها امور مضرة ، وكان إدخال الداخلين في محافلها

سقياً ورعياً من أضر ما فيها ، ولا عـبرة بجودة القوانين والعبرة بالأيدي التي تنفذهـا .

منذ نحو خمس وأربعين سنة ، وأنا يعرض عليّ الدخول في الماسونية في مصر والشام ، وتذكر لي المرغبات فيها ، والغنائم المتوقعـة لي منها ، فكنت أقول إن هذه الجمعية أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الـكاثوليك ، فما شأن المسلمين في الدخول فيها ؟ وأنا من طبعي ألا أدخل في مجهول ، ولا أسير على غير هدى . ورأيت اناساً انضموا إليها مخلصين فـكانت سبب زوال نعمتهم ، وكانوا بعد خدمتها سنين من النادمين ، وما أفادوا إلا إنقاذ لصوص الموظفين وغـيرهم من سلطة القوانين ، وأكثر من رأيت ممن شايعوها كانوا من أصحاب السيرة السيئة من طبقة المأمورين

كل هذا كان يجول في الخاطر ، ويصرح به اللسان ، ويكتبه القلم ، وما كنت أظن ولا أكثر الماسون هنا يظنون ، أن جميتهم أيضاً (ألعوبة صهيونية) ، صرفة لا يهودية فقط ، يسعى اليهود بواسطة نفوذها أن يعيدوا مجد صهيون ومعنى مجـد صهيون نزع فلسطين العربية من أيدي العرب ، وهي ملكهم منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن .

دعابات

دارت بيني وبين الاستاذ فارس الخوري (رئيس مجلس نواب سورية) مراسلات دامت بضع سنين ، قامت على جدّ وعلى هزل . ونفي في بعض السنين الى أميون من قرى لبنان مع بعض إخوانه ، فكتب اليَّ يدعوني الى زيارته فأجبته بكتاب مطوّل (٦ أيلول ١٩٢٦) قلت فيه : (كلما ذكرت أميون تذكرت مجالسنا مع صديقنا نجيب الأميوني – وليس اسم نجيب من اسماء الاضداد كأنيس وسليم وصادق ، قد ينقلب الى ثقيل ولديغ وكاذب – وما كان يقع لنا معه من النكات وكيف كان يُسلّينا بأدبه ، ويفيض علينا من واسع علمه ، ما اغتبطنا ولا نزال نغتبط به ، ومع هذا لم نفتأ نبرمه بأسئلتنا ، والنجيب يجيب .

(كنت مرة في حلب مدعواً في دار احد اصدقائي من أتباع السيد المسيح وكان البهو غاصاً بالاوانس والعقائل ، ورجال الظرف والمكارم ، فأخذ النجيب يحدثنا احاديثه ، فلا والله ما شكونا مللاً ، ونحن نتعاطى كؤوس ادبه نهلاً وعَللا ، ولكن النفس الأمارة بالسوء حدثتني أن اقاطعه ، لأني لَحَظْت من لواحظ سيداتي هناك انهن يحببن ان يستمعن نبرات جَرْس جديد ، والنفس مولعة بالاطلاع على الطريف ، ولو كان كثيفاً غير ظريف . فاستأذنت الحضور راوياً اولاً ما وقع لاحد شعراء دمشق ، وقد زار في استانبول السيد ابا الهدى الصيادي الخاني أو الشيخوني ، وهو في آخر درجات السلم من مجده ، فأخذ شاعرنا ، وكان طَلْق اللسان ، ذكيَّ الجنان ، يحدث الشيخ الصيادي بالقديم والحديث ساعتين استطالها الشيخ ، وما كان يزيد على غير كلمات الاستحسان المعروفة . وهز الرأس والمنكبين ، واحياناً الصدر وماتحته الى العجز ، فلما اعياه الحال ، التفت الشيخ الشيخوني

الى محدثه الدمشقي وقال له : يافلان اذكر فقط ان امامك مِكثار مثلك يُحبّ ان يتحدث اليك في نوبته ، فتوح بلا سدود إقطع لأصل أنا . فضحكا واستلم الشيخ زمام الكلام .

(قلت هذا وقد فتح الفتاح علي باب القول ، وحل عقدةً من لساني ففقه القوم قولي ، وشعرت في تلك الساعة ، والأنظار تحدجني ، بأن طبعي قد لان ، ولم يستعص على طبيعتي ما حاولته من التحدث الى ذلك الرَّعيل الجميل ، فقلت : إني قرأت في كتاب لأحد علماء الجغرافيا من العرب اسمه المقدسي ان كل بلدة كان في حروفها حرف صاد يغلب الحمق على اهلها ، اما إذا كان فيها صادان كالمِصيصة وصرصر فنعوذ بالله واستثنى من هذه القاعدة البصرة ، وانا استثنيت (حاصبيا) مطلعَ شمس الأميوني النجيب ، وقلت لهم إن الرقة تغلب على طباع أهلها ، واوردت ما حضرني من البراهين لمناقضة ما قالوه قديماً من انه إذا رقَّ الهواء غلُظَ الطبع ، ومثلت لهم بالسيد الأميوني غير خائف ولا وَجِل . ومما قلت : ها هو اخي وقرَّة عيني ، هذا ياسيداتي وسادتي ، أميونيٌّ حاصبيا ، اللبناني الغربي والابناني الشرقي ، حائز مجموعة اللطف ، وجودة العقل ، وجميل النادرة ، وانتم تعرفون مثلي عَدْله في الاحكام ، ومقامه بين الخاص والعام ، وغناءه في شرائع الافرنج والاسلام ، وشهد الله انه أكذب القائلين بالطباع الجلية ، ونقض بشخصه رواية ذاك الجغرافي الذي نسب الحماقة الى اهل كل بلد ضم اسمه حرف صاد .

(والحمد لله على ان جاد لي بالحياة ، وحقق ظني في نبوغ النجيب ، فرأيته وزيراً لمعارف دولة لبنان الكبير ولولا انه من نجباء الابناء ، ومن حاملي الشهادات من المدارس العليا ، ولولا أن حكمه وعقله صحيحان غير مريضين ، ما تربع في ذاك الدست ، ولا تصدَّر في دولة عجنت طينتها وخبزت بمادة العلم والادب ، ولو لم تكن أميون من قبل أورثت ما أورثت جده وأباه ، وحاصبيا من بعد هيأت مداركه وجلت قواه ، من اين كان له ان يطمع في هذه المقاعد الشريفة ، والمقامات التي تتحلّب لها شفاه الطالبين المُلحفين

الملحين ؟ بعد ان «علم» علم اليقين ان الكراسي في دولاتنا الشامية لاتعطي على الاطلاق إلا بالاستحقاق .

(ربما يتبادر الى ذهنك عند تلاوة هذا أن الكلام يصدق عليك ، بدعوى أن ما قارب الشيء يعطي حكمه ، فادفع عنك الظنون ، وبعض الظن إثم . ولئن كانت « الكفير » جارة « حاصبيا » حاضرتها ، وأنت وإن وليت وزارة المعارف ، فقد كان الفخر العظيم لحاصبيا أن أخرجت للامة وزيرين ، وللمعارف أيضاً ، أحدهما في وزارة الساحل ، والثاني في وزارة الداخل . وما ذاك إلا من تأثير تلك التربة الطيبة وخصوصية لها ، وللبقاع تأثير في الطباع . ولذلك وضمناك بذكائك في غرار الذكاء الأميوني ، لو لم تخدش ملكة ذاك الاقليم التي أورثك إياها الجدّ الأعظم بسكنى « جلق » أكثر حياتك ، وأنت تنشد مع ابن منير الطرابلسي .

وسكنت جلق واقتديت بهم وإن كانوا بقر

(ابشرك بشرى يثلج لها صدرك وتقر عينك ، وتطيب لها حواسك الخمس ، وهو أن رصيفنا الأنيس نال رخصة لا حد لها بفضل وزيرنا ، خشي على صحته « أثابه الله » وقال : انه وان زاد منذ ثلاث سنين أكثر من ثلاثين كيلو بدمه ولحمه وشحمه ، فهو يحب له هذه الزيادة ، وأنا على ما تعلم أحببت له هذه الفسحة المستديمة حرصاً كل صحته أن تنال ، وحتى لا أترك لعشاقه من أمثالك ما يقال . هذا وإن كان بعده عن المجمع يورث أعماله فتوراً ، وتفقد رأيه السديد الذي طالما أشار اليه ، وزعم اننا أبداً في حاجة الى الاسترشاد به ، وكان ادعى أنه من أهل الرأي لا من اهل القياس . وإلا فمن يمتعنا بتلك المحاضرات البديعة التي تشرف كتاب محاضرات المجمع فنشرها بين دفتيه اثراً خالداً فأورثنه واورثتنا به صيتاً مستفيضاً . حقيقة إن النعم يجب ان تقرن بالشكر وإلا فهي معرضة للزوال .

(وهنا عادت معنا مسألة الصاد في اسماء البلاد . تذكر اننا كنا متفقين على انه اجتمع على بعض اصدقائنا الخرف والحمصية ، ونسيت ان اقول لك

يومئذ والقسوسية ، ولبعض القسوس كبعض المشايخ صفات غريبة خاصة بطغمتهم من دون سائر البشر ، ولا يعلل هذا إلا ان افـكار هؤلاء الزاهدين المتبتلين ، الساجـدين الراكعين ، مصروفة الى الآخرة ، فلا تهمهم الدنيا ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

(اعود الآن وانا في باب جيرون فأذكر اميون ، ومن لي بزيارتهـا

فيادارها بالخيف إن مزارهـا قريب ولكن دون ذلك اهوال

(قالوا للكردي: نريد ان نرسلك الى جهنم ، ونعطيك أجرة قدرهـا كذا ، فأجاب الاجرة طيبـة والطريق خطر ، نعم ان الوصول اليك صعب الآن ، وعلى كثرة اشتياقي اليك والى إخوانك — بالله عليك إلا ما قبلتهم عني واحداً بعد واحد — يتعذر عليَّ وأنا على ابواب الشيخوخة ، أن أركب اليك القطار والسيارة والمطايا ساعات طويلة ، وان اطلب إجازات من الوزارات والمفوضيات ، ليثبت لي ما قيل قديماً من ان عشرة الكبراء تتعب الرأس والرجلين ، ومالي وكل هذا وخطي سهل في هـذه الحيـاة لا اطمع الآن في وزارة ولا في إمارة ولا في ملك . . . والوزارات ومايتصرف عليها ياخال ، تحتاج الى علوم لدنية كسبية ، ومعارف حاصبانية كفيرية .

(أحمد إليك الله الذي لا يحمد سواه ، وأشهد أني راضٍ بما قسم لي قابع في كسر الزاوية المهملة التي وضعتني فيها الأقدار . قصة وقعت منـذ نحو مئة وخمسين سنة قرأتها في بعض المخطوطات . حكي أن رجلاً نصرانياً شوهـد في حالة غير شرعية مع امرأة مسلمة ، فحمل الى الحاكم فاعتقله ليصلبه من الغد . وكان للظنين ذمة على أحد المسلمين فهرع هذا إلى محبس غريمه يقول له : يا فلان إني معلمك كلمة إذا قلتها نجوت من القتل ، على شرط أن تقيلني من المبلغ الذي كنت أسلفتنيه . فقال له السجين : قل وهاك السند في جيبي ، بارك الله لك به . فقال : إذا مثلت غداً بحضرة الحاكم قل له : الاسلام يجُبُّ ما قبله ، اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يطلق سراحك . ومن الغد جيء بالنصراني إلى حضرة الحاكم

فقال له الجملة التي تعلمها من صاحبه بالأمس . فقـال الحاكم : حسنٌ ، عفوت عنك ، ولكنك تتزوج بالمرأة التي فضحتها وتختتن ، فأجاب بالسمع والطاعة . وهكذا نجا المسكين من القتل . وبينا هو عائد إلى داره سمع إطلاق المدافع فسأل عن سبب إطلاقها ، فقالوا له : غداً رمضان والاسلام يتقاضاك الامساك عن الطعام من الفجر إلى الغروب ، والصوم أحد أركانه الخمسة فقال : سمعاً وطاعة . وزاره بعد خروجه من محبسه أحد أصدقائه في بيته وما أدري إن كان سهلياً أو جبلياً ، فأخذ على العادة يسأله عن حاله ، فأجابه على الفور حالي خـير حال : خرجت من ديني ، وفقـدت مالي ، وتزوجت بمومس ، وقطعت جـزءاً من جسمي ، وودعت صيام النصارى خمسين يوماً واستقبلت صيام المسلمين ثلاثين يوماً ، فأي حال أحسن من حالي ؟ فالحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه .

(لم أسألك حاجة حياتي وحاجتي المهمة إليك اليوم ، وأعدُّ لك قضاءها في باب الأفضال العظيمة . أن تبحث لي مسألة تهم العلم العربي خاصة ! وذلك بأن تتولى مع إخوانك الستة درس طبيعة أهل « حصرون » جيرانكم لننظر في جلسات المجمع العلمي القادمة إذا كانت نظرية الشيخ المقدسي في البلدان الصادية صحيحة أو غير صحيحة ، وتلطف بالأمر مع الاستاذين الصفديين (بدر الدين الصفدي وأديب الصفدي) وبلدهما يا لهف نفسي مبتلى بهذه الصاد ، بحيث لا يفهمان المقصود من هذا التحقيق إلا بعد أن تؤخذ الآراء وتسطر في محضر بالسلب والايجاب .

(واعلم وفقك الله أنكم إذا وصلتم إلى تحقيق هذه المعضلة تهون عليكم الاقامة القسرية خمس سنين في حسجة ، ويكون معالي الوزراء وأصحابهم غير مغبونين . لا جرم أن اليوم الذي تصح فيه قاعدة المقدسي يكون سعيداً على الأمة كاليوم الذي اخترع فيه الكهرباء أو البخار أو الراديو أو الراديوم في ديار الغرب ، واليوم الذي تسقط فيه قاعدة المقدسي تسقط طوعاً أو كرهاً جميع نظريات العرب في الفلك والطب والكيمياء والفلسفة الخ .)

وأخذت مسألة البلاد الصادية (١) مكانتها من البحث والنظر ، حتى إن السيد فارس الخوري برأ إلى الله وإليّ من البلدة المقصودة في هذا الحديث «حاصبيا» ، وقال إنه لم ينزلها في حياته سوى مرتين أو ثلاث لا يتجاوز مجموع مدتها الاسبوع ، وهي لا تكفي للتحلي بالنبوغ الذي جادت به على أبنائها البررة . قال : ولا ريب أن الشيخ المقدسي الجغرافي لم يعلن رأيه في البلدان الصادية إلا بعد أن وجد لقوله دليلاً ، ولمذهبه مبرراً ، وما كان مثله ليدوّن قاعدة اجتماعية مثل هذه بدون أن يسجل على اهل البلدان الصادية حماقات وبلاهات تدعم نظريته ، ولا إخاله اكتفى بحمص وحدها وأنت غنمت النهزة وسألتني أن اتعاون مع رفاقي الستة وندرس اخلاق اهل حصرون لتمحيص قاعده الشيخ المقدسي ، وقد ذهب عنك أننا مقامون قسراً ضمن منطقة ضيقة لا نستطيع براحها ، فكيف نصل إلى حصرون ونعاشر اهلها . ولكن اروي لك حادثة وقعت في هذا الصيف هي أن أهل حصرون نقموا احداثاً على رجل منهم اسمه مرشد المقدسي (ولعل اشتراكه بالاسم مع الشيخ المقدسي صاحب القاعدة الصادية فحل هذه النقمة) وعزموا على قتله . وكان من عادته أن يخرج في سيارته إلى طرابلس في بعض الأيام ، فقطع الطريق عليه ١٥ رجلاً منهم ، وحالما اقبلت السيارة رشقوها برصاصهم وابلاً حتى سكنت حركتها ، فتقدموا إليها وإذا بهم قد قتلوا السائق والراكب ، وما كان هذا الراكب المسكين إلا محافظ البترون فيليب ناصيف . وقد قبضت الحكومة على ١٤ منهم وهم اليوم رهن المحاكمة في محكمة الجنايات . افلا تصلح هذه الحادثة لاثبات قاعدة الشيخ الصادية ؟

وقال : (جاءني هذا الاسبوع شاب من «صور» يطلب إليّ أن أكتب

---

(١) قال احد اترابي الأعزة وقد بلغ الحوار اقصى شدته في الصاد ما رأيك في صاد « مصر » وهل عندك ان حكمها حكم سائر الامصار المحكوم عليها باحكام الصاد ام هي بمنجاة من تأثيراتها كالبصرة التي استثناها المقدسي ! فقلت له وانا استثنيت مصر وانفي راغم ، ولست بفضل الله « عبيطاً باعبيط » حتى أعادي سبعة عشر مليوناً سكان مصر ، واقل ماينالني من عقوبة حرماني أن اهبط وادي النيل ، وتنجهم لي تلك الوجوه الصباح وفي هذا البلاء المبين اهـ .

له كتاب توصية لرئيس محكمة صور الذي لا أعرفه ليعينه كاتباً في محكمته. فقلت له : اخطأت يا بني بطي هـذه المسافة الطويلة لتتخذني وسيطاً لك لدى رجل لا أعرفه ولا يعرفني ، وأنت تعلم أني اليوم لا أملك تصريف أمر نفسي ، فكيف أملك تصريف امور غيري ؟ أفلا تجد في هذا أيضاً دليلاً آخر على عدْوِ صاد صور على هذا الشاب الغافل ؟ قاعدة المقدسي لا تتناول ما قبلها ، فلا تسري على الفينيقيين وإنمـا تجري على أهل زمانه وعلى من جاء بعده حتى اليوم .

(يا ليتك تكتب إلى الصديق العلامة أحمد زكي باشا نزيل صنعاء ليدرس لنا شيئاً عن صادها في عقول سكانها ، فندرس في إحدى جلسات المجمع مع آثار الصادات .

(يوم كنا في حسجة أقامت السلطة علينا خفارة ضيقة ، كان الجنود بها يقفون على بابنا بالحراب المسلولة ، ليمنعوا كل داخل وخارج . وبعثنا في أحد الأيام مع جمّال جاء به الجند ، كيساً من القمح إلى المطحنة ليطحنه لنا ، وكنا قبل وضع هذه الخفارة قد أرسلنا رجلاً بكيس آخر ورافقه بدر الدين أفندي الصفدي إلى الطاحون ، فخطر لهـذا الرفيق أن يرافق الجمال هـذه المرة أيضاً ، جرياً على العادة السابقة ، لأن العادة في عرفه تثبت بالمرة . فذهل عن تبدل الحال وقيام الخفراء ببنادقهم وحرابهم على الباب . وحالما رأى الجمال خارجاً بكيس الحنطة من الدار ، وثب من مكانه وهو بقميص النوم ، وبدون غطاء على رأسه ، وهب يعدو وراءه ليرافقه ، ولو لم يصدمه الجند عند الباب ، ويوجهوا حرابهم الى صدره ، لجرى وراءه بلا حذر ، وكنت افتش عن سبب هذا الذهول الغريب الى أن جئتني بالقاعـدة الصادية فاهتديت اليه (انتهى كلام الصديق الخوري) .

وآخر الحوادث التي تقرن الى أمثالها في الحـكم على الصاديين ما حدثني به أحدهم بسنده الصحيح عن الدكتور داود ابو شمر ، وقد عاد من « حصرون » بعد أن قضى فيها عاماً وبعض عام قال : إن صاحبـة داره

دعت ابنته ذات يوم الى الطابق العلوي من دارها في حصرون ، ولما أخذت مقعدها دخل كلب لطيف المنظر ، فسأل رجل كان هناك صاحبة البيت عن ام الكلب فأجابته : ان الذئب أكلها ولم يبق منها شيئاً . فقال لها : بل أكلها مسلم صائم جوعان . فقاطعته صاحبة الدار الحصرونية وقالت : بل افترسها رومي أرثوذكسي . فتألمت فتاة أبي شعر وهي ارثوذكسية ألماً بدا في سحنتها ، وحدث ما شئت أن تحدث عن انقباض صدرها الصغير ، لسماع هذا التمريض الكبير . مثال جديد من الحماقة ويحمل في مطاويه خبثاً أيضاً .

ونعوذ بالله من غلظة جبلي ، وخفة ساحلي ، واستخذاء سهلي ، ونسأله ألا يكلنا الى انفسنا ، ولا يجعلنا ممن نقاد بزمام كالأنعام ، ولا نستضعف في الأحكام ولو على الحكام ، ولا يستهوينا الحطام لارتكاب الآثام ، وأن يجعل لنا عبرة من الحمار ، يحجم اذا رأى الهوة سحيقة ، ومن الفيل لا يقدم على اجتياز جسر إذا شمه ورأى فيه خللا ، ونسأله أن ينزه قلوبنا من المطامع المردية ، فانها تقطع أعناق الرجال ، وينزه ألسنتنا عن حصائدها المؤذية ، حتى لا نكبت على الرأس في الأوحال ، ولا نخجل في أنفسنا من عمل أتيناه سراً فافتضحنا به جهراً ... فقد حكم السلطان عبد الحميد الثاني أربعاً وثلاثين سنة فما شككنا في رعونته ، ولم يطل حكم عمر بن عبد العزيز أكثر من تسعة وعشرين شهراً فما خفي على الامة عدله وحسن ولايته . اللهم لا تلبسنا ثوباً تبدو من خلاله العورة المغلظة ، وارزقنا عقلاً نميز به بين الدرة والخرزة ، وأنشئنا نشأة صالحة نتمتع بها بحياة الرجل الصالح في الوطن الصالح ، ولا تجعلنا كالجعل يغتذي بالسرقين ، ويؤذيه الريحان والياسمين ، ويموت من الورد والنسرين ، آمين يا رب العالمين .

وهكذا كنا نسلي أصحابنا في محنتهم بهذه الدعابات . وفي بعض المأثور : المؤمن دعب لعب ، والمنافق عبس قطب .

وطنية الأمير شكيب وجهاده

الى الآن لم تثبت وطنية الأمير شكيب أرسلان عند بعضهم ، فتأمل عقول أبناء هذا الشرق وردد معي كلما تأملتها قول البهاء زهير :

يا أيها الباذل مجهوده   في خدمة أفٍ لها خدمة
الى متى في تعب ضائع   بدون هذا تأكل اللقمة
تشقى ومن تشقى له غافل   كأنك الراقص في الظلمة

رأيت بعض من يدهنون للسلطة أوائل حرب المانيا انكلترا فرنسا (١٩٣٩ — ١٩٤٠) يعترضون على الأمير شكيب لذهابه من سويسرا الى برلين . وسألني أحدهم عما إذا كان يليق بمثله أن يذهب في هذا الوقت العصيب الى المانيا . فقلت له : ولم لا يذهب ، أليس هو حراً بنفسه ؟ قال : لا : ليس هو حراً ، وذهابه الى أعدائنا ليس من الوطنية في شيء ، فأجبته ، وقد آلمتني لحته : أي منة لكم على شكيب ، حتى لا يتحرك إلا بأمركم ؟ وهل هو مستخدم عندكم تدرون عليه الرواتب والعلاوات ؟ ها هو في أوربا منذ أكثر من عشرين سنة ، يناضل عنكم بلسانه وقلمه ، فما هي المعاونة التي قدمتموها له ؟ لو نبغ شكيب في امة غربية تقدر رجالها قدرهم ما شعر بالضيق حياته قط ، بل لكان موسعاً عليه في الرزق والنفقة . وقلت له إن الذي عرفته أن للأمير شكيب عقاراً في برلين ابتاعه زمن الحرب الكبرى ، أيام سقوط المارك ، ويحاول اليوم بيعه ، أو استيفاء ريعه ، ليرتفق بثمنه ، ولا يتم ذلك الا بحضوره . وما نجوت من اعتراضات هذا الوقح الوتح ، إلا بعد أن قلت له إن الأمير اليوم في نحو السبعين من عمره ، فلعله اصيب بما يصاب به بعض الشيوخ من خرف ، فعند ذلك هش ، وأعجبه اعتذاري البارد الذي يشبه اعتراضه السمج .

ما ادعى شكيب ولا ادعى له المعجبون بجهاده العظيم أن جميع ما أتاه كان سديداً من كل وجه ، وأنه معصوم من الخطأ في الخطط السياسية التي انتهجها لخدمة امته . إن من يعاني السياسة في أدوار مختلفة ، ويقضي فيها زمناً طويلاً بالقياس الى أعمار الخلق ، لا يخلو من هنات تؤخذ عليه مهما بلغ من جلال القدر . ومتى كانت السياسة كالقوانين العلمية ثابتة على الايام لا تتغير ؟ لم تطل خدمة رجل من رجالنا كما طالت خدمة الأمير شكيب في السياسة والأدب ، ولم يكن من أحد مثلما كان منه على اطراد لا قصور فيه ولا فتور ، ولم يشتهر واحد منا شهرة عالمية كما اشتهر الأمير شكيب . اشتهر بالسياسة كما اشتهر بالأدب ، وعرف عند الشرقيين كما عرف عند الغربيين ، فهو العيار المنقطع النظير لم تنبغ الشام في موضوعه أجلّ منـــه .

واذا آضت الحال بان يرسم عوام الشام للأمير هـــدفه ، ويلزمونه باتباعه ، فيالضيعة الآمال ، ويالبؤس العلم والعلماء ، وإذا كان الرجل من هذا الطراز البارع ، يحتاج الى شهاداتهم ، بعد صرف العمر كله في التطوع لخدمة الاسلام والعرب ، فيالشقائنا وطول بليتنا بالجهلاء وجهلهم .

بعض الناس يتطلبون من الرجال ألا يغلطوا ، ويتوقعون من النابهين أن يكونوا على الصورة التي يصورها لهم الخيال . يحاول كل واحد من امتنا أن تسن له قانوناً خاصاً يطبقه على نفسه متى أراد ، ويحاول كل صعلوك غبي أن يطبع الرجال بالطابع الذي يختاره ، ولا يعد الكمال المطلق الا ما تخيله .

كتبت الى شكيب مرة أن يجمع لنا مقالاته التي تصلح للانتفاع بهـا في المستقبل ، يطبعها في كتاب برأسه وأن يؤازر مجلة المجمع العلمي ، فأجابني من لوزان (يوم ٩ مارس ١٩٣٠) بما يأتي « أما ما أشرت به من الكتابة في مجلة المجمع فواجب ، وإن لم نكتب فيها فأين نكتب ؟ لكن يا أخي أصبحت من هذه الكتابة في خطب وأي خطب . كلما قرأ

الناس لي مقالات في الجرائد انهالوا عليّ بالاقتراحات ، ولا ابالغ لك إذا قلت إن الجرائد والمجلات التي تبغيني أن اكاتبها تزيد على أربعين ، وكلها تقترح وتجد من الواجب أن اجيبها الى رغبتها ، وبعضها إذا كررت الطلب ولم ابادر الى ارضائها بمقالة أو مقالتين لم تجمجم استياءها . ولا أعلم لماذا كرم الأخلاق يؤدي بالانسان الى العبودية ، فأنا على ثقة أني لو لم اكتب في بعض جرائد وبعض مجلات ، وكنت قابعاً في زاوية أقرأ لنفسي وأكتب لنفسي ما كانوا يطمعون هذا الطمع بي ، لكنهم ما داموا يقرأون هنا مقالة وهنا مقالة من آثار سخافتي ، تشتد بهم رغبة المطالبة والالحاف في سؤالي مقالات . ومن الغريب أن هؤلاء السائلين هم يعرفون ما الكتابة ، ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحي بها وحياً ، ولا يقال لها كوني فتكون ، وأن مقالة واحدة قد تأخذ نهاراً تاماً من الشروق الى أن تتوارى في الحجاب ، ومنها ما يأخذ يومين وثلاثة ، وأن القصار منها ذات العمودين والثلاثة لا تحرر في أقل من ساعة ، وأن على هذا المسكين الذي يتقاضونه كل هذي المشاق أشغالاً اخرى لنفسه ولعائلته ولوطنه ، وأن عنده كتباً لا بد أن يطالعها الخ . هذا لا يهمهم أصلاً بل يعرفون جملة واحـدة من جميع بضـائع الطلب : تكرموا علينا بمقالات من قلمكم السيال .

وفي أوربا يطالبون الكتاب بمثل ذلك لكن لا يضيعون على كاتب دقيقة واحدة سدى ، فالوقت نقد وكل وقت عندهم له ثمن . وأنا مضى عليّ الآن (٤٤) سنة وأنا أحرك قلمي ، وأكتب إلى الجرائد مجاناً لا أبتغي جزاءً ولا شكوراً ، وأدفع اجرة البريد من كيسي ، فلو حسبت لا ثمن وقتي بل اجر البرد من ٤٠ سنة الى اليوم لكانت مبلغاً لا يستخف به ، فأنا أسامح بكل ما تعبت وكل ما أنفقت من ذهني وعيوني ومالي ، وإنما أستمطر دموع شفقتهم أن ينظروا الى رجل وطيء ساحة السنين ، وصار محتاجاً إلى الراحة . . . . ولقد يقال لي إذا كان الامر كذلك فلا تبال بطلب زيد ، ولا باقتراح عمرو ، وامض في شغلك ، وأنت حر لست مقيداً بخاطر أحد .

والجواب : نعم كل هذا ممكن ، ولست مضطراً أن أرضي الناس بكل مايريدونه مني ، ولكن الحصة التي اريد ان استخرجها من هذا ، على رأي الترك ، هي قصور أمتنا في معرفة أصول الاجتماع ، وسيرهم الى الآن على الطريقة البدوية . فكما أن المسافر في الفلاة يدخل أيَّ بيت يراه فيها ، ويرى حقاً على صاحب البيت أن يتلقاه ، وأن يَقريه ، كذلك كل انسان منا يرى له الحق أن يستبد بوقت الآخر ، ويستثمر عقله وعلمه وجميع وسائله ، ولا يرى في ذلك عجباً . فهذه لا أجد منها شيئاً عند الأمم الأوربية التي لا تفهم كيف أن الانسان يطالب الآخر بسطر واحد يكتبه مجاناً ، فضلاً عن المقالات الكثيرة والحوائج الثقيلة ، والتي لا تفهم من كرم الأخلاق أن الكريم يجب أن يصير عبداً لمن يكرمه ، بل الحرية عندهم هي فوق كل شيء .

ويشيرون بأن نجمع ما كتبناه أو شيئاً مما كتبناه ، وهو أمر يحك في صدري دائماً ، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك ؟ إني لا أريد أن أجمع كل ما كتبته فانه يملأ أجلاداً وأجلاداً ، ومن يقرأ هذا كله ؟ ومن يؤدي كلف طبع كل هذا ؟ ولكني أفكر في انتقاء الاحسن وجمعه ، واعادة النظر عليه ، وتصحيح شيء ، وحذف شيء ، واضافة شيء يسير إن وجد ضرورياً ، وهذا كله يستلزم وقتاً . فأما طبع كل ما خطته بناني فغير مستطاع ، لأنه مفقود منه الشيء الكثير ، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم ، فاني في أوربا منذ اثنتي عشرة سنة ، وفي الشهر الواحد من هذه المدة كنت أحرر لا أقل من ١٠ مقالات ففي السنة ١٢٠ مقالة ففي الاثنتي عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة فاذا جعلت كل مقالة ٣ صفحات من قطع هذا المكتوب فهذه فوق أربعة آلاف صفحة أي ثمانية مجلدات كبار ، وهذا عن ١٢ سنة ، وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة ، وأنا اكتب ، فلا يقل المحصول في هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتي عشرة سنة الأخيرة ، فهذه عشرة آلاف صفحة بالاقل . كلا هذا لن أقدر على طبعه . وهذا كله ذهب في الجرائد الطائرة ، وهذا كله أنفقت فيه جوهر حياتي ، وكفنته باجرة البوسطة ، من كيسي واجره

على الله . وغاية مكافأتي عليه أنهم بعد موتي سيقولون في ترجمة حالي : كان رحمه الله يكتب كثيراً جداً سبعاً أو ثمانياً من الساعات كل يوم ، ولم يكن يساويه في ذلك إلا المرحوم كرد علي . فلذلك ايضاً كان من الافذاذ في هذا الباب . لا تحزن لقولي المرحوم كرد علي ، عسى لا يكون ذلك قبل مائة سنة ، ولكن ينبغي ان تعلم انك لا تعطى حقك إلا بعد فراق هذه الدنيا ، وما دام المرء حياً فقلوب معاصريه قاسية عليه ، وأنا افضل أن تقسو عليك القلوب وأنت حي ، من أن ترثي لك وتكثر من انصافك وقد مضيت بعد زمن طويل . . . »

وكتب الأمير بعد سنتين انه متخذ بكل ما يكتبه سجلاً يومياً يذكر فيه كل مايكتبه من مكتوب خصوصي او مقالة او غير ذلك . وعندما انهت سنة ١٩٣٢ جمع منتوج القلم هذا العام فبلغ (١١٥٣) مكتوباً خصوصياً و(١٠٨) مقالات وقصيدة واحدة ونحواً من الف صفحة من علاوات على حاضر العالم الاسلامي وصفحات أخرى لم يحصها بعد من كتب أخرى . قال وكانت المقالات السنوية تبلغ المئتين ، والمكتوبات الخصوصية تبلغ في السنة الالفين ، وقد كان يمكن ان تكون المقالات أكثر من هذا القدر بكثير ، وكذلك ما أزعمه من التآليف ، لولا كثرة المكاتيب أو المكتوبات المتواردة من جميع العالم الاسلامي ، فهذه المراسلات الخاصة تأخذ أكثر وقتي ، ولا مندوحة لي عن الجواب لاني اعد ردّ الجواب كردّ السلام ، وأرى عدم الرد نقصاً في المروة . وإني أتألم من ضياع الوقت في كثير من الرسائل الخصوصية التي خمس او ست منها فقط تأتي على النهار كله ولكن ما العمل ؟ كنت مرة في برلين فكان أخي عادل يرسل لي من لوزان مجموع ما يأتي به البريد باسمي ، فكتب لي مرة على سبيل المداعبة : جاء بريد سورية ، وبريد مصر ، وبريد الحجاز ، وبريد العراق ، وبريدالمغرب ، ولم يبق إلا بريد خراسان وماوراء النهر . . الى ان قال والكتاب المعرفون في اوربا عاملون بقاعدة « الوقت نقد » فلا يضيعون أوقاتهم بالجواب على الكتب الخاصة إلا ما ندر لأنهم ينفقون

بصائرهم وأبصارهم على الكتابات التي يبيعون منها ويعيشون بها ، أما نحن الشرقيين فلا نعرف هذا الحد من حب الذات ، والضيافة عندنا مقدسة حق على العيون ، وقصارى ما يرجوه الواحد منا هو عدم المعاتبة إذا تأخر الجواب لانه متى كثر الشيء لم يكن بد من التدريج في تسريحه اه .

وكتب الي يصف عمله في كتبه وما يعد للنشر منها وختم قوله بهذا (كتب الله لك ولي السلامة حتى نشفي غليلنا نحن الاثنين مما نريد أن نكتبه ولا نموت الا وكل واحد منا قلمه في يده) . اه .

كنت اذكر مرة لصديقي مصطفى بك المعظم بعض صفات الأمير شكيب فقال لي : إنا معاشر الشبان لا نعرف كل هذا ، فهل لك أن تمن علينا بكتابة فصل في مذكراتك ، نثقفنا بسيرته ، ونعلم ابناء الجيل القادم فضل الرجال الذين عملوا لنا طول حياتهم ، فكتبت هذا وما هو في الحقيقة ترجمة مستوفاة لحياة شكيب الحافلة بجلائل الأعمال ، بل هو مثال مصغر من جهاده ودؤوبه واخلاصه في خدمة العرب والاسلام توخيت ألا أخرج به عن اسلوب المذكرات ، ولكل مقام مقال .

تمدين بلاد العرب

قلت لمن حرصوا على شخوصي إلى الحجاز في العهد السعودي : ليبدأ جلالة الملك ابن السعود بثلاث مسائل ، وهي تغني الآن عن ذهابي وذهاب أمثالي . ليجعل لكل من الحجاز ونجد موازنة خاصة ، يدخل في كل واحدة منها مبلغاً احتياطياً لا ينفق إلا في الطوارئ الشديدة . ويشرع بتدريب ألفين أو ثلاثة من الجند ، يعلمهم على النظام الحربي الحديث ، ثم يزداد المجندون مع الأيام ، فقد رأى ما حلّ بالملك حسين لما غفل عن هذا الأمر المهم ، فالبدو لا يكونون سياجاً لدولة فتية ولا عجوز . وليرسل إلى مصر خمسين طالباً ذكياً من أبناء الحجاز ونجد ممن درسوا الدروس الابتدائية ، يتعلمون في مدارس مصر الثانوية ما يؤهلهم للدراسات العالية ، كأن يكون منهم مهندس الطرق ، ومهندس الريّ ، ومهندس الكهرباء ، ومنهم يكون رجال الزراعة والتجارة والطب والادارة والتربية الخ ، على أن يزداد عددهم عشرة في كل سنة وبذلك يدوس جزء من أرض العرب عتبة الحضارة بقدم ثابتة مستديمة . وقد حقق الملك بعض هذه الرغبة .

من أقصى أماني كل عربي عارف أن يتحضر العرب ، ولا سيما أهل الحجاز وما إليها واليمن ونجد وما والاها ، كما تحضرت بحضارة هذا العهد مصر والشام والعراق ، على اختلاف بينها في درجات المدنية ، فان هذه الأقطار الثلاثة تمثل الآن الحضارة المصرية . ولا يتم التحضير المنشود إلا باعداد فئة من الخاصة تُختار من أبناء تلك الممالك فتعمل هي على إسعادها في الأمثال « قتل أرضاً عالمها » . هذه الطريقة طويلة لكنها مأمونة قويمة وبغيرها لا يستقيم أمر هناك ، ولا سبيل إلى النهوض إلا بالاكثار من أهل هذه الطبقات ، والقضاء على الأمية قضاء أبدياً .

لا يُعجز صاحبي اليمن والحجاز ونجد شيء إذا عزما عزماً قطعياً على الدخول في التمدين على هذا الوجه ، فعندهما المال ، وأمامهما كل طرق النجاح مفتحة في هذا الباب ، وها قد رأينا الامام ابن سعود لما صحت عزيمته على توطيد الأمن ، وتنظيم شؤون الصحة ، كيف أتم ما نفاخر بعمله . ورجائي أن يشتغل المقربون منه لمصلحة الماهلين المظليمين أكثر مما يعملون لمصالحهم الشخصية . وأن يدركوا أن التحرر السياسي لا يدوم إن لم يشفعه التحرير الاقتصادي ، وأن الاستعباد الاقتصادي أبشع ضروب الاستعباد .

كتب إليَّ الأمير شكيب أرسلان من الطائف يوم ١٥ المحرم ١٣٤٨ كتاباً في حالة الجزيرة ، وما يراه في اصلاحها ، رأيت ان أضمه إلى هذا الباب ، عسى أن يكون منه لأمتنا ما ينفعهم قال : ولا يخلو البلد (الحجاز) من أدباء وأبناء بيوت نبيلة مهذبة إلا أن هذا العدد قليل . ولكن الأمور في الحجاز أيضاً سائرة إلى الأمام ، وهناك نهضة ، وهناك فكرة عربية ، وهناك نزوع إلى ما نزعت إليه سائر الأمم من الرقي العمراني والأدبي . وعسى أن نكون قمنا بجزء ضئيل من التأسيس لهذه المشروعات النافعة لأن جلالة الملك ابن سعود ، والحق يقال ، رجل كبير واسع الادراك ، سريع انتقال الفكر ، منطقي المحاكمة ، يقبل كل ما فيه خير للبلاد من مادي أو معنوي ، ولكنه يسير في الاصلاحات سير من يقبل منها شيئاً بلا تردد ، ومن يتروى في الشيء الآخر ، ومن يرد بعضها لأسباب لا تزال موجودة وبالاجمال هو يضع الهناء مواضع النقب .

قال والحق يقال إن الطائف هي قطعة من الشام أقامها الله في الحجاز ، لا بل لك أن تقول هي قطعة من أعالي جبال الشام كملولة والنبك وعسال الورد وذلك الصقع الممتاز بحسن الهواء وعذوبة الماء ، فهي رحمة بجزيرة العرب ، وأظن أن مستقبل الطائف والجبال المحيطة بها ، والتي فيها قرى أعلى من الطائف ، سيكون عظيماً لا سيما إذا ارتبطت بسكة حديد مع جدة ، فربما تصبح مقصداً للسياح المسلمين وللمصطافين من الأقطار المختلفة .

ومما يسرك أن البلاد من الطائف جنوباً إلى ابها ، وهي مسافة ٨ أيام على الراكب ، ومن أبها إلى صنعاء ، وهي مسافة ١٥ يوماً كلها صقع واحد في الارتفاع عن سطح البحر . وفي حسن الهواء ، وعذوبة الماء ، وتزيد على جبالنا بخصب الأراضي ، وإن كانت جبالنا الشامية أغزر ماء ، وأسبح أنهاراً ، وهذه النجود والسهوب التي في هذه الدرجة من الخصب ، وحسن الاقليم والتربة الخصبة تشرف على تهائم وسواحل ممتدة من شمالي عسير إلى نواحي عدن من أعظم بلاد الله قابلية زراعة ، وإن كان الحر فيها شديداً .

فالذي يراه هذا العاجز هو أن تمهيد الطرق ومدّ الخطوط الحديدية ، سيجعلان من جزيرة العرب الوطن السعيد الذي تتحقق به الأماني ، فالساحل ساحل والجبل جبل ، وكل منهما يكون متصلاً بالآخر بفضل المواصلات والطرق الحديدية ، وللناس في جروم البلاد وصرودها جميع نباتات الاصقاع الحارة والباردة ، دانياً بعضها إلى بعض . هـذا فضلاً عما في مـد هذه الخطوط الحديديـة من تقريب المساوف ، وتقريب الأفكار ، وتوحيـد الخواطر ، ، وجمع كلمة الأمة العربية وادناء الأقاصي بعضها إلى بعض ، فان المواصلات هي الأساس في وحدة الثقافة والحضارة كما لا يخفى ولما بدأ كافور بمشروع توحيد الأمة الايطالية كان أول ما وجه إليه نظره مـدّ السكك الحديدية بين شمالي إيطاليا إلى جنوبها ، وهكذا قل في سائر الممالك التي توحدت .

وستقول لي الآن : عظيم جداً كل هذا الذي تتخيله يا أخي شكيب ، ولكن هل في نية الملك ابن سعود والامام يحيى أن يمدا هـذه الخطوط الحديدية التي تقول عنها ، وأن يربطا أجزاء هذه القاصية بعضها ببعض ، وأن يعملا هذه الأعمال ، وأن يحققا هذه الآمال الخ ؟ فأجيبك : كلا ، هذه المشروعات لا اقول إنها على طرف الثمام ، وذلك ليس لجهل الامامين المشار إليهما بفوائد الطرق والسكك الحديدية والمشروعات العمرانية ، ولكن لصعوبات اخرى لا تـكاد تحصى منها ما هو اقتصادي ، ومنها ما هو إداري

ومنها ما هو سياسي . فأما الموانع الاقتصادية ، فان هذه المشروعات تقتضي ملايين وملايين من الجنيهات مما لا يوجد إلا عنـــد الاوربيين . ومما لا مشاحة فيه انه لا يجوز إعطاء شيء من الامتيازات لمشروعات كهذه لرواد المطامع الأجنبية ، وسماسرة الاستعمار ، طلائع الابتلاع والالتهام ، على حين ان المسلمين وحدهم لا ينهضون بذلاء كهذه ولا يدفعون اموالاً ولو وجدت عندهم لاجل المشروعات العمرانية ، لأنهم اقل الناس اعتماداً على طريقة الشركات . واما الموانع الادارية فانك لا تجد لهذه المشروعات النفر اللازم لها من العرب ، وان اهل هذه البلاد تغلب عليهم البداوة كما لا يخفى ، فلا بد من وقت طويل حتى يرتقوا إلى سويّ اهل سورية مثلاً .

فأما اهل سورية الذين كان يرجى منهم ان ينتشروا في جزيرة العرب صناعاً وزراعاً وتجاراً وعمالاً فانهم يفضلون الهجرة الى أقاصي الغرب ، ولا يتركون زاوية من أميركا او افريقية الغربية واستراليا حتى يرتادوها بدون ادنى عناء ، وتراهم مع ذلك لا يريد الواحد منهم أن يطأ جزيرة العرب لا نجدها ولا سهلها بقدمه ، وتراهم يشكون الحر الذي فيها ، ويتخوفون اذا جاؤها من مغبة الحر ، وينسون انهم يعانون من حر أميركا الجنوبية ورطوبتها وامراضها ما يزيد او يساوي حرارة جزيرة العرب التي هي في الواقع لا تعد شديدة إلا في التهائم . فأما الجبال الممتدة من الطائف الى صنعاء أي مسافة نحو شهر على الراكب فانها كأحسن ما يكون من جبال لبنان ، وتمتاز بخلو اهويتها من كل رطوبة ، فهي من اصلح الاقاليم للسكنى . ولقد بلوت هواء الطائف بنفسي ، وعرفت من سرعة انعاشه للضعيف ، ما لم اعرفه من بلد آخر في حياتي .

فأما الموانع السياسية فان ملوك جزيرة العرب اصبحوا يستوحشون كثيراً من مد الخطوط الحديدية في الجزيرة ، لما يرون وراءها من تقريب المواصلات مع الاجانب الذين يتمثل لهم شبح استعمارهم في كل ليلة ، ويجدون

ايضاً أن من العرب فئة ليست بقليلة تعمل كل شيء ، ولو اضرت بمجموع الامة وأحبط عليها استقلالها ، وذلك انتقاماً من الاشخاص ، وجرياً مع الأهواء والاحقاد الشخصية ، فيرى هؤلاء الملوك ان اعداءهم يكونون مطايا للاستعمار ، ولتدخل الاجنبي في الجزيرة ، بمجرد ما تلوح لهم الفرصة ، فيعدلون في سياستهم الى الانكماش في داخل اراضيهم ، والاعتصام بفلواتهم ، موصدين في وجوه الاجانب ، ومن يحطب في حبل الاجانب ابواب البلاد بقدر الامكان.

ولقد تحادثت مع جلالة عبد العزيز بن السعود فلم اجده ينكر شيئاً من فوائد هذه السكك الحديدية ، ومن وصل اقطار الجزيرة شمالها الى جنوبها ولكني وجدته على حذر شديد في هذه النقطة مكتفياً الى هذه الساعة بسير السيارات التي اخذت تشق بلاده شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً قائلاً إنني ارى فيها الكفاية في الوقت الحاضر . نعم إنه مجتهد في اعادة الخط الحجازي وربط المدينة المنورة بسورية عوداً على بدء ، لما يعود على القطارين الشامي والحجازي من فوائد هذا الارتباط ، ولكنه يأبى ان يسلم بمطالب فرنسا وانكلترا في امر القطع التي في سورية وفلسطين وشرق الأردن من الخط الحجازي ، وفي أمر الامتيازات التي يملكها الخط ، وبالجملة لا يرضى أن يغضي على تحيف الدول الاجنبية لوقفية سكة الحجاز العائدة للمسلمين .

فأنت ترى أيها الأخ أن دسائس الغرب في حق العرب هي أيضاً من جملة عوائق المشروعات العمرانية في ديارهم ، ولكنني واثق أن الامة العربية مع الزمن ستتغلب على هذه الموانع ، وأنها ستنمو فيها الفكرة القومية السليمة من الأغراض الشخصية ، بحيث يصبح الكلام الأول لمن أيقنت الأمة بأنه هو الأقدر على صيانة استقلالها ، والأنزع الى استرداد حقوقها . ولا بد أن يأتي زمن تضعف فيه السياسة الشخصية ، بل تذوب في السياسة القومية العامة . وهنالك تنطلق أيدي الأمة وأولياء أمورها في المشروعات العامة المادية والمعنوية بدون نكير ، وبدون حذر من الدسائس المعهودة ، لأن الدسائس الاجنبية إنما هي ميكروب لا يقدر أن يرعى إلا في أجسام الامم الضعيفة الجاهلة ا هـ .

توارد الخواطر

كنت منذ سنين اطيل التفكير في انواع الحكومات في العالم فعلمني الزمن ان اكثرها غير صالح عملياً ، وخصوصاً في ديار كديارنا ، عرفت بتأخرها في بعض اوضاعها ، بالقياس الى الامم المرتقية في حكم نفسها بنفسها . كنت انقد الحكومات الملكية المقيدة ويذهب بي النظر الى ان من الملوك من يحمل الضرر الى امته بسوء سيرته وان الصالح فيهم قليل وان بعضهم يرهق امته ليسرف فيما تهفو اليه نفسه اسراف جنون .

وكنت اذا نظرت في صورة الحكم النيابي أو الجمهوري اراه الى الفوضى ومن ابعد اساليب الحكم عن الحرية الحقيقية ، يتغلب فيه الاقوياء وتكون السيطرة للحزب الغالب ، وهذا لا ينظر على الاكثر في غير منفعة انصاره ومريديه وقد يفضلها على مصلحة الامة والدولة ، ولو كان يعتقد مضرتها . اما الحكومات الملكية المطلقة او الاستبدادية الفردية فضررها مشهور محسوس ، وخاصة في امم الشرق حيث القول الفصل للطاغية من الملوك والطواغيت من المتغلبين ، وحيث الشعوب لم تتشبع بروح الشورى واصول الحرية ، تساق بالرهبة وتحكم بالجبروت ، ولا تعرف للنظم والطاعة الذاتية معنى .

وكثيراً ما كنت اخاطب النفس فأقول : ليت شعري الا يصلح الحكم في دولة على ايدي جماعة مختارين من رجالها تكون لكل واحد مزيته واختصاصه يؤلفون مجلساً يرئسون احدهم عليهم فيكون رئيس تلك الدولة الى أجل مسمى ، فاذا خلا مقعد احدهم بعد ذلك يختارون هم من يخلفه لا الاهالي وذلك لان الاتكال على هؤلاء في اختيار نوابهم قد لا يكون الى الصواب كل حين ، ونصب النواب بطريقة معقولة مجردة عن الهوى في الجملة ربما

كان الى السداد أقرب . والنواب الذين ينتخبهم رؤساء الطبقات المختلفة أو يختارون بصورة من صور الانتخـاب افضل ممن تختارهم الأحزاب وتدعو لهم . سألني صديقي الاستاذ ماسينيون وهو ممن يعنى بالسياسة الاسلامية في فرنسا اوائل الحرب الأخيرة (١٩٣٨ — ١٩٤١) عن حالة سورية السياسية فذكرت مساوئها والمعت الى تخبطنا في كل ما جربناه من اساليب الحكم ، وقلت له ان حكومة الجمهورية كانت غريبة الشكل ظاهرهـا فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب . وقلت له رأيي في اختيار مجلس على الصورة التي ارتأيتهـا فاستحسن الفكرة وكتبت له على اسرع وجه مذكرة صورت فيها العمل وعينت الاشخاص الذين يجب التعويل عليهم في الحكم الجديد في هذا القسم المظلم من الديار الشامية .

تعلقت الاقدار بهزيمة فرنسا ، وبعد نحو سنة بدأت حكومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان بتطبيق طريقة جديدة في الحكم تشبه من بعض الجوه الطريقة التي اختارتها لنفسها في القسم الذي لم يحتله الالمان من بلادها ، وسموا المجلس الجديد المجلس الاستشاري والى الآن لم يعين افراده ، وهذا المجلس اذا تمت له جودة الانتخاب يكون من أحسن المجالس . اما انا فأرى ذلك متعذراً ما دام فريق الوطنيين يريد اطالة مـدة حكمه بمسايرة الموحين وهؤلاء لا يرضيهم الا أن يكون كل من يعين ممن ترضى عنهم دواوين الاستخبارات

ولقد الحّ عليّ رئيس مجلس الوزراء صديقي السيد خالد العظم أن اكون عضواً في المجلس الاستشاري الذي عقده في عاصمة الشام فاعتذرت بأن اشغالي العلمية لا تترك لي مجالاً للتفكير في شيء آخر ، وان نفسي الى اليوم ما طابت لتولي النيابات ، واظنها لا تطيب لها فيما بقي لي من أيام في الحياة . وقد جريت على قاعدة العفة عن مطالبة الامة بشيء ، جريت معها على ان اخدمها فيما اعتقد أن فيه الخير والا اطلب منها شيئاً .

وهناك سر آخر كتمته وما بحت به وهو اني اعرف ان المجلس سيرأسه لا محالة احد رجال سياستنا المقربين جداً من المنتدبين ، ومعظمهم ممن بلوت فما حمدت ، فمن العبث ان اساهم مع من اعتقد عدم اخلاصه وكفاءته ، وقد شبّ عمرو عن الطوق . ولو كان تولى المناصب الكبرى بالعلم ما كان يتولى الجهلة رئاسة الوزارات ورياسات المجالس على الغالب ولكان للعلماء نصيب مفروض في الزعامات .

لو كان من طبعي استثمار قوة غيري لما صعب عليّ تأليف حزب والسعي في طرق توصلني الى الرياسة الكبرى ، ومن بلغوها ما كانوا من ارباب الذكاء الذي لا نظير له ، ولا من ارباب العلم والفصاحة بالمكان الاعلى ، ولا من الخبرة والتجارب على جانب ، ولكنني ما احببت أن اوحد مسعاي مع من يتعهد بشيء ثم ينقضه بحسب هواه عند اقل بادرة ، ويترك من يعاونه في الازمات فيحترق كما احترق معظم من تولوا الحكم في ديارنا على العهد الاخير .

ولقد كان أحد من بيدهم النهي والأمر من كبار رجال الانتداب يريدني منذ سنين على أن أدخل في السياسة وأشار إليّ بأنه سيعهد إليّ برياسة الوزراء فأبيت . وقدمني هذا الصاحب إلى أحد كبرائهم مرة فذكر له صفات فيّ غالى في تقديرهـا ثم قال إلا إنـه لا يحب السياسة . نعم هو على حق فيما قال ما أحببت السياسه لأنها جلبت عليّ الويلات وضياع الأوقات . ولو كنت أعلم أني أنجح فيها على طريقتي مع هذه الدول المتقلقلة والحكومات المستضعفة لكنت أول مشتغل بها ولا يقتصر مطمعي فقط في الرياسات الكبرى بل أقنع بأقل الأعمال إذا كان من ورائها فائدة محسوسة للوطن . وبلغني أن بعض الأحزاب في العهد الأخير اقترح على أرباب الشأن توسيد رياسة الوزارة إليّ بدون أن يفاوضني بذلك ، ولو سألني من قبل لحلت بينها وبين ما قالت فيّ .

إن العالم على أبواب حدث جديد لم يسبق له مثيل في التاريخ كما لم يسبق مثيل لهذه الحرب الحاضرة فكل ما يعمل من هذا القبيل موقت إذا ظفرت ألمانيا في هذه الحرب العوان . وهي التي كتبت لها الغلبة في كل مكان وطئته جيوشها في هذه الحرب الناشبة وستأتي العالم بقانون تجري تنفيذه على الأمم والشعوب في الغرب والشرق وإذا . تراجعت واضمحلت وغلبت بريطانيا العظمى في النهاية فان هذه تعمل كل ما ترى فيه مصلحتها مع الشعوب والأمم ومن مصلحتها تكثير الحكومات باسم الديمقراطيات وكل حكومة تسن لنفسها القانون الذي ترضاه من أكثر الوجوه .

المعارف والادارة

فيما يلي صورة تقريرين ارسلتها في أمر المعارف والادارة الى رئيس الدولة يومئذ الأول في طرق الاقتصاد من موازنة الجامعة السورية لفتح مدارس ابتدائية والثاني في الاصلاح اللازم في جزء عظيم من اجزاء الدولة وقد اقتصرت في الأول على ماله علاقة بالتعليم عامة واقتبست الثاني برمته نموذجاً مما كنت اكتب في اصلاح الادارة .

هذا يا مولاي زهاء خمسة وسبعين الف ليرة سورية من الوفر (وفر الجامعة السورية) ينفق قليل منها على تأسيس فرعي الدروس الأدبية العليا ومدرسة الآلهيات تضافان الى الجامعة وهو مبلغ زهيد لا يزيد على ثمانمائة ليرة دينارية وبذلك نكون انفذنا ارادتكم العالية في تأسيس هذين الفرعين المهمين لشدة الحاجة الى الباحثين والمؤلفين والقضاة والمفاتي والخطباء والأئمة الدارسين على الاصول الحديثة ثم يصرف بقية المبلغ المقتصد وما يحصل من وفر المدارس والمعاهد الاخرى في الدولة على انشاء مئتي مدرسة ابتدائية هذه السنة تضم بين جدرانها على أقل تعديل عشرة آلاف من البنين والبنات وبهذا العمل نخطو الخطوة الاولى نحو التعليم الاجباري .

يقول الماليون انما يشرع الانفاق العام في سبيل النفع العام فقط . والنفع العام هو التعليم الابتدائي اي التعليم الذي يدر على مجموع الامة الخير ويتناول نفعه كل الطبقات من ابناء الوطن . وتعلمون حالفكم التوفيق شدة عوزنا الى هذا الضرب من التعليم حتى نخرج هذه الامة من الامية اصل بلائها وشقائها في كل دور ، وتعلمون ان ادارة الصحة العامة طالما انذرت وزارة المعارف باقفال المدارس غير الصحية ففي مدرسة في صميم دمشق

تضم نحو اربعمائة طالبة وهي لا تسع في الحقيقـة مئة ولم تستطع المعارف أن تستأجر داراً قوراء تؤوي البنات فيها لضيق مخصصاتها وهكذا الحال في غيرها . وتعلمون أيضاً ان عشرات من القرى أعدت الدور وتكفلت بلوازمها على ان ترسل لها المعارف المعلم او المعلمة والى اليوم لم تجب الطلب لضيق موازنة المدارس الابتدائية . وانه لو كان للمعارف اماكن صالحة واسعة لزاد عدد المتعلمين زيادة كبرى ولم يقف عند حـد ٢٦٧٣٦ تلميذاً يدخل في ذلك تلاميذ التجهيزيات ودور المعلمين والمعلمات ومدارس الصنائع والمياتم وطلبة لواء الاسكندرونة ، في دولة لا يقل نفوسها في الحقيقة عن مليونين وتعلمون أيضاً ان لواء دير الزور كان فيه ايام الدولة العثمانية نحو اربعين مدرسة وليس فيه اليوم سوى اثنتي عشرة مدرسة هذا مع انه اضيف الى املاك الدولة السورية من الشمال نحو ثلث الجزيرة العليا ونحن نتاخم العراق من جهة واربع ولايات تركية من اخرى وهي ماردين وسيورك واورفة وعينتاب . وتعني الدولتان المجاورتان كل العناية بالتعليم والتربية وتعلمون الحاجة الماسة الى زيادة مبلغ طفيف لمعلمين يعلمون ابناء القرى مبادئ الزراعـة العملية وان عندنا مدرسة عظيمة في قضاء الميادين على الفرات تصلح لتعليم الزراعة العملية مع الدروس الابتدائية وللمدرسة أرض واسعة جداً سهل ارواؤها وكذلك في شمسكين في حوران فان فيها سرايا مخربة اذا رممت تصبح مدرسة زراعية بسيطة من هـذا القبيل ولها ارض واسعة يشقهـا نهر أيضاً ويعيش الاولاد في المدرستين عيش بلادهم ولكن على طريقة منظمة نظيفة ويتعلمون ما يحبب الارض اليهم وما يمكنهم في الحال زرعـه وغرسه من الحبوب والبقول والاشجار لا ليكونوا أصحاب شهادات فائضين عن الاحتيـاج يطالبون الحكومة كل حين بأن يستخدموا في دواوينهـا ولو بأجر زهيد .

ان حالة الفلاح يا مولاي تحتاج الى اصلاح بليغ حتى يتعلم من الصنائع الزراعية والصنائع اليدوية ما يمكنه معه ان يعيش وتستفيد المملكة من عمله

وما برحت الصنائع الزراعية الى اليوم على حالة ابتدائية في جميع الاقضية والفلاح الراقي عندنا هو الذي يعمل الجبن والسمن وينسج بعض الاصواف الغليظة . اما الصنائع الاخرى فتكاد تكون مفقودة من معظم الاقضية فقد احتاجت المعارف في السنة الماضية الى اصلاح مقاعد مدرستها في مركز قضاء الميادين فلم تجد نجاراً في القضاء كله وبعض الاقضية لا نجار فيها ولا حداد ولا بناء ولا حذاء ولا حائك . وقد بدأت في السنة الماضية بعد أن شهدت هذا التأخر بالذات فأدخلت زمرة من أبناء لواءي حوران ودير الزور في مدرستي حلب ودمشق الصناعيتين ولكن الامة تحتاج من هؤلاء الصناع الى المئات بل الى الالوف ولذلك وجب على الحكومة أن تتوسع في تعليم البسائط من هذه الصناعات التي لا يستغني عنها اهل مجتمع مهما بلغ من انحطاطه .

ان عدة اقضية في الدولة السورية تحوي بضع مئات من القرى والمزارع وليس فيها سوى مدرستين او ثلاث . ان من القرى في ارجاء حلب ودمشق مافيه بضعة الوف من السكان وليس له مدرسة وفي غوطة دمشق مثال ظاهر من هذا النقص الذي يحتم على حكومتكم السنية ان تنظر فيه كله نظراً بليغاً خصوصاً بعد ان ثبتت قابلية امتنا بدوها وحضرها للاخذ بأسباب التعلم والتعليم الابتدائي وما بعده ان امكن ، هو الخبز الذي يحتاجه الناس للغذاء . وأمتنا أحوج ما تكون اليه أولاً وفي دولتكم نحو خمسة آلاف قرية ومزرعة ومنها ما هو كبعض المدن ليس فيها الى اليوم سوى ٣٤٠ مدرسة ابتدائية ووسطى وعليا واذا لم نبدأ بتجهيزها بالجهاز المطلوب فمتى نبدأ واذا لم نقتصد من الكماليات كيف تتم لنا الحاجيات .

هذا ما اراه صالحا لخير التعليم المنتج وبهذه الطريقة تصرف الأموال على من جبيت منهم بطرق مشروعة معقولة ورأيكم العالي الموفق مولاي ،

دمشق في ٢٦ شوال ١٣٤٧ و ٦ نيسان ١٩٢٩

لحضرة صاحب الفخامة رئيس دولة سورية المعظم

أوصلني البحث في شؤون البلاد التي فتشتها بأمركم العالي في الوية الاسكندرونة والفرات والجزيرة وحمص وحماه وبعض انحاء ولاية حلب الى أمور رأيت عرضها على فخامتكم لتنظروا فيها «أيدكم الله» وتجروا ما يمكن اجراؤه من الاعمال التي تعود بالخير على هذه الدولة .

رأيت رغبة اكيدة في حرص الناس على تعليم أولادهم لا في المدن فقط بل في القرى الصغيرة . ومتى نشر قانون انشاء المدارس الذي تأخر في وزارة الداخلية على ما بلغني لأمور اعتبرتها جوهرية الآن يزيد عدد المدارس في الدولة خصوصاً في القرى والبلدان التي لا يصعب عليها أن تعاون الحكومة في انشاء الابنية لايواء أولادها . واذا طبق هذا القانون بالتدريج وبحسب الحالة التي يعرفها المديرون وقوام المقام والمتصرفون لا تمضي أعوام قليلة حتى يكون لكل مجتمع من الناس مدرسة . أما اتخاذ المدارس بالايجار فمحال أن تنتج منه النتيجة المطلوبة في التعليم فضلا عن أنه يكلف الخزينة والاهلين مبالغ لا يستهان بها كل سنة .

خفت هذه المرة الدعاية التركية في لواء الاسكندرونة على نحو ما تجلت لي في رحلتي الماضية اليها وكان بعض الطلبة الذين درسوا سنين قليلة في مدرسة تجهيز انطاكية يقبلون مجاناً في المدارس العالية في انقرة بدون شهادات . وبالنظر للضيق المالي هناك أخذت الحكومة تمتنع عن اعطاء الكراسي المجانية حتى ان بعض من درسوا سنة او سنتين في المدارس العالية في أنقرة من أهل هذا اللواء عادوا الى انطاكية يطلبون قبولهم في مدرسة التجهيز في الصف الذي يؤهلهم اليه علمهم واستعدادهم . وكثير من اهل القرى التركية في لواء الاسكندرونة زهدوا في الحروف اللاتينية وامتنعوا عن تعليم أولادهم التركية الا بالحروف العربية لانهم رأوا مصلحة اولادهم في ذلك وهم في ارض عربية .

شاهدت بعض مفتشي الوزارات يحتاجون أن يفتشوا ابداً لانهم يكتفون بالظواهر ولا يهمهم الا قبض رواتبهم واخذ العلاوات والتعجيز في الوصول الى ترقيتهم فهم مفتشون ليس لهم من معنى التفتيش شيء يستحقون عليه هذه الرواتب وفي زمرتهم مفتش المعارف في لوائي حمص وحماه فانه يشغل وزارته في التافهات وليس له من أدوات التفتيش ما يركن اليه اذا جد الجد . فاذا كتب للمدرسة الابتدائية ان يكون معلمها أو معلمتها من الكفاءة بمكان نجح الاولاد والا فهو لايعرف كيف يدرب الناقصين والعاجزين من المعلمين او يكتب لوزارته بالاستعاضة عنهم . فقد زرت مدرسة دير بعليه على مقربة من حمص فرأيتها أشبه باصطبل منها بمدرسة وفيها معلمان يشبه عملها عمل معلمي الكتاتيب الاهلية في القرى قديماً يتغيب أحدهما دائماً في حمص ولا من يعاقبه والآخر يكتب لأهل القرية حجباً وتعاويذ للمحبة والقبول وما أظن المفتش زار هذه المدرسة والا لكان اكتفى باكثر المعلمين كفاءة واخذ معلم الرقية والحجب على الاقل الى المدينة ليضعه تحت المراقبة مدة في مدرسة كبرى فاذا لم يصلح نفسه يخرج من الخدمة وكان الاولى اختيار واحد من المعلمين يجعله في قريه زيدل المجاورة التي بنى اهلها مدرسة كلفتهم ثلاثين الف قرش وهم يطلبون الى المعارف ارسال معلم ويكون هذا من أهل المذهب الغالب على تلك القرية .

إن فاقد الشيء لا يعطيه يامولاي ووظائف الحكومة للكفاءة لا لتأليف القلوب واكتساب الرضى ولذلك كان على كل وزارة أن تفكر ملياً يوم تريد توسيد أمر لأحدهم أن تنظر قبل شهاداته إلى ماضيه وأخلاقه وهذا مايدعوني لأن أذكر لفخامتكم أن من صغار النقباء والعرفاء في الدرك اليوم من هم أكثر كفاءة من بعض مديري النواحي ويعملون عملاً نافعاً لا يستطيع المدير القيام به لعجزه وعدم اهتمامه . وقد استطلعت رأي بعض كبار رجال الادارة فقالوا معي بلزوم الغاء هذه المديريات أو أكثرها وذلك أولى من بقائها في أيدي جهلة ينقصهم كثير من الصفات للادارة .

نعم كثير من الموظفين لا يحسنون من النظام وحسن الترتيب مايؤهلهم لهذه المراكز ومنهم من لا يعرف أكثر من البلد الذي هو فيه فاذا سألته عن أمر يتعلق بوظيفته مباشرة لا يحسن الفهم ولا الجواب فتتجلى لك جهالته وعدم عنايته ، وكأنه لا يهتم بغير مصانعة أصحاب الشأن أبداً والسعادة التي يرقبها أن ترقى درجته ويكون في مركز في بلده او بالقرب من بلده وقديذكر لك مايقاسيه وأولاده من شظف العيش قبل أن يطلعك على شكاوى الناس وما يجب عمله لتخفيف ضائقتهم والنظر في أحوالهم . وأحق الموظفين بالرعاية فيما رأيت موظفو لواء الجزيرة يجب ان تعطي لهم علاوات أو يعينون في أرقى درجات وظائفهم لصعوبة العيش المرفه في هذا اللواء وهذا ما أطلبه أيضاً لبعض المتصرفين فان رواتبهم لا تكاد تكفيهم لان يمثلوا الحكومة تمثيلاً كافياً ، ومراكزهم تضطرهم للانفاق بالضرورة . وارى بعد هذا أن لا يطول مقام الموظف في الاقاليم النائية عن الحواضر القديمة أكثر من ثلاث سنين .

ان من أنجع الوسائل في توطيد شأن الحكومات أن تطبق مفاصل القانون على المسيء ويكافىء الكفوء المستقيم وهذا ما رأيته يسيرببطء تقضي حالة هذه الدولة الفتية بالسير على خلافه لتزيد شعور الاهلين بان العاصمة تهتم بشؤونهم كل الاهتمام . وما احلى اليوم الذي ينحى فيه الموظف المسيء الجاهل ويعلن للملأ أنه نحي للسبب الفلاني ويكون ذلك باسرع ما يمكن لا كما جرى باحد قوام المقام في لواء الفرات فقيل ما قيل فيه واكتسبت أعماله درجة التواتر بل الثبوت وهو لا يزال في مركزه يأمر وينهي . وأنا لا أعلم السر في بقاء مثل هذه الحلمات الطفيلية في منصات الحكم . وإذا لم يكن للعامل من أخلاقه وغيرته على مصلحة بلاده وازع هيهات أن ينجع فيه قانون سماوي أو ارضي .

نعم ان من اخرجوا من الخدمة أمثال هذا الموظف ومن أبناء سلكه من هم بلا جدال أقل ضرراً منه بمصلحة الدولة والملة . الرشوة يامولاي كالزنا صعب اثباتها ولكن إذا أمن الراشي والرائش طائلة العقاب تتجلي

الحقيقة من أيسر وجه . والرشوة أنواع ومن أبشعها أن يصانع القاضي أهله ولذلك تقضي الحكمة بأخذ بعض الموظفين في الاسكندرونة إلى جهة أخرى وأخذ بعض رجال القضاء في حلب وفي دير الزور الى ناحية لا أهل لهم فيها . ونحن لم نبلغ من الرقي درجة الكمال حتى يكون حكمنا مجرداً عن هوى الاهل والولد . بيد أن العدلية كما سمعت من عارف من رجال الانتداب هناك احسن سلك أحس بالاصلاح لما دخله من العناصر الجديدة الجيدة وأنا أحسست أيضاً أن الدرك الذي كان أداة شر وافساد في العهد التركي أصبح من أرق الادارات في هذا العهد الحديث .

وإذا ثبت لدينا ان بعض المديرين وقوام المقامات ضعاف عن القيام بوظائفهم فان من صغار المأمورين الذين عينوا شفقة عليهم او لاسباب أخرى في وزارة النافعة مثلاً من هم أضر على اعمال الدولة من غيرهم . فمأمور لم يجد عملاً تجارياً ولا زراعياً ولا صناعياً تعطيه ثلاثين او اربعين ليرة سورية وهو سالبة كلية من حيث المعلومات وترسله يناظر على طريق أو بناية أو جسر أسرع إلى تناول الرشوة من المتعهد وغيره من الماء الى الحدور . وقد ثبت لبعض الواقفين من رجال الانتداب في لواء الجزيرة ان كل تعهد يقوم به الارمن هناك تكون أكثر مواده منشوشة لان المراقبين لا يحسنون شيئاً من فنهم ولا يهتمون بغير املاء جيوبهم والمتعهد جاء ليربح على كل حال . والرأي ان تختار الطريقة المتبعة في فرنسا يوم يراد تشييد مبان للحكومة وذلك بان يطرح العمل المنوي اقامة لأرباب الاختصاص يكتب فيه كل من يريد التعهد قائمة نفقاته ويعطي التعهد بعد ذلك لمن يقع اختيار الحكومة عليه وترى شروطه اكثر موافقة اما طريقة المناقصة فلم تأت اكثر الاوقات بغير الضرر ومن المناقصين من تعهدوا فحسنت مراقبتهم فخسروا ، وبعض من خفت المراقبة على أعمالهم التزموا الطريقة المذكورة في ارضاء المراقبين الجهلة حتى يسكتوا عن نواقص مشروعهم

وما ادخلوا من الغش على العمل الذي اخذوا على انفسهم القيام به بشروط محدودة مقيدة . اما الطريقة التي سير عليها في انشاء تدمر الجديدة فأنتم تعرفونها وتوقنون انها غير ملائمة من حيث الاقتصاد والمتانة وربما كان يتأتى اقتصاد ربع المبلغ الذي انفق على تدمر وكان في الامكان ارضاء الاهلين الذين استنكفوا او أكثرهم عن السكنى في دور مهددة بالسقوط كل حين وليس فيها من المرافق اللازمة ما يرغب في اقتنائها . ولعـــل الغلطة التي ارتكبت في اقامة هذه الدور لا ترتكب في المستقبل . اما الجامع الجديد في تدمر فهو يكفي لاهل قرية سكانها ثلثمائة نسمة لا لبلد سكانه اربعة آلاف ولذلك ضاق بالمصلين فأخذوا ينشؤن لانفسهم جامعاً آخر . والمدرسة المنشأة هنـاك حسنة لو عمـل الى جانبها مدرسة للاناث على طرازها . وعلى ذكر المدارس ارى ان يصدر امركم بانشاء مدرسة تجهيزية في حمص أسوة بجارتها حماة .

واني لمغتبط جد الاغتباط بما رأيت من قيام اعمال مهمة في بعض انحاء لواء الجزيرة الذي لم تضع فيه الدولة البائدة حجراً على حجر فان بضعة من الجسور والطرق والمدارس ودور الحكومة مثال من العناية بذاك اللواء الجديد والحكمة تقضي بمضاعفة هذه العناية وان ينشأ فيه في السنة القادمة عشر مدارس ابتدائية لا تكلف اكثر من عشرة آلاف ليرة سورية وينشأ جامع فخم في عين دوار . اما عمل الاهلين في ارض الجزيرة فهو اعظم أثراً ذلك لان الحسجة التي لم تكن قبل ست سنين سوى قرية صغيرة أصبح سكانها اليوم نحو خمسة آلاف وكذلك يقال في القامشلي التي لم تكن تضم قبل ست سنين سوى بيت واحد وطاحون فأصبحت اليوم تحوي اثني عشر ألفاً من السكان مخططة على صورة هندسية جديدة منارة بالكهرباء مغروسة بالاشجار ، وغداً تلحق بها عين دوار وغيرها .

وتعلمــون ايدكم الله ان معظم من هاجروا إلى تلك الارجاء هم من العناصر الكردية والسريانية والارمنية والعربية واليهودية . وجمهرة المهاجرين

في الحقيقة هم من الاكراد نزلوا في الحدود . واني ارى أن يسكنوا بعد الآن في أماكن بعيدة عن حدود كردستان لئلا تحدث من وجودهم في المستقبل القريب أو البعيد مشاكل سياسية تؤدي الى اقتطاع الجزيرة أو معظمها من جسم الدولة السورية لأن الاكراد إذا عجزوا اليوم عن تأليف دولتهم فالايام كفيلة بان تنيلهم مطالبهم إذا ظلوا على التناغي بحقهم والاشادة بقوميتهم ومثل هذا يقال في اتراك لواء الاسكندرونة فان حشد جمهرتهم فيها قد يؤدي إلى مشاكل في الآجل لا يرتاح اليها السوريون فالاولى اعطاء من يريد من الترك والاكراد ارضاً من أملاك الدولة في ارجاء حمص وحلب .

ثم ان من ينزل من المهاجرين على ضفاف دجلة والخابور وجغجغ والبليخ والفرات يقتطعون من شطوط تلك الأنهار ما يروقهم من المساحات فيستقون منها للارواء ما يقدرون على اروائه ويتركون ما وراءهم من الأرض بوراً لتعذّر السقيا الآن ولا يبعد أن يجيء يوم تمتلك فيه تلك الشواطيء — مع ان اكثرها ملك الدولة لها حق التصرف باعطائها لمن تريد — فاذا أحبت الحكومة أن تحيي موات الأرض البعيدة تعذر على من ينزلها الوصول الى ضفاف الأنهار فتبقى أرضه عذياً . والأرض العذي لا قيمة لها في هذه الجزيرة التي توفرت فيها المياه الجارية وارتفعت في جوها درجة الحرارة في الصيف الى مثلها في مصر والعراق اي انها تبلغ من ٤٤ الى ٤٦ درجة . ولذلك تقضي الحكمة بان توزع الأرض على نصاب عادل فمن يملك في الأماكن القريبة المأخذ تحتم عليه أن يحيي جانباً من الأرض الصعبة . ومهاجرة الكرد والارمن يجب في كل حال أن يمزجوا بالعرب في القرى الواقعة في أواسط البلاد لا على حدودها اتقاء لكل عادية تطرأ ونحن الآن في أول السلم نستطيع التفكير والتقدير .

بقيت مسألة مالية يظهر أثرها هذه السنة والعقل يقضي بحلها وأعني بها مسألة تعداد الأغنام . ومعلوم ان المواشي هي أهم مورد في لواء الجزيرة

واذا سقطت أسعار الصوف والسمن والماشية في كل مكان كان أكثر الاصقاع تأذياً بذلك من لا مورد لهم غير شياههم وجمالهم فالشاة التي نتقاضى منها خمسة وأربعين قرشاً سورياً يؤخذ عن مثلها في العراق نحو عشرين قرشاً سورياً وفي تركيا أربعون قرشاً تركياً أو نحو خمسة وعشرين قرشاً سورياً فاذا انزلنا هذه الضريبة الى النصف توشك أن تدخل أرضنا قبائل كثيرة من العراق وتركيا على ما جرى من قبل ويتخذون ديارنا موطناً لهم وننجو من التهريب الذي كان على مقياس عظيم في السنين الفائتة .
ولا بد من الملاحظة أيضاً ان الخروف الذي حال عليه الحول يساوي في قضاء القامشلي نحو ١٥٠ قرشاً سورياً ولا يساوي غير مئة قرش في قضاء عين دوار وذلك لصعوبة نقل الماشية في ربوع تعد مسافاتها بمئات الكيلومترات الى منافذ يمكن أن تقام لها سوق رائجة .

ولا أريد أن اختم تقريري هذا قبل ان احيط علمكم الشريف بمسألة لها المقام الاول في عمران دولتنا واقصد بها مسألة التشجير . فان غرس الاشجار اذا كان سائراً سيره الطبيعي في الساحل كلواء الاسكندرونة فانه متأخر جداً في ولاية حلب ولواءي الفرات والجزيرة . فوزارة الزراعة يجب أن تضاعف عنايتها بهذا الامر وتعهد الى اخصائيين من ارباب الهمم العالية ان يتوسلوا بكل وسيلة مع رجال الادارة لحمل الناس على تشجير أرضهم وحمل كل بلدية على ابتياع مايمكنها كل سنة من الغراس وتعهده بالارواء والايعاز لكل قرية أن تشجر ولو أرياضها كما فعل متصرف حمص وحمل بعض سكان القرى منذ ثلاث سنين على تشجير مساحات واسعة في جوار قراهم فنجح أكثره ومنه المثمر ومنه غير المثمر ولا يبعد ان يكون السليم في لواء حمص الآن من الاشجار الجديدة قد بلغ مليوني شجرة والهمة منصرفة بحمل الأهلين على اتمام مابدأوا به وبذلك يصبح لواء حمص نموذجاً بين الالوية التي عملت بارشاد الحكومة وقامت بواجبها .

هذا مارأيته بحسب ماساعدني الوقت واذا درست كل قضية بذاتها درساً

فنياً لظهر نتائج لاتخطر لنا الآن ببال . ومن الصواب بعد هذا أن يكثر كبار رجال حكومتكم الرحيل الى الالوية البعيدة خصوصاً ما كان متاخماً منها لمجاورينا وان يكون من يتولى فروع الاعمال الحكومية فيها من أرق رجال الامة عقلا وعلماً وعملا يعطون الاختصاص الواسع بحسب كل اقليم وصقع ليعملوا مافيه المصلحة غير مقيدين على الاكثر الا بقيود العقل . والمسؤول لمالى أن يزيد في توفيقكم لخدمة البلاد مولاي المعظم

دمشق في ٨ رجب ١٣٥٠ و ١٨ تشرين الثاني ١٩٣١

وزير المعارف

محمد كرد علي

الاغتيال السياسي

لأول مرة اغتيل رجل من رجال السياسة في الشام . اغتيل صديقي الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وهو يخدم الانسانية في عيادته بدمشق ، بعيداً عن خليلته وأولاده في القاهرة ، وكان اتخذها دار اقامة في الربع الأخير من حياته . فاتهم بادئ بدء ثلاثة من كبار الكتلة الوطنية قيل انهم دبروا أمر القتل انتقاماً لكتلتهم ممن كان العامل الأكبر في تحطيمها ، فتآمروا على اغتياله على أيدي خمسة من الرعاع . وكان أحد المتهمين السيد جميل مردم هدد الدكتور في خطبه الرسمية أيام وزارته غير مرة ، ثم حاول أحدهم أن يقتله في طريق دومة فأخطأه ، ولكن تبين المحكمة أن الدلائل القانونية كانت غير متوفرة على المتهمين فغيروا ما اعترفوا به في التحقيق الأول فبرأتهم وادعى المتهمون ان ما حملهم على اغتيال الزعيم غيرة دينية ! وأشياء كانت شائعة عنه من مثل انحلال عقدة الدين وعقدة الوطنية فخدعوا وارتكبوا ما ارتكبوا ثم ندموا على فعلتهم . وكان بعض أحباب شهبندر يخافون على حياته في الأيام الأخيرة ، ويطلبون اليه التوقي ، فكان يقول : أنا ابن الشعب وخادمه لم أؤذه ولا اؤذى . لكن الاقدار جرت على خلاف ما كان يُرجى .

كان شهبندر يتهم بحب الانكليز والدعوة لهم ، وقيل إنه انتفع في مادياته من هذه الخدمة ، وهذا اجتهاد منه ، والمرء حرٌ باجتهاده على ألا يغفل مصلحة امته ، وإذا عد أعداؤه ذلك عليه سبة ، وأنكروا عليه عقيدته ، فان من المتزعمين من كان يعمل لفرنسا ، ومنهم لايطاليا ، ومنهم لروسيا ، وغيرهم للأتراك ، وما كانوا يرعون إلا مصالحهم الخاصة ، وما كانوا مثله الى الاستقامة وحب الخير . وشهبندر كان من القائلين بالوحدة

العربية ، ويعمل على اعـــداد قومه لها ، وكان مثال التسامح ، دام على نغمته السياسية منذ كان في المدرسة ، وفي ذاك الطور من حياته عرفته ، الى أن أتى مصرعه . ومهما اختلف الناس في الحكم عليه ، فهو أرق علماً وأخلاقاً من أكثر خصومـه ، أحباب الأمس أعداء اليوم ، وهم يفوقونه باتحاد كلمتهم .

قلت في تأبينه ان منزعه ما كان يخرج عن الدعوة لاقامة كيان سياسي لملته ، والسعي لشفاء اهلها من أمراضهم الاجتماعية ، والعمل على تهذيب النفوس بعلوم الحضارة الحديثة ، وثبت على هذه الدعوة النافعة ، وما عبأ بالمثبطات واستهان بحظ نفسه وأسباب نعيمه وراحته . وكان لفرط غيرته يتوسل الى اصلاحه بكل مالديه من طرق ، فكان يثور على الظلم وعلى الجهل يحاول أن يقضي عليها ، ولو كان السلاح الذي وصلت اليه يده لايسد كل الحاجة. وبقدر ماكنت ترى الدكتور شهبندر متلطفاً في طب الابدان ، كنت تراه صلباً في مداواة مااستعصى من أمراض الأوطان .

ومما قلت إنه كان يرى اصلاح السياسة اولى المطالب بالتقديم ، وأنه عمل للجماعة كما عمل لنفسه ، وصرف من الجهود للنهوض بأمته مالم يصرف بعضه من حاولوا أن يعدوا فى قائمة العظماء ، ولو كان كل فرد من أرباب المدارك يفكر في مصلحة قومه بالقدر الذي فكر به شهبندر ، لكانت حالنا على غير مانرى اليوم ، ولكنـا شيئاً مذكوراً في العرف الدولي ، وفي مجالس العلم العالمي .

وقلت أيضاً : ان التاريخ لايكذب مهما دلّس المدلسون فيه ، والتاريخ سيذكر الدكتور شهبندر ويذكر غناءه وبلاءه ، موزوناً بميزان العدل والنصفة وسيقول إنه من خير من نبغ عند العرب في هذا القرن ، وإنه أحد أفراد قلائل فادوا بأنفسهم في مرضاة الوطن ، وأثبتوا أنهم كانوا شيئاً في الحياة ، لاكالذين دخلوا العالم وخرجوا منه لم يحس أحد بوجودهم .

ولا يحول حبي لشهبندر ، وتقديري لجهاده ، دون قول ماأعرفه من

اخلاقه ، بعقب السنين الطويلة التي قضيتها في عشرته . كان على مايظهر يحسن ظنه بمن يدهن له ، وهو لايستحق الا الصفع والدع ، لذلك كثر من خرجوا على رأيه ، لما تصادموا وخاب ظنهم او ظنه فيا كان يؤمل كل واحد من صاحبه . وينسى او يتناسى من كان مدحه بالامس فيقدح فيه اليوم ، يحسّن ويهجن في فترة قصيرة من الزمن ، شأن بعض رجال السياسة . وكان في شبابه لايرى لاحد مزية إن لم يكن خريج الجامعة الاميركية في بيروت ، حيث تلق الدروس الثانوية ودرس الطب ، حتى ولو كان من عيار الامامين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري ، ويلهج بأن من لم يدرس الطبيعيات والرياضيات كما درسها هو لايحق له أن يمسك قلماً ولا ان يؤسس جريدة أومجلة اوينشر كتاباًاو غير ذلك من أعمال العقل . فطابع الاثرة كان متجلياً فيه تجليه في بعض من تخرجوا بالأميركيين الانجيليين .

كان بيانه في لسانه اوفر من بيانه بقلمه ، فهو اول خطيب فينا ، وقد يخطب في اليوم مرات ويجيد وهو في ارتجاله ابرع منه في تصنعه ، ويزيد خطبه امتاعا مادته من العلم ، ومعرفته تاريخ امته معرفة ندر ه أن يكتب لطبيب مثلها . وما كان بالكاتب الكبير ، وكتابته تعد من الدرجة الرابعة . ونظم بعض مقاطيع وقصائد في صباه ونشرها له الاستاذ كمفاير المستشرق الالماني في مجموعته ، فلما رأيتها منشورة الى جانب شعراء مجودين قلت : مالشهبندر والشعر ، وشعره ليس مما يروى ويتناقل ، وفي نشره دليل ضعف صاحبه في القريض والادب وأولى له أن يترك الشعر لمن كان في فطرتهم ، وتمحضوا له اعواماً أمثال خير الدين الزركلي وبشارة الخوري وفؤاد الخطيب وخليل مردم بك وشفيق جبري وأمثالهم من شعراء الشام .

أما في التأليف فلم يؤاته التوفيق فيه ، وغاية ماأثر له مقالات أكثرها مترجم عن الانكليزية ، نشرتها المجلات ولا سيما المقتطف والهلال . ونقل في الكهولة عن الانكليزية كتاباً في علم الاجتماع ماأظنه فهم ماترجم وكذلك القراء بالطبع ، ولذلك طواه على غره ، وما أحب نشره بعد

أن طبعه . وله مفكرات عن الثورة السورية ، وكان من أكبر دعاتها ، طبع بعضها والمفيد منها مارآه بعينه . وليس له غير ذلك من الكتب لأن السياسة لم تبق له مع طبه وقتاً لوضع تأليف ممتع .

وكما أنه لم يوفق في التأليف ولا في الشعر لم يواته التوفيق في تأليف أحزابه ، لأنه كان متساهلا في تخير معاونيه وأنصاره ، يتخذهم كيف اتفق من الفريق الذي يعرض له بادىء الرأي . وقد يكون بعضهم من الزيوف والذهب الابريز الخالص قليل فيهم . وربما كان له ان يجيب من ينتقد عليه تسرعه في اختيار الأشخاص أنه يختار أعوانه ممن يراهم أمامه من الجمهور ، ويتعذر عليه أن يأتي بغير هذا العيار ، ومحال طلب صنف من الطعام غير مذكور في قائمة الألوان . وعلى هذا يمكن أن يقال إن توفيقه في طبه أكثر من توفيقه في سياسته ، وأعني بالتوفيق التوفيق الذي يطمح هو وأحبابه اليه مع أن اشتهاره بالزعامة السياسية أكثر من اشتهاره بصنعته الأصلية وهي الطب.

تعرض للنوابغ واصحاب العبقرية أحوال يستغربها أرباب البصائر . طلب شهبندر وهو في وزارة السيد هاشم الاتاسي — على ما روى لي زميله في الوزارة وصديقه وصديقي رضا بك الصلح ، ان يقرر مجلس الوزراء ابعاد اثنين عن الشام ، وبوجودهما لا تستقر الحالة السياسية ولا تستقيم . وأنا اخجل من القارىء ان أصرح له من هما هذان الرجلان المضران ، وكانا من اعز احبابه ، وليس بينه وبينهما إلا الصداقة ، وهما لا يعملان يومئذ في سياسة توافقه ولا تخالفه ، وكانا فقط إن أراد احد بهما السوء أحسنا الدفاع عن انفسهما ، وكان هذان الرجلان المضران صديقي وصديقه عبد الرحمن باشا اليوسف وأنا (العبد الفقير إليه تعالى) وإلى أين طلب إبعادنا ؟ توسل بنفينا إلى الحجاز ، رهن أمر السلطان حسين بن علي ، وبالطبع إذا ساقتنا حكومة ابنه فيصل على هذه الصورة ، لا يلقانا ملك الحجاز إلا بما يلقى أعداءه السياسيين فيدفعنا إلى سجنه المشهور خشية من سراية دعوتنا إلى رعاياه الآمنين المطمئنين . وسجنه لطيف وظريف ،

عبارة عن بئر تحت الارض عميقة جداً قد لا يخرج منها السجين سالماً ، وإذا كتبت له السلامة يبتلى بمرض أو أمراض لا يبرأ منها .

ولما سقطت هذه الوزارة الاتاسية وهرب شهبندر وأصحابه ، قلت لرئيسها وقد جاء يودعني في داري : ليتكم نفذتم مقترح شهبندر بابعادي وابعاد عبد الرحمن باشا اذاً لاريتكم مقدار أنفسكم . فأجاب وهل رأيت هذا الاقتراح قد عمل به ؟ ومعنى ذلك أن شهبندر اقترح ذلك وما سمع له زملاؤه وأظنه لما خاب فيما بيته لي عاد في مجلس الوزراء فاقترح الغاء المجمع العلمي العربي ، وكان من قبل بضعة أشهر يود لو يكون عضواً فيه ، ويقول لي إنني خدعت اوروبا بهذا المجمع ، فأقول له : أنا اجتهد لافهمها اننا أمة ذات مجد قديم تتوفر الآن على احيائه .

ولما أنشأ شهبندر (حزب الشعب) ، قبل نشوب الثورة السورية ، اقترح عليه صديقي أسعد المالكي أن يعرضوا علي الاشتراك معهم فقال الدكتور : دعوه وشأنه هذا رجل يحب ان يعيش . قال أسعد : الحمد لله على ان عشت وكتبت (خطط الشام) ، وبعد نحو خمس عشرة سنة عرض عليّ شهبندر نفسه ان اشترك معه في حزبه الجديد (الهيئة الشعبية) فاعتذرت . وقد وقعت لي معه بعض أمور تدل على ايغاله في النسيان الذي يحمل ضرراً عظيماً له ولغيره « راجع فصل الجاسوس السافل من هذه المذكرات » .

طلب لي شهبندر أن انفى الى الحجاز مقهوراً ، وأن أنزل مكة مأسوراً ، والله أعلم إن كنت أعود من هـــذه الرحلة الشاقة الى وطني وأولادي ، ولما كان سجين قلعة أرواد تألمت لما حل به ، وتوسلت بكل الوسائل الى استصدار العفو عنه ، فكانت البرقيات والرسائل تكتب ويوقع عليها في داري ، وأنا موظف ومحظور على الموظفين الاشتغال بمثل هذه المسائل . دفعت الى هذا بدافع من حبي لشهبندر ، ولما تتقاضاني المروءة أن أقدم عليه ، ولا منّة لي في ذلك ، ولا نظرت أنه حاول الاضرار بحياتي ، بل أغضيت عما بدر منه ، وقلت إن العاقل لا يزهد في صاحبه بغلطة يغلطها ، أو ببادرة تبدر على لسانه ، وجل من لا عيب فيه .

ولما عرضت عليّ « الهيئة الشعبية » أن أرأس لجنة تأبين شهبندر أجبت الطلب في الحال وفاء له ، وخرجت بذلك عن خطتي في عزلتي ، وأنا حيادي غير حزبي ، ولهذا النظر أتوا بي ولاعتبارات أخرى رأوها مجموعة فيّ ، واشترطت ألا أخلط السياسة ببرامج التأبين فارتضوا بذلك ، وهيأت العمل على مايجب ، وصرفت في ذلك أكثر من أربعين يوماً ، زارني خلالها مرات من لا أحب أن أرى وجهه ، ولا يرى طلعتي ، واحتملت تعجيز من يحاولون الظهور على حساب شهبندر وحفلة تأبينه ، واستغلال اسمه ، واستثمار حزبه له ، واستثمار بعضهم لحزبه ، ولما تم كل شيء وفي آخر دقيقة ، وأنا أتهيأ للذهاب الى الجامعة مع أعضاء لجنة التأبين لأترأس الحفلة ارتأى أحد البارزين من أعضاء الهيئة الشعبية السيد زكي الخطيب أن تنقض ماقررته اللجنة من الاشارة الى بعض القصائد الرديئة والكلمات التافهة ، بدعوى ان اغفال أقوالهم مما يضر بحزبهم ، قال ومن الكلمات ماإذا صرف النظر عن تلاوته ، أو لم تتل كما كتبها صاحبها ، تخرج بها بلدة برمتها عن رأي الحزب ! فامتنعت من حضور الحفلة ، وما سوغت لنفسي أن أكون آلة للموتورين ، ولا تكأة للمشاغبين ، ولا أن أصير امعة يملي عليّ ابن الخطيب ارادته .

عفا الله عن أخي شهبندر كان حركة دائمة في حياته وبعد مماته ، وكان ثورة كله ماحاد عن خطته ، وأنا كنت مثله طول حياتي ماحدت عن دعوتي الى الاخذ بمذاهب التعليم والتربية ، لاعتقادي بان الامة في حاجة اليها قبل كل شيء .

لما انتهيت من كتب ماتقدم تساءلت كما كنت اتساءل عند كل اختلاف يطرأ بيني وبين من اشتغل معهم ، هل كان الحق ياترى معي في امتناعي من الخنوع لنقض ماتقرر أم أني لا أفهم وهؤلاء المشاكسون يفهمون

أكثر مني ؟ وقد رأيت أن معظم من اختلفت معهم خرجوا عن قانون العقل واحتقروني في باطنهم أن أرادوا استتباعي لتحقيق اغراضهم .

وشهدت في هذه المسألة أن من احتال لارضاء الصعاليك بالعبث بمقررات لجنة التأبين كان بعيداً عن الصواب بالنسبة لما جرى الاتفاق عليه وارتضوه من شروطي ، ذلك لأني ما كنت أعد أقوال من يراد تلاوة أقوالهم مما ينفع في تأبين الفقيد العزيز ، وهل يوافق العقل على أن تلقى كلمات لأفراد ماعرفوا بادب ولا بشعر ولا بسياسة ولا بشيء ، وما كانت غايتهم من الحاحهم في القاء كلماتهم إلا حب الظهور والتبجح أمام الجمهور . وكيف لعمري أطيق اشغال الوقت بالقاء كلمات المغمورين الخاملين وأترك كلمات النابهين العاملين أمثال أصدقائي من أعلام مصر شيخ أطبائها الدكتور علي باشا ابراهيم ورئيس الوزراء محمد محمود باشا وعظيم وزرائها حلمي عيسى باشا ، وشيخ كتابها الاستاذ عباس محمود العقاد وشيخ صحافيها الاستاذ عبد القادر حمزة باشا ورئيس مجلس شيوخها ورئيس نقابة محاميها الاستاذ محمود بك البسيوني ونابغة القانون فيها الاستاذ عبـــد الرزاق السنهوري وأضرابهم ممن تفضلوا وأجابوا رجائي وكتبوا في الراحل الحبيب ماكتبوا . وأن تغفل أيضاً كلمات علماء العراق أصدقائي البررة الشيخ رضا الشبيبي وطه بك الراوي والشيخ محمد بهجة الاثري وابراهيم بك الواعظ الى غيرهم من رجال لبنان وفلسطين وشرقي الاردن ومنهم من كانوا من أتراب الفقيـد وعاشوا معه سنين ، وكلامهم حجة في الترجمة له أمثال العلمـاء الاجلة اصدقائي منصور جرداق وبولس الخولي وأنيس المقدسي ، هذا منطق لاافهمه وأرجوه تعالى ألا يمنّ علي بفهمه .

هزل ومزاح

كنت يوماً في انكلترا ، فلقيت في القطار انكليزيين يتضاحكان ، فقلت للترجمان قل لهما : إني أعجب من حالكما ، فقد كنت أعتقد في الشرق أن الانكليز بعيدون عن الهزل ، وكل امرهم جد ، وأنهم عابسون لأن أجواء بلادهم أبداً عابسة ، وضحكهم قليل لأن الطبيعة لا تضحك في أرضهم إلا أياماً معدودة . وقد وصفكم الفيلسوف الاميركي أنكم جزائريون Des insulaires منقبضون عن الخلق ، تؤثرون الوحدة والعزوف عن المجتمع ، إذا رآكم انسان في فندق تجهدون ألا يمتعوه بالنظر الى عيونكم ، فلا يستطيع مجالسكم أن يقول شيئاً في سوادها وبياضها ، فضحكا وضحكنا .

وزارني في دمشق مرة أستاذان احدهما روسي من جامعة ليننغراد ، والآخر من عنصر انكلوسكسوني . وتحدث الي الروسي ، وتضاحكنا كما يتضاحك المتآلفون ، والاستاذ الآخر ساكت مقطب لا يبدي ولا يعيد .

فأحببت أن احركه على ثقل شهدته في دمه ، والتفت مخاطباً الروسي : قل لصاحبك هل من خدمة يطلب مني قضاءها ؟ كأخذ معلومات عن بعض المخطوطات ، أو الاجتماع الى بعض الشخصيات أو غير ذلك . فأجاب بعبوس : إني آت مع صديقي أرافقه ، وليس لي ما أسأل عنه . وهنا قلت له كلاماً استنتج منه اني اهزأ به ، وقال : قل للرئيس إن له شكلاً خاصاً . فقلت : نعم أصبح لي هذا الشكل بعد أن رأيت الدنيا مهزلة ، والممثلين في مسرحها هازلين ، ولذلك لا أزال أهزل وأضحك ، والحياة كما قال أحد كتاب الغرب فاجعة على من يشعر ، ومهزلة على من يفكر La vie est tragédie pour ceux qui sentent, comédie pour ceux qui pensent .

باغتني في بيتي زائراً بدون استئذان أحد محرري الفيغارو البارزية ، وكان يحمل سلاماً من بعض أصدقائي في باريز ، ويعرف عني أشياء منهم ،

ويحاول على ما يظهر أن يجمل مني موضوعاً يسلي به قراءه ، فقلت له في جملة ما قلت : إن سلطان المفوض السامي المقيم في سورية ولبنان أوسع من سلطان رئيس جمهورية فرنسا . ذلك لأن رئيس جمهوريتكم يمتع بسلطة محدودة ، أما المفوض السامي عندنا فسلطته واسعة النطاق ، ممتدة الرواق ، ومفوضنا يمين رؤساء جمهوريات ورؤساء وزارات ، وينحيهم عند الاقتضاء . أليس من يعين رؤساء جمهوريات ويقيلهم ، أعظم من رئيس جمهورية ضيق السلطة ؟ فضحكت امرأته ، وضحك هو ضحكاً كالعبوس . وقلت له : إن سورية لتغتبط أن كان فيها سبعون الف في جبل من جبالنا يؤلفون دولة . أليس هذا من الارتقاء الغريب في هذا العهد ؟ وودعني على ان يلقاني من الغد ، وقال إنه سيعيد الي الصور التي دفعتها اليه ، فما بعث لي بما كتب ، وما أعاد لي شيئاً مما أخذ . وسأله احد خلاني عما كان من تأثير اجتماعنا فيه ، فقال إن الرجل هزأة يسخر من هذا الوضع ، سامحه الله على هذا الحكم الجائر ، ومن يسخر من هذا الوضع ؟ .

لا جرم ان الانكليز يصطنعون الوقار كثيراً ، وجرعة الفرنسيس منه أقل من جرعتهم ، وفي طبقة المشايخ ورجال الدين وعمال الدولة كثير ممن يصطنع التزمت والوقار . وقد احببت مرة ان اخرق الحجاب مع صديقي الشيخ مصطفى عبد الرازق (ويرجع عهد صداقتنا الى سنة ١٩٠٩ وهو يطلب العلم في باريز بعد ان نال شهادة العالمية في الازهر) وذلك عندما عهدت اليه وزارة الاوقاف المصرية في وزارة محمد محمود باشا . فكتبت اليه كتاباً اداعبه فيه ، فما اخذت جوابه ، ولما اجتمعنا اعتذر عن الاجابة ، وحفته العناية الآلهية بدخول احد ارباب المصالح عليه في مكتبه الرسمي ، فقطع حديثه وما عاوده ، وهذا كتابي اليه ، وليعذرني السيد مصطفى على نشره ، فأنا هنا من الهازلين ابتعد جهدي عن عمل المتزمتين ، وارجوه ان يعفيني من جده ، ويؤثر به مواطنيه المصريين .

اخي الاستاذ

الله احمد على ان رأيتك تتقلد الوزارة ، وتذهب بالقابها ، وتنوء بأتعابها ، وتمتع بما يتمتع به الوزراء من مظاهر . الله احمد على ان تساوينا بالقاب سبقتك الى التلقب بها مرغماً ، فما اخليقني عند كل فرصة ، على نعومة خصصت بها ، من تهكم مها لان ملمسه في الظاهر ، فهو كالضرب على ام الرأس .

كنت الى امس الدابر تضايقني بلقب المعالي والوزير ، فاذا لبست بذلة قلت إنها لا تليق إلا بالوزراء ، وإذا وضعت على رأسي طربوشاً قلت هذا من كسوة اصحاب المعالي ، فالشكر لمصرف الاقدار على ما ابتلاك بما ابتلاني به من قبلك ، وعسى ان تطول لك مدة هذا البلاء على نحو ما طال بلائي .

احمده واشكره على ان احياني الى زمن ادركت به ثأري ، وشمتُّ بمن طالما شمت منه التنكيت اللاذع ، ولئن اكتفيت اليوم بهذه الاشارة لأحملن ، إن فسح الله في الاجل وهبطت مصر ، كل ما يحدثني المكر ان احمله للوزير صاحب المعالي ، وعندها ارد الصاع صاعين ، وأشفى بما يشفي النفس .

وبعد فلا اكتمك ان الحسد دب هذه المرة الى قلبي دبيباً ما شعرت بمثله من قبـــل . دب لما شهدت اثنين من خلاني يدخلان الوزارة (الثاني الدكتور محمد حسين هيكل باشا (١)) وقلت في نفسي : ولـكم كان اغتباطي شديداً لو من الله علي فولدتني أمي في ارض مصر ، وأنا من المخالفين لحافظ ابراهيم في قوله رحمه الله .

إذا شئت أن تلق السعادة بينهم فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً

فان قوله هـذا ابن العجز ووليد التشاؤم . أما أنا فلا أعتب على

---

(١) اتفق أن عاد الشيخ مصطفى عبدالرازق بك والدكتور محمد حسين هيكل باشا وزيرين للاوقاف والمعارف ايضاً في وزارة حسن صبري باشا فما رأيت أن أعجز ابن عبد الرازق بتهنئتي كما هنأته لما دخل وزارة محمد محمود باشا ، واكتفيت أن هنأته بقلبي ، ورجوت له التوفيق . ولما عهدت اليها الوزارتان للمرة الثالثة لم اهنئ اخي الشيخ مصطفى لا بقلبي ولا بلساني .

خالقي إلا لأنه لم يخلقني مصرياً ، حتى أحظى الحظوة التي أريدها من أبناء النيل وبنات النيل .

وإني لأعلم ، ولا خجل من الحق ، ان وزارة كالوزارة المصرية يؤلفها رئيس عاقل ، بإيعاز ملك عاقل ، لا تشبه وزارة شامية ، يؤلفها ويسقطها ضابط صغير من ضباط الاستخبارات . ووزارتنا وزارة متواضعة ، ليس لها من الروعة في الحقيقة ما لوظيفة مأمور المركز عندكم ، وإن قيل لكل من صاحبي البانيا وبريطانيا العظمى يا صاحب الجلالة .

كلمة جد أقولها لوجه الله : إني اهنيء الوزارة بك ، وأنت في نظر من عرفوا فضلك وخلقك أعظم من الوزارة . ورجائي أن تدوم لك الصحة لتقوى بما عهد فيك من حزم وعزم على اصلاح وزارتك ، فهي أكثر الوزارات احتياجاً الى الاصلاح ، عرفناك يا حبيبي الاستاذ مصلحاً مجدداً ، فهل لك أن تنفذ خططك في التنظيم ، لننجو من اتهام الغريب ايانا بالعجز المطلق ، حتى في تقويم ما اعوج من أوضاعنا الخاصة ، ولو أتيناها بأفضل رجالنا يعالج شؤونها .

أما بعد فان التبعة عليك عظيمة ، فاعرف ، دام توفيقك ، كيف تقدم للعقلاء حسابك يوم مفارقة منصبك . ولا برح طير اليمين والبركة يرفرف عليك وعلى آلك .

ووجهت رتبة الباشاوية على الشيخ مصطفى عبد الرازق بك أولاً وباشا ثانياً فكتبت اليه يوم ١٥ المحرم ١٣٦٠ و ١١ شباط ١٩٤١ ما نصه .

سيدي الاخ الحبيب .

وقع احسان جلالة المليك المحبوب بتوجيه رتبة الباشاوية عليك موقعاً حسناً في قلب الداني والقاصي . وتساءلت عما تكون حالة الاستاذ في مظهره الجديد ، وهو الذي ما كان يرضى عن التلقب بالشيخ بديلاً ، وقلت ها قد اتصل القديم بالحديث ، وجمع أخي العظامي الى العصامي ، فطاب الأصل والفرع .

والمهم في هذا الباب ألا تقيد اخوانك بلقب الباشا كل حين ، تطلق لهم حرية التلقيب ، ولو الى أجل مسمى ، من شاء أن يطلق عليك لقب شيخ تبسم له كما تبسم لمن يناديك يا باشا . وهذا لا يضرك ما دام لقب شيخ يولي الملقب به صفة رجل دين ، ولقب باشا يومئ الى أن صاحبه رجل دنيا ، والرجل كل الرجل هو الذي اسعده الله في الدارين « ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا » .

إذا تقرر هذا فلا حرج إذاً على من يلقبك في المجالس الخاصة بلقب شيخ ، حتى إذا كنت في الأندية الرسمية خاطبوك بالباشا . وبالنعت الاول يذكرونك بمجدك القديم ، وبالثاني بمجدك العظيم . اعمل ولا تبال الناقدين ، فأنت تذكر ما لقي شقيقك علي بك من مرارة التخلي عن لقب شيخ ، وكيف ندبه ورثى العمامة . وتفضل وأسأله هل يعاقب القانون من يسبقه لسانه الى تلقيب مخاطبه عن غير عمد بما لا ينطبق على ما يرضيه من كل الوجوه . فقد شهدت خصومات شديدة نشبت بين أناس أطلقوا على صاحبهم لقب (افندي) وهو يحرص على أن يخاطبه قومه بلفظ (بك) وعندي أن ليس ما يمنع من اتباع لفظ الباشا بشيخ أو الشيخ بباشا ، وإن قلّ ذلك في مصر ، فالملقب أيضاً قليل أمثاله في المصريين .

هذا على شرط ان تنبه على الحافين بك من أتباعك وخدامك ألا يلوموا من يغلط من أحبابك عندما يقول لك يا شيخ ، فإن عادة اعتدتها أنا معك ثنتين وثلاثين سنة مثلاً يصعب عليّ نزعها بين عشية وضحاها ، خصوصاً والشيوخ مثلي هم من الحافظين على الأغلب ، وحافظتهم قد تخونهم ، وليست كذاكرة الشبيبة والكهول .

هـذه مشكلتك بالباشا مع نفسك ومع الناس ، بقيت مشكلة أخرى نحتاج أن نبت بها في حدود العقل ، وأنا المستهدف لها أكثر من غيري ، فيما يستقبل من دورات انعقاد مجمع اللغة العربية ، هذا إذا انفسح الأجل وشهدت جلساته ، وإلا فالاجتماع في سدرة المنتهى عند جنة المأوى .

في علمك أيدك الله أنه كان في الأعضاء القدامى (باشاوان) فأصبحوا اليوم بمن ضموا اليهم من اخوانهم الحدث ثمانية ، عدد أبواب الجنة ، وربما لا يطلع فجر العام المقبل حتى يصبحوا عشرة مبشرة باللغة وأدبها ، اللهم زد وبارك ، أي يكون نصف الأعضاء من ساداتنا المصريين في هذا المجلس العلمي من الباشاوات ، فماذا تكون معهم حال أتاوي مثلي يا ترى ؟ وهو ما تشرف حياته برتبة ولا تحلى بلقب ، وقصاراه من دنياه ، أن تتكرم عليه أرضه بلقب (سيد) كلمة تطلقها على راعي البقر وراعي البشر سواء .

الله يحب الحق ، إن روعة لقب باشا دونها كل روعة في الألقاب ، على نحو ما كان في الغابرين لقب شهاب الدين ، وكل لقب كان فيه (الدين) ومهما قيل في ثقل ظل بعض من يطلق عليهم لقب شيخ فانه ينطوي على معان جليلة محببة الى القلوب . أما كلمتنا التي استأثرنا بها وهي السيد فما زلت أقلبها على ألمح فيها مالفقوا لها حتى أخرجوها عن أصل معناها ، وأخذوا منها معنى السيادة ، فلا أهتدي الى وجه في التعليل . ويؤلمني أن اسجل هنا أن السيد ككيس هو المسن من المعز أي التيس والجمع تيوس كما في القاموس .

والغالب أن واضعي اللغة كانوا يوم ايجادهم معنى التشريف للسيد في ظرف كالظرف الذي وضع فيه المجمع اللغوي لفظ (فنان) لارتيست . والفنان في الأصل (حمار الوحش) . وغفر الله لأخي الجارم كم حرص على اقرار هذه اللفظة حتى خشيت يومئذ ، اذا لم يقر المجمع كلمته ، أن ينتهي الأمر بحدوث أزمة مجمعية ، كما تحدث ، وقاك الله ، الازمات الوزارية . ورأيته مغتبطاً لما وافقه اخوانه على اطلاق اسم حمار الوحش على المصورين والمصورات ، والشاعرين والشاعرات ، والمسمعين والمسمعات ، والراقصين والراقصات . وما أدري هل كانت بينه وبين هذه الفئة الجليلة طائلة من الطوائل ، وعهدي به ابن الشعر وربيب الأدب ، غير مطعون عليه في سلامة ذوقه .

التمس عفوك لاشارتي الى معان كان الأولى أن أصون كتابي عن التعرض لها ، ولكن هل نحن ، رعاك الله ، إلا في صدد مجمع لغوي ، ولا حياء في الدين ولا حياء في اللغة . وأسأله تعالى أن يجنبنا مصارع السوء ، دعاء أدعو به في كل ممسى ومصبح ، منذ قرأت ما قاله أحد علماء الأمراض العقليـة من أن ثلاثة أشياء تورث الجنون ، العشق ، والتعمق في اللاهوت ، والبحث في اصول اللغـة . وسلام عليك وعلى رصفـائي المشايخ والباشات .

فأجابني الأستاذ بقدر ما تسمح له رتبته ومرتبته ومما قال : «ثم ابادر الى الاجابة عما تساءلت عنه من حالي في مظهري الجديد ، ولو رأيتني لما رأيت مظهراً جديداً فانني لأزال شيخاً معمماً يؤكد أسباب مشيخته اشتمال الرأس شيباً ، ولا يهولنك يا صديقي ما تقدر من روعة اللقب ، فما تخفض الألقاب حراً ولا تسمى ، على حـد قول الباشا البارودي ... » وانتهى الاشكال ، والحمد لله على كل حال .

هذر

دعاني رئيس الجمهورية السورية الشيخ تاج الدين الحسني لتناول الطعام على مائدته لتكريم الاستاذ محمود عزمي من رجالات مصر ، وكان معنا الآنسة فلك طرزي وثلة من الوزراء والامراء منهم قائد الثورة السورية صديقي سلطان باشا الاطرش وأمير من أمراء العراق ورأيت القوم ساكتين كأن على رؤوسهم الطير مؤثرين الخضم والقضم عن الكلام والمؤانسه فافتتحت الحديث موجهاً الخطاب الى صديقي عزمي بك ، فقلت له ان الآنسة طرزي افتتحت موسم محاضرات السيدات هـــذه السنة في ردهة المجمع العلمي العربي وتابع زميلاتها محاضراتهن بعدها ، وهذه أول مرة يستقل السيدات بالقاء المحاضرات على بنات جنسهن ، وكان الرجال من قبل يتولون القيام بهذه المهمة . فقال الرئيس لقد نجوت من المشايخ . والتفت الى ضيوفه وقال لهم إن جميع مشايخ دمشق يخافونه ، فاجبته ولكن في دائرة العدل والمنطق ، فاني ورصفائي نعلم الناس ونراقب بانفسنا مانقول وما نكتب ، والمشايخ في حلّ منا مالم يتحرشوابالمجمع العلمي فاذا فعلوا أخرجت لهم مساويهم ، وأنا من أعرف أهل البلد بها ، واذا التزموا السكوت لا أتعرض لهم . فقـــال سلطان باشا كلاماً يمدحني به على خدمتي المعارف وعلى ماألفت من الكتب . فقلت له : ياباشا اسمع مني ، أنا خدمت الامة مقابل أجرى ، واعطتني فوق ما استحق ، وأنت خدمتها خدمة عظيمة فماذا كافأتك ؟ ياباشا لاتؤاخذنا نحن امة لاتقدر الرجال اقدارهم ، ولو كنا نعرف للمحسن احسانه لاقمنا لك تمثالا في كل بلد . والتفت الى ضيفنا العزيز وقلت له بالفرنسية ان هذا الرجل الذي يقرظني هو أشرف رجل فينا ، بل هو مثـــال الشرف . وبالطبع لم يرق هذا الكلام صاحب

الدعوة ، ولعله كان يريد ان أقول له إنه هو الذي نفع سورية بما لم ينفعها أحد قبله . وشتان بين من يعمل لمحض خير الامة ، ويهون عليه ذهاب ماله وخراب قصوره في سبيل قوميته ووطنيته ، وبين من يكاد لا يفكر حياته في غير مصلحته .

قالت لي ابنتي الكبرى مرة اني أعرف ان فلاناً من أصحابك وانك تحبه وتعرف له قدره ، فقلت لها : حق ماتقولين ولكن الرجل لايحب إلا نفسه على مايظهر ، ولا يشتاق لاحد ، وقد اتغيب عنه مدة فلا يسأل عني ، هذا مع الاعتقاد بانه يحبني ويجلني ، وقد كان ابوه على شاكلته مع عشرائه واحبابه ، وعاتبني ذات مرة على انقطاعي عنه ، فصارحته بمعاملته لاخوانه ومعارفه ، وكان يريد أن يزار ولا يزور ، واذا زار فبدافع قوي جداً ولا يسأل عمن غاب ، ويريد أن يشخص الاهلون الى مجلسه أبداً. فاجابتني البنيَّة عجيب وهكذا نساء هذه الاسرة ، اذا اجتمعت اليهن أظهرن كل لطف وشوق ، واغيب عنهن مدة طويلة فلا يسألن عني ، وكثيراً ما افاتحهن بهذا الاهمال اذا اجتمعنا بالعرض ، فيعتذرون ويطلبن بالحاح العودة الى تبادل الزيارات . النساء كالرجال والفروع كالاصول .

تألفت وزارة في عهد من العهود دخل فيها أحد أصدقائي فشخصت اليه اهنئه في مكتبه ، وكان في جواره مكتب أحد رصفائه في الوزارة فرأيت من اللياقة أن أزوره أيضاً ، وهو من معارفي ، ومشهور باستقامته ونزاهته ، فتهلل كثيراً لزيارتي له وما كان بيننا تزاور من قبل واتتني منه بعد أيام بطاقة مطبوعة بالمطبعة على مثال النشرات التجارية التي ترسل لكل انسان يشكرني على تهنئته بالوزارة باللسان الرسمي الجاف . فقلت لصاحب لي كان إلى جانبي : ان الرجل لايعرف الواجب ، فان هذا المنشور العام قد يجوز ارساله لاكثر موظفي وزارته وغيرهم من عامة القوم ، ولا يرسل لأصحاب المقامات ، ومهما عظم الرجل في بلد كبير

لايخلو فيه من عشرة أشخاص هم أعظم منه سناً وعلماً ومقاما ، فعليه مع مثل هذه الطبقة أن يسمى بنفسه الى اربابها لا أن يكتفي بالبطاقات عن رد الزيارات ، وعليه أن يعاملهم بالمثل على الاقل إن لم يحب أن يزيد في اكرامهم . ودارت الايام وتقلبت بالرجل الاحوال عزلا ونصباً فما زرته بعدهـــا ولا سلمت عليه إلا السلام البسيط وذلك إذا لقيته عرضاً في شارع أو مجلس .

مسألة اعطاء كل انسان حقه من الخطاب والألقاب مسألة دقيقة ، فما كل من مسك القلم كتب كتابة مقبولة ، تستوفي غرض مرسلها وترضي المكتوب اليه ، فان ما يخاطب به الصغير لا يخاطب به الكبير ، وما يقال لزيد من العبارات لا يقال لبكر .

لما فقدت قرينتي جاءتني من أصحابي تعزيات كثيرة فأجبت كل واحد جواباً غير جواب الآخر ، فاستغرب هذا مني من اطلع على رسائلي ، فقلت له إن الاصدقاء درجات ومن عزوني من طبقات مختلفة ، وتختلف درجة صداقتي لشخص عن شخص ، وكلهم بحسب الظاهر صديق وحبيب ، ولذلك وجب ان يكتب لكل واحد بما يناسب علاقتنا وصداقتنا ، على ما يقضي بذلك الذوق ثم العرف والعادة .

عزيت مرة أحد أصدقائي البغداديين بوفاة أبيه ، وكان ذا منزلة رفيعة في نفسي وفي نفوس العرب ، وابنه في منصب كبير ، فكتبت له كتاباً بخطي ودفعته الى رئيس ديوان الوزارة ليقرأه فاستحسنه ، ولم نرد ان يكتب على الآلة الكاتبة بل ابقيناه بخطي زيادة في التكرمة ، وجاء الجواب بعد مدة في نشرة مطبوعة زاد المعزّى في آخرها بضع كلمات ظنها وفاء حق في التعظيم ، فدفعت الجواب الى رئيس الديوان فاستغرب صدوره من رجل تناول مثل ذاك الجواب اللطيف ، واجتمعت بصاحبي هذا بعد حين وآخذته على كتابه وقلت له كان عليك ان تكتب بنفسك وبعبارتك وخطك جواب تلك التعزية ، او تعهد الى كاتب تلقنه فكرك فيعبر عن رأيك اصدق تعبير ، ويكتب لك ما تريد انت لا ما يريد هو . اما انا فقد كتبت بقلبي وعاطفتي

وانشائي ، وما كنت موظفاً في ديوان من دواوين وزارتك ولا عاملاً في ناحية من ارجاء دولتك ، وقد تحتاجني انت ولا احتاجك ، وصداقتي لك قد تنفعك وصداقتك لي لا تنفعني ولا تضرني . كانت عبارتي قاسية ، وهكذا جاءت ، ومن ادب صاحبي ان سكت وراعى حقوق الأخوة ، وما رأى ان يوسع شقة الخلاف ، بعد ان تجلى الحق تجلياً لا مجال للمماحكة فيه . وما كنت أؤاخذه هذه المؤاخذة لو لم أكن على مثل اليقين انه ممن يعقل ولمعظم التبعة على عظم فهم صاحبها ، وصاحبي هذا كان غاية في التهذيب والأمانة والسراوة ، جل من لا يسهو ولا يهفو .

واذكر اني لما زرت الأندلس ، ارسلت الى اصحابي في الاصقاع العربية بطائق بريدية من غرطانة عليها صور العاديات الاندلسية ، وكتبت على كل بطاقة سطراً يخالف بلفظه ومعناه ما كتب على البطاقة الاخرى (واظن كان عدد البطاقات مائتين وكسراً) . ذلك لانه كان من المرسل اليهم الاستاذ المبجل والصدر المحترم والصديق الذي تجمعني به عدة جامعات ، ومنهم القريب والنسيب . وكان لما ارسل وقع عند المرسل خصوصاً لمـــا قابل بعضهم ما بعثت اليهم من العبارات .

عزيت وزيراً مصرياً بعزيز عليه فأتاني الجواب بخط احد كتاب الوزارة على ما يظهر يحمل يبوسة الرسميات ، وما اظن الوزير كتب ذلك ولا أملاه ، وإنما هو من صنع كاتب صغير في الوزارة اعتاد ان يكتب هذه الكتابات الموجزة لصغار الموظفين عندهم ، وغلبتُ حسن الظن وقلت في نفسي لا أشك ان الوزير وقع هذا الكتاب بدون ان يقرأه ، وكثيراً ما تجيئني مثل هذه الرسائل الرسمية الجافة فألقيها في سلة سقط المتاع ولا اعود إلى مراسلة صاحبها وكنت اذا اضطررت الى مراسلة بعض العظماء ممن لهم علاقـة بالمجمع العلمي العربي او بوزارة المعارف اترك الرسميات واكتب كتاب الاخوان ، حتى لا أساق الى استعمال اليبوسة الرسمية ، وتقصر مصطلحات الدواوين عن وفاء حق المكتوب اليه . ومما عاهدت النفس عليه الا اكتب

لكبير ، وهو على راس منصبه ولو مات كل اهله ، او قامت الافراح في جميع بيوتهم ، حتى لا يتحفني بالجواب مكتوباً بيد خرقاء ، وله من ضيق وقته إذا اراد الدفاع عن نفسه مايبرر موقفه مني ، ومع أني ممن لايرغب في تعظيم الناس بعضهم بعضا اكره من يكتب لي بما يكتب لكل انسان ، واذا تعمد الكاتب ذلك ، والغالب انه لا يتعمده ، فاني اعده قد هجاني فاقطع صلتي به ، وهذا ولا جرم ضرب من ضروب الضعف البشري ، بيد انه مظهر من مظاهر عزة النفس وحب الكرامة ايضاً ، وله نظائر عندالمدنيين ، واشياع كثيرون في الاقدمين والمحدثين ، ومن عاملك معاملة تشعر باحتقارك يدعوك الى تحقيره ، ويضطرك الى ان تخرج عن تواضعك لتناقشه في منزلتك ومنزلته وإذا اظهر قحة قد يكلفك غير أخلاقك .

فقد الاعزة

هبطت مصر أواخر سنة ١٩٤٤ وكنت آمل أن أهنأ بالاجتماع الى أحبابي ، وأنا أشتاقهم سنين ، فعلمت أن رئيس بمكو كتنا الأستاذ وحيد بك الأيوبي اصيب بفلج منعه من الكلام ، وأنه كلما عاده أحد أحبائه بكى وأبكاه ، فأشار أحد الأحباب الي أن الأولى ألا أعوده لئلا أشق عليه . ثم نعي الي أستاذان عظيمان من أصدقائي محمد رياض باشا وجعفر ولي باشا ، وما هي إلا أيام حتى نعي صديقي رجل الاسلام ومصر الأمير عمر طوسون . أربع مصائب في أيام قليلة ، وكلهم على صفات ممتازة من العلم والأخلاق والاريحية .

حدثني الوزير المصري حمدي سيف النصر باشا قال قضيت في السودان ضابطاً نحو أربع عشرة سنة وكنت وكيل الامير عمر طوسون في بعض شؤونه هناك ، ولا سيما في تربية بعض النابهين من أبناء السودانيين ، وقد علم منهم على نفقته الخاصة خمسين شاباً التعليم العالي . قلت له : وهذا عدا ما أنفقه من الاموال في خدمة القضية السودانية ، وانشأ المدارس والجوامع والمساجد في السودان ، الى آخر حسناته هناك وهنا ، ولا اراني مبالغاً اذا ادعيت أنه لم يخدم مصري قطراً غير قطره بأجل من خدمة الامير طوسون للسودان كما خدم مصر والاسلام بماله وقلمه وجاهه ، والأمير لا يعرف الا الخير ، وما تعرف الى غيره ، صرف فيه ماله ووقته . وحدث مرة ان مدارس العروة الوثقى ، وكان الامير رئيس مجلس ادارتها ، كادت تقف في أزمة مالية من أزمات مصر الشديدة ، فقرر مجلس ادارة الجمعية اغلاق ابواب مدارسها ، ريثما تنفرج الأزمة ، فما رضي الأمير عن هذا القرار ، واقترض في الحال مبلغاً من المال أمد به الجمعية ، وكان الأمير يومئذ مضيقاً أيضاً . ولا أذكر أن ثروة عظيم في الشرق أنفقت على أعمال الخير مثلما أنفقت ثروة الأمير عمر ، ولا عرفت رجلاً دأب على خدمة قومه أكثر من خمسين سنة بمختلف الطرق

أكثر من الأمير عمر . وأظن من سيقرأ هذا سوف يعطيني الحق في حزني على هذا الأمير لأنه فذ العرب بأخلاقه وعلمه .

كنت أسمع بالأمير عمر طوسون وانه علم الأمراء دؤوب على نشر العلم وفعل الخير ، وكنت أعجب بما كان من بلائه في الحرب الطرابلسية وغيرها ، وما كان لي شرف الاجتماع به ولا شرف مراسلته . ولما فجعت بأخي احمد كرد علي محرر جريدتنا « المقتبس » بعث الأمير يعزيني تعزية لا أرق منها ، ويذكر لي مناقب شقيقي وحسن خدمته للأمة العربية فانظروا الى هذه الاخلاق الشريفة يعزيني ومقامه مقامه ، وأنا لم أتشرف بعد بالاجتماع اليه .

نعي العظيم يقع موقع الألم العظيم من النفس ، فما بالك اذا كان الرجل الى هذا صديقاً براً ، عرفته وعرفك فتمازجت روحك وروحه ، ولا يستغربن اذا كان تأثرك لفقد مثله اكثر من تأثرك احياناً لفقد القريب ، ولطالما أحدث موت العظماء ثلماً في بناء الامم ، وما كل يوم تنبت الارض رجالاً من الصنف العالي كعمر ورياض وجعفر . فقد الصاحب العزيز من أكبر المصائب ، لايسلي شيء عنه من امور العالم .

دخلت على والدي في احدى العشايا قبل نيف وخمسين سنة وهو جالس في ثوبه يستعد لاستقبال سماره ، فرأيته متجللاً منقبض الصدر خلافاً لما اعتدت ان اراه ، فسألته عن سبب كآبته فما احار جواباً . ولما الححت عليه قال لي : إذاً خذ هذه السبحة واحص مني الاسماء التي اوردها عليك . فأخذ يورد عليّ أسماء منها ماسمعت به ومنها مالم اسمع ، حتى اذا قلبت ثلاثمائة حبة من حبات المسبحة وهو يقرن كل اسم بلقب (شيخ او افنـدي او آغا او سيـــد او بك او باشا) قال : كفى يابني هؤلاء اصدقاء والدك طوتهم الخرسا (يريد الارض) واصبحت انا بعدهم غريباً في هذه البلدة ، اليس من حقي ان انقبض ؟ اما انا فاكبرت منه هذا العاطفة واعجبت بذاكرته التي احصت هذا العدد الدثر من الموتى في ساعة وبعض ساعة . سبحان الباقي بعد فناء خلقه .

المصريون والسوريون

بعض العرب يتهم المصريين بقلة العناية بجيرانهم سكان الاقطار العربية ويقولون ان لسان حال المصريين أن واجب غيرهم أن يعرفهم وهم غير ملزمين أن يقابلوا المعرفة بمعرفة لان لهم من ارتقاء ما لا يحتاجون معه الى غيرهم ، ويهمسون بينهم أن من هبطوا مصر في أواخر القرن الماضي ما كانوا سلماً على مصر ، وان كل من ينزلها اليوم ونزلها أمس لا يقصد غير الانتفاع بها وربما انتفع بضررها ، وفي العادة ان يطمع في الغني بما لا يطمع بالفقير ، ولذلك كان ادلال الغني على الفقير . وما يصدق على الفرد الى حد قليل لا يجب أن يطبق على الجماعة . وحال هؤلاء يستلزم روابط محكمة وأن ينظر الى الامور أعلى من نظر الأفراد .

ليس من ينكر على الشعب المصري كرمه وأريحيته ، يتمثل ذلك في الطبقتين الدنيا والوسطى ، وبعض أهل الطبقة العليا أيضاً ، ويدخل فيها أرباب الرأي والثقافة ، وهؤلاء ينظرون الى هذه المسائل غير نظر الكثرة الغامرة ، فان منهم من تشيعوا بروح الاقليمية ، فوهموا أن في مصر كل شيء فلا داعي لأن يعنى أهلها بأمور غيرهم ، ولا أن يأخذوا شيئاً عما سواهم ، لأنهم سبقوهم وبرزوا عليهم ، والاشتغال بما لا يجب الاشتغال به مضيعة للوقت والمال ، والكامل لا يأخذ عن الناقص ، والعالم لا يقتدي بالجاهل ، وهذه القاعدة لا تطرد اذا أنصفنا ، فليس كل من ولد في مصر يكره من لم يولد فيها .

وترجع هذه النفرة في الجملة الى عاملين الأول ما كان من ضرر بعض هذا الغريب على مصر لما استعان به الحاكم في مقاصد تخالف مقاصد الوطنيين ،

فكان عيناً وعوناً لأعدائهم عليهم ، والثاني جهل الأصيل بحال النزيل أو الدخيل ، فالأول لا يعرف عن الثاني شيئاً يصح به اصدار حكمه على مجموعه ، فان أمثال من يشكون منهم توجه اليهم من مواطنيهم مثل هذه الشكوى ، وسيرة المتجرين بالدناءات لا تحمد في أمة من الأمم . ويشكو المصري الى ذلك من تصرف ذلك المرتزق في التجارة وغيرها . وهذه الشكوى تتناول الدخيل من الأجانب ، والدخيل العربي على كل حال أقل شراً من أكثر الدخلاء . ومن جهل بعض المصريين في الدهر الغابر أن كانوا يعتقدون أن سكان الشام غير مسلمين ، والمسلمون منهم عبارة عن أولئك المتشردين والمهربين ، وبالاختلاط عرف المصريون سكان الشام غير المعرفة الأولى ، وأدركوا الطبقات التي تعطف عليهم ، والطبقات التي لا تهم الا لاملاء جيوبها من خيرات مصر ، وتخدم على العمياء كل من يفضل عليها .

وتقدم الدخيل في دواوين الدولة المصرية ، واغتنم المتجرون فرصة انتشار الأمن وعدل القضاء ، فتوسعوا في متاجرهم ، وهم من أكثر العارفين بطرق الكسب ، فأفلحوا وملكوا الأرضين والعقارات ، وعمروا القصور واغتنوا بنشاطهم واقتصادهم ، وبمنافستهم للغريب والقريب . ومصر مبتلاة بالغريب من أزمان طويلة لا تعيش وحدها مها بلغ من غناها وعلمها ، ومهما دلت به من مركزها ، ومهما وضعت العراقيل في طريق المهاجرين اليها ، فالقوانين الطبيعية لا يتغلب عليها قانون ، ومصر في الواقع تقوى بمن ينزلها وتمصره تربح منه ويربح منها .

والخوف اليوم من أن مصر قد تضطرها أحوال الأقطار المتحدة معها الى الانفاق عليها غير وارد فان للاقطار الاخرى مواردها وهي غنية أيضاً تستطيع أن تقوم بأود جيش وحكومة كما هي الآن وكلما حسنت ادارتها ارتقت اقتصادياتها وقويت معنوياتها .

يزيد اختلاط مصر بالأقطار العربية اليوم بعد اليوم ، وكان هذا التمازج مقصوراً على الشام ومصر فتناول اخيراً العراق وجزيرة العرب

وبعض شمالي افريقية ، ويزيد هذه العلائق احكاماً تلك المؤتمرات الطبية واللغوية والثقافية والهندسية والاثرية والحقوقية والسياسية والاقتصادية والنسائية التي تعقد في مصر والشام والعراق والحجاز في كل سنة فيتعرف بذلك عشرات من أهل الرأي والعلم الى وصفائهم في مصر ، وكلما كثر تعرّف هذه الشعوب قوي الأمل في تحقيق أماني العقلاء في الوحدة العربية الشاملة.

ومن أهم العوامل في تمازج العرب ان يشخص أهلها في كل داع الى البلد العربي المجاور يتجرون ويسكنون ويصطافون ، وعليهم أن يتبادلوا الأساتذة فان الرجل الراقي اذا نزل على قبيل كان بالضرورة واسطة تعارف ، وصلة من صلات الوصل الجميل ، بين من أتت عليهم أزمان وبلدهم مفصول جسماً وان لم يفصل روحاً عن بلد جاره . ومن أهم ما يجب على المدارس تلقينه أن تدرّس بعناية تاريخ كل قطر دراسة واسعة بحيث يكون تعارف صغار العرب بهذه الدروس مقدمة الى اختلاطهم ببني قومهم متى كبروا . والحكومات في بعض الأدوار كانت السبب في قطع أوصالهم ، وقد زالت هذه الموانع اليوم ، وتحتم على كل عربي أن يشارك بهذه النهضة ما وسعه أن يشارك ، وليس عندنا ما يقال الآن للشعوب العربية الا قولنا : تعارفوا وتعاطفوا ، فالتعارف رأس كل اتحاد والتعاطف روح كل اجتماع .

بعد الفترة

انقطعت نحو سنتين عن متابعة التدوين في مذكراتي لما عراني من دهشة الحرب على نحو ما عرا العالم جمعة . وغريب ان أدون وأنا أشهد موت القرائح وجدب الأدب ، وانقطاع تبادل الافكار بين الغرب والشرق . قُطع بين كل قطر وقطر ، وتعذر السفر في الجو او على اليابسة إلا بقيود ثقيلة ومراقبة شديدة ، وذلك حتى في حدود بلدين متقاربين ، اما السفر في البحر فتعذر إلا من الاجواء البعيدة عن الخطر قليلاً ، وملت الآذان سماع الأخبار لما تحمل من دعايات ، وما يتخللها من مبالغات ، واشتاقت النفوس الى العلم المجرد الذي كان يفيض من الغرب قبل الحرب ، وود الشيوخ لو طالت اعمارهم حتى يروا طلعة السلام في العالم وما تسفر الحرب عنه ، وها قد دخلت الحرب في الربع الاول من سنتها الخامسة وتمضي عليّ أيام لا أمد يدي الى المذياع التقط منه خبراً من الاخبار ، وإذا اتفق ان قرأت صحيفة سياسية فقراءة عنواناتها تجزئني على الاغلب ، إذ كل ما يكتب يراقب ، وكل ما يراقب تكثر الظنون في الحكم على صحته ، وكل قول يحاسب عليه قائله .

وصدق الجنرال كاترو وهو يعرفني إلى اركان حربه بقوله ان صاحبي هذا شهد مثلي الحربين الحرب العالمية وهذه الحرب . وأنتم سعداء لأنكم لم تشهدوا إلا الحرب الحاضرة . ولعله يريد أني كنت مثله من شهود شدتين على البشر ، أما انا فقد شهدت ثلاثاً فكنت من شهود الثورة السورية عامين ، دع حروب الدولة العثمانية كحروب اليمن وحروب جبل حوران وحرب الارمن وحرب طرابلس وبرقة وحرب اليونان والبلقان وغيرها وربما كان مجموع سني الحروب التي أدركتها أكثر من عشرين سنة .

طال تمويهي على نفسي هذه المرة لأجلب اليها السلوى فما أفدت شيئاً ، وكنت يعلم الله شبه سجين مرفه عليه تراقب حركاته وسكناته وترسل العيون عليه لترى ما يقول وما يفكر وما يعمل ، وينظر في كتبه اي تراقب حتى يسمح له بقراءتها أما ان يكتب وينشر ما يريد فهذا مرام دونه حدَد. ولولا ان كنت افزع ثلث ايام الشهر الى القرية ثم سكنتها لابعد عن حركة القصبة واخبارها وآلامها لزدت غماً الى غمي وهماً الى همي ، وكنت اشغل النفس في جملة ما أشغلها به بموضوعات ما كنت استحب ان أطرقها لاعتقادي بأن غيرها أفيد منها كبحثي في غوطة دمشق وتاريخها وطبيعتها وأدبها ولهجتها ، و ككتابي مختصراً في وصف دمشق وتاريخها وحاضرها ، وكتدويني لمذكراتي السياسية وغير ذلك وان قال بعض الناهين ان هذا من اهم ما تجب معالجته .

إي وربي اصبحت أتألم لسماع تلك الاغنية المحزنة التي لم تتبدل يوماً واحداً منذ أكثر من ألف يوم . قتل وجرح وأسر ونسف وقذف واغراق واحراق ، وقائع يرمضني سماعها ويزيد في ألمي كلما ذكرت من يقتل كالبحارة والطيارين والضباط وأمثالهم ، وأقدر لنفسي عدد من يقضى عليهم باليتم من الاطفال والترمل من النساء ، واقدر في باطني العيون تبكي كل يوم . هذا فقد ابنه ، وهذه مات وحيدها ، وتلك هلك ابو مثواها ، واولاد خسروا من يكدح لهم . وتألم نفسي هذه الايام أن ارى الأخلاق تفسد ، والصدق يقلّ ، والفحش يزيد ، وألا يرى معظم السكان حرجاً في الكذب والسرقة والسفاهة ، وغدا الانسان اشرف المخلوقات لا قيمة له الا بقدر مايستطيع ان يقتل أخاه في الانسانية . وفي الحروب ترتفع أسعار كل شيء وترخص قيمة الانسان .

أنا هنا لا أتظرف ولا أتلطف ، وإنما هي خواطر نفس ابديها ، وحقائق ابثها لا أكاد اخفيها ، ولطالما حاولت ان احسن الظن بمستقبل الانسانية ، فما هي إلا أيام حتى يظهر هذا الناطق المتمرد بمظهره الحق ويكتسي كسوة

الهمجية ، وليس هناك من يفكر في حرام او غبن اذا كان في الحرب تصحيح الحدود بين دولتين واستئثار واحدة بارض كانت لغيرها ، وسر الحرب اليوم استئثار احد الفريقين المتحاربين بالسياسة العالمية ، ومن قبض على قيادها قبض على الغنى والسؤدد .

كنت اعزي النفس بأن ادون عما قريب اخبار السلام وما فيه خير للبشر واذا الامر يطول واذا النغمة في الاولى كالنغمة في الثانية ، واذا عقول البشر كلها اتجهت الى جهة واحدة وهي البحث عمن تكون له الغلبة من هذين الفريقين المتقاتلين ، واختلفت الآراء فمن متشيع للحلفاء ، ومن عاطف على اعدائهم مقدس للبطولة فيهم ، ومن شامت باحدى الدول لاساءتها في استعمارها الى آخر ما يقول فلاسفة الحرب وطلاب الثارات اذا خلت الميادين . ويسألونك متى تضع هذه الحرب اوزارها قل هذا ليس من علم الخلق ، وكذلك من المجهول كيف تنتهي وعمَّ تنجلي . وفي اعتقادي ان الغالب نفسه لا يعرف ذلك وغاية ما ادرك ان الغالب سيملي ارادته وتصبح الدنيا أما انكليزية سكسونية روسية او جرمانية يابانية والامر يومئذ لله .

دور جديد

بعد ان سقطت فرنسا في يد المانيا في السنة الأولى من الحرب الحاضرة تطورت السياسة فرأت بريطانيا ان تحتل سورية ولبنان لاسباب حربية فارسلت جيشاً طرد منها جيش الاحتلال الفرنسي او جيش من كانوا انتدبوا عليها بصك من جمعية الأمم، وبعد قتال دام اربعة وثلاثين يوماً في اطراف القطر الاربعة عقدت الهدنة يوم ١١ تموز ١٩٤١ وعهدت بريطانية الى الفرنسيس الذي سموا أنفسهم فرنسا المحاربة — أي الذين ظلوا على ولاء بريطانيا وتركوا فرنسا الأم — بالنظر في سياسة سورية ولبنان كما كانت على عهد الانتداب. فاوعز المندوبون الجدد الى رئيس دولة سورية وجمهورية لبنان بالتخلي عن الحكم وأتت السلطة الفرنسية للرياستين بشخصين اعتمدت عليهما فنصب المندوبون السيد تاج الدين الحسني رئيس جمهورية سورية بمرسوم من المفوض السامي الافرنسي قال فيه إنه ثبت له بالبحث ان صاحبه خير من يتولى الامر في سورية، ثم أعلنوا أن سورية ولبنان مستقلتان فارسلت اليها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة مفوضين سياسيين وتبودلت عبارات المجاملات الدولية.

ولما هلك الرئيس تاج الدين قام السيد شكري القوتلي أحد البارزين من زعماء الكتلة الوطنية فتبنى الزعامة بالاتفاق مع اصحاب الشأن وضمت الكتلة اليها أناساً ما كانوا من حزبها، وبدأت الانتخابات في عهد حكومة موقتة، وكانت الانتخابات في المدن حرة في الجملة وفي الاقضية تحت سلطة ضباط الاستخبارات الفرنسيين وجماعة الدرك السوري وهم يأتمرون بأمر الفرنسيس ومن نصبوه رئيساً للحكومة الموقتة، فخرج النواب من طبقات مختلفة وائتمر الضعفاء بأمر الاقوياء وانتخبوا السيد القوتلي رئيساً للجمهورية

وألفوا وزارة ضمت من سبق لهم تولي الوزارات من الكتلة وغير الكتلة ومنهم أربعة من رؤساء الوزارات وذلك برياسة السيد سعد الله الجابري وهو كالسيد القوتلي ممن جاهدوا في سبيل الاستقلال واضطهدوا . وكان معظم البارزين في المجلس من رجال الكتلة ، وبعض نواب الاقضية والمدن غير متأهلين التأهل الكافي لحمل هذه الامانة . وبات الرجاء معقوداً لما يتمتع به رئيس الجمهورية الجديد من الثقة ألا ترتكب الكتلة ما ارتكبته من الاخطاء في الدور الماضي . اما الانتداب الفرنسي فأخذ يتقلص شيئاً فشيئاً .

وأخذت بريطانيا العظمى تسعى لربط الممالك العربية برابطة واحدة فمهدت الى نوري باشا السعيد رئيس حكومة العراق بمفاوضة مصطفى باشا النحاس رئيس الحكومة المصرية وبدأت المفاوضات مع حكومة سورية وحكومتي جزيرة العرب ولم يتعرضوا للاقطار العربية في شمالي افريقية برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش . والغالب أنهم رأوا أنه لايسهل اليوم تحقيق هذه الأمنية . وما كانت انكلترا راضية عن الوحدة من قبل ولكن الحرب الحاضرة اثبتت لها فائدتها ، وتبدو الصعوبة فقط في حل مسألة فلسطين بعد أن وعدت انكلترا على لسان وزير خارجيتها بلفور بان تجعل لليهود من ارض الميعاد وطناً قومياً ، وليس ايجاد حل يرضي الفريقين العرب واليهود بالمتعذر على ساسة الانكليز ، خصوصاً بعد ان رأينا اليهود الواغلين على ذاك القطر قد تسلحوا واخذوا يطيلون ايديهم على رجال الحامية من الانكليز ، ونسوا ان البريطانيين كانوا يحمونهم من العرب الى عهد قريب وينزعون من هؤلاء كل اسباب المقاومة .

وهناك صعوبة قليلة مع لبنان لأن من أهله من بلغ بهم التعصب الديني مداه ، ولا سيا بعض تلاميذ مدارس المبشرين ، فهؤلاء لا يحبون أن يدخلوا في جامعة أكثريتها مسلمة ، وقد سبق لرئيس جمهوريتهم أن صرَّح بأن لبنان لا يجب أن يدخل مع سورية حتى في محالفات اقتصادية . قال هذا مع علمه

أن اللبنانيين يهلكون بدون أن تغذيهم سورية بحاصلاتها . ولبنان في الحقيقة مضطر إلى الدخول في الجامعة العربية ، والسوريون من أحرص العرب على هذه الوحدة وقد عزموا — كما قلت للمفوض السامي في فلسطين أثناء اجتماعي إليه مؤخراً — إذا أبى اللبنانيون الانضمام إلى الوحدة العربية أن يجعلوا من ميناء حيفا منفذهم البحري بدل بيروت ، وأن يقولوا لهذه عيشي وحدك كما تحبين . والغالب ان هذه الوحدة سيتمتع فيها كل قطر من الأقطار العربية بحكمه الذاتي ثم تلغى الجمارك والجوازات وقيود الحدود ويتوحد البريد والبرق والهاتف والنقد . وتصبح هذه الولايات مجتمعة الشمل بعد تشتتها ، والنجاح مضمون للشعوب المتآلفة المتحالفة . ولن يكون صوت الكبير كصوت الصغير في المعترك الدولي والنضال العالمي .

ورأيت اناساً من المفكرين يسيئون الظن بهذه الوحدة ويرون فيها سبباً جوهرياً لامتداد سلطة الصهيونيين تحت العلم العربي الموحد ، ذلك لأن فلسطين لا تكفي لتصريف بضائع معامل اليهود ولا حاصلاتهم من أرضها ومن المتعذر تصريفها في أوربا أو في غيرها ، فاذا تمت الوحدة يستطيع الصهيونيون أن يصرفوا بضائعهم وحاصلاتهم في جميع الممالك الداخلة في الوحدة العربية ، وأن يتوسعوا في ابتياع الأرضين في العراق والشام وغيرها ، وهذا مغنم غير قليل للصهيونية .

في مذياع القدس

دعيت إلى القدس لالقاء أحاديث في المذياع خلال شهر رمضان سنة ١٣٦٢ — ١٩٤٣ مع ثلاثة من أصدقائي الأساتذة طه الراوي العراقي والمصريان عبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد وكنا نحن الأربعة نحوم في أحاديثنا حول الوحدة العربية وإن لم نتفق على ذلك من قبل ، وما أوعز إلينا موعز بهذا الفكر . فكأننا والوحدة اليوم على كل لسان في ديار العرب قد رشحت أفكارنا من بيئتنا فأخذنا على أنفسنا اعداد العقول لقبول هذه الوحدة . وكنا في فلسطين نتمتع بحرية مطلقة في الأحاديث التي ألقيناها ، ومنها ما كان قبل أشهر مما يحذفه المراقب . وتفضل المفوض السامي فقال لنا في جملة حديثه إن جماعته سألوه فيما إذا كانت أحاديثنا مما يجب مراقبته فكان جوابه إن أحاديث الضيوف تدور على الأدب والشعر ، ولا يراقب الأدب والشعر ، فاعفونا من النظر فيما خضناه من الموضوعات . وقد احتفى بنا ولاة الأمر هناك وودوا لو نزور فلسطين كلها فاعتذرنا بضيق أوقاتنا وأرادوني في دار الاذاعة الفلسطينية أن أقول كلمة في تهنئة المسلمين والمسلمات بعيدهم فقلت الكلمة الآتية :

« يا بني امي ويا بني عمي . سلام عليكم طبتم وسلمتم ، وسعدتم ولا شقيتم .

تهنئات لكم بعيدكم ورجاء أن يعود عليكم وقد أظل السلام العالم ووقف عذاب الانسان للانسان ، وخفتت أصوات الشهوات ، وقلمت أظافر المطامع ، وعاد البشر إلى سكونهم وأمنهم يتراحمون ويتعاطفون .

وعيد الأعياد يوم يحنو غنيكم على فقيركم ، وتمتد يد موسركم إلى معسركم ، وينصف قويكم ضعيفكم ، ويكثر بين أظهركم صدق العهد وصدق الود ، وتقل الفوارق بين طبقاتكم ، وتتوحد الأفكار في باديكم وحاضركم فلا شعور إلا بالوطنية ، ولا دعوة لغير القومية العربية .

ما العيد إلا يوم يزيد عدد المتعلمين والعاملين على الجاهلين والأميين ، ويوم تكون الكلمة العليا للمصلحين ، ويوم تنعمون كما تشاؤون في الحياة الفاضلة ، تغتبطون لا تشكون ولا تألمون .

العيد يوم تستمتعون بحرياتكم ، وتسنون بأنفسكم دساتيركم ، وتنفذون بأيديكم قوانينكم ، تتحابون لا تباغضون ، وتنهضون لا تحجمون ، وتتحركون لا تجمدون .

وأسأل محيي الأمم ومميتها أن يوفر من السعادة قسطكم ، ويملي بالعلم كلمتكم على نحو ما كان أجدادكم ، وأن يعمر بالعمل الصالح دياركم ، ويحفكم بالسلامة ، ويشملكم بالأمنة ، ولا يجعل لغير العقل سلطاناً عليكم ، ولا لغير السداد سبيلاً إلى أقوالكم وأفعالكم إنه سميع الدعاء . »

كنت في السنين الأخيرة أهرب من السياسة ، كما كنت طول حياتي أهرب من الظهور ، والسياسة ترصدني وتلحقني آخذة بتلابيبي ، وذلك لما قام في نفسي بعد أن عانيت من السياسة ما عانيت أن الاشتغال بالعلم أوفر عائدة ، وان السياسيين قد لا يفيدون كما هو المتوقع منهم . وكنت إذا صادفت لطفاً من بعض قدماء أصحابي كرئيس جمهوريتنا الحالي السيد القوتلي وقابلته بمثله يفسره المفسرون بأني أطمح في منصب كبير فأضطر إلى الانقطاع عن مجالس أصدقائي حتى أقطع الألسن عني ، وغاية ما أطلب اليوم أن تطول حياتي حتى أعيد طبع كتبي منقحة ، وقد عزفت نفسي عن الخدمة ، وهي تحتاج من ذي الوجدان أن يعمل فيها عملاً نافعاً وإلا فأحجى به أن يتخلى عنها لمن يحسنها .

عود إلى الوحدة العربية . في الحروب تختفي الأحزاب السياسية وتتضاءل الحرية الشخصية ، وتبحث الأمم عن منافذ تخرج منها إلى دور سعيد مرعية الجانب موفورة الكرامة . ولما ظفر الحلفاء بأعدائهم من الالمان والطليان في شمالي افريقية وسقط بعض الأرض الايطالية في أيديهم قويت الفكرة

في تأليف الوحدة العربية فان اجتماع ملايين من العرب إلى غاية واحـدة مع مصر تتألف منهم كتلة عظمى يستحيل انتهاك حرمتها كل حين . واذا جاءت هذه الوحدة ناقصة بعض شروطها في أول الأمر لا يأتي زمن طويل حتى تستجمع صفات القوة والسيادة ، وما برح بعض المفكرين يستبعدون قيام دولة العرب ، فهم متشائمون لا يولون ثقتهم دولة من الدول لكثرة ما شاهدوا من وعود في الماضي لم يتحقق بعضها . ولا شك أن العالم سيتبدل تبدلاً كثيراً ويلغى اسم الاستعمار والانتداب والحماية ، ويكتفى بمحالفات ومعاهدات تضمن للقوي شيئاً من الحقوق بدون جمجمة . والمأمول يومئذ أن يرفق القوي بالضعيف ويقل ظلم الظالمين في العالمين .

مفاسد الحرب

زادت الكارثة العالمية في الفساد، وضعف معدل الأمانة، وأصبحت السرقة والتزوير اموراً طبيعية تكاد لا تنكر ولو انكاراً صورياً كما كانت أيام السلم. وكان لبعض التجار في هذه الفترة وثبات واحتيالات، وعلى كثرة ما ربحوا ما شبعوا ولا ارتووا. وكان المأثور عن جمهرتهم انهم أقرب إلى الشرف من أكثر أهل الطبقات الأخرى. ولو قد كشف لك الستر عن أعمال صغارهم والدخلاء فيهم لشهدت ما هالك من لصوصية دنيئة وأسفت على تدني الطباع إلى هذا الحد.

ورأينا رؤساء حكومات ما أهمتهم غير مصالحهم الخاصة، وقد اساءوا استعمال نفوذهم باتجارهم بالحبوب وغيرها من أصناف المأكولات، ومنهم من زرع الحشيش المخدر واتجر به، حللوا لأنفسهم ما حظروا على الناس، وذلك تحت حماية رجال الأمن. وكان هؤلاء يشددون الضغط على الفقراء، ويا ويل من ينقل رطل خبز أو مدّ قمح من قرية الى أخرى، وعلى ذلك كان بعض رؤساء الحكومات قبل الجمهورية الرابعة مهربين رسميين وأكثر ما يهربون المأكولات يجيعون بلداً ليطعموا آخر ولا تهمهم من ذلك غير ما يدخل صناديقهم، ولا يقيمون للمروءة وزناً في هذا الزمان العصيب، فكيف ينكر على صغار الموظفين استرسالهم في سرقة أموال الحكومة والامة. وادعى بعض هؤلاء الكبار أن غيره يحسن الانتفاع من منصبه أما هو فعفّ عن ذلك مع انه ربح عشرات الالوف من الليرات من التهريب واستعمال بقوة وظيفته على مقاسمة اناس من المهربين أرباحهم، كان له منها القسم الأعظم. وكان بعض رجال الأمن يحسنون القيام بأعمالهم ولا يرتشون أيام كان المنتدبون يسيّرونهم فلما استقلوا بأعمالهم ورفعت عنهم المراقبة

ونشبت الحرب نسوا ما تعلموا فأخذوا يجورون على الرعيـة ولا سيما في الأماكن البعيدة عن الأنظار . ولا هم للمأمون على الأمن إلا مصادرة الحبوب وتهريب المحظورات يشترك بذلك مع قادته .

ما اعجب طباع البشر ! كنت اعتقد النزاهة في بعض الموظفين واذا الحرب تناديـنا انهم كانوا كاذبين في دعواهم ، يظهرون التورع عن كل ما ليس لهم خوفاً وطمعاً ، وهم في الواقع ما عدَوْا سيرة رؤسائهم ، يتمرغون معهم في حمأة اللصوصية ، لا يبالون الشرف والنزاهة ، ودعواهم على فعلاتهم ارتفاع اسعار المعيشة حتى لقد فقد التوازن بينها وبين رواتبهم ، ثم ان مستوى العيش زاد خمسة عشر ضعفاً عما كان عليـه قبل الحرب ولم تزد الرواتب اكثر من ضعفين او ثلاثة ، فمن الصعب على من لم يكن له مورد آخر غير راتبه ، ان يعيش بمشاهرة ضئيلة . وهذا ايضاً ليس فيه مبرر لسلب الرعية واضاعة حقوقهم . ولولا ان انشأ الانكليز في هذه الاقطار مشاريع استلزمت شغل عشرات الالوف من الايدي العاملة كفتح طرق وانشاء جسور واقامة حصون ومستشفيات وثكنات ومستودعات ومآوي وملاجئ لعم الفقر الطبقات النازلة وربما كانت تنشب ثورات وتنتشر مجاعات . وكلما تضخم الورق النقدي نقصت قوته على الشراء فزادت الاسعار ارتفاعاً . كان في سورية ولبنـان قبل الحرب نحو ثلاثين مليون ليرة سورية من الورق النقدي متداولة فزادت في الحرب ثلثمائة مليون آخر . وهكذا حال مصر والعراق وبعضهم في الأقطـار الثلاثة لكثرة الجيوش النازلة فيها يعملون ويربحون . أما الثروة العامة فمصابة بداء مجهولة نتيجته ، ولا يتجلى ما تؤل اليه الا بعد الحرب وان رأينا بعض الأملاك والاراضي ترتفع اسعارها الى ضعفي ما كانت عليه ثم تعود الى النزول .

طلعت علينا الحرب العالمية الماضية وهذه الحرب الطويلة الحاضرة بضروب من التبدل في اخلاقنـا ومنازعنا وأهم ما كان محسوس الأثر ذاك الفجور

الساري في الطبقات . الامور المالية تزيد وتنقص ، والثروات تقل وتكثر ، والارض تعمر وتخرب ، والشجر يكتسي ويعرى ، لكن فساد أمـة نذير اضمحلالها ولا تنفع معها ثروتها ولا صناعاتها ولا فنونها ولا علومها . لا جرم أن الفحش لا يرتفع من الامم في حال ترقيها وتمدنها ، اما بعض العالم اليوم فقد استحلوا كل محرم بلا حياء ، وكادت النخوة تفقد من الرؤوس ، وكان لكثرة الجيوش المنوعة دخل كبير في الاسترسال في البغاء فعم البلاء وأنذر هذا السقوط بسوء العقبى .

الهزل

الهزل ينفع في الاحايين والجد نافع كل حين ، يدخل الهزل النشاط على النفوس وهو عون على الجد ، واذا استكثر منه يسمج ولا ينفع وربما غلب الهزل على من كان تحصيل الرزق هيناً في أرضهم ، ولهم شيءٌ من الفراغ يخلون فيه الى أصحابهم وعشرائهم ، والهزل قد يكثر في الحواضر لأنها لا تخلو من متبطلين ، يسهل عليهم تحصيل رزقهم بدون سعي عظيم .

ومن لم يرزق حظاً من أدب النفس لا يدري كيف يهزل الهزل الجميل ، ولا كيف يتهكم التهكم الذي يسر ولا يسوء . وهزل الناس فرع من أدبهم يسمو بسموه وينحط بانحطاطه . ومن الهزل الفظيع أن بعض المفرطين في هزلهم يختلقون أكاذيب مضرة تجوز لساعتها على سامعها ، كأن ينمون اليه زوجته أو أباه أو أمه أو عزيزاً عليه ، وهم يظهرون الاسى على ما حلَّ به . وهذه « المقالب » — واحدها مقلب كما يسميها المصريون او « التراكيب » مفردها تركيبة كما يدعوها الشاميون — خالية من الذوق وفيها غلظة وسماجة ، لا يقدر فيها من يجرؤن عليها عظم الخطر الذي ينشأ من هزلهم هـــذا .

رأيت كثيرين من الهزالين ومنهم رجل في مصر جمع الى نبل المحتد جميل الأدب ، وعرف بابتداع المقالب يقصد بها ادخال المرح على أصحابه وتسليتهم فيما لا تهتز له أعصابهم كثيراً ، كأن يوهم بالواسطة عقيلة صديق له أن سير زوجها هذه الأيام فيه ما يدعو الى الريبة ، فتغضب وتعاتبه أوتصارمه أياماً ، وقد يدعو جماعة من معارفه الى تناول الطعام في دار صديق لهم يوم كذا ، فيخف المدعوون الى دار صاحب الدعوة المزيفة في الوقت المعين ، او يزور هو على لسان صاحبه دعوة الى بيته يدعو اليها من لا يعرفهم

صاحب البيت . ورأيت في دمشق رجلاً صرف عمره وهو يهزل وأصحابه كثار تختلف درجاتهم في المدنية والثقافة ، ولا يفتأ يخلب ألبابهم بما يسمعهم كل يوم ، وما عرفت أنه أغضب انساناً بهزله ، ولا أساء الى قريب ولا بعيد بنقده ، أو ظهر من كلامه بذاءة . اذا اجتمعت اليه لا تحب أن تفارقه لكثرة ما يسمعك من تهكم ، ويورد على مسمعك من قصص ونوادر وبعضها واقعي يطيبها ، بما يمزجها به من أفاويه ، ويبرزها في قالب شفاف من رقيق حسه وصائب نقده . وقد ينسب بعض قصصه الى نفسه مخافة أن يرتكب كبيرة الغيبة ، وفي هزله درس أخلاق ونقد عادات .

هذه الفئة من أرباب الهزل يجب الانتفاع بما تلقيه من دروس تستسيغها العامة أكثر من دروس الخواص . يقول ابن المقفع إن آثرت أن تفاخر احداً ممن تستأنس اليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ولا تعدُوَنَّ أن تتكلم فيه بما كان هزلاً فاذا بلغ الجد وقاربه فدعه ولا تخلطن بالجد هزلا ولا بالهزل جداً ، فانك إن خلطت بالجد هزلاً هجنته ، وان خلطت بالهزل جداً كدرته ، غير أني علمت موطناً واحداً إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبت الرأي وظهرت على الاقران وذلك ان يتوردك متورد بالسفه والغضب فتجيبه اجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجـه وثبات من المنطق .

استعمال العقل

كان استاذنا الجزائري يحذرنا من القول الا بعد الاستثبات ويبغض الينا الاستنتاج الا اذا استوثقنا مما لدينا من النصوص ، ولا يحب أن نتوسع باعطاء الآراء اذا لم نكن على بصيرة من صحتها . وكان التزيد في نقل الأخبار من أشد ما يسوءه ، ولا يحب الاكثار من التعليق على الحوادث بما لا يفهم منها . وهو يريدنا أبداً على ان نستعمل عقولنا قبل ان نشرع بالكلام .

حدثني صديقي الأمير أمين ارسلان قال كنت تلميذاً في المدرسة الملكية في الاستانة وكنت اختلف الى منزل السيد جمال الدين الافغاني وكان من عطفه علي ما جرني على غشيان مجلسه كثيراً . قال دخلت عليه صباح احد الجمع فوقع نظري على كتاب في مذهب كونفوشيوس بالفرنسية ملقىً على المنضدة ، فنظرت الى السيد كالمتعجب من تنازله ، على جلالة قدره في الاسلام ، لاقتناء هذا الكتاب ، فقلت له : ومولانا أيضاً يضيع وقته في تلاوة هذه الكتب ؟ فقال : نعم فان فيها حكماً عظيمة . ثم قال : وهل أنت اليوم في سعة من وقتك لنقرأ هذا السفر معاً فاجبته الى دعوته مع الشكر . وعند ذلك أمر خادمه ان يمنع الناس من الدخول عليه طول النهار ، وأخذت أتلو على السيد وهو يفسر لي ما أبهم عليّ ، وكان يدرك مقاصد المؤلف ومصطلحات المذهب أكثر مني مع تمكني من اللغة الفرنسية . قال وما أمسى المساء حتى أتينا على الكتاب برمته ، فقال لي السيد : وكيف رأيت يا أمين كلام كونفوشيوس ؟ فقلت شيء عظيم يستفاد منه يامولاي ، وما كنت أظن الامر هكذا ، فقال لي وهو كذلك ، وعليك بعد الآن ألا تصدر حكماً في شيء قبل الدرس وامعان النظر .

ولو جرى اكثر القوم على هذه الطريقة لا يقولون الا ما يعلمون ، ولا يتفلسفون الا بعد التفكير لما سرت الاغلاط الفظيعة الينا ، ولتوفر علينا عناء كبير وعبث كثير . نعم ان من نرى اقوالهم أكثر من افعالهم ، وخطأهم يزيد على صوابهم ، لو استعملوا عقولهم قليلاً لظهروا بمظهر من قلّ فضوله ورجي صلاحه .

قام مرة نائب حلبي في مجلس النواب السوري يطلب الغاء المجمع العلمي العربي بدعوى انه يكلف الجمهورية مالاً كثيراً ولم يأت بثمرة تذكر ، فتصدى للرد عليه رئيس مجلس النواب (السيد فارس الخوري) ورئيس الحكومة (السيد سعدالله الجابري) ونائب دمشق (السيد نجيب الريس) وغيرهم من النواب ، وبينوا له فساد حكمه على معهد ما زال يخدم الآداب العربية منذ ربع قرن ، تشهد لذلك مجلته ومحاضراته ، وما ينشره من الكتب ولو لم يكن من المجامع النافعة ما انبرى العلماء في الاقطار العربية والمستعربون من الافرنج يذكرونه بالاعجاب والتقدير ، ومما سأل رئيس المجلس ذاك النائب المتهور هل اطلعت على اعمال المجمع او حضرت محاضرة من محاضراته حتى تحكم عليه هذا الحكم ؟ فاجاب نعم حضرت مرة محاضرة لرئيسه وكان موضوعها الكذب ، فقال الرئيس فأنت على ما يظهر لم تستفد شيئاً مما قال الرئيس في هذا المعنى .

وأراد احد المتنطعين ممن تنطق ألسنتهم بما لا يعتقدون كيداً وحسداً ان يغمز المحاضرات التي يلقيها اعضاء المجمع وغيرهم في ردهته . فقال وهذا الرئيس يقتبس محاضراته من كتبه ، فاجابه احد العلماء الحاضرين وهل تستطيع أنت ان تؤلف مثل كتبه ولكتبه موقع في نفوس العرب ، فبهت ذاك المتدرع إلى تزييف ما لا يعلم ولو كان كل من حضرة النائب وجناب المتفلسف الناقد استعمل عقله ما جسرا ان يصدرا مثل هذا الحكم في أمر لا يعرفانه .

ويسرنا وقوع تبدل محسوس في العقول وفي صورة الحكم على الأمور.
رأينا احد رؤساء حكومة سورية (السيد حقي العظم) وهو انتدابي يقول
أي فائدة أتت من المجمع العلمي العربي ، وهذا مجمع مصر يكفينا المؤونة ،
وبالغائه نقتصد مبلغاً نصرفه في أمر آخر من اعمال الحكومة ، وشهدت
في العهد الاخير رئيس حكومة وطني (السيد سعد الله الجابري) يدافع في
مجلس النواب عن هذا المجمع العلمي دفاع الغيور على العلم العارف بما نجم
عن هذا المجمع من الفوائد العظيمة . وما وقع من الاول والثاني من الرؤساء
يدخل في باب الارتقاء المحسوس في العقول .

المؤتمر النسائي

عقد في القاهرة في شتاء سنة ١٩٤٤ مؤتمر نسائي اشترك فيه وفود من الشام والعراق ولم يشارك فيه نساء جزيرة العرب ولا غيرهن ، وألقين الخطب وطلبن المطالب في اصلاح حال المرأة ، ومما قررنه مساواتهن بالرجال في الوظائف ، إذا تساوى الذكر والانثى في الشهادات والمؤهلات ، وأن يَنتخبن ويُنتخبن أي يصبحن نائبات في المجالس النيابية ، يتولين أمور الناس في الحكم ، اي يتخلين عن بيوتهن وتربية أولادهن ، ويتصدين لشؤون لم يخلقن لها ، وبعض ما طلبن مما يتعذر تحقيقه لان النساء لم يفلحن في المحاماة ولا في الطب ما عدا الفرع الخاص بامراض النساء ، ونجحن في تمريض المرضى والكيمياء العملية وتربية الاطفال ، ولم يأت منهن في الغرب الى اليوم مهندسة ولا قاضية ولاطباخة ولا خياطة ، وثبت انهن لم يأتين العالم بشاعرة ولا كاتبة من الطراز الاول ولا بعالمة ولا مخترعة من عيار الرجال ، وإذا نجحت حكومات النساء في بعض دول الغرب فالفضل فيه للرجال الذين كانوا يعملون من وراء حجاب ، واذا اخفق الرجال في بعض الادوار فقد كان السبب فيه النساء مذكن حاكمات بالفعل والظاهر أن الرجال هم الحاكمون.

سررت بعقد هذا المؤتمر يتمرن بنات حواء على الخطابة والكتابة والتفكير ، أما هن فمها قررن وشاهدن من بعض الرجال صدوراً رحبة في سماع شكاواهن فمن المستحيل أن ينفذ من مطالبهن إلا ما كان المنطق السليم يؤيده . ونصيحتي الى الفضليات منهن ان يعنين بتعليم بنات جنسهن وأبناء جنسنا اولاً حتى اذا صار المتعلمون والمتعلمات أكثر من الاميين والاميات جاز لهن ان يطلبن بعض ما طلبن من الرجال ، وربما يخجلن يومئذ من تقرير ما يخالف طبائعهن ، ويتعذر عليهن تحقيقه من عدة اعتبارات ، لان الفطرة لم تؤهلهن له ، وما أحب لهن الاشتغال بالعبث والسير مع الهوى ، وهن أعرف بما يعرض لهن من حالة صحية تخرجهن عن اتزانهن مدى الشباب والكهولة .

محاضرات في المحافظات

كان المجمع العلمي العربي قرر انتداب بعض أعضائه لالقاء محاضرات في أمهات مدن سورية وطلب الي رئيس الجمهورية مثل هذا الطلب وتعذر انفاذه لما حال دونه من قيود مالية ترجع الى صرف المقتضى من النفقات في هذه الرحلات ، والموازنة لا تسمح الا بالقليل من الواجب انفاقه . وقد دعاني رصيفي الامير مصطفى الشهابي محافظ جبل العلويين ، أو جبال النصيرية كما كانوا يسمونها قديماً ، الى القاء محاضرات في اللاذقية حاضرة محافظته فصحبت رصيفي الدكتور جميل صليبا وألقينا ثلاث محاضرات على جمهور لا يقل عن ألف نسمة منهم مائتا سيدة وكان الحضور على غاية التهذيب والنظام ، كلهم أسماع تنصت لما يلقى وتقدر ما تسمع .

وقد اغتبطت أنا وزميلي بالبداءة باللاذقية بعد أن فصلت أكثر من عشرين سنة عن سورية وجعلت على عهد الانتداب دولة قائمة برأسها كما جعلوا الاسكندرونة وجبل حوران ! ولا تقل نفوس محافظة العلويين اليوم عن نصف مليون نسمة بين علوي وسني واسماعيلي ومسيحي . وطول سواحلها مائة وخمسون كيلومتراً وعرضها ستون . وسهولها كجبالها خصيبة ومياهها دافقة وهواؤها معتدل وزراعتها منوعة واشجارها المثمرة وغير المثمرة تأتي باحسن الغلات .

ويندر المتعلمون في أكثرية السكان من العلويين ذلك لان الحكومات السابقة لم ترعهم حق الرعاية وكانت تستثمرهم فقط ، وكانوا اذا آنسوا غرة من حاكميهم خرجوا عليهم ، وقد نفرهم بعض جهلة السواد الأعظم وباعدوا بينهم وبين الاسلام ، وما هم الا فرقة من فرقة عشش الجهل في عقول منتحليها ، وان زعم بعض سخفاء العقول أن أصلهم نصارى ومنه جاء اسمهم النصيرية ! ومثل هذه دعواهم في أن الدروز ليسوا من المسلمين ، وقد سعى المبشرون في تنصير العلويين والاسماعيليين والدروز فما أفلحوا .

جامعة الدول العربية

كنت في مصر لما انفض مؤتمر جامعـة الدول العربية فسألت بعض أعضائه أما حسن لأحدكم أن يأتي في المؤتمر على ذكر مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وينادي بأنها أقطار عربيـة فيها عشرون مليوناً من العرب وهي جديرة بان تضم الى الوحدة العربية . وهلا خطر بالكم أن تعرضوا لذكر الامارات العربية الواقعة على المحيط الهندي والخليج الفارسي كعدن ولحج والمحميات التسع والشحر والمكلا وحضرموت ومسقط وعمان والكويت والبحرين . وقلت هذا لجلالة ملك مصر المعظم فابتسم وقال الأسباب معروفة وأشار الى احدى الدول الكبرى . وسألت أحد أعضاء الجامعة العربية عما اذا كانوا يفكرون في الغاء الحواجز الجمركية بين الدول العربية ويبطلون الجوازات لتسهيل السفر بين البلدان الداخلة في هذه الوحدة فقال ولا تبطل جوازات السفر ، والجوازات أقل ما يطلب الغاؤه من هذه الشركة الجديدة . وقد وقع مندوبو الأقطار الداخلة في هذه الجامعة على صك الجامعة الجديدة وكلهم متفائلون خيراً بنتائجه ، وما رأيت أحداً جرأ فانتقد شيئاً منه فعسى أن يكون الباطن كالظاهر وأن تكون نتائج الجامعة العربية خيراً من مقدماتها .

المعارف والاصدقاء

عجيب حال بعضهم يطالبون بحقوقهم ويهملون اداء ما عليهم من حقوق ، ولا يهون عليهم أن يطالبهم انسان بحق له عليهم . لاحظت هـــذه المرة أن بعض معارفي من كبراء المصريين وأهل الأدب والرأي فيهم يعتبون عليّ اذا جئت مصر ولم أسأل عنهم ، لأن العرف الغربي الذي ساروا عليه في التزاور هو أن يبدأ القادم فيزور أصحابه اولاً ثم يزورونه . أما جمهرة أصحابي فكانوا اذا سبقت فزرتهم يكتفون من اكرامي غالباً بدعوتي الى طعامهم أو شرابهم ، ولا يرون من الواجب أن يزوروني ولا أن يسألوا عني بعدها ، سيان عندهم غبت أم حضرت . أنا أعـذر من يتهاونون في هذه الحقوق بعض العذر اذا صح ما يشيرون اليه من طرف خفي أنهم في شغل شاغل عن كل أحد ما دامت شروط مجتمعهم متقلقلة ، وليس في وسعهم تنظيم أمرهم وسط الفوضى . وأعتقد أن معظمهم يهرعون الى أرباب المقامات السياسية أو الى من يتوقعون منهم فائدة محسوسة . وقد جريت في السنة الأخيرة (١٩٤٥) على قاعـدة جديدة استرحت بها اذ رأيت العقل يوجبها ، وهي ألا أسأل إلا عمن يسأل عني وأزور فقط من أعدهم من أخلص خلاني ، واعتذرت عن حضور الدعوات التي دعيت اليها وقد بلغت عشر دعوات ومنها رسميات لاني لا أريد أن يتخذ بعضهم من دعوتي اعلاناً عن كرمه واتساع علاقاته ، و كنت عمدت منذ سنين طويلة ألا أواكل من لا أعرفهم ، ولا أحضر مجلساً اتنغص فيه أو يتنغص غيري من وجودي معه ، فربحت بذلك وقتي وصحتي وبانت لي درجة تلك الصداقات . وتوخيت للتذرع الى ذلك ألا يكتب اسمي في صحيفة اخبارية حتى قلّ من يقصدني ممن أريد أو لا أريد مقابلته ، وزرت في جملة من زرت

في الريف صديقي الكريم قليني فهمي باشا من أعيان مصر دعاني الى داره في مغاغة من الصعيد الأوسط واطلعت على ما أنشأه فيها من مدرسة ريفية ومدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية وكنيسة وجامع ، عدا سرايه في حلوان التي أعدها لتكون بعده مستشفى ووقف عليه ما يلزمه وعلمت ان صديقي يملك في تلك البلدة ستمائة فدان قسمها مناصفة بين اسرته وبين أعماله الخيرية . ولو جرى من رزقهم الله الغنى الطائل على الجود بعشر ما يملكون يصرفونه في البر لما بقي في وادي النيل فقير ولا جاهل ولا مريض .

غرائب

ما أحب أن تذكرني الصحف في أمر لي شخصي مخافة شغل اصحابي بشيء خاص بي ، واضطر الى مجاملتهم كما جاملوني . فجعت بفقد ابنتي العزيزة سعاد فذكرت صحف دمشق الخبر وهرع الأصدقاء ورجال الجمهورية الى تعزيتي في مزرعتي وفي البلدة ، ولم تجئني سوى تعزية واحدة فقط من الديار الشامية (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) مع كثرة أصحابي فيها ، ووردت عليّ تعزيات أ كثرها بلسان البرق من اخواني المصريين ومن جملتها برقية من عظيم لم يسبق لي أن تشرفت بمعرفته شخصياً وإن كنا يعرف أحدنا صاحبه غياباً منذ سنين طويلة وهو صاحب الدولة محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الحكومة المصرية . ذكرت هذا هنا ليعذرني بعض المذال على حبي المصريين وتفاني في حب مصر .

أنا والعقيدة

قال لي الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي فكرت في أمرك ملياً وحمدت الله على أن أنشأك نشأة اسلامية ولم يجعلك مطية لأعداء الاسلام يتخذون من قلمك أداة لنشر دعوتهم ، ولو قدر لك ذلك لكنت بما رُزقت من بيان وجلد شراً على أمتك . والسرّ في هذا الذي عجب منه صديقي أني اعتقدت وأنا في العقد الثاني من حياتي أن الدين المعقول أجدى على البشر من الالحاد ، وأن من السهل الهدم والصعوبة في البناء ، ومن حاول أن يدك بناء قائماً على وجه الدهر وهو عاجز عن اقامة غيره كان خليقاً أن يعدّ في الحمق .

وقويت في نفسي هذه العقيدة عندما درست الاسلام دراسة علمية ، وتدبرت القرآن وسيرة الرسول وأصحابه ، وأخذت الشريعة من أصفى مصادرها ، وأحببت جملة من علمائنا ، ودأبت زمناً أنظر فيما كتبوا ، بعيداً في الجملة عن التقليد ، ولما جاءت نوبة العمل كنت أدون ما علمت ، ومع هذا رأيت أن أتباعد عن الأبحاث الدينية لعلمي بأن في الأمة أناساً كثيرين انقطعوا إليها ، وآثرت أن اوجه وجهي شطر علوم المدنية ، لاعتقادي نفعها في انهاض الأمة ، وامة لا تصلح دنياها لا يغني عنها دينها ، والدنيا مزرعة الآخرة . وكان لي من التربية الأولى عون على تفهم ماشغفت به ، وما أوغلت في تقدير ما تعلمت بادئ بدء ، ولا استرسلت في الغرام بما لقفته بعد .

حكّمت العقل فيما عرض لي من القضايا الدينية فلم أستطع حل بعض مسائل الآخرة من طريق العقل وسلّمت بما جاء ، ولم يكن ما استعصى عليّ إدراكه سبباً في خروجي على الدين كله ، قبلت العقيدة بالتسليم

واعتقدت اعتقاداً جازماً بخالق الأكوان ، وقلت انه لا يطلب من كل إنسان أن يعرف كل سر ، وأن يعلل بالمنطق كل أمر . ومن طبعي ألا أتفلسف إلا بعد درس النصوص أما أن اعطي حكمي في كل ما يمر في ذهني وقد شغل به قبلي أرباب العقول قروناً فما أثمر لهم طول تفكيرهم شيئاً ، فهذا ما كنت أتجنبه .

أهمني من الدين قبل كل أمر جوهره وتعاليمه الاجتماعية فعففت عن كل مال محرم في الشرع والعقل ، وما رأيت في استخدام الكذب فائدة ، وصنت قلمي ولساني عنه ، وتفانيت في حب الحرية ، وقاتلت من يحتالون ويستغلون السذج لمآربهم ، وعذرت بعضهم على نقص تربيتهم ، وما عذرتهم على الزور والخداع قط . كرهت التعصب والعصبيات فلم ادافع عن مسألة ما اعتقدت صحتها ، ولا ألقيت قولاً وأنا أوقن بعضرته ، وقلما قبلت لنفسي تقليد أحد في آرائه ، أو سرقة آراء غيري وادعاء انها من عندي ، وقد وقع لي وأنا في العقد الثالث أن قلدت استاذاً لي في رأيه ببعض رجال الاسلام ، ثم رجعت بعد الدرس عما اعتقدت ، واخترت مذهباً جديداً لي هداني إليه التجرد في البحث عن العصبيات الدينية .

اجتهدت في أقوالي وأفعالي وما ندمت على ما قـــد أتيت من خطأ ، مادام الخطأ غير مأمون السراية إلى أرق العقول . مقتُّ الظلم وقاتلته وأهله مهما كان دينهم وجنسهم ، وما ونيت ولا تحولت عن دعوتي ، ودعوت إلى العدل وبالغت في تقـدير من تشبعوا بروحه ، وأعترف أني كنت أرفعهم فوق أقدارهم لأجعل منهم مهازاً لغيرهم ، وما كرهت حياتي مخالفاً لي في النحلة ، ولا مبايناً لي في الجنس ، ولا وضيعاً في المرتبة ، وإنما كرهت رديء الخلق والطبع ، ومن يجوز الخروج على نواميس العقل ، ولطالما أكبرت كل عطف يبدو من صاحب القوة على الضعفاء اكباري لـكل من يفعل الخير ويكتمه لا ينشره .

أما بعد فلا يطلب ممن كثر اطلاعه على الآراء المختلفة أن يظل على رأي واحد طول عمره في عويص المسائل ، فالاجتهاد فيها تبع أبداً للتجارب التي تستجد المدارس ، وكان الواجب أن يقوم المرء بكل ما وجب عليه ويبتعد عن كل ما عنه الشرع نهى ، ولكن النقص من خصائص البشر . أسأله تعالى أن يجنبنا مزالق المنافقين ممن يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

عملية أخفقت

قلت في غير هذا المكان أن حكومتي بريطانيا العظمى والولايات المتحدة اعترفتا باستقلال سورية ولبنان وتبادلت هاتان الحكومتان مع الدولتين العظيمتين الرسائل السياسية . ومضت حكومة سورية في جمهوريتها وتبعتها حكومة لبنان ، فانتخبت النواب وانعقد المجلس النيابي وطلبت حكومة لبنان من حكومة الانتداب الافرنسي الاستيلاء على حصتها من أموال المصالح المشتركة وغير ذلك من المطالب ، فشق ذلك على فرنسا المحاربة ، وصدر أمر قائدهم بالقاء القبض على رئيس جمهورية لبنان وعلى رئيس حكومته ، واعتقلوا مع بعض الوزراء في قلعة راشيا وعهدت الى السيد أميل اده رئيس الجمهورية الأسبق أن يتولى كبر هذا الأمر ، وشرع بانتخاب حكومة شرعية لا من رجال الشوارع كما وصموا الحكومة المغضوب عليها . فقامت مصر والعراق وسورية والمملكة العربية السعودية تقبح هذا العمل وعاضدت بريطانيا أهل لبنان معاضدة فعلية حتى رجع الفرنسيون عن قرارهم واستدعوا قائدهم الذي قيل انه لم يعمل إلا بما قضت به لجنة فرنسا ومجلسها العام ، وأعادوا المعتقلين الى كراسيهم .

استغرب كل عاقل عمل فرنسا المحاربة وخرقها الاجماع في استقلال لبنان . وقد وقف جلالة ملك مصر فاروق الأول وحكومته وحكومة العراق أجمل موقف في هذه القضية ، وأنحوا على من جرؤا على سلب ما ليس لهم ، وذكّروهم بأنهم امة يحتل عدوها أرضها لا يحق لها أن تسيطر على بلد غيرها ، وهي لا مملكة لها ولا سلطان ، يصرّف عدوها أمرها ، وهي لا تملك من استقلالها قليلاً ولا كثيراً . وفي الحق ان الفرنسيين المحاربين أو الأحرار قد خسروا في هذه الحركة عطف العرب

وكان عملهم وبالاً عليهم ، كأنهم ظنوا ان فرنسا في سنة ١٩٤٣ هي فرنسا سنة ١٩٣٩ تعتز بجيشها واسطولها ، وتتمتع بعظمتها وسلطانها ، وتعد لبنان جزءاً من أمبراطوريتها ، وما هي إلا منتدبة عليه وعلى سوريه فقط . وقد زال الانتداب بزوال جمعية الامم التي كانت عهدت إليها بادارة سورية وباعتراف الدولتين اللتين لهما الشأن الأول في هذا الباب انكلترا والولايات المتحدة باستقلال سورية ولبنان على صورة لا مجال لدولة مهما علت منزلتها أن تنقض هذا القرار .

مؤتمر المجمع اللغوي

دعيت في آخر سنة ١٩٤٤ لحضور مؤتمر اللغة العربية في مجمع فؤاد الأول بالقاهرة وكان ضمني الى اعضائه مؤسسه عليه الرحمة ، وكنا نجتمع مرة كل سنة فحالت الحرب الحاضرة دون اجتماعنا أربع سنين. وقد رأيت بعد هذه الفترة تغييراً عظيماً في تركيب هذا المجمع ، وكان ينظر في تعيين أعضائه الى الكفاية العلمية فأصبحوا يجري انتخاب بعضهم بتأثيرات الحزبية ، ولما جاء الدستوريون الى الحكم بدلوا في أوضاعه واختاروا أناساً منهم أو ممن كانوا هم راضين عنهم ، ولما جاء الوفديون اختاروا اناساً منهم أيضاً ، ولا يبعد أن يجيء السعديون أو غيرهم يتولون زمام الحكم غداً فيضمون رجالاً الى أعضاء المجمع يرون من المصلحة ارضاءهم . والحزبية أضرت بمصر ضرراً بالغاً تناول كل عمل له اتصال بالحكم .

عرضت على المؤتمر ثلاث مسائل كبرى اذا أقرها يدخل التبلبل في اللغة العربية . الاولى اختراع خط جديد يراد به الاستغناء عن الشكل فيكون هذا من بنية الكلمة وبذلك يزيد عدد حروف الهجاء كثيراً ويأتي هذا الخط السقيم فيحل محل خطنا الجميل ونستعيض عن هذا السهل الذي تعلمناه بذلك الصعب الذي ما عرفناه . والاقتراح الثاني ان تبسط قواعد اللغة العربية في اللغة والصرف ولا يلتفت الى ما ورد في الجموع والتأنيث والتذكير وغيرها ويحذف المترادف من المعجمات وكل ما كان له أسماء كثيرة من المسميات . والاقتراح الثالث وهو أعظم الاقتراحات ضرراً باللغة اختيار الحروف اللاتينية لكتابة الحروف العربية ، وبذلك يقضى على تراث ألف وخمسمائة سنة ولا يأتي جيل واحد على المسلمين حتى ينسوا القرآن .

هذه ثلاثة اقتراحات عرضت على المؤتمر فجرت المناقشة فيها طوال

دورته هذه ، ورددت كلها وخطب في تزييف الاقتراح الاخير ثمانية أعضاء ، وما جسر واحد من الفريق الثاني أن يجهر بمعاضدة الحروف اللاتينية إلا أنهم جعلوا لردها مخرجاً وهو أنهم ارجأوا النظر فيها الى السنة القادمة ، عسى أن يقوم من يعالجها معالجة أخرى او يقيض الله مخترعاً آخر يفكر تفكيراً ثانياً في اخراج هذه اللغة من ورطتها ، وما أظن نغمة الحروف اللاتينية تعود الى الانبعاث من مرقدها لان في تحقيق ذلك هدم اللغة لا محالة ، وحدثني عارف ثقة ان وزارة معارف مصر أمرت باغلاق مسألة الحروف اللاتينية وكفى الله المؤمنين القتال .

وأريد ان أسجل هنا ألمي من تسرب العنجهية الحزبية الى مجالس العلم ، وتلويث وجهه الجميل باصباغ السياسة . ورأيت هذه المرة أيضاً كثرة غرام بعض أرباب النباهة من المصريين بمصانعة بعضهم بعضاً على ما لا يدخل في المنطق السليم ، والعلماء اولى الناس ان يصونوا انفسهم عن المصانعة والتزلف . شهدت صديقاً لي منهم قد امسك مع ما فيه من فضل عن القول لما أفضنا في مسألة الحروف اللاتينية لان مقترحها من حزبه ، وكان المفروض فيه ان يكون على خلاف هذا الرأي فحاول بسكوته الا يغضب المقترح ولا ينقل عنه أنه يقول بالحروف اللاتينية ، لان ذلك مما يؤذي سمعته ، ويود ايضاً ان يرضى المجددين الذين دأب بعضهم على التأفف من كل قديم ليقال عنهم انهم دعاة تجدد . وما اقول كما يقول خصومهم إنهم يحاولون نشر الالحاد ، وان كبيرهم المتفلسف يوحي اليهم آراءه فيتابعونه على العمياء ليقال عنهم إنهم مصلحون . والحر من يجاهر ولا يخاف فيقول مثلا إني عملت ما عملت لخدمة الغرض الفلاني ، وقد عدلت عما كنت ادعو اليه امس ، وأنا الآن أعمل لخدمة أغراض اخرى .

هذه الدنيا ام العجائب ، وهؤلاء الناس اغرب ما فيها ، فان أمثلهم يكتم حب الدنيا على ما لم يكن يتوقع صدوره من مثله . إي وربي إن ذنب الكبير كبير ، وانا لا اريد هذه الطبقة ان تتخلى عن مطامعها في الحياة ،

فقد فطرنا على حبها ونحرص على ما يضمن لنا الرفاهـة فيها ، بل أريدها أن تصدق في مطالبها ومظاهرها . فلو قال فلان مثلاً أنا سياسي وبودي أن أعمل فقط في السياسة فآتي كل ما يأتيه السياسي لقلنا له : سر في طريقك لا تبال الناقدين أما أن يخالف السمت الذي طالما سار عليه ، فهذا ما لا نرضاه لعـدو فضلاً عن صديق . المرء حر في اجتهاده فاذا كان اجتهاده مما يضر فيؤاخذ على تفريطه بقدر ما يؤثر عنه من فقه ومعرفة ، وما فطر عليه من ذكاء ونباهة .

أما أنا فأحب أن يوافقني بضعة من الصفوة المختارة على عمل أعمله ولا أطمع في أن يجمع السواد الاعظم على استحسانه وأفقد عطف العارفين ، وأظن من يسرون ما يسرون ، ويظهرون بما يظهرون ، يذهبون الى أن القوم أغبياء لا يدركون .

كان لي صاحب من أعظم رجال الدين ، وكنت أعجب بأوليته وبما فطر عليه من حب الحق والعدل ، وفي سبيل ذلك أوذي وما التوى ، فلما تقدم به الزمان ، وتربع في دست السلطان ، هان عليه بغية جلب المغانم لمن يحب ، ووضعهم مواضع ليسوا لها بأهل أن يحلل لنفسه سلب الحق من صاحبه ليلقيه الى يد من لا يستحقه مدفوعاً بعامل الشفقة والعطف . وسالب الحق من صاحبه وحامله الى غير أهله سارق . والسرقة انواع كما أن الرشوة انواع . ولطالما اشتهيت أن أرى في رجال الدين من يعملون حقيقة بما علموا . وشهدت بعضهم قد عفوا عن أشياء لقصور فيهم أو عجز او لتوقع مظهر أكبر ومغنم أوفر ، حتى اذا فتحت أمامهم سبل الانتفاع أفتوا لأنفسهم بجواز ما اجترحوا .

وما برحنا منـذ الزمن الأطول بين عالم ذكي يدور مع الأيام كيف دارت ، ويدوس كل ما يمنع عنه منافعه ويصده عن شهواته ، وعالم غبي يعتقد الخرافات ويعف عن المحرمات . الأول شيطان متحرك والثاني غبي

اخرس . وفتوى كل منها تكيفها اهواؤه . ذكروا أن احد علماء مصر قال في درسه ذات يوم يحاول الطعن على الشيخ محمد عبده وكان اصطاف في الغرب ، ان كل من زار أوربا كافر فقال له أحد الحاضرين : ما قول سيدنا الشيخ في الجناب العالي الخديوي فهو يسافر كل سنة الى تلك الديار ؟ فكان جوابه على البديهة : ويستثنى من ذلك صاحب الأمر والنهي الذي يذهب الى الغرب لاقتباس نظم الحكم النافعة .

وعلى ذكر الكفاية العلمية يدعوني حبي لمصر أن أصرح هنا لمن يتهالكون على دخول مجالس المديريات والنواب والشيوخ وسلاحهم في اهليتهم لها أموالهم ووجاهتهم ثم حزبيتهم ومصانعتهم وما اليها ، وهم غير أهل للجلوس على تلك المقاعد ، انهم بعملهم هذا يخونون المصلحة ويخونون أنفسهم . أما المصلحة فضررها ظاهر لان فاقد الشيء لا يعطيه ، والمجالس في حاجة الى من يغذيها بعلمه وتجاربه ، ومن يعجز عن هذا يسيء الى نفسه ، والعاقل على كل حال لا يرضى أن يكون عالة على غيره في أمر يحتاج الى روية ودربة ، اما أن يجلس مع الجالسين كالصنم لا يعيد ولا يبدي ، فليس من شأن الشريف . وفي بعض الأمثال الافرنجية . من وسد اليه عمل لا يحسنه وقبله فهو وضيع .

الحروف اللاتينية

وهـذا ما قلته في مؤتمر اللغة العربيـة في مجمع فؤاد الأول بالقاهرة عندما ناقشت صاحب هـذا الاقتراح : سمعت زميلي عبد العزيز باشا فهمي يتلو علينا موضوعه في الدعوة إلى الاعتماد على الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية ثم قرأت مقترحه مطبوعاً فرأيته مفتناً في ايراد البراهين عارفاً بالاستطراد والاستنباط ، يريد أن يؤثر في عقل السامع والقارئ . وقد وقعت له مقاطع من الكلام خانه فيها اللفظ فجاءت تحمل هنات غير قليلة ومنها قوله إننا نحن الضعاف أي العرب نطأطئ كواهلنا أمام تمثال اللغة نحمل أوزار الف وخمسمائة سنة مضت وأننا من أتعس خلق الله في الحياة لأننا لم نعالج التيسير الذي فعله أهل اللغات الغربية ، وأن هذا الاستكراه الذي يوجب على الناس تعلم العربية الفصحى هو في ذاته محنة حائقة بأهل العربية وان ذلك طغيان وبغي وأن رسم الكتابة العربية طلاسم مستغلقة مبهمة و كلّ أمر الناس في فكها إلى السحر وما ينقـذف في القلوب من الالهامات والاشراقات إلى غير ذلك مما لم يكن غير اسلوب خطابي يحاول أن يخرج منه ليفرض على الناس اختراعه الجديد . وما أظن زميلي معتقداً كل الاعتقاد أن الواحد من أبنائنا اليوم يقضي كل سني الدراسة من أولي وابتدائي وثانوي وعال وجامعي ويخرج بعد هذا الزمن الطويل العريض غير مستطيع بسبب سوء الرسم قراءة أي نص مطبوع — بل المخطوط — من لغته العربية قراءة صحيحة . هذا يا سيدي الأستاذ مبالغة لا يؤيدها المشاهد المحسوس وكذلك قوله ان رسم الكتابة العربية هو الكارثة الحائقة بنا في لغتنا وأنه رسم لا يتيسر معه قراءتها وان هذه المشقة تحمله على الاعتقاد بأن اللغة العربية من أسباب تأخر الشرقيين لأن قواعدها عسيرة ورسمها

مضلل وأن الأمة إذا أجابته إلى دعوته وقبلت الحروف الهجائية التي زعم انها لا تخل بشيء من نغمات الحروف العربية تنجو من هذا الحرج ويخلص العرب من ذخائر مؤلفات كلفتهم هم وأسلافهم الهيل والهيلمان (كذا) إلا أنه اعترف في مكان آخر أن الضرر من ذلك هو القضاء على تراث الأجداد وأن هذا التراث يمكن للحكومات أن تتلافاه وذلك بانفاق مبلغ من المال لطبع امهات المعاجم اللغوية وامهات كتب العلم والأدب والفنون بالرسم الجديد وما إخال الاستاذ إلا ويعتقد أن هـذا من الأقوال المسولة لأنه يتعذر على أهل الأرض تلافي ما يفوتنا ولو قضوا في هذه المهمة مئة سنة بالنظر لسعة التأليف في لغتنا وكثرة المؤلفات الصالحة التي كلفتنا ولا فخر الهيل والهيلمان .

بلغ بالاستاذ فرط الغيرة على تبسيط اللغة أن رثى لها بما فيها من صعوبات ومنها تبرمه بما في الأفعال من مجرد ومزيد وبالفعل الثلاثي يتبع أوزاناً مختلفة ومن أن للفعل الواحد عدة مصادر ومن أن الأفعال تبنى للمعلوم والمجهول والاعلال والابدال والمعرب والمبني ، ونعى على العربية تعدد جموعها وتشكل الواحد من الأسماء الجامدة جملة أشكال وقال إنه ليس لهذه اللغة في مفرداتها وقواعدها أول يعرف ولا آخر يوصف يريد أن يقول إننا لا يضرنا أن نجعل لغتنا كلغة بعض القبائل البدائية قبل عصر التاريخ ساذجة كل السذاجـة بألفاظها وتراكيبها لا شواذ فيها ولا مركبات بل بسائط يتعلمها من يتعلمها في بضع ساعات أو بضعة أيام وما أظن ما اختاره لهذه اللغة اصابته لغـة من لغات العلم لعهدنا أو لغة من لغات الشرق في آسيا . وقوله هذا خيال جميل إلا أنه متعذر كل التعذر على التطبيق . وماذا نعمل وهكذا خلقت لغتنا ونحن لا بد لنا في وضع لغة اخرى مكانها حتى نرضي دعاة التبسيط ولي أن أقول إن هـذا شعر والشعر لا يدخل في الأبحاث العلمية .

يقول زميلي إنه يوشك أن تغزونا اللغات الأجنبية فنترك لغتنا ونستعيض عنها بلغة من لغاتهم وهـذا خوف لا محل له لأن العربية تزداد كل يوم

رسوخاً في نفوس أهلها بفضل النهضة التي نهضناها وبفضل توفر أسباب التعليم والنشر . ومما قال ان لغتنا كانت سبب تخلفنا في مضمار الحضارة وما أظن شيخ القضاة إلا ويعرف أن لانحطاط الشعوب الاسلامية في بعض مظاهرها عوامل اخرى لاعلاقة لها بحروف الكتابة وقواعد الرسم وأن برهانه هـذا ضعيف لا يصح الاستدلال به على ما هو بصدده . انه يعرف كما نعرف جميعاً أننا أنشأنا مدنية شهد لعظمتها كل من قاموا بعدنا وما حال هذا الخط ومن قبله القلم الكوفي دون الانتفاع بما آل الينا من علوم القدماء وما وضعناه نحن بصنعنا وقرائحنا من علوم وآداب كلفتنا الحيل والهيلمان كما يقول زميلي الحصيف .

وتبرم حضرته من تعدد اللهجات العربية وأنا ابشره بأن هذه اللهجات يقل عددها ولا يزيد كما ادعى لأنها تقترب كل يوم من الفصحى بفضل المدرسة والجريدة والكتاب والخطبـة والمذياع . أي أن اللهجات الدارجة تتضاءل أمام اللغة الأدبية ، والفصحى تتغلب على العامية اليوم بعد اليوم . ومن الحجج التي ادلى بها لاثبات قضية التمثيل لنا بالأتراك وهي في الواقع حجة عليه لا له . فالأتراك لما أخذوا بالحروف اللاتينية وقضوا على الأمية فيما زعموا بهذه البدعة الجديدة التي ابتدعوهـا قطعوا كل صلة بينهم وبين ماضيهم ، وعمر هذا الماضي لا يقل عن ستمائة سنة . وهل الشعوب إلا تكملة ما صنع أجدادها وورثوه عنهم ؟ وشأن العربية غير شأن التركية لأن العربية تحمل تراث العالم الاسلامي كله وإذا عملنا عمل الأتراك نقضي على تراث علمي وأدبي ودبني دام مطرداً خمسة عشر قرناً مما لم يعهد لأمـة مثله اللهم إلا إذا صحّ ما نقل عن قدم المدنية الصينية . ومعنى الزهد فيما خلفه العرب من آثار القضاء على مشخصاتنا ولا يرضى بذلك عربي ولا مسلم .

سمعت التركية من أرقى الطبقات وسمعتها من الفلاحين والباعة ، سمعتها من ابن استانبول عذبة رقيقة وسمعتها من ابن آسيا الصغرى خشنة جاسية فما ثبت لي أن الحروف اللاتينية وفت بنبراتها ورنة ألفاظها فما بالك بهـذه

الحروف إذا اعتمدت للتعبير عن مفردات لغة فيها الثاء والظاء والطاء والحاء والخاء والذال والضاد والصاد والعين والغين والقاف ، والتجويد أو موسيقى الألفاظ حاكم متحكم في كل لفظة وفي كل نبرة .

خسر الأتراك اي خسارة بما أتوا من العبث بلغتهم فلا نريد أن نتقيل مثالهم ولا نجوّز لأنفسنا الاقتداء بأهل لغة من اللغات فمنحانا غير منحاهم ولغتنا تتسامى عن جميع لغات الشرق . وها نحن نرى اللغة اليابانية وحروفها صور وأشكال قد تصعب على المبتدئ بحسب الظاهر وما منعت اليابانيين من أن يأتوا بمدنية ضاهوا بها مدنية الانكلوسكسونيين أساتذتهم وقد بلغت أشكال اللغة الصينية مائة الف شكل وما حالت أيضاً دون تعلمها وضنانة أهلها بها . إن هذه الصعوبة الموهومة في لغتنا ما وقفت في سورية دون تعليم الرجل البالغ من ابن العشرين إلى الخمسين في المدارس الليلية التي أنشأناها بما أخرجناه به في أربعة أشهر من الأمية يتعلم خلال هذه المدة القصيرة الكتابة والقراءة والحساب (الأعمال الأربعة) ويقرأ في المصحف وفي الجرائد ويكتب ما يريد بعبارته .

إذن فالعربية ليست من الصعوبة بخطها على ما زعم رصيفي ، والعرب إذا قصروا في التصوير فقد عوضوا عنه هذا الخط الجميل والنقوش كما قال أحد علماء المشرقيات . واللبس إلى حروف الكتابة باللاتينية أقرب من اللبس إلى الحروف العربية وقد يحل الغربي نفسه الكتابة العربية قبل أن يحل حروف الكتابة باحدى اللغات اللاتينية .

العربية تحتاج إلى من يحسن تعليمها على الأصول الحديثة . لغتنا سهلة يوم نتعلمها وكلكم تعرفون أن عدم العناية بتثقيف العامة وفشو الأمية فيهم كان فيه الضرر البالغ ، نحن هنا لاحياء العربية ويخشى أن تدعو هذه الضجة حول هذا الموضوع إلى زعزعة السمعة الادبية التي أحرزتها مصر فان في اعتماد الحروف اللاتينية بدل هذه الحروف العربية الجميلة تناقضا مع الغاية السامية التي انشئ المجمع لأجلها . نحن لا نملك بوجه من الوجوه

ادخال جديد مضر يكون منه القضاء على قديم مقدس . هـذه الحروف هي ملك الشعوب الاسلامية كلها اختارها ثلاثمائة مليون من المسلمين إذا ابطلت تخسر مصر ويخسر العرب ويخسر الاسلام .

وأرجو رصيفي أن لا يحاذر من موت عربيتنا الحسناء بفعل نشر لغات الاجانب بين أظهرنا وألا يدركها هـذا المجمع ولا عشرون مجمعاً من مثله فان هذا تشاؤم غريب واللغة كل يوم تزيد انتشاراً على الألسن والاقلام. ولغة حرسها القرآن هذه القرون الطويلة لا يخشى عليها البوار وهي تزيد قوة مع الأيام وأتوسل إليكم يا رصفائي ألا نطيل المناقشة في هذا الموضوع لأن ذلك يقلل من قيمة عملنا ويظهرنا في الملأ بمظهر لا نرضاه لأنفسنا . اقول هذا على شدة اعجابي باجتهاد صاحب هذا الاقتراح وسلامة قصده .

قصص مصرية

قص مصري عارف على أحد أصحابي قصة عجيب صدور مثلها من أمي قال : حاول جندي من جنود محمد علي الكبير مرة أن يغتاله بخنجر كان يحمله في كمه ، ولما سدده الى صدره اتقى ضربته بيده وقال له في الحال قد عفوت عنك وأنا اعرف بأنك تستحق الترقية وأن تكون ضابطاً ، وقد رقيتك الى رتبة كذا ، فشكر وتهلل ، وبعد قليل رقى به رتبة أخرى فتزوج الرجل ، وتوسع في عيشه ثم رقاه ترقية ثالثة فرابعة حتى وصل إلى رتبة عسكرية عالية . واتى به ذات يوم الى حضرته ، وقد أعد له سكيناً فقال له الآن اقتلك ، بعد ان تنعمت بنعيم الدنيا ، لتفارقها آسفاً ، ولو قتلتك يوم حاولت اغتيالي لقتلت بك صعلوكا ، وربما هانت عليك يومئذ مفارقة الحياة .

حكى الاستاذ محمد صفوت باشا من وزراء مصر قصة غريبة كانت السبب في تبدل أجناس حكام مصر على عهد الخديوي اسماعيل قال : كان الموظفون في الحكومة المصرية على ذاك العهد من الاتراك أومن أجناس أخرى غير مصرية . ونزل ذات عشية أحد هؤلاء الاتراك ، وكان مأموراً في بعض أعمال مركز السنبلاوين على علي العبد عمدة احدى قراها (إكوة) يصحبه خمسة من الفرسان ، فقال له : نحن ستة رجال نريد منك ست فتيات من ذوات الجمال نلهو بهن الليلة عندك ، فقال له العمدة : على الرحب والسعة ، وهذا يكون بعد العشاء ، وأخذ يظهر أنه يهيء لهم طعاماً ، والمأمور يلح في طلب البنات والعمدة يطاوله ويقول له : لا يتيسر ذلك قبل أن تغيب الشمس ، فان هؤلاء البنات يحاذرن الخروج من بيوتهن إلا مع الدجى . ثم قال له : ان النساء يفزعن من رؤية السلاح فلو تجردتم منه فتجردوا ووضعوا سلاحهم في مخدع مصاقب لمخدعهم ، ثم جاءهم باربعة وعشرين رجلاً

يحملون حبالا فأخذوا يقيدون الفرسان وقائدهم ، ووضعوهم في غرفة اقفلوا بابها اقفالاً محكماً وأوعز الى رجاله ألا يقدموا للواحد منهم أكثر من رغيف ومقداراً من المش في كل وجبة ، وذلك من تحت الباب ، وامتطى حصانه وراح يطلب القاهرة وواصل سراه حتى وصل الى قصر الخديوي وكان هذا خارجاً منه ، فرمى بنفسه تحت عربته ، فسأله عزيز مصر عن حاله وعما يحمل من ثوب أبيض تحت ابطه فقال له : هـذا كفني إذا صدر أمرك بقتلي فهو جاهز ، وقص عليه ما وقع له مع الفرسان وما فعل بهم ، فرأى فيه رجلاً جلداً ذا شيبة جميلة ، وأعجبه ما أتاه ، وقال له : وهل في المصريين من يجرؤ على أن يعمل مثل عملك . قال : نعم يا مولاي عبدك هذا . فصدر أمر الخديوي اسمعيل بطرد أولئك المأمورين من الخدمة ونفيهم الى مكان سحيق ، وأخذ من يومئذ ينحي الغرباء عن خدمة الحكومة ، ويعين للوظائف العريقين في المصرية من أبناء مصر .

حدث أن اعتدى بعض جند الحامية الانكليزية حوالي سنة ١٨٩٢ على بعض نساء قليوب فاوسعهم أهل البلدة ضرباً واهانة فنمى الخبر الى عميد الاحتلال أن لاحد أعيان تلك المدينة محمد الشواربي دخلاً في الامر ، وان الفتنة دبرت بمعرفته ، فاستدعى المأمور الاداري في تلك الناحية إلى نظارة الداخلية ، وهو مصري الاصل ، وقص عليه المستشار ما بلغ مسامع العميد في هـــذا الشأن ، فنفى المأمور ان يكون للشواربي يد في الفتنة فقال له هل تجرؤ ان تقول هذا امام العميد ؟ قال : نعم أقوله ولا أبالي لانه الحق . فاجتمع المأمور إلى العميد ، وأبان له الاصل في وقوع الحادث ، وان نساء القرية لحق بهن اهانة من بعض الجند وهن يملأن جرارهن من النيل ، فقابلهم رجال البلد بما يليق بمن يدفع عن عرضه وعاقبوهم بما يستحق اعتداؤهم . وانفصل الامر على ذلك وطوي أمر هذا الحادث .

مضى نحو عشر سنين أصبح خلالها شواربي باشا من احباب العميد يوالي زيارته له ويتعاطفان ويتهامسان . وفي ذات يوم احب الشواربي أن يلقى

مأمور بلدته ، وكان هو المأمور نفسه الذي رأه يوم التحقيق الاول في مسألة اعتداء الجند على بعض نساء قليوب ، فأبى المأمور أن يستقبله في داره في آخر ساعة من اوقات الدوام ، وبعث يرجوه ان يأتيه من الغد الى دار الحكومة ، فشق رفض المدير على الباشا ، وابرق من ساعته الى العميد الانكليزي وغيره يطلب نقل هذا المأمور الى مكان آخر ، لأنه طال مقامه في مديريته وذلك ليعم عدله الارجاء الأخرى . فبعث العميد يستدعي الباشا وقال له : إن المأمور الذي تشكو انت منه هو صاحب اليد عليك يوم الاعتداء على الحامية ، ولولا شهادته الحسنة فيك لكنت تحت التراب منذ عشر سنين ، وزاد العميد ان الباشا أذكره بهذا الرجل المستقيم الحازم ، وأنه كان يستحق الترقية منذ مدة طويلة ونسي هو ان يرقيه ، فرقاه في الحال ثم رقاه في ستة اشهر ثلاث درجات . (قص عليَّ هذه القصة أيضاً محمد صفوت باشا رحمه الله)

وعلى ذكر الشواربي باشا لا بأس بأن اذكر هنا ما حدثني به أحد اذكياء المصريين منذ اكثر من ثلاث وثلاثين سنة قال إن شواربي باشا قصد ذات يوم الى عميد الاحتلال الانكليزي لورد كرومر يرجوه ان يقتصر في الري على المهندسين الانكليز لأنه ثبت أن بعض المهندسين من المصريين يضيعون حقوق الفلاحين في الري ، ولا كذلك المهندسون البريطانيون . فضحك اللورد وقال للباشا : إن المملكة الانكليزية واسعة تحتاج الى رجال أكفياء يديرونها ، والمقتدرون عندنا قلائل ، وإن من عندكم من الانكليز قد بلغوا ثمانمائة رجل فلو طلبت عشرة آخرين لا أستطيع أن آتيكم بهم لأن من الصعب ايجاد رجال كالذين عندكم من أبناء البيوتات ومن الطبقة المتعلمة المتمرنة المشهود لها بالعفة والاستقامة . اما إذا اردت أن آتيكم بموظفين من شوارع لندن فالخطب سهل آتيك بألوف ولكنهم لا ينفعونكم . وكان العميد لورد كرومر في حسن ادارته نفع مصر كثيراً مدة مقامه الطويل فيها عميداً .

حدثني من اثق به أن الحكومة المصرية لما كانت تبيع أراضي الدائرة السنية اشار على العميد بعض اصحابه ان يبتاع لنفسه جانباً منها فأبى وقال له إن هذه الارضين هي ملك المصريين فلا يجوز ان يقتنيها الانكليز . قالوا ولو كان للعميد مأرب في المال لخرج من مصر صاحب بضعة ملايين من الجنيهات على الاقل ولكنه على ما كانت تعطيه حكومته من رواتب ونفقات كان ينفق من ماله في هذه السبيل ، حتى غادر مصر وعليه دين عظيم وفته عنه أمته بان ردت عليه رأس ماله . ولطالما قلت لاصحابي إن لورد كروم بسيرته الذكية كان للبريطانيين خير دعاية في الشرق ، لو انفقت انكلترا مئة مليون جنيه لتتحبب الى قلوب العرب والمسلمين ما استطاعت تحقيق ما حققه لها رجلها العظيم بحسن ادارته وفرط عفته .

حدثني ثقة قال كان الشيخ محمد عبده مسافراً مرة الى اوربا ومعه صديقه فتحي باشا زغلول . وكان هذا يقرأ في بعض ساعات النهار على الشيخ فلسفة ابن رشد . ومن جملة من كان معهما في السفينة رجل من القضاة اسمه عرفان باشا . وحدث أن قال الشيخ لابن زغلول : الغالب أنك تخطيت سطراً فالمعنى لم يتم فأعاد فتحي نظره فقال : حقيقة إن الأمر كما قلت يا مولاي ، ونظر عرفان باشا الى الكتاب فاذا هو مكتوب بالفرنسية ، واذا بفتحي يقرأ العبارة ويعيدها بالعربية بمجرد القاء نظره على الأصل ، فدهش عرفان باشا وقال : رجل يبلغ به ارهاف الحس أن ينتبه لسطر تخطاه القارئ ، والقارئ يتلو الكلام في هذا الموضوع الصعب بالعربية مباشرة ، آخذاً المعاني عن كتاب كتب بلغة أعجمية ، ومعنى ذلك بالفرنسية Livre ouvert — والله إن المرء ليضيع معكما ، ولذلك سابتعد في هذه الرحلة عن مجلسكما ، وتنحى ناحية خوفاً أن يلحقه اثم هذا النبوغ . والغالب أن عرفان باشا كان من الأثرة بحيث شق عليه أن يرى من تتعذر عليه مداناتهما بعلمها وذكائها . فكان شأنه في هذا شأن محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب فقد روي أنه كان يأنس باهل البلادة ويستوحش من أهل الذكاء ، وسئل عن ذلك فقال : مؤونة التحفظ شديدة .

حدثني صديقي الاستاذ أحمد فهمي العمروسي ان الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله كان صديقاً للشيخ حسن الطويل الذي ظل طوال حياته مدرساً للغة العربية وعلوم الدين بمدرسة دار العلوم بالقاهرة وهو من اعظم علماء عصره ، وكان الشيخ حسن لاحظ مرة أن الشيخ محمد عبده أعرض عنه وتشاغل بحكم منصبه فأحب أن يداعبه لما دخل محفلاً عظيماً كان يتصدره الاستاذ الامام . وقد دعي للجلوس بجانبه مراعاة لعلمه ولكنه أبى واتخذ له مكاناً قصياً ثم حكى الحكاية الآتية معرضاً بأولي الحل والعقد .

قال : يحكى أن قرية من قرى الريف كان كل سكانها من القردة وكان من عادتها انه اذا مات العمدة لا يتأتى لولده ان يخلفه الا اذا استطاع بدهائه وذكائه ان يعتقل اسداً ، فلما مات العمدة خرج ابنه هائماً على وجهه ينشد اسداً يشد وثاقه فاتفق أن مر به أسد فاستأذنه في الاقتراب منه دون أن يمسه بسوء فأذن له ، وطمأنه على حياته ، فقص عليه القرد الصغير قصته ورجا ملك الحيوانات الا يضن على احد رعاياه المخلصين بخدمة جزئية كهذه فقبل الاسد واشترط عليه ان يعود اليه عقب تعيينه عمدة فوراً ليفك وثاقه فوعده خيراً . ولكن نشوة الفرح بالوظيفة ملكت عليه حواسه وانسته وعده وظل الاسد ملقى في الخلاء غاضباً محنقاً الى ان مرّ به كلب فما كاد يقع نظره عليه حتى اطلق ساقيه الى الريح وولى هارباً ، فناداه الاسد وامنه على حياته وطلب اليه ان يفك وثاقه ثم يذهب بعد ذلك حيث يشاء فأسرع الكلب بفك رباط الاسد وحل وثاقه ثم اراد ان يتظرف مع الاسد فدعاه لينزل عليه ضيفاً في تلك القرية تكريماً له وتشريفاً فقال له الاسد : انني احرص على كرامتي من ان انزل بأرض ، القرد فيها يربط والكلب يحل .

قصّ عليّ احد ادباء السوريين أنه بينا كان راجعاً من بلاده الى الازهر في مصر لقيته سيدة في ميناء يافا وكلمته بلهجة مصرية وسألته فيما اذا كان

ذاهباً الى مصر القاهرة فأجابها بالايجاب ، فقالت له بكل سذاجة : اريد ان احملك هذا الجواب لتعطيه الى امي . فقال في نفسه لا بد أن يكون لهذا الكتاب شأن وإلا لكانت السيدة وضعته في البريد والاجرة قرش واحد . فأخذه ووعدها ان يوصله . ولما بلغ القاهرة حدثته نفسه ان يسلم الكتاب الذي يحمله الى البريد تخفيفاً من عناء البحث عن بيت المكتوب اليها ، وعاد فرجح أن يحمله بنفسه ، وبعد بحث ساعة عن دارها في خط السيدة زينب اهتدى اليها ، ولما فتحت له ربة الدار الباب وعرفت ان معه كتاباً من ابنتها اخذت تبكي ، ثم رجته ان يفض الكتاب ويقرأه عليها فقرأه ، وهم بالانصراف فرجته ان يتريث حتى تأتي ابنتها وتسمع هي ايضاً كتاب اختها ، معتذرة انها مثلها لا تقرأ ولا تكتب ، فجاءت ابنتها بعد حين وتلا عليها كتاب نزيلة يافا ، واستأذن بالذهاب فقالت ربة الدار إن ابنها يحب ان يسمع كتاب اخته ايضاً وهو لا يلبث ان يحضر ولا بد من ان تتغدى معنا واعتذر ثم ما وسعه الا القبول ، ولما طعم اراد الانصراف فقالت من يخرج في هذا الحر ؟ ولا بد ان تقيل عندنا فقال ، ولما تم هذا الاكرام واحب مغادرة البيت اخذت عليه ربته العهد ان يزورهن كل اسبوع وان يعهد اليهن بغسل ثيابه . وبعد قليل ثار الازهر فكان صاحبنا من جملة من اعتقلوا من طلابه . وبعد ايام من سجنه سأله مدير السجن اذا كان له زوجة فقال : لا . قال : رأيت منذ ايام سيدتين تقفان على باب السجن في الشمس ساعات تسألان عنك فقال : ان لم يخطئ ظني فالسيدتان هما اللتان حملت اليهما الكتاب من يافا وقص عليه قصتها . ولما نظر اليهما تأكد ذلك ورجا السجان ان يمنعهما من حمل طعام اليه بدعوى ان ذلك محظور على السجناء وقد لاحظ انهما طالبتان ذلك من غير شك ، فلما أبى صاحب السجن اجابة طلبهما اجابتا : اذا كان جلب الأكل ممنوعاً فهل يمنع جلب الشراب ؟ فكانا مدة سجن هذا الشامي يأتيانه كل يوم بمقدار عظيم من السكر والليمون والثلج ليعمل منه شراباً يكفيه ورفاقه

في السجن جميعاً . وظلت الام وابنتها على الوفاء لحامل الكتاب حتى خرج من القطر المصري للمرة الأخيرة . فلما قص عليّ هذه القصة قلت له هذه حقيقة اخلاق المصري وهذا مثال صريح من وفائه وكرمه ، تأصلت فيه هذه الأخلاق ولعلها كانت في الطبقات النازلة لا تقل عن الطبقات الاخرى ، تناولت سكان المدن وسكان الريف ، وربما كانت في الريف جلية أكثر من الحواضر .

لما شرع الخديوي اسماعيل بان يعهد بادارة مصر للمصريين أبناء الفلاحين كان مدير بني سويف احد أولئك الموظفين الجدد وهو من اهل تلك الناحية فأخذ أهله وجيرانه ومعارفه يدخلون عليه ويقضون ساعات في غرفته حتى اصبحت كأنها مقهى او منتدى ، يتحدثون ويتناقشون ، ويتناولون القهوة ويدخنون ، فضاق صدر المدير الجديد ، وهو الحريص على ان يخلو بنفسه ليفض مصالح أرباب المراجعة ، وفكر في الامر فلم يجد أحسن من أن يعهد إلى الفراش التركي بأن يدخل غرفته ، والمجلس غاص بالانسباء والمحاسيب والمصانعين ، ويبربر بالتركية ويقول لهم ما يفهمون منه طردهم ، ففعل ما أراده المدير على القيام به . ولما كان الفراش يزمجر خاف المدير نفسه صولته ، واختبأ وراء مكتبه مأخوذاً بالعادة التي تأصلت من خوف سطوة الغريب . وليس من السهل نزع عادات تأصلت قروناً إلا بطول تربية حرة ، وتوالي بطون بعد بطون .

عرفت صديقي الاستاذ امين الرافعي صاحب جريدة الاخبار المصرية وطنياً صادقاً يخدم مصر وسياسة مصر ويخدم الاسلام والمسلمين بروحه وقلمه ونبوغه ، وعرفت انه شريف بكل مافي الشرف من معنى . قال لي من كان له به خلطة وكان له مؤازراً في تحرير صحيفته أحياناً إن يحيى باشا ابراهيم رئيس الوزارة المصرية عرف ان حالة أمين الرافعي المالية سيئة وكان يعجب بخطته ، وان كانت الاخبار ، لا تتحرج من نقد حكومته ، فأرسل اليه كتاباً

معه حوالة بعشرة آلاف جنيه معونة لجريدته ، وقال إنه يرسل هذا المبلغ من يحيي ابراهيم القاضي لا من يحيي ابراهيم رئيس الوزراء وانه لا يطلب اليه ان يغير خطته ويكف عن نقد حكومته بل يريده على ان يظل على ما هو عليه لتستفيد الحكومة من آرائه . فما كان من الاستاذ صاحب الأخبار إلا أن رد المبلغ مع الشكر ، وحجته انه ما أخذ شيئاً من أحد حياته بدون عوض ، ولا يريد ان يعود نفسه الآن أخذ شيء من احد . وجاء بعد حين فتح الله بركات باشا من أكبر زعماء السياسة في عصره ، وعرض على أمين الرافعي ان يتكفل له جماعته بوفاء ديونه ويأتونه بمحررين يدفعون هم أجورهم ، ويعطى هو كل شهر مئة جنيه ، وتطبع له الجريدة ، ويأخذ هو جميع وارداتها ، على ان يبقى على ما هو عليه حراً في آرائه ونقده ، فلم يقبل هذا الاقتراح ايضاً وهو في أشد الضيق . وبعد بضعة ايام وقفت جريدة الاخبار اضطراراً ، ولم يرض صاحبها منة أحد ، وفضل ان يوقف عمله على ان يتناول شيئاً من طرق لا يرى معظم الصحافيين بأساً من أن يتناولوا منه . قال من قص علي هذا إن احدى كبريات الصحف الانكليزية لما نعت أمين الرافعي قالت مات رجل يقل جداً في العالم من لهم مثل أخلاقه اما في مصر فلا . نعم امين الرافعي أمين الصحافة العربية ولو سار أرباب الصحف على هذا المثال من العفة لكان اسمها غير اسمها وتأثيرها في الافكار أكثر من هذا التأثير .

قال لي صديق قصدت فلاناً ذات يوم بكرة وكنت أنسيت عنده حافظة أوراقي بالامس فالتقيت في أسفل السلم بانسان لم يتبين لي من ملامحه ان كان مصرياً او سورياً او أرمنياً ولا ان كان تاجراً او زارعاً او مستخدماً في بعض المهن وصعدت معه بالمصعدة الى دار صاحبي فدخلنا عليه سوية فبادرني هذا بقوله نسيت الحافظة امس خذها ، وخف لتوديعي على حالة يشعر بانه مضطرب بعض الاضطراب ، وكأنه يريدني الا اسمع كلام الرجل الذي كان قاصده مثلي ، وما بان لي سر هذه المعاملة الخشنة الا هذه الأيام وقد اتهم

صاحبي ذاك بالاتجار بالمخدرات فظهر ان الشخص الذي ما احب ان اجتمع اليه طويلاً ربما كان شريكه في هـذه التجارة الشائنة . فقلت له ان من الاسرار ما لا يكشف إلا بالمرض وبعد مضي اعوام ، وربما يقتضي لكشف الأمر البسيط عشر سنين وسر صاحبك ما عتم ان كشف بعد اشهر قليلة .
وانا وقع لي شيء من هذا القبيل يصح درجه في باب الأقاصيص ذلك اني كنت اصدر جريدة المقتبس فانتخبت محكماً في قسمة اراضي عظيمة مختلف عليها بين اخوين وابناء اخ ، وشق على احد الأخوين ان اكون محكماً لانه شعر انه على جلال رتبته — باشا — لن يحكم المحكمون الا بالحق الذي يرونه في تقسيم الأراضي بين الورثة ، وهو يريد ان يأخـــذ منها حصة الأسد . ونقل لي انه قال عني لأحد شركائه ومن هذا فلان الذي جئتم به محكماً عنكم وهل هو إلا صباغ ؟

وما أدركت يومئذ قول ذاك الباشا المؤدب وما يقصد من وصمي بالصباغة اللهم إلا انه كان يشير إلي أني صحافي أصبغ الناس بالصبغة التي أتخيلهـا . ومضى على هذا الحادث أكثر من خمس وعشرين سنة وكنت في زيارة صديقي الاستاذ محمد عبد الرسول في دار الكتب المصرية فجاءه شيخ شاب يطلب إليه مخطوطة فسأله صديقي عن اسم بلده فقـال له إنه من أبيوقا . فضحك صديقي وأسرَّ إليَّ أن بلد هذا الشيخ مشهورة بسرقة الحمير وبتغيير أشكالها ، فاذا كان الحمار أبيض سوَّدوه وإذا كان لونه إلى السواد صبغوه أبيض ، فضحك الشيخ وضحكنا ، ورأيت الابيوقي يدرك النكتة وعلى شيء من الأدب فسألته عن اسمه وعمله ورجوته أن يكتب لي في مفكرتي اسمه واسم بلده ، وكان من طلاب التخصص في الأزهر ، ودافع فيما كتب عن قريته ، وأنكر أن تكون الآن كما كانت بالأمس ، وختم الصفحة التي كتبها بالآية الشريفـة (وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وعند ذلك تجلى لي سر قول ذاك الباشا الدمشقي أني صباغ وتمنيت لو حقق الله لي هذه الصفة لاستطيع صبغ الحمير بالصبغة التي اريدها.

ملك بالمجان

دعيت الى مؤتمر المستشرقين الذي عقد بأكسفورد في صيف سنة ١٩٢٨ والتقيت في الفندق بباريز بسمو خديو مصر السابق عباس حلمي الثاني، رأيته واقفاً في رأس السلم فتصافحنا تصافح الاخوان، وتعانقنا تعانق المتماثلين، ودعاني من الغد الى غابة بولونيا لتناول الغداء معه، وقد اشار اليّ أنه يرغب في تقلد ملك سورية فقلت له ان سورية تسعد بتولي أمرها رجل من آل محمد علي خصوصاً وسموه عرف ادارة الملك ومرن على الأعمال الاقتصادية والمالية، وبتوليه زمام الشام يدخل روحاً جديداً اليها. فأشار اليّ ان ابحث في لندن عن رأي الحكومة البريطانية فيه. فحرت في أمري كيف اصل الى التعرف الى احد من بيدهم شؤون السياسة الانكليزية وهذا يحتاج الى الظهور بمظهر ما كنت مستعداً للظهور به. فلما عدت الى باريز سألني الخديو عن المهمة التي انتدبني اليها فقلت له كلاماً مبهماً خلاصته انه اذا لم يحسن سياسته مع الانكليز وهم غاضبون عليه لمماشاته السياسة العثمانية الالمانية خلال الحرب الكبرى فان من العبث التشبث بهذا الأمر.

ذكرت ما جرى هذه الأيام وقد مضى الخديو الى جوار ربه تاركاً بضعة ملايين من الجنيهات وليس له غير ولد واحد، فقلت لو ألهم يومئذ بأن يصرف مبلغاً من المال في الدعاية كاستكتاب مقالات في الصحف البريطانية المقرؤة واعداد مآدب للتعارف وللدعاية واهداء هدايا لمن يلزم، واهل سورية من وراء ذلك ينادون به ملكاً عليهم لتولى صاحبي ملك الشام. فالامساك أضاع علينا ملكاً حصيفاً كان اقل ما يعمله من الخير لنا ضم شملنا تحت لواء واحد، وربما كانت الشام اندمجت في مصر بعد زمن ليس بطويل.

افلاس عن طمع

من حق كل انسان ان يحتال لمعاشه بالمعقول من الطرق لا بالاختداع والختل . وذهب بعضهم الى انه ما دام حكم من يسرق دجاجة حكم من يسرق جملاً ، وحكم من يسرق مصرفاً حكم من يسرق قرشاً ، فليس هناك ما يقعد ببعض اللصوص عن التوسع في السلب لان العقوبة واحدة . وشهدنا لصوصاً كباراً لم يقنعوا بسلب المئات وتجاوزوها الى سرقة الالوف والوف الالوف فأنشأوا مصارف في مصر والشام اعلنوا أنهم يدفعون فوائد لمن يودعون عندهم اموالهم تربو على ما تدفعه المصارف الاخرى فاستغووا ارباب السذاجة وجموا بذلك مبالغ جناها أربابها بالتقتير والحرمان في طويل الأعوام . أخذوا لأول الأمر من ربا ما أودعوا اكثر مما تعطي سائر البيوت المالية فلما تجمع لارباب تلك المصارف ما أيقنوا انه يضمن لهم الغنى نفذوا برنامجهم الذي كانوا أسروه في أنفسهم ، فكانت دعوى الافلاس بحيث لم يسلم عشرة في المئة من رأس المال . وذهب وفر كل اولئك المساكين الذي ادخروه لشيخوختهم أو أعدوه ليستمتع به أعقابهم . والغالب ان ارباب تلك المصارف توصلوا الى اتمام أحابيلهم باساليب عرفوا بها التلاعب بالعقول وبخاصة عقول من تخدعهم الظواهر وتقضي عليهم المطامع فتغالط نفسها في الاخرق والكذاب .

وكان العامل الأول في مصارف ثلاثة من هذه المصارف الاغترار بمذهب صاحب المصرف وعندهم ان من كان مذهبه كمذهبك لا تبلغ به قلة الذمة الى أكل مالك ، وما أدركوا أن شيطان المال لا يحرم ولا يحلل ويلذه استلاب النعمة من صاحبها واقتناصها من جانيها . ومن المغرورين من خدعتهم صداقة صاحب المصرف لهم فوهموا ان الصديق يعف عن مال صديقه .

وكان من المنكوبين العاجز والعاجزة والطفل الذي يحتاج الى من يموله حتى يكبر ، ومنهم الشيخ الذي قضى عمره حتى جمع ما يتبلغ به يوم الهرم . أما اللصوص فبيأ لهم المجتمع الخارج فبرأهم الحاكم على نحو ما تخترع ذرائع للقتلة تنجيهم بها من القتل . وكأن قوانين هذا العصر وضعت لحماية الاثرياء لا لحماية الفقراء ، وكأن لسان حال العابثين يخاطب الأولين زيدوا ما شئتم من ثروة بالطرق التي ترونها ، ولشير على الآخرين بقولها انكم لستم خلقاء أن تملكوا حتى ما قاسيتم في جمعه عرق القربة . وستنقضي القرون قبل ان يتمتع كل الطبقات بحقوقها ، وترتفع سلطة الأغنياء عن الفقراء . الدين بالربا لا يقول به عاقل الا في الضرورات الملجئة ، والأولى ايداع ما يوفره الصناع والزراع في صناديق التوفير بفائدة قليلة وبمبلغ معين وذلك تحت اشراف الحكومة . والوسط اذا جمع مقداراً من المال لا يكفيه لتوظيفه في عقارات أو أرض أو شركة واذا تركه في داره للأقدار يسطو عليه اللصوص وكذلك اذا اشترى به سهام المصارف وحصص الشركات يقع أيضاً في أيدي السارقين أصحاب تلك المصارف وتلك الشركات . وباسم المذهب وباسم الصداقة تؤكل أموال الضعفاء فويل للفقير من الغني .

انتقام الهي

كان جماعة يتحدثون فذكر احدهم ما خدمت به المسلمين بكتابي الاسلام والحضارة العربية . وكان في المجلس رجل عرفته قصاباً ، ودكانه قريب من بيتنا القديم ، وكان مشهوراً بين أهل حيه بنجدته وأريحيته ، فأخذ يتهلل لكلامهم ويحمد الله . فسأله بعض الحاضرين في ذلك فقال : منذ مدة طويلة اقترح عليّ أحد بني فلان ان اقتل صاحبكم الذي ذكرتموه هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر وقال انهما كافران ومن اعداء الوطن ، وتعهد لي أن يعطيني خمسين ليرة عثمانية جزاء عملي ، ووعدني أن ينقذني من أيدي القضاء اذا قبض عليّ ، افلا احمد الله على أني لم أكن آلة لمن يحاول الانتقام من رجل ينفع المسلمين كما قلتم .

نقل لي هذا الحديث بعد مرور سنين على التشبث باغتيالي وما استغربت صدور ذلك من بيت عرف أهله باللصوصية والجاسوسية . وما أدري من الذي تذرع منهم بهذا التذرع المشين ، والغالب انه ذاك الذي كان في المحكمة يعج الشرع من باطله وتزويره ، ويضج الأيامى واليتامى من اكله أموالهم ، ومن اخوة هذا اللص من تجسس للترك واهلك من تجسس عليهم من العرب ، امتهن هذه المهنة الدنيئة هو وبعض أهل بيته . وقد اخلصت هذه الاسرة في جميع الادوار في تجسسها للتركي والأفرنجي ، وأنا لم أكن بالطبع يومئذ من الساكتين عن سيئات لص المحكمة وكان له من المساوي ما لو قسم على عشرة لجاءوا اشراراً يخشى بأسهم . أما هو فما رأى للخلاص من الانكار عليه اقرب من اغتيالي ، وجائزة القتل سهلة الاداء يأخذها من تركة من التركات أو سرقة من السرقات أو من دعوى باطلة يتقدم بها الى المحكمة أحد المزورين ، وبذلك ينتقم لنفسه من حيث لا يشعر به ، وربما كان يعتقد

أن يقتلني وقتل صديقي شهبندر يكم السن الناس عن الانطلاق في نقد سيرته . وما أظنه الا كان مسوقاً بأيدي الحزب المستولي على الدولة العثمانية يومئذ، فصادف ما اقترح عليه هوى في فؤاده ، والحزب يجازيه على فعلته بابقائه في محكمته مدة يقطع ويبلع وفي ذلك ربح عظيم له .

ليس من المستغرب ما بيته ذاك الذي ضري بالعبث بالشرع فأصحاب الجبلة الرديئة لا يلذهم غير الشر ، أما من تطوعوا لتزييف خططهم فيرون ان كف أذى الأشرار أيضاً لذة لا تعادلها لذة . وسكوت العارف عن تلاعب المتلاعبين مدرجة الى تكثير سوادهم .

حقاً اني كنت اغلو في الانكار على المخربين حتى أصبح ذمهم ملكة مستحكمة فيّ لا استطيع الرجوع عنها ولو حاولته ، ولطالما نصح لي بعض أحبابي ممن يؤثرون العافية ان اشفق على نفسي وأخفف من الطعن في الأردياء ، وذلك بالاغضاء عنهم اتقاء مكروههم ، وما كنت استمع للنصح لان من طبيعة الشباب عدم المبالاة بالعواقب كثيراً ، وكنت أعد سكوتي عن الظلمة ضرباً من التقية ، والتقية ليست من مذهبي . وأرى ابداً ان لا سبيل الى النجاة من الظلم الا اذا كثر الناقمون على مرتكبيه . وتغاضي زيد عن مساوي عمرو خوفاً ورياء مؤد حتماً الى تفاقم الشر .

سبحان الله ما اشد انتقامه ، فبعد ان جمع ذاك الخاسر الدنيء من الذهب والفضة ما ظن معه انه دفن الفقر على الدهر ، عمّر قصراً عظيماً جمع فيه كل نفيس مما سلب ونهب ، وجاءت الثورة تنسف القصر فأصبح رماداً تسفوه الرياح ، وحرق جميع ما فيه من متاع واعلاق .

كفاءة وعمل

أسس المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٢١ وعلى ما صادف من المثبطات انتج ما ساعدت بيئته على انتاجه : أثار الافكار وخدم اللغة العربية بما وصل الى علمه وعلم مؤازريه . وارادت بعض الحواضر العربية ان تحذو حذو دمشق في تأسيس المجامع العلمية فجاءت مصر بعد اعوام فأنشأت مجمعها اللغوي فوضع ألوفاً من المصطلحات العلمية الجديدة وبسط قواعد اللغة العربية . وكانت بغداد وعمان وبيروت تذرعت بمثل هذا الغرض الشريف فاجتمع مجمع بغداد جلسات قليلة ثم انفض عن لا شيء . واتفق ان كان مجمع عمان ناقص التركيب لقلة الرجال فاخفق . أما مجمع بيروت فمع وجود أكفياء من العلماء والادباء في لبنان حالت الطائفية على ما يظهر دون مضيه في طريقه اذ كانت كل طائفة من طوائفه تحاول ان يكون لها التفوق على الطوائف الاخرى من حيث عدد الاعضاء والتفرد بالرياسة . وما كان الداعي الى تأليف مجمع لبنان في الحقيقة الا ليقال فقط ان في لبنان مجمعاً كما في سورية . ومن الغريب ألا يتولى تأسيس المجمع اللبناني ارباب الكفايات الحقيقية ، وأن يتصدى للرياسة من ليس عنده شيء من الادوات اللازمة لها ، وقام بعده شخص آخر وكان كصاحبه لم يؤلف كتاباً ولا عرف له رأي ولا اشتهر بادب ولا شعر ولا نثر ولا لغة .

قالوا ان مائدة العلم لا يجلس اليها طفيلي لقد كذبوا فانا مازلنا نشهد في زماننا سلطة الطفيليين قائمة ، وعهدنا دعيّ العلم أقرب الناس الى الافتضاح ان لم يحقق الواقع دعواه ولو بعض الشيء ، ودعيّ العلم اليوم ينافس العلماء ويحاول ان يسكتهم بسلاطته . ومن تطالّ الى ما ليس له فهو الوقح الوتح ، واي قحة اعظم من ان يتذرع امرؤ برياسة علمية وهو ما اثبت ادنى كفاءة

في عمل من اعمال العقل ، ويظن مع هذا ان مجرد عرض اسمه على العارفين يوجب عليهم ان يطأطئوا رؤوسهم ويسلموا له . وقد توصل هذا المتطفل الاخير أن يطرق باب من يظن أنهم يملون ارادتهم على المجمع العلمي العربي ليحمل اعضاءه على انتخابه عضواً مراسلا زاعماً ان هذا المجمع اذا ضمه إلى جملته يحق له أن ينتخب رئيساً في الحال للمجمع العلمي العتيد ! تشبث بارد لا يصدر الا عن مأفون الرأي . ليت من تعلموا في بعض المدارس قشوراً من اللغات والمعارف يعرفون مقدار أنفسهم ويحاسبونها على ما تأتي وتذر وعلى ما تحسن وما لا تحسن . انحطت اللغة العربية في لبنان بعد أن أزهرت فيه زمناً ، ومن جاهر بهذا النقص قام عليه الادعياء وطعنوا فيه يريدون اثبات كفاءتهم بوقاحتهم .

بليت بيروت بعد الشهرة العظيمة التي استحقتها منذ أواخر القرن الماضي بفئة تصرف كل شيء على قاعدة التجارة الشائنة وتظن أن العلم تجارة ، وفي وسع من يتعاطاها برأس مال قليل أن يشق طريقه في الحياة ، وتعتقد أنها والعلماء سواء تأكل مما يأكلون وتشرب مما يشربون وتلبس كما يلبسون . اما طائفة المصطفين الاخيار فقد رأت العزلة وما تنازلت أن تنزل الى ميدان تنافس فيه أرباب الدعوة المريضة فخلا لهؤلاء الجو . ولو تولى الاكفياء القياد لابانوا على الاقل لاولئك الطفيليين مبلغهم من العلم والعمل .

عزة النفس

قص عليّ أحد أصدقائي من الوزراء السابقين أن أحد زملائه ذكر له أنه كان يرجع اليه خلال وزارتهم أمر توزيع النفقات السرية التي تصرف في الدعاية وأنه رأى كل من أراد اعطاءه من ارباب الصحف يقبض ما يسمح له به شاكراً الا صحافيين اثنين فانهما أبيا تناول شيء ، مع أن احدهما أقرب الى قبول ما يعطى ، وعف الثاني عن أن يقبل شيئاً مع تصريح الوزير له بان يعطيه مبلغاً أكبر مما يتقاضاه زملاؤه .

وعرفت كاتبين فنانين من أسرتين نبيلتين اشتغلا بالصحافة وما تناولا ما عرض عليهما مراراً من المعاونات المالية ، وأثبتا بتعففهما أن نبل المحتد اذا اقترن الى التربية الفاضلة جاء المربّى جدّ شريف .

كم من فقير غني النفس تعرفه ومن غني فقير النفس مسكين

وللقارىء ان يسمي المال الذي تصرفه الحكومات في الدعاية بالاسم الذي يعن لخاطره . يسميه معونة أو جائزة او رشوة ، وكل ما يطلقه من الاسماء لا يخرج عن معنى أخذ شيء مقابل خدمة لا يقوم بها الآخذ ان لم يقبض الجعالة ، ولا يدفعها المعطي إلا إذا أخلص القابض في اتمام مايتطلبه منه .

ومن تدبر تناول الصحافيين أموال الحكومات حتى يجعلوها في الأعين لا يتأتى له مهما تجوّز أن يجد وجه حلّ لما يقبضون . ومن عادة الدول أن تقطع هذه الادرارات يوم تبدو من قابضيها حركة تخالف سياستها . فالمال على هذا لا يدفع الا للحصول على أمر ما كان يتوصل اليه بغير البذل . ولو كان ما يطلب اذاعته حقاً لنشر لهم بالمجان . وربما كانت منة للحكومات على الناشر إذا اختصته بما تحب نشره قبل غيره . لا يتوقف تناول مثل هذه المعونات على الغنى ولا على الفقر فقد يكون الموسع عليه أقرب

إلى التهامها من المموز المعدم ، وليس حظ الفقراء من عزة النفس أقل من حظ الموسرين ان لم يكن اعظم ، ولو لم يكن الفقراء على جانب من الكرامة لهاجموا الاغنياء في بيوتهم واستلبوا منهم نعمتهم وكسوتهم . ومتى زادت سلاطة الفقراء توقع الاغنياء قرب زوال نعمتهم .

للحكومات اغراض تبذل في تحقيقها من الاموال التي ائتمنت عليها وتعد ما تأتيه مشروعاً ، لانه في سبيل الخير العام . ومهما كانت الوسيلة الى ماتتوقع من نشر الهيبة ، والظهور بمظهر القوة ، وتحويل الافكار الى المجرى الذي ترتئيه ، فتبعة من يتناول هذه المعونات تعظم كما ذلا في الباس الباطل ثوب الحق ، وحاول افساد الضمائر وتضليل العقول . وليس لنا أن نصف الصحافي بما نصف به المحامي فشأن هذا رد الحق الى صاحبه ونزعه من غاصبه ، والصحافي إذا أجاز لنفسه أخذ المعونات يعبث بالمصلحة العامة ، ولك أن تقول بان الحكومة تفسده وهو يفسد القراء . ولو امتنعت الحكومات عن صرف المال في مثل هذه الطرق وتركت الصحافة وشأنها ، لراجت الصحيفة التي اشتهرت بصدقها وحريتها ولسقطت الجريدة التي لا قيمة لها ولا وزن لآرائها ، وفي ذلك فائدتان صون أموال الدولة والابتعاد عن تلويث سمعة الصحافة .

ظهر تلاعب في احدى دوائر المعارف مرة فما كان من مديرها إلا أن أعطى ارباب الصحف مبالغ حتى يسكتوا عما وقع من الاختلاس وسوء الاستعمال . فسكتوا كلهم وفي أقل من هذا كانوا يقومون ويقعدون ، ورشا المدير بعض الطلبة حتى يسبوا الوزير في خطب لقنهم موضوعاتها . وهناك شركات تضيع حقوق الناس وتتعدى حدود قانونها لا تذكرها الصحف بكلمة نقد ولا نصح ولا رجاء لانها تقبض على رأس كل شهر ثمن امتناعها عن الكلام . فهي مضطرة الى التغاضي عن حقوق أرباب الحقوق مخافة أن تنقطع المشاهرة .

حمل الغرب الينا مفاسده فضممناها الى ما كان عندنا من مثلها فزدنا ضلالاً وخبالاً ، وان في تسخير الكاتب قلمه لخدمة حزب أو دولة أو شركة على صورة لا تخرج عن طمس الحقائق والعبث بحق الغير لمن اعظم المضرات على الحاضر والمستقبل .

الثورة السورية

شهدت دورين كانا أشد أدوار حياتي دور الحرب العامة (١٩١٤ - ١٩١٨) دام أكثر من أربع سنين ودور الثورة السورية دام نحو عامين (١٩٢٥ — ١٩٢٦) وقد سايت نفسي في الحرب الكبرى برحلات قمت بها في بعض أرجاء السلطنة أما في الثورة السورية فلم تتجاوز البقعة التي اضطربت بها أكثر من أربعة كيلو مترات واضطررت إلى أن ألزم داري زهاء سنة ونصف لا أخرج إلا بعد الشمس وأعود قبيل الغروب ، وتخلفت عن زيارة مزرعتي حوالين كاملين ، وحرمت كل نزهة في الضواحي ولو على ميل من المدينة .

هكذا اقتضاني التوقي يومئذ ولعلي كنت اتهم بممالأة الثوار لولا هذا الاحتياط — ومنهم من التحق بالثورة للنهب ومنهم الشريف المخلص الذي ثار في سبيل الحق والحرية — أو يتهمني بعض تجار الوطنية بمماشاة السلطة الفرنسية . وكنت في حرج وتقلقل وما احسست في حياتي بملل كما احسست أيام الثورة ولا حجزت حريتي كما حجزتها طوال أيامها . اني كنت بين عاملين قويين إن نصحت الثوار خوّنوني وإن محضت رجال السلطة النصح ارتابوا في أمري وآذوني . والعاقل على كل حال يمتنع في الازمات من التصريح برأيه وأسلم له أن يتعامى ويتجاهل .

كنت عند قيام الثورة من الفئة التي لا تقول بها لاعتقادي بانها تخرب وتفنى وقلما تنتج بقدر ما تنفق ، فلما اندلع لهيبها عدت احاول تخليص شيء من النار وتخفيف الشر ما أمكن . وهذا المنطق لا يجوز أيام الثورات والنفوس متحمسة ، والثائر مستعد للبطش بكل إنسان ، وصاحب السلطان لا يركن إلا لمن يماشيه ويعاونه على العمياء معاونة فعلية .

نشأت بيني وبين قائد موقع دمشق الجنرال اندريا معرفة خلال الثورة وأقسم لي مرة بشرفه العسكري وبحياة ابنه الوحيد أنه لا يحب أن يقتل أحد منا ولا من جيشه ، مع ان الحرب صناعته وما خلق إلا للضرب والطعن ، وأنه لا يحارب إلا مضطراً ، وطلب مني أن اعلن ذلك في الملأ وصار يلقاني وألقاه منذ بدأ اتصالنا بزيارته لي في المجمع العلمي العربي ، ثم عرض عليّ الوزارة أربع مرات ، ولما قلت له إني إذا تقلدت الوزارة يقتلني الثوار في فراشي قال : نحميك . فقلت له : دعنا من هذا يا قائدي احموا أنفسكم أولاً . وقلت له : إني أخشى عادية الثوار . فقال لي ، إني على يقين أنك إذا خرجت إلى الغوطة يُقبل الثوار يديك لما لك من المكانة عندهم . وأنا كنت موقناً أن لا معنى لقبول الوزارة والثورة مشتعلة وخصوصاً وزارة المعارف ، وأي معارف وأي مدارس مع ثورة .

تعرفت إلى السيد لكلير رئيس محكمة الثورة وشكرته على تبرئته صديقي فخري بك البارودي ، وكان برأ كثيرين ممن جيء بهم إلى محكمته من أبناء هذه الديار . فقلت له إنك بتبرئتك الاستاذ فخري بك والقنابل تلقى على دمشق ، والناس يقتلون في الشوارع والبيوت والحقول والحدائق ، قد أشرت بلسان الحال إلى أن هناك شيئاً أفضل من كل هذا وأرفع مكانة اسمه (العدل الفرنسي) الذي مثلته ، وإن وجود أمثالك في سورية يقيمون العدل على هذا النحو الشريف لأنفع لفرنسا من عشرة طوابير من الجند تنزل ديارنا .

كانت المسائل في الثورة إذا ردّت إلى الضباط الفرنسيين ورجال القضاء المدنيين منهم تدخل في طور معقول في الجملة ، وإذا رجع الأمر إلى من سموهم الأنصار ، وهم مؤلفون من شركس وأرمن واسماعيلية ، فهناك الطامة الكبرى . جاءوا ببضعة رجال اتهموا بأنهم ثوار فلما مثلوا أمام محكمة المسيو لكلير أتى يشهد عليهم مستشار الشرطة بيجان فسأله الرئيس عنهم فقال : ثوّار . قال : من قبض عليهم ؟ قال : أنا . قال : ولم يكن معك

أحد ؟ قال : كلا . قال كيف قبضت عليهم وهم عشرة ؟ قال بقوتي . فقال له لو كانوا عشر دجاجات اطلقن من فنهن ما استطعت أنت وحدك أن تمسكهن بيدك فهل تستطيع أن تمسك وحدك عشرة رجال مسلحين ؟ فأطلقهم الرئيس العادل في الحال ، ووبخ المستشار الكذاب على فعله الدنيء أمام المحكمة .

واتصلت الصداقة بيني وبين المسيو لكلير وكان يتفضل ويكثر من زيارتي ويقص عليّ أشياء تدل على صفاء نفسه واتصافه بصفات الأحرار العارفين ، وأكد لي أن عواطفه اسلامية لأنه قضى ثلاثين سنة من حياته في الجزائر بين المسلمين . وباح لي يوماً أن الجنرال غاملين قائد جيوش الشرق زاره وشكره باسم فرنسا لتبرئته اسماعيل بك الحريري شيخ مشايخ حوران ، وانه قال له انك بهذه التبرئة حقنت الدماء ، ولولا ذلك لاندلع لهيب الثورة في اقليم حوران من أجل شيخ مشايخها ، ونحن لا أرب لنا أن نضرب أحداً لان فرنسا ليست في حاجة إلى نصر جديد .

أوردت هذا مثالاً من عقلية الطبقة العالية من الفرنسيين وكنت أرى صفات الخير متجلية في بعض ضباطهم وقوادهم ، ذلك ان رجال الحرب عندهم يختارون للخدمة بدون طلب منهم وأكثرهم مهذبون ، وربما كانوا من أبناء الأسر القديمة الشريفة . أما المدنيون ففيهم من يعرض نفسه للخدمة أو يقدمه لها حزبه أو جمعيته وجمهرتهم في الغالب من المتوسطين بخلقهم ومعرفتهم . وشتان بين من يكون العامل الأول في نصبه الشفاعات وبين من يُعينه رؤساؤه لمعرفتهم مزاياه . وفرق بين من يزكي نفسه ومن يزكيه من لا غاية لهم .

ولما أحيل السيد لكلير على المعاش أردت ورئيس الدولة أن نبقيه في سورية لننتفع بمواهبه وأن نجعله مستشاراً لبلدية دمشق بدلاً من اولئك الفاسدين الذين أتونا بهم فلم تقبل حكومته وغادر سورية آسفاً ونحن أشد أسفاً .

مما اتهم به

يتهمونني بالتحامل على دولة الترك العثمانيين ، ويقولون ان (خطط الشام) و (الاسلام والحضارة العربية) و (القديم والحديث) من تآليفي ملئت بالطعن على هذه الدولة . وما كان لرجل تلقى ثقافة امة وأدبها ودرس تاريخها بلغتها وغير لغتها وعاش شطراً كبيراً من حياته بين أهلها وفي ظل حكمها وعاشر طبقاتها ودرس نفسيتها إلا ويعرف عنها أكثر مما يعرفه الراضون عنها وهم من طبقـة اغتنت بسرقتها وسرقة رعاياها وارتاشت بأكل أموال الأوقاف واستصفاء المدارس والمساجد أو كانت على الأقل من موظفيها أو كان غرامها بتزيين صدورها برتبها وأوسمتها ، أو ممن استهواهم الدين فشفع لتلك الدولة عندهم كونها مسلمة لا حرج عليها إذا ظلمت واستبدت .

أنا لا انكر أني أنظر في تاريخ العثمانيين نظر العربي لا نظر التركي ، ولما ظهر كتابي خطط الشام قرأه أحد الاتراك في أنقرة وربما كان من أصحاب الأخبار ، فقال : ما كنا نظن أن فلاناً يحكم على حكمنا الديار الشامية هذا الحكم الجائر . ولو أنصف لقال : تُرى هل اختلق وكذب أو قال ما وقع ؟ فالمختلق والكذاب لا يصح أن يمسك قلماً ويكتب تاريخاً . فان كنت بالغت على رأيهم في وصف عهدهم الحديث عندنا فالعهـد القديم من كتبه ؟ أليسوا مؤرخين منا ومنهم شهدوا ظلم التركي وسوء إدارته ؟

لو تجردنا من كل عاطفة ، وهـذا من المتعذر ، لما حكمنا على دولتهم مهما تسامحنا إلا بأنها دولة ظالمة قضت أيامها كلها في الفوضى والاستبداد ، وخرّبت المدنية التي سقطت عليهـا في الأقطار الواسعة التي احتلتها وما أحدثت لها مدنية يُعتد بها . وربما زعم زاعم أن ظلمها عنصرها كان أشد ، ولكن عزاء الترك أن لهم الدولة والسلطـان سلطانهم يهون عليهم

ما لا يهون على غيرهم من العناصر . ولو كانت الدولة صالحة للبقاء لما رأينا أهم أجزاء أرضها في اوربا أحط من عامة الممالك الاوربية بعد مقام الاتراك فيها خمسة قرون ، ولما شاهدنا الممالك التي اقتطعت منها مثل مصر واليونان ورومانيا وصربيا وبلغاريا تقفز إلى الترقي قفزة مدهشة منذ نجت من معوج سياستها .

هذه حقيقة شهد بها أهل تلك الدولة أنفسهم وامثل رجال العلم فيهم ، وكلهم على شبه اجماع مع مؤرخي الغرب بأن دولة الترك العثمانيين ما كانت إلا دولة حرب ، وليس السيف كل شيء في قيام الممالك . وإن معظم الولايات التي استولوا عليها كانت قبل حكمهم أكثر رقياً منها يوم رحلوا عنها ، ونحن نقول لو سلم العرب من استيلاء الترك عليهم اربعة قرون لكانوا اليوم ارقى شعب شرقي ، ولو قُدِّر للشام أن يخرج عن حكمهم يوم طرحت مصر نيرهم الثقيل عن عاتقها لكانت الآن كسويسرا علماً ورقياً .

جزاء مادي

اجتاز مرة بطريرك الموارنة ببعض قرى الاصطياف في شمالي لبنان ، وكان بعض المصطافين من مسلمي طرابلس جالسين في المقهى ، فلم يلبث بعض رعاع الموارنة أن انهالوا عليهم بالضرب والشتم قائلين مالـكم لاتقومون أما رأيتم سيدنا وسيدكم ؟ فسكت المسلمون على هذه الاهانة ، ورجعوا من الغد إلى بلدهم وأخذوا يفكرون في تأسيس مصايف لهم في سير من عمل الضنية . واتفق أن عاد من المهجر أحد أبناء تلك الناحية من المسلمين وقد أثرى كثيراً فأنشأ في سير فندقاً ودوراً للاصطياف وعبد الطرق وأنشأ الحدائق ، وما جاءت السنة الآتية حتى استغنى الطرابلسيون عن أهدن وبشري وحصرون وحدث الجبة وغيرها من المصايف التي ألفوا الاختلاف اليها ، وبارت تلك الدور والقصور بواراً أبدياً . وعبثاً حاول بطريركهم أن يعوض أصحاب المصايف عن بعض ما فقدوه من الارباح وعبثاً توسل بعض أعيان الموارنة في تلك الناحية أن يعود الطرابلسيون إلى اتخاذ قرى لبنان الشمالي مصايف لهم ، وكان عمل الطرابلسيين أحسن جواب لمن أعماهم تعصبهم الديني فضربوا بمادياتهم لما حاولوا أن يضربوا المصطافين بمعنوياتهم ، ونتج من هذا امتداد العمران في صقع لا يسمع فيه المسلمون اهانة ولا قذفاً ، وكان عمل أولئك الاجلاف عبرة لمن يريدون أن يعيشوا في هذا القرن بعقلية أهل القرن الماضي .

لا يبعد أن يتصدى أهل كل ناحية من النواحي القريبة من لبنان لانشاء مصايف لهم في أرضهم . وفي جوار هذا الجبل من الداخل والساحل قرى لو نظمت بنظام الاصطياف قد تفوق لبنان بجودة هوائها وعذوبة مائها

كبعض أرجاء جبال العلويين وعكار والهرمل وجبل عامل وجبل الاربعين وجبل قلمون واقليم البلان واقليم الزبداني وسفوح جبل الشيخ من نواحيه الاربع .

والشيء بالشيء يذكر فقد اذكر في ما صدر عن رعاع الموارنة في معاملة اعيان الطرابلسيين بعقوبة إلهية حلت بأحد أعيان الموارنة ، وكان أيام الاحتلال الفرنسي يجاهر المسلمين العداء ، ان ابنة له عشقت شاباً مسلماً اسمه محمد وعبثاً حاول أبوها واهلها ارجاعها عن عشيقها والزواج من احد ابناء المسيحية فما سمعت الا لصوت غرامها وظلت تسافح هازئة بكل الاعتبارات فاصاب اباها المتعصب من ذلك مصيبة وأي مصيبة وهذا ما نعده جزاء مادياً والناس لعهدنا لا يهتمون لغير الماديات مع الأسف .

المجمعان العربيان

قال لي جلالة ملك مصر ان المجمع العلمي العربي اهداه مطبوعاته فقرأها ورأى طبعها المشرق والتعليقات المفيدة على الكتب القديمة فمجمعكم يعمل خلافاً لمجمعنا فأجبته ان المجمع المصري يعمل أيضاً ولكنه قصر في نشر اعماله في مجلته . وتفضل كما جرى منه في أعوام سلفت وأرسل اليّ أحـــد خاصته لنتفاوض فيما يحفز مجمع فؤاد الأول الى العمل .

نجح مجمع دمشق لأن أعضاءه أخلصوا في خـدمته منذ وضع اساسه وكثيراً ما كان بعضهم يقرظني ويجهر بعملي فيه فاقول لهم مخلصاً ان المجمع مدين لأعضائه مثل اخي فارس الخوري انشأه معي وحماه من تحكات السياسيين الأغبياء . والسيد فارس لا يحتاج الى تعريف بعد ان ثبت في مؤتمرات الدول العالمية انه رجل الدول العربية في السياسة وانه عارف بقضية مصر معرفة لا يدانيه فيها سياسي . ولجميع الاعضاء الذين عملوا معي في دمشق منذ أنشأته كطاهر الجزائري ومسعود الكواكبي وسليم البخاري وعبد الله رعد وسليم عنحوري وعبد القادر المبارك من الأموات واسعـد الحكيم وسليم الجندي ومرشد خاطر وجعفر الحسني وخليل مردم بك وجميل صليبا وحسني سبح وشفيق جبري وعارف النكدي ومصطفى الشهابي وعبد القادر المغربي ومحسن الأمين وبهجة البيطار وهم في الغاية علماً وغيرة على خدمته أما في الأصقاع القريبة فكان من عاونوه شكيب ارسلان انستاس الكرملي محمود شكري الالوسي راغب الطباخ فؤاد الخطيب احمد رضا سليمان ضاهر ادوار مرقص عيسى اسكندر المعلوف محمد اسعاف النشاشيبي عبد الله مخلص رضـا الشبيبي بهجة الأثري داود الجلبي جرجس منش طه الراوي احمـد الاسكندري

احمد تيمور رفيق العظم أمين المعلوف عبد العزيز البشري احمد عيسى ابوعبد الله الزنجاني الى عشرات غيرهم من المستعربين من علماء المشرقيات ومنهم مرجليوث وماسينيون وكرينكو ونللينو وجويدي وبراون الخ .

أما اعضاؤه في مصر فقلّ منهم من عاون هذا المجمع معاونة فعلية كأنهم يظنون ان دخولهم فيه من باب اعتراف المجمع بفضلهم فقط ولم يعهد لاحدهم ان كتب له رسالة أو أفاض عليه رأياً وغاية ما سمعنا منهم تقريظاً لمملنا وموازنة المجمع لا تسمح له باعطاء كل من يؤازرونه مكافآت كما تفعل مجلات مصر وجرائدها فتعطي اعضاءنا هناك ما يرضيهم ولذلك يحق لنا ان نقول ان المادة دعت الى عدم الانتفاع بأدب اخواننا المصريين .

الدستور السوري

عدل مجلس النواب الدستور السوري ليتسنى اعادة السيد شكري القوتلي الى رئاسة الجمهورية مرة ثانيـة واجمع المجلس يوم ١٨ نيسان ١٩٤٨ على انتخابه فـكان اجماعه أي اجماع الامة هو بعض ما تـكافئ به امة رشيدة رجلاً اخلص في خدمتها حياته . كل هذا واجب وحسن ولكن الذي نريد الا ينساه كل عربي ان نعتدل في مدحنا وقدحنا فقد ورد في الأثر احبب حبيبك هوناً ما عسى ان يكون بغيضك يوماً ما وابغض بغيضك هوناً ما عسى ان يكون حبيبك يوماً ما .

الاخوان المسلمون

قال الاستاذ سعيد التلاوي في جريدة الفيحاء يصف الاخوان المسلمين ولعل آلم ما يقع امام الانسان من حوادث واحداث تحز في نفسه وتدمي فؤاده ان يرى الباطل مرتدياً ثوب الحق والفساد مبهرجاً بدعوى الجهاد وهـذا شأن الفئة التي اطلقت على نفسها اسم الاخوان المسلمين كأنما أرادت أن تفرض نفسها على الناس فرضاً وتحتل ميدان الدين والوطنية والقومية احتلالاً لا يكون معه مكان الذين لم ينتموا الى هذه الفئة

اي اننا نحن الذين نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر في حاجة لنكون مسلمين حقاً أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر وبالاخوان المسلمين واذا لم نؤمن فاننا لاجرم نكون من الاخوان الكافرين!

فالاخوان المسلمون جماعة طغت عليهم الانانية وفتنتهم الدنيا وغرتهم الحياة فطفقوا يعملون على بلوغ الشهرة والجاه والسلطان من أقرب الطرق وهو طريق الدين الحنيف والشريعة السمحاء وراحوا يركبون للوصول الى آمالهم وأمانيهم كل مركب ، ولم ينس الناس تلك الحملات التي شنوها على كرام الوطنيين وعيون القوميين اثناء معركة الانتخابات الماضية ، تلك الحملات التي كشفت حقيقتهم واظهرت نيتهم وبينت طويتهم مضافة الى ما فعلوه من قبل في الموقف المعروف بفتنة « نقطة الحليب » التي قمعها الرجل الصالح الصادق سعد الله الجابري وانقذ البلاد من كارثة كادت تقضي على خيوط الاستقلال والحرية والسيادة في ذلك الحين مضافة الى ما فعلوه من بعد في اليمن ، تلك البلاد العربية التي كان على رأسها ملك عربي مسلم لم يسمح لاجنبي ان يطأ أرض بلاده مدة أربعين سنة ولم يوقع على ورقة أو صك أو عهد بينه وبين دولة أجنبية فكان نصيبه رحمه الله القتل والتمثيل به وسرقة

أمواله ونقلها بالطائرة مع الفضيل الورتلاني وتحويل قسم منها الى الاخوان المسلمين في القاهرة .

وما هذه الشواهد البسيطة الا مقدمة بسيطة كذلك لما يحاول الاخوان المسلمون ان يفعلوه الآن في سورية باسم الدين وباسم المجاهدين كأن الله جعلهم وحدهم على كل هذا قيمين واليه داعين . قال حقاً ان فلسطين لتصطلي اليوم ناراً حامية سعرها الغدر الدولي واججها الفجور الصهيوني وان رئيس الجمهورية السورية ليصطلي هذه النار بما فيه من محبة للوطن ككل عربي صحيح العروبة وككل مسلم صادق الاسلام ، اما الاخوان المسلمون فانهم لم يفعلوا شيئاً لاجل فلسطين غير جمع نفر من جماعتهم وسوقهم الى دمشق لعرضهم على الناس في الشوارع ارضاء لشهوات النفوس ثم يقعدون جميعاً في معسكرات التدريب وقد تحل قضية فلسطين ولا ينتهي تدريب الاخوان المسلمين لانهم مشغولون عن الجهاد بدعوة الشعب الى الحداد ولانهم منهمكون بالحياة الدنيا عن خوض غمرات الحرب الضروس في الارض المقدسة .

فلو ان الاخوان المسلمين كانوا صادقين في دعواهم لما قام منهم خطيب يدعو الى نفسه ويطلق على ذاته الالقاب والنعوت التي ينفر منها الله ويبرأ منها الدين ولذهبوا الى فلسطين يطلبون الشهادة والاجر والمغفرة ولما كانوا يغرقون الى الاذقان في حب الدنيا الغرور ويتهالكون على ما فيها من منافع ومصالح يحاولون اقتناصها بقوة الدين وباسم فلسطين .

ان العرب اليوم لينظرون الى مأساة فلسطين فلا يرون فيها شيئاً يختلف عن مأساة الاندلس وان عليهم واجباً قومياً دينياً يتقاضاهم العمل لتفادي تمثيل تلك المأساة ، وحقيق بالاخوان المسلمين ان يعفروا وجوههم بالتراب ويبللوا لحاهم بالدموع ويخلصوا العمل لله ويسيروا الى فلسطين آمنين مطمئنين ويدعوا العالمين اجمعين الى الجهاد .

عيد المعري الالفي

قال لي امين سر المجمع العلمي العربي صديقي الاستاذ خليل مردم بك ان المعري ولد سنة ٣٦٣ فيكون مضى على ولادته الف سنة فخليق بالامة العربية ان تحتفل بعيده الألفي . وكنت في احدى العشايا على مائدة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي مع ثلة من رجال الحكومة فذكرت له ما عرفناه عن مولد المعري فسر كثيراً بهذا النبأ وقال سنحتفل بهذا العيد احتفالاً عظيماً ، والمعري مفخرة العرب عامة ومفخرة الشام خاصة ، وسندعو الى مشاركتنا بالعيد اعاظم علماء مصر والعراق وجزيرة العرب وشمالي افريقية وهذه فرصة سانحة لنطلعهم على مافي ديارنا من بدائع الكنوز الطبيعية والآثار التاريخية . وذكرت لمن بيدهم الأمر من الوزراء الذين كانوا معنا على المائدة يستمعون الى كلام الرئيس الاول ما يجب من فتح اعتماد مالي للعيد ، ومن الغد كتبت الى وزارة المعارف بالأمر فاحالت مقترحي على مجلس الوزراء فرده بدعوى قلة المال ولم يفتح وزير المعارف فاه بالدفاع عنه مع ان الكلام مع الرئيس كان بمسمع منه يوم تلك الضيافة . وبلغ رئيس الجمهورية ما تم في هذا الامر الذي أهمه وكاد يهم باتهامي بالاهمال فأثبت له أن الذنب ذنب حكومته فوعد بايجاد المال وبلغني انه اقترضه من وزارة الاعاشة ريثما يجتمع مجلس النواب ويقره . ولم يشأ المجمع أن يشرع باعداد المعدات للعيد قبل أخذ كتاب وزارة المعارف بالموافقة على الاعتماد الذي طلبه وهو اربعون الف ليرة سورية وبعد أن وصل المال الى يدنا برمته . وكانت نية الرئيس أن يحتفل بهذا المهرجان في شهر نيسان من هذه السنة ١٣٦٣ ليرى الوافدون ربوعنا في حلتها الخضراء البديعة فضاع وقت غير قليل حتى حصلنا على موافقة الحكومة وتمت المعاملات القرطاسية فتقرر أن يجري

العيد في أواخر ايلول ليتيسر لمن يشاركونا بالاحتفال أن يعدوا خطبهم ومحاضراتهم وأبحاثهم وقصائدهم وينجزوا طبع كتب المعري وما له علاقة بالمعري.

وقبل موعد الاحتفال استدعاني رئيس الجمهورية وكان عنده وزير المعارف السيد نصوحي البخاري فقال لي ان الوزير يقول ان المجمع العلمي العربي يعمل مستقلاً استقلالاً تاماً ولم يشرك وزارة المعارف في شيء من أمر المهرجان فأجبته ان المجمع يفاوض في كل ما يجب أن يفاوض فيه، وأعرف ويعرف امين سره وكان أيضاً وزيراً للمعارف أن المجمع مرتبط بهذه الوزارة وأنه كتب اليه في مسائل العيد وأخذ أجوبة وقلت الغالب ان لدى وزارة المعارف موظفاً كبيراً مستبداً بالامور حاول مرة أن ينضم الى المجمع عضواً فلم يجب الى بغيته لانه لايحسن العربية، فأخذ يقاوم المجمع، فبشرني الرئيس أن هذا الموظف نقل إلى عمل آخر واستراحت المعارف. ثم اجتمعنا في غرفة الوزير فاخرج اضبارة المهرجان ليثبت لنا قصورنا في مفاوضته على نحو مادعى أمام الرئيس الأول فتبين بالقاء النظر على الاوراق أن الوزير موافق على الامور المهمة وأنه خانته ذاكرته ونسي ما رقمه بقلمه من المعاملات ثم قال لي ولامين السر العام كيف يجوز ألا يقول مثلي وأنا وزير المعارف شيئاً في عيد المعري؟ فقلت له لك ذلك ومن حظر عليك ما تريد، فكان أن ألقى في اليوم الاول من العيد في مدرّج الجامعة السورية بحضور رئيس الجمهورية ورجالها وعلماء العرب وغيرهم من العلية خطاباً ماظننته إلا ابن عدة أشخاص وشبهته بالثوب المرقع رقعة جوخ ورقعة صوف ورقعة جلد ورقعة شفوف حرير ورقعة خيش بالية أي أن كلامه كان دون ما يجب لمن كان في مثل مقامه أمام أعيان البيان في هذا الزمان. واحتفل بالعيد ثلاثة أيام في دمشق وثلاثة أخرى في حلب وحمص وحماة والمعرة واللاذقية فاقيمت فيه المآدب الفاخرة باسم رئيس الجمهورية واسم امهات المدن السورية وباسم وزارة المعارف واسم المجمع العلمي العربي وباسم عين المعرة حكمت بك الحراكي دعا الوفد الى داره وتليت فيه الخطب والابحاث الممتعة والقصائد الرنانة مما

كان نموذج أدب هذا العصر ، ودل على مكانة أبي العلاء المعري في قلوب رجال العربية كافة . وما أحب وزير المعارف الا أن يفيض على الوفد من أدبه فرافقه في رحلته وكنا نود لو لم يتعب نفسه وينصرف الى القيام باعمال وزارتيه الدفاع والمعارف أي وزارتي السيف والقلم لان رئيس الجمهورية قال لنا ونحن نعرض عليه طلب اشتراك الحكومة في الامر أن نراجع رئيس الوزراء فقط فيما يعن لنا في الامور التي لها علاقة في العيد لأن وزير المعارف مشغول كثيراً وهو يتقلد وزارتين وكل معاملة تبقى في دائرته اثني عشر يوماً . فلما جاء الوزير يشكوني لم يسع الرئيس إلا مشايمة وزيره على شكواه التي لا معنى لها .

والمجمع على كل حال قام أحسن قيام بواجبه في اعداد العيد وذلك بفضل العاملين من أعضائه ولا سيما الاستاذ أمين سره العام ولطالما قلت له (والمتلف الشيء غارمه) أما وأنت الذي اهتديت الى ولادة المعري فالمفروض عليك أن تقوم بالعبء الثقيل من اتمام الرغبة في الاحتفال بذكراه .

ولم ينقص العيد إلا اشتراك حكومات جزيرة العرب به ، ولعلها لا تقول بجامع الازهر بأدب المعري وتخشى ان اشتركت في تكريمه أن تعد شريكته فيما رمي به من الالحاد والتعطيل ! واعتذر الفرنسيون رسمياً بان قلة المواصلات مع شمالي افريقية دعت الى تخلف أعضائنا وغيرهم من رجالات تلك الاقطار عن الحضور . ومن المعروف أن فرنسا في كل زمن حاولت أن تقطع الصلات بين أهل شمالي افريقية وبين سكان هذا الشرق القريب ، وأن توهم أهل الأقطار التي تحتلها أنهم ليسوا عرباً بل هم بربر لا شأن لهم بالعربية ولا بالعرب .

الوضع الحاضر

(الوضع الحاضر) (الوعي القومي) (التربية المثالية) (المجال الحيوي) (المثل العليا) (الشخصيات البارزة) (السوق السوداء) تراكيب جديدة يكثر اليوم ترددها في الصحف وعلى الألسن . ويعنينا من هذه التعابير الآن تركيب (الوضع الحاضر) فانه أصبح من الكلام الذي يردده من تولى الحكم ومن وراءه من النفعيين والوصوليين ، وكل من انتقد الوضع بكلمة أو عابه ولو بالاشارة مرق من الوطنيـة مروق السهم من الرمية . ومن لا يوافق على كل ما تواضع عليه الحزب المتغلب يعد خارجاً عن الجماعة ، مريضاً في عقيدته السياسية ، حرياً بالاعتقال والنفي أو بالقتل والتعذيب .

بالأمس كان الناس في مصر يصفقون للوفديين الذين تولوا شؤون الحكم خلال الثلاث سنين الأخيرة واليوم وقد أقال ملك مصر وزارتهم يريد لمصر وزارة ديموقراطية تطبق أحكام الدستور أخذ الناس يصفقون للوزارة الائتلافية الجديدة ويقيمون الأفراح متهللين . وكل من يتولى الحكم في مصر وغيرها لا يلبث أن يستتبع جملة ممن كانوا البارحة مع الفريق الذي تمت أيامه ، والناس مذ قامت الحكومات في الأرض عبيد منافعهم . حمل المخالفون على سياسة الوفد وعابوه بالالتجاء إلى من طالما حاربوهم كي يصلوا إلى الحكم ولاموه على إسرافه بأموال الدولة واستكثاره من خلق الوظائف الجديدة التي لا لزوم لها يرضي بها جماعته ، واتهموه بأنه فشت في أيام حكمه الرشوة والخلل في الادارة ، وأنه عمل على اعتقال مئات الأبرياء خالفوه في مراميه . فهل تقوى الوزارة الحاضرة يا ترى وفيهم الوزراء الأكفياء على تصفية حساب الوزارة السالفة وتطهر أداة الحكم مما عراها من الصدأ والخبَث ، أما أنا فيخامرني الشك بقيام وزارة تفي

بوعودها ، وكل وزارة توفق إلى تحقيق بعض الاصلاحات أعدها حكومة عمر .

زعمت الوزارة المصرية الجديدة أنها ستطلق الحرية للصحافة فهل تعتدل الصحف غداً في آرائها وتصدق في حملاتها ، ولا يستحل حزب أن يختلق على حزب ما لا أصل له في غير رأس كاتبه وقائله ويذهبون من المهاترات إلى السفاهات . فقد رأينا ما أصاب القطر من الخمول بحجز حرية الكلام في الخمس السنين الأخيرة للحرب الحاضرة وكانت مصر منذ نحو خمسين سنة تنعم بنعمة الحرية على اختلاف مظاهرها ، وامة ألفت الانطلاق يشق عليها الرضا بالتضييق ، وشعور الأمم كشعور الأفراد على قدر فهمها وسعة مداركها .

هذا في مصر أما في الشام فالحرية ضعيفة بالقياس لحرية مصر لأن ولاة الأمر فيها يلجأون حالاً إلى إقفال الجريدة التي لا ترضيهم وتضيق صدورهم عن سماع ما يخالفهم ، ولذلك ترى الصحف متشابهة في معظم ما تقول ولا تقول إلا ما يرضي . وما أشوق النفوس اليوم إلى استماع أقوال الجرائد الحرة . وقد صدرت منذ سنتين مجلة للدعاية الأمركية في مصر وما عرف قراء العربية أنها تنشر بعض مقالات تكتب بحرية حتى اقبلوا عليها إقبالاً لم يكتب لمجلة ولا لجريدة طبعت بالعربية . هذا ما كان من أمر الصحافة والحرية ومثل ذلك يقال في سائر أنواع الحريات التي يعمد إليها الناس لاظهار أفكارهم وعواطفهم . وكان من العبث بالحرية في ديارنا أن انتشرت الرشوة وضاعت الحقوق فسرح الفاسدون ومرحوا في غفلة الزمن وعهد الحجر على الاقلام . هذا وإذا انتقد منتقد ما يجري قالوا له صه إنك تعكر بكلامك الوضع الحاضر ، والوطنية تقضي بالسكوت عن الهفوات كأن الابقاء على سلامة الوضع الحاضر لا تكون بغير الاغضاء عن المساوئ والكف عن نقد الخلل . من أدب الوضع الحاضر أن يقول كل إنسان بالثورة ولو أورثتنا الضرر الظاهر ومن لا يصف السرّاق والقتلة

بالمجاهدين غضب الله عليه وعُدَّ العدو الأكبر لوطنه ومن لا يلمن المتدبين بالحق والباطل فهو انتدابي يحب الاستبداد ويأنف من الحرية ، وكل كبير لا ينزل على إرادة الصغير هو جامد متحجر العقل لأن الفتيان الناشئين أوتوا من الحكمة ما لم يكتب مثله للشيوخ المحنكين . وبالجملة فان أنصار الوضع الحاضر لا يتحرجون عن فرض أعظم العقوبات على كل من لا يتابعهم على أهوائهم ، والطعن بمروءة المخالف وشرفه ودينه ووطنيته أيسر ما يوجهه أدعياء الوطنية إلى العارفين .

تدمير فرنسا بلادنا

مثلت فرنسا في ضربها مؤخراً دمشق وحلب وحماة وحمص واللاذقية وغيرها من القصبات الشامية صورة من صور الوحشية تظهر بها أمة مسلحة إذا حاولت أن تنال من شعب ضعيف غرضاً ترمي إلى الحصول عليه. ضربت فرنسا أمة عزلاء ضرباً قصدت به فرض معاهدة على ديارنا بالارهاب والقوة . وادعت أن العامة في دمشق استفزوها باحراقهم سيارة لها من سيارات النقل أمام البرلمان فما وسعها إلا تدمير دار الندوة على رأس من فيه من النواب والحامية ، وحاولت أن يكون عدوانها ساعة اجتماع المجلس تحت قبته ، ولكن الحكومة كانت اطلعت على ما كان يُبيَّت لها من الشر ، واتفق أنه لم تحصل أكثرية في المجلس يومئذ فتحول الحاضرون من أعضائه إلى دار زميلهم الاستاذ خالد العظم في سوق صاروجة ، فبادرت الحامية إلى قذف قصره العظيم بحممها فلم تصبه وأصابت قذائفها داراً من دور جيرانه فأفنت أهلها .

يراد من دعوى المنتدبين استفزاز العامة لهم أن فرنسا كانت على حق في تدميرها المدن وإهلاكها السكان ، وقد أثبتت التحقيقات إثباتاً لا مجال للشك فيه أن فرنسا ضربت ما ضربت ظلماً وعدواناً ، فكان ما ارتكبته سبباً في إخراجها من ديارنا . وكانوا ارتكبوا مثل هذا العمل الأخرق في الجزائر فقتلوا ألوفاً من الآمنين ، ولطالما أتوا هذه الأفاعيل المنكرة في الأقطار التي استعمروها ، ومع هذا ما زالت تحكم تلك الاصقاع . والجزائر في العرف الدولي مستعمرة حكمها حكم الارض الفرنسية ، وللمستعمر أن يهلك من استعمرهم ! كما كان الحق لمن استرق انساناً قبل الاسلام أن يميته أو يستبقيه .

هذا ما أتاه الفرنسيون في القرن العشرين وهم الذين منوا على العالم بأنهم وضعوا حقوق الانسان وحرروا العالم من ظلم الملوك . وما تاريخهم منذ ثلاثمائة سنة أكثر من اعتداء قوي على ضعيف . أما استعمارهم فهو من نوع الاستعمار الذي لا يغبطون عليه . ولقد أتى زمن عليَّ كنت فيه أدعو إلى الأخذ من مدنية فرنسا واجاهر بحب فرنسا المدنّية واكرّه إلى النفوس فرنسا المستعمرة ، ولكن العمل الأخير كاد يزهدني في مدنية أحببتها ودعوت إليها .

كنت إلى يوم ضرب دمشق أعتقد أن الراهبات والرهبان قوم استهواهم دينهم فتطوعوا في بث دعوته ، وأخذوا على أنفسهم خدمة الانسانية وتخفيف آلامها ، فأثبتت الكارثة الأخيرة أنهم شر أدوات الاستعمار ، وأن دعوى بعضهم خدمة دينهم نفاق وزور وكيف لعمري زينت لهم تعاليم السيد المسيح القائمة على الرحمة والشفقة ازهاق أرواح الأبرياء من مخالفيهم في الدين ؟ ظهرت أديار الرهبان والراهبات هذه المرة أنها ثكنات عسكرية وحصون تدمير ، وأن بعض من أووا إليها لا يختلفون عن القتلة واللصوص . روى لي ثقة أن راهبة فرنسيسكانية أشارت الى جندي سنغالي يوم ضرب دمشق في وضح النهار أن يطلق عياراً نارياً على أحد الشخصيات المعروفة وهو يجتاز الشارع وشوهد أحد رهبان الاخوة المريميين يطلق من مدفع رشاش ناراً حامية على حي قريب من قرية المزة وهو متشح بلباسه الاسود ، ثم دخل بيتاً ينهب لما تراءى له أنه خال من أهله . ولو لم يرو هاتين القصتين ثقات من أصحابي ما صدقت صدور مثل هـذه الفظائع من اناس يدينون بدين المحبة . واخبرت أيضاً أن المستشفى الفرنسي يوم الوقعة الكبرى لم يقبل أحداً ممن جرحوا يوم العدوان . وقد ثبت أن قائد التدمير أمر بضرب المستشفى الوطني فارتاع المرضى وخرجوا هائمين على وجوههم الى الشوارع وأن بعض جنده اعتدوا على بعض الممرضات . وكان بعض المستشارين من الفرنسيين في مقدمة الجيش يطلقون نيرانهم على الأهالي وهم يعدون أرقى

فئة من المدنيين الذين أتونا بهم لتعليمنا اصول الحكم ، ولم يروا من كل حكومة وطنية ومن كل وطني إلا الحرمة والاعتراف بجميلهم .

هذا ما جوز لأنفسهم فعله أبناء ثورة سنة ١٧٨٩ المتشبعون بروح روسو وفولتير في عاصمة من أعظم عواصم الاسلام ، انهزموا أمام عدوهم في ارضهم أقبح هزيمة ، وانقلبوا يعتدون على الآمنين في أرضنا . كانوا امام الألمان كالنعامة يوم دحروهم ، واستأسدوا في عقر دارنا . وما كان أكثرهم في الواقع الا قتلة ومتشردين . حدثني صديقي الاستاذ فخري البارودي وكان وكل اليه أمر رد المنهوبات الى أربابها في عاصمة سورية ، أن أكثر بيوت ضباط الفرنسيين وقوادهم كانت ملأى بالأمتعة التي سرقوها من بيوت السكان وأن دار القائد العام (الجنرال اوليفاروجه) كانت مثالاً مخجلاً في هذا الباب : سرق كل ما طالت يده اليه من دور الأهلين ، ومن دار المجلس النيابي ، وسرق في جملة ما سرق صندوقه الحديدي وحمله الى منزله وحاول فتحه بمطرقة عظيمة فما استطاع نزع قفله ، وكان فيه ستون الف ليرة سورية ، وقد سرق مقداراً كبيراً من الكتب النادرة من خزانة المجلس الى غير ذلك من النفائس التي استحل أخذها ، وما حال عظم رتبته دون أن يحشر نفسه في عداد اللصوص . وقلّ أن نجا ضابط من ضباطهم من تلويث يده بالدم الحرام والمال الحرام ، ولا عجب أن تجري حكومة فرنسا على هذه الخطة العوجاء في ديارنا وكل ديار نزلت فيها من الشرق والغرب ، وأن يستحل أفراد جيشها أموال الضعفاء فان حكوماتها ما زالت تتآمر على أموال رعاياها أنفسهم . وفي اختلاساتهم في شركة باناما وستافسكي مثال مصغر من أخلاق رجال السياسة والمال في فرنسا ، اشترك النواب والوزراء في هذه السرقات العظيمة فأتوا ببرهان آخر على انحلال أمرهم .

كنت أظن وأنا على أميال قليلة من القلاع التي كانت تطلق حممها على السكان خلال هذه الغارة ان القائد الذي يأمر بالضرب على البيوت والمصانع ما كان الا سكراناً او محششاً فأكدوا لي انه كان يعاقر الخمرة منذ شرع

بضرب دمشق ويصدر أمره الى زبانيته وهو فى تلك الحالة المضطربة ، وأنا اؤكد للتاريخ أن قائده الأعظم الجنرال دي غول كان أيضاً مضيماً عقله عندما أمر بضرب سورية لتصل فرنسا الى مآربها بهذا الضغط الجائر .

مسكينة فرنسا يحاول أبناؤها المخلصون حمل النفع اليها بعقولهم وعلمهم فيأتي الجهلة المجانين من بنيها فيفسدون في ساعة ما قضي العقل في اقامته سنين وفي تاريخها الأخير امور كثيرة ليس فيها ما يرفع الرأس . الخفة ويالاسف ابداً متغلبة على الرزانة ، ولذلك تأخرت عن امم اوربا وكانت في القرن السادس عشر أعظم دولة في الغرب ولكثرة ما أفنت من الناس وما افنوا منها أضحت دولة من دول الدرجات الثالثة أو الرابعة .

كانت فرنسا كما قال هريو في كتابه الايجاد G. Herriot : Créer ذاهبة بالأولية بين الدول في القرن السادس عشر من حيث عدد سكانها فكانت نفوسها نحو نصف سكان اوربا وأصبحت في عهد لويز الرابع عشر نحو ثلث أوربا وفي سنة ١٧٨٩ نزلت الى الربع وبعد حروب الثورة والامبراطورية تدنت الى الخمس وأطرد هبوط ساكنها في القرن التاسع عشر على حين كان جميع شعوب العالم يزيد زيادة مستمرة .

ثم ان عقلية فرنسا قضت أن تتفوق الامم عليها بكثرة نفوسها ووفرة ثروتها ، وبلغ من ضعف سياستها أن كانت حيث ذهبت لتستعمر تتصدى لها انكلترا فتخرجها من البلد الذي احتلته : أخرجتها من الهند ، واقصتها من اميركا ، وأبعدتها من كندا ، وطردتها من مصر ، وقضت هذه المرة على سلطانها في الشام . فرنسا ترى من حسن السياسة اضطهاد كل امـــة تستعمرها ، وتحاول صبغتها بالصبغة التي ترتئيها ، وتتولى كل شيء برجالها ولا تترك لمن تستعمرهم ثروة تحفظ عليهم كيانهم ، ولا تمثـل للفرق بين استعمار واستهار بأكثر مما فعلت انكلترا في الهند وأتته فرنسا في تونس . الهند أعظم مستعمرة سكانها خمس العالم وتديرها انكلترا بثلاثة آلاف موظف انكليزي وستين ألف جندي ، وتونس لا يتجاوز سكانها المليونين والنصف

مليون تحكمها فرنسا بثمانية آلاف افرنسي وألفي تونسي ما عدا حاميتها .

ولقد حاولت فرنسا أن تعامل سورية كما عاملت أهل مستعمراتها الافريقية والآسياوية أي السودان الغربي والهند الصينية مثلاً فأخفقت ، وما أدرك رجالها أنهم منتدبون في سورية ، وشتان بين الانتداب والاستعمار أو الحماية ، وكانت منذ حلت أرضنا تعاملها بعقلية مستعمرة ، وعلى هذه الفكرة بنت حصونها وقلاعها على حين تسامحت في أرضها في هذا الشأن حتى استولى عليها الالمان في أيام قليلة . وفي الذي ظهر من فساد رجالها وقلة أمانتهم لامتهم وانحلال مجتمعها وجامعتها صورة تخجل منها كل أمة ، والعلة في تقهقرها رجال جنديتها وأرباب الاموال فيها : عشق الضباط الاوسمة والرتب وتلمظوا بحلواء الغنائم فاستهانوا بارواح من نزلوا عليهم ، واستحل الماليون كل محرم لزيادة رؤوس أموالهم .

اطرد التدني في فرنسا منذ القرن المظلم قرن لويز الرابع عشر إلى يوم الناس هذا ، ويرد تدنيها في الاكثر إلى الغرام باهراق الدماء تصنع بها أكاليل الظفر الموهوم . وأي سخف أعظم من أن يدعي معظم رجالهم أن نابليون بحروبه الطائشة التي أفقدت فرنسا مليوني جندي قد أورثها مجداً ، وأي مجد يأتي من حربها (سنة ١٩١٤ – ١٩١٨) وقد فقدت أكثر من مليون ونصف من جندها وثمانمائة الف مشوه وجريح ، وعاونتها نحو ٢٨ دولة حتى ظفرت بالمانيا . وغاية ما ربحت من حربها هذه استرجاع ولايتي الالزاس واللورين والانتداب على سورية ولبنان . وقد كلفها هذا الانتداب مليارات من الفرنكات سرق عمالها القسم الاعظم منها وفقدت ألوفاً من جندها ومئات من ضباطها في قمع الثورات لتغنم من ذلك محطة حربية تصل منها إلى أملاكها في الشرق وتنشر ثقافتها وتجارتها . وكيف لعمري يعد اهراق دماء الخلق مجداً ، وبخاصة إذا كان الدم المهراق هو بعض دم الاخ والمواطن .

الفرنسيس يدربون على القتال والصيال ليَقتلوا وليُقتلوا ، والحكم على الرجال أن يُقتلوا هو ما يجب أن تخجل منه الامبراطوريات والجمهوريات

لانه جريمة الجرائم كما قال اناطول فرانس . قال انهم يوجبون على الفلاح المسكين الخدمة في الجندية ينفونه من بيته ، ويقصونه عن حقله وغابته التي غرسها آباؤه ، ويدربونه على الفتك بالناس في باحة ثكنة كئيبة ويهددونه ويسجنونه ويقولون له هذا شرف . ومن لم يشأ أن يُشرَّف على هذه الصورة يقتلونه رمياً بالرصاص . قال نحن في فرنسا جنود ووطنيون، ومن عدّ وطنياً كان تلقيبه بذلك من دواعي فخره وزهوه . وآية كل ذلك أن ينهض الفقراء بمعاضدة الأغنياء ، ليبقوا عليهم عظمتهم ويمتعوهم بالفراغ ويعملون هم بدلاً عنهم ، وما كانت الثورة إلا من صنع مجانين وسخفاء قصد بها فائدة من وضعوا أيديهم على أموال الامة ، وأسفر ذلك عن اغتناء المحتالين من الفلاحين ، وأهل الطبقة الوسطى من المرابين ، وباسم المساواة قبض رجال المال على عنق فرنسا فأنشأوا منذ مئة سنة يمزقونها شر ممزق وهم فيها السادة والمربوبون ، وتتألف جمهرة الشعب من بائسين تستوجب حالتهم الشفقة ، وهم مغلوبون قذرون يَعملون مصرَّفون في خدمة رجال المال . ومنذ مئة سنة كان كل من أحب الفقراء في هذه الديار (فرنسا) يعد خائناً للمجتمع ، ومن قال إن فينا أهل بؤس وشقاء عدّ من الافراد المضرين ، وسنوا قوانين تقضي على من يغضب للظلم ويعرف بالشفقة .

هذا قول اناطول فرانس ، أما عيوب فرنسا في معاملتها رعاياها ومعاملتها من تنزل عليهم فيعرفها عقلاء أبنائها أكثر منا وقد كتبوا فيها الكتب المظيمة . ونحن نقول على حسابنا ان فرنسا بغطرسة بعض رجالها في الشام وضيق نظرهم وفساد آرائهم أصلوا العداوة والبغضاء حتى في صدور أصحابهم القدماء ، وخسروا بذلك ثقة أمة كانت تعاملهم بأمانة فاضطروها الى نزع يدها منهم ومصادقة دول أخرى .

الحرب الاخيرة

انتهت الحرب الأخيرة بظفر الحلفاء (انكلترا والولايات المتحدة وروسيا والصين) ومن حالفهن ووالاهن من الدول الصغرى ، وانهزمت ايطاليا والمانيا واليابان ومن عاونهن من الدول وذلك بعد اثخان الالمان واليابان في الحلفاء ست سنين واستيلائهن على معظم أوربا وجزء من آسيا وبعض جزر المحيطات العظمى ، وكان الفضل في هذه الغلبة لانكلترا وثباتها في الميدان وحدها بادئ بدء . تلقت ضربات جيوش الاتحاد الثلاثي أو دول المحور في أرضها ومستعمراتها بصبر عجيب حتى تيسر للولايات المتحدة الأميركية اعداد عددها لخوض هذه الحرب الزبون الى جانب بريطانيا العظمى وحليفاتها .

وكان بعض سكان الاقطار العربية في غضون الحرب يعجبون بأعمال المانيا الحربية ويقدرون علمها وبطولة رجالها ويعطفون على الالمان وعلى دولتهم مع علمهم بأن من مصلحة العرب انتصار الحلفاء وانكلترا من بينهن خاصة ، وذلك لأن انكلترا في أشد أدوار استعمارها لم ترهق الاقطار التي استعمرتها كما أرهقت فرنسا والمانيا وهولاندة وبلجيكا وروسيا واليابان وايطاليا الممالك التي افتتحتها باسم التمدين وما هو إلا شر استعمار .

انتهت الحرب وما ربحت منها دولة في الحقيقة ، وقد صرف كل من الغالب والمغلوب جهوداً عظيمة ، وفادوا بأجمعهم بالمال والرجال على ما لم يسبق للبشر مثله ، وكانت خاتمة هذه المأساة العالمية نسف الأميركان لليابان مدينتين بمن فيها بالقنبلة الذرية التي اخترعتها فعد عملها أفظع عمل تجرد من الانسانية ، استخدمت فيه آخر ما عرف البشر من أدوات التدمير . لم يقتل في هذه الحرب أقل من سبعة عشر مليوناً من الخلائق وهو عدد

ما سجلت مثله أعظم الحروب . وكان ربح انكلترا من هذه الصفقة القضاء على تجارة المانيا وصناعتها واقامة التوازن بين الدول الاوربية ثم نشأ من هذا اضعاف فرنسا وايطاليا وهو ربح قد يدوم عشرين أو ثلاثين سنة ثم تجبر بعدها عثرة العاثر فيجد بجمع شمله في ظل السلام والسكينة .

أما الشرق فقد خادنته العناية وربح بتفكير رجاله وتؤدتهم أرباحاً سياسية واقتصادية لا يستهان بها ومن أرباحـه استقلال أندنوسيا (جزائر جاوة وصومطرا وما اليها) ونجت طرابلس وبرقة والاريترة والصومال والحبشة من الاستعمار الايطالي ، وخلصت سورية ولبنان من الانتداب الفرنسي مستقلتين استقلالاً كاملاً في ظل الحكم الجمهوري ، وراجت صناعتها وتجارتها ، وفشت الثروة وامتد العمران في المدن على انقطاع الصلة زمن الحرب بالبلدان التي كانت تتقايض واياها حاصلاتها ومصنوعاتها .

نكتب هذا والمفاوضات لا تزال دائرة بين انكلترا ومصر للبت في المعاهدة بين البلدين ومغادرة الجيش الانكليزي الاراضي المصرية . وعسى أن تحصل مصر على جميع مطالبها من حليفتها وتستقل بأرضها استقلالاً تاماً مع سودانها .

وما برحت مسألة الوطن القومي اليهودي في فلسطين معلقـة في سماء الاقدار ، والارهابيون من الصهيونيين يرتكبون أنواع الفظائع لمحـاربة انكلترا بكل ما لديهم من قوة ، والاميركان يعاضدون اليهود سراً .

وقد اتخذت انكلترا من شرق الاردن مخفراً في وجـه البادية منذ اسست هذه الامارة بعد الحرب العالمية الماضية ، وجعلت منها محطة حربية للاشراف على جزيرة العرب وما تاخمها من البلدان ولا سيما ترعة السويس واقتضت مصلحتها ان ينادي بأمير ذاك الاقليم ملـكا .

وخرج العرب من هذه الحرب بهذه الجامعة العربية ويرجى أن تسفر أعمالها عن نتائج سياسية ومدنية مهمة وان يطرد سيرها على أقوم سبيل ويزيد احتكاك الشعوب العربية بعضهم ببعض وأن ينضم غرب شمالي افريقية وامارات جزيرة العرب الى مجموعة الدول العربية التي تتألف منها الجامعة الجديدة.

لانعاش مصر

كان برنامج حكومة اسماعيل صدقي باشا التي تولت هذه السنة الحكم في مصر مكافحة المرض والفقر والجهل وقررت عقد قرض بخمسين مليون جنيه تصرف في الاصلاح النافع وفي الوصول الى تحقيق هذا البرنامج حتى يصح ما روى عن لسانه ان حكومته اشتراكية لانها تقصد مداواة هذه العلل . وما كانت حكومة مصر أكثر من حكومة ارستقراطية ينعم بها واحد من عشرين من سكانها فقط .

ولو كان لي من الأمر شيء لأهبت بالحكومة المصرية أن تقسم في الفلاحين جميع أراضي الدولة الصالحة للاستثمار ، وان تبيع الأرض القابلة للاصلاح من فقراء الفلاحين يصلحونها في مدة تعينها لهم ، ولاستصدرت قانوناً يقضي بألا يملك المالك أقل من فدانين ولا أكثر من مئة فدان ، ولقضيت بحل الأوقاف الاهليـة أوقاف الذرية ، ولأكثرت من تأسيس ملاجيء لابناء الفقراء أعلمهم فيها الصناعات الضرورية ، ولانفقت جزءاً عظيماً من الموازنة على التعليم والصحة ولاخذت خمسة بالمئة من كل مال مجموع في المصارف وعند الشركات أقيم به أعمال الاصلاح على أمتن الدعائم ، وبعد ذلك أحظر التسول والكدية ، والزم أهل كل قرية وحارة ومنزلة باطعام العاجزين عن الكسب . ثم تفتح الحكومة ملاجيء للعجزة والارامل يأكلون فيها ويناموت ويتعلمون ما يقدرون على ممارسته من الصناعات .

قد يسارع بعض من يقرأ هذا الى انكار ما ارتأيت ، ويزعم أن هذا من الخيالات ويقول أن هذا الرأي ما خرج عن مبادىء الشيوعية وما هو بها في الواقع ، ويستحيل أن نقضي على الشيوعية الا بالاقتراب منها نعمل بالنافع من تعاليمها ، نقتبس الجيد ونبتعد عما لا يلائمنا ، والا كان الأرياء

ورجال المال عرضة لسهام الشيوعية قبل غيرهم من الطبقات . ولو كنت في النواب أو الشيوخ لرفعت صوتي لاقرار قانون تحديد الملكية وبذلك اخفف البؤس ما أمكن ، وأتقي ضربات الشيوعية التي تقع على رؤوس أرباب السعة نتائجها المؤلمة .

يكثر في مصر والشام من يملك بضعة آلاف من الأفدنة أو بضع قرى ومزارع وهو عاجز عن اصلاحها أو اصلاح بعضها ، وكان القليل منها يجزئه ويعيش به سعيداً . واني لأخشى اذا كتب الظهور للشيوعية في الشرق ان تنزع من أرباب الاملاك الواسعة أملاكهم ، فليس من العدل أن يظل مئات الالوف من الخلق لا يملكون أكثر من قوت يومهم وتتضخم ثروات الأفراد على ما نرى .

هذه خواطر عنت لي وقد أكون في بعضها مخطئاً ولكنني أعتقد أني على صواب في أكثرها .

الاشادة بمصر

قال لي شامي قح إنك تكثر من ذكر مصر ، ومعظم أمثلتك التي تستشهد بها أمثلة مصرية كأن الأقطار الأخرى ليس فيها ما يستحق النقل والتمثيل . يريد أن يغمزني من طرف خفي بأن وطنيتي يجب ألا تنسى الشام . والواقع أني لا أتعمد في ذكر مصر وأحبها كما أحب الشام ، واعتقد أنها قطران يتمم أحدهما الآخر . وما شأني إلا شأن رجل له ولدان إذا دعا للاول وتمنى نجاحه ، فلا يأول دعاؤه بانه يدعو على الثاني ولا يهتم بامره . ولقد كنت منذ القديم لا أتصور عندما أكتب إلا فائدة كل عربي ولا أحصر كلامي في مصر والشام ، ومنهاجي يتناول الاقطار العربية جمعة ، ولكن المعلومات عن مصر كثيرة وإذا سارت حكوماتنا على أثرها ، وجعلتها قدوتها نفلح كلنا فهي أوفر سكاناً ونظاماً وحضارة وكلما زادت صلاحاً سرى الصلاح الى جيرانها .

رأيت الشامي أبرع في الصناعة والتجارة من المصري ورأيت المصري أقعد في السياسة والتفنن في العلوم الحديثة والقديمة .وإذا شاعت المسكرات والمخدرات في مصر أكثر من الشام أنادي بالاقلاع عنها كما أنادي أهل بلادي في الابتعاد عن تعاطيها . والبلدان في نظري سواء في هذا الشأن يهمني مجموع الامة ولا أخص القول حين أقول بقطر دون آخر . وأنا إذا لم يطب لي هواء مصر كما يطيب هواء الشام فلا أدعو الناس إلى الزهد في سكنى وادي النيل ، ولطالما وددت لو هاجر المصري إلى الشام بمعدل ما يهاجر الشامي إلى مصر ، وتمنيت لو يقلل الشاميون من الهجرة القطعية من الاميركتين حتى لاتفقد أرضنا الرجال الأقوياء . ثم أحب أن تأخذ الشام حظها من السكان ويتسع صدرها للتجدد ولا أحب للمصري أن يكون لبداً لا يفارق الارض التي ولد فيها ، وهذا ما أطلبه لكل بلد عربي حتى يكون من مجموع العرب دولة عظمى فيها كل ما كان في الدولة الاموية مثلاً من المقومات والمشخصات . ومن سعى إلى نزع الفوارق من بين الشعوب العربية غير آبه للمذاهب أعواماً طويلة لا يفرق بين قطر وقطر وأهل نحلة ونحلة .

الحكم على الجواسيس

قويت الجاسوسية في أصقاعنا في العشرين السنة الأخيرة وغزتها الدول بالأموال ترسل كل دولة زبانيتها على الارجاء التي تحاول الوقوف على أسرارها ولا تعدم في كل بلد من يهون عليه الانحلال في وطنيته مقابل ما يقبضه من مشاهرات ومعاونات .

كنت مع الجواسيس في بلية منذ عُرفت بأني افكر في الامور العامة وظللت ممتحناً بهم مدة عهد الترك وإلى أواخر ايام الفرنسيين ، وقيض لي بطول الممارسة ان مهرت في معرفتهم حتى كدت أتلمس كشف ما تكنه قلوبهم ، وأتحسس ما يرمون اليه بأسئلتهم . ومن التوفيق أنهم قلما ظفروا مني بخبر يتقربون به الى من انتدبهم ، وربما كان مرسلهم هو الذي أعد لهم السؤال ودلهم على اساليب كشف الاسرار ، وكنت اغالطهم وأضحك منهم واعاملهم في الاكثر بالسخرية وقد اتجهم لبعضهم وأحرجهم بالأسئلة لأصدهم عن سؤالي ، فينقطعون عن غشيان مجلسي . وما كنت أطلب منهم اكثر من ذلك . وكنت في الأيام الحرجة اغلق بابي في وجوه من أشك في اخلاصهم ، ومنهم من أوهمه اني عرفته لأقطع رجله عني ، وأذكر له كراهتي لكل متجسس من باب (اقول لك يا كنة حتى تسمعي ياجارة)

ولطالما أشرت إلى اصدقائي ألا يتوسعوا في الحديث مع غريب لا تعرف تربيته ، وحذرتهم عاقبة التبسط مع المجهولين وبذلك نجوت من أحابيل المتجسسة وكذلك شأن من عملوا بطريقتي . وبلغ من قحة الجواسيس مدة الحرب الأخيرة أن كانوا يسألون أولادي واصحابي عن رأيي في الدولة الفلانية أو الشعب الفلاني او في نتيجة الحرب . وكان التنبيه على خاصتي يسبق محاولة ارباب التجسس كشف اسرارنا . وقد الجأ اتقاء للشر الى التواري

عن الانظار ، والامتناع عن الاجتماع ببعض رجال السياسة اياً كانوا وكانت جنسيتهم . ومع هذا ماكان الحريصون على تسقط الأخبار يعتقدون على ما اظن الا أن ما آتيه تقية وما اقتنعوا أن رجلاً اشتغل منذ الصبا بالسياسة يعود فيتركها وفيه قوة .

وكثيراً ما كانت فراستي تصح في الجواسيس ، وتثبت الأيام أني لم أكن مخطئاً في حكمي على بعضهم ، وأني جدّ مصيب في بغضي لهم واحتقاري لحركاتهم . وقد أخطأ بعض اصحابي في تغليب حسن الظن بهؤلاء المتهمين في شرفهم ، وفيهم من وشوا بخاصة احبابهم حتى اوردوهم حتفهم ، او ساقوهم إلى الاعتقال اشهراً واعواماً . وتجلى ذلك كل التجلي لما وقعت حكومة سورية على سجل دواوين الأخبار وفضح امر الجواسيس الذين اعتمدت عليهم حكومة الانتداب من ابناء هذه الديار ، ومنهم الموظفون في اداراتها ، ومنهم من يدينون بغير المذاهب الاسلامية ، ومنهم المسلمون ومن بيوت معروفة ويا للاسف .

ولطالما قلت ان القوّاد اشرف من الجاسوس واقل شراً منه . والجاسوسية التي امقت اربابها هي التجسس للغريب على القريب بما ينفع الاول ويضر الثاني . وأما اخذ الاخبار لمصلحة الأمة او الدولة فهو عمل إذا التزم فيه تحري الصدق وخلو الغرض ينفع ولا يضر ، وهو ما كانوا يسمون من يعانيه في الحكومات الاسلامية (صاحب الخبر) وعليه يعول في الحكم . ولا بد للجاسوس من ان يكون على صفات فطرية تؤهله لاستراق الاسماع وسرقة الافكار .

تخلف المصري في التجارة

من كتاب العمل لمصر للاستاذ محمود كامل : ثبت من تحليل احصاء عام ١٩٢٧ أن نسبة الملمين بالقراءة بالكتابة في مصر لاتتعدى ١٢٦ في الالف بينما هذه النسبة تصل بين الاجانب المقيمين في مصر الى ٧٩٩ في الالف من مجموع هؤلاء الاجانب ، ووصف الاجنبي ينصرف الى كل من ليس مصريا . فنسبة الملمين بالقراءة والكتابة مثلا بين السوريين والفلسطينيين تبلغ ٧٠١ في الالف من مجموع أفراد هذه الجالية الشقيقة أي نحو ستة اضعاف النسبة الخاصة بالمصريين . وبسبب هذا الوضع الذي جرد المصريين من السلاح العلمي الذي يمكنهم من الكفاح في سبيل الحياة الحرة الكريمة ارتضت غالبية الشبان المصريين من حملة الشهادات قبول الحياة داخل مكاتب الوزارات والمصالح الحكوميـة في مقابل مرتب ثابت تافه . وهي حياة ذليلة راكده تقتل روح الابتكار ، والاغلبية الساحقة من حملة الشهادات تطرق باب الوظائف الحكومية وتغلق بمجرد دخولها عقولها عن كل تفكير في كفاح أشرف ، وحيـاة أرفع ، ورزق أرغد ، وتجد نسبة المشتغلين بالتجارة بين المصريين لاتعدو ٣٦ في الالف لمجموع المصريين بينما هي بين الاجانب تصل إلى ١٥٥ في الالف لمجموع الاجانب أي أكثر من أربعة أضعاف العرب

هـذا حكم مصري عارف على قومـه وعلى عجزهم في التجارة وكنت منذ مدة أقرأ شيئاً على صاحب لي من علمـاء مصر وهو ممن تولى الوزارة بعد حين ، فكان مما تلوته عليه لآخذ رأيه قولي أن الشامي والايطالي واليوناني واليهودي أقدر على معاناة التجارة من المصري. فانكر عليّ رأيي وأظهر الدهشة من صراحتي . ثم اطلعت على احصـاء عملته احدى الصحف المصرية الكبرى في سكان شارع واحد من شوارع

القاهرة وهو شارع سليمان باشا عددت فيه حوانيته ودوره ووكالاته ومن يملكها ومن يسكنها ونوع التجارة التي تتعاطى فيها فكان حظ الوطني من كل ذلك ضئيلاً جداً لا يزيد على سبعة في المئة .

ليست الوطنية باخفاء العيوب الماثلة في الوطن ، ومن علائم الوطنية الا تكتم الحقائق التي تحمل عبرة وقد قلت في فصل آخر أن من يحب بلداً يمحض اهله النصح ولا يخفى على أبنائه ما اذا غضوا الطرف عنه يؤذيهم ويورثهم ادواء يعسر فيما بعد علاجها .

ولطالما اعترضت على القانون المصري الذي يغض عن التاجر المفلس فيمكنه من فتح محل تجاري باسم مستعار غداة تقرير المحكمة افلاسه . وقد رأيت أشخاصاً من المصريين والجالية الاجنبية اعتنوا بتكرار اعلان افلاسهم الصوري فكانوا كل مرة يأكلون أموال دائنيهم هنيئاً مريئاً تحت رعاية القانون ويعودون بالصفقة الرابحة بهذا الاحتيال .

ولذلك كان معظم التجار الكبار في مصر من غير المصريين ، والاجنبي بما تقلده من سلاح المعرفة يغزو كل سوق ويفوز بالربح الوافر وينازع الوطني في التجارة منازعته له في الصناعات ، وفي باب الزراعة يملك جزءاً عظيماً من أطيان القطر ويديرها أحسن إدارة .

كتب أرباب الافكار من المصريين في هذه الموضوعات كثيراً ، وتفننوا ماشاءت قرائحهم في تحذير مواطنيهم عاقبة الاسترسال فيما لايجدي عليهم ، وأنا ألقي دلوي في الدلاء ، ومن الذوق ألا أنسب إلى الفضول والى التدخل في مسائل لاتعلق لي بها مباشرة . وأرجو على كل حال ألا يشق انتقادي على الوطنيين من المصريين ، فقول الحق لايؤذي والمؤذي تضليل العقول والسكوت عن اصلاح العيوب .

عجز وكسل

قال لي صديق مصري نقاد أنه شاهد في عشية باردة من ليالي كانون حول حديقة الازبكية بالقاهرة سرباً من الأطفال ينامون وليس عليهم ما يقيهم أذى البرد والشرطي يضربهم بحذائه بدون شفقة ، يطاردهم كما تطارد الكواسر والجوارح . ومن الغد قرأت في بعض الصحف الافرنجية التي تصدر في العاصمة أن شرطة مصر قبضت خلال السنة الأخيرة على ٨٦٠٠ متشرد ثم امتنعت من قبول من كان على شاكلتهم لقلة ما لديها من الأماكن لايوائهم . وقد وصفت صحيفة افرنجية اخرى أكواخ الفقراء القذرة العارية من كل ما يحفظ على نازليها صحتهم ، وقالت انها على قيد غلوة من تلك الجادات العظمى والقصور المنيفة والمصانع الفخمة في القاهرة والاسكندرية وبعض مدن الأقاليم ، وتمنت لو أن الحكومة ابتاعت تلك العشش وبنت للفقراء أحياء جديدة في الضواحي . وذكرت هذه الصحيفة بعد يوم ما صادف التذرع باصلاح حال الفلاح من الخيبة وقالت : اختلفت الطرق في معالجة أمره فمن قائل ان الامراض أكبر عامل في تأخره ، ومن مؤكد أن المياه الملوثة والبيوت القذرة والغبار هي من مهلكاته ، ورأى أحدهم أن تبنى له قرى نموذجية يضطر بعد حين إلى بناء مثلها بنفسه ، ومن قائل إن الحشيش هو علة العلل في ضعفه ، وقال قليل من المصلحين إن الواجب أن يبدأ بتعليم الفلاح وأن تشاد له مدارس ريفية وأن يجعل التعليم الابتدائي اجبارياً إلى غير ذلك من الآراء التي أدلى بها أرباب المدارك . وقد ذهب ما كتبوه ونشروه في الهواء كما ذهب مشروع الحفاء والكساء .

ومن يعرف مبلغ مصر من الغنى وما لديها من الرجال والأدوات اللازمة

للتغلب على هـذه النواقص لا يرى ما يبدو من التقصير إلا أثراً من آثار العجز والكسل . وموازنة كادت تبلغ مئة مليون جنيه لا يضيرها اقتصاد بضعة ملايين تؤخذ مما ينفق في البذخ والترف وتصرف في الضروري الحاجي. ويسرني ما ترامى إليَّ من أخبار القاهرة أن وزارة الشؤون الاجتماعية اعتمدت مليون جنيه لانشاء مآوي للأطفال وإذا تعلقت الهمة بتنفيذ هذه الفكرة لا تأتي أعوام قليلة حتى لا يُرى متشرد في القطر ، وينقلب كيانه من فقر ومرض وجهل إلى شيءٍ من السعة والصحة والمعرفة ، ويتم إصلاح الكساء والحفاء من ذاته بدون عمل كثير ، وإني لأخشى ، والفقير لا يُنظر إليه بعين العناية اللازمة ، أن يأتي يوم يطالب فيه بمستوى من العيش أرقى من مستواه ويهجم على الغنيّ يسلبه ماله وقراره ، ومتى زال الوهم عن البائس يجرأ على خرق القوانين ، وفي ذلك البلاء العظيم . نسمع كل حين في مصر نغمات جديدة تولدها غيرة المفكرين ، ثم لا تلبث أن تخفت نغمتها فجأة ولا يعاود أحد ذكرها . وهذه مسألة الفلاح هل تمّ فيها على يد الحكومة والأهلين حتى الآن ما يوازي بعض تلك الضجة ؟

في مصر نشهد إسرافاً دونه كل إسراف وإمساكاً تقلُّ له الأمثال في الأمور النافعة ، أنا لا أفهم المغالاة في إقامة الزينات تصرف فيها عشرات الألوف من الدنانير وألوف من الأطفال يعرَون ويجوعون ويمرضون ويموتون . ولا كيف ينعم مئات ويشقى مئات الألوف . معظم أبواب الصرف في الحكومة المصرية معقول والالازم منها توفير الماء النقي للفلاح والعناية بصحته وتعليمه وتوجيهه .

أعود فأقول إني أخشى على مصر من الدعايات السياسية الهدامة ، ولاأجد الحالة الحاضرة تدوم كثيراً . إن مصر تحارب هذه الدعايات منذ ظهرت في العالم ، واليوم تزيد في كفاحها من غير هوادة ، ولكن من يعصمها من تسرب ما يضر بكيانها إلى مدى بعيد ، ومن يضمن لنا ألا ينفجر المرجل

ذات يوم فيأتي لهيبه على الأخضر واليابس ؟ من الأمور ما يتعذر تلافيه ساعة الخطر ، فحري بأهل البصيرة أن يتداركوا الأمر قبل استفحاله . فقد خرجت حالة مصر في توزيع الثروة بين السكان عن حدود العقل ، ثم هي تبذر المال في امور قد يستغنى عنها ، وتشح في أشياء فيها كل الخير .

في مصر من الرفاهية ما لا يكاد يوجد له مثيل في العالم ، وفيها من الفقر ما يتعذر تصور أكثر منه .

الفضول

ذكرت وصفاني أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية في خطاب خطبته في المؤتمر الاخير (١٩٤٦) بما كان من أمر تعريب ألفاظ الجيش المصري وكان المجمع شرع في هذا الامر المهم ثم سكت عنه ، وقلت إن مصر قصرت عن العراق والشام في هذا المعنى . وقد عرب هذان القطران أكثر الفاظ الجيش تركيها وافرنجيها ، فقال رصيفي الدكتور فارس نمر باشا . لقد صرف النظر عن تعريب هذه الالفاظ لأن جهة عالية لاتريده . وسألته من الغد ومن يكون هذا الكبير الذي حال دون انقاذ اللغة العربية من مئات من الكلمات الاعجمية ، بعد أن تم كل شيء للخلاص منها فسمى رجلاً ذا مقام سام فاستغربت صدور ذلك منه ، وسألته عن حجته في العدول عن هذا التعريب فقال إنه يزعم أن هذه الالفاظ التركية المتأصلة في الجيش المصري هي من تراث أسرتهم فلا يحب أن يعبث بارث أهله ولا أن يجيء المتأخر بنقض مابناه المتقدم .

وعندي ان الغيرة على الجيد من أعمال الاجداد تكون باحياء سيرتهم ولا معنى للتعصب للغة ذهب من عشرات السنين سلطان أهلها من القطر وصارت فيه الكلمة الفاصلة لاصحاب البيت ، ولغتهم غير تلك اللغة . وقد رأينا جلالة فاروق الاول ملك مصر لما قبض على زمام ملكه يمنع التكلم بالتركية في قصره ، وكانت قبله شائعة ، لان مصر عربية والجالس على عرشها عربي فلا يليق ببيته أن يتكلم لغة طوت الايام من فرضوها على غيرهم يوم كانوا هم أصحاب السلطان ، ونحن الآن لاتربطنا بهم صلة سياسية ولا ثقافية ولا لغوية ، وما نسينا احتقارهم للحروف العربية ولكل ماهو عربي ، وزهدهم في لغتنا وفتحهم الأبواب لدخول كل لفظ اعجمي في لغتهم .

انحطاط المسلمين

أحزنني ماقرأت في جريدة (أخبار اليوم) لمراسلها الانكليزي في لندن من أن بين الاثني عشر مليوناً من سكان ايران عشرة ملايين يحسبون من الجياع الاميين وثمانية مصابون بالزهري وربع الاطفال يموت قبل مرور العام الاول من ولادتهم . ومساحة ايران أكبر من مساحة اسبانيا وفرنسا والمانيا وان الني عائلة ثرية هي التي تملك الاراضي ومنهم الوزراء والبرلمان وقادة الجيش ومعظم رجال الحزب الشيوعي . كلام فيه مبالغة وفيه حقيقة ، واذا أضفنا إلى ذلك مانعرفه من كثرة تفشي الافيون فيهم ندرك ماصارت اليه هذه الامة من الانحلال . وكانت قبل الاسلام وبعده آية في نظامها وأحكامها وصناعاتها ومدنيتها .

هذا ولا يزال التعصب الديني ينهك قوى فارس وما أتى رجال الدين فيها لعهدنا شيئاً يعتد به في اصلاح الاخلاق ، ولا انتصبوا للحد من ظلم الملوك عندهم . وما نسينا الشاه البهلوي كيف وضع يده على أملاك الناس وسكتوا عنه ، وفي مقدمة الساكتين مشايخهم وزعماؤهم . وفارس في الرسميات أمة دستورية تتضاءل فيها سلطة الفرد المستبد أمام سلطة الجماعة وما نخال هذه الصورة المغرية في ايران الا نموذجاً ساروا فيه على طريقة الكماليين من الترك في التهريج والدعاية . ولو قــد ظهرت الحقائق في المملكتين بصورتها الناصعة لكان من ذلك مايدعو إلى خيبة الآمال من اصلاح يتولاه شرقي مسلم . وليس من ينكر أن الاتراك والفرس نهضوا في العهد الحديث وأنهم ارتقوا في سلم المدنية بعض الرقي ولا يسعنا أن ننكر أيضاً أنهم ظلوا متخلفين عن الامم الراقية في أشياء جوهرية ،

وقال لي من اثق باخبارهم من العرب والافرنج ممن سكنوا سنين في

ايران ان حكومتها لا تهتم إلا بالظواهر وكثيراً ما تصرف وقتها ومالها في التافهات . تفتح مثلاً شارعاً في قرية بعرض خمسين متراً ولا تفكر في ان تصلح طريقاً يجيء منه السيل كل سنة فيأتي على عشرات من القرى يحطم أشجارها ويفسد زروعها ويغرق من سكانها وحيوانها . ومن ذلك ان حكومتها تنفق كثيراً في الكماليات وتعجز عن اسالة ماء طاهر في انابيب تسقي عاصمتها طهران . وما برحت المياه الملوثة تحمل الامراض لسكانها والطبقة العالية يحمل اليها الماء في صفائح ترسلها شركة أجنبية من مكان سحيق . قالوا ومعظم رجال الحكم والسياسة يقامرون ويشربون ويصرفون أوقاتهم في اللهو والمجون، على نحو ما هي اخلاق بعض حكام اهل الاقطار التي تمدنت في هذا الشرق القريب وإذا كانت أخلاق الأئمة على هذا المثال في التفسخ فماذا تكون أخلاق المؤتمين ؟ ومن بلغ من الضعف الى هذا الحد لا يرجى منه خير لمصلحته ولا لمصلحة قومه .

أكتب هذا وان قلت صلته بحسب الظاهر بالمذكرات وهو بتعليقات الصحف اليومية على الحوادث أشبه . وما زالت منذ الطفولة إذا قرأت كتاباً لرجل نشأ في فارس يذهب بي الفكر حالاً إلى حالة دولة العجم اليوم وما هي عليه من الانحطاط المشهود بعد ذاك الارتقاء المحمود . وهذا يكفي ان يشفع لي في ان اعرض لهذا الموضوع مادام جزء كبير من حضارة الاسلام والعرب قام في أرض تلك المملكة العظيمة ، وفارس امس وفارس اليوم عضو متمم لهذا الجسم الكبير .

مشيخة الازهر

لما خلت مشيخة الازهر بوفاة شيخه العلامة المراغي تطلع بعض جماعة كبار العلماء لهذه الرياسة وحدثت مشادة بينهم وبين الحكومة ، هذه تحب توسيد المنصب لرجل رأت فيه الصفات المطلوبة لسياستها والعلماء يدعون أن قانون الازهر يحظر انتخاب مرشح من غير جماعتهم وقانونهم يشترط في الشيخ أن يكون أزهرياً درّس في الازهر خمسة عشر عاماً ، وصرحوا أن مرشح الحكومة وان كان أزهرياً وعلم سنين طويلة فان تدريسه كان في الجامعة المصرية لا في الأزهر الى غير ذلك من الاعتراضات فلم تر الوزارة الا ان تعمد الى تعديل نظام الأزهر حتى لا يبقى للطامعين في رياسته قول يقولونه ، وعينت بذلك مرشحها الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للاسلام . وهذا اللقب يطلق على صاحب هذا المنصب الخطير من القديم .
ولما حظى الشيخ الجديد بالمثول بين يدي جلالة ملك مصر التمس منه أن يعفيه من لقب الباشا الذي كان أنعم به عليه حين كان وزيراً للأوقاف واكتفى بلقب شيخ لقبه القديم منذ تخرج من الأزهر . وهو اللقب الذي ما كان قدماء أصحابه يألفون غيره في مناداتهم له وخطابهم اياه . وهكذا أصبح يلقب بصاحب الفضيلة وكان بالامس يلقب بصاحب المعالي ، كل هذا قشور في الحقيقة ، والمهم في الأمر أن يوفق الشيخ الجديد الى اصلاح الازهر اصلاحاً فعلياً والا فيكون كأكثر شيوخه ينعمون زمناً بهذه المظاهر ويتمتعون بالرواتب الضخمة ويتركون مناصبهم بعد ذلك بدون أن تعرف لهم مأثرة تذكر في خدمة الاسلام والمسلمين .

حديث ذو شعب

نشرت الاهرام لمراسلها في باريز (٩ فبراير ١٩٤٦) تصريحات زعمت انه أفضى بها شيخ الجامع الازهر الاستاذ مصطفى عبد الرازق (لمكاتب جريدة (الموند) الباريزية قال فيها ان فرنسا اكتسبت لنفسها مكانة ممتازة بما بذلته من الجهود الكريمة في الحقل الثقافي خلال العالم الاسلامي وانه يرجو ألا تتخلى عن تقاليدها لكي تحتفظ بما يكنه لها العالم الاسلامي من حب . هذا الحديث ذو شقين أحدهما صحيح في الجملة والآخر ليس كذلك في التفصيل . أما أن فرنسا بذلت جهوداً في ثقافة العالم الاسلامي فهـــذا صحيح من بعض الوجوه وان كانت الاغراض التي ترمي اليها من وراء ذلك ظاهرة معروفة وقد أتت في هذه السبيل ماتأتيه كل دولة استعمارية فكان من مدارسها خير وشر . أما الشق الثاني فهو الذي ترد على عدم صحته براهين كثيرة . ونظرة في حال مسلمي شمالي افريقية وأهلها الذين اختلطوا بالفرنسيين كثيراً ندرك بها هل يحب أهل مراكش والجزائر وتونس فرنسا أم يكرهونها كراهة ليس بعدها كراهة . وكيف يحبونها وقد اغتصبت أراضيهم من أيديهم يوم دمرت على ديارهم وأعطتها المستعمرين من ابنائهـا . وسمت منذ وطئت أرض الجزائر في سنة ١٨٣٠ أن تمحل جامعتهم وتقضي على لغتهم ثم حاولت أن تجنسهم بجنسيتها وتلقنهم تربية لاتبقي على مشخصاتهم . وليس في مسلمي تلك الاقطـار ولا سيما في الجزائر الطويلة العهد بحكمهم من يعد من عظماء الرجال في العلم والسيـاسة والفنون على نحو مانرى في مصر والشام مثلا وليس لهم من الثروة مايعد شيئاً بالقياس الى ثروة أبنـاء هذين القطرين بل أن مستوى المعيشة فيهم أقل من مستوى المعيشة في أحط الاقطار العربية . فالقول بان

العالم الاسلامي يكنّ لفرنسا الحب بعيد كل البعد عن الواقع فان مااجترحته فرنسا في سورية من التدمير والقتل في السنة الماضية مازال ماثلاً للعيان وكلما ذكر ترتجف منه الاعصاب .

ولقد أكد لي أحد العارفين أن مكاتب الجريدة حرف كلام الاستاذ الاكبر وبادرت فرنسا باهدائه وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير وما ادري ان كان المهدى اليه قبل هذه الهدية . وقد احدثت هذه التصرفات ضجة في الصحف المصرية والشامية وسكت صديقنا الشيخ مكرهاً على مايظهر .

طمس الحق

قال لي صديق عزيز عليَّ أنه قرأ كتابي الاخير (دمشق مدينة السحر والشعر) وكان يود لو أغفلت ذكر ماقامت به فرنسا من الاصلاحات في سورية في عهد الانتداب فان تسجيل ماسجلت وان كان حقاً هو مما يضر بنا ، وما كل حقيقة تقال . هذا رأي اشبه بآراء رجال السياسة والناقد الحبيب منهم . أما المؤرخون فقلما يجوزون السكوت عما يعتقدون انه الصواب ، وقول الحق من أهم شروط المؤرخ والتاريخ يسجل الخير والشر ثم إن من غمط حق عدوه كان حرياً أن يتهم بالعصبية لصديقه ومقترف ذلك يزيل بصنعه مسحة الصدق من كلامه ويفقد ثقة الناس ويكسب سبّة الدهر .

الفرنسيون في آخر أيامهم في الشام أساءوا اساءة ليس بعدها اساءة قذفوا مدننا بحممهم فقتلوا الابرياء وهدموا البيوت وأتوا على المصانع فانكر العالم وانكر عقلاؤهم هذا العمل المشين ، وتضاف هذه الاساءة على جريدة جنون اهل الغرب في هذه الحرب . وكل هذا لايستلزم أن ننكر ما تم على أيديهم من الاصلاحات في الشام ايام انتدابهم عليه .

وقد ارتكب الفرنسيون سبة أعظم في الاثر من القتل والتدمير ، ارتكبوا العار بافساد الاخلاق بنشر الجاسوسية بمقياس واسع وجعلوا من بعض التلامذة والمعلمين جواسيس نمامين . واغرقت فرنسا في جاسوسيتها فكانت لاتقر تعيين آذن أو فراش الا إذا شهدت دوائر الاستخبارات بحسن حاله ، والويل لمن كان في جزازته الخاصة شيء لايرضيهم من سيرته ، فانه يحارب في رزقه ويبقى من المغضوب عليهم حتى الممات والفرنسيون أجرموا في العهد الاخير مع انفسهم فلا يتوقع منهم إلا أن

يجنوا على غيرهم ، ومع كل ما أتوا ليس هناك مايحول دون قول الحق فيهم فيما احسنوا .

وبهذه المناسبة شهدت بعض من يشتغلون بسياسة سورية لم ترضهم بعض المواضع من كتاب دمشق فانا أقول لهم ان هذا ماعرفته ورأيت النفع في تدوينه ، فاذا كان غيري يعرف غيره فليبادر الى نشره . ولا يلزم المؤلف أن يرضي بتأليفه كل الطبقات فالسياسيين منازع لا أقول بها ولا أحب لنفسي أن أكون لهم بوقاً ولا أجوز ان اخدم أفكارهم واغضب الحق . أؤلف لنفسي ما اعتقد نفعه ، فاذا كان في أرباب المناصب السياسية من يعتقدون أنهم أهل لعمل شيء من هذا القبيل فليبرزوا الميدان فيحكم العقلاء لهم أو عليهم . أما تسخير أقلام الاحرار لاغراضهم فامر متعذر عليهم وعلى غيرهم .

الدين النصيحة

دفع إلي صديقي الاستاذ عبد الملك الخطيب باشا صورة مذكراته السياسية وفيها كلام عن صلاته بالبيت الهاشمي ، وما شهده من احداث الحركة العربية خلال الحرب العامة وبعدها ، وما دار بينه وبين الملك حسين بن علي وابنه الملك فيصل من الرسائل . وقد حمله جميل وفائه ، وفرط أدبه على أن يعرض لذكري بالخير ، ويشير إلى ما كان من نصحي له أيامَ كان الشريف حسين ابن علي اميراً على مكة المكرمة أواخر أيام العثمانيين . وكان أعداء الأمير من الاتحاديين الاتراك يتعمدون تسويد صحيفته ويصغرون من شأنه ويلقنون العرب بغضته للترويج لسياستهم ، فسرت اختلاقاتهم إلى بعض أبنائنا من حيث يدرون ولا يدرون . وذكر السيد الخطيب ما كنت أعمد اليه ، وأنا في رياسة تحرير جريدة المقتبس في دمشق وهو في مكة يرسل مقالاته عن الحجاز ، من ادخال بعض التعديل في عباراته حتى لا يكون منها ما يتأذى به إذا نشرت كما كتبت أول مرة . ذلك لأن النقد المعتدل أقرب الى سلامة كاتبه ، وأدعى إلى تأثير كلامه في الافكار .

ولما جاء السيد عبد الملك دمشق ، واطلعته على ما كان يتعذر اطلاعه عليه بالمكاتبة ، ووقف على مرامي الاتحاديين اصحاب الحكومة ، وعلى ما كانوا يقصدونه من حملتهم وتحاملهم على الامير ، وهو الرجل المرجى يومئذ للنهوض بالعرب ، انتبه صاحبي لما يحاك لقومه من الدسائس ، وعاد الى الحجاز مزوداً بوصايا للامير مني ومن بعض أصحابي وأصحابه ، طلبنا فيها رضاه عن ابن الخطيب فتفضل واستجاب لملتمسنا ، وما زال يعطف عليه حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ، ونودي بامير مكة ملكاً على الحجاز أو على العرب كما كانوا قالوا أولاً ، وأرسل ابن الخطيب إلى مصر معتمداً سياسياً له ، فتيسر له

الاختلاط برجال السياسة من البريطانيين والمصريين وغيرهم وأفاد من هذه العشرة . ولو لم يستمع ابن الخطيب للنصح يسديه الصديق مخلصاً لظل في ارض الحجاز مغموراً ولطمس ذكاؤه وعفت مواهبه ، ولما قام بما يندر في الحجازيين إذ ذاك من يحسن الاضطلاع به من العمل لخدمة القضية العربية ، وثمرة التعقل في الحكم على الامور جنية شهية .

رأيت المستنصحين على ثلاثة ضروب ضرب يقبل نصح الناصح بدون مناقشة ويشكره عليه ، وآخر يقبل بعضه ويغفل الآخر ، وثالث لا يقبل من النصح ما يخالف هواه ، وربما هزأ بالناصح وعاداه . وفي الناس من لا يرتاحون لكلامك إلا إذا وافق ما في نفوسهم ، ولا يسرهم الا كلام من يغشهم ويرائيهم . وقد وقع لي أن نصحت لبعض من استنصحوني فنجوا من سقطات كان فيها لو لم يعملوا بالنصيحة افلاسهم أو حتفهم ، وعهدي ببعضهم يعضون أصابعهم ندماً على تضييعهم الحزم وعصيانهم على النصح . ومن يزدرون بآراء أرباب التجارب هم في العادة من الخاسرين .

غلط غير مقصود

«وان قارءه ليتبين أنه يعنى بتخير الالفاظ وبجزالة الاسلوب عناية تجاوز المألوف حتى بين الادباء . وكان يسعفه في ذلك سعة علمه باللغة ومفرداتها ، وربما دعاء تبحره فيها الى إيثار الغريب حين يجده أحسن اداء أو اصح وضعاً . وهو يعتبر بحق من أشد المحافظين على تقاليد اللغة وسننها ، وقد يرميه البعض بالتشدد» ، هذا ما قاله رجل من أكبر رجال القانون في مصر الاستاذ عبد الحميد بدوي باشا في رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية الاستاذ محمد توفيق رفعت باشا يوم استقبله المجمع بصورة رسمية عضواً فيه خلفاً للرئيس الراحل . وهي شهادة لا تصدق على ما كان عليه الرئيس الماضي من المعرفة . فقد عرفته منذ انشاء المجمع فما تجلى لي بعض ما قاله العضو الجديد فيه ، وعجبت من رجل اشتهر بنزاهة أحكامه كيف يُجمّل صاحبه على هذه الصورة ، وما اوقعه في هذا الغلط إلا أن القاضي الكبير خدع على ما يظن بما قرأه لصاحبه معزواً اليه من الخطب الرسمية في أخريات أيامه . وما كانت هذه الخطب في الحقيقة إلا من انشاء الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري كاتب المجمع ، وهذا الوصف في اختيار جزل الالفاظ والتوسع في اللغة يصدق عليه لا على الرئيس . وكان كاتب المجمع أو المراقب الاداري كما يسمونه يكد قريحته ويكتب لرئيسه وهذا يوقع .

إذاً لقد اشتط القاضي في حكمه على سلفه ، وأتت سقطته من اغتراره بما قرأه له مرقوماً باسمه ، والظاهر ان رجال القضاء يعتمدون على النصوص فيما يعرض عليهم فيعملون بموجبها ، والفتوى عندهم على قدر النص . وقال بعضهم ان صدور مثل هذا الحكم من قبيل المجاملة ، وأي مجاملة تصح في العلم ؟ أما المترجمون للرجال فلا يصدرون أحكامهم قبل أن يقدروا

ملابسات أخرى فينظرون في جملة ما ينظرون فيه الى بيئة الرجل واوليته وحليته وتآليفه ومقالاته . وكل ذلك لم ينظر فيه القانوني الكبير على مايظهر ومرَّ مسرعاً فيما وقع عليه من خطب معزُوَّة الى الرئيس في مجلة مجمع اللغة العربية . ومثل هذه الغلطة التي ساق اليها الاغترار بالظواهر يرتكبها اعظم المتحرين للحق ، والدرهم الزغل يجوز على الصيرفي الحاذق .

وقد وقع من هذا القبيل على الأيام تلفيقات نال بها من الصقت بهم شهرة مزيفة كانوا بها مدينين لمن هيأها لهم ، وكان فيها الكاتبون غير الموقعين والموقعون يجهلون أحياناً حتى ما يصدر باسمهم . وحدثني من أثق بهم من أدباء المصريين أن رجلاً من أبناء اعيانها لا يزال يستكتب مقالات وأقاصيص ينشرها في الصحف والمجلات وهو لايحسن الكتابة ، يكتب له باجرة ، حتى اشتهر عند القراء بأنه كاتب ظريف ، وما هو من الكتابة في العير ولا النفير . قال واصيب هذا الوجيه مرة بعارض جنون وشفي بعد حين ولم يشف من داء الشهرة يصيبها من كتابات يعزوها اليه من يطمع في ماله فيخدمه ويخدع الناس به .

متانة أخلاق

اعجبت بثلاثة من رصفائي أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة الحاخام حايم ناحوم افندي والدكتور فارس نمر باشا والاستاذ عبد العزيز فهمي باشا . اعجبت بثباتهم على الحضور . كف بصر الأول وما كف على شيخوخته وهو في عشر الثمانين عن أن يحمل نفسه على حضور الجلسات . وابتلي الثاني بمرض في المثانة مع الصمم الشديد ولا يزال وهو في عشر المئة يشهد الجلسات ويرأسها إذا تغيب الرئيس بوصفه اكبر الاعضاء سناً أما الثالث فهو أكثرهم عناية بعمل المجمع يدرس المسائل المعروضة درس تدبر قبل ميعاد المناقشة فيها ويبحث فيها بحث البصير وان لم تكن داخلة في اختصاصه يعمل هذا حباً بالعلم وتفانياً في اداء الواجب . وما أضعف مرضه تفكيره ولا حط من قواه . وعلى شيخوخته وهو في عشر الثمانين لا يتخلف عن شهود جلسات المجمع وجلسات المؤتمر السنوية . وهناك أعضاء لا يحضرون الا نادراً ومنهم من لا يحضر أبداً ومن الاعضاء من هم في مناصب كبيرة لا تسمح نفوسهم بالتخلي عن عضوية المجمع ولا تتسع أوقاتهم لاعطائه حقه من دوام وعمل . وفي اعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق مثال من أعضاء مجمع القاهرة ، ومن أعضائه من يطرد دوامه ويعمل بذمة ونشاط ومنهم اعضاء لا يحضرون ولا مرة في السنة ومنهم من لم يدفعوه بادنى نفع لا يؤازرون في مجلته ولا يحاضرون في ردهته ولا يشهدون جلساته واكتفوا باللقب الذي أفادهم في معنوياتهم وماديانهم ومثل ذلك يقال في الأعضاء المراسلين في الشام ومصر . وكان أعضاء العراق من المبرزين فانهم قاموا بواجبهم نحو المجمع العلمي العربي بل بواجبهم نحو لغتهم وامتهم .

عيدنا الوطني

احتفلت دمشق عاصمة جمهورية سورية يوم ١٦ جمادى الاولى ١٣٦٥ (١٧ نيسان ١٩٤٦) بعيد جلاء الجيش الفرنسي عن اصقاعنا واشتركت في هذا المهرجان مصر والعراق والمملكة السعودية (الحجاز ونجد) واليمن ولبنان وشرق الأردن . شاركتنا في عيد استقلالنا الذي فقدناه في اليوم الذي فيه قتل الملك الظاهر بيبرس البندقداري آخر رجل من سلالة صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقبض على زمام الملك ، وأسس دولة المماليك ، وظللنا في ايام هذه الدولة وفي أيام الترك العثمانيين ثم في عهد الانتداب الفرنسي امة محكومة يتولى أمرنا ولاة من غير جنسنا وأحياناً من غير أهل نحلتنا ، ويسن قوانيننا غيرنا وقد يسنون ما لا يلائمنا ، وضعفت فينا خلال هذه القرون الطويلة ملكة الحكم وملكة العلم ، وانحططنا في أخلاقنا وبياننا وتفكيرنا وصناعاتنا ، وانفرجت مسافة الخلف بين الطبقات ، وابتعدت كل طبقة عن اختها لا تشاركها في غير الهواء والماء ، وكان من الطبيعي في هذا المجتمع المنحط أن يأكل القوي الضعيف ويغدو رجال الدين ورجال الدنيا أشبه بالعامة في أفكارهم وان تغرق البلدان في تيهور الجهل المركب ، وكانت اذا هبت تتلمس سبل النجاة لا تهتدي الى سلوكها . فحق الامة ان تبالغ بالاحتفال لهذا العيد ، عيد الاعياد ومبدأ سعادة الابناء والاحفاد .

ولقد أتى رئيس جمهوريتنا فخامة السيد شكري القوتلي في خطابه ذاك اليوم السعيد على مجمل ما عانته الامـة من الآلام حتى بلغت امنيتها وذكر بالخير من شاركوا في هذا الجهاد ، وذني فئة صالحة كانت من العاملين الممتازين . ونحن لا نومىء هنا الى من لم يكونوا مع الثائرين في وقت من الاوقات ، بل الى من كانوا مع الثائرين من البداية الى النهاية . وكانت

عين الرضا متجلية على كل من حمل السلاح ، أما من شقيت حياتهم في اعداد الأفكار للثورة الحقيقية ، ومهدوا السبل لانارة الافكار ، وجاهدوا سنين حتى لقنوا الامة معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية فهؤلاء لا حظ لهم من التنويه لانهم ما حملوا السلاح .

ومما قال الرئيس الأول اننا نطوي اليوم صفحة الجهاد في سبيل استقلالنا لنفتح صفحة الجهاد لصيانته وقد تكون صيانة الاستقلال أشق من الظفر به . وهذا كلام يجب الا ينساه كل وطني فالجهاد الذي ندخل فيه اليوم اصعب من الجهاد الذي كنا فيه ، وإذا قام كل واحد منا بواجبه ننهض في سنين قليلة نهضة لا يصل اليها شعب في أجيال ، ذلك لان أسباب النجاح متوفرة لدينا ، تربتنا خصبة وتربيتنا تحتاج الى تعهد فقط .

ومن أول ما يتحتم على رجال الجمهورية ان يحسنوا اختيار العمال ويتشددوا في مراقبتهم يختارون الأطايب من دون نظر الى حزبيتهم ونحلتهم ، لا يقربون ذوي القربى ، ولا يصانعون في توسيد زمام الحكم الى من يرضون عنهم ، وبذلك ننجو مما كنا نشكو منه وننسبه للدخيل ، وعلينا يقع جزء عظيم من التبعة في الماضي كما تقع علينا كل التبعات اليوم .

نحن لا ينقصنا شيء من أدوات النهوض الا بعض الاخصائيين في الفنون والصناعات نجلبهم من الامم التي سبقتنا الى التمدن ريثما يتخرج في ذلك أبناؤنا . وقد رأينا طلائع هذا في بعض ما نظرنا فيه من المصالح العامة . فواجبنا على اي حال أن نسير بتعقل في اصلاحنا وننبذ الاسراف ونتوخى صرف أموال الدولة الا في طرقها المنتجة .

حسن الواجب

لو أحس كل فرد بالواجب عليه لعد بلده سعيداً وأهله من اهنأ الخلق ، ولو انصف الناس انفسهم بانفسهم لقلت حاجتهم إلى الوازع ، ولما احتاجوا كل ساعة إلى من يهيمن عليهم ، ولو انعدمت صفاقة الوجوه ما ادعى كسول بعد الهمة ، ولا مهمل فرط العناية ، ولا جاهل فضل العلم ، ولا طامع مقامات الزهد ، ولا أخرق مواقف السداد . رأيت بعض من يرجى منهم الخير أكثر العالم شكوى من بيئتهم ، وحالهم أيام القوة لا تختلف عن حالهم أيام الضعف . رأيت من كتب عليه التقصير بفطرته لا ينفك عرضة له في جماع حالاته ، ويلقي معاذيره عن أعماله ويصطنع الجد ويتصنع في أقواله وأفعاله .

عمال الدولة اقرب الطبقات الى النظام ، ومن اوسعهم علماً ومعرفة في هذا الشرق القريب ، فهل يحسون يا ترى بالواجب الى الحد الذي ينبغي لهم ويتوقع منهم ؟ وهل ينشطون للعمل بالقدر المطلوب منهم ؟ ونحن نرى اكثرهم يتشكون من كونهم في درجة لا تمكنهم من الانتفاع بمواهبهم ، فاذا ما وصلوا إلى ارقى ما قدر لهم من الدرجات استبان أنهم لا يمتازون عن غيرهم إلا بكثرة الشعوذة وعظيم الدعوى . والمرء إذا لم يأت في شبابه ببرهان على كفاءته لا خير منه في كهولته وشيخوخته .

إذا بلغ الفتى عشرين عاماً   ولم يفخر فليس له افتخار

الفرق كبير بين عامل وعامل ، ويكاد الذكي والغبي أن يكون انتاجها في مستوى واحد ، والنافع عندهم هو الذي يتولى عملا ولا يغير فيه ولا يبدل ، يرى الخلل ولا يصلحه والعلة فلا يبحث عن اصلها ، يكثر الوعود ويبشر بما ليس له وجود ، وإذا فاز لا يحقق بعض الرجاء فيه . ولطالما ألمت من بعض الموظفين فى أعمال الدولة ممن لا يهمهم من وظائفهم إلا قبض الرواتب والترقي في الدرجات ، ولا تحدثهم ذممهم ان يعطوا من انفسهم بعض ما قبضوا من أجر

على عملهم . ويؤلمني كل الالم من يحاول أن يغتني منهم في أقصر زمن ، ولو عومل بعض المهملين بالصرامة ، ومـا سكت الرؤساء عن الاهمال الصغير المؤدي الى الاختلال الكبير لما فشت الرشوة في مصر والشام في دواوين كان الواجب أن تكون مثال الاستقامة والشرف ومن الغريب أن يتسامح المسؤولون بالرشوة إذا قام المرتشي بما يعتقد الكبير فيه انه نافع للوطن على أي حال ، أما أنا فما برحت منذ وعيت اغتبط كلما رأيت النكبة تحل بالعامل الساقط ، وعلى نسبة ذلك آسف يوم ارى عاملاً مستوفي التجربة يصرف بانقضاء مدة خدمته او لغرض آخر من اغراض الصرف .

تكون التبعات التي تلحق الكبراء على نسبـة عظم مناصبهم ، وانك لترى بعض الوزارات على الحالة التي كانت عليها يوم تأسيسها يجيئها النابهون النابغون والمتوسطون المغمورون ، ويروح الذكي كما راح الغبي ، وحال من قضى أشهراً في عمله كحال من قضى أعواماً لا يفكر في اصلاح ما تمثل لعينيه من عيوب ، ولا يعالج ما يبدو من معوج الطرائق ، همه أن تدوم مهمته طويلاً ، وان ينجز ما يعرض عليه من المسائل اليومية ، ومنصبه المعظم الذي أهله لان يقوم فيه بكل ما يعن له من الاصلاح يتسلمه القادم كما يتسلمه الراحل .

ومن أهم ما تتجه اليه همم هذه الطائفة يوم تولي الحكم حماية الأهل والولد ، ومن اتصل منهم بسبب ، يحلو لهم ايجاد المخارج لنفاذ ما قام في أذهانهم . والويل للمصلحة العامة ممن كثر ذوو قرباه وانصاره ، فانهم يتربحون باسمه ويتغنمون فرصة انبساط جاهه ليملأوا جيوبهم وعيابهم . والملك لا يسعد فيه الكبير والصغير الا اذا نفذت القوانين فيه على العدو والولي وبذلك تتجلى الفروق بين مملكة منحطة واخرى راقية ، مملكة ينخر جسمها سوس الاستبداد وأخرى تعيش آمنة مطمئنة في ظل دستور نافذ الحكم على كل ساكن .

الكتابة الباردة

وأعني بها الكتابة التي تجردت من الحرارة بحيث لاتفعل في نفس قارئها ولا تبقي فيها اقل أثر نافع . فالكلام البارد قليل الفائدة وحرام اللعاب القاريء يفك حروفه . وهذا النوع من البيان شبيه بمن يأكل في منامه حتى إذا أفاق لايرى أمامه شيئاً ، ثم أي فائدة من كلام فاتر لايهيج له عصب ، ولا يلقى في روع تاليه مايخرج معه بشيء ينفعه ، ولا يعيضه عن فكر سقيم بفكر سليم .

قد تقرأ كتباً ورسائل ومقالات إذا انهيت من تلاوتها تصدر بلا محصل ، لان واضعيها ظنوا التأليف يقوم بتنميق الجمل والمعاني المطروقة والاستطرادات المبتذلة ، وأمور ليس منها فائدة إلا تكبير جرم الرسالة أو المقالة .

ومن التآليف الباردة مايبدو بادني نظر أن كاتبها يكتم بعض مايعرف من الحق ويخدع قارئه ، وبعضهم لايتطال إلى أكثر من تزجية وقت المطالع وتسليته ، لايحاول أن يهدم أصلا من الاصول المعوجة مخافة أن ينشأ عن تصريحه ازعاج أحد ، وما كان في شرع المؤلفين ان يسلوا كل الناس ويأتوهم بما يرضيهم كل حين ، وأي صحيفة هذه التي تحاول أن تحرز موافقة عامة المنازع والاهواء . الحياة كلها جدال ، والتآليف لاتخرج عن حدّه ، فقول الحق هو الذي خلدت به كتب الجاحظ ، ومن مشى على أثره من العلماء . ومن نافقوا القراء صدروا وما كتبوا لايساوي قيمة ما كتب عليه من الورق ولا يبقى إلا بمقدار ماتبقى اوراق الشجر

المتساقطة على أديم الارض في الخريف . ومن جسروا وكتبوا ماعن لهم بحرية لقيت كتاباتهم القبول ، والتأليف الطريف هو الذي استهدف للاخذ والرد . وما أكثر من كان العجز مانعاً لهم إلا من سرقة أقوال غيرهم . وأي نفع يرجى من كلام لايصور حقيقــة صادرة عن نفس ملتهبة مقتنعة بما تقول ، مأخوذة بحب الحق وما الفائدة من تأليف لاينم عن الزمن الذي وضع فيه ولا يصف أهله ولا يعرض لما يسؤهم وما يسرهم ، وأضر الناشرين من يتوخون ابقاء الناس في عمـــاية ، ويحاولون اقرارهم على ما هم فيه ، ولو كان ظاهر الضرر ملموس التفاهة . ومن الكتب مايسوغ لك أن تضعه في أي قرن من قرون الانحطاط لانها خلو من صفة من هـــذه الصفات التي تتطلب من التأليف ، كتبها كاتبها بفتور واكتفى بها من الجولان في دائرة يبدي فيها ويعيد على غير هدى وليت شعري ما الفائدة المتوقعة من اغفال الحق في موقف يتحتم فيه الجد ، اللهم ان كان مقصود المؤلف من تأليفه ان يقال فقط انه ألف وربح من تأليفه كذا من النقود كأن المقصد الاول من التأليف كسب المـــال . والعجب ان يسألني بعض معارفي عما أجدت عليَّ كتبي من فائدة مادية وقلَّ أن سألني سائل ماذا كان من اثرها في أفكار من كتبت لهم .

واذ عودت نفسي أن أطرح من ذهني الارتفاق بالتأليف ، والتجـارة بالآداب ، تعزيت بما كتبته لأنه كان أكثره من الكتابات الحارة أي أني لم أكتم شيئاً من الحق الذي عرفته ، وهززت شعور القارئ حتى يتلقى ما قرأ بحرارة أيضاً ، ولو قدر لي أن اصانع في التأليف لفقدت الصفقتين المادية والمعنوية ، ولو انصرفت همتي الى تأليف قصص مؤلفة ومترجمة لجنيت مالاً جماً ، ولكن كان هواي في بث فكرة جديدة أو احياء فكرة قديمة

بهذا الاسلوب الذي اصطنعه علماؤنا الأقدمون والمحدثون ، وما عدا ذلك لا يتعلق عليه كبير أمر عندي .

أنا من أنصار الكتابة الحارة لا الباردة ولا الفاترة لاعتقادي بأنها تأتي بالفوائد ، اريد من الكتابة أن تبقى أثراً في النفوس ، وتنزع قديماً بالياً وتستعيض عنه بجديد مفيد ، ولو كان في ذلك غضب خمسة وتسعين بالمئة من القراء ، ولا قيمة لغضب بعضهم ورضاهم اذا صدروا عن سخف وغرض .

الكتلة الوطنية

بعد مغادرة الملك فيصل هذه الديار اجتمع بعض فلول حزب الاستقلال وحزب الفتاة وتألفوا جماعة للدخول في الانتخابات للمجلس النيابي فكانوا الكتلة الوطنية ، ولما تألف حزب الشعب قبيل الثورة السورية خاف السيد صبحي بركات رئيس الاتحاد السوري على منصبه فأكبر أمره أمام المحتلين ، فنفى بعض زعمائهم إلى حسجة من الجزيرة ، ثم الى بعض قرى لبنان مدة . وزعم بعض من لهم صلة بالفرنسيين بأن الكتلة ذات علاقة بالانكليز .

وعطف الناس على هذه الكتلة يناصرونها بكل مافي وسعهم ، يغلقون حوانيتهم في المدن اياماً ، للاحتجاج على بعض اعمال السلطة ، ويضربون عن اعمالهم ويشغبون . ودام آخر اضراب خمسين يوماً ظهرت فيه دمشق وحلب وسائر المدن والقصبات بمظهر من التكاتف لا نظير له ، وأبان الاهالي عن اخلاق حسنة ومعرفة بالواجب الوطني . ولما شلت الحركة الاقتصادية في سورية باجمعها دعت حكومة الانتداب بعض الزعماء من الكتلة وغيرها وجرى الاتفاق على انهاء الاضراب ، وارسال وفد إلى باريز للمفاوضة ، وعهد بهذه المهمة الى بعض المقدمين من رجال الكتلة ، وانقلب المفوض السامي المسيو دي مارتيل من جبار يضطهد الكتلة ويحتقر رجالها ، الى رجل عدل وذوق يحترم مقدميهم ويصانعهم . وما أكثر تبدل السياسيين بتبدل سياسات دولهم ، فهم كالممثلين على المسرح كل ساعة في صورة ، وقضى الموفدون في باريز مدة لم يسألهم أحد عن سبب مجيئهم ، ثم فاوضهم بعض رجال حكومتها ووقع الاتفاق على مواد المحالفة الجديدة .

وعاد رجال الوفد ممتمين وكتلتهم بثقة الامة ، تسير معهم راضية لانخالف

لهم رأيا ، وجرت الانتخابات النيابية ، فكان النواب في المجلس من كل من احبت الكتلة وضع ثقتها بهم ، ومن حرصت الحكومة المنتدبة على انتخابهم ، واختاروا رئيساً للجمهورية احد البارزين من جماعتهم السيد هاشم الأتاسي ولرياسة المجلس السيد فارس الخوري ولرياسة الحكومة السيد جميل مردم بك يعاونه ثلاثة وزراء فقط ، كل واحد منهم يتولى وزارتين . ونزل الرئيس السابق السيد محمد علي العابد عن رياسة الجمهورية قبل اتمام مدته بستة أشهر ،

بدأ أصحاب الكتلة يطبقون منهاجهم فأتوا الى بعض الوظائف بجماعتهم ، وبعض من اعتمدوا عليه لم يعرف بانه من اصحاب الجد ولا اشتهر بمعرفة ، وأخرجوا من الوظائف الكبرى بعض من ليسوا على سيرة حسنة ، او ممن ثبت تلاعبهم في كل دور ، وظن بعض جماعة الكتلة أننا اصبحنا امة حرة مستقلة ، واحبوا ان يتحرروا من القيود القديمة ، وتركوا المستشارين جانباً لا يستشيرونهم ولا يلتفتون اليهم . فكان من اثر هذا أن اشتعلت ثورات خفيفة في بعض الانحاء ، وأهين عمال الجمهورية وروعوا وعيالهم ، وكان على ما قيل السبب في ايقاد جذوتها بعض الموتورين ، وقيل ان حكومة الانتداب رأت من بعض رجال الكتلة عطفاً على بعض الدول الكبرى .

ولقد نصحت لبعض أصدقائي من رجال الكتلة ومنهم صديقي فخري بك البارودي ألا يدخلوا في الحكم ويختاروا للوزارة جماعة من الحياديين ، ينقون الحكومة من ادرانها ، ويجعلون كل شيء في نصابه ، وهم يبقون في المجلس يراقبون عمل الحكومة سنتين أو ثلاثاً ، فاذا تقلدوا الحكم بعدها أخذوه نظيفاً لا شوب فيه ولا شائبة ، وبذلك يتحللون ايضاً من الوعود التي قطعوها لبعض من خدموهم ، وبتحقيقها عبث بمصلحة الوطن ، فكان جوابهم إن كل طائفة تحدث انقلاباً تتولى الحكم لتنفذ برنامجها .

بدت عيوب الكتلة للأعين بعد أشهر من توليها الحكم ، وربما وجد الناقمون عليها معاضدة من بعض السلطات ، فساروا وأوغلوا في نقدها ، وكنت

كثيراً ما أطلب إلى أصحابي ألا يعجلوا بانتقادها او تظهر غلطاتها ، ولم تجر الكتلة على مثال الحكومات التي كانت المفوضية العليا تعينها تعييناً ، فتنشىء الجسور والمعابر وتفتح الطرق وتعبدهـا ، وتقيم القصور والمـدارس ودور الحكومة ، وتعمل ما يخفف الضائقة .

جاهر الحزب الذي تولى الحكم في فرنسا بألا يقر معاهدة وافقت عليها الحكومة الاشتراكية مبدئياً ، وفرنسا في صدد خوض غمرة حرب ، ومن مصلحتها أن يكون حكمها مباشراً في سورية ، فاضطرت حكومة الكتلة الى التنحي ، وعرض رئيس جمهوريتها تأليف وزارة على الاستاذ مصطفى برمدا فأبى تأليفهـا ، وكان جرب طالعه مع السلطة لما عهدت اليه رئاسة دولة حلب ، فما استطاع العمل معها غير بضعة اشهر . ثم عرضت الرياسة على السيد نصوحي البخاري فاستقال بعد ثلاثة أشهر من تأليف وزارته ولم يعمل عملاً وأضاع الوقت في التريث على غير جدوى . عند ذلك اضطر رئيس الجمهورية الى التنحي .

قال رئيس الجمهورية السيد هاشم الاتاسي لاحد المتصلين به قبل تخليه عن الرياسة بايام ، وكان ضيق الصدر من اضطراره الى الاعتزال : ما كنت أظن أن جماعتي وصوليون الى هذا الحد ، لايهمهم غير مراكز في الحكومة يشغلونها ، يقولون أن جميل بك يبذر الاموال ، وتبـذيره قليل إلى جانب اسراف سعد الله بك ، فقد كان هذا يتطلب أن نعطيه كل يوم ألف ليرة فلما أشرنا اليه أن يأخذ بالاقتصاد ، غضب وقاطعنـا ولم يدخل قصر الجمهورية ثمـانية أشهر . ونحن لم نهدىء أعصاب بعض جماعتنا عن تولي الحكم ، ومعظمهم كانوا يحاولون أن يتقلدوا الوزارات ، إلا باعطاء كل فرد منهم مشاهرة تعادل راتب الوزير العامل .

هذا معنى ما روي عن لسانه وقلت لصاحبي لما قص علي كلامه : لوقال هذا القول قبل سنة لـكان قوله مقبولاً ، أما وهو لم يرشدهم إلى الصواب في نطاق حقوقه الدستورية فعلى عاتقه تقع تبعة بعض غلطاتهم .

قلت لاحد رجال الانتداب وأنا في الوزارة ، والصراع بين الكتلة والدولة المنتدبة على ساق وقدم : أرى أن تمهدوا بالحكم للكتلة الوطنية على سبيل التجربة مدة ، لعل عند رجالها قرائح لم نرزقها ، ومعارف لم نتعلمها . فان احسنوا فيها ونعمت ، وإلا فنستريح وتستريحون ، فاجابني لولا أن الهزل في مصالح الدولة لايجوز لعملت بهذا الرأي السديد ، وأنا على يقين أن الجماعة لايصلحون للحكم . كذا قال وفيه شيء من التحامل عليهم .

على أن الكتلة ماخلت من أعضاء كانوا غُيراً على المصلحة العامة ، وكان الصالح يذوب في الكثرة الغامرة . تنحى وزير ماليتهم الاستاذ شكري القوتلي عن وزارته لانه لم يرض على ماشاع باقرار الاتفاق مع المصرف السوري لما رأي فيه من الاجحاف بحقوق سورية فاستقال وكتم أسباب استقالته ، ولما سقطوا باتهام بعض أعضاء منهم بانهم يعملون فيما قيل للمبادىء الفاشستية كان من السيد فائز الخوري أن خرج منهم في جملة من الاعضاء ونشروا ذلك في الصحف إلا أن هؤلاء متى رأوا الحظوة أعيدت إلى اخوانهم بالامس يرجعون حالاً اليهم للاشتراك في المغانم لا لشيء آخر . وتولى أحد أعضائهم السيد لطفي الحفار رياسة الوزارة نحو عشرين يوماً في آخر عهدهم ، فسارع إلى إرضاء أقاربه ، ومنهم ابن عمه رقاه بضع درجات وأعطاه فرق رواتبه بضع سنين .

الجزازات

هي في هذا العصر كل شيء في الاعمال العلمية والسياسية والمالية يحتاجها التاجر والحاسب والسياسي والباحث والأديب كما يسير عليها الملك والرئيس.

كنت منذ أيام ابحث في الجزازات مع صديقي الدكتور حسني سبح وقلت له اني باغفالي أمر الجزازات بل بعدم انتباهي لها ولصورة عملها اضعت سنين من حياتي في البحث على غير جدوى، فكنت على طريقة من عاصرتهم من المشتغلين بالعلم والآداب نقيد ما نحب حفظه من المنشورات في دفاتر تمزج فيها النكتة الدينية بالنادرة الأدبية بالقصة التاريخية بالبيت أو القصيدة من شعر بالفائدة العلمية بترجمة أحد المشاهير بمصدر من المصادر نريد أن نرجع اليه ذات يوم. وهذا مما يضيع الوقت ويصعب ايجاد المادة الضائعة بسرعة عند اللزوم.

كان الناس في مصر يدهشون من العلامة أحمد زكي باشا رحمه الله وبديهته في حل عويصات المسائل فان سؤالاً يطرح عليه في الصحف أو غلطة يراها هو فيها يحمل الجواب عليه من الغد وما كانت الا الجزازات التي اتقن الباشا وضعها هي التي تعينه على ذلك يرجع اليها في الحال فتلبيه وتحل اشكالاته واشكالات الناس.

وكنت ادهش قبل التوسع في معرفة الجزازات وأنا اتلو المقالات الافتتاحية في جريدة الطان ايام كان يكتبها السياسي تارديو وتعجبني الاحاطة بكل موضوع يخوض فيه وما كان السبب في ذلك الا الجزازات التي اتقنت تحضيرها ادارة تلك الجريدة كما احضرت الجرائد عامة مثل هذه الجزازات لستفتيها في كل مصبح وممسى وفي كل شارقة وبارقة.

وعمل الجزازات في الجامعات والكليات في العالم سهل على الطلبة

والاساتذة أعمالهم اذا أرادوا أن يؤلفوا أطروحاتهم ويضعوا تآليف لهم . وقد سهلوا في المانيا طرق التأليف فاخترع المؤلفون طريقة جديدة فيها كثير من الاقتصاد في الوقت والمال على ما حدثني بذلك صديقي الاستاذ جورج انطونيوس رحمه الله قال ان المؤلف هناك اذا عنّ له أن يكتب في موضوع يدعو ثلة من الشبان المتخرجين في الجامعات ويعرض عليهم موضوعه ويدعوهم الى مطالعة كتب يعينها لهم ، يريدهم أن يقدموا له عن كل واحد منها تقريراً ، ويلاحظوا ما يتطلبه المؤلف لأجل موضوعه فما هي الا أن تنهال عليه المعلومات ويكتب المؤلف كتابه في اسابيع قليلة .

فقلت للراوي ان هذه الطريقة عملية ولكنها لا لذة بها للمؤلف وأظنها تحتاج الى نفقة طائلة مكافأة للعاملين فيها من الشبان ، قال ان السعر الذي وضع للنظر في كل كتاب دينار الماني واحد أما الكتب فهي مسبلة على كل مطالع في الخزائن العامة ويستعيرها الباحثون ولا يدفعون شيئاً مقابل ذلك . هذه هي الجزازات وفوائدها في الجملة ولما تشرفت بلقاء الملك فؤاد الأول ايام ذهابي الى مصر لتكريم أحمد شوقي بك الشاعر قلت لشوقي ان معلومات الملك عظيمة جداً قال نعم هو يتكلم من الجزازات ومن تكلم آخذاً مما لديه منها أمن العثار وعظم في الانظار .

أماثة الوزراء

حُدّثت أن الدكتور عبد الرحمن الكيالي ايام كان يجمع بين وزارتين من أهم الوزارات وزارة العدل ووزارة المعارف حاول أن يجود على أحد الأرمن المتجنسين بالجنسية الاميركية وكان معروفاً بتهريب العاديات بتمثالين لاسدين عظيمين (ارسلان طاش) ما زالا رابطـين الى اليوم في أرض الجزيرة من أملاك سورية ، وزنة كل واحد منهما خمسة عشر طناً على الأقل مدعياً ان هذا الاميركي يرجى أن ينفعنا في امور لها مساس باستقلالنا !

وصدر المرسوم بهذه المنحة ونشر في الجريدة الرسمية فأصدرت المفوضية العليا الفرنسية أمرها الى دولة سورية بالرجوع عن قرارها لان أمر الآثار يرجع الى الدول عامة وليس لسورية وحدها أن تبت فيه . وحاول الكيالي أن يقنع القائمين على حفظ الآثار من الوطنيين لاقناع المفوضية بالرجوع عن رأيها واقرار ما قررته الوزارة فلم يفلح قائلاً انه يتذرع بذلك للاحتفاظ بالكرامة ومراعاة سلطان الحكومة المحلية . وما عرف الذي حداه على هذا الاصرار في أمر يدرك مضرته الطفل الصغير ، ذلك ان التمثالين يساويان يومئذ مليوني ليرة على اقل تقدير أما قيمتهما المعنوية فـلا تقدر بثمن . والتمثالان كما يقول العارفون بالعاديات من أهم ما نبش عليه من آثار ديارنا .

وجاءنا حابي آخر اسمه فؤاد العادلي من أرباب الأوقاف العظيمة يشغل وزارة في عهد الشيخ تاج الدين البيباني أنسيت اسمها وربما لم يحفظه أيضاً من وسدت اليه شؤونها فـكان منه انه لم يعمل فيها شراً ولا خيراً لانه لم يحضر لادارة شؤونها الا اياماً معدودة من أشهر طويلة وكان شغله الوحيد الدعاوي التي يقيمها وتقام عليه ، وخلص من الوزارة باحراز لقب « صاحب المعالي » .

ومما يسر ان ما أتاه الكيالي والعادلي من الاهمال لم يفعل منه شيئاً

معالي الوزراء الذين أتوا من الشمال امثال السيد ميخائيل ليان (الحلبي) والسيد حكمت الحكيم (الادلبي) والسيد حكمت الحراكي (المعرى) وامثالهم ممن تقلدوا الوزارات بكفاءتهم . ومن أهم ما يتحلى به الوزير قبل كل شيء تجرده عن الهوى وبعده عن المآرب الذاتية وسعة نظره وسداد رأيه والامانة على ما أتمن عليه وابتعاده عن الحزبيـة والعصبية الجنسية والدينية . والامـــة من ورائه تراقب حركاته وسكناته ومن اسر سريرة ألبسه الله رداءها .

حب المديح والظهور

احتفل بالقاهرة بعض السنين اصحاب الاستاذ احمد أمين بك بتكريمه وحرص هو على أن اقول كلمة فيه مع أني كنت في حالة لاتسمح لي بالقول مطلقاً ومما قلت ان ماخص به صديقي من عمق في البحث وجمال في الاسلوب جعل منه مؤلفاً من أكبر مؤلفي العصر ثم رأس لجنةالتأليف والترجمة والنشر فبرز في الادارة والتجارة تبريزه في فنه واثبت واخوانه اعضاء اللجنة ان المصري اذا ثبت لايصعب عليه أن يأتي باعمال عظيمة كان بالامس يرى بانه عاجز عن تجويد مثلها، لان الثبات كان مما ينقصه والخضوع للقانون مما لايأبه له كثيراً . وعزوت توفيق هذه اللجنة الى كونها موءلفة من اعضاء متماثلين في التربية وان غرضهم بث العلم والآداب .

وحاول شيخ الازهر الاستاذ المراغي في تلك الحفلة ان يجعل الفضل للازهر في نبوغ أحمد أمين مع أن هذا قال لي انه لم يدرس فيه أكثر من سبعة أشهر ، ولكن أباه كان من شيوخه ، والازهرية على كل حال بقيت غالبة على أحمد امين غذى بها لحمه ودمه وروحه وادبه . واذكر اني كتبت اليه بصفته مدير لجنة التأليف والترجمة والنشر ارجوه ان يتوسط مع من يلزم للمباشرة بطبع الجزء الثاني من كتابي (الاسلام والحضارة العربية) اذ ليس من مصلحة اللجنة أن تكون الفاصلة بين الجزئين اعواماً فكتب اليّ والغالب انه كان في حالة عصبية نسي فيها كل الاعتبارات يقول انه ليس هو خادمي ولا عبدي حتى أعهد اليه بمثل هذه المهمة الى غير ذلك من العبارات الغريبة التي تدل على رعونة كنت أحب أن يتجرد منها مؤلف فجر الاسلام وضحى اسلام وظهر الاسلام (وغروب الاســـلام وليل الاسلام) .

حاول أحمد أمين أن يؤلف في الفلسفة ويظهر في ثوب فيلسوف وكان رفاقه وزملاؤه يسخرون من دعواه هذه ويجعلون منها موضوع دعابة وحديث ضحك واضحاك . ثم حاول ان ينتسب لفيلسوفهم الاعظم احمد لطفي السيد ولكن المشيخة بقيت متجلية في أقواله وافعاله وكان ظاهره وباطنه مع السنهوري وطه حسين ولطفي السيد ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز فهمي وتلك الطبقة يجمع أكثرهم الغرام وبقاعدة خالف تعرف وهم في الغاية علماً وأدباً شهادة الله .

باشاوان في مجمع مصر

لا أقول ان عبد الرزاق السنهوري باشا ومحمد حسين هيكل باشا اساءآ الاستعمال بتعيينهما نفسيهما عضوين في مجمع فؤاد الأول للغة العربية فان كلمة اساء الاستعمال حرام أن تطلق على من يضعون القوانين ويشرعون لمصر ، ولكن هـذا التعيين ما خلا من مغمزمها أحسنا الظن ، وكان عليهما أن ينضما الى الخالدين المصريين في عهد وزارة غير وزارتهم أو أن يصرفا النظر عن هذه النسبة على نحو ما فعل رصفاؤهما وزراء المعارف امثال نجيب الهلالي باشا وحلمي عيسى باشا وبهي الدين بركات باشا ومحمد علي علوبة باشا ومحمد العشماوي باشا وغيرهم . والمصريون مغرمون بالالقاب في العادة ولو كانوا من عيار السنهوري في القوانين وهيكل في السياسة ، وكيف يجوّز لنفسه رجل أن ينضم الى جماعة وهولا يفرغ ساعة واحدة في السنة لان يشاركهم في اعمالهم . ولو هدى الله صاحبي هذين لاستقالا من هـذا المجمع وتركا مكانهما لمن يحسن تمهده وتنتفع به اللغة . جلّ من لا عيب فيه .

خلق غريب

عرفت الشيخ بدر الدين النعساني طالب علم في الازهر وعاد الى حلب بلده في اول عهد الدستور العثماني وكنت كثيراً ما أحثه على القيام بما ينهض بمدينته لعلمي بكفاءته لذلك أكثر من جميع أهل بلده ، ولما وليت وزارة المعارف كان استاذاً في تجهيز حلب فكان مولعاً بمدح الاتراك وذم العرب ، ويتلو في الدرس على تلامذته اشعاره ويخرج عن المنهاج المقرر ، فيبلغ ذلك مستشار المعارف فادافع عنه وادفع ما اتهم به . وبقدر ما كنت أحميه كان يهزأ بي في دروسه ويطعن علي جزاء احساني اليه . وكان خفيف الروح ظريف الحديث يأتي لزيارتي كلما جاء دمشق مستصحباً بعض المعلمين الحلبيين ممن اشتهروا بجاسوسيتهم فكنت انبهه إلى هذا وأذكر له كراهتي لكل من يتجسس .

وما لقيته مرة الا حثثته على وضع تأليف في نطاق اخصائه ينتفع به الاسلام والعرب وكان تأليفه الذي ختم به حياته سلسلة مقالات كان ينشرها في جريدة الشهباء تنم عن أغراض ظاهرها الغيرة على مصلحة الوطن ، وما كان يقصد بما يكتب إلا مصلحته الخاصة وهكذا انتهت أيام النعساني على ما لا ينطبق مع أماني الوطن وأماني العلم ويتنافى مع ما عرف به من الذكاء والدهاء .

انتخب المجمع العلمي العربي الشيخ النعساني عضواً مراسلاً فلم يتنزل أن يشكره ولا بكلمة مع شدة الحاحي عليه بان يقوم بهذا الواجب وظل على ابائه ، وأرادني المجمع على حذف اسمه فلم أوافقه . ولما أسس مجمع فؤاد الأول للغة العربية في مصر رجاني ألا انساه وأجعله عضواً فيه أيضاً كأنه خدم مجمع بلاده حتى يخدم مجمع مصر ولكن هو حب الظهور بدون اتخاذ الاسباب المشروعة له ومظهر من مظاهر الاثرة الممقوتة ، دل على ان العلم شيء والاخلاق شيء آخر ومن لا تتربى اخلاقه في بيته لا تربي في مضمار الحياة .

وباء الهمم

مما لا يبشر بخير ان يتخرج بعض الشبان في ارقى مدارس الغرب ويعودوا الى بلادهم وقد امتلأوا حماسة علمية وغيرة وطنية فما هو إلا أن توظف لهم وظيفة حتى تبرد هممهم وينسوا ما تعلموا لا يطمعون أن يزيدوا فيه. رأيت هذه الحال في عشرات من الشبان فساءني ما رأيت وخيبوا ظني فيما كنت فيهم أملت. وما العلم عند هذه النابتة إلا أداة من أدوات الكسب متى بدأ ربح المرء منه فليس من الصواب أن يتعب نفسه باتقانه والاستفادة من نتائجه! وأكثر من يؤلفون كتباً مدرسية يتربحون منها، وقل ان يبتدع احدهم موضوعاً طريفاً او يلو على فكرة نافعة، ولطالما حدثت من يأتوننا بشهادات أطول من ليالي الشتاء على اتمام علمهم على ما هو المرجو منهم، فيعدون كلامي هذا من الفضول والتدخل في حريتهم الشخصية. واقسم بالله أني رأيت بعض الشبان الذين درسوا ارقى دراسة بعد بضع سنين من مغادرة المدرسة أشبه بالاميين في حديثهم وحركتهم ورأيت منهم طبقة تستجيز السرقة والتجسس للحصول على المال وترتكب كل ما فيه العار للترقي في درجتها. وبعد ذلك صرت أقول في نفسي ترى هل نفعنا العلم أم أضرّ بنا.

كتاب الى حبيب

صديقي صاحب المعالي الاستاذ محمد حلمي عيسى باشا المحترم

طلبت إليك منذ أيام جريدة باسماء من يرجى أن يشتركوا بكتابي (المذكرات) من المصريين ولعلك استغربت هذه الحركة مني وما عهدتني تاجراً ولا طابعاً ولا ناشراً بل مؤلفاً بسيطاً يعتمد على الطابعين في نشر كتبه. وما حداني على الظهور بهذا المظهر الجديد إلا اني احب ألا أنكسر أمام أي قوة واحارب ما اتسعت قوتي للحرب، وإن كنت في الشيخوخة (ونصف الخبر عندك) فقد طرقت عدة أبواب لطبع ما لديّ من التآليف وتجديد طبع ما نفد مما طبع في مصر والشام، فكنت أصد من دون سبب معقول.

راجعت لجنة التأليف والترجمة والنشر وهي مؤلفة من خيرة رجال المعارف، وبعض الكهول منهم من أصدقائي الأعزة، وقد طبعت لي ثلاثة كتب في مطبعتهم نفدت بعد قليل من طبعها واعيد طبعها ثانية وثالثة، وراجعت دار احياء الكتب العربية فوعدت ثم أخلفت، واحببت الاعتماد على دار المعارف منذ سنتين فاعتذرت بقلة الورق وفاوضت إسماعيل تيمور باشا ابن صديقي العلامة أحمد تيمور باشا فقال إن كنت تريد معونة للكتاب من الخاصة الملكية فالأمر سهل فقلت له إن خطط الشام هو كتاب أبيك وإليه مهدى فلا معنى لأخذ معاونة سامية. فأجاب أنا لا أفهم هذه المسائل وسأكلم شقيقي محمود فكان من الاستاذ محمود بك أن راجع من رجعت إليهم فأخذ ما أخذت من جواب، ورجع المؤلف الذي لا يهمه من الدنيا إلا نشر كتبه بخفي حنين.

فلما سدت الطرق في وجهي ورأيت اللجنة التي يعدّونني من أعضائها

قد عاملتني بالاهمال ، ولم تكتب شيئاً في مجلتهم عن تآليفي التي طبعتها على نفقتها ، طلبت إلى صديقي أحمد أمين رئيس تلك العصابة أن يكون الكلام عنها نقداً فقط لأني ما أحببت قط المديح ولا التقريظ ، يشهد لذلك ما نشرته من مصنفات ومجلات ، وجرائد فكان منه أن أوعز إلى أحد شبابهم فكتب في الجزء الأول عن كتاب لي فى مجلة الثقافة تقريظاً أوسعني فيه ثناء خلافاً لما كنت أرجو .

وصديقي أحمد أمين كأكثر المشتغلين بالعلم في مصر وغير مصر أشغل من ذات النحيين ما سمعت منه كلمة طيبة لا باللسان ولا بالقلم منذ عرفته ، وأنا شهد الله ما تركت باباً من أبواب الدعاية له منذ ظهوره في التأليف . سأله في الجامعة أحد تلاميذه من الحلبيين عن رأيه فيّ فقال تسألني رأيي في بلديك إنه أعرف المعاصرين بالمصادر . وهذا رأي الشيخ رشيد رضا في استاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، يعني أني وشيخي في نظر الاستاذين العظيمين من عيار مصطفى محمد الكتبي المصري بمعرفة أسماء الكتب .

هذه هي صداقة أحمد أمين لي وهناك في مجمع فؤاد الأول من هم عجيبة الزملاء هناك رئيسه أحمد لطفي السيد باشا الفيلسوف . وكثيراً ما نوّهت به وأردت إخواني في المجمع العلمي العربي منذ أول تأسيسه أن يختاروه عضواً مراسلاً فانتخبوه وما تنازل أن يجيبهم بكلمة شكر فيما أذكر ولم يغلط خلال خمسين سنة أن يقابل جميلي بمثله كأنه يعتقد أن ما أقوم به نحوه هو واجبي وانه من عالم غير هذا العالم ، وشتان بين ثقله وخفتي ، وفرق بين جنسيتي وجنسيته هو مصري وأنا شامي ! فلسفة ركيكة لا أفهمها مع أني فهمت فلسفة الشباب أمثال زميلي وحبيبي الدكتور إبراهيم بيومي مدكور .

أين أدب من أدب انتخب المجمع العلمي العربي الامير عمر طوسون والأمير يوسف كمال عضوين مراسلين معه فكتبا يشكران ويفاخران بهذه العضوية وأظن لطفي السيد أمام هذين العظيمين لا يعدو أن يكون أمامها شخصاً عادياً ولو تقلد الوزارة مرات . اتقن لغة السياسية ومصطلحات التشريفات

وكان رجل رسم وصاحب تقاليد . دعاني مع من دعا من رصفائي الدعوة الرسمية السنوية الى نادي محمد علي فلما لحظ ان بين الأعضاء الأجانب رجلاً له لقب وزير طار عقله ودعاه علناً من دون رصفائه الى الجلوس في مقام التكرمة فكأنه يقول بلسان حاله لسائر الرصفاء ان من كان وزيراً يفضلكم كلكم . فلما شاهدت هذا ضحكت وانتحيت ناحية اخرى وقعدت في آخر المائدة وجاورني زميلي الدكتور علي توفيق شوشة باشا وأقسمت بعدها الا أحضر دعوة طعام للداعي الكريم صاحب الذوق السليم .

أنا لا أطلب من الناس أن يمدحوني ويرفعوا من شأني لحياتي ما كانت في وقت من الأوقات موقوفة على هذا النوع من المصانعات ولكن المجاملات مأمور بها ومعقولة ، والمصريون من أبرع الناس فيها على كل حال . من ذلك أن رصيفي المازني وهيكل ما أضاعا قط كلمة في التعرض لعملي وعمل اخواني في الشام انتخبها مجمعنا عضوين مراسلين فلم يتنزلا أن يكتبا له سطراً . وكيف يرتكبان هذا الاثم والمازني دأب حياته يكتب المقالات للصحف والمجلات ودأب يستوفي المكافآت عليها ، وهيكل أصبح بقلمه وحزبه ممن يدير دفة السياسة المصرية . وأي نفع يأتي من « كرد علي » وصحبه ؟ إذا احتجنا اليهم يوماً فهم تحت الطلب .

وفي المجمع المصري عناصر جديدة انضمت اليه منها ما كان من الطراز الأول أمثال علي عبد الرازق بك ومصطفى نظيف بك والشيخ عبد الوهاب خلاف واضرابهم ومنها ما كان مثل الشيخ محمود شلتوت من جماعة كبار العلماء وهذا كان لي صديقاً قديماً عرفته في دار آل عبد الرازق الاكارم ولما اضطهده الشيخ الظواهري في الازهر كنت من أول الحانقين عليه ، ولما نفس خناقه واعيد الى منصبه فرحت له فرحاً كثيراً . أتدري ماذا كان مقامي عند عضو جماعة كبار العلماء ؟ كان منه أن اهداني كتاباً له وكتب على ظهره (آية الاخلاص لصاحب العزة فلان) فراجعته فيما كتبه

ممازحاً وقلت له : وأين كلمة استاذ يا استاذ ، كأن هذه اللفظة (آية الاخلاص) تقوم مقامها وما حفظه شلتوت قد نسيه « كرد علي » منذ زمان ، والطوائل أو المباينات بين أرباب العمائم وأرباب الطرابيش قديمة لا تحتاج الى بيان .

وماذا اقول في مجلاتكم وصحفكم ، واحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة بعد ان كان يكتب لي انه كان تقي فرقعته تنكر لي بأخرة من دون سبب وأعمته التجارة وجمع الارباح ونسي أصحابه ومن عاونوه على اكتساب الشهرة . انتخبه مجمع دمشق عضواً فبلغ من مكارم أخلاقه انه لا يبادل اليوم مجلته مع الالحاح في طلبها . حقيقة الاخلاق تورّث ، واخلاق المدنيين غير اخلاق الفلاحين ، والعلم والادب صناعة يتعلمها من يسهر على حفظ الدساتير اعواماً قليلة .

هذه المعاملة لقيتها من هذه الطبقات في مصر لا أدري وجهاً لتعليلها ، والحمدلله على اني ما جئت مصر يوماً أكاثر رجالها وتعففت حياتي عن الاخذ من خبز مصر حتى لا أشهد كراهية المصريين وتجهمهم ، ولا أفقد صداقة عشرات من اخواني امثالك، وهم رأس مالي الذي اغتبط به ، فمجلة الثقافة لم تتنازل منذ نشأتها ان تكتب لي كلمة في كتبي اما احمد امين فيزعم ان اشغاله كثيرة وقد رأيته يسارع فيكتب للمصريين ما يشاءون .

هذه يا صاحب المعالي مسائل تافهة ولكنها تمس العاطفة وتؤذي عزة النفس وتعرف أكثر من غيرك أني لا اعبأ بها بيد ان ما حصل دل على مبلغ جماعتك من الوفاء ولو كنت اضع على رأسي قبعة لوقرت في نفوس المصريين وعدوني شيئاً فقد اعتاد المصريون مع الاسف ان يتلقوا الافرنج بضروب التجلة ، وللغربي في وادي النيل روعة وأي روعة وللخواجه ما ليس لغيره من اعظام نتيجة اربعين قرناً في العبودية . لا تغضب لهذا الحكم فهو حقيقة تاريخية لا مجال لانكارها .

تعلم أبدك الله كم جهدت لازالة الفوارق من بين المصريين والشاميين وأني كنت أنحى على قومي إنحاء شديداً لما عرف به بعضهم من مماكسة

مصر في استقلالها ، كتبت في ذلك المقالات الكثيرة منذ كنت محرراً في المؤيد حتى ملّ مني من ولدوا في أرضي وأعرضوا عني وحاربوني في مادياتي . وتعلم ان ليس في مصر من الشاميين من خدمها مثل ماخدمتها أنا بدون عوض ولا غرض فقد جاءت عليّ أيام فيها ، وأنا أحمل ريع ملكي في الشام وارتفق به في مصر مختاراً ، والانكليز يعرّضون بما عندهم من ذهب برّاق استهوى كثيراً من كبار رجالكم ، أما أنا فما أخذت منكم منذ دخلت مصر سنة ١٩٠١ وساماً ولا رتبة ولا لقباً ولا راتباً ولا عطية ولا هدية ولله الحمد والمنة ، وكنت أبداً مرتاحاً لعملي وأعده واجباً عليّ .

أطلت عليك ولا بد للمصدور أن ينفث ، أطلت لأقول لك أن ما لاقيته من أصحاب المقامات أو العلية أو الطبقة المختارة دعاني أن اهزّ أريحية قومي لطبع كتبي واخرج عن الطور الذي سرت عليه حياتي حتى افيد العرب واخــــدم الاسلام .

جسرين (غوطة دمشق) في ٥ أيار سنة ١٩٤٨ .

حاشية ربما يظن من يقرأ هذا أن المسألة تجارية والشاميون من أعظم التجار لا والذي أخذ العهد على العلماء ألا يكذبوا ولا يصانعوا ليس الأمر كذلك ، وأرجو الا يتطرق الوهم في هذا الى بعض الأغبياء فأنا منذ كنت في ريعان الشباب أطبع كتباً ورسائل ومجلات وجرائد وأنشرها في البلاد العربية وقد أهديت من أعرف ومن لا أعرف ثلاثة أرباعها ولو كان مأربي مادياً لجمعت منها ثروة لا بأس بها ولكن الغاية غير مايتخيل ضعاف العقول ، الغاية النهضة بالأمة واصلاح مااعوج من أوضاعها مهما كلفني الأمر لاأريد من ذلك مظهراً ولا مالا ومرماي الآن تصفية حساباتنا مع هؤلاء الأفاضل والله أعلم بالسرائر .

(لاحقة) لابأس أن يتلى هذا الكتاب على مسامع اخواني الأعزة جماعة فندق الكونتيننتال ظهر كل يوم وسلامي عليهم جميعاً وعليك الف سلام .

الدين

رأيت في العقد الاخير نهضة دينية تهللت لهـــا قام بها بعض الغُيُر على الدين بعد أن رأوا ضعف مشخصاته في كل مظهر من مظاهره . ادركوا ان ليس لهم مخرج مما صارت اليه الامة الا بتعليمها أصول دينها فانشأوا مدارس ودروساً في حلب وحماة ودمشق وأرادوا ارجاع الناس الى الجوامع وقد هان عليهم الاختلاف الى الحانات والملاهي ، وممن قام بكبر هذا الامر المهم العلامة الشيخ سعيد النعسان في حماة والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار في دمشق وغيرها في غيرها فتخرج بهذين العالمين عشرات من الطلبة تلقنوا الشريعة على أصولها وقام في دمشق عالم من طراز آخر عالَم العامة تعليماً لايخلو من جمود وحشو ولكنه ينفع من بعض الوجوه لان طلابه انبثوا في القرى الشامية وكان بعض أهلها على وشك الخروج من الاسلام بفعل الجهل كما حدث منذ سنين وقام العلامة الشيخ عبد القادر القصاب رحمه الله في دير عطية في جبل قلمون وعلم كثيراً من الطلبة انبثوا في انحاء الجبل فاعادوا الضالين الى حجر الاسلام .

وكما فعل صديقنا العلامة عارف النكدي ففتح مدارس وكتاتيب لابنـاء الدروز في عبية وما جاورها من القرى في لبنان وأخذ يدرس أبناءها القرآن الكريم يريد أن يعيدهم الى السنة كما كان من العلامة جمال الدين التنوخي من أهل القرن الثامن بما وقفه من الاوقاف العظيمة على هذه الغاية . وتعليم ابناء الدروز وبناتهم خطوة مباركة يخطوها ابناء هذه الطائفة نحو الاسلام الصحيح وذلك بفضل بعد نظر الاستاذ النكدي وذكائه النادر .

ثم اسست ادارة الاوقاف في عاصمة الشام مدرسة العلوم الدينية واخذت تخرج طلبة منورين من طوائف اسلامية مختلفة وانصرفت همم افراد من

ابناء فلسطين ولبنان والعلويين وبلاد الشمال والجنوب في سورية فدرسوا في الازهر وفي كليات الاختصاص فيه ومنهم من عاد الى وطنه بشهادات تدل عن دراساتهم النافعة مثل السيد انور سلطان والشيخ علي الطنطاوي ويزيد هذا الى علمه وفقهه انه كاتب من الطراز الاول وهو من الطبقة التي تحسن ادب العربية احساناً يساعدها على فهم الشريعة اكثر من الجاحدين ومن قلت عنايتهم بهذه الفروع .

كل هذا حسن ويشير الى خير عميم لكننا لم نجد من تعلموا قد وسدت اليهم الوظائف الدينية التي استعدوا لها وما زال بعض الجامدين الجاهلين الذين تلوثوا بالرشا واشتهروا باضاعة الحقوق قابضين على ازمة القضاء والافتاء ومن مصلحة الرؤساء منهم ألا يتركوا مجالا لظهور الشباب وهم ينبذونهم من كل وجه حتى تكون المنافع وقفاً عليهم وعلى جماعتهم على ما كانت عليه الحال في القرن الماضي والقرون الثلاثة قبله . فعلى من يفرقون بين الصحيح والبهرج أن يتخلوا عن كل اعتبار ويطرحوا الجهلة الفاسدين جانباً ويستعيضوا عنهم بالنشئة الصالحة من مثل هؤلاء وبذلك فقط تخدم الشريعة ويدرك القوم في الديار الشامية الفرق بين الحكم الاستبدادي والحكم النيابي .

أحكام عادلة

ظهر في جبال العلويين على عهد الانتداب رجل اسمه سليمان المرشد ادعى أنه الرب وأخذ أموال الفلاحين واعتدى على أعراضهم وملك ثروة طائلة وكثر اتباعه . وقد اعتادت هذه الجبال أن يكون لها رب جديد في كل قرن ويكون مصيره القتل . ولما كثر تعديه وامتدت يداه لقتل الانفس ساقته حكومة الجمهورية الى القضاء فحكمت عليه بالقتل وارجعت جميع ما استصفاه من قرى الضعاف من الرعية الى أربابه فأحسنت بذلك للعدل والامة .

وقام في خلال تلك المدة في غوطة دمشق على عهد الانتداب رجل عامي من نمط آخر ادعى انه صاحب طريقة ، فكثر اتباعه واضل العقول وخرج في معظم حركاته على الاسلام ، فهو ان لم يدع كالأول مقام الربوبية فالظاهر من حاله أن دعواه قريبة منها . وزاد على ذلك أنه تعدى على الابكار وسلب أربعاً منهن عفافهن فحكمت عليه المحكمة بالسجن خمس عشرة سنة والتغريب مثلها وبعشرين ألف ليرة دية اعراض تلك الأوانس . فوقع هذا الحكم كالحكم السالف أحسن موقع من نفوس الناس . ولا شك ان في هذه الأحكام عبرة لمن يخرجون على قواعد الشرع والقانون ويشعبذون لاكتساب المال واستعباد الخلق . واظن النور اذا عم الأقطار لا يقوم بعد الآن سليمان المرشد ولا طه أبو الورد بمثل هذه الدعاوي الكاذبة ، قبحها الله وقبح في الأكثر من يوافقونهم على مخرقتهم وضلالتهم .

القضاء أيضاً

عرضت في هذا الكتاب للقضاء والقضاة أكثر من مرة . وسلامة القضاء هي الدعامة الأولى في ارتقاء الامة . ولقد حرت وأنا ارقب سير القضاء في ارضنا منذ وعيت على نفسي فما اهتديت الى تقرير خطة ناجعة لتقويم هذا الخلل الظاهر فكاد اليأس يقضي على آمالي في اصلاح القضاء .

وآخر ما بلغني من حوادث القضاء حكم قاض في احدى العواصم باقرار عقد بين زوجين ليس في قوانين الأرض والسماء ما يوافق عليه . ذلك أنه قضى باجراء عقد فتاة في السابعة عشرة على رجل في الثالثة والستين ووالدة الفتاة لا تتجاوز الاربعين أي أن عريس الزوجة يصلح جداً لها . وأبوها ذو سعة من المال وابنته جميلة وطلابها غير قليلين فما نفع القانون الذي يحظر مثل هذه العقود ولا نفع نصح الناصحين لوالدي الفتاة ولا للزوج . وراح القاضي بالرشوة التي تناولها يقر ما لا يقره العقل ولا الشرع وارتكب هذا الاثم الذي كان أقل ما ينجم عنه امتهان الفضيلة ونسل فاسد يأتي من هذا الزواج العجيب .

أيها المهيمنون على القضاء ارحموا الخلق واطردوا هؤلاء الفاسدين الذين يحكمون هذه الأحكام الجائرة باسم الدين فأقل ما يجب عليكم أن تسوقوا اولئك الطغاة من القضاة الى الامتحان وتنظروا نظراً بليغاً في سيرهم وسيرتهم ان سوء حال القضاء لم يعد سراً من الأسرار فاضربوا رؤوس القائمين به بعصا التأديب الشديد ليكونوا عبرة العبر .

رأى سديد

ليت الامير فيصل بن الحسين (جلالة ملك العراق فيصل) في الاحياء اليوم ليرى تحقيق رأيه الذي ذكره لي في كتاب من باريز يوم ٤ مارس ١٩١٩ وهو ان الامة الاميركية والامة البريطانية معنا وسنصل الى ما نحن نتمناه ان شاء الله تعالى ، حقق الله هذه الامنية بعد مرور نحو ربع قرن واستقلت سورية وكانت صورة استقلالها من أجل صور الاستقلال وامتنها وأحسنها . وفي هذا الكتاب برنامج ما يجب الجري عليه في الشام من دعاية معتدلة لا تمس حكومة من الحكومات وكان كل ما قاله سديداً وأنا أقر هنـــا بأني كنت أشك في بعض اقواله ولكن الأيام أثبتت أنه كان يعرف ما لا نعرف وكان لا يرى أن يبوح بالحقيقة كلها ونحن كنا على احر من الجمر لنعرف مصيرنا . قيدت هذا هنا لاخلص منـه الى القول بان ما يعرفه الملوك قد لا يعرفه السوقة . رحم الله الملك فيصل عداد حسناته وأياديه البيض على العرب .

غش سياسي

قال العلامة محمد علي علوبة باشا : أعلن لورد كرومر ان التعليم في مصر يجب أن يكون وسيلة لتخريج الموظفين فقط وان البلاد ليست في حاجة الى العلم الواسع أو الى الاكثار من التعليم بوجه عام . وقال كرومر يوم افتتاح الجامعة المصرية القديمة ان التعليم الابتدائي أجدى على المصريين من التعليم العالي في الجامعة .

وكل هذا يعد في باب الغش السياسي وقد شهدنا من الدولة التركية اموراً كثيرة من هذا القبيل كانت تجوز على العرب لضعفهم مثل قول وزارة معارفهم الى مديرها ان المعارف عند مسلمي الشام كثرت كثرة زائدة فأسع الى أن تؤخرها لا ان تقدمها وكان الأميون يومئذ في أرضنا ثمانية وتسعين في المئة . لعن الله السياسة كم تبدل الحقائق وتحيد عن العقول .

ذكر لي أحد رجال السودان أن الحكومة الانكليزية لا تخرج في كلية غوردون من الشبان الا من تجد لهم عملاً من الاطباء والحقوقيين والقضاة وغيرهم ويقولون انهم اذا أكثروا من المتعلمين يقعون فيما وقعوا به في مصر مع الشبان المتعلمين الذي يزيدون عن حاجة الحكومة فهم لا يبغون ان يخرجوا اهل شغب ودعاة ثورة وسخط .

الاسماعيليون وامامهم

أهدى الاسماعيليون في الشام زعيمهم آغا خان (وعددهم كما يزعمون يزيد في العالم على عشرة ملايين والذي عليه العقلاء انهم لا يتجاوزون المليونين) في عيده الماسي ماسة عظيمة زنتها توازي زنة جسمه وكان أهدي اليه في عيده الذهبي وزنه ذهباً (٢٥ الف جنيه ذهب) .

يهدي الاسماعيليون في ديارنا هذه الهدايا العظيمة لزعيم يعد من أغنى أغنياء العالم وهم في ذاتهم من أفقر فقراء العالم تفانوا في تمجيده حتى خرجوا على نظام العقل . وأذكر أن والدة هذا الزعيم زارت سلميه مرة وهي قاعدتهم وعشهم فكان الاسماعيليون يقبلون الارض التي وطأتها مركبتها أما من أسعده الحظ فقبل يدها أو رجلها فقد كتبت له سعادة الدارين . ربما انكر ما وقع ويقع بعض خواصهم ممن يخجلون من هذه السخافات والأمر صحيح لا سبيل الى إنكاره ولا يزول تكراره الا بالمدرسة والكتاب وأرجو ألا يمضي جيل واحد حتى يصبح أهل الاسلام بمعزل عن مثل هذه الخرافات .

محسنان مصريان

الاول أحمد تيمور باشا والثاني قليني فهمي باشا كان الاول يعطف كثيراً على من قعد بهم الدهر وأصابتهم الشيخوخة يرسل وكيله رأس كل شهر ومعه كيس من الجنيهات المصرية الذهبية ويدفع لكل واحد ما يكفيه وأسرته وقد حلفهم أن يكتموا ما يصلهم منه فما امكن الا انتشار فضله بعد سنين فساءه ذلك وقطع صلاته وادعى أن أطيانه خسرت وريعها ما عاد يوازي نفقاته . وبعد مدة صارت تأتيهم الحوالات المالية من احدى المصارف ولا يعرف المصرف ولا من صرفت بواسطته من عماله ولا المصروفة له . أما سائر صدقاته السرية فعجيبة من العجائب . وخزانة كتبه التي أعطاها للامة المصرية واشتغل بها طول حياته وحوت من الامهات النادرة والمخطوطات الفاخرة كل ثمين فقد قدرت بمئة الف جنيه .

أما المحسن الثاني قليني فهمي فانه يملك في مفاغة من بلاد الصعيد ستمائة فدان قسمها بين اسرته وبين أمته فاعطى الاولى نصفها ووقف القسم الثاني على مدرسة ثانوية ومدرسة ريفية وجامع وكنيسة وجعل سرايه في حلوان مستشفى . تيمور فيما قيل كان يملك اربعة آلاف فدان أعطى جزءاً منها للخيرات وقليني يعد رجلاً مستوراً فنزل عن نصفها وكلاهما في المكارم فرسا رهان . لو كان أغنياء المصريين يسيرون على هذه السيرة الحسنة مابقي في مصر فقير ولا جاهل ولا مريض فسبحان الملهم .

التاريخ الهجري

رأيت منذ خمسين سنة ان التاريخ الهجري كاد ينسى في ديارنا واعتمد العلماء والحكومات والتجار وغيرهم على التاريخ المسيحي فكان يشق عليّ هذه الاهمال واغضب لعدم حرصنا على مقدساتنا وقد وفقت فيما دعوت اليه وعادت الحكومات وغيرها في مصر والشام الى التاريخ الهجري تكتبه مقروناً الى التاريخ المسيحي .

وممن ناقشني في ذلك صديقي واستاذي العلامة الدكتور صروف منشيء المقتطف كتب الي من مصر يوم ١٠ جمادى الاولى ١٣٣٢ ما يأتي : جاريتك في التاريخ الهجري ولكن يا اخا العرب لا يثبت في الارض الاما ينفع الناس والتاريخ الذي جرى عليه اصحاب الملايين والاساطيل والمدارس والمكاتب والمعامل ارباب العلوم والفنون وأهل الجد والاجتهاد والخمس مئة المليون سكان اوربا والمئة والخمسون مليوناً سكان أميركا ، هذا التاريخ لا فائدة من تركه ولا يحتمل أن يزول وقد جعلت الصين واليابان تستعمله وكان العرب في اول عهدهم يستعملون تاريخ الاسكندر لانه كان شائعاً ولم يروا في ذلك ضعة اﻫ .

ونحن نستعمل التاريخ المسيحي ولا يجب بحال أن نتخلى عن تاريخنا .

ادعاء الشرف

في الحديث الشريف : « ملعون بن ملعون من انتمى الى غير ابيه أو ادعى الى غير مواليه » :وفيه : « خيار الناس في الاسلام خيارهم في الجاهلية اذا فقهوا » « وفيه الناس كالابل ترى المئة لاتجد فيها راحلة . » وبعد فقد كثرت دعوى شرف في دولة العجم ودولة الترك في القرنين الاخيرين حتى بلغت مبلغاً من السخف عجيبة ، وغالى الناس في النسبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام مغالاة خرجوا بها عن المنطق . وانشأ من صحت انسابهم يستنكفون من ادعاء الشرف ويتحامون الظهور به في الملإ

مما حاضرت به في المجمع العلمي العربي في موضوع انحطاطنا ان قلت فيه : ولعله كان من فرض الخليفة الثاني العطاء للمسلمين أول خطوة خطتها الامة نحو الكسل . وبالعطاء خرجت التجارة من ايدي العرب على ما كان تنبأ بذلك أحد كبار الصحابة واغنيائهم حكيم بن حزام . اتكلت الطبقة الذكية على بيت المال يرزق منه كل من كان ذا شرف وسابقة ، ومعنى الرزق من بيت المال الانقطاع عن العمل الشخصي المثمر وانتظار آخر الشهر على الغالب لقبض الراتب . وكان كل من يمتّ بصلة القرابة إلى آل علي أو آل العباس مثلا يجب على الدولة ان تحبوه وذريته كل مالطمح نفسه اليه . حتى إذا كان العهد العباسي الاول أصبح ابناء الدعوة وهم يستأثرون بجزء من الجباية والخراج يتناولونه عفواً صفواً ، ونما أولاد العباس نمواً هائلاً حتى بلغوا في مطلع القرن الثالث ثلاثة وثلاثين الف انسان يعيشون من بيت المال . ومن ضمن له عيشه على هذه الصورة ، لايحتاج لان يعمل بيده ولا بعقله ، ويجد من وقته فراغاً يصرفه في شهواته ولذاته ، والنساء من أجمل مايلهو به ويعبث .

وكان في مكنة الموسع عليه ان يقتني من الجواري مايطيب له ، وان يجمع بين أربع زوجات مهيرات ، ينسلون أولاداً يدفعون بهم الى الخادمات يربينهم والى مختلفات الدم والجنس يرضعنهم . وبديهي أن يكون من تلك البيوت المركبة تركيباً غير طبيعي بؤرة تحاسد وكيد ، لحرص كل زوجة على أن يكون لاولادها لا لاولاد ضرتها الشأن الاول في البيت . نعم عاشت الطبقة العالية المجمع على مكانتها هذا العيش الخضال ، لم يفتها شيء من مباهج الحياة الا متعت به سواء أحله الدين أم لم يحله ، هذا وهي ترزق من مال لم تتعب في جنيه ، وهو في ذاته مرصد لمصالح المسلمين فقط ، وربما اعتقد بعض أهل هذه الدولة في سره أن المملكة مزرعته واهلها عبيده ، وعلى المولى أن يستحصل ويجد ، وعلى سيده أن يستهلك وينعم . تأصل خلق الاستجداء في هذا الفريق من ورثة الحسب والنسب حتى وهم الواهمون ان هذا العطاء غير معيب وهم لايتعلمون ولا يتفقهون ولمَ يتعلمون وهم ورثوا الشرف في دمائهم وصفت فطرتهم فغدا العلم في متناولهم وطبيعي التنقل في بيوتهم! اه وكان في ردهة المحاضرات شخص من ادعياء النسب ، والناس مصدقون بانسابهم ، فاغتاظ وظن أننا نتحامل على الاشراف ونزيف الانساب وما فهم من كلامنا غير ذلك .

كان القوم على العهد العثماني يتفانون في اثبات شرفهم في سجلات وحجج ويشهدون من يشهدون على انهم من السلالة الطاهرة وزادهم استماتة في هذه السبيل كون هذا النسب ينجيهم من الخدمة العسكرية واذا قيل الخدمة العسكرية يومئذ فمعناها الموت ومن نجا منه فبالمصادفة وطول الاجل . فكثرت لذلك العمائم الخضر ، وكانت شعار الاشراف في بعض القرون والدول ، واصبح الامر على غاية الأخلوقة وكان اكثر من خمسة وتسعين في المئة من ارباب هذه العمائم اميين جهلاء لايعرفون حراماً من حلال ولا يحترفون حرفة يعيشون بها ليس لهم من دعواهم او الدجل والشعوذة .

ولو جئت تسأل احد أصحاب الخضر اي صفة بقيت لكم من صفات الشرف بالله عليكم ، وهل هـذا الذي انتم عليه هو شرع جدكم الذي جاء به للابيض والاسود والاحمر والاصفر ، وابلغه لآل بيته وللامة اجمع ؟

وما اعجبتني قط دعوى عريضة   ولو قام في تصديقها الف شاهد

ولاة العثمانيين

جاء من الولاة العثمانيين في العهد الاخير من اخلصوا في خدمة الولاية التي وسدت اليهم وفي مقدمتهم مدحت باشا في سورية فانه كان مجدداً وحرص على ادخال ولايته في التمدن وعمل في اشهر ما لم يعمله غيره في السنين الطويلة ومنها ما كان ينكره بعض المتعصبين ومنها ما كان يصفق له بعض الاذكياء المتنورين ولو كانت نية الدولة يومئذ ان تدخل في المدنية حقيقة لتركت امثال هذا الرجل سنين في عمالته يعالج اصلاحها ولكنها كانت تبيت له القتل وقد قتلته بالفعل في سجن الطائف وقيل انه قال ذات ليلة في مجلس شراب : أنا خالع الملكين وأبني لهما ثالثاً ، وأظن هذا الكلام مما تقوله عليه المنافقون ولو لم يكن لمدحت باشا في الديار الشامية إلا أنه وضع أساس التعليم الابتدائي فيها لكفاه منقبة . وجاء الصالحون من الولاة وما كانت اعمالهم توازي شهرتهم ومنهم حمدي باشا ورؤوف باشا وغيرهما . ومن اعظم ولاة العثمانيين في العراق داود باشا عمل في العلم والصناعة ماعمله محمد علي الكبير في مصر إلا أن عمل هذا استمر وعمل داود باشا انقطع بعده كما انقطع عمل مدحت باشا في الشام .

غش شعراء

القيت محاضرة في حلب (٢٣ شباط ١٩٢٣) كان موضوعها سيف الدولة قلت فيها انه كان الى جهاده في غزو الروم والدفاع عن بيضة الاسلام ظالماً مسرفاً في المال يستصفي أملاك الرعية ويصادر أموالهم ويبني الدور والقصور ويظهر من الابهة والبذخ ما يعجز عن مجاراته ملوك العباسيين والامويين والفاطميين فانه احتفل بعرس أولاده وأولاد أخيه فانفق فيه سبعمائة الف دينار توازي قيمتها بسكة زماننا سبعة ملايين دينار ، وان قاضيه أبو الحصن كان إذا مات أحد أخذ تركته لسيف الدولة وقال : كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك . وكان يصادر التجار بألوف الالوف . ونقلنا ما قاله ابن حوقل من أن بني حمدان أكبوا على نصيبين ، وكانت تضمن بمائة الف دينار ، بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى أن حمل ذلك بني حبيب وهم بنو عم بني حمدان الى ان خرجوا بذراريهم ومواشيهم وثقلهم في اثني عشر الف فارس إلى بلد الروم فتنصروا باجمعهم وعادوا الى بلاد الاسلام على بصيرة بمضاره وعلم باسباب فساده ، وقلوبهم تضطرم حقداً فلحق بهم كثير من المتخلفين عنهم فشنوا الغارات على بلاد الاسلام وخربوا الضياع ودكوا أسوار المدن .

افضت في هذا كما افضت بافضال سيف الدولة على الآداب حتى صارت حضرته بمن ضموا اليها من عظماء الشعراء والادباء والعلماء كحضرة بني العباس . فاستعظم بعض أدباء الشهباء ما قلته واستبعدوا أن يكون سيف الدولة على ما وصفت من ظلم واسراف ، والسبب في انكارهم انهم لشيموا بما قاله ابو الطيب المتنبي في سيف الدولة فظنوا كل ما قاله فيه حقاً وصدقاً . وفاتهم اغراق الشعراء على الدهر في المديح والهجاء الى ما لا يقبله العقل . خلع المتنبي من الصفات على سيف الدولة اضعاف أضعاف ما يستحق فجازت

مبالغاته على من يأخذون الامور على ظواهرها بدون نقد الشعر . عاطفة وأدب لا تؤخذ منه حقيقة الرجال ولا تاريخ بلادهم الشعر كذب والتاريخ حقائق وشتان بين المذهبين . وسيف الدولة حوى شخصه النقيضين أيضاً ويحق ما قاله فيه مسكويه لمامات : « بكت الأمة منه وعليه » .

في خمسين عاماً تبدلت أساليب الشعر ومراميه وأخذت النفوس تشمئز من سماع شعر المديح ، وتتأفف من المداح ، حتى كاد هؤلاء أن لايجدوا من يستمع الى نفاقهم ، وبطل ذاك الزي البالي الذي كان قروناً لايعرف من الشعر غيره ولا يهتز الاغبياء والاذكياء من الامراء لسواه . واليوم ترى أكثر الأدباء يستظهرون من الشعر ما فيه وصف الطبيعة او ما ضم نكتة وغزلاً وقل أن يحفظوا شعراً فيه اكاذيب ، كان الشعراء يستجدون بها ويصفون العادل كما يصفون الظالم وينوهون بالجاهل ولا ينوهون بالعالم فالحمد لله على هذا التوفيق في تبدل الافكار ومعرفة الأدب الحق .

الجنرال سبيرس

هو رئيس البعثة البريطانية التي دعيت باسمه وانتدبت على سورية ولبنان بين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٤ وهو أول وزير بريطاني في هذه الديار . عطف عطفاً عظيماً على السوريين واللبنانيين وكان أول من عاونهم على نيل استقلالهم فله المنة العظمى عليهم لنزعه ربقة الاستعباد الفرنسي عن أعناقهم ، وامتاعهم بحريتهم السياسية وسيادتهم القومية ، ناضل بشخصه وماله حتى تم مصير بلادنا كما أراد وأرادت دولته .

في رجال السياسة من يعملون سراً ومنهم من يعمل جهراً والجنرال سبيرس المحبوب عمل لتحريرنا في السر والعلن كل ما اقتضى الواجب لانصافنا من خصمنا . فهو من الطبقة المختارة من السياسيين الذين يحسون ألم المتألمين من الشعوب ، ويسخرون أنفسهم أو يسخرون حكوماتهم لامتاع المستعبدين باستقلالهم .

تفضل هذا الجنرال ودعاني الى قصره بدمشق مع من دعا من رجال سورية فتعرفت اليه والى السيدة قرينته الفاضلة واعجبت بأدبه وتواضعه وصحة احكامه وسلامة مقاصده ثم اقتضت عادتي الابتعاد عن مجلسه العالي حباً بالا أكون شاغلاً وقته الثمين الذي كان يصرفه في خيرنا .

لم يسعدني الحظ ان ادرس سيرة كثيرين من عظماء الانكليز مع شدة اعجابي بهم ، والقليل الذين امعنت النظر في حياتهم أنبأوني بان رجال بريطانيا العظمى نمط آخر من رجال الدول . ولا امثل لذلك الا برجلين كبيرين احدهما في الادارة وهو لورد كرومر عميد انكلترا في مصر ، والثاني في العلم وهو السير ويلكوكس المهندس الذي اسدى لمصر والعراق يداً لا تنسى لاغناء القطرين . لا جرم ان امة تنبغ مثل هذه العظيمين في قرن واحد حرية ان تعد امة عظيمة . وصاحبنا الجنرال العظيم هو أيضاً من افراد الدهر في السياسة الذين يلحقون بلورد كرومر والسير ويلكوكس . متعه الله بالصحة واجرى كل خير للانسانية على يده الكريمة .

الدم الطاهر

فرّ السيد عبد الرحمن الكواكبي من حلب الى القاهرة في العقد الاخير من سلطنة عبد الحميد الثاني العثماني خوفاً مما كان يتوقعه من جور الاتراك ، وجاء مصر ونشر في جريدة المؤيد مقالات في الاستبداد كان لها وقع حسن عند أعيان البيان في ذاك الزمان ، لما حوت من امتاع وابداع .

ثم رحل الى اليمن يحمل فكرة انشاء دولة عربية ، وقاسى أنواع العذاب ، وقطع صحراء الدهناء الصعب اجتيازها على الطيور فضلاً عن الآدميين ، فبلغ السلطان خبره وبث العيون والارصاد للقبض عليه ، فسلم السيد من أيدي زبانية الملك وعاد الى مصر ، وهنا نشأت لي معه صداقة وأخذت من تجاربه وحكمته .

وجاءني ذات ليلة يسمر معي في داري مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرني في أمر عظيم ، قال إن الخديوي عباس عرض عليه أن يصحبه الى الاستانة ، وكان الخديوي يصطافيها ، ليقدمه الى السلطان العثماني ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادّة ، ويطمئن خليفة الترك اليه . فصعب عليّ وعلى رفيق بك ابداء رأي في موضوع جدّ خطير كهذا ، لأن ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا أنه حائر في أمره بين القبول والرفض ، وأنه شعر بالامس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا .

وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي الى داره فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول قم يا كرد علي فان صديقك أبي مات ، فاضطربت اضطراباً قلّ أن

اضطربت مثله ، ودخلت على الرجل فسجيته بيدي ، ومن الغد دفناه بمشهد حافل وأبنته الصحف تأبيناً قدرته فيه قدره . شغل أصحابنا هول الفجيعة ، وذهبوا الى أن الكواكبي مات مسموماً واستبعد بعضهم ذلك . وكان الناس يتهمون عبد الحميد بأنواع من التهم ، وكان بعض من اقتربوا منه يبرؤونه مما يرمى به . والغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكبي وأراد القضاء على أفكاره المضرة ، فارسل مدير معارف بيروت عبد القادر القباني يأخذ اوراقه ، ويرضي أسرته بمبلغ من المال ، فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة ، أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التي بدأ بوضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته ، واسمه (المظلمة لله) ، وكان سياسيا كسائر ما خطته يمينه .

فقدت الامة العربية بموت الكواكبي رجلاً قوي الشكيمة ، نادر الشكل في الرجال ، بعمله وبعد نظره ووطنيته . غادر هذه الفانية قبل أن يستمتع بجهاده (كان في الثالثة والخمسين من سنه) وكان يعرف من انحلال المملكة العثمانية ما لم يعرفه إلا أفراد ، ورزق من الشجاعة ما عز وجوده في الخلق ، وكان يعتقد أصدق اعتقاد في دعوته ، ويتجلى النبل في حديثه ، والاخلاص في حركته . ولا عجب فهو سليل بيت شريف أخرج للامة علماء أجلاء على الايام ، ومنهم السيد مسعود الكواكبي شقيق السيد عبد الرحمن ، وكان هذا يقول لي أن شقيقه مسعوداً أعلم منه ، وقد كتب لي الحظ الاوفى أن زاملته سنين في المجمع العلمي العربي ، رأيته فيها ورصفائي مثال العلماء العاملين الذين ذكرت كتب الرجال تراجمهم العظيمة ، وكانوا ممن اعتز بهم العلم وارتقى الفكر الاسلامي .

حلت روح هذين الحبيبين الشقيقين والحبرين الكاملين فما سقطت فيهما على عيب من عيوب الآدميين ، جل الصانع ! وسجلت أنهما تقدما جيلهما في كل معاني الفضل والنبل ، وما أسفا إلى أن يعيشا كأكثر أبناء الفقهاء عيش التوكل والخنوع ، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويجمعون من حطام الدنيا ما وصل الى ايديهم . الدم الطاهر ينمّ عن صاحبه كيفما تقلبت به الاحوال ولا يحتاج الى من يدل عليه (ان غاب عنك أصله فدلائله فعله) .

الافراط في الكرم

قال لي الاخ فارس الخوري انا أعرف أن رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) صديقك ويستمع لنصائحك فهلا نصحت له بالكف عن هذا الاسراف الذي يسرفه بماله ، ولسان حاله انه المجد ، وأي مجد إذا جاع ابناؤه بعده ؟ فقد باع بالامس غيضة حور بألف ذهب عثماني ، واظنه انفق اكثر ثمنها حتى الآن . فقلت له انك تعرف أن رئيسنا عاش في بيت ماراى فيه غير المكارم والصدقات ، فقد كان أبوه كريماً ولكن بمقياس صغير ، أما جده فكان مضرب الامثال بكرمه ، فرجل نشأ هذه النشأة يستحيل ان يستمع لنصحي أو نصح غيري . ثم أني اعلم ويعلم العارفون عن يقين ان الرئيس انفق في سبيل القضية ارثه من أبيه وانه جاءته ايام كان فيها مضيقاً جداً ، وهو لايقطع صدقاته وادراراته عمن اعتادوا التبلغ بماله ، فكان يستدين وينفق على بيوتهم ، فالكلام في الاقتصاد لايجدي فتيلاً مع هذا الرجل ، وكل ميسر لما خلق له .

السيد خالد العظم

جاءني أحد كتاب الصحف الدمشقية يلتمس حديثاً ينشره في جريدته فاجبته الى طلبه ، وان كنت من أ كره الناس لمثل هذه الاحاديث ، ولايضايقني أ كثر من الصحافيين والمصورين . وجرنا الحديث الى ذكر رئيس الدولة السابق السيد خالد العظم فسألته ماذا تعرف عنه ؟ فسكت كأنه لا يعرفه إلا بالاسم فقلت له وانت تشتغل بالمصالح العامة ؟ اما بلغك ان السيد العظم عف عن راتب الرئاسة ولم يدنس بالنفقات المستورة ؟ وانه انفق من ماله عشرين الف ليرة سورية على الولائم والدعوات باسم سورية مدة سبعة أشهر ، وكان مثال الحاكم العادل في رياسته دفع غوائل كثيرة عن بلده ، ومنها لما نقل مدير مصرف سورية ولبنان أموال فرع دمشق الى زحلة ، وبالطبع كان موعزاً اليه بعمل ذلك من المحتلين فهدده ابن العظم أن يعيد الاموال في الحال والا يرسله الى السجن فاعيدت ، عمل هذا وقال الذين ادعوا ان الاموال تحفظ هناك ليس بصحيح فهذه اموال سورية إذا نهبت فلينهبها ابناؤها الذين جمعت منهم فهي مالهم لاينازعهم فيها منازع . والثانية أن الانكليز لما احتلوا سورية وطردوا الفرنسيين الفيشيين منها جاءه أحد رجالهم يحمل دفتراً فيه مئات من أسماء أهل دمشق وغيرها وطلب اليه نفيهم او تسليمهم للبريطانيين بدعوى انهم أعداء بريطانيا العظمى فتبسم السيد العظم وقال لمخاطبه ليس عندكم هنا أعداء بل أحباب ، ومارُمي به هؤلاء المتهمون لا اصل له الا في مخيلة اصحاب الاخبار وكتبة التقارير ، وتناول الدفتر منه وطواه ، ولم يظهر عليه احداً أسدل الستار عن تلك المأساة المنتظرة هذا الى غير ذلك من مآثره في

نهضة البلاد الصناعية والاقتصادية وكان كل ما يأتيه في حياته يقصد به النفع العام. ينفق من ماله مغتبطاً ولا يقول ولا يتبجح. وهذه الامور بلغتني بعد حين من بعض الاصحاب وذكرتها له فسكت خجلا لفرط ادبه وتهذيبه.

هذا الى صدقاته السرية والرواتب التي يدرها على ذوي الستر من المحاويج والمعوزين فلو كان على رأس ابن العظم قبعة لرفعتم من شأنه ولغنيتم بمآثره ولكنه مسلم وعلى رأسه طربوش وعجيب ان تنسوا أو تتناسوا مثل هذه الشخصية، ولكن زامر الحي لا لطرب مزامره.

اختيار الوزراء

لم تظهر لي الحكمة في نصب وزراء ضعاف من الفريق الذي عرا من كل تجربة في الادارة والسياسة. والأحجى الا يعهد بوزارة الا لمن سبقت له خدمة في أعمال حكومية لا تقل عن عشر سنين، أو من أسلم الى التمرين مدة طويلة فأثبت خلالها كفاءة عملية مضافة الى ما هو مجهز به من شهادات

بالجهل لا تدار وزارة بل لا يدار ديوان صغير، وعجبنا أن رأينا في هذا العهد تساهلاً في اختيار الوزراء، وغاية رجائنا أن يكون هذا الحكم سالماً من الشوائب، تدير دفته فئة صالحة من المصطفين الأخيار. ونحن أحرار في اختيار الأصلح للخدمة لا تنازعنا هذا الحق دولة ولا جمعية ولا حزب، وعلينا تبعة من نقرب ونقصي، ومصلحة الامة فوق كل مصلحة. ومن يتحرى الأنسب يظفر به، ومن حرص على الحسن يصل اليه.

قد عرفناك باختيارك اذ كا ... ن دليلاً على اللبيب اختياره

المؤلف الشاب

الى ابني الروحي صلاح الدين المنجد : عجبت لما نزلت لك عن صورة مخطوطة من كتاب رسل الملوك لابن الفراء وكان عليك ان تعجب ان لم ادفعها اليك . كنت في كل زمن أرى الضنانة بالعلم ابشع انواع الضن ، والكتاب سواء نشرته أنا أو طبعه غيري فالمهم ان يصدر للناس وينتفعوا بموضوعـه الطريف . وقد وفقت ونشرته في حلة انيقة ، وعلقت عليه ما زاده امتاعاً ، واتبعته بملحق اماط النقاب عن حقائق جمة جاء أكثر فائدة من الاصل . حليت الغامض وبسطت المجمل فجزاك الله خيراً عن العلم .

اني ما زلت اعجب بمن يعرف واجبه ، ولو كان في مؤلفينا الشباب كثيرون مثلك يقومون بواجبهم لكانت الشام اليوم ارق من مصر . سر في سبيلك ولا تتاون لحظة عن متابعة ما أنت بصدده ، فقد استعددت لما تخوض عبابه وستستعيد مجد الاجـداد وتثبت انك ابن عبد الله شيخ القراء في دمشق عليه الرحمة .

كبار الصحافيين

اقيمت في دار الاوبرا الملكية في القاهرة حفلة لتأبين صديقي الاستاذ داود بركات رئيس تحرير جريدة الاهرام ، وتفنن الخطباء والشعراء في ذكر صفاته وذكروا فجيعة الامة به ، واثبتوا انه ممن وقع الاجماع على حسن بلائه في خدمة مصر نحو اربعين سنة ، اخلص لها في سره وجهره ونفعها بنبوغه وصفاء نفسه وحبه للخير .

وقد اقترحت في تلك الحفلة وضع كتاب يلم فيه بجهاد المؤبن ويذكر طرف من منازعه ونموذج من مقالاته ، وبعض آراء كبار رجال الفكر فيه ، فوعدني صاحب الاهرام يومئذ وكان حاضراً بانفاذ هذا المقترح . ومضت اعوام ومات صاحب الاهرام والكتاب لم يصدر ، ونسي داود بركات فلا يذكره اليوم الا بعض من عرفوه ، وهذه عاقبة التعب في الصحف اليومية يذكر الصحفي ما دام حياً والقوم محتاجون لقلمه ، فاذا مات ينسى في امته التي ينسى فيها كل شيء بعد حين .

قال لي داود بركات عليه الرحمة في سنة ١٩٠١ ونحن في المحجر الصحي في بيروت وقد بعدنا عن مصر وانقطعت اخبارها عنا ثلاثة أيام ، والقلق باد على وجهه : بالله عليك لم لا تمنيني انباؤها وكل ما فيها يطربني ، أطرب لعشرة اهلها واسعد السعادة في سعادتهم واطرب لنغمتهم ولهجتهم ولسكونهم وحركتهم بل أطرب لحيوانهم وجمادهم .

هذا الرجل الذي يحمل مثل هذه العواطف الشريفة لمصر اصابه ما أصاب الصحافي ، ينوه به في حياته فاذا غاب عنهم يقلون من ذكره اليوم بعد اليوم ولو كان من عيار هـذا العظيم بعلمه وأدبه وأخلاقه وصدقه ، ومن أجل هذا كنت كثيراً ما أقول لمن صرفوا جهودهم في الصحف وكتبوا فيها

المقالات الممتعة وافادوا بما كتبوا أدب العصر وسياسة العصر امثال داود بركات وشكيب ارسلان وخليل مطران وامين الرافعي وامين الجميل وخليل زينية وابراهيم سليم النجار وجبران تويني ويوسف العيسى ونجيب الريس ومعروف الارناؤط وامين سعيد واضرابهم من الشاميين والمصريين — ان يدخروا اشياء من محصول اقلامهم لتكون لهم ذكرى ولمن بعدهم تعلية وسلوى .

دهاء الانكليز

يوم ضرب الفرنسيس مدينة دمشق في الثورة السورية كان احتجاج قناصل الدول شديداً جداً على فرنسا ، وكان العامل الأكبر فيهم صديقي المستر سمارت قنصل بريطانيا العظمى ، ولئن انتهى هذا الاحتجاج باستدعاء القناصل كلهم من عاصمة الشام فقد أورثهم احتجاجهم مكانة عظمى لتألمهم للظلم ، وانكارهم تخريب مدينة عظمى مثل دمشق لأسباب تافهة .

والانكليز لا تدانيهم بدهائهم امة ، وقد اشتهروا عندنا بانهم جد اوفياء لاصحابهم ليس من السهل لديهم تركهم وشأنهم بعد الصداقة ، ولا يسارعون الى وضع ايديهم في ايدي غيرهم ثم ينسونهم كما يفعل الفرنسيون . فهم يتريثون في صداقتهم ويتريثون في عداوتهم . وهذا من بعض ما خصوا به من الصفات .

كلمة حق

سألت الشيخ سليمان الاحمد عالم العلويين في عصره عن تاريخ العلويين فاجابني لايوجد (ويا للاسف) وثائق مبعثرة يصح الاعتماد عليها بمثل هذا الموقف الا مايؤخذ من أفواه الرواة واغلبهم اميون ، والتاريخ يتطلب الحقائق المرة والخاصة الموثوق بهم كانوا لايعبأون بالتاريخ عياً أو زهداً قد لايحمدهم عليه اللاحق ولله في خلقه شؤون . وقد استكتبت لكم منه ماقدرت عليه وعلى فضيلتكم الاستنتاج والتطبيق .

اما الكتب فليس هنا منها مايشير الى شيء من ذلك الا مايكتب في تاريخ الكتاب بان يقال وفي هذه السنة حرق الوالي او المتصرف (بدون ذكر اسمه) المقاطعة الفلانية وقتل المقدم الفلاني دون أن يتعرض لسبب ذلك الا مايتخيله بانه من فساد فلان المقدم او الآغا او نحوه . وهذه الكتب اما قصصية ضعيفة العبارة لايؤبه لها . أو مذهبية يضن اهلها حتى على الشمس رؤيتها ، سواء أكانوا على هدى من امرهم ام على ضلال . والكتب القديمة النفيسة ذهبت طعمة للنار والتراب من الاهوال والويلات التي مرت في القرون الاربعة المتأخرة التي يؤلم ذكرها ولا خير في نشرها .

وفي هذا القرن كان أهل الحاضرة يعدون مايفعله جهلة العلويين بفتيا علماء الدين فيعصبونه بهم لدى الحكام ويغرونهم بهم وبالرؤساء ويحرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة . وكان الدين أعظم الوسائط التي توصل الى هذه الوحشية والبربرية (ومن جري ذلك المصاب المعظم الذي وقع على آل سعيد البهلولية من أشرف وأجل بيوت العلويين في حادث سنة ١٢٩٥ فاطلب تفصيله من صديقكم بدوي الجبل) وما كان العلويون ليحملوا وزر مصائبهم على الدولة التركية بل على وجهاء البلد ورؤسائهم

السنيين وعلمائهم ثم على أهل الفساد من مقدميهم ورؤسائهم الذين كانوا لما بين عشائرهم من الضغائن والاحقاد والغارات يسارعون الى الدخول بخاطر الاغوات ثم بخاطر الحكام عن ايديهم . ومن تم له الفوز جردت له الحكومة العساكر الجرارة وسلمته قيادتهم الفعلية فيسطو بهم وبعشيرته على عدوه ، ولا تسل عما تفعل الهمجية ومتى دوخت تلك العشيرة وقتل اشرافها وذلت عاملت الحكومة العشيرة الظافرة نفس تلك المعاملة دواليك حسبما تقتضي سياسة التفرقة والاحوال . ولا أدري الى أي عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي نرجو من الله ان يحسم أسبابها بايدي المصلحين العظام المخلصين امثالكم والتبسط بشرحها لايجدي اولا ينتج الا ان الشرقيين هم السبب الاعظم في بلاء انفسهم وحجة الله فيه على المتسمين بسمات الدين وتلك حزازة في نفوس المصلحين .

والذي أراه أن قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال العلويين حق الرسوخ وخاصة في مقاطعة الكلبية وكانت الحكومة اذا احرجت جرّدت العساكر فنهبت وسلبت وحرقت وفتكت فاذا رجعت العساكر عادت العشائر الى ما كانت عليه بضبط الحاكم الحازم جماحهم . ومتى بدل بحاكم ضعيف الادارة أو مرتش عم البلاء من الرؤساء المفسدة والاشقياء الجهلة .

لما حكم ابراهيم باشا المصري دوخ البلاد وقطع دابر أهل الفساد وضرب الامن اطنابه بحيث لم يكن يسمع في عرض البلاد وطولها سلاب ولا قاطع سبيل فرتع الانام في بحبوحة الامن مدة حكمه الذي كان مع صرامته نموذج العدل والانصاف . فلما دالت دولته حصل من اختلال الاحوال مالا يحصره مثال ومنه ماترى ضمن الرقمة المكتتبة فعذراً ايها الاستاذ العلامة فان التاريخ مظنة الاغفال والاخلال من كمل الرجال فكيف بالمعجزة ضعفاء العبارة مثلي .

مجمع فؤاد الاول

« يامعالي الرئيس و ياإخواني الاعزة

اليوم يودع بعضنا بعضاً ويتفارق الزملاء الى العام المقبل . واني لمغتبط ان كان لي الحظ الأوفى بان رافقت المجمع منذ نشأته ، أيام كنا نجتمع اجتماعات خاصة في احدى قاعات مجلس النواب المفاوضة في قانونه ، وذلك قبل أن يوافي القطر زملائي الاجانب . ومن فضل الله ونحن في آخر دورة الانعقاد الرابع أني لم أتخلف طوال هذه المدة يوماً عن الاشتراك في الجلسات واللجان .

« يا سادتي ان سروري بما وفق المجمع اليه من الاعمال لا يحول دون أن أبوح لكم بما كان يجول في خاطري ، خصوصاً ونحن كأبناء بيت واحد يجب على كل فرد منا أن يعمره بالعمل الصالح . وهذا ما يقيم لي العذر على تصريح ربما كان من الاحجى الامساك عنه . ولكن هو الرأي قد ينفع إذا صدر من صميم القلب . ودخول المجمع في الدورة القادمة في طور جديد يستدعي اعترافنا بقصورنا ، ان كان يصح أن يسمى قصوراً .

« أريد ان اقول اننا في الاعوام الماضية قد أكثرنا على مارأيت من القول في الاحايين ، واشتدت بعض مناقشاتنا الى حد كان يجزيء بعضها ، وربما استغرق الكلام على لفظ واحد ساعة أو بعض ساعة ، نخرج خلالها قليلاً عن الموضوع المطروح للنظر ، ويدخل في صلب المناقشة ما لا يتصل بها بسبب ، فضاع بذلك وقت كان الواجب صرفه في السير الى الهدف الاسمى الذي نرمي اليه ، واذا عرفنا أن مجموع ساعات اجتماعاتنا العامة في السنة لا يتجاوز السبعين ساعة وجب علينا أن نقتصد في كلامنا وحركتنا .

« أنا لا أوجه بهذا القول ملاماً الى احد مادمنا كلنا نهتم لنجاح ما وسد الينا من عمل ، ومادام بلاء كل عضو معروف في الحاضر والغابر ، بيد أني

والحق رائدي فيما أقول ، كنت أرى الجلسات لا تضبط ضبطاً محكماً ، وان الاحاديث كانت تتعاور فيها في آن واحد فيختلط الكلام ولا يستقصى ما يقال برمته ، مما حال دون اشتراك بعض الاخوان في جميع المناقشات ، وهي تحتاج قبل كل شيء الى هدوء وروية .

« ثم إن من المسائل التي أحب المجمع خوضها ، ورسم بعض الخطوط فيها ولم يصل الى نتيجة منها مسألة تصحيح الاغلاط الجغرافية ، وقد كان تعهد أعضاء لجنة الفنون منذ السنة الاولى أن يصححوا الاغلاط الشائنة ، وفوض اليّ ارجاع الاعلام الاندلسية والصقلية الى مصطلح العرب ففعلت ، ورفعت التقرير الى ادارة المجمع والى الآن لم يصدر أمر الرياسة بالنظر فيه ، مع شدة الحاجة الى مثل هـذه الاعلام ، والكلام يجري عليها كل يوم في الصحف .

« أغفلت الرياسة على ما يظهر هذا التقرير اغفالها تقريري الذي قدمته منذ أول الدورة الثانية وقد ضمنته خمسمائة كلمة في الشؤون العامة وشرحتها شرحاً خفيفاً ووضعت لها ما يقابلها باللغة الفرنسية ، وما عرفت لهذا الاغفال علة ودعاني الخوف من أن يأمر الرئيس بطرحها في سلة المهملات الى أن تزودت بنسخة منها . هذا مع ان اقرارها يزيد في محصول المجمع السنوي من الألفاظ ، وأنا لا أقصد بها ظهوراً ولا شهرة .

« ثم ان المعجم الذي هو ضالة المجمع المنشودة لم نسمع عنه سوى ما كتب في المحاضر اياماً وقضينا في الاخذ والرد ساعات لم تسفر عن أثر عملي . وما أدري ان كان بدئ بالعمل به ، أو هو لا يزال في عالم الخيال . واذا لم يبدأ به الآن فمتى يبدأ . واذا استحال اليوم وضع المعجم التاريخي وكان من الصعب تأليف المعاجم السهلة للمبتدئين والمنتهين في اللغـة فلا اقل من ان ننشر بضع كراريس على حروف المعجم في الالفاظ التي وضعها المجمع لتتداولها الايدي ويعرف المجمعيون مقدار وقعها من نفوس العارفين في الأقطار المختلفة .

« اشار الى بعض هذه الامور زميلي الاستاذ نالينو في جلسة الامس لان هذه المسائل هي من العمل الرئيسي الذي انشئ المجمع الملكي لاجله ، لا احياء الادب العربي الذي يسهل القول به ويتعذر اي تعذر عند التنفيذ . وكل من عانى نشر الكتب القديمة يعرف قدر الجهد الذي يبذله كل من يطمح الى نشر نص قديم . ومن أعرف العلماء بهذه الامور اخواننا علماء المشرقيات ، فقد يقضي الواحد منهم السنين ولا يخرج بضع كراسات ورأيت احدهم نشر من كتب العرب بمفرده ما لعجز عن نشر مثله المجامع العلمية بمجموعها في السنين الطويلة ، وما ذلك الا لأن الرجل أخصى في هذا النوع من المعارف ، ومرن طويلاً على النظر في كتب الاقدمين .

« ثم ان مجلة المجمع لم تصل منذ انشئت الى كثير ممن يرجى انتفاعهم بها . وقد ملئت ، ولا عار في الحق ، بأشياء كان الاولى ان نتجرد منها ، واستنزفت صفحاتها على سبيل الاستئثار أو الاثرة ، وحرم بعض الرفاق من المؤازرة فيها . والمقالات والتآليف بامتاعها وفائدتها لا بطولها وكثرة حروفها ، والمجلات تسمو بكثرة الايدي العاملة فيها . ولكم كنت اتمنى لو اصدر المجمع مجلته في مئة صفحة منقحة موجزة وكف عن نشرها في أربعمائة صفحة وطبع منها عشرة آلاف ووزعها مجاناً .

« ساقني الى ما قلت الغيرة على سمعة المجمع والمعاونة على ايصال فوائده الى من يجب ايصالها اليهم . وكل منا ولله الحمد غني عن طلب التمجد بما له من اثر وسابقة . ولذلك ارجو ان يحل كلامي محله من الاخلاص وان يثبت في محضر هذه الجلسة الاخيرة ليكون لنا منه بعض الذكرى في السنين المقبلة ، فندخل الكمال على عملنا ونجوده اكثر مما جودناه ، ونقوم حق القيام بما يفرض علينا لخدمة العرب والعربية . »

هذه صورة التقرير الذي اردت تلاوته فمنعني رئيس المجمع توفيق رفعت باشا ، بما عرف فيه من ادب ، من اتمام قولي ، وامر كتاب الجلسة ألا يثبتوا في المحضر شيئاً مما قلت .

ومن الغريب ان ما شكوت منه في تلك السنة لم يقو الرئيس الجديد على ملافاته والى ساعة دفع هذه الاصول للمطبعة لم يصدر المعجم الوسيط ولا غيره ولم تصدر مجلة المجمع منذ تسع سنين . وجلالة ملك مصر كلما تشرفت بالسلام عليه يقول لي ولبعض زملائي الاجانب ان مجمع دمشق يعمل اكثر من مجمع مصر ، وكلما سمع ذلك أحمد لطفي السيد يتمعض ويغتاظ غيظ الاسير على القد" .

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

شهادة ملك بملك

قال الملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الاردن في مذكراته : دعت الحكومة العثمانية امراء البيت العثماني لضيافة أقامتها كان الغرض منها الفتك بآل عثمان. وقد نمى الخبر على حقيقته الى السلطان عبد الحميد الثاني قبل جلوسه فاعتذر ولم تظفر الحكومة بمرادها .

وقال في السلطان عبد الحميد هذا : ولقد زعم الناس ان عبد الحميد الثاني كان ظالماً . لقد كذب الناس والله لم يكن بالظالم ولكنه الحذر والاحتياط . ولقد عرف بعد أن ذهب أنه لم يقتل أحداً ولم ينفذ حكم الاعدام في محكوم الا مرة واحدة ، وكان المجرمون يتركون في السجون حتى يدركهم الموت وأما الذين ينفون من بلادهم الى اسطنبول أو من اسطنبول الى الخارج فهم اولئك الذين عرض عليه أنهم أهل خلاف عليه أو على سلطانه ، فيخرجهم الى مكان لا يعرفون فيه ، فبقي دولته الفتن بهذا التدبير . وقال في الشام : رفعت الرايات العربية بواسطة الأيوبي (شكري باشا) وموافقة أحمد جمال باشا (لعله جمال باشا المرسيني) القائد التركي المعروف ، وبارادة سلطانية اعلن الاعتراف باستقلال البلاد العربية (كذا) .

الخزانة التيمورية

اشتهرت خزانة العلامة أحمد تيمور باشا في الشرق والغرب لانها انتقاء عالم قضى حياته في جمعها والتعليق على امهاتها ووضع الفهارس التي تسهل الأخذ منها ، كانت أولاً في دار صاحبها في عين شمس من ضواحي القاهرة بجوار دار استاذنا العلامة الشيخ محمد عبده فلما انتقل هذا الى جوار ربه شق على تلميذه تيمور أن يسكن تلك الناحية فنقل خزانته الى قويسنا من عمل المنوفية احدى مزارعه ، وقد دعاني واستاذي الشيخ طاهر الجزائري لنصرف أياماً في قويسنا فقضيناها في البحث في نوادر كتبها يقرأ صاحبها من فهرستها اسماء المخطوطات ، ويرجح الشيخ طاهر النادر والاندر منها ، وأنا أكتب ما يقر عليه القرار حتى تجمع لنا من ذلك مقالة ممتعة في وصف تلك الخزانة العظيمة ، وقد رأيت الخزانة قريبة من عشش الفلاحين في قويسنا وقدرت ان النار ربما تلتهم قصب بيوتهم فتسري الى البيت الذي فيه الخزانة ، فلفت نظر صاحبي الى هذا الخطر فما عتم أن يشرني بانه ابتاع أرضاً في الزمالك من أحياء القاهرة وهو على ان يبني فيها داراً لخزانته ، وما هي الا اشهر حتى تم البناء ونقلت الخزانة الى الدار الجديدة ، ووقف صاحبها أفدنة يصرف ريعها على خزانته . ولما توفي رأى ولداه اسماعيل باشا ومحمود بك ان ينزلا عن الخزانة لدار الكتب المصرية تجعل في زاوية منها فقلّ الانتفاع بها ، وسمعت هذه السنة ان وكيل دار الكتب المصرية اقترح أن تجعل في قلعة الجبل فنقلت الى هناك وبطلت الاستفادة منها ، وما نفع ذلك الوقف وما وقف الواقف .

الاعتراض والدعوى

كنت في شرخ الشباب آخذ العلم عن شيوخ عظام في بلدي على طريقة تخالف الطرق المتعارفة إلى ذلك العهد ، فكان لقائي لهم ، بعد تلقي ما لا بد من آخذه من المباديء ، لقاء اخوان لهم مجلس يجمعهم ، ورابطة تؤلف بينهم ، والندي لايخلو من علم ودرس وتصحيح ، ونقد سياسة ، وايراد نكات وفكاهات ، فكنا تارة نقرأ اعجاز القرآن للباقلاني ونعارضه على نسخ مخطوطة ، وأخرى نتدارس الذريعة الى مكارم الشريعة للراغب الاصفهاني ونصححه على نسخ قديمة غير مطبوعة ، وآونة ندرس مقدمة ابن خلدون درس تدبر عميق وشرح وتعليق .

وكان في البلد عالم جليل يغلب عليه التصوف ، يقرأ في داره لبعض تلاميذه الدروس المعتاد اقراؤها عند مشايخ ذلك العصر ، وكان منهاجه واسعاً مغريا ، والكتب التي يدرسها من أطول الاسفار في فنها . فدخل الغرور بعض طلبته وغرتهم أسماء الكتب التي يحضرونها على شيخهم (المطول والاطول) فراحوا يزعمون أن من لم يقرأ هذه الكتب ليس بشيء ، وترامى الينا أنهم يهزأوون بالكتب التي نقرؤها في مجالس شيوخنا ، وتكرر اعتراضهم علينا ، وعلى حسن أخلاقهم وتصوفهم ، كانوا يستخفون بما ندرس وبطريقتنا بالدرس ، فضاقت صدورنا ، وصدور الشباب ضيقة ، فاطلقنا عليهم اسم (جمعية الاعتراض) ولم ننبزهم با كثر من هذا ، لانهم كانوا من اصحابنا وجيراننا ثم اعرضنا عن اعتراضهم ، وشغلنا بدروسنا ومطالعاتنا .

وما فتيء جماعتنا يتابعون النظر والدرس حتى فرق الموت بين الاساتيذ والتلاميذ ، أما أصحاب الاعتراض فانفضوا من حول شيخهم بعد حين ، واشتغل كل واحد منهم بوظيفته وتجارته وزراعته ، ولم يعاودوا الدرس ولا عادوا يُعملون عقولهم بما تعلموا من الدساتير ، ولا حدثتهم انفسهم بان يتبعوها بشيء من العمل ، ولا بالرجوع الى ما صرفوا فيه أجمل أيام شبابهم من تصفح المطولات . ومضى لهم أربعون سنة أو تزيد لم يسمع لواحدهم خلالها صوت في جامع أو ناد أو حفل يخطبون فيه أو يحاضرون ، ولا عهد لهم أن أنشأوا رسالة أو وضعوا تأليفاً أو نظموا قصيدة يضمنونها أدبهم وعواطفهم لا ان يكتبوا مقالة يتطلبون من ورائها اصلاحاً أو يبثون فيها فكراً . وندموا فيما نظن ، وهم الاذكياء ، على اضاعة اوقاتهم في نقد غيرهم ، وخجلوا من انفسهم لاعجابهم بها أيام الطلب ، وما أجدى عليهم اعتراضهم الا أنه أخرهم عن اللحاق بالعاملين .

أما تلاميذ أولئك المشايخ الذين جعلوا العلم مجلس أدب ، ومعملاً فيه العمليات أكثر من النظريات ، فقد برزوا الى ساحة الحياة وألفوا ووعظوا وتخرج بهم طلبة واشتهروا بدون أن ينظروا في المطول والاطول ، وظلوا على دؤوبهم في طلب العلم الى آخر أيام حياتهم ، وبعضهم اليوم في عشر الثمانين وما برحوا متوفرين على الدرس والتأليف ، وربما كتبت لهم شهرة تفوق شهرة مؤلف المطول والاطول . درهم عمل خير من قنطار كلام ، والدعوى ما أفادت صاحبها قط .

المدنية ابنة الغنى

يقولون ان التجار اغتنموا فرصة الحرب الاخيرة فرفعوا الاسعار على هواهم واغتنوا غنى فاحشاً وظهرت عليهم امارات الرفاهية، على مالم يكن آباؤهم ينعمون ببعضه، وتجمعت لهم أموال عظيمة ما كانوا يحلمون بكسبها حتى أصبح بعضهم لايدري كيف يوظف مايملك، وأكثر مايقال صحيح، ولكن اما كان في اغتناء فئة من القوم فائدة عظيمة عادت على المجموع ببعض الخير؟ نعم كان ذلك والدليل عليه مايأتي.

فصد التجار دم المستهلك باغلاء الاسعار، هذه قضية لاشك فيها، والاسعار ترتفع وتنخفض بقانون طبيعي يزيده أرباب التجارة وينقصون منه إلى حد محدود، إذا عرف هذا فالواجب الا ننسى ان من دواعي الغبطة ان هذه الاموال المتجمدة وهي جزء عظم من الثروة القومية لم تتسرب الى الخارج، وبقيت في ايدي كاسبيها ينفقونها في أرضهم.

قام تجار الحرب بمشاريع عمرانية يستثمرون فيها اموالهم فمنهم من بنى الدور وأقام القصور، حتى كادت بعض مدن هذا الشرق القريب تعد من اعظم المدن الغربية بمظهرها وزينتها، ومنهم من أنشأوا المعامل والمصانع أوجدوا بها خبزاً للعمال، وكفوا طائفة من الفقراء مؤونة التكفف، ومنهم من أنشأ ملاحة جوية أو ملاحة بحرية، ومنهم من تصدق وافضل على الاعمال الخيرية فاقام دور المرضى والعجزة وعاون المتعلمين وبيوت العلم ومنهم من أسسوا الشركات يضمون القوى المبعثرة، ويجمعون من القليل كثيراً، علماً منهم بان الفرد محدود العمل، محدود الربح، عرضة للافلاس والجاعة أقل منه تأذياً بذلك.

المدنية ابنة الغنى كانت تنبعث في الماضي من قصور الملوك ثم تنتقل

الى الامراء والعظماء فالاغنياء من التجار والزراع ، ولولا الغنى ماقام مابنم عن مدنية الاجداد من معابد ومدارس ومصانع وقصور وقناطر وجداول، ولولا الغنى الذي تجمع في أجيال وقرون ما كان في العالم شيء اسمه راحة ورفاهية أو عظمة ومجد . كانت الثروات في الدهر الغابر وقفاً على الافراد قلائل يحتكرون مايشاءون من صنوف الغذاء والكساء وكان من تقسيم الثروة اليوم وتمدد الايدي في استثمارها ، وتفنن القرائح في اتقان اساليبها ماقامت به مشاريع في العمران على أساس ثابت ، ونظام محكم ، ومن اين يكون هذا لولم يربح الرابحون في الحرب هذه الارباح وتنشأ ثروات جديدة ، جمعتها أيد جديدة ، وأحسنت التصرف بها عقول جديدة .

كان الناس اذا اغتنوا يخزنون نقودهم في الصناديق او يدفنونها في الارض ، أما اليوم فالغني لايخاف الاعتداء على ماله اذا هو أدى الواجب عليه للدولة والملة . وكان إذا ظهرت عليه آثار النعم واشتهر بأن في خزائنه ذهباً وفضة يصادر ويعذب ، فغدا لعهدنا مطلق التصرف بحريته ، يعمل ما أراد كيف أراد ، ويجد له من الحكومات من يظاهره على استكمال أسباب اغتنائه . وأدرك كثير من أرباب الثروة الا بقاء لثرواتهم إلا أن يداووها بشيء من أعمال البر ، ويعطوا المجتمع قسطه الذي يستحقه منها .

كنت أشكر مرة لأحدهم تبرعه لاحدى الجمعيات النسائية بمقدار من المال ، وعلى إعطائه مبلغاً عظيماً يصرف في رفاهية المتعلمين من أهل بلده فقال : هذا مايجب ، وصرف المال أو بعضه في مثل هذه الوجوه أحسن لنا لأنا لا نعرف كيف يكون مصير هذه الأموال . وهذا الموسر أعطى بعض المشاريع النافعة مئات الالوف واعتقد أنه يعمل واجباً .

وعلى العكس رأينا ثرياً كز اليدين يطلب إليه الخير فيهرب من مطالبه . وكثيراً ما يعد بأن يعطي مالاً عظيماً لبعض الأعمال المتفق على نفعها ، ويبقى على وعده مدة لا ينفذ قوله ، وإذا سئل عن سبب احجامه عن إمضاء ما وعد به تمحل اعذاراً لا تصدر إلا عن ناقص العقل زَمِن المروءة .

ومن لم يعمل الخير بدافع من نفسه لا تؤثر فيه الدعاية وتحميس المحمسين .

اثرى في الحرب من أرباب التجارات القديمة أفراد ، واغتنى آخرون بالمصادفة كانوا فقراء أو مستورين ، وما احرز رضا الخلق إلا من فكروا في معاونة المحتاجين ، وبذلوا في الخيرات جزءاً مما كسبوا ، يجودون بفضلها على مواطنيهم . والأغنياء عمد المجتمع يفيدون منه ويفيدونه .

ولقد رأيت شعور القوم يقوى حتى أصبحوا يزنون كل إنسان في أدق ميزان ، ويعرفون عيار الناس مهما تكتموا ، وأخفوا ما يملكون وما تصل إليه أيديهم من المشاركة في الخير العام .

مات في الأيام الأخيرة ثلاثة أغنياء ممن جمعوا أموالهم بطرق غير شريفة ، وكان الناس يلعنونهم وهم يُحملون إلى قبورهم لأنهم لم ينفعوا قومهم في حياتهم ولا بعد موتهم . وبئست الخاتمة .

ذيل على أقوالنا وأفعالنا

للغربيين طرق عجيبة في ايصال الخير إلى من يعتقدون أنه ينفعهم من الشرقيين في مادياتهم أو معنوياتهم . ذكر صديقي الاستاذ عبد المجيد نافع في كتابه « السلام الاجتماعي » أسماء الوزراء المصريين الذين أدخلتهم الشركات الأجنبية في مصر بصفة مستشارين أو مساهمين لتعطيهم مالاً ، وتنتفع بحسب الظاهر بآرائهم ، وإن كان بعضهم لا يعرف شيئاً من الأمور الاقتصادية والمالية . فحافظ عفيفي باشا يتولى رياسة وادارة (٣٢) شركة عدا رئاسة بنك مصر ، وحسين سري باشا (٢٧) شركة رياسة وادارة ، ومحمد أحمد فرغلي باشا يتولى (٣٢) شركة ، ومحمد محمود خليل بك يتولى (١٤) شركة وهكذا حال محمد شريف صبري باشا وعلي ماهر باشا واسماعيل صدقي باشا

وعبد المقصود أحمد باشا وعلي الشمسي باشا وعلي أمين يحيي باشا وأحمد عبود باشا ومحمود شكري باشا وسابا حبشي باشا وتوفيق دوس باشا وحسن مظلوم باشا وأحمد صديق باشا وحسن صادق باشا وحسن نشأت باشا من اصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالي والسعادة والعزة وكلهم يتولون بضع شركات تكون جملة رؤوس أموالها من المليون إلى العشرين مليوناً وأكثر. أنشر هذا وإن كنت لا أشك في أمانة بعض هؤلاء الرجال، ولكن رضاهم بتقلد ما يتقلدون موضع نظر، ذلك لأنه من الثابت أن المرء لا يجوّد عملين فكيف يجوّد ثلاثين.

وبعد سنة من كتابة هذا وبعد صدور قانون الشركات في مصر كتبت إحدى مجلاتها الشعبية في معرض الدعابة ما يأتي:

نزولاً على قانون الشركات احتفظ شريف صبري باشا واسماعيل صدقي باشا وحسين سري باشا وحافظ عفيفي باشا ومحمود شكري باشا ومحمد فرغلي باشا وعلي يحيي باشا ومحمد محمود خليل بك وعبد المقصود أحمد بك بالعضوية في عشر شركات لا غير ... وكان كل واحد من هؤلاء عضواً في أكثر من عشرين شركة.

سيدة القرى

هي قرية من عمل المنوفية بمصر اسمها كفر المصيلحة أو المسيلحة لم تحرز مكانة كبيرة بكثرة سكانها ولا باتساع رقعة أطيانها، فأهلها لا يتجاوزون الأربعة آلاف، ومساحتها لا تتعدى الخمسمائة والسبعين فداناً. حصرها أرباب السلطان في هذه البقعة الضيقة، وجعلوا مما جاورها من الأرض وقفاً ميتاً لا أثر فيه للتجديد. عظم شأن هذه القرية المباركة لأنها القرية المصرية الوحيدة التي انتفت منها الأمية بفضل رجل من صالحي أهلها اسمه

« حجازي حجازي حسين عمر » أدرك ببعد نظره ما سيحل بأبناء قريته من مرض الجهل فعالجه بفتح كتاب ينفق عليه من ماله ، وأنشأ يمنح كل طفل يداوم على الكتاب دريهمات وحلويات ترغبه بالتعلم . ونشأ ابنه وهو العلامة عبد العزيز فهمي باشا على قدم أبيه ، ينشط أهل القرية على العلم فأنبغت قريته المحامي والقاضي والمهندس والاداري والسياسي والطبيب والاديب وكان من أهلها خمسة وزراء أجلاء منهم أحمد حشمت باشا عم عبد العزيز فهمي باشا وهما من الأفذاذ علماً واستقامة .

لو كتب لكل منزلة وقرية مثل حجازي حجازي لعدّت مصر في رقيها كسويسرا وألمانيا ، ولو أحب كل نابه لقومه ما أحبه حجازي لأهل بلده لما أتى جيلان أو ثلاثة إلا وأهل تلك القرية صنف آخر من أجناس الناس ، ولكن أكثر الخلائق يقولون أبداً « أنا ومن بعدي الطوفان » لا يعنيهم شيء من أمور قومهم ، إذا هم حصلوا على رغائبهم ، وتمت لهم ولأولادهم أدوات التفوق .

ومن خصائص أهل كفر المصيلحة أن أبناءها جدّ أوفياء لقريتهم لا ينزلون لغيرهم عن قيراط يملكونه من أرضها ، او مخدع صغير ورثوه في بيت ، يزورونها كلما سنحت لهم الفرصة لينشقوا تربتها ، ولا يقطعوا صلاتهم بأرض ضمت رفات أجدادهم ، وكان أجدادهم على مايظهر على جانب عظيم من التدين وعلى عرق من الجهل عريق . حدث منذ نحو مئتي سنة أن اغتصب فتى من حي من أحياء القرية فتاة من أهل حي غير حيه ، فما كان من أهل الحي الذي كانت منهم الفتاة المنهوك سترها إلا أن هجموا على جامع أهل الحي الذي كان من أهله المعتدون على العرض وقتلوا منهم في صلاة الجمعة ثلاثة وثمانين رجلاً . عمل فظيع كهذا فيه معنى من معاني الحمية الاسلامية والحمية الجاهلية معاً . ثاروا دفاعاً عن الشرف وهو مما أمر الاسلام بالمحافظة عليه ، وقتلوا الأبرياء وهم في صلاتهم ، وهذا عمل جاهلي عار عن الانسانية والدين . ولكن حجازي حجازي رحمه الله عالج

جهل قريته بدرياق العلم فكان من تعلموا من أبنائها المثل الصالح بين البلدان ، وعدّ عمله وعمل ابنه العظيم مفخرة من مفاخر مصر جديرة بالحمد بكل لسان على وجه الدهر .

العمدة الصالح

ألست من رأيي ان الرأس الصالح يخلف الجسم الصالح ، حدثني أحد كبار قضاة مصر انه قضى في اقليم الشرقية ثماني سنين لم تعرض خلالها على محكمته قضية من بلدة العزيزية المرتبطة بعمله ، اللهم الا ما كان من قضية اقيمت في آخر مدته وجاء عمدة البلدة يقول ان المتخاصمين تصالحا ولم يبق وجه لاقامة الدعوى . وكان هذا العمدة تقياً سرياً وغنياً أريحياً يعرف ما ينفع وما يضر ، ولا يسوق أهل بلده الا الى طريق الخير .

واتفق ان خطر لرجل رومي ان يفتح له حانوتاً ببلدة العزيزية ، وكانت الى ذاك العهد خالية من ابناء جنسه الذين ملأوا ريف مصر بمقاهيهم وحاناتهم ، فابتاع لذلك في ضاحية القرية أرضاً وبنى عليها كوخاً اتخذ منه دكاناً ملأها بما تملأ به في العادة امثال هذه الحوانيت من المشروبات والمأكولات . وما هي الا ايام حتى جاء الرومي في الصباح يفتح حانوته ، وكان يسكن على دقائق قليلة من العزيزية ، فرأى ما هاله رأى دكانه كأنه تبخر أو خسف به ، والارض حرثت وزرعت ورويت في ليلة واحدة فشكا ما حل به الى الحكومة وعجز ان يثبت دعواه أمام القضاء ، وسئل العمدة في جملة من سئل عن دعوى الرومي فقال انه لم يبلغه شيء مما يدعيه ، ورجع الرومي بخسارة ماله وخيبة آماله حزيناً كئيباً .

ولهؤلاء الأروام في مصر قصص تضحك وتبكي وقلّ فيهم من يقيم

فيها مدة إلا ويجمع له مالاً يحمله إلى بلاده ، وهم والحق يقال عنوان التضامن والوطنية والنشاط . سمعت مدير فندق عظيم في القاهرة وهو رومي يأسف جد الاسف لما دفعه إلى صاحب الفندق الوطني من اجور أربت على مئة الف جنيه في نحو ثلاثين سنة . ولما انصرف سألت صاحبه الموظف عنده وكم تبلغ يا ترى ثروة هذا المدير فقال وهو يعرفه معرفة جيدة : انها نصف مليون جنيه يا سيدي ، وما نسيت وأنا في سن الشباب أسمع في القاهرة مع صديقي حافظ ابراهيم شاعر النيل مطربة مشهورة في مقهى قوله وقد ظهرت عليه امارات الغضب : ترى يا صاحبي هذه الجوقة وما هناك من خدمة أليسوا كلهم مصريين إلا الجالس إلى الصندوق الذي يقبض المال فهو رومي .

وفي الرومي موعظة لقوم جدّ في اللعب

كما قال حافظ في قصيدته التي أحاطت بهذه المعاني وخصها بحث قومه على الاعتبار بأروام مصر .

هامش على سيرة المشايخ

وددت لو طاوعتني النفس فاعفيتك يارفيقي القارىء من التصدي للمشايخ مرة أخرى بعد أن افضيت اليك بامثلة ينقبض لها صدرك من سيرتهم في كتابي اقوالنا وأفعالنا ، وفي هذه المذكرات وصفت لك من كانت الحكومات في كل زمن توقرهم وهم لا يوقرون أنفسهم ، وترفع درجاتهم وعطاءهم يخفضونها . الحكومات توسع عليهم والامة تجلهم وتستمع اليهم وهم ينظرون الى الدنيا غير نظر سائر المخلوقات لها . واني ان أسفت لشيء فمعظم أسفي لما شهدت من قلة أمانة بعضهم وشدة جهلهم ، تعلموا قشوراً من العلم يستخدمونها في صناعتهم أما أخلاقهم فالى الانحطاط .

كنت أغلب حسن الظن في بعض افراد هذه الطائفة وازعم انهم اذا شبعوا يكفون عن العبث بالشريعة وانهم إذا وسع عليهم وقبضوا رواتب يتبلغون بها لا يُسفون الى ما يسف اليه سائر الموظفين من خبيث الطعمة وفساد الذمة ، ولكن الايام جاءت على خلاف هذا الظن ، أثبتت أن من اعتاد أمراً يتعذر اقلاعه عنه إذ يستحكم فيه فيصبح له في حكم العادة ، وان الفاجرة تنقض توبتها لاقل عارض ، واللص تحدثه نفسه أبداً بسرقة الناس ولو صام وصلى وحج .

عرفت في الطفولة رجلاً دخل في أول شبابه في الوظائف الحكمية وما عتم أن اشتهر باضاعة الحقوق واستحلال ما لا يحل ومضت أيام وارتقى الرجل الى أعظم المناصب في سلكه فقلت لا بد ان يكون أقلع عن خيمه وقبح عاده ، وهو على أن يصرف جهده في خدمة دينه وامته خصوصاً وهو خفيف الحاذ قليل العلائق بالدنيا ، بيد أنه عاد الى ما شب عليه يخترع الحيل لاملاء جيبه وصندوقه ، ووسيلته الى اشباع نهمته غض الطرف عن تلاعب مرؤوسيه على حين له كل الحق في صرفهم اذا ثبت له عجزهم وتلاعبهم ، أما هو فيحميهم ليتناول الجعالات منهم بطريقة استحلها مايعطونه . وذلك ان يبعث له مرؤوسه ما يلزم بيته من الزيت مثلاً فيرسل له منه مقداراً يكفي عشرة بيوت من مثل بيته باسعار أقل من ثلث ثمنها الحاضر . والاطفال يدركون ان السعر الذي يزعم مرؤوسه انه ابتاعه به هو سعر وهمي لا وجه له من الصحة . والمأكولات لا ينقطع جلبها طول السنة وحاملها يقطع ربع او ثلث راتبه كل شهر ليسدد منه فرق الاسعار عن السوق . ولا شك ان هذا المتفقه المجوز سار مع عامة مرؤوسيه على هذا النهج الملتوي ليغض طرفه عن عبثهم بالحقوق ، وكان إذا قيل له ليسوا اهلا لعملهم ويغلطون في كثير مما تخطه أناملهم قال في معرض الدفاع عنهم يقيم الاعذار لجهلهم وقلة ذمتهم : انه إذا صح انهم يرتكبون أغلاطاً فالغلط يسري على الكبير والصغير .

لو كنت في منصب لي به السلطان على هذا المتلاعب الذي وصفت لحاسبته

حساباً غير يسير ولطهرت الدواوين من أمثاله لانه في نظري قذى يشين الدين والوطن ، ومن غر الناس بصلاته واوراده فهو حشرة سامة يجب قتلها ليسلم المجتمع من مضاره ، وليت شعري متى تصح عزيمة الحكومات على انقاذ الامة من هؤلاء العاجزين إلا عن عمل الشر .

النبل العملي

في السنة الماضية (١٩٤٦) تفضل الاستاذ ابراهيم دسوقي اباظة باشا من وزراء مصر ومن البيوت العريقة بالمجد ورئيس جماعة ادباء العروبة ، ودعاني الى طعامه فاعتذرت بقرب السفر ، ووعدت ان عشت أن اتقاضى من قابل الدعوة دعوتين . وهبطت مصر وطالبت الوزير العزيز بحقي ، وشرطت فقط أن يطلعني الداعي الكريم على أسماء المدعوين ، فأشرت بحذف اسم شخصين لا أحب أن القاهما ، وتكرم فوجه دعوته الى ثلة من اصحابي المصريين والسوريين ، وفيهم الادباء والشعراء ، وصاحب الدعوة نفسه أديب وشاعر ، وكانت المأدبة من أمتع الآدب أنشدت عليها أشعار ، وأوردت نكات وفكاهات ، وزادت بهجة هذا الاجتماع بالتجانس بين من لبوا الدعوة (أو « الكرزمة » طعام نصف النهار ، كما سماها الداعي في بطاقة الدعوة) .

من ميزات السيد اباظة أنه يعطف كثيراً على الأدباء ، وإذا سمع بناشيء في الشعر والادب يحرص على ان يوصل اليه ما ينعشه من الرزق ، بدون أن يطلعه على اسم الساعي له بذلك ، فيرقيه ان كان من عمال الحكومة حتى يوسع عليه في معاشه قائلاً ان اطروحته قد قدمها للامة بما نشر من ديوان وألف من رواية ، واصدر من كتاب . والدرجات في القانون يسقط حكمها مع هؤلاء النوابغ ، اذ ليس من المعقول ان يقضي الواحد منهم سنين طويلة حتى يصل الى المرتبة التي تمكنه من تفرغه لأعمال عقله وقد يقنطه الانتظار ،

وتضعف همته عن المضي فيما هو بسبيله . وإذا كان النبيه الاديب خارج الحكومة عمل صاحبنا على اسناد عمل اليه يعيش به في حرمة وكرامة ، وكثيراً ما يصل احسان الوزير الى المحسن اليه ، وهذا لا يعرف اليد التي قلدته هذه المنة ، وربما انقضى زمن وصديقي نفسه لايعرف الشخص الذي نشله وأنعشه.

ألا يعد هـذا الوزير العاقل حامياً من حماة الادب Mécène ؟ يشبه من بعض الوجوه بعض وزراء الدولة العباسية أيام عزها بافضالهم على العلماء والادباء ، وكانوا يأخذون بايدي أرباب القرائح حتى نبغ بفضلهم أفراد عدوا مفخرة الدولة والملة . وكم في مصر من مخبآت إذا كشفت تبيض الوجوه ، وكم فيها من مخزيات إذا عرفت تعرق منها الجباه .

اتفق يوم كتبت هذا أن قرأت صحيفة افرنسية اسمها كارفور Carrefour جاء فيهـا أنه قل اليوم عنصر حماة الادب ولم يبق امام الادباء الا توقع المعونات غيرالمطردة ، ومن النادر اعطاء مال بدون مقابل ، او توسيد منصب ليس فيه عمل ، واذا حدث شيء من ذلك فباقتصاد شديد خالٍ من العاطفة .

ألا نحمد الله بعد هذا على ان رأينا الشرق اقبل يستعيض بعض مجده بالعقلاء من أبنائه ؟

الى شيخ الشيوخ

نقـل لي أنك قلت يوم نعيتُ على رجال الحـكم تقاعسهم في تنفيذ الاحكام على الغششة من التجار والباعة والفلاحين ، وآخذت المشايخ على تقاعدهم عن القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر — ان فلاناً قام اليوم بوظيفتنا ، وكلامك هذا يتأول على معنيين الاول اقرارك ضمناً انك وجماعتك مقصرون في وظيفتكم وانا قمت عنكم بها ، او أنك تقصد اني اعتديت على

وظيفتكم وما كان من حـق ذلك ، وشهد الله انى كنت أحب ان أراك وجماعتك تقومون بواجبكم ولا يفتح مجال لي ولا لغيري للتعرض لـكم أتركم تمتعون بوظائفـكم وجميع ما يتبعها من الفوائد بيد ان القصور الذي لمسته ولمسه العارفون في هذا الباب دعاني الى سد هذه الثلمة وأنا مقران ليس لي أن اشرك الوعاظ في مواعظهم لانها مما يتوقف الاضطلاع به على علم لدني وعلم كسبي وكلاهما في نظركم وقف على طغمتكم . وسواء كنت على استعداد للكلام في هذا الشأن او غير مستعد فحسن نيتي يشفع لي في هذا التعدي على مقامكم . وسواء قمت بواجبي أو تعديته فليس فيما جرى ما ينكر ما دام قد مضى على محاضرتي بضع سنين ما سمع احد منكم خلالها ولا قبلها موعظة ولا خطبة ولا درساً ولا نشرتم كتاباً ولا رسالة ولا بحثاً وكذلك كنتم طوال حياتـكم الشريفة .

العلم كما لا يخفى على ثاقب ذهنكم ينضج في صدر صاحبه كلما علت به السن وأنتم قد عمرتم ما شاء الله أن تعمروا واتجرتم ما شئتم بما جمعتم من مال فماذا دعا الى توقفـكم عن القاء الدروس النافعة ووضع التآليف الممتعة . على حين ترون البدع عن ايمانكم وشمائلكم والمسلمون الذين بهم عزتـكم تقرضهم امراض اجتماعية كثيرة فهل فكرتم يوماً في مداواة بعضها والناس ألحدوا وطغوا وهم يتحللون من كل قيد فهلا دللتموهم على طريق النجاة ، وتحت اشرافـكم كثير من الموظفين هل قاموا بما اسند اليهم ام كان الامر لا يعنيهم يقبضون الرواتب ويدعون للسلطان بالنصر ؟

وظيفتـكم تدور على التعليم والهداية وساعدكم القانون فقضى ألا تخرجوا من الخدمة الا بالموت وطال امد حياتـكم على ما ليس من مصلحة هذه الامة فمن علمتم انتم وجماعتـكم ومن هديتم . انا لا اتطال الى ان ابيع منـكم بضاعتي وارغب في ان يطلع الخلق على بضاعتـكم واغتبط ويغتبط كل عاقل إذا افدتم البر والفاجر والصانع والزارع والتاجر ، نفع الله بارشادكم الاسلام والمسلمين انه سميع الدعاء فعال لما يريد .

شرقي الاردن

منذ أكثر من خمس عشرة سنة وملك شرقي الاردن عبد الله بن الحسين يتلطف ويدعوني لزيارته في عمان وأنا اعتذر بكثرة اشغالي . والواقع اني اعرف قرية عمان لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف وهي الآن ربو على الاربعين الفاً حتى تكاد تعد من امهات المدن في الديار الشامية ، وماذا عسيت ان أرى من جديد في عمان وأنا دعيت منذ بضع سنين لزيارة تونس فما اجبت وكنت دعيت الى زيارة مراكش فأبيت ودعيت غير مرة الى زيارة نجد والحجاز فنكصت .واذا كنت لم أزر العراق على قربها وتكرر دعوة اخواني العراقيين لي كيف يجوز لي ان أزور شرقي الاردن وانا أعرفها وأعرف ما يحاك فيها .

ثم أنا لا اعتب على جلالة ملك شرقي الاردن الا لسعيه — ان صح ما بلغني — في ضم سورية الى بلده أو ضم بلده الى سورية وذلك تحت الانتداب الانكليزي . قدر الله لنا معاشر السوريين ونجونا من سلطان الانتداب (باعجوبة) فكيف بنا نعود سيرتنا الاولى بعد ان تمتعنا باستقلالنا واخذنا نعيش احراراً فما شأننا والعبودية .

وكاتب هذه السطور لا ناقة له ولا جمل مع العروش ولا مع الملوك ولا مع رؤساء الجمهوريات ولا مع الزعماء والاحرار والذي يدين الله به ان الحرية احسن من العبودية ولو كان الذي يحكمني من أكبر الصحابة والتابعين .

افراط وتفريط

مما يمتاز به الغربيون غرامهم الشديد بالآثار والعاديات . تشهد كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم عالمهم وجاهلهم مولعاً بالنظر اليها يناغيها ويستوحيها ويدكر فيها . والسعيد فيهم من تمكن من اقتناء شيء منها ان لم يكن الاصل فصورة عنها تصورها يد صناع .

نظرة الغربي الى ماخلف الاجداد من المصانع والاثاث واللباس والاواني والكتب والايقونات والتماثيل غير نظرة الشرقي لها نظره لها نظر الظمآن إلى الماء والعاشق إلى قرب اللقاء ، تراه يحدق فيها تحديقه في كنز ثمين يملأ القلب والعين ، ويمثلها بكل مافيها من معان وذكريات ويهون عليه في سبيل الحصول عليها بذل المال والوقت ، وهو يفطم نفسه عن أكثر الشهوات إذا كان من ذلك احراز مجموعة شغلت مكاناً من قلبه ، ويغتبط بما يحرز ويفاخر بما يدخر ويقتني . أما الشرقي فلم يبلغ إلى الآن جزءاً مما بلغه الغربي في باب الكلف بالطرائف والاعلاق يمر بها مروره بأمر عادي لا يدرك محل الجمال منها لان ذوقه لم يهذب كما تهذب ذوق الغربي في هذا الباب ، ولذلك كان الشرقي منذ عصور يخرب بناء أثرياً من قلعة أو قصر ليبني بحجارته رصيفاً أو يرصف بما دمر قناة أو يعمر كوخاً أو قنطرة ويزهد في طنفسة أو آنية أو كتاب ليصيب من ثمنها أكلة أو سكرة .

لو حرص الشرقي على المنقول وغير المنقول من تراث أجداده ما امتلأت متاحف الغرب وبيوت بعض أفراده من آثارنا وعادياتنا . ولولا ان حكوماتنا انتبهت في العهد الاخير لجمع العاديات لافلت من أيدينا حتى الآثار القليلة المحفوظة في دور آثارنا فوصلت باهمالنا إلى أيدي من يقدرها قدرها أكثر من مالكيها الاصليين . وإن ما نشهده من كثرة مخطوطاتنا العربية في خزائن الغرب ليقوم دليلاً على زهدنا في قديمنا وحرص الغربيين على كل مايفيد في كشف أسرار المدنيات على تباين عصورها وشعوبها . وإذا عدنا فنظرنا إلى عناية الغربيين بنشر تلك المخطوطات وانتباههم قبلنا بعشرات السنين إلى احيائها نسقط على دليل مقنع نخلص منه إلى أن الغربيين يقدرون

الاشياء بقيمها أكثر منا ونستنتج أن من مجموع هذه الاذواق المثقفة في الافراد ومن جماع هذه العناية من الحكومات ظهرت هذه المدنية التي بهرتنا .

نقرأ في صحف الغرب أخبار الغلاة في حب العاديات والاعلاق النفيسة ، وغرام الغربيين بكل قديم يصور حادثاً أو يرسم رجلا ولا يبلغنا شيء من هذا القبيل عن الشرقي الذي يحتقر المهم وغير المهم . فهناك الافراط الغريب وهنا التفريط العجيب .

قيم النظر

نقل احمد لطفي السيد باشا عن الفرنسية بعض كتب فلاسفة اليونان فجاءت الترجمة ذات لونين لون مفهوم وهو الذي نظر فيه حافظ ابراهيم عليه الرحمة وألبسه حلة عربية ، واللون الثاني وفيه التعقيد الذي يقل أن يفهمه أحد لاخذه بحظ جزيل من الغثاثة . ولما قيل للمترجم البارع في ذلك قال : أنا لم اترجم ما ترجمت لافيدكم وانما ترجمت ارسطو وافلاطون لافيد اربعة وهم طه وهيكل والعقاد واحمد امين ، وكفاني ان يفهم كلامي هؤلاء الاربعة ، اي ان فيلسوف مصر لايهمه قراء العربية باسرهم ، بعد أن يدرك معنى ترجمته من هم في غير حاجة الى تصفحها ، على حين في وسعهم ان يتلوا الفلسفة بلغتها الاصلية لتمكنهم من بعض اللغات الغربية ، وطه حسين يطالعها في الاصل اليوناني لانه يحذق اليونانية واللاتينية أيضاً .

وهكذا أراد أحمد لطفي السيد أن يفرض نفسه على الامة العربية فيلسوفاً بهذا الغموض بعد ان ظل أعواماً طويلة يدعو الى استعمال اللغة العامية المصرية بدلاً من اللغة العربيـة الفصحى ، ثم أصبح رئيساً لمجمع لغوي عربي ، شأن ذاك اليهودي الذي كان يؤذن في منارة حمص (اتخذوا منه مؤذناً لجمال صوته) فكان يقول في آخر أذانه وأشهد أن اهل حمص يقولون ان محمداً رسول الله . وصاحبنا يشهد ان الامة العربية التي لا ترى سلامتها بغير سلامة لغتها واستعمال الفصحى منها ، يرجح العامية عليها ويرأس مجمعها اللغوي الذي وكل اليه سلامتها .

الشهرة الصادقة

قلما يشتهر رجل ليس على صفات بارعة تؤهله للشهرة ، وقد تزيد في شهرته أحوال عارضة من حوادث ذات ضجة وقعت له فيلغط الناس فيه بالخير والشر وتورثه شهرة أو تعظم بها شهرته بيد أن استاذنا العلامة الشيخ محمد عبده وصل إلى المكانة التي وصل إليها بما كان تتحلى به نفسه من مزايا كان معاصروه مجردين منها ، كتب له التفوق عليهم وما أضرّه تحامل خصومه عليه بل زاده رفعة في الأعين ، وليس يرشق إلا مثمر الشجر .

ما أتت شهرة الاستاذ الامام من الكتب التي قرأها وأقرأها بل قامت شهرته بما تمثل من علوم الاسلام وعرضه على ميزان العقل واستخرج منه حكمة عملية تنفع أبناء عصره على اسلوب تقبله النفوس ولا يصعب حفظه واستظهاره على راويه وسامعه .

حضرت دروسه في الرواق العباسي بالأزهر في سنة ١٩٠١ في التفسير وكان مما عالجه من الموضوعات ثلاثة دروس عرض في الدرسين الأولين لآيات الربا وفسرها بما فسرها به المفسرون وأورد ما فتح عليه من معان جديدة فيها ، وكان الدرس الثالث فيما أثره الربا في البيوت المصرية وكان فيه خرابها . واستخرج من روح الكتاب العزيز معاني جديدة فيها ، هي موضع الدهشة من كلامه . عدد في هذا الدرس أسماء البيوت التي تعاملت بالربا دائنة ومدينة فاضمحلت ثروتها وافتقرت بعد الغنى وذلت بعد العز . ذكر أسر القطر المصري من الاسكندرية إلى اسوان وما كانت تملك من الاطيان العظيمة فخرجت عن ملكها بما جنت أيديها عليها وعلى بنيها .

لم يؤلف الامام كتباً ضخمة في الشريعة ، وكان من المسائل العملية التي نظر فيها هداية ألوف وتثقيف عقلية الجماعة بالدين الخالص ، ودعا

إلى استعمال العقل وأصلح ما استطاع اصلاحه من أوضاعنا بما لم يؤثر بعضه عن مئات من العلماء قبله وبعده . اصلح الكتابة العربية وقضى على السجع جملة ، فأخذنا نكتب لغتنا بذوق يراعى فيه الطبع واسلوب القدماء . وأصلح المحاكم الشرعية حتى كاد يعيد الشرع إلى سالف بهائه ولم يجسر قبله انسان في العالم الاسلامي ان يفتح فاه بضرورة هذا الاصلاح . وأصلح الأزهر وكان قبل أن يرتفع صوته في ذلك اشبه برباط أو زاوية . وهكذا كان في كل ما عاناه من ضروب الاصلاح يراعي فيه المصلحة والزمن . حتى اخرج القطر المصري بل الاسلام من دور جمود مميت إلى عهد نور وعمل .

قام قبله وبعده من تولوا أكبر المناصب الدينية في مصر ، ومصر موطن العلوم الدينية والعربية ، فماذا نفعوا المسلمين ؟ ولو تصدينا لمحاسبتهم ما كانوا أكثر من طلبة عند هـذا الشيخ ، ضعاف القرائح لا ينتجون ، عقيم تفكيرهم ضئيل انتاجهم نادر ابداعهم وغرامهم أن يبقى القديم على قدمه ، ومن خالفهم كفّروه إن لم يكن جهرة إذا رأوا من مقام عالٍ امارة رضا عنهم وإلا فتكفيره سراً إذا كان في معظم قوته وعندما يحتاجون إليه في دنياهم ينافقونه ولا يرون في النفاق حرجاً .

جرأ أحـد شيوخ الأزهر على الشيخ مرة وقال له تالله نفتأ تقرعنا وتنقدنا وهل أنت تزيدنا في شيء وما كنت إلا أزهرياً مثلنا درست مادرسنا وتخرجت كما تخرجنا . فأجابه : نعم أنا أزهري ولكنني يا ظـالم بقيت سبع سنين أكنس دماغي عن خرافاتكم .

محمد عبده من الأفراد المصلحين الذين تضن بهم العصور رغم انوف منافسيه وإذا كنت تريد برهاناً محسوساً عن مكانته ومكانتهم عدّ لي اسم خمسة من أكبر كبرائهم وصلوا إلى درجـة تلاميذه ليقع التنظير بينهم .

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبـاري ثم قال له الحق

كلمة لله

ما لعفف بعضهم عن التصريح باتهامي بالغلو في الاشادة باستاذي الشيخ طاهر الجزائري وما خجل حساده أن يدعوا انه لم يكن من العلم على ما وصفته . ومنهم من هزأ في قوله ان من العادة أن يحب التلميذ استاذه ويبالغ في الغناء فيه . أنا لم اغال بمناقب الشيخ ولا اخترعت له مناقب ليست له وغاية ما عرفت فيه صفات غرّ ألا يهتدي كثير إليها إلا بطول عشرة وكبير تأمل .

أدعو كل من يثقل على أنفسهم قول الحق أن يقارنوا بين عمله وعمل أكبر المقدمين في عصره هل يجدون فيهم ما يجدونه فيه بعلمه وأخلاقه . لنمثل برجلين عاش أحدهما في عاصمة الساحل وعاش الثاني في عاصمة الداخل من أرض الشام . الأول كتب كتباً أكثرها تخريفات ومنامات وعددها كبير وفائدتها تافهة لأنها من مضعفات العقول والمسلمون انحطوا لما أخذوا يتلون أمثالها . والثاني ادعى علم الحديث وروى منه كثيراً وكان في درسه العام يطبق بعضه على المناسبات وعمّر طويلاً وفتن به العامة ولم يترك كتاباً ولا رسالة ولم يخلف تلميذاً أخذ العلم عنه ونفع به . اما الطبقة الثانية من العلماء فكانوا متوسطين في علمهم أتقنوا بعض فروعه وما أتوا بجديد ولا عرفوا معنى الاصلاح والتجديد .

نحن نحكم على علم العالم بنتائج عمل صاحبه فالشيخ طاهر الجزائري أسس المدارس الابتدائية في معظم الديار الشامية وألف لها الكتب وعلّم المعلمين اصول التعليم والتربية في زمن لم يكن فيه ما يقال له علم إلا بعض فروع الفقه وبعض الأحاديث الموضوع أكثرها أما ما يطلق عليه اسم الادب فسخيف النظم والنثر ولم يبق للبلاغة في الخطب والدروس شيء يذكر ولا لكلام الوعاظ والقصاص ما ينفع العامة . وآض كل فرع من علوم العقل إلى تفاهة .

ألف الشيخ نحو أربعين رسالة وكتاب في العلوم المختلفة وأحيا من كتب القدماء عشرات وتخرج به كثيرون في مصر والشام وتثقف بثقافات فارسية وتركية وافرنجية وعرف عدة لغات شرقية وغربية فانتم ماذا أبقيتم لنا بعد طويل حياتكم . أين تآليفكم أين دروسكم ، أين خطبكم أين أدبكم ، أين ما أثرتم به في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ آتونا ببرهان واحد على انكم خدمتم غير أنفسكم وانكم غير نقلة في الفقه مقلدون في الأحكام أما تدوين شيء من علمكم وتجاربكم فهذا قد تركتموه للشيخ وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه .

بالعناد لا تثبتون كفاءاتكم وبحسد العلماء العاملين لا تنقصون من منزلتهم . سعى الشيخ حياته لنشل المسلمين من سقطاتهم ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم ولولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الاصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن .

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً   ما لم يروا عنده آثار إحسان

العدل نسبي

لما حظيت في الاسكندرية بلقاء الأمير عمر طوسون (رحمه الله) لأول مرة وجه إليّ سؤالين اثنين ، أحدهما كيف قسمت الديار الشامية بعد الحرب العامة الأولى ، الثاني هل صح كل مانقلته في وصف حكومة ابراهيم باشا في الشام . فمن الأول أجبت أن الانتداب الانكليزي كان على فلسطين وشرقي الاردن والانتداب الفرنسي شمل سورية ولبنان . فاقتطعت فرنسا من جسم سورية الأقضية الأربعة (حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك) وضمتها إلى لبنان كما ضمت اليها الهرمل وعكار وحصن الاكراد وطرابلس وما اليها . وبهذه الأراضي التي ضمت إلى لبنان أمكن هذا الجبل أن ينشىء حكومة فكبرت رقعته وزادت جبايته . ثم جعلت فرنسا من قضاء جبل الدروز امارة ومن جبال العلويين دولة ومن لواء الاسكندرونة إدارة مستقلة أي أنها نزعت أيضاً جبل الدروز والنصيرية والاسكندرونة من جسم سورية فضعفت صلة هذه الأقاليم بأمها سورية وأخذت فرنسا تعلمها وتدربها على كراهة السوريين .

أما السؤال الثاني فاني ذكرت للأمير أني أدركت طائفة من عقلاء المعمرين كانوا رجالاً مدركين أيام ابراهيم باشا في الشام وقرأت جميع ماوصل إلى يدي من كتب بالعربية والفرنسية عن عهده فكان ما كتبته هو الذي تلخص معي ومحصته بعد التفكير الطويل . قلت ولماذا أكذب وأدون ما لا أعتقد ياسمو الأمير ؟ وهل أنا مصري حتى أضطر إلى مصانعتكم ومصانعة بيتكم الكريم . هذه الحقيقة أخذتها من مصادر مختلفة ووزنتها كثيراً قبل أن أتبناها . فحمد الله على ماحصل واغتبط أن يكون جده عادلاً في حكمه الشام .

وغاب عن ذهني يومئذ أن أقول للأمير أن العدل نسبي أي أن ماقامت به حكومة ابراهيم باشا هو عظيم بالنسبة للاتراك قبله وبعده . وهذا ما قاله قنصل انكلترا يومئذ و كتب به الى دولته وذكر ان الجباية كان يتشدد في تحصيلها وتصرف بالعقل وما كانت حكومة تلك الايام تضن على البلاد بما هي في حاجة اليه من اموالها وبذلك امتد العمران وعمرت القرى والمزارع . وعندي انه لم يكن ينتقد على حكومة ابراهيم باشا الا احتكار بعض ضباطها اصنافاً من التجارة لحسابهم يتربحون بها ، وربما كانت للحكومة الابراهيمية مساوٍ اخرى فات المؤرخين ذكرها او دونت ولم تصلنا او كان الخطب فيها سهلاً تمكن الاجابة عنها .

ومن الادلة على عدل حكومة ابراهيم باشا ان اهل سورية ودعوه بدموعهم يوم غادر أرضهم الى مصر باكين عهده السعيد . اما لصوص الاعيان الذين كانوا يرجون عودة العثمانيين الى الشام حتى يشاركوهم في سلب الامة فهم كانوا فرحين مستبشرين . وقال معظم من لقيتهم من ابناء القطر ان حكم ابراهيم باشا كان صارماً ، وهل كان يتأتى ان يخضع سكان الجبال وسكان السهول من الشاميين للحكم الجديد الا بهذه الطريقة . والحكومة العثمانية ومن ورائها الحكومة الانكليزية تدسان الدسائس حتى لم تتركا لابراهيم باشا ليلة واحدة ينام فيها هادئاً مطمئناً .

حكم ابراهيم فرع من حكم والده محمد علي فيه ما فيه من محاسن وغيرها ويعد من نوع الحكم العادل بالقياس الى زمنه والى حكم العثمانيين في جميع الادوار التي مرت على الشام .

العربية عند المسلمين

قال السيد جمال الدين الأفغاني : اهمل الأتراك أمراً عظيماً وكلمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه ، واحب أن يعمل بها السلطان سليم (الأول) ، وهي جعل اللسان العربي لسان الدولة وتعميمه بين من دان بالاسلام من الأمم ، ليتفقهوا في أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ، ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله . فالعرب مانجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه . وذلك ما تمّ ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان اه .

شعر المسلمون بعد القرن الرابع بما طرأ من ضعف في تعليم اللغة العربية ، وقد تقسم الملك الاسلامي ملوك من الاعاجم ولا غاية لهم إلا الاحتفاظ بما ملكوا ، واللغة والعلوم في نظرهم اذا انتشرت بطبيعتها فبها ونعمت وإلا فليست مما يتوقف عليه حياة الممالك ! وحياة الممالك سيف مسلول وسياسة نافذة . وكان أكثر من جاءوا من الملوك بعد القرن الخامس إذا اعتمدوا على العربية في معاملاتهم الرسمية فلا يستعملون بها في الناس ، وربما كانوا يتكلمون بلغتهم الخاصة في قصورهم ومع حرمهم وخدمهم .

من جملة العوامل التي حالت دون انتشار العربية ظهور نغمة القومية وذلك بأن تشدد أهل كل عنصر في نشر لغتهم الوطنية فقط . وكان الاتراك أصحاب الاقتراح الاول في اتخاذ العربية لغة الدولة أول من حاربوا هذه اللغة في جميع مظاهرها على عهد الكماليين ، حاربوها في المساجد والجوامع وفي الكتب والصحف وفي المدارس والشوارع وفي الرسميات والخصوصيات

وكان بعض الاذكياء من العناصر الاسلامية يرتادون الحواضر العربية الكبرى في افريقية وآسيا خلال قرون طويلة للاخذ عن علمائها علوم اللسان والشرع فيعود الجاوي والصيني والهندي إلى بلاده وقد أخذ يكتب العربية ويتكلمها

ويؤلف فيها إلا أن الدارسين قلائل جداً لا يكادون يسدون حاجة شعوبهم وأصبح الصيني والجاوي والفارسي يتلون القرآن في صلاتهم ولا يفهمون معناه ، وكذلك تركي تركستان وكذلك هندي باكستان .

مرّ في بعض السنين بمصر مفتي المسلمين في بكين عاصمة الصين وهو شيخ جليل كان يتعذر عليه النطق بالعربية فيطلب منا ان نكتب له ما نريد القاءه عليه من الكلام باللغة الفصحى مكتوباً بخط نسخي واضح وكان هو يجيبنا كذلك . على ما نرى لعهدنا بعض علماء المشرقيات يكتبون العربية كتابة جيدة ويعجزون عن التكلم بها .

بقيت العربية في الخواص من اهالي شمالي افريقية وللعوام ولا سيما في الجزائر لغة ليست من العربية في شيء ، وفي عاميتهم الفاظ افرنسية وايطالية واسبانية ومالطية ويونانية . لا جرم ان انتشار العربية اليوم تبع لانتشار المعارف عند الشعوب العربية والشرقية ، وقد اخذت كل لغة من اللغات الاسلامية الوفاً من الكلمات العربية ادمجتها في لغتها فصارت كأنها فيها اصيلة فظهر بذلك ان العربية لا تستغني عنها لغة من لغات المسلمين ومنها لسان المالايو والاردو والفارسي . وكلما حرصت العراق والشام ومصر وتونس — وهي الاقطار التي رسخت فيها العربية على الدهر وكانت من أول الاصقاع التي هبت تسير نحو المدنية الحديثة — على نشر العربية الفصحى في ابنائها يسري قبس من نورها الى الاقطار الاسلامية الأخرى .

والرجاء بعد ان يستقيم عمود السياسة في البلدان الاسلامية ، والسياسة اليوم فيها متزعزعة غير مستقرة ، يصبح للعربية شأن غير شأنها الآن ، ويسد النقص الذي احدثته الايام بجهل الملوك والحكومات . واذا رأينا اليوم تركيا تقضي على العربيـة في آسيا الصغرى بين ظهراني بضعة ملايين من رعاياها فان ثلاثمائة مليون مسلم في الارض لا تستطيع ان تملي ارادتها عليهم . حاربت كل ما هو عربي أو يشم منه رائحة العربية ، وكان الخير والشر من عملها مقصوراً على ارضها فقط . والايام كفيلة بتعيين مقدار هذا الخير الذي اتاها بهذه الثورة على العربية والاسلام .

في عشر الثمانين

يانفس هو ذا الحادي يُهيب بك لاجتياز المرحلة الاخيرة دراكِ ،وخفي في خفةٍ من أثقالك للحاق بمن تقدموك من الأهل والعشير ، فالوقت ضاق وانت على اوفاز ، والمنزل منزل قُلعة .

يا نفس لا تغضبي ولا تعتبي فقد عُمّرت طويلاً ومتعت كثيراً ، وفتنت بجمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخلان والمعارف ، وسعدت إذ كنت أقرب الى التفاؤل من التشاؤم ، والى الرجاء أدنى من القنوط ، والى السرور أكثر من الغم ، وعشت في سلطان الرضا طيبة الطُعْمة لا يد لأحد عندك .

علموك ما كانوا يأملون منه اعدادك للتجارة لتغتنين منها كما اغتنى اجدادك فأخفق تقديرهم ، وهدتك الفطرة لامور أخرى رفعتها فوق كل اعتبار ، وصرفت فيها نقد عمرك اعتقاداً منك أن فيها سعادة لك ولغيرك .

أخذت عن أشياخ أدخلوا الملل عليك بدساتير لهم حفظوها ، وما اهتدوا الى العمل بها ، وانصرفت عنهم بشكوك ومعميات ما انحل لك بعضها حتى اتصلت بمن خرّجوك فيما غلب عليك ، وأصبحت تنظرين في الامور نظر تدبر . واقتديت بارباب العقول قبلك فيما لم ينكشف لك سره ، فسلمت كما سلموا واستسلمت كما استسلموا ، واغتبطت أن أرضيت هواك فيما قرأت وبحثت ، وفيما سجلت ودونت .

وحظك الحظ فما أَلِفْت الا أولى الفضل ، وما حرصت إلا على صداقتهم ، ولا اختلفت الا الى مجالسهم ، وما شاقك الا سماع اخبارهم ، وكنت على الاكثر لا تصحبين الا من تستفيدين من علمه وتجربته ، وتفرين من الاحاديث الغثة

فراقك من الطعام الواحد ، والمنظر الواحد . والنغم الواحد ، وما كنت كذلك شهد الله في حبك ووفائك .

هان عليك ما أنفقت في الضئيل من المعرفة التي كتب لك تحصيلها ، وكان استغراقك ساعة واحـدة فيما ولعت به ، يوازي في نظرك أكثر المسرات والشهوات .

درجت على بغض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الافـكار على ثورة السلاح ، ودققت في حساب يومك وغدك ، وأيقنت ألا مجد إلا من طريق المعرفة ، فأحرزت لك شهرة سعيت وراءها لأول أمرك ، فلما بلغت ما أربى على رجائك رحت تزهدين فيما صرت اليه ، وتندمين على فترات ضاعت سدى وان أكسبتك مرانة ومرونة ، وأفادتك عبرة وتجربة .

كان يلذك ما ينهال عليك من الضربات في تأييد حق وتقويم مائل ، حتى صار ذلك فيك خلقاً وجبـلة ، وما عبأت بمن كانوا يحاولون التسلق الى الشهرة بالحط منك ، وكنت تفرحين بما يتم إذا أسفر عن تحقيق شيء مما تتوهمين غناءه .

علمتك الايام التحلم وما كنت حليمة ، وزينت لك اللين وكنت جامحة ، وأخذت من حوادث الدهر دروساً في الصبر والأناة بقدر ما سمح به مزاجك ، وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم فيه ، وما كلفت الأيام ضد طباعها ، وما أحببت ان تستثمري احداً ، ولا أن يستثمرك احد ، وقلما أتيت شيئاً وندمت عليه ، وما حزنت لرزية في مال ولا جاه بقـدر حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ، وبخاصة إذا كان ممن خدموا العقل بعقلهم ، وشادوا للفضل قصور العز من فضلهم ، وكنت تخلين عن أصحابك في افراحهم ولا تتركينهم في أتراحهم كأنك من اخوان الضراء لا اخوان السراء ، إذا اقبلت الدنيـا على الصاحب تبتعـدين عنه ، وان أدبرت تكثرين من مؤاساته .

وأكثر ما آذاك في طويل ايامك ان كنت تشهدين قوى عظيمة ضائعة ، وطريق الاصلاح مهيعاً امام اصحاب السلطان وهم لا يسلكونه ، فطالبت طغاة الاستبداد بالقيام بواجبهم ، فساءتهم جرأتك عليهم ، وتربصوا بك الدوائر . وقاتلت الشعوبيين أعداء العرب من الترك والصهيونيين والافرنج فشق عليهم سماع صوت الحق ، وما استطاعوا ان ينالوا منك على ما حشروا من أبالستهم ، وافتروا من إفكهم ، وأنت عزلى لا سلاح لك الا الحق الذي أخذ من قلبك ، وإلا الغرام باستعادة عظمة الامة والملة .

ومن أشق ما مر بك أن كان أرباب المحك يحملونك على اثبات المثبت والتدليل على البديهي ، وان اضطررت الى عشرة قوم كان الجهل فاشياً في سوادهم الأعظم ، وقضى عليك بعد ذهاب من أخذت من أدبهم ، واستهووك باخلاقهم ، أن تسمي هراء ادعياء لو انصفوا لعادوا الى الكتاب ، يبتدئون بالعلم من كتاب الهجاء .

عاداك من عاداك عداء المتباينين في العقلية والثقافة ، ووجهوا اليك من التهم ما كان في وسعك رده لو جوزت اضاعة الوقت في مهاتراتهم . ومما قرفوك به أنك مستبـدة فيما يبدو لك ، مفرطة في حرية رأيك ، حلوة الصداقة مرة العداوة ، ضنينـة بجاهك ، تكثرين من قول لا أكثر من قول نعم ، وهم كانوا يريـدونك على ان تشهدي للمحق والمبطل وتدخـلي فيما يعنيك وما لا يعنيك ، وقاعدتهم ألا ضرر من العبث بحقوق الجماعة اذا كان منه تنفيس كربة الفرد ، ومن مألوفهم أن كل من قصد انساناً في أمر يقضي عليه الظرف ألا يرده خائباً .

وعابوك انك تظهرين بمظهر الشذوذ والخشونة في الأحايين ، وتخرجين على بعض مصطلحات القوم فتكسرين قيود الرسميات ، وتبالغين برعاية من لا تجب مراعاته ، اذا تخيلت فيه ناحية اعجبتك ، فتلبسينه ثوباً اطول من قامته ، وتجملينه في عيون البعيد والقريب والبغيض والحبيب .

يانفس الحق مر والصادع به معذب ، وصاحبه أبداً هدف لطعن الطاعنين ، ومن يحاول اصلاحاً وتجديداً فهو عرضة للمصفقين والمصفرين ، ولا يكرثنك هذا فالمتمنتون ما اعتادوا أن يستجيبوا لاول صارخ يحاول زحزتهم عن عقائدهم ، ومتى هش أرباب الارواح الجامدة لمن يحاول ادخال روح جديد عليهم ؟ والناس ما خلقوا كلهم عقلاء وحكماء .

وكيف تطمعين يانفس في رضا الظالم والجاهل ، وأنت ما حلا لك غير مكافحة المستبدين والسارقين ، ومنابذة المخرقين والمضللين ، وكنت معهم بين عاملين إما اقرارهم على فسادهم فتعدين من المنافقين ، او الانكار عليهم وتحمل أذاهم فتقومين بواجب وتؤدين ديناً .

سخرت من المتجرين بالوطنية ، وانحيت على المتأكلين بالدين ، وعبثت بالواغلين على الادب ، وعبت المدجلين بالعلم ، وعند نفسك أنك لم تتحامل ولم تجامل ، وأنك انصفت من انتقدت ، وما تعمدت أذى من زيفت كلامه ، وخالفك في آرائه .

ومن يحاول تهجين المعتقدات ، والقضاء على الخرافات والترهات لا يطرب صوته كل سامع . أنت اردت العقل أن يجري طليقاً من القيود الثقيلة ، وأصحاب الاهواء حبيب اليهم الجمود على قديمهم ، والاكتفاء بما ورثوه من آبائهم وجدودهم ، وما خطر ببالهم أن يعملوا أفكارهم في اقتباس الاصلح ، ولا أن يتعبوا انفسهم في ادراك ما لم يسبق لهم معاناته .

أنت يا نفس لم تحسدي وحسدت ، ولم تشمتي وشمت بك ، ولم تؤذي وأوذيت ، وكنت تمجدين العاملين ، وتأخذين بأيدي المبتدئين ، ولا تضنين بما تعرفين ، ولا تدعين علم ما لا تعلمين . والى هذا كنت تهللين بسقوط المنافقين والمتجسسين ، وتهللين يوم يدب التمزيق في اموال جمعت ببيع المروءة وفساد الذمة .

انت ما عاديت إلا مأفون الرأي ، وما شاكست إلا زعانف الحشوية ،

وما تأففت إلا من زبانية السياسة ، واذا غلوت في القضاء على غلوائهم ، فمذرك كونك من الآدميين يجوز عليك ما يجوز عليهم من ضعف وغلط . والتيار قد يقذف بالواقف في جريته الى مخاضات لا يختارها .

كرهت بأنفس التعصب والعصبية ، وحاربت الجهل والأمية ، وفضحت مذاهب الصوفية والباطنية ، ومقت الحزبية والجمعيات السرية ، وتفانيت في الدعوة الى الاستقلال وحب القومية ، ودعوت جهرة للعرب والعربية ، وللاسلام والمدنية الغربية . خطة واسعة لو اقتصرت فيها لخف ما تحملتيه ، ولجاءت الثمرة أكثر جنىً وألذ طعماً ، ولكن من الامور ما لا تتجلى للبصائر أسراره لاول نظرة ، وللايام والبيئات حكمها ، والغيب عنك مستور.

عاشرت أجيالاً ثلاثة كان في الأول معلموك ومؤدبوك ، وفي الثاني اخوانك ومعارفك وفي الثالث المستحسنون والمستهجنون لعملك . وكان جيلك الاول خير اجيالك لما تخلله من آمال واحلام ، وبشارات بما كنت ترتجين في دنياك من استفاضة الصيت وارادة النفع .

جهدت كأن الموت لا يلاقيك وكنت كل يوم تتوقعينه ، فما قصر حسابك له من أجلك ولا زاد فيه ، وتعرضت للهلاك غير مرة فنجوت لا بحسن حيلتك بل بقضاء وقدر .

وأدركت بأخرة أن ليس في العالم امس اليوم وغداً غير التكرار ، وأن البشر في بلاء ومحنة ، فاذا خرجت من هذه الفانية وحسناتك عدل سيئاتك ، او شالت الحسنات قليلاً في ميزانك ، فقد فزت فوزاً عظيماً ، وأنت اذا لم يحقق الزمن أغراضك كلها فلست أول من أعوزته القوة وخانه التوفيق ولا اول من يرد فدفن في التراب ، فلا تسألي خالقك بعد الذي جرى لك الا العفو والعافية .

ملحق

يقول واضع هذه المذكرات : اثبت نصوص ما كتبته بالصورة التي كتبت لاول مرة لم ادخل عليها شيئاً من التعديل . واذا امتد بي الاجل اتبعت ما دونت بذيل .

وكان الشروع في كتب هذا اول شهر نشبت فيه الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) وكففت عن التدوين في أواخر حزيران سنة ١٩٤٨ والحمد لله أولاً وآخراً .

جسرين (غوطة دمشق)

فهرس الجزء الثاني من المذكرات

صفحة

٣٢٣ رؤساء الوزارات
٣٤٠ مع المندوب
٣٤٦ نكتة
٣٤٨ وقعة في مصر
٣٥٤ المصري خارج بلاده
٣٦٣ التفتيش في الريف
٣٦٦ سياستي مع المنتدبين
٣٨٨ خيالاتنا
٣٩١ اصطحاب الاغنياء
٣٩٦ اختلاف اجتهاد
٤٠٤ ذكرتني الطعن وكنت ناسياً
٤٠٨ حل الماسونية
٤١٠ دعابات
٤١٨ وطنية الامير شكيب وجهاده
٤٢٤ تمدين بلاد العرب
٤٢٩ توارد الخواطر
٤٣٣ المعارف والادارة
٤٤٤ الاغتيال السياسي
٤٥٠ هزل ومزاح
٤٥٩ هذر
٤٦٣ فقد الاعزة
٤٦٥ المصريون والسوريون
٤٦٨ بعد الفترة
٤٧١ دور جديد
٤٧٤ في مذياع القدس
٤٧٧ مفاسد الحرب
٤٨٠ الهزل
٤٢٧ استعمال العقل

صفحة

٤٨٥ المؤتمر النسائي
٤٨٦ محاضرات في المحافظات
٤٨٧ جامعة الدول العربية
٤٨٨ المعارف والاصدقاء
٤٨٩ غرائب
٤٩٠ انا والعقيدة
٤٩٣ عملية أخفقت
٤٩٥ مؤتمر المجمع اللغوي
٤٩٩ الحروف اللاتينية
٥٠٤ قصص مصرية
٥١٣ ملك بالمجان
٥١٤ افلاس عن طمع
٥١٦ انتقام إلهي
٥١٨ كفاءة وعمل
٥٢٠ عزة النفس
٥٢٤ الثورة السورية
٥٢٥ مما اتهم به
٥٢٧ جزاء مادي
٥٢٩ المجمعان العربيان
٥٣٠ الدستور السوري
٥٣١ الاخوان المسلمون
٥٣٣ عيد المعري الألفي
٥٣٦ الوضع الحاضر
٥٣٩ تدمير فرنسا بلادنا
٥٤٥ الحرب الاخيرة
٥٤٧ لانعاش مصر
٥٤٩ الاشادة بمصر
٥٥٠ الحكم على الجواسيس

صفحة
٥٥٢ تخلف المصري في التجارة
٥٥٤ عجز وكسل
٥٥٧ الفضول
٥٥٨ محافظ المسلمين
٥٦٠ مشيخة الازهر
٥٦١ حديث ذو شعب
٥٦٣ طمس الحق
٥٦٥ الدين النصيحة
٥٦٧ غلط غير مقصود
٥٦٩ متانة اخلاق
٥٧٠ عيدنا الوطني
٥٧٢ حس الواجب
٥٧٤ الكتابة الباردة
٥٧٧ الكتلة الوطنية
٥٨١ الجزازات
٥٨٣ امانة الوزراء
٥٨٥ حب المديح والظهور
٥٨٦ باشاوان في مصر
٥٨٧ خلق غريب
٥٨٨ وناء الهمم
٥٨٩ كتاب الى حبيب
٥٩٤ الدين
٥٩٦ احكام عادلة
٥٩٧ القضاء أيضاً
٥٩٨ رأي سديد
٥٩٩ غش سياسي
٦٠٠ الاسماعيليون وامامهم
٦٠١ محسنان مصريان
٦٠٢ التاريخ الهجري
٦٠٣ ادعاء الشرف

صفحة
٦٠٦ ولاة الثمانيين
٦٠٧ غش الشعراء
٦٠٩ الجنرال سبيرس
٦١٠ الدم الطاهر
٦١٢ الافراط في الكرم
٦١٣ السيد خالد العظم
٦١٤ اختيار الوزراء
٦١٥ المؤلف الشاب
٦١٦ كبار الصحافيين
٦١٧ دهاء الانكليز
٦١٨ كلمة حق
٦٢٠ مجمع فؤاد الأول
٦٢٣ شهادة ملك بملك
٦٢٤ الخزانة التيمورية
٦٢٥ الاعتراض والدعوى
٦٢٧ المدنية ابنة الغنى
٦٢٩ ذيل على اقوالنا وافعالنا
٦٣٠ سيدة القرى
٦٣٢ العمدة الصالح
٦٣٣ هامش على سيرة المشايخ
٦٣٥ النبل العملي
٦٣٦ الى شيخ الشيوخ
٦٣٨ شرقي الاردن
٦٣٩ افراط وتفريط
٦٤٠ قيد النظر
٦٤١ الشهرة الصادقة
٦٤٣ كلمة لله
٦٤٥ العدل نسبي
٦٤٧ العربية عند المسلمين
٦٤٩ في عشر الثمانين
٦٥٤ لحق

DUE DATE

FEB 15 1992
FEB 14 REC'D
JUN 17 2008
FEB 18 2013
DEC 19 2012
SEP 30 1992
FEB 15 1993
FEB 15 1993
JUN 01 1993
30 1993
GLX SEP 30 1996
GL/Rec MAY 20 1996
FEB 15 2008

201-6503
Printed in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES